الكِفايـة

في التَّفسيرِ بِالمأْثورِ والدِّراية

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء العاشر

سورة النساء، الآية[٣٧-١٤٠]

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

الرقم الدولى(ISBN):٥-٧١٥-٧٢-٩٩٥٣
الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
الناشر: دار القلم- بيروت – لبنان

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

Abdulla.khdhir@gmail.com
Abdulla. khdhir@hotmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧)} [النساء : ٣٧]

التفسير:

الذين يمتنعون عن الإنفاق والعطاء مما رزقهم الله، ويأمرون غيرهم بالبخل، ويجحدون نِعَمَ الله عليهم، ويخفون فضله وعطاءه. وأعددنا للجاحدين عذابًا مخزيًا.

في سبب نزول الآية ثلاثة وجوه:

أحدها: أخرج الطبري عن ابن عباس قال : "كان كَرْدَم بن زيد[١]، حليفُ كعب بن الأشرف ، وأسامة بن حبيب ، ونافع بن أبي نافع ، وبَحْريّ بن عمرو ، وحُيَيّ بن أخطب ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، يأتون رجالا من الأنصار ، وكانوا يخالطونهم ، ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ ، فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم ، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة ، فإنكم لا تدرون ما يكون! فأنزل الله فيهم : {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، أي : من النبوة، التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}، إلى قوله : " { **وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا**}[٢] "[٣].

والثاني: أخرج ابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير، قال: "كان علماء بني إسرائيل يبخلون بما عندهم من العلم، وينهون العلماء أن يعلموا الناس شيئا فعيرهم الله بذلك فأنزل الله تعالى: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ}، الآية"[٤].

وفي هذا السياق أخرج الطبري عن الحضرمي : "{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، قال : هم اليهود، بخلوا بما عندهم من العلم وكَتَموا ذلك"[٥]. وروي عن قتادة[٦]، ومجاهد[٧]، والسدي[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، وابن زيد[١] ومقاتل بن سليمان[٢] نحو ذلك.

---

[١]" كردم بن زيد " في سيرة ابن هشام : " كردم بن قيس " ، وهو المذكور في سيرة ابن هشام ٢ / ١٦٠ ، أيضًا أنه حليف كعب بن الأشرف ، من بني النضير. أما " كردم بن زيد " في رواية الطبري عن ابن إسحاق ، فقد ذكره ابن هشام في سيرته ٢ : ١٦٢ ، وعده من بني قريظة. هذا ، والذين ذكرهم في هذا الأثر من اليهود منسوبون في سيرة ابن هشام ، وهذه نسبتهم : " كردم بن قيس " و " حيي بن أخطب " من بني النضير و " كردم بن زيد " ، وأسامة بن حبيب ، ونافع بن أبي نافع ، من بني قريظة وبحري بن عمرو ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، من بني قينقاع.

[٢] [سورة النساء:٣٩].

[٣] تفسير الطبري(٩٥٠١):ص٨/٣٥٣، وأخرجه ابن المنذر(١٧٧١):ص٢/٧٠٦-٧٠٧، عن ابن إسحاق، ورواه ابن هشام عن ابن إسحاق في سيرته: ٢ / ٢٠٨ ، ٢٠٩.

[٤] تفسير ابن أبي حاتم(٥٣١٧):ص٣/٩٥١، وإليه عزاه في الدرّ المنثور:٢/ ٥٣٨.

[٥] تفسير الطبري(٩٤٩٤):ص٨/٣٥١-٣٥٢.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٧):ص٨/٣٥٢.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٥)، و(٩٤٩٦):ص٨/٣٥٢.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٨):ص٨/٣٥٢.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٩):ص٨/٣٥٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٣١٦):ص٣/٩٥١

والثالث: أخرج الطبري عن وابن زيد، ، قال : هؤلاء يهود. وقرأ : {وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، قال : يبخلون بما آتاهم الله من الرزق ، ويكتمون ما آتاهم الله من الكتب. إذا سئلوا عن الشيء وما أنزل الله كتموه. وقرأ : {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا}[سورة النساء : ٥٣] من بخلهم."[٣].

قال الواحدي:" وأجمعوا على أن الآية نازلة في اليهود"[٤].

والحق أن دعوى الإجماع غير مسلمة، إذ اختلف في نزولها-كما سبق بيانه- أما كونها أنها نزلت في اليهود، فهو قول الأكثرين.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ} [النساء : ٣٧]، "أي: الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق"[٥].

قال ابن عباس:" { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ} يعني: أهل الكتاب، يقول: يكتمون"[٦]، "قوله: { وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}، يقول: ويأمرون الناس بالكتمان"[٧].

وفي رواية عطاء عن ابن عباس:" ثم ذكر اليهود فقال: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}، يريد يبخلون بأموالهم عمن هو دونهم من المؤمنين في المال، وهو أكرم على الله منهم"[٨].

قال الزجاج:" يعنى به إليهود. لأنهم يبخلون بعلم ما كان عندهم من مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم –"[٩].

وفي معنى "البخل" في الآية الكريمة وجوه من التفسير:

أحدها: أنه البخل في العلم وليس للدنيا منه شيء، إذ كان علماء بني إسرائيل يبخلون بما عندهم من العلم، وينهون العلماء أن يعلموا الناس شيئا. وهذا قول سعيد بن جبير[١٠]،والحضرمي[١١]، وقتادة[١٢]، ومجاهد[١٣]، والسدي[١٤]، ومقاتل بن سليمان[١٥].

الثاني: أن البخل في المال. وهذا معنى قول ابن عباس[١٦].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(٩٥٠٠):ص٣٥٢/٨-٣٥٣.

[٢] انظر: تفسيره:٣٧٢/١.

[٣] انظر: تفسير الطبري(٩٥٠٠):ص٣٥٢/٨-٣٥٣.

[٤] التفسير البسيط:٥٠٩/٦.

[٥] صفوة التفاسير:٢٥٢.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣١٩):ص٩٥٢/٣.

[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٢٣):ص٩٥٢/٣.

[٨] ذكره الواحدي في التفسير البسيط:٥١٠/٦، لم أقف على رواية عطاء، وانظر: "الدر المنثور" ٢/ ٢٨٩.

[٩] معاني القرآن:٥١/٢.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٩):ص٣٥٢/٨، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٣١٦)، و(٥٣١٧):ص٩٥١/٣

[١١] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٤):ص٣٥١/٨-٣٥٢.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٧):ص٣٥٢/٨.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٥)، و(٩٤٩٦):ص٣٥٢/٨.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٨):ص٣٥٢/٨.

[١٥] انظر: تفسيره:٣٧٢/١.

[١٦] انظر: تفسير الطبري(٩٥٠١):ص٣٥٣/٨، ورواه ابن هشام عن ابن إسحاق في سيرته: ٢ / ٢٠٨ ، ٢٠٩، وانظر: الدر المنثور:٢٨٩/٢.

الثاني: ان البخل: أن يبخل الرجل بما في يديه. وهذا قول طاوس[١].
والثالث: إن البخيل الذي لا يؤدي حق الله من ماله. وهذا قول زيد بن أسلم[٢].
والرابع: أن البخل: إذا منع الفضل. وهذا قول ابن عيينة[٣].
والخامس: أن البخيل في الآية : الذي يبخل بما آتاه الله من الرزق، ويكتم ما آتاه الله من العلم، وهم اليهود. وهذا قول ابن زيد[٤]، والحسن[٥].

قال الواحدي:" ومعنى البُخل في كلام العرب منع الإحسان، وفي الشريعة منع الواجب"[٦].

قال الماوردي: والبخل" أن يبخل بما في يديه ، والشح أن يشح على ما في أيدي الناس يحب أن يكون له"[٧].

قال الراغب:" البخل: أعظم المعايب، لقوله - ﷺ -:
«وأي داء أدوى من البخل؟ »[٨]، وأعظم منه حث الغير عليه، وكأن الشاعر بهذه الآية ألم في قوله[٩]:

وإن امرءاً ضنَّتْ يداهُ على امرئٍ   بنيلِ يدٍ من غيرهِ لبخيلُ

وقالوا: فلان يمنع دره ودر غيره، والحر يعطي والعبد يألم قلبه، ولم يرد تعالى بالبخل: البخل بالمال فقط، بل بجميع ما منه نفع الغير، من نصرة وعلم، ودخل في عموم الأمر بالبخل: من ترك شكر من أحسن إليه، أو أخل بقضاء دين فيصير سببا لمنع الإسداء إلى الغير، ولهذا قيل: لعن الله قاطعي المعروف"[١٠].

قوله تعالى:{وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء : ٣٧]، أي:" ويجحدون نِعَمَ الله عليهم، ويخفون فضله وعطاءه"[١١].

قال الزجاج:" أي: ما أعطاهم من العلم برسالة النبي - ﷺ -"[١٢].

وفي قوله تعالى:{وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء : ٣٧]، وجوه:
أحدها: أنهم أهل الكتاب كتموا محمدا وما أنزل عليه. قاله الضحاك[١٣]، وروي عن السدي[١٤] نحو ذلك.

---

[١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣١٨):ص٣/٩٥١.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٢٢):ص٣/٩٥١.
[٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٢٣):ص٣/٩٥١.
[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٥٠٠):ص٨/٣٥٢-٣٥٣.
[٥] انظر: تفسير ابن أبي زمنين:١/٣٧٢.
[٦] التفسير البسيط:٦/٥٠٩.
[٧] النكت والعيون:١/٤٨٧.
[٨]أخرجه البخاري، في "الأدب المفرد" (٢٩٦).
[٩]لأبى تمام، في ديوان المعاني:١/١٦٢،ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء:١/٦٩٧، ونهاية الإرب:٣/٩٦، وقيل للبحترى.
[١٠] تفسير الراغب الأصفهاني:٣/١٢٣٦.
[١١] التفسير الميسر:٨٤.
[١٢] معاني القرآن:٢/٥١.
[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٣٢٥):ص٣/٩٥٢.
[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٣٢٥):ص٣/٩٥٢.

والثاني:أنهم كتموا الإسلام ومحمدا ﷺ. وهم { **يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**}. قاله قتادة[1].

والثالث: أن المراد: النبوة التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ. وهذا قول عكرمة[2]، ومحمد بن إسحاق[3].

قال الواحدي:" الفضل ههنا هو ما أوتوا من العلم، برسالة النبي - ﷺ -، وهذا قول عامة المفسرين"[4].

قال الراغب:" يدخل فيه[5] من يستحقر ما آتاه الله من نعمته مالا كان أو عافية، ومن خول علما ولم يفده مقتبسه منه، ومن ينسى كثير ما أنعم الله عليه ويتذكر قليل ما يناله من نائبة، كقوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} [العاديات : ٦]، قيل في تفسيره: ينسى النعم ويذكر المحن"[6].

قوله تعالى:{وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء : ٣٧]، أي:" وأعددنا للجاحدين عذابًا مخزيًا"[7].

قال مجاهد: {وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}، نزلت في اليهود"[8].

قال الزجاج:" أي جعلنا ذلك عتادا لهم، أو مثبتا لهم. فجائز أن يكون موضع الذين نصبا على البدل، والمعنى: إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا، أي لا يحب الذين يبخلون، وجائز أن يكون رفعه على الابتداء، ويكون الخبر: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [النساء : ٤٠]، ويكون :{وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ} [النساء : ٣٨]، عطفا على: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ}، في النصب والرفع، وهؤلاء يعنى بهم المنافقون، كانوا يظهرون الإيمان ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر"[9].

قال الراغب:" ونبه بقوله: {وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ }، أن من فعل ذلك فهوكافر للنعمة، ومن كفر نعمة الله فقد أعد له عذابا"[10].

الفوائد:

١-حرمة الاختيال والفخر والبخل والأمر بالبخل.

٢- بيان إفضال الله وإنعامه على الناس بإرسال الرسل وإنزال الكتب والميزان وإنزال الحديد بما فيه منافع للناس وبأس شديد.

القرآن

{وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)} [النساء : ٣٨]

التفسير:

---

[1] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٣٢٦):ص٣/٩٥٢.

[2] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٣٢٧):ص٣/٩٥٢.

[3] انظر: تفسير ابن المنذر(١٧٧٢):ص٢/٧٠٨.

[4] التفسير البسيط:٦/٥١١.

[5] أي في قوله: {وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء : ٣٧].

[6] تفسير الراغب الأصفهاني:٣/١٢٣٧.

[7] التفسير الميسر:٨٤.

[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٢٨):ص٣/٩٥٣ .

[9] معاني القرآن:٢/٥١.

[10] تفسير الراغب الأصفهاني:٣/١٢٣٧-١٢٣٨.

وأعتدنا هذا العذاب كذلك للذين ينفقون أموالهم رياءً وسمعةً، ولا يصدقون بالله اعتقادًا وعملا ولا بيوم القيامة. وهذه الأعمال السيئة مما يدعو إليها الشيطان. ومن يكن الشيطان له ملازمًا فبئس الملازم والقرين.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ} [النساء : ٣٨]، أي: والذين ينفقون أموالهم "للفخار والشهرة لا ابتغاء وجه الله"[١].

قال الطبري:" يعني : ينفقه مُراءاة الناس ، في غير طاعة الله أو غير سبيله ، ولكن في سبيل الشيطان"[٢].

قال الزمخشري:" رئاء الناس للفخار، وليقال: ما أسخاهم وما أجودهم، لا ابتغاء وجه الله"[٣].

وفي المعنيين في قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ} [النساء : ٣٨]، أربعة أقوال:

أحدها : أنهم اليهود ، وهو قول مجاهد[٤]، ومقاتل [٥].

ضعّفه الطبري، لأنه نفى عن هذه الصفة الإيمان بالله واليوم الآخر، واليهود ليسوا كذلك[٦].

والثاني : هم المنافقون ، وهو قول السدي[٧]، واختيار الزجاج[٨]، والواحدي[٩].

ويقويه:" ذكر الرياء ههنا، وهو ضرب من النفاق"[١٠].

والثالث: أنهم اليهود والنصارى. قاله إبراهيم النخعي[١١].

والرابع: وقيل: في مشركي مكة المتفقين على عداوة رسول الله ﷺ[١٢].

قال ابن عطية:" وقول مجاهد متجه على المبالغة والإلزام، إذا إيمانهم باليوم الآخر كلا إيمان، من حيث لا ينفعهم، وقال الجمهور: نزلت في المنافقين، وهذا هو الصحيح، وإنفاقهم: هو ما كانوا يعطون من زكاة، وينفقون في السفر مع رسول الله ﷺ، «رياء» ودفعا عن أنفسهم، لا إيمانا بالله، ولا حبا في دينه"[١٣].

قوله تعالى:{وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء : ٣٨]،أي:" ولا يصدقون بالله اعتقادًا وعملا ولا بيوم القيامة"[١٤].

---

[١] صفوة التفاسير:٢٥٢.

[٢] تفسير الطبري:٣٥٦/٨.

[٣] الكشاف:٥١١/١.

[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٤٩٥):٣٥٢/٨، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٣٢٩):ص٩٥٣/٣.

[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٢/١.

[٦] انظر: تفسيره:٣٥٦/٨-٣٥٧.

[٧] انظر: تفسير الثعلبي:٣٠٧/٣، ومعالم التنزيل: ٢/ ٢١٤، زاد المسير: ٢/ ٨٣.

[٨] انظر: معاني القرآن:٥١/٢.

[٩] انظر: التفسير البسيط:٥١١/٦.

[١٠] التفسير البسيط:٥١١/٦.

[١١] انظر: تفسير السمعاني:٤٢٨/١.

[١٢] انظر تفسير الثعلبي:٣٠٧/٣، ومعالم التنزيل: ٢/ ٢١٤، زاد المسير: ٢/ ٨٣، والتفسير البسيط للواحدي:٥١١/٦.

[١٣] المحرر الوجيز:٥٢/٢.

[١٤] التفسير الميسر:٨٥.

قال مقاتل:" يقول: لا يصدقون بالله أنه واحد لا شريك له، ولا يصدقون بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال، بأنه كائن"[١].

قال الطبري:أي:" ولا يصدقون بوحدانية الله ، ولا بالمَعَاد إليه يوم القيامة - الذي فيه جزاء الأعمال - أنه كائن"[٢].

قال الزجاج:" وهؤلا يعنى بهم المنافقون، كانوا يظهرون الإيمان ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر"[٣].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا} [النساء : ٣٨]، " أي: ومن كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره فساء هذا القرين والصاحب"[٤].

قال الزجاج:" أي: من يكن عمله بما يسول له الشيطان فبئس العمل عمله"[٥].

قال الطبري:أي:" ومن يكن الشيطان له خليلا وصاحبًا ، يعمل بطاعته ، ويتبع أمره ، ويترك أمرَ الله في إنفاقه ماله رئاء الناس في غير طاعته ، وجحوده وحدانية الله والبعث بعد الممات " فساء قرينًا " ، يقول : فساء الشيطان قرينًا"[٦].

قال الثعلبي:" قال المفسرون: {فساء قرينا}، أي: يقول: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين"[٧].

قال الراغب:" ولم يعن بالشيطان إبليس فقط، بل عناه والهوى، وكل ما دعاه إلى باطل، وصرفه عن حق"[٨].

قال الماوردي:" القرين: هو الصاحب الموافق ، كما قال عدي بن زيد[٩]:

عنِ الْمَرْءِ لا تَسْأَلْ ، وأبْصِرْ قَرِينَهُ　　　فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالمُقَارِنِ مُقْتَدِ

وأصل القرين من الأقران ، والقِرن بالكسر المماثل لأقرانه في الصفة ، والقَرْن بالفتح : أهل العصر لاقترانهم في الزمان ، ومنه قَرْن البهيمة لاقترانه بمثله "[١٠].

وفي المراد يكون قريناً للشيطان قولان:

أحدهما : أنه مصاحبُ في أفعاله، والمعنى: ومن يكن عمله بما يُسول له الشيطان فبئس العمل عمله. وهذا قول الزجاج[١١].

والثاني : أن الشيطان يقترن به في النار، أيي: في الآخرة، يجعل الله الشياطين قرنائهم في النار، يقرن مع كل كافر شيطان في سلاسل النار. وهذا قول الكلبي[١٢].

قال الزمخشري:" ويجوز أن يكون وعيدا لهم بأن الشيطان يقرن بهم في النار"[١].

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٢/١.

[٢] تفسير الطبري:٣٥٦/٨.

[٣] معاني القرآن:٥١/٢.

[٤] صفوة التفاسير:٢٥٢.

[٥] معاني القرآن:٥١/٢.

(٦)تفسير الطبري:٣٥٨/٨

[٧] تفسير الثعلبي:٣٠٧/٣.

[٨] تفسير الراغب الأصفهاني:١٢٣٩/٣.

[٩]ديوانه ، في شعراء الجاهلية : ٤٦٦ ، ومجموعة المعاني : ١٤ ، وغيرهما كثير.

[١٠] النكت والعيون:٤٨٧/١

[١١] انظر: معاني القرآن:٥١/٢.

[١٢] انظر: انظر: بحر العلوم: ١/ ٣٥٤، وزاد المسير: ٢/ ٨٣، وتنوير المقباس بهامش المصحف ص ٨٥، والتفسير البسيط للواحدي:٥١٢/٦.

قال ابن عطية:" و «القرين» : فعيل، بمعنى فاعل، من المقارنة وهي الملازمة والاصطحاب، وهي هاهنا مقارنة مع خلطة وتواد، والإنسان كله يقارنه الشيطان، لكن الموفق عاص له، ومنه قيل لما يلزمان الإبل والبقر قرينان، وقيل للحبل الذي يشدان به: قرن، قال الشاعر[٢]:

كمدخل رأسه لم يدنه أحد بين القرينين حتى لزّه القرن

فالمعنى: ومن يكن الشيطان له مصاحبا وملازما، أو شك أن يطيعه فتسوء عاقبته"[٣].

قال الراغب:" ذم في هذه الآية السرف، كما ذم في الأولى البخل، فمن السرف أن يتشبع الإنسان بإنفاقه، فلا ينفقه على ما يجب، وكما يجب فصار الإتيان كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان : ٦٧] ، وليس يعني بقوله: {ولا يؤمنون بالله} جحود ذلك باللسان فقط، بل عنى معه ترك ما تقتضيه هذه المعرفة، تنبيها أن المنفق رياء لو كان له حقيقة إيمان لتذكر في تناول ما يتناوله، ولأداه ذلك إلى أن يتفكر أين يضعه"[٤].

الفوائد:

١- تضمنت الإنكار والتوبيخ لأولئك المنافقين الذين ينفقون رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر بسب فتنة الشيطان لهم وملازمته إياهم.

٢- فكما أن من بخل بما آتاه الله، وكتم ما من به الله عليه عاص آثم مخالف لربه، فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله فإنه آثم عاص لربه مستوجب للعقوبة، لأن الله إنما أمر بطاعته وامتثال أمره على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب[٥].

٣-أن الإيمان بالله و باليوم الآخر هو الذي يمنع المرء من الرياء[٦].

القرآن

{وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)} [النساء : ٣٩]

التفسير:

وأيُّ ضرر يلحقهم لو صدَّقوا بالله واليوم الآخر اعتقادًا وعملا وأنفقوا مما أعطاهم الله باحتساب وإخلاص، والله تعالى عليم بهم وبما يعملون، وسيحاسبهم على ذلك.

قوله تعالى: {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ} [النساء : ٣٩]، "أي: ماذا يضيرهم وأي تبعةٍ وبالٍ عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله؟"[٧].

نقل الواحدي عن ابن عباس في قوله { لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، قال:" يريد بنية صادقة، يصدِّق القلبُ اللسان، ويصدق اللسانُ القلب"[٨].

قال الشوكاني:" أي: وماذا يكون عليهم من ضرر لو فعلوا ذلك"[٩].

---

[١] الكشاف:٥١١/١.

[٢] البيت لقعنب بن أم صاحب في الممتع في صنعة الشعر:٢٨٧، والصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي:٢٢٠، والبيت غير منسوب في المحرر الوجيز:٥٣/٢، والبحر المحيط في التفسير:٦٠٩/٣.

[٣] المحرر الوجيز:٥٣/٢.

[٤] تفسير الراغب الأصفهاني:١٢٣٨/٣-١٢٣٩.

[٥] تفسير السعدي:١٧٨.

[٦] انظر: أركان الإيمان، علي بن نايف:٢٠٤.

[٧] صفوة التفاسير:٢٥٢.

[٨] التفسير البسيط:٥١٣/٦، ولم اقف عليه..

[٩] فتح القدير:٥٣٨/١.

قال ابن أبي زمنين:" {وأنفقوا مما رزقهم الله} يعني: الزكاة الواجبة، قوله {وماذا عليهم} المعنى: أي شيء عليهم؟"[١].

قال الزجاج:"المعنى: وما الذي عليهم {لوآمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله}، هذا يدل على أن الذين يبخلون {يبخلون} بما علموا"[٢].

قال النسفي:" المراد الذم والتوبيخ وإلا فكل منفعة ومصلحة فى ذلك وهذا كما يقال للعاق وما فرك لو كنت باراً وقد علم أنه لا مضرة في البر ولكنه ذم وتوبيخ"[٣].

قال ابن كثير:" أي : وأيّ شيء يَكرثُهم لو سلكوا الطريق الحميدة ، وعَدَلُوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله ، ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملا وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها"[٤].

قال الزمخشري:"أي: وأى تبعة ووبال عليهم في الايمان والإنفاق في سبيل الله والمراد الذم والتوبيخ. وإلا فكل منفعة ومفلحة في ذلك. وهذا كما يقال للمنتقم: ما ضرك لو عفوت. وللعاق: ما كان يرزؤك لو كنت بارا، وقد علم أنه لا مضرة ولا مرزأة في العفو والبر. ولكنه ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة"[٥].

قال البيضاوي:" أي: وما الذي عليهم، أو أي تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة. وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطا، فكيف إذا تضمن المنافع. وإنما قدم الإيمان هاهنا وأخره في الآية الأخرى لأن القصد بذكره إلى التخصيص هاهنا والتعليل"[٦].

قال الواحدي:" هذا احتجاج على هؤلاء الذين ذكرهم الله بأنهم لا يؤمنون بالله، والمعنى أن الإنسان يُحاسب نفسه فيما عليه وله، فإذا ظهر له ما عليه في فعل شيء من استحقاق العقاب، وما له في تركه من استحقاق الثواب عمل على ذلك في تركه والانصراف عنه، ومعنى الآية كأن الله تعالى يقول: ليتفكروا ولينظروا ماذا عليهم في الإيمان لو آمنوا؟ وهو استفهام في معنى الإنكار"[٧].

قال البغوي:" أي: لا يبخس ولا ينقص أحدا من ثواب عمله مثقال ذرة، وزن ذرة، والذرة: هي النملة الحمراء الصغيرة، وقيل: الذر أجزاء الهباء في الكوة وكل جزء منها ذرة ولا يكون لها وزن، وهذا مثل، يريد: إن الله لا يظلم شيئا، كما قال في آية أخرى: {إن الله لا يظلم الناس شيئا} [يونس ٤٤]"[٨].

قال القشيري:" ليس فى إيمانهم بالله عليهم مشقة، بل لو آمنوا لوصلوا إلى عزّ الدنيا والآخرة، ولا يحملهم على الإعراض عنه إلا قلة الوفاء والحرمة"[٩].

---

[١] تفسير ابن أبي زمنين:٣٧٣/١.

[٢] معاني القرآن:٥٢/٢.

[٣] تفسير النسفي:٣٥٨/١.

[٤] تفسير ابن كثير:٣٠٤/٢.

[٥] الكشاف:٥١١/١.

[٦] تفسير البيضاوي:٧٤/٢.

[٧] التفسير البسيط:٥١٣/٦.

[٨] تفسير البغوي:٢١٥/٢.

[٩] تفسير القشيري:٣٣٤/١.

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا} [النساء : ٣٩]، أي:" والله تعالى عليم بهم وبما يعملون، وسيحاسبهم على ذلك"[١].

قال ابن أبي زمنين:" أي: عليما بأنهم مشركون"[٢].

قال مقاتل: "أنهم لن يؤمنوا"[٣].

قال الواحدي:" لا ينفعهم ما ينفقونه على جهة الرياء؛ لأن الله بهم عليم مجاز لهم بما يسرون من قليل أو كثير"[٤].

قال البيضاوي:" وعيد لهم"[٥].

قال ابن كثير:" أي : وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة ، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه رشده ويقيضه لعمل صالح يرضى به عنه ، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم الإلهي ، الذي مَنْ طُرِدَ عن بابه فقد خاب وخَسِرَ في الدنيا والآخرة ، عياذا بالله من ذلك بلطفه الجزيل"[٦].

الفوائد:

١- تضمنت الآية الكريمة: الإنكار والتوبيخ لأولئك المنافقين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

٢-إهتمام القرآن الكريم بالدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر غاية الاهتمام، وجمع بين الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر في كثير من الآيات، من ذلك قوله تعالى: {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}.

٣- فضيلة الإنفاق في سبيل الله.

٤-لما كان الإخلاص سرا بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: {وكان الله بهم عليما}.

٥- وفي الخطاب في الآية دعوة ربانية لهم لتصحيح إيمانهم واستقامتهم بالخروج من دائرة النفاق التي أوقعهم فيها القرين عليه لعائن الله، فلذا لم يذكر تعالى وعيداً لهم، وإنما قال: {وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً}، وفي هذه تخويف لهم من سوء حالهم إذا استمروا على نفاقهم فإن علم الله بهم يستوجب الضرب على أيديهم إن لم يتوبوا.

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)} [النساء : ٤٠]

التفسير:

إن الله تعالى لا ينقص أحدًا من جزاء عمله مقدار ذرة، وإن تكن زنة الذرة حسنة فإنه سبحانه يزيدها ويكثرها لصاحبها، ويتفضل عليه بالمزيد، فيعطيه من عنده ثوابًا كبيرًا هو الجنة.

في سبب نزول الآية:

أخرج الطبري وسعيد بن منصور[٧]، وابن المنذر[١]، وابن أبي حاتم[٢]، والطبراني[٣]، عن عبد عبد الله بن عمير قال : "نزلت هذه الآية ، في الأعراب:{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}

---

[١] التفسير الميسر:٨٥.

[٢] تفسير ابن أبي زمنين:٣٧٣/١.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٣/١.

[٤] التفسير البسيط:٥١٤/٦.

[٥] تفسير البيضاوي:٧٤/٢.

[٦] تفسير ابن كثير:٣٠٤/٢.

[٧]انظر :الدر المنثور:٢/ ٥٣٩-٥٤٠..

[سورة الأنعام : ٦٠] قال : فقال رجل : فما للمهاجرين ؟ قال ، ما هو أعظم من ذلك : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}، وإذا قال الله لشيء : «عظيم»، فهو عظيم"[٤].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [النساء : ٤٠]، أي: إن الله " لا يبخس أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة"[٥].

قال قتادة:" لأنْ تفضُل حسناتي في سيئاتي بمثقال ذرّة ، أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها"[٦]، وفي رواية أخرى:" كان بعض أهل العلم يقول : لأنْ تفضُل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذَرّة أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا جميعًا"[٧].

قال ابن عباس:" {مثقال ذرة }، قال : رأس نَملة حَمراء"[٨]. وفي رواية اخرى:" أنه أدخل يده في التراب فرفعه ثم نفخ فيه فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة"[٩].

قال الزمخشري:" الذرة: النملة الصغيرة... وفيه دليل على أنه لو نقص من الأجر أدنى شيء وأصغره، أو زاده في العقاب لكان ظلما، وأنه لا يفعله لاستحالته في الحكمة لا لاستحالته في القدرةوفي قراءة عبد الله: مثقال نملة"[١٠]. "[١١].

قال السدي:" وزن ذرة "[١٢].

قال أبو عبيدة:" عبيدة: " {مثقال ذرة} ، أي: زنة ذرة "[١٣].

قال يزيد بن هارون : "زعموا أن هذه الذرّة الحمراء ، ليس لها وزن"[١٤].

وقيل: "كل جزء من أجزاء الهباء في الكوة ذرة"[١٥].

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة"، قال: "وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا"[١٦].

---

[١] تفسير ابن المنذر(١٧٧٧):ص٢/٧١٠.

[٢] تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٣٨):ص٣/٩٥٥.

[٣]انظر :الدر المنثور:٢/ ٥٣٩-٥٤٠..

[٤] تفسير الطبري(٩٥١١):ص٨/٣٦٧.

[٥] صفوة التفاسير:٢٥٣.

[٦] أخرجه الطبري(٩٥٠٢):ص٨/٣٦٠.

[٧] أخرجه الطبري(٩٥٠٣):ص٨/٣٦٠.

[٨] أخرجه الطبري(٩٥٠٤):ص٨/٣٦٠.

[٩] الكشاف:١/٥١١.

[١٠] الكشاف:١/٥١١.

[١١] الكشاف:١/٥١١.

[١٢] أخرجه ابن المنذر(١٧٧٨):ص٢/٧١٠.

[١٣] أخرجه ابن المنذر(١٧٧٩):ص٢/٧١١.

[١٤] تفسير الطبري:٨/٣٦٠-٣٦١.

[١٥] الكشاف:١/٥١١.

[١٦]أخرجه مسلم في صفات المنافقين - باب جزاء المؤمن بحسناته. برقم (٢٨٠٨) : ٤ / ٢١٦٢، والمصنف في شرح السنة: ١٤ / ٣١٠.

يؤخذ بيد العبد والأمة يومَ القيامة ، فينادي منادٍ على رؤوس الأولين والآخرين : " هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه " ، فتفرح المرأة أنْ يَذُوب لها الحق على أبيها ، أو على ابنها ، أو على أخيها ، أو على زوجها ، ثم قرأ ابن مسعود : {فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ }[سورة المؤمنون : ١٠١] ، فيغفر الله تبارك وتعالى من حقه ما شاء ، ولا يغفر من حقوق الناس شيئًا ، فينصبُ للناس فيقول : " ائتوا إلى الناس حقوقهم " ! فيقول : " رب فنيت الدنيا ، من أين أوتيهم حقوقهم ؟ فيقول : " خذوا من أعماله الصالحة ، فأعطوا كل ذي حقّ حقه بقدر مَظْلمته " . فإن كان وليًّا لله ، ففضل له مثقال ذرّة ، ضاعفها له حتى يُدخله بها الجنة ثمّ قرأ علينا : {إنّ الله لا يظلم مثقال ذرة }، وإن كان عبدًا شقيًّا ، قال الملك : " رب فنيت حسناته ، وبقي طالبون كثير " ! فيقول : " خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ، ثم صُكُّوا له صكًّا إلى النار" [1].

وبذلك فإن في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [النساء : ٤٠]، وجهان [2]:
.[2]

أحدهما: معناه: فَإن الله لا يبخس أحدًا من خلقه أنفق في سبيله مما رزقه، من ثواب نفقته في الدنيا ، ولا من أجرها يوم القيامة ما يزن مثقال ذرة ويكون على قدر ثِقَلها في الوزن. ، ولكنه يجازيه به ويُثيبه عليه. وهذا معنى قول قتادة"[3].

والثاني: ان معناه: " إن الله لا يظلم عبدًا وجب له مثقال ذَرّة قِبَل عبد له آخر في مَعاده ويوم لقائه فما فوقه، فيتركه عليه فلا يأخذه للمظلوم من ظالمه ، ولكنه يأخذه منه له ، ويأخذ من كل ظالم لكل مظلوم تَبِعَتَهُ قِبَله. وهذا معنى قول ابن مسعود[4].

واختار الطبري القول الأول وهو قول قتادة، ثم قال:" ولكلا التأويلين وجه مفهوم، وإنما اخترنا التأويل الأول ، لموافقته الأثرَ عن رسول الله ﷺ ، مع دلالة ظاهر التنزيل على صحته ، إذ كان في سياق الآية التي قبلها ، التي حث الله فيها على النفقة في طاعته ، وذمِ النفقة في طاعة الشيطان. ثم وَصَل ذلك بما وعدَ المنافقين في طاعته بقوله : " إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا " [5].

قوله تعالى:{وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا} [النساء : ٤٠]، "أي: وإن كانت تلك الذرة حسنة ينمّها ويجعلها أضعافاً كثيرة"[6].

قال الضحاك:" إذا لم يجد له إلا حسنة أدخله بها الجنة"[7].

قال سعيد بن جبير:"{ وإن تك حسنة}، وزن ذرة زادت على سيئاته تضاعفها"[8]، وفي رواية أخرى:"فأما المشرك يخفف به عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبدا"[9].

قال أبو عبيدة: " {يضاعفها} ، أضعافا، ويضعفها ضعفين "[10].

---

[1] أخرجه الطبري(٩٥٠٩):ص٨/٣٦٢، وانظر: تفسيره(٩٥٠٨):ص٨/٣٦٢-٣٦٣

[2] انظر: تفسير الطبري:٨/٣٦٠.

[3]انظر: تفسير الطبري(٩٥٠٣):ص٨/٣٦٠.

[4] انظر: تفسير الطبري(٩٥٠٨)، و(٩٥٠٩):ص٨/٣٦٢-٣٦٣.

[5] تفسير الطبري:٨/٣٦٥.

[6] صفوة التفاسير:٢٥٣.

[7] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٣٤):ص٣/٩٥٤.

[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٣٣):ص٣/٩٥٤.

[9] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٣٦):ص٣/٩٥٤.

[10] أخرجه ابن المنذر(١٧٨١):ص٢/٧١١.

قال الزمخشري:أي:" يضاعف ثوابها لاستحقاقها عنده الثواب في كل وقت من الأوقات المستقبلة غير المتناهية"[1].

قرأ ابن كثير ونافع {وإن تك حسنة} رفعا، وقرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي حسنة نصبا، وقرأ ابن كثير وابن عامر :{يضعفها }، مشددة، وقرأ الباقون {يضاعفها} بألف خفيفة[2].

قوله تعالى:{وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء : ٤٠]، "أي: ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً"[3].

قال ابن مسعود:"أي : الجنة يعطيها"[4].

قال سعيد بن جبير: "جزاء وافرا في الجنة"[5].

وفي رواية أخرى عن ابن جبير: " الأجرُ العظيم ، الجنة"[6]، وروي عن أبي هريرة[7]، والحسن[8]، وعكرمة[9]، والضحاك[10]، وقتادة[11]، والسدي[12]، وابن زيد[13] نحو نحو ذلك.

قال الزمخشري:أي:" ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل عطاء عظيما وسماه (أجرا) لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته"[14].

قال ابن عمر: "نزلت هذه الآية: {وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}، بعد الأضعاف، وإذا قال لشيء: عظيم، فهو عظيم"[15].

واختلف أهل التفسير في الذين وعدهم الله بهذه الآية ما وعدهم فيها، على قولين:

أحدهما: أنهم جميع أهل الإيمان بالله وبمحمد ﷺ. قال أبو عثمان النهدي: "لقيت أبا هريرة فقلت له : إنه بلغني أنك تقول : إن الحسنة لتُضَاعف ألفَ ألف حسنة! قال : وما أعجبك من ذلك ؟ فوالله لقد سمعته يعني النبي ﷺ يقول : إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة!"[16].

والثاني: ان ذلك خاص بالمهاجرون، دون أهل البوادي والأعراب. وهذا قول عبدالله بن عمير[1].

---

[1] الكشاف:٥١٢/١.

[2] انظر: السبعة:٢٣٣.

[3] صفوة التفاسير:٢٥٣.

[4] أخرجه الطبري(٩٥١٢):ص٣٦٨/٨.

[5] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٣٤٠):ص٩٥٦/٣.

[6] أخرجه الطبري(٩٥١٣):ص٣٦٨/٨.

[7] انظر: تفسير ابن المنذر(١٧٨٢):ص٧١١/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٣٣٧):ص٩٥٥/٣.

[8] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٣٧):ص٩٥٥/٣.

[9] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٣٧):ص٩٥٥/٣.

[10] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٣٧):ص٩٥٥/٣.

[11] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٣٧):ص٩٥٥/٣.

[12] انظر: تفسير ابن المنذر(١٧٨٣):ص٧١١/٢-٧١٢.

[13] انظر: تفسير الطبري(٩٥١٤):ص٣٦٨/٨.

[14] الكشاف:٥١٢/١.

[15] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٣٣٩):ص٩٥٥/٣.

[16] أخرجه الطبري(٩٥١٠):ص٣٦٦/٨.

واختار الطبري القول الثاني: وقال:" : وأولى القولين في ذلك بالصواب ، قولُ من قال : " عُنى بهذه الآية المهاجرون دون الأعراب " ، وذلك أنه غير جائز أن يكون في أخبار الله أو أخبار رسوله ﷺ شيء يدفع بعضه بعضًا. فإذْ كان صحيحًا وعْدُ الله من جاء من عباده المؤمنين بالحسنة من الجزاء عشرَ أمثالها ، وَمنْ جاء بالحسنة منهم أن يضاعفها له وكان الخبرَان اللذان ذكرناهما عنه ﷺ صحيحين كان غيرَ جائز إلا أن يكون أحدُهما مجملا والآخر مفسَّرًا ، إذ كانت أخبارُه ﷺ يصدِّق بعضها بعضًا. وإذ كان ذلك كذلك ، صحّ أن خبرَ أبي هريرة معناهُ أنّ الحسنة لَتُضاعف للمهاجرين من أهل الإيمان ألفي ألفُ حسنة ، وللأعراب منهم عشر أمثالها ، على ما رَوَى ابن عمر عن النبي ﷺ وأن قوله :{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا }، يعني : من جاء بالحسنة من أعراب المؤمنين فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالحسنة من مهاجريهم يُضاعف له ويؤته الله من لدنه أجرًا يعني يعطه من عنده {أجرًا عظيمًا}، يعني : عِوَضًا من حسنته عظيمًا ، وذلك " العوض العظيم "[٢].

الفوائد:

١- بيان عدالة الله تعالى، إذ يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير فقال: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة}.

٢-تنزه الله جل وعلا عن الظلم، ويعتقد السلف أن الله عزوجل له القدرة المطلقة والسيادة المطلقة، وأنه جل وعلا منزه عن الظلم، فقد حرم الظلم على نفسه مع قدرته جل وعلا على كل شيء[٣].

٣-بيان رحمته تعالى ومزيد فضله.

القرآن

{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)} [النساء : ٤١]

التفسير:

فكيف يكون حال الناس يوم القيامة، إذا جاء الله من كل أمة برسولها ليشهد عليها بما عملت، وجاء بك -أيها الرسول- لتكون شهيدًا على أمتك أنك بلغتهم رسالة ربِّك؟

قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ} [النساء : ٤١]، أي:" فكيف يكون حال الناس يوم القيامة، إذا جاء الله من كل أمة برسولها ليشهد عليها بما عملت"[٤].

قال مقاتل:" ثم خوفهم، فقال- تعالى-: فكيف بهم إذا جئنا من كل أمة بشهيد، يعني: نبيهم وهو شاهد عليهم بتبليغ الرسالة إليهم من ربهم"[٥].

قال الزجاج:" أي: فكيف تكون حال هؤلاء يوم القيامة، وحذف " تكون حالهم "، لأن في الكلام دليلا على ما حذف، و {كيف} لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها معنى التوبيخ"[٦].

قال البغوي:" أي: فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أمة بشهيد، يعني: نبي، يشهد عليهم بما عملوا"[٧].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(٩٥١١):ص٣٦٧/٨.

[٢] تفسير الطبري:٣٦٧/٨-٣٦٨.

[٣] انظر: الانتصار، ابن أبي الخير:٥٥/١.

[٤]التفسير الميسر:٨٥.

[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٣/١.

[٦] معاني القرآن:٥٣/٢.

[٧] تفسير البغوي:٦٢٤/١.

قال الزمخشري:أي:" فكيف يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم إذا جئنا من كل أمة بشهيد يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم، كقوله: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ} [المائدة : ١١٧]"[١].

قال الضحاك:" كل أمة بنبيها"[٢].

قال قتادة:" وشاهدها نبوتها من كل أمة"[٣].

قال ابن جريج:" رسولها ، فيشهد عليها أن قد أبلغهم ما أرسله الله به إليهم "[٤].

قال ابن عباس:" الشاهد نبي الله، قال الله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}"[٥].

قال السمعاني:" معناه: فكيف الحال إذا جئنا من كل أمة بشهيد؟ وأراد بالشهيد من كل أمة نبيها، وشهيد هذه الأمة: نبينا، وأختلفوا على أن شهادتهم على ماذا؟ منهم من قال: يشهدون على تبليغ الرسالة، ومنهم من قال: يشهدون على الأمة بالأعمال"[٦].

قال الفراء:" إن كل نبي يأتي يوم القيامة فيقول: بلغت، فتقول أمته: لا، فيكذبون الأنبياء، ثم يجاء بأمة محمد ﷺ فيصدقون الأنبياء ونبيهم ، ثم يأتي النبي ﷺ فيصدق أمته، فذلك قوله تبارك وتعالى: لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا، ومنه قول الله: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد [وجئنا بك على هؤلاء شهيدا]}"[٧].

قال سهل التستري:" إن الله تعالى وكل بكل عبد مسلم ثلاثمائة وستين ملكا بعدد عروقه، إن أراد خيرا أعانوه، وإن أراد شرا عاتبوه عليه، فإن عمل شيئا من ذلك حفظوه عليه، حتى إذا كان يوم القيامة عرضوه عليه ووافقوه على ذلك، حتى إذا صاروا إلى الله تعالى شهدوا عليه بوفاء الطاعة واقتراف الخطيئة، قال الله تعالى: {وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد}[ق:٢١]"[٨].

قوله تعالى:{وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء : ٤١]، أي:" وجاء بك -أيها الرسول- لتكون شهيدًا على أمتك أنك بلغتهم رسالة ربِّك؟"[٩].

قال مقاتل:" يعني: كفار أمة محمد- ﷺ- بتبليغ الرسالة"[١٠].

قال الزجاج:" أي: نأتي بكل نبي أمة يشهد عليها ولها"[١١].

قال ابن جريج:" {وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}، قال : كان النبي ﷺ إذا أتَى عليها فاضت عيناه"[١٢].

---

[١] الكشاف:١/٥١٢.

[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٣٤١):ص٣/٩٥٦.

[٣] أخرجه ابن المنذر(١٧٨٥):ص٢/٧١٢.

[٤] أخرجه الطبري(٩٥١٦):ص٨/٣٦٩.وفي رواية ابن المنذر(١٧٨٦):ص٢/٧١٣:" برسول يشهد عليها أنه قد أبلغهم ما أرسله الله به إليهم ".

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٣٤٢):ص٣/٩٥٦.

[٦] تفسير السمعاني:١/٤٢٨.

[٧] معاني القرآن:١/٨٣.

[٨] تفسير التستري:٥٣.

[٩]التفسير الميسر:٨٥.

[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٧٣.

[١١] معاني القرآن:٢/٥٤.

[١٢] أخرجه الطبري(٩٥١٦):ص٨/٣٦٩.

وعن عكرمة:" في قوله :{وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}[سورة البروج : ٣] ، قال : الشاهد محمد ، والمشهود يوم الجمعة. فذلك قوله : " {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}"[١].

عن المسعودي ، عن القاسم : "أنّ النبي ﷺ قال لابن مسعود : اقرأ علي. قال ، أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري. قال : فقرأ ابن مسعود «النساء» حتى بلغ : {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا }، قال : استعبر النبي ﷺ ، وكفّ ابن مسعود، قال المسعودي ، فحدثني جعفر بن عمرو بن حريث ، عن أبيه : أن النبي ﷺ قال : « شهيدًا عليهم ما دمت فيهم ، فإذا توفيتني كنت أنت الرقيبَ عليهم ، وأنتَ على كل شيء شهيد»" [٢].

واخرج ابن أبي حاتم عن زر، قال: "قال عبد الله: قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ، فافتتحت «النساء» حتى إذا انتهيت إلى قول الله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}، قال: فدمعت عيناه وقال: «حسبنا»"[٣].

وروي عن يونس بن محمد بن فضالة الأنصاري، عن أبيه قال: "وكان أبي ممن صحب رسول الله ﷺ أتاه في بني ظفر، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر اليوم، ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه، فأمر رسول الله ﷺ قارئا فقرأ، فأتى على هذه الآية: {فَكَيْفَ

---

[١] أخرجه الطبري(٩٥١٧):ص٨/٣٦٩.

[٢] أخرجه الطبري(٩٥١٩):ص٨/٣٧٠. قال السيد المحقق:" وهذا الحديث في الحقيقة حديثان:

أولهما : رواية المسعودي – معن بن عبد الرحمن – عن القاسم. والظاهر أن القاسم هذا : هو أخوه " القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود " . وهو تابعي ثقة. ولكنه لم يدرك أن يروي عن جده " عبد الله بن مسعود"، ولم يذكر هنا أنه " عن ابن مسعود " – حتى يكون إسنادًا منقطعًا. فهو حديث مرسل. ولكن هذا الحديث الأول منهما ثابت صحيح بالأسانيد المتصلة. فقد رواه البخاري ٩ : ٨١ (فتح) ، من طريق الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله. وكذلك رواه أحمد في المسند : ٣٦٠٦ ، ٤١١٨ ، من طريق الأعمش ، به. ورواه أحمد أيضًا : ٣٥٥٠ ، من رواية أبي حيان الأشجعي ، عن ابن مسعود ، و : ٣٥٥١ ، من طريق أبي رزين ، عن ابن مسعود. ونقله ابن كثير في فضائل القرآن ، ص : ٧٧ ، عن البخاري. ثم قال : " وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه ، من طرق ، عن الأعمش. وله طرق يطول بسطها " . ونقله في التفسير ٢ : ٤٥٢ – ٤٥٣ ، عن البخاري أيضًا. ثم قال : " وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود. فهو مقطوع به. ورواه أحمد من طريق أبي حيان ، وأبي رزين ، عنه " . ونقله السيوطي ٢ : ١٦٣ ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل.

وثانيهما : رواية المسعودي ، عن جعفر بن عمرو بن حريث ، عن أبيه. وهذا مكرر للحديث السابق : ٩٥١٨ ، ولكنه جعله هنا من حديث عمرو بن حريث ، لم يذكر فيه روايته عن ابن مسعود. فيكون مرسل صحابي. فهو صحيح بكل حال.

وقد رواه الحاكم في المستدرك ٣ : ٣١٩ ، من طريق جعفر بن عون ، عن المسعودي ، عن جعفر بن عمرو بن حريث ، عن أبيه – مطولا – بقصة قراءة ابن مسعود هذه الآيات على النبي صلى الله عليه وسلم. ولكن فيه النص الذي هنا " شهيدًا عليهم ما دمت فيهم... " . فأصل الحديث صحيح ثابت. ولذلك قال الحاكم : " هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه " . ووافقه الذهبي. ونقل السيوطي ٢ : ١٦٣ رواية الحاكم ، مختصرة قليلا ، ولم ينسبها لغيره.

[٣] تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٤٣):ص٣/٩٥٦.

إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}، فبكى رسول الله ﷺ حتى ضرب لحياه وجنباه فقال:« يا رب هذا، شهدت على من بين ظهري، فكيف بمن لم أره»"(١).

قال السدي:" إن النبيين يأتون يوم القيامة ، منهم من أسلم معه من قومه الواحدُ والاثنان والعَشَرة ، وأقلُّ وأكثر من ذلك ، حتى يُؤتى بقوم لوط ﷺ ، لم يؤمن معه إلا ابنتاه ، فيقال لهم : هل بلَّغتم ما أرسلتُمْ به ؟ فيقولون : نعم. فيقال : من يشهد ، فيقولون : أمة محمد ﷺ! فيقال لهم : اشهدوا ، إنّ الرسل أودعوا عندكم شهادة، فبم تشهدون ؟ فيقولون : ربنا نَشهد أنهم قد بلغوا كما شهدوا في الدنيا بالتبليغ. فيقال : من يشهد على ذلك ؟ فيقولون : محمد ﷺ. فيدعى محمد عليه السلام ، فيشهدُ أن أمته قد صدَّقوا ، وأنّ الرسل قد بلَّغوا ، فذلك قوله : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[سورة البقرة : ١٤٣]"(٢).

قال السمعاني:" واختلفوا في أن النبي هل يشهد على من لم يره؟ منهم من قال: إنما يشهد على من رآه، والصحيح: أنه يشهد على الكل، على من رأى، وعلى من لم ير"(٣).

قال البغوي:" شاهدا يشهد على جميع الأمة، على من رآه ومن لم يره"(٤).

الفوائد:

١- أن الرسل تشهد على الأمم في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة عليها.

٢- أن الكفار في ذلك اليوم يقرون لله تعالى بما عملوا وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم حينئذ ينجلي الأمر ولا يبقى للكتمان موضع ولا نفع ولا فائدة(٥).

القرآن

{يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)} [النساء : ٤٢]

التفسير:

يوم يكون ذلك، يتمنى الذين كفروا بالله تعالى وخالفوا الرسول ولم يطيعوه، لو يجعلهم الله والأرض سواء، فيصيرون ترابًا، حتى لا يبعثوا وهم لا يستطيعون أن يُخفوا عن الله شيئًا مما في أنفسهم، إذ ختم الله على أفواههم، وشَهِدَتْ عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون.

قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ} [النساء : ٤٢]، "أي: في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وجدانية الله وعصوا رسوله"(٦).

قال السعدي: " أي: الذين جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله ومعصية الرسول"(٧).

قوله تعالى: {لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ} [النساء : ٤٢]، " أي: لو يدفنوا في الأرض ثم تُسوّى بهم"(٨).

قال مسلم البطين:" قوله: {لو تسوى بهم الأرض}، قال: الذين كفروا"(٩).

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٤٤):ص٩٥٦/٣، ومجمع الزوائد ٧/ ٧.

(٢) أخرجه الطبري(٩٥١٥):ص٣٦٩/٨.

(٣) تفسير السمعاني:٤٢٩/١.

(٤) تفسير البغوي:٦٢٤/١.

(٥) انظر: تفسير السعدي:١٧٩.

(٦) صفوة التفاسير:٢٥٣.

(٧) تفسير السعدي:١٧٩.

(٨) صفوة التفاسير:٢٥٣.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٤٥):ص٩٥٧/٣.

قال السعدي: "أي: تبتلعهم ويكونون ترابا"[١].
قال ابن عباس:" يعني: أن تسوى الأرض بالجبال والأرض عليهم"[٢].
قال قتادة:" يقول: ودوا لو انخرقت الأرض فساخوا فيها"[٣].
قال مقاتل:" وذلك بأنهم قالوا في الآخرة: { وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}[٤]، فشهدت عليهم عليهم الجوارح بما كتمت ألسنتهم من الشرك، فودوا عند ذلك أن الأرض انشقت فدخلوا فيها فاستوت عليهم"[٥].
قال الكلبي:" يقول الله عز وجل للبهائم والوحش والطير والسباع: كن ترابا فتسوى بها الأرض، فعند ذلك يتمنى الكافرون لو كانوا ترابا يمشي عليهم أهل الجمع، بيانه قوله عز وجل: {يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا}"[٦].
قال الزجاج:" أي: يودون أنهم لم يبعثوا، وأنهم كانوا والأرض سواء، وقد جاء في التفسير أن البهائم يوم القيامة تصير ترابا. فيودون أنهم يصيرون ترابا"[٧].
قال الزمخشري: أي:" لو يدفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى"[٨].
قال ابن كثير:" أي : لو انشقت وبلعتهم ، مما يرون من أهوال الموقف ، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ ، كقوله : { يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}"[٩].
وفي تفسير قوله تعالى:{ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ} [النساء : ٤٢]، ثلاثة اقوال:
أحدها : أن الذين تمنوه من تسوية الأرض بهم، أن يجعلهم مثلها ، كما قال تعالى في موضع أخر:{وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً }[النبأ : ٤٠]. وهذا قول الكلبي[١٠]، والفراء[١١].
قال الفراء:" و{تسوى} معناه: لو يسوون بالتراب، وإنما تمنوا ذلك لأن الوحوش وسائر الدواب يوم القيامة يقال لها: كوني ترابا"[١٢].
والثاني : أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فصاروا في بطنها. وهذا قول ابن عباس [١٣]، وقتادة [١٤]، ومقاتل[١٥].

---

[١] تفسير السعدي:١٧٩.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٤٦):ص٩٥٧/٣.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٤٧):ص٩٥٧/٣.
[٤][سورة الأنعام : ٢٣].
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٣/١.
[٦] تفسير الثعلبي:٣١٠/١-٣١١.
[٧] معاني القرآن:٥٤/٢.
[٨] الكشاف:٥١٢/١.
[٩] تفسير ابن كثير: ٣٠٧/٢.
[١٠] انظر: تفسير الثعلبي:٣١٠/٣.
[١١] انظر: معاني القرىن:٢٦٩/١.
[١٢] معاني القرآن:٢٧٠/١.
[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٤٦):ص٩٥٧/٣.
[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٤٧):ص٩٥٧/٣.
[١٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٣/١.

والثالث: أن المعنى: يعدل بهم ما على الأرض من شيء فدية، بيانه: {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ} [المعارج : ١١]. قال الثعلبي: سمعه أستاذنا أبو القاسم الحسين[١].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم {لو تسوى} مضمومة التاء مفتوحة السين، وقرأ نافع وابن عامر {لو تسوى} مفتوحة التاء والواو مشددة السين، وقرأ حمزة والكسائي {لو تسوى} مفتوحة التاء خفيفة السين ممالة[٢].

قوله تعالى:{وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا } [النساء : ٤٢]، " أي: ولا يستطيعون أن يكتموا الله حديثاً"[٣].

قال ابن عباس:" بجوارحهم"[٤].

قال مقاتل:" يعنى: الجوارح حين شهدت عليهم"[٥].

قال الأخفش:" أي: لا تكتمه الجوارح او يقول: لا يخفى عليه وإن كتموه"[٦].

قال الزمخشري:أي:" ولا يقدرون على كتمانه لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال، أى يودون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لا يكتمون الله حديثا"[٧].

قال ابن كثير:" أخبرعنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ، ولا يكتمون منه شيئا"[٨].

قال الفراء:"ثم يحيا أهل الجنة، فإذا رأى ذلك الكافرون قال بعضهم لبعض: تعالوا فلنقل إذا سئلنا: والله ما كنا مشركين، فإذا سئلوا فقالوها ، ختم على أفواههم وأذن لجوارحهم فشهدت عليهم. فهنالك يودون أنهم كانوا ترابا ولم يكتموا الله حديثا. فكتمان الحديث هاهنا في التمني"[٩].

التمني"[٩].

قال سعيد بن جبير: "جاء رجل إلى ابن عباس فقال : أشياءُ تختلفُ علي في القرآن ؟ فقال : ما هو ؟ أشك في القرآن ؟ قال : ليس بالشك ، ولكنه اختلاف! قال : فهات ما اختلف عليك. قال : أسمع الله يقول : (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) [سورة الأنعام : ٢٣] ، وقال : {ولا يكتمون الله حديثًا}، وقد كتموا! فقال ابن عباس : أما قوله : {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين}، فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله يغفر لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ، ولا يغفر شركًا ، ولا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره جحد المشركون فقالوا : {والله ربنا ما كنا مشركين}، رجاءَ أن يغفر لهم ، فختم على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك : { يَودّ الذين كفروا وَعصوُا الرسول لو تسوَّى بهم الأرضُ ولا يكتمون الله حديثًا}"[١٠].

ونقل الثعلبي عن عطاء: "ودوا لو تسوى بهم الأرض، وإنهم لم يكونوا كتموا أمر محمد ﷺ ولا نعته"[١١].

---

[١] تفسير الثعلبي:٣١١/٣.

[٢] انظر: السبعة:٢٣٤.

[٣] صفوة التفاسير:٢٥٣.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٥٠):ص٩٥٧/٣.

[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٣/١.

[٦] معاني القرآن:٢٥٨/١.

[٧] الكشاف:٥١٢/١.

[٨] تفسير ابن كثير: ٣٠٧/٢.

[٩] معاني القرآن:٢٧٠/١-٢٧١

[١٠] أخرجه الطبري(٩٥٢١):ص٣٧٣/٨.

[١١] تفسير الثعلبي:٣١١/٣.

كما نقل الثعلبي عن الكلبي وجماعة: لا يكتمون الله حديثا، لأن خزنة جهنم تشهد عليهم"[١].

قال السعدي: "أي بل يقرون له بما عملوا وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله جزاءهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين، فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم حينئذ ينجلي الأمر ولا يبقى للكتمان موضع ولا نفع ولا فائدة"[٢].

الفوائد:

١- دلَّت هذه الآية على أن هؤلاء الكافرين من الأمة الذين يشهد عليهم ﷺ.

٢- تمني الكفار يوم القيامة أن يهلكهم الله، ويجعلهم ترابا، وذلك عندما أيقنوا أن ذنبهم غير مغفور، وعذرهم غير مقبول.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)} [النساء : ٤٣]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، لا تقربوا الصلاة ولا تقوموا إليها حال السكر حتى تميزوا وتعلموا ما تقولون -وقد كان هذا قبل التحريم القاطع للخمر في كل حال- ، ولا تقربوا الصلاة إن أصابكم الحدث الأكبر، ولا تقربوا كذلك مواضعها وهي المساجد، إلا من كان منكم مجتازًا من باب إلى باب، حتى تتطهروا بالاغتسال. وإن كنتم في حال مرض لا تقدرون معه على استعمال الماء، أو حال سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو جامعتم النساء، فلم تجدوا ماء للطهارة فاقصدوا ترابًا طاهرًا، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه. إن الله تعالى كان كثير العفو يتجاوز عن سيئاتكم، ويسترها عليكم.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: اخرج الطبري وغيره[٣]، عن أبي عبد الرحمن ، عن علي: "أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر ، فصلى بهم عبد الرحمن فقرأ : {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، فخلط فيها ، فنزلت : {لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى}"[٤].

وفي هذا السياق روي عن عطاء هو ابن أبي رباح قال: "أول ما نزل في الخمر {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}[٥]، فقال بعض المنافقين: نشربها نشربها لمنافعها وقال آخرون: لا خير في شيء فيه إثم، ثم نزلت {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا

---

[١] تفسير الثعلبي:٣/٣١١.

[٢] تفسير السعدي:١٧٩.

[٣]وأخرجه عبد بن حميد(٨٢)، وأبو داود(٣٦٧١)، والترمذي(٣٠٢٦)، وقال: "حديث حسن صحيح غريب". والنسائي في التفسير في "الكبرى" كما في التحفة:٧/ ٤٠٢، والحاكم في "مستدركه"، كتاب التفسير:٢/ ٣٠٧" قال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي وكتاب "الأشربة" "٤/ ١٤٢" وكذلك أخرجه ابن ابي حاتم(٥٣٥٢):ص٣/٩٥٨، والواحدي :١٥٣-١٥٤.

[٤] تفسير الطبري(٩٥٢٤):ص٨/٣٧٦.

[٥] [سورة البقرة:٢١٩].

الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىْ} فقال بعض الناس: نشربها ونجلس في بيوتنا، وقال آخرون: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة مع المسلمين، فنزلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ}[1]، فنهاهم فانتهوا"[2].

والثاني: أخرج الطبري عن يزيد بن أبي حبيب عن "قول الله : {ولا جنبًا إلا عابري سبيل}، أنّ رجالا من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد ، تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم ، فيريدون الماء ولا يجدون ممرًّا إلا في المسجد ، فأنزل الله تبارك وتعالى : {ولا جنبًا إلا عابري سبيل}"[3].

والثالث: أخرج الطبري والإمام احمد[4]، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة زوج النبي ﷺ : أنها قالت : "سقطت قلادة لي بالبَيداء ، ونحن داخلون إلى المدينة ، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل. فبينا رسول الله ﷺ في حِجْري راقد ، أقبل أبي فلكزني لَكْزة ثم قال : حبست الناس! ثم إن رسول الله ﷺ استيقظ وحَضرت الصبح ، فالتمس الماء فلم يوجد ، ونزلت : {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة }الآية. قال أسيد بن حضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر! ما أنتم إلا بركة!"[5].

وفي رواي أخرى: عن ٱلقاسم، عن عائشة. أنها قالت: "خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء (أو بذات ٱلجيش) ٱنقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على ٱلتماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى ٱلناس إلى أبي بكر. فقالوا: ألا ترى الى ماصنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام. فقال: حبست رسول الله ﷺ وٱلناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء. قالت: فعاتبني أبو بكر، وقال ماشاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من ٱلتحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل آية التيمم، فتيمموا، فقال: أسيد بن الحضير -(وهو أحد ٱلنقباء)- : ماهي بأول بركتكم يا آل أبي بكر! فقالت عائشة: فبعثنا البعير ٱلذي كنت عليه، فوجدنا ٱلعقد تحته "[6].

والرابع: أخرج الطبري وغيره[7]، عن الأسلع بن شريك قال : "كنت أخدم النبي صلى الله عليه وسلم وأرحَلُ له ، فقال لي ذات ليلة : يا أسلع ، قم فارحلْ لي. قلت : يا رسول الله ، أصابتني

---

[1] [سورة المائدة:٩٠].

[2] العجاب في بيان الأسباب:٢/٨٧٢.

[3] تفسير الطبري(٩٥٦٧):ص٨/٣٨٤.

[4] انظر: المسند ٦ : ٥٧ (حلبي).

[5] تفسير الطبري(٩٦٤١):ص٨/٤٠٥.

[6] أخرجه مالك في "الموطأ": ٥٧، وأحمد" ١٧٩/٦، والبخاري: ٩١/١ و٥٢/٧، وفي ٦٣/٦ و٦٤ و٢١٥/٨، و٢١٥/٨، ومسلم ١٩١/١، والنسائي: ١٦٣/١ ، وفي "الكبرى" ٢٩٥ و١١٠٤٢ ، و"ابن خزيمة" ٢٦٢، و الطبري(٩٦٣٥):ص٨/٤٠٠-٤٠١.

وهذا الحديث ظاهره الإرسال. لأنه – هنا – من رواية عبد الرحمن بن القاسم عن عائشة. وعبد الرحمن لم يدرك أن يسمع من عمة أبيه عائشة.

الروايات مطولة ومختصرة، وأثبتنا لفظ رواية مسلم.

[7] ورواه ابن سعد في الطبقات ٧ / ١ / ٤٥ ، في ترجمة " الأسلع "، ورواه الدارقطني ، ص : ٦٦ ، والطحاوي في معاني الآثار ١ / ٦٧ – ٦٨ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١ / ٢٠٨ – كلهم من طريق الربيع بن بدر. وقال البيهقي:" الربيع بن بدر ضعيف، إلا أنه غير منفرد به". ونقله الزيلعي في نصب الراية ١ /

جنابة! فسكت ساعة ، ثم دعاني وأتاه جبريل عليه السلام بآية الصعيد ، ووصف لنا ضربتين"[1].
والخامس: أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد:" قوله: {ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر}، قال: نزلت في رجل من الأنصار كان مريضا فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم فينا له، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية"[2].
والسادس: أخرج الطبري عن إبراهيم قال : "أصاب أصحاب رسول الله ﷺ جراحة ففشت فيهم ، ثم ابتلوا بالجنابة ، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ ، فنزلت : {وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط}، الآية كلها"[3].
والسابع: قال مقاتل:"نزلت في عبد الرحمن بن عوف أصابته جنابة وهو جريح فشق عليه الغسل وخاف منه شرا أو يكون به قرح أو جدري فهو بهذه المنزلة، فذاك قوله سبحانه: {وإن كنتم مرضى}، يعني به جرحا فوجدتم الماء فعليكم التيمم، {وإن كنتم على سفر}، وأنتم أصحاء، نزلت في عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها-"[4].
قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [النساء : ٤٣]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه"[5].
قوله تعالى:{لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء : ٤٣]، أي:" لا تقربوا الصلاة ولا تقوموا إليها حال السكر حتى تميزوا وتعلموا ما تقولون"[6].
قال الماوردي: "أصل السُكر : السَكْر ، وهو سد مجرى الماء ، فالسُّكر من الشراب يسد طريق المعرفة[7].
وفي قوله تعالى:{لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء : ٤٣]، وجهان من التفسير:
أحدهما : سكارى من الخمر، وهو قول ابن عباس[8]، ومجاهد[9]، وقتادة[10]، وابي رزين[11]، وإبراهيم[1].

---

١٥٣ ، ونقل كلام البيهقي ، وتعقبه بأن هذا لا يكفي في الاحتجاج به حتى يعلم الوجه الآخر ودرجته.
الطبراني في الكبير ، من هذا الوجه. ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١ / ٢٦١ - ٢٦٢ ، وقال : " وفيه الهيثم بن رزيق. قال بعضهم : لا يتابع على حديثه ". وذكر الهيثمي أيضًا رواية الربيع بن بدر ، بلفظين ١ / ٢٦٢ ، ونسبهما للطبراني في الكبير ، وأعلمهما بضعف الربيع.

[1] تفسير الطبري(٩٦٣٧)، و(٩٦٣٨):ص٨/٤٠٢-٤٠٣.
[2] تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٦٥):ص٣/٩٦١.
[3] تفسير الطبري(٩٦٣٤):ص٨/٣٩٩.
[4] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٧٤-٣٧٥.
[5] التفسير الميسر:٨٥.
[6] التفسير الميسر:٨٥.
[7] النكت والعيون:١/٤٨٩.
[8] انظر: تفسير الطبري(٩٥٢٦):ص٨/٣٧٦.
[9] انظر: تفسير الطبري(٩٥٢٩)، و(٩٥٣٠):ص٨/٣٧٧.
[10] انظر: تفسير الطبري(٩٥٣١):ص٨/٣٧٦.
[11] انظر: تفسير الطبري(٩٥٢٧)، و(٩٥٢٨):ص٨/٣٧٦-٣٧٧

والثاني: وأنتم سكارى من النوم ، وهو قول الضحاك[٢].
والراجح-والله أعلم- أن "ذلك نهيٌ من الله المؤمنين عن أن يقربوا الصلاة وهم سكارى من الشراب قبل تحريم الخمر ، للأخبار المتظاهرة عن أصحاب رسول الله ﷺ بأن ذلك كذلك ، نهيٌ من الله وأن هذه الآية نزلت فيمن ذكرت أنها نزلت فيه"[٣] كما سبق الإشارة إليه في سبب نزول الآية.
قال ابن حجر:" قال المفسرون: هذه الآية اقتضت إباحة السكر في غير أوقات الصلاة، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى {فاجتنبوه}[٤]"[٥]..
قوله تعالى:{وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا} [النساء : ٤٣]، أي:" ولا تقربوا الصلاة إن أصابكم الحدث الأكبر، ولا تقربوا كذلك مواضعها وهي المساجد، إلا من كان منكم مجتازًا من باب إلى باب، حتى تتطهروا بالاغتسال"[٦].
قال الطبري:أي:"ولا تقربوها أيضًا جنبًا حتى تغتسلوا ، إلا عابري سبيل"[٧].
وفي تفسير قوله تعالى:{وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا} [النساء : ٤٣]، وجهان:
أحدهما : أراد سبيل المسافر إذا كان جنباً لا يصلي حتى يتيمم ، وهذا قول علي[٨]، وابن عباس في رواية أبي مجلز عنه[٩]، ومجاهد[١٠]، وسعيد بن جبير[١١]، والحكم[١٢]، والحسن بن مسلم[١٣]، وعبد الله بن كثير[١٤]، وابن زيد[١٥].
والثاني : لا يقرب الجنب مواضع الصلاة من المساجد إلا مارّاً مجتازاً ، وهذا قول ابن عباس في رواية الضحاك وابن يسار عنه[١٦]، وهو قول الحسن[١٧]، والزهري[١٨]، وإبراهيم

---

[١] انظر: تفسير الطبري(٩٥٣٢):ص٨/٣٧٦.
[٢] انظر: تفسير الطبري(٩٥٣٣)، و(٩٥٣٤):ص٨/٣٧٧-٣٧٨.
[٣] تفسير الطبري:٨/٣٧٨.
[٤]الآية (٩١) من سورة المائدة..
[٥] نواسخ القرآن:٢/٣٧٢.
[٦] التفسير الميسر:٨٥.
[٧] تفسير الطبري:٨/٣٨٥.
[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٥٣٧):ص٨/٣٧٩، و(٩٥٤٠):ص٨/٣٨٠.
[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٥٣٥):ص٨/٣٧٩.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٥٤١)-(٩٥٤٤):ص٨/٣٨٠-٣٨١.
[١١] انظر: تفسير الطبري(٩٥٣٨):ص٨/٣٨٠.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(٩٥٤٦):ص٨/٣٨١.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(٩٥٤٥):ص٨/٣٨١.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(٩٥٥٠):ص٨/٣٨١.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(٩٥٥١):ص٨/٣٨١.
[١٦] انظر: تفسير الطبري: (٩٥٥٥):ص٨/٣٨٣، و(٩٥٥٣):ص٨/٣٨٢.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(٩٥٥٧):ص٨/٣٨٣.
[١٨] انظر: تفسير الطبري(٩٥٦٦):ص٨/٣٨٤.

النخعي[1]، وأبي عبيدة[2]، وعكرمة[3]، وأبي الضحى[4]، ويزيد بن أبي حبيب[5]، وسعيد بن بن جبير في رواية اخرى عنه[6]، واختاره الطبري[7] وهو قول الجمهور[8].
قال ابن كثير:"وهذا الذي نصره [الطبري] هو قولُ الجمهور ، وهو الظاهر من الآية ، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها ، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة ، وهي الجنابة المباعدة للصلاة ولمحلها أيضا "[9].
والراجح-والله اعلم- أن معنى قوله: {ولا جنبًا إلا عابري سبيل}: "إلا مجتازي طريق فيه، وذلك أنه قد بيَّن حكم المسافر إذا عَدِم الماء وهو جنب في قوله : {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا }، فكان معلومًا بذلك أن قوله { ولا جنبًا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا} ، لو كان معنيًّا به المسافر ، لم يكن لإعادة ذكره في قوله :{ وإن كنتم مرضى أو على سفر} معنى مفهوم ، وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك"[10].
وقد سبق الإشارة في سبب نزول الآية "أنّ رجالا من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد ، تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم ، فيريدون الماء ولا يجدون ممرًّا إلا في المسجد ، فأنزل الله تبارك وتعالى : {ولا جنبًا إلا عابري سبيل}"[11].
وقد ثبت في صحيح البخاري : أن رسول الله ﷺ قال : "سُدُّوا كل خَوخة في المسجد إلا خَوخةَ أبي بكر"[12].
قال ابن كثير:" ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب اللبث في المسجد ، ويجوز له المرور ، وكذا الحائض والنفساء أيضًا في معناه ؛ إلا أن بعضهم قال : يمنع مرورهما لاحتمال التلويث. ومنهم من قال : إن أمنت كل واحدة منهما التلويث في حال المرور جاز لهما المرور وإلا فلا.
وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة ، رضي الله عنها قالت : «قال لي رسول الله ﷺ : ناوليني

---

[1] انظر: تفسير الطبري(٩٥٥٨)-(٩٥٦٠):ص٨/٣٨٣.
[2] انظر: تفسير الطبري(٩٥٦٢):ص٨/٣٨٤.
[3] انظر: تفسير الطبري(٩٥٦٣):ص٨/٣٨٤.
[4] انظر: تفسير الطبري(٩٥٦٤):ص٨/٣٨٤.
[5] انظر: تفسير الطبري(٩٥٦٧):ص٨/٣٨٤.
[6] انظر: تفسير الطبري(٩٥٦١):ص٨/٣٨٤.
[7] تفسير الطبري:٨/٣٨٤-٣٨٥.
[8] انظر: تفسير ابن كثير:٢/٣١٣.
[9] تفسير ابن كثير:٢/٣١٣.
[10] تفسير الطبري:٨/٣٨٤-٣٨٥.
[11] تفسير الطبري(٩٥٦٧):ص٨/٣٨٤.
[12]صحيح البخاري برقم (٢٩٨)، قال ابن كثير: قال ابن كثير:" وهذا قاله في آخر حياته صلى الله عليه وسلم ، علما منه أن أبا بكر ، رضي الله عنه ، سيلي الأمر بعده ، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيرا للأمور المهمة فيما يصلح للمسلمين ، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه ، رضي الله عنه. ومن روى : "إلا باب علي" كما وقع في بعض السنن ، فهو خطأ ، والصحيح. ما ثبت في الصحيح".[انظر: تفسيره :٢/٣١١].

الخُمْرة من المسجد، فقلت : إني حائض. فقال : إن حيضتك ليست في يدك»[١]. ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد ، والنفساء في معناها والله أعلم"[٢].

وقوله : { حَتَّى تَغْتَسِلُوا } دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ومالك والشافعي : أنه يحرم على الجنب المكث في المسجدِ حتى يغتسل أو يتيمم ، إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله بطريقة[٣].

وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجدِ، لما روى هو وسعيد بن منصور في سننه بإسناد صحيح : أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك، أخرج سعيد بن منصور عن عطاء بن يَسَار قال : "رأيت رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضؤوا وضوء الصلاة"[٤][٥].

قوله تعالى:{وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى} [النساء : ٤٣]، أي:" وإن كنتم في حال مرض لا تقدرون معه على استعمال الماء"[٦].

قال الطبري:أي:" إن كنتم جرحى أو مُجَدَّرين وأنتم جنب"[٧].

قال ابن مسعود:" المريض الذي قد أُرخص له في التيمم ، هو الكسير والجريح. فإذا أصابت الجنابة الكسيرَ اغتسل ، والجريح لا يحل جراحته ، إلا جراحة لا يخشى عليها"[٨].

قال أبو مالك:" هي للمريض الذي به الجراحةُ التي يخاف منها أن يغتسل ، فلا يغتسل. فرُخِّص له في التيمم"[٩].

قال مجاهد:" والمرض: أن يصيب الرجل الجرح والقرح والجدريّ ، فيخاف على نفسه من برد الماء وأذاه ، يتيمم بالصعيد كما يتيمم المسافر الذي لا يجد الماء"[١٠].

قال السدي:" و المرض: هو الجراح. والجراحة التي يتخوّف عليه من الماء ، إن أصابه ضرَّ صاحبه ، فذلك يتيمم صعيدًا طيبًا"[١١].

قال سعيد بن جبير:" إذا كان به جروح أو قُروح يتيمم"[١٢].

وقال إبراهيم:" من القروح تكون في الذراعين"[١٣].

قال الضحاك:" صاحب الجراحة التي يتخوّف عليه منها ، يتيمم"[١٤].

---

[١]صحيح مسلم برقم (٢٩٨) ومن حديث أبي هريرة برقم (٢٩٩)..

[٢] تفسير ابن كثير:٢/٣١١-٣١٢.

[٣] انظر: تفسير ابن كثير:٢/٣١٣.

[٤] التفسير من سنن سعيد بن منصور(٦٤٦):ص٤/١٢٧٥. قال ابن كثير في تفسيره:٢/٣١٣:" وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم".

[٥] انظر: تفسير ابن كثير:٢/٣١٣.

[٦] التفسير الميسر:٨٥.

[٧] تفسير الطبري:٨/٣٨٥، وانظر: تفسيره:١٠/٨١-٨٢.

[٨] أخرجه الطبري(٩٥٧٠):ص٨/٣٨٦.

[٩] أخرجه الطبري(٩٥٧١):ص٨/٣٨٦.

[١٠] أخرجه الطبري(٩٥٧٧):ص٨/٣٨٧.

[١١] أخرجه الطبري(٩٥٧٢):ص٨/٣٨٦.

[١٢] أخرجه الطبري(٩٥٧٣):ص٨/٣٨٦.

[١٣] أخرجه الطبري(٩٥٧٤):ص٨/٣٨٦.

[١٤] أخرجه الطبري(٩٥٧٦):ص٨/٣٨٧.

وروي عن عاصم يعني الأحول عن الشعبي : "أنه سئل عن [قوله] : المجدور تُصيبه الجنابة ؟ قال : ذهب فرسان هذه الآية"[1].

وقال ابن زيد:" المريضُ الذي لا يجد أحدًا يأتيه بالماء ، ولا يقدر عليه ، وليس له خادم ولا عون ، فإذا لم يستطع أن يتناول الماء ، وليس عنده من يأتيه به ، ولا يحبو إليه ، تيمم وصلَّى إذا حلَّت الصلاة قال : هذا كله قولُ أبي إذا كان لا يستطيع أن يتناول الماء وليس عنده من يأتيه به ، لا يترك الصلاة ، وهو أعذَرُ من المسافر"[2].

فتفسير الآية إذن:" وإن كنتم جَرْحى أو بكم قروحٌ ، أو كسر ، أو علّة لا تقدرون معها على الاغتسال من الجنابة ، وأنتم مقيمون غيرُ مسافرين"[3].

وفي قوله تعالى:{وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى} [النساء : ٤٣] ثلاثة أقاويل[4]:

أحدها : ما انطلق عليه اسم المرض من مستضرٍّ بالماء وغير مستضرٍّ ، وهذا قول داود بن علي .

الثاني : ما استضر فيه باستعمال الماء دون ما لم يستضر، وهذا قول مالك ، وأحد قولي الشافعي .

والثالث ما خيف من استعمال الماء فيه التلف دن ما لم يُخفْ ، وهو القول الثاني من قولي الشافعي .

قوله تعالى:{أَوْ عَلَى سَفَرٍ} [النساء : ٤٣]، أي:" وإن كنتم في حال سفر "[5].

قال الطبري:أي:" أو إن كنتم مسافرين وأنتم أصحّاء جنب"[6].

وفي قوله تعالى:{أَوْ عَلَى سَفَرٍ} [النساء : ٤٣]، ثلاثة أقاويل[7]:

أحدها : ما انطلق عليه اسم السفر من قليل وكثير ، وهو قول داود .

والثاني : مسافة يوم وليلة فصاعداً ، وهو قول مالك ، والشافعي رحمهما الله .

والثالث : مسافة ثلاثة أيام ، وهو مذهب أبي حنيفة .

قوله تعالى:{أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ } [النساء : ٤٣]، أي:" أو أحدثتم ببولٍ أو غائطٍ ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء"[1].

---

[1] أخرجه الطبري(٩٥٧٩):ص٣٨٧/٨.

قال السيد المحقق:" هكذا في المخطوطة : " عن قوله : المجدور... " فأثبتها بين القوسين ، لأني في شك منها. وأما قوله : " ذهب فرسان هذه الآية " ، فإنه مما أشكل على معناه ، وربما رجحت أنه أراد أن الآية نزلت في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد ، تصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم ، فيريدون الماء ولا يجدون ممرًا إلا في المسجد ، كما مضى في الأثر رقم : ٩٥٦٧. فيكون قوله : " ذهب فرسان هذه الآية " ، عن ذلك الشطر من الآية " ولا جنبًا إلا عابري سبيل " ، وأنهم هم الأنصار من أصحاب رسول الله ، الذين كانت أبوابهم في المسجد ، وقد مضوا ، لم يبق اليوم منهم أحد. هذا غاية اجتهادي ، وفوق كل ذي علم عليم".

قلت: ربما أراد سفيان أن السياق كان خاصا بهؤلاء الفرسان، وأما الحكم فباق. والله تعالى أعلم.

[2] اخرجه الطبري(٩٥٧٩):ص٣٨٧/٨-٣٨٨.

[3] تفسير الطبري:٣٨٨/٨.

[4] انظر: النكت والعيون:٤٩٠/١.

[5] التفسير الميسر:٨٥.

[6] تفسير الطبري:٣٨٨/٨.

[7] انظر: النكت والعيون:٤٩٠/١.

قال الطبري:أي:" أو جاء أحدٌ منكم من الغائط ، قد قضى حاجته وهو مسافر صحيح"[2].

قال ابن كثير:" الغائط : هو المكان المطمئن من الأرض ، كنى بذلك عن التغوط ، وهو الحدث الأصغر"[3].

قال مجاهد:" الغائط ، الوادي"[4].

قوله تعالى:{أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} [النساء : ٤٣]، أي:" أو جامعتم النساء"[5].

قال الطبري:أي:" أو باشرتم النساءَ بأيديكم"[6].

وفي هذه الملامسة قولان :

أحدهما : أنها كناية عن الجماع ، لقوله { وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ } [البقرة : ٢٣٧] وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا } [الأحزاب : ٤٩]. وهو قول عليّ [7]، وابن عباس[8]، والحسن [9] وقتادة[10]، ومجاهد[11].

والثاني : أن الملامسة باليد والإفضاء ببعض الجسد ، وهو قول ابن مسعود[12]، وابن عمر[13]، وعبيدة[14]، والنخعي[15]، والشعبي[16]، وعطاء[17] ، وابن سيرين [18]، والحكم[19]، وحماد[20]، وبه قال الشافعي[21].

---

[1] صفوة التفاسير:٢٥٣

[2] تفسير الطبري:٣٨٨/٨.

[3] تفسير ابن كثير:٣١٤/٢.

[4] تفسير الطبري(٩٥٨٠):٣٨٨/٨.

[5] التفسير الميسر:٨٥.

[6] تفسير الطبري:٣٨٩/٨.

[7] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٢):ص٣٩٢/٨.

[8] انظر: تفسير الطبري(٩٥٨١)-(٩٦٠١):ص٣٨٩/٨-٣٩٢.

[9] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٣)، و(٩٦٠٥):ص٣٩٢/٨.

[10] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٥):ص٣٩٢/٨.

[11] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٤):ص٣٩٢/٨.

[12] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٦)-(٩٦١٣):ص٣٩٣/٨.

[13] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٧):ص٣٩٤/٨.

[14] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٣)، و(٩٦١٦):ص٣٩٣/٨-٣٩٤.

[15] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٩):ص٣٩٥/٨.

[16] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٨):ص٣٩٥/٨.

[17] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢١):ص٣٩٥/٨.

[18] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢٦):ص٣٩٥/٨.

[19] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢٠):ص٣٩٥/٨.

[20] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢٠):ص٣٩٥/٨.

[21] انظر: تفسير الغمام الشافعي:٧٠٨/٢. قال الشافعي:" فأشبه أن يكون أوجب الوضوء من الغائط، وأوجبه من الملامسة، وإنما ذكرها موصولة بالغائط، بعد ذكر الجنابة، فأشبهت الملامسة، أن تكون: اللمس باليد،

والراجح أن أنّ " اللمس " في هذا الموضع ،لمس الجماع، لا جميع معاني اللمس، لصحة الخبر عن رسول الله-ﷺ- أنه قَبّل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ [1]، وكما قال الشاعر[2]:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا

يعني بذلك : ننك لماسًا[3] [4].

أخرج الطبري عن عروة ، عن عائشة قالت : "كان النبي ﷺ يتوضأ ثم يقبل ، ثم يصلِّي ولا يتوضأ"[5]. وفي رواية أخرى:" أن النبي ﷺ قبّل بعض نسائه ، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ. قلت : من هي إلا أنت ؟ فضحكت[6].

والقُبْلة غير الجنابة".

[1] انظر: تفسير الطبري:٣٩٨/٨،

[2]البيت ذكره الفراء في: "معاني القرآن" ٢/ ١٩٢، وقال: تمثل به ابن عباس، وذكره الحربي في "غريب الحديث" ولم ينسبه ٣/ ١١١، وانظر: البيت في "الكشف والبيان" ٣/ ٢٥ أ، "النكت والعيون" ٣/ ٤٢٧، "الجامع لأحكام القرآن" ١١/ ٢٤٧، "مجمع البيان" ٧/ ٤٩، "روح المعاني" ١٦/ ١٦٤، "تهذيب اللغة" (همس) ٤/ ٣٧٩٣، "لسان العرب" (همس) ٨/ ٤٧٠٠.

وقال شاكر في تعليقه على "تفسير الطبري" ٤/ ١٢٦: لم أعرف قائله وهو رجز كثير الدوران في الكتب. والهمس، والهميس: صوت نقل أخفاف الإبل، والصوت الخفي الذي لا غور له في الكلام، والوطء والأكل وغيرها، ولميس: اسم صاحبته، ويريد بقوله: إن تصدق الطير: أنه زجر الطير فتيامن بمرها، ودلته على قرب اجتماعه بأصحابه وأهله.

والبيت مما أنشده ابن عباس، وقد نقله عنه السيوطي في الإتقان وكثير من المفسرين، ومنهم المؤلف، ونقل صاحب (اللسان: همس) شطره الأول. وهو * وهن يمشين بنا هميسا *

قال: وهو صوت نقل أخفاف الإبل. أهـ،. وقال في أول المادة: الهمس: الخفي من الصوت والوطء والأكل. وفي التنزيل: " فلا تسمع إلا همسا ". وفي التهذيب: يعني به والله أعلم: خفق الأقدام على الأرض. وقال الفراء: يقال إنه نقل الأقدام إلى المحشر. ويقال: الصوت الخفي. وروي عن ابن عباس تمثل فأنشده * وهن يمشين بنا هميسا *.

[3]قوله: "لماسًا" أي، ملامسة. وكأنه جعل"اللميس" مصدرًا من"اللمس"، مثل"المسيس" مصدرًا من"المس". وهو قول غريب للطبري. بل أكثرهم يقول: "لميس: اسم امرأة"، ومعنى"امرأة لميس": هي المرأة اللينة الملمس .

[4] انظر: تفسير الطبري:٣٩٨/٨،

[5] تفسير الطبري(٩٦٢٩):ص٣٩٦/٨.

[6] تفسير الطبري(٩٦٣٠):ص٣٩٦/٨.

قال السيد أحمد محمد شاكر محقق تفسير الطبري:" الحديثان : ٩٦٣٩ - ٩٦٣٠ - عروة ، في هذين الإسنادين : هو عروة بن الزبير ، ابن أخت عائشة ، على اليقين ، خلافًا لمن زعم أنه " عروة المزني " ، من اجل كلمة قالها الثوري : " ما حدثنا حبيب إلا عن عروة المزني " ! فإنه إن لم يحدثه عن عروة بن الزبير ، فقد حدث غيره عنه.

وفي قوله تعالى:{أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} [النساء : ٤٣]، قراءتان[١] :
إحداهما : {لَمَسْتُمُ }، بغير ألف ، قرأ بها حمزة والكسائي .
والأخرى :{ لاَمَسْتُمُ }، وهي قراءة ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر.
وفي اختلاف القراءتين في {لَمَسْتُمْ} أو {لاَمَسْتُمُ}، قولان[٢] :
أحدهما : أن{لاَمَسْتُمُ}ـ أبلغ من { لَمِسْتُمُ} .
والثاني : أن { لاَمَسْتُمُ }يقتضي وجوب الوضوء على اللامس والملموس، { وَلَمَسْتُمُ }، يقتضي وجوبه على اللامس دون الملموس .
قوله تعالى:{فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً} [النساء : ٤٣]، "أي: فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به"[٣].
قوله تعالى:{فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} [النساء : ٤٣]، أي:" فاقصدوا ترابًا طاهرًا، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه"[٤].
قال سفيان:" تحرَّوا وتعمَّدوا صعيدًا طيبًا"[٥]. وفي رواية أخرى:" "قوله: {فتيمموا صعيدا طيبا}، قال: حلال لكم"[٦].
فالتيمم في اللغة هو : "القصد. تقول العرب : تيممك الله بحفظه ، أي : قصدك. ومنه قول امرئ القيس[٧]:

والحديث رواه أحمد في المسند ٦ : ٢١٠ (حلبي) ، عن وكيع – بالإسناد الثاني هنا – وفيه صراحة " عن عروة بن الزبير " . وكذلك جاء التصريح بأنه " عروة بن الزبير " ، في رواية ابن ماجه : ٥٠٢ ، من طريق وكيع. فارتفع كل شك وكل إشكال.

وكلمة الثوري رواها أبو داود في سننه ، عقب الحديث : ١٨٠ ، بصيغة التمريض : " روى عن الثوري " . ثم نقضها هو نفسه ، فقال : " وقد روى حمزة الزيات ، عن حبيب ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة – حديثًا صحيحًا " .

والحديث رواه أيضًا أبو داود : ١٧٩ ، والترمذي : ٨٦ (بشرحنا) – كلاهما من طريق وكيع ، به. وفيهما " عن عروة " فقط ، كما هنا.

وقد أطال العلماء الكلام في تعليل هذا الحديث ، وخالفهم آخرون ، فأثبتوا صحته " عن عروة بن الزبير " . وهو الصواب. وفصلنا القول فيه في شرحنا للترمذي ١ : ١٣٣ – ١٤٢. وأثبتنا صحته ، وترجيح القول بأن " الملامسة " في هذه الآية هي الجماع ، وأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء. ولم نر حاجة لتكرار ذلك والإطالة به هنا. وانظر السنن الكبرى للبيهقي ، ورد ابن التركماني عليه ١ : ١٢٣ – ١٢٧ ، وابن كثير ٢ : ٤٦٥ – ٤٦٦.

[١] انظر: السبعة:٢٣٤.

[٢] انظر: النكت والعيون:١/٤٩١.

[٣] صفوة التفاسير:٢٥٤.

[٤] التفسير الميسر:٨٥.

[٥] أخرجه الطبري(٩٦٤٣):ص٨/٤٠٧.

[٦] اخرجه ابن ابي حاتم(٥٣٧٦):ص٣/٩٦٣.

[٧]رواية البيتين في ديوانه ص ٤٧٥:

ولما رأت أن الشريعة همها ... وأن البياض من فرائصها دام

تيممت العين التي عند ضارج ... يفيء عليها الطلح عرمضها طام

وهما في لسان العرب (ضرج، عرمض) ومقاييس اللغة ٣/ ٢٦٢ و ٤/ ٤٣٥ وتاج العروس (ضرج) .

وَلَمَّا رَأتْ أنَّ المَنِية ورِدُها وأن الحصَى من تحت أقدامها دَامِ
تيممت العين التي عند ضارج[1] يفيء عليها الفيء عَرْمَضها طام[2]

قال الزجاج:" معنى تيمموا أقصدوا، والصعيد وجه الأرض، فعلى الإنسان في التيمم أن يضرب بيديه ضربة واحدة فيمسح بهما جميعا وجهه، وكذلك يضرب ضربة واحدة، فيمسح بهما يديه، و«الطيب» هو النظيف الطاهر، ولا يبالي أكان في الموضع تراب أم لا، لأن الصعيد ليس هو التراب، إنما هو وجه الأرض، ترابا كان أو غيره. ولو أن أرضا كانت كلها صخرا لا تراب عليها ثم ضرب المتيمم يده على ذلك الصخر لكان ذلك طهورا إذا مسح به وجهه، قال الله عز وجل -: { **فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا**}[3]، فأعلمك أن الصعيد يكون زلقا، والصعدات الطرقات، وإنما سمي صعيدا، لأنها نهاية ما يصعد إليه من باطن الأرض، لا أعلم بين أهل اللغة اختلافا في أن الصعيد وجه الأرض"[4].

وفي الصعيد أربعة أقاويل :

أحدها : أنها الأرض الملساء التي لا نبات فيها ولا غِراس ، وهو قول قتادة [5].

والثاني : أنها الأرض المستوية ، وهو قول ابن زيد[6].

والثالث : هو التراب ، وهو قول عليّ ، وابن مسعود ، وعمرو بن قيس الملائي[7]، والشافعي، وأحمد بن حنبل وأصحابهما[8].

واحتجوا بقوله تعالى : { فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا } [الكهف : ٤٠] أي : ترابا أملس طيبا ، وبما ثبت في صحيح مسلم ، عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : «فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا ، وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء»[9]، وفي لفظ : "وجعل ترابها لنا طهورا إذا لم نجد الماء". قالوا : فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان ، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه[10].

والرابع : أنه وجه الأرض ذات التراب والغبار[11]، وهذا قول أبي عبيدة[12]، ومنه قول ذي الرُّمة[13]:

كَأَنَّهُ بِالضُّحَى تَرْمِي الصَّعِيدَ بِهِ دَبَّابَةٌ في عِظَامِ الرَّأسِ خُرْطُومُ

---

[1]ضارج: اسم موضع في بلاد بنى عبس. والعرمض: الطحلب. وقيل: الخضرة على الماء، والطحلب: الذي يكون كأنه نسخ العنكبوت. وطامي: مرتفع..

[2] انظر: تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

[3] [سورة الكهف:٤٠]..

[4] معاني القرىن:٥٦/٢.

[5] انظر: تفسير الطبري(٩٦٤٤):ص٤٠٨/٨.

[6] انظر: تفسير الطبري(٩٦٤٥):ص٤٠٨/٨.

[7] انظر: تفسير الطبري(٩٦٤٦):ص٤٠٨/٨.

[8] انظر: تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

[9]صحيح مسلم برقم (٥٢٢).

[10] انظر: تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

[11] انظر: تفسير الطبري:٤٠٨/٨. نسبه الطبري إلى البعض.

[12] انظر: تفسير ابن المنذر(١٨٢٤):ص٧٢٨/٢ ولفظه:"وجه الأرض".

[13]ديوانه: ٥٧١، من قصيدته المحكمة المشهورة. والبيت من أبياته في ذكر ظبية أودعت ولدها الصغير بين أشجار، فإذا ارتفعت شمس الضحى نال منه التعب، فانطرح على الأرض، كأنه سكران أثقله النعاس. وقوله:

يعني: تضرب به وجه الأرض[١].
وفي قراءة عبدالله: {فَأُمُّوا صَعِيدًا}[٢].
وفي قوله تعالى:{طَيِّبًا} [النساء : ٤٣]، أربعة أقاويل :
أحدها : حلالاً ، وهو قول سفيان[٣]، واختاره ابن كثير[٤].
والثاني : أن الطيب: ما أتت عليه الأمطار وطهرته، و{طيبا}، أي: طاهرا. وهذا قول سعيد بن بشر[٥]، والطبري[٦]، والزجاج[٧].
عن أبي ذر قال : "قال رسول الله ﷺ : «الصعيد الطيب طهور المسلم ، وإن لم يجد الماء عشر حجج ، فإذا وجده، فليمسه بَشرته ، فإن ذلك خير له»"[٨].
والثالث : تراب الحرث، وهو قول ابن عباس[٩].
والرابع : أنه مكان حَدِرٌ غير بَطِحٍ ، وهو قول ابن جريج[١٠].
قال ابن كثير:" استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية : أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد تطلبه ، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ التيمم. وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع ، كما هو مقرر في موضعه ، كما هو في الصحيحين ، من حديث عِمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ رأى رجلا معتزلا لم يصل في القوم ، فقال : «يا فلان ، ما منعك أن تصلي مع القوم ؟ ألست برجل مسلم ؟ قال : بلى يا رسول الله ، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء. قال : عليك بالصعيد ، فإنه يكفيك»[١١]"[١٢].
وقوله تعالى:{فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} [النساء : ٤٣]، أي:" فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم"[١٣].
قال الماوردي" فالوجه الممسوح في التيمم هو المحدود في غسل الوضوء"[١٤].
قال الطبري: والمسح منه بالوجه : أن يضرب المتيمم بيديه على وجه الأرض الطاهر ، أو ما قام مقامه ، فيمسَح بما علق من الغُبار وجهه"[١٥].

"دبابة": تدب في أوصال شاربها، يعني الخمر..

[١] انظر: تفسير الطبري:٤٠٩/٨.

[٢] انظر: تفسير الطبري:٤٠٧/٨.

[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٣٧٦):ص٩٦٣/٣.

[٤] انظر: تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٣٧٧):ص٩٦٣/٣.

[٦] انظر: تفسير الطبري: ٣ / ٣٠١، و ٥ / ٥٥٥ ، و٧ / ٤٢٤، و٤٠٩/٨-٤١٠.

[٧] انظر: معاني القرىن:٥٦/٢.

[٨] المسند (١٨٠/٥) وسنن أبي داود برقم (٣٣٢) وسنن الترمذي برقم (١٢٤) وسنن النسائي (١٧١/١).

[٩] انظر: النكت والعيون:٤٩١/١، قال ابن كثير:٢٨٠/٢:" رواه ابن أبي حاتم، ورفعه ابن مردويه في تفسيره".

[١٠] انظر: النكت والعيون:٤٩٢/١.

[١١] صحيح البخاري برقم (٣٤٨) وصحيح مسلم برقم (٦٨٢).

[١٢] تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

[١٣] تفسير الطبري:٤١٠/٨.

[١٤] النكت والعيون:٤٩٢/١.

[١٥] تفسير الطبري:٤١٠/٨.

فأما مسح اليدين ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : الكفان إلى الزندين دون الذراعين ، وهو قول عمار بن ياسر[١]، ومكحول[٢]، والشعبي والشعبي في أحد قوليه[٣]، وبه قال مالك في أحد قوليه[٤]، والشافعي في القديم [٥].

والثاني : الذراعان مع المرفقين ، وهو قول ابن عمر[٦]، والحسن[٧]، وعمر الشعبي[٨]، وسالم وسالم بن عبد الله [٩]، والشافعي في الجديد[١٠].

وقالوا:" لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين ، وعلى ما يبلغ المرفقين ، كما في آية الوضوء ، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين ، كما في آية السرقة : { فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا } [المائدة : ٣٨] قالوا : وحمل ما أطلق هاهنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية"[١١].

وذكر بعضهم ما رواه الدارقطني ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : "التيمم ضربتان : ضربة للوجه ، وضربة لليدين إلى المرفقين"[١٢].

وروى أبو داود عن ابن عمر - في حديث – "أن رسول الله ﷺ ضرب بيديه على الحائط ومسح بهما وجهه ، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه"[١٣].

والثالث : إلى المنكبين والإبطين ، وهو قول الزهري[١٤]، وحكي نحوه عن أبي بكر[١٥] .

قال الطبري:والصواب:" أن الحدّ الذي لا يجزئ المتيمم أن يقصِّر عنه في مسحه بالتراب من يديه : الكفان إلى الزّندين ، لإجماع الجميع على أن التقصير عن ذلك غير جائز. ثم هو فيما جاوز ذلك مخيّر ، إن شاء بلغ بمسحه المرفقين ، وإن شاء الآباط. والعلة التي من أجلها جعلناه مخيرًا فيما جاوز الكفين : أن الله لم يحدَّ في مسح ذلك بالتراب في التيمم حدًّا لا يجوز التقصير عنه. فما مسح المتيمم من يديه أجزأه ، إلا ما أُجمع عليه ، أو قامت الحجة بأنه لا

---

[١] انظر: تفسير الطبري(٩٦٥١):ص٨/٤١١، و(٩٦٥٧):ص٨/٤١٣.

[٢] انظر: تفسير الطبري(٩٦٥٣)، و(٩٦٥٤):ص٨/٤١١-٤١٢.

[٣] انظر: تفسير الطبري(٩٦٥٠):ص٨/٤١١، و(٩٦٥٥):ص٨/٤١٢.

[٤] انظر: النكت والعيون:١/٤٩٢.

[٥] انظر: تفسير ابن كثير:٢/٣٢٠.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٦٥٨)-(٩٦٦١):ص٨/٤١٤-٤١٥.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٦٦٢):ص٨/٤١٥.

[٨] .انظر: تفسير الطبري(٩٦٦٣)- (٩٦٦٥):ص٨/٤١٥-٤١٦.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٦٦٦):ص٨/٤١٦.

[١٠] انظر: الأم:١/٤٢، واحتج الشافعي بما رواه عن إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عن عبد الرحمن بن معاوية ، عن الأعرج ، عن ابن الصِّمَّة : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تيمم فمسح وجهه وذراعيه".

[١١] تفسير ابن كثير:٢/٣١٩.

[١٢]سنن الدارقطني (١/١٨٠). قال ابن كثير:٢/٣١٩:" لا يصح ؛ لأن في أسانيده ضعفاء لا يثبت الحديث بهم".

[١٣]سنن أبي داود برقم (٣٣١). قال ابن كثير في تفسيره:٢/٣١٩:" في إسناده محمد بن ثابت العَبْدي ، وقد ضعفه بعض الحفاظ ، ورواه غيره من الثقات فوقفوه على فعل ابن عمر ، قال البخاري وأبو زرعة وابن عَدِي : هو الصواب. وقال البيهقي : رفع هذا الحديث منكر".

[١٤] انظر: تفسير الطبري(٩٦٦٩):ص٨/٤١٨.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(٩٦٧٠):ص٨/٤١٨.

يجزئه التقصير عنه. وقد أجمع الجميعُ على أن التقصير عن الكفين غير مجزئ ، فخرج ذلك بالسنة ، وما عدا ذلك فمختلف فيه. وإذا كان مختلفًا فيه ، وكان الماسح بكفيه داخلا في عموم الآية كان خارجًا مما لزمه من فرض ذلك"[1].

قال ابن كثير:" التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به ، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه ، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع"[2].

واختلفوا في جواز التيمم في الجنابة على قولين :

أحدهما : يجوز ، وهو قول الجمهور [3].

والثاني : لا يجوز وهو قول عمر[4]، وابن مسعود[5]، وإبراهيم النخعي[6].

والراجح-والله أعلم- هو قول الجمهور، أي:" أن الجنب ممن أمره الله بالتيمم إذا لم يجد الماء ، والصلاةِ بقوله : {أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدًا طيبًا }"[7].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء : ٤٣]، أي:" إن الله تعالى كان كثير العفو يتجاوز عن سيئاتكم، ويسترها عليكم"[8].

قال الزجاج:" أي يقبل منكم العفو ويغفر لكم، لأن قبوله التيمم تسهيل عليكم"[9].

قال الطبري: أي:" إن الله لم يزل عفوا ، عن ذنوب عباده ، وتركه العقوبة على كثير منها ما لم يشركوا به ، كما عفا لكم ، أيها المؤمنون ، عن قيامكم إلى الصلاة التي فرضها عليكم في مساجدكم وأنتم سكارى " غفورًا " ، يقول : فلم يزل يستر عليهم ذنوبهم بتركه معاجلتهم العذابَ على خطاياهم ، كما ستر عليكم ، أيها المؤمنون ، بتركه معاجلتكم على صلاتكم في مساجدكم سكارى. يقول : فلا تعودوا لمثلها ، فينالكم بعودكم لما قد نهيتكم عنه من ذلك ، مُنَكِّلَة"[10].

قال سلمة بن وهرام صاحب طاوس:" أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و«الغفور»، ليغفر"[11].

قال سعيد بن المسيب:" ليس شيء أحب إلي من عفو"[12].

قال الشيخ السعدي:" وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقا، فإن الخمر -في أول الأمر- كان غير محرم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه بقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة : ٢١٩].

---

[1] تفسير الطبري:٤١٩/٨-٤٢٠.

[2] تفسير ابن كثير:٣١٩/٢.

[3] انظر: تفسير الطبري: ٤٢٠/٨، والنكت والعيون:٤٩٢/١.

[4] انظر: تفسير الطبري(٩٦٧٢):ص٤٢١/٨-٤٢٢.

[5] انظر: تفسير الطبري(٩٦٧١):ص٤٢٠/٨-٤٢١.

[6] انظر: تفسير الطبري(٩٦٧٣):ص٤٢٢/٨.

[7] تفسير الطبري:٤٢٢/٨.

[8] التفسير الميسر:٨٥.

[9] معاني القرآن:٥٦/٢.

[10] تفسير الطبري:٤٢٦/٨.

[11] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٣٧٩):ص٩٦٣/٣.

[12] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٣٨٠):ص٩٦٣/٣.

ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} [المائدة : ٩٠] الآية.

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة"[١].

الفوائد:

١- ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة، كالمسجد، فإنه لا يمكن السكران من دخوله. وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم بما يقول السكران[٢].

٢- منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين والتوق لطعام ونحوه كما ورد في ذلك الحديث الصحيح[٣].

٣-أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين:حال عدم الماء، وهذا مطلقا في الحضر والسفر، وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه.

٤-وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم ولو لم يضق الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب- والله أعلم-.

٥-من أسماءه تعالى«العفو» و«الغفور»، والعفوّ هو الذي له العفو الشامل الذي وسع ما يصدر من عباده من الذنوب، ولا سيما إذا أتوا لما يسبب العفو عنهم من الاستغفار، والتوبة، والإيمان، والأعمال الصالحة فهو سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

ومن أسمائه: «الغفور»، "من أبنية المبالغة؛ فالله عز وجل غفور؛ لأنه يفعل ذلك لعباده مرة بعد مرة إلى ما لا يحصى، فجاءت هذه الصفة على أبنية المبالغة لذلك، وهو متعلق بالمفعول؛ لأنه لا يقع الستر إلا بمستور يستر ويغطى، وليست من أوصاف المبالغة في الذات، إنما هي من أوصاف المبالغة في الفعل"[٤].

القرآن

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)} [النساء : ٤٤]

التفسير:

ألم تعلم -أيها الرسول- أمر اليهود الذين أُعطوا حظًّا من العلم مما جاءهم من التوراة، يستبدلون الضلالة بالهدى، ويتركون ما لديهم من الحجج والبراهين، الدالة على صدق رسالة الرسول محمد ﷺ، ويتمنون لكم -أيها المؤمنون المهتدون- أن تنحرفوا عن الطريق المستقيم؛ لتكونوا ضالين مثلهم.

في سبب نزول الآيات[٤٤-٤٦]:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم[٥]، عن ابن عباس قال : "كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظمائهم - يعني من عظماء اليهود إذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه وقال : راعنا سمعَك ،

---

[١] تفسير السعدي:١٧٩.

[٢] انظر: تفسير السعدي:١٧٩.

[٣] انظر: تفسير السعدي:١٧٩.

[٤] اشتقاق أسما الله، الزجاجي:٩٣.

[٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٨١):ص٣/٩٦٣.

يا محمد حتى نفهمك! ثم طعن في الإسلام وعابه ، فأنزل الله : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ}، إلى قوله : {فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}[1]"[2].

وفي السياق نفسه: أخرج الطبري عن عكرمة : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ}، إلى قوله:{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ}[3]، قال : نزلت في رفاعة بن زيد بن السائب اليهودي"[4].

وأخرج ابن المنذر عن السدي في قوله عز وجل: " {من الذين هادوا} الآية، قال: كان رجلان من اليهود، يقال لأحدهما: مالك بن الضيف والآخر: رفاعة بن زيد، إذا لقيا النبي ﷺ، قالا له، وهما يكلمانه: راعنا سمعك، واسمع غير مسمع، كقولك: اسمع غير صاغر، فظن المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم قال أصحاب النبي ﷺ للنبي مثل ذلك، فنهوا عن ذلك، فأنزل الله جل وعز: {يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا} "[5].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: "وكان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف وأسامة بن حبيب، ورافع بن أبي رافع، وبحر بن عمرو، وحيي بن أخطب، ورفاعة بن زيد يأتون رجالا من الأنصار يخالطونهم وينصحون لهم من أصحاب محمد، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله تعالى: {ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا}[6]"[7].

نصيرا}[6]"[7].

وقال مقاتل:" {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا}... وهم اليهود، منهم: إصبع، ورافع ابنا حريملة، وهما من أحبار اليهود، { ويريدون أن تضلوا السبيل}،يعني: أن تخطئوا قصد طريق الهدى كما أخطأوا الهدى، نزلت في عبد الله بن أبي، ومالك بن دخشم حين دعوهما إلى دين اليهودية وعيروهما بالإسلام وزهدوهما فيه وفيهما نزلت"[8].

وأخرج الطبري عن عبيد بن سليمان قال :"سمعت الضحاك يقول في قوله :{راعنا ليًّا بألسنتهم}، كان الرجل من المشركين يقول : أرعني سمعك! يلوي بذلك لسانه، يعني : يحرِّف معناه"[9].

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ} [النساء : ٤٤]، أي:" ألم تعلم - أيها الرسول- أمر اليهود الذين أُعطوا حظًّا من العلم مما جاءهم من التوراة"[10].

قال مقاتل:" ألم تر إلى فعل الذين أعطوا {نصيبا}، يعني حظا {من الكتاب}، يعني: التوراة"[11].

قال أبو عبيدة: "{نصيبا من الكتاب} قال: طرفا وخطا"[1].

---

[1][سورة النساء : ٤٦].

[2] تفسير الطبري(٩٦٨٩):ص٤٢٧/٨، و(٩٦٩٠):ص٤٢٨/٨

[3][سورة النساء : ٤٦].

[4] تفسير الطبري(٩٦٨٨):ص٤٢٧/٨.

[5] تفسير ابن المنذر(١٨٣٧):ص٧٣٣/٢.

[6] [سورة النساء: الآيات٤٤-٤٥] .

[7] تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٨٧):ص٩٦٤/٣.

[8] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٥/١-٣٧٦

[9] تفسير الطبري(٩٧٠٤):ص٤٣٦/٨.

[10] التفسير الميسر:٨٥.

[11] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٥/١.

قال أبو مالك:" {نصيبا}، يعني: حظا"[2]، "{من الكتاب}، قال: من التوراة"[3].

قال الزمخشري:" {ألم تر}، من رؤية القلب، وعدى بـ{إلى}، على معنى: ألم ينته علمك إليهم؟ أو بمعنى: ألم تنظر إليهم؟ {أوتوا نصيبا من الكتاب}، حظا من علم التوراة، وهم أحبار اليهود"[4].

قال أبو هلال العسكري:" وقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ}، معناه: ألم تخبر بذلك، وهذا أيضا يرجع إلى معنى العلم، لأنه إذا أخبر به فقد علمه، ويجوز أن يكون تعجيبا منهم كما تقول لصاحبك: ألم تر إلى فلان كيف أُحسن إليه ويجفو بي ونحو ذلك"[5].

قوله تعالى:{يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ} [النساء : ٤٤]، أي:" ويستبدلون الضلالة بالهدى"[6].

قال أبو العالية:" اختاروا الضلالة"[7].

قال قتادة:" هم أعداء الله اليهود، اشتروا الضلالة، يقول: استحبوها"[8].

قال ابن عباس:" الضلالة أي: الكفر"[9].

قال مقاتل:" يعني باعوا إيمانا بمحمد- ﷺ- قبل أن يبعث، بتكذيب بمحمد- ﷺ- بعد بعثته، وهم اليهود منهم إصبع، ورافع ابنا حريملة، وهما من أحبار اليهود"[10].

قال الزمخشري:أي:" يستبدلونها بالهدى، وهو البقاء على اليهودية، بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله ﷺ، وأنه هو النبي العربي المبشر به في التوراة والإنجيل"[11].

قال الراغب:" واشتراء الضلالة بالهدى: استبدالها به بغد حصوله، والرغبة في الضلالة بعد التمكن من الهدى، وقد أعاد تعالى هذا المعنى في مواضع تحذيرا منهم، وتخويفا من الاغترار بهم، وعلى ذلك قوله من قبل: {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء : ٢٧]، ونحوه قوله: {وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة : ٧٧] "[12].

قوله تعالى:{وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ} [النساء : ٤٤]، "أي: ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم"[13].

قال مقاتل:" يعني: أن تخطئوا قصد طريق الهدى كما أخطأوا الهدى"[14].

قال الزمخشري:أي:" أنتم أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوه، وتنخرطوا في سلكهم لا تكفيهم ضلالتهم بل يحبون أن يضل معهم غيرهم"[1].

---

(1) أخرجه ابن المنذر(١٨٢٨):ص٧٣٠/٢.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٨٢):ص٩٦٤/٣.

(3) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٨٣):ص٩٦٤/٣.

(4) الكشاف:٥١٥/١.

(5) الوجوه والنظائر:٢٣٧.

(6) التفسير الميسر:٨٥.

(7) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٨٤):ص٩٦٤/٣.

(8) أخرجه ابن المنذر(١٨٢٩):ص٧٣٠/٢.

(9) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٨٦):ص٩٦٤/٣.

(10) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٦/١.

(11) الكشاف:٥١٥/١-٥١٦.

(12) تفسير الراغب الأصفهاني:١٢٥٧/٣-١٢٥٨.

(13) صفوة التفاسير:٢٥٦.

(14) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٦/١.

وقرئ: {أن يضلوا}، بالياء بفتح الضاد وكسرها [٢].

الفوائد:

١-الآية ذم لليهود وفي ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم، والوقوع في أشراكهم.

٢- بيان مكر اليهود بالمؤمنين بالعمل على إضلالهم في عهد النبوة وإلى اليوم.

القرآن

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥)} [النساء : ٤٥]

التفسير:

والله سبحانه وتعالى أعلم منكم -أيها المؤمنون- بعداوة هؤلاء اليهود لكم، وكفى بالله وليًّا يتولاكم، وكفى به نصيرًا ينصركم على أعدائكم.

قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ} [النساء : ٤٥]، أي:"والله سبحانه وتعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضَّالين منكم"[٣].

قال مقاتل:" يعني :بعداوتهم إياكم، يعني: اليهود"[٤].

قال الزجاج:" أي هو أعرف بهم فهو يعلمكم ما هم عليه"[٥].

قال ابن كثير:" أي : هو يعلم بهم ويحذركم منهم"[٦].

قال الثعلبي:أي:" فلا تستنصحوهم فإنهم أعداؤكم، ويجوز أن يكون أعلم بمعنى عليم [كقوله تعالى: {وَهُوَ أَهْوَنُ}[٧]عليه"[٨].

قال الزمخشري:" وقد أخبركم بعداوة هؤلاء، وأطلعكم على أحوالهم وما يريدون بكم فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم ولا تستشيروهم"[٩].

قوله تعالى:{وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا } [النساء : ٤٥]، أي:" وكفى بالله وليًّا يتولاكم، وكفى به نصيرًا ينصركم على أعدائكم"[١٠].

قال مقاتل:" فلا ولي أفضل من الله- عز وجل-، فلا ناصر أفضل من الله- جل ذكره-"[١١].

قال ابن كثير:" أي : كفى به وليا لمن لجأ إليه، ونصيرا لمن استنصره"[١٢].

قال الطبري:" يقول : وحسبكم بالله ناصرًا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم ، وعلى من بغاكم الغوائل ، وبغى دينكم العوَج"[١٣].

---

[١] الكشاف:٥١٦/١.

[٢] انظر: الكشاف:٥١٦/١، وتفسير الثعلبي:٣٢٣/٣.

[٣] انظر: صفوة التفاسير:٢٥٦، والتفسير الميسر:٨٦.

[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٦/١.

[٥] معاني القرىن:٥٧/٢.

[٦] تفسير ابن كثير:٣٢٣/٢.

[٧][سورة الروم : ٢٧].

[٨] تفسير الثعلبي:٣٢٣/٣.

[٩] الكشاف:٥١٦/١.

[١٠] التفسير الميسر:٨٦.

[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٦/١.

[١٢] تفسير ابن كثير:٣٢٣/٢.

[١٣] تفسير الطبري:٤٣٠/٨.

قال السعدي:" أي: يتولى أحوال عباده ويلطف بهم في جميع أمورهم، وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم، {وكفى بالله نصيرا} ينصرهم على أعدائهم ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم. فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر"[1].

قال الصابوني:أي:" أي: حسبكم أن يكون الله ولياً وناصراً لكم فثقوا به واعتمدوا عليه وحده فهو تعالى يكفيكم مكرهم"[2].

قال الزمخشري:أي:" فثقوا بولايته ونصرته دونهم. أو لا تبالوا بهم، فإن الله ينصركم عليهم ويكفيكم مكرهم"[3].

قال الزجاج:" أي: الله ناصركم عليهم. ومعنى «الباء» التوكيد، المعنى: وكفى الله وليا وكفى الله نصيرا، إلا أن «الباء» دخلت في اسم الفاعل، لأن معنى الكلام الأمر، المعنى: اكتفوا بالله"[4].

قال عثمان بن زائدة: "سمعت وهيب بن ورد يقول: قال الله عز وجل: ابن آدم اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارض بنصرتي فإن نصري لك خير من نصرتك لنفسك"[5].

الفوائد:

١-حرص اليهود على إضلال المسلمين غاية الحرص، فهم باذلون جهدهم في ذلك.

٢- في كفاية الله للمؤمنين ونصرته ما يغنيهم أن يطلبوا ذلك من أحد غير ربهم عز وجل.

٣-إثبات اسمين من أسماءه تعالى، وهما: «المولى» «والنصير»:

يوصف الله عز وجل بأنه ولي الذين آمنوا ومولاهم، و«الولي» و«المولى»: اسمان لله تعالى، قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا} [البقرة: ٢٥٧] : "نصيرهم وظهيرهم؛ يتولاهم بعونه وتوفيقه"[6].

جاء في الحديث:"اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها"[7].

ويوصف الله عز وجل بأنه «الناصر» و«النصير»، والله - عز وجل - هو النصير الذي ينصر عباده المؤمنين ويعينهم.

و«النصير»: فعيل بمعنى فاعل أو مفعول؛ لأن كل واحد من المتناصرين ناصرٌ ومنصورٌ وقد نصره ينصره نصراً، إذا أعانه على عدوه وشدّ منه[8]، والله - عز وجل - النصير، ونصره ليس كنصر المخلوق: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[الشورى:١١][9].

---

[1] تفسير السعدي:١٨٠.

[2] صفوة التفاسير:٢٥٦.

[3] الكشاف:٥١٦/١.

[4] معاني القرىن:٥٧/٢.

[5] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٨٩):ص٩٦٥/٣.

[6] تفسير الطبري:٤٢٤/٥.

[7] رواه مسلم (٢٧٢٢).

[8] انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ٥/ ٦٤..

[9] الأسماء والصفات للبيهقي، بتحقيق الشيخ عماد الدين أحمد، ١/ ١٢٧ – ١٢٨.

جاء في الحديث:" "اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أحول وبك أصول وبك أقاتل"[1].

قال أهل العلم: «الناصر» : ليس من أسماء الله تعالى، وعليه؛ فلا يصح التعبد به؛ مثل: عبد الناصر"[2].

القرآن

{مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)} [النساء : ٤٦]

التفسير:

من اليهود فريق دأبوا على تبديل كلام الله وتغييره عمَّا هو عليه افتراء على الله، ويقولون للرسول ﷺ: سمعنا قولك وعصينا أمرك واسمع منَّا لا سمعت، ويقولون: راعنا سمعك أي: افهم عنا وأفهمنا، يلوون ألسنتهم بذلك، وهم يريدون الدعاء عليه بالرعونة حسب لغتهم، والطعن في دين الإسلام. ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، بدل و «عصينا» ، واسمع دون «غير مسمع» ، وانظرنا بدل «راعنا» لكان ذلك خيرًا لهم عند الله وأعدل قولا ولكن الله طردهم من رحمته؛ بسبب كفرهم وجحودهم نبوة محمد ﷺ، فلا يصدقون بالحق إلا تصديقًا قليلا لا ينفعهم.

قوله تعالى:{مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [النساء : ٤٦]، أي:" من اليهود فريق دأبوا على تبديل كلام الله وتغييره عمَّا هو عليه افتراء على الله"[3].

قال أبو عبيدة: " {من الذين هادوا} ، في هذا الموضع: اليهود "[4]، " {يحرفون}: يقلبون، ويغيرون، و{الكلم}: جماعة كلمة "[5].

عن مجاهد، في قوله عز وجل " {يحرفون الكلم عن مواضعه}: تبديل اليهود التوراة "[6].

وقال إبراهيم:" كان ينزل عليهم يا بني رسلي، يا بني أحباري، قال: فحرفوه وجعلوه يا بني أبكاري"[7].

قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} [النساء : ٤٦]،أي:" ويقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: سمعنا قولك وعصينا أمرك"[8].

قال البغوي:" أي :{ويقولون سمعنا} قولك، {وعصينا} أمرك"[9].

عن مجاهد، في قوله عز وجل: " {سمعنا وعصينا} ما تقول، ولا نطيعك "[10].

قوله تعالى:{وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ} [النساء : ٤٦]، أي: واسمع ما نقول لا سمعت"[1].

---

[1] صحيح. رواه: أبو داود (٢٦٣٢) ، والترمذي (صحيح سنن الترمذي/٢٨٣٦) ، وغيرهما. وصححه الألباني في "الكلم الطيب":(١٢٦) ..

[2] صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة:٣٣٦.

[3] التفسير الميسر:٨٦.

[4] أخرجه ابن المنذر(١٨٣٠):ص٢/٧٣١.

[5] أخرجه ابن المنذر(١٨٣٣):ص٢/٧٣١.

[6] أخرجه ابن المنذر(١٨٣١):ص٢/٧٣١.

[7] أخرجه ابن المنذر(١٨٣٢):ص٢/٧٣١.

[8] التفسير الميسر:٨٦.

[9] تفسير البغوي:٢/٢٣٠.

[10] أخرجه ابن المنذر(١٨٣٤):ص٢/٧٣٢.

قال البغوي:" أي: اسمع منا ولا نسمع منك"[٢].

قال الطبري:" وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن اليهود الذين كانوا حوالَيْ مهاجر رسول الله ﷺ في عصره : أنهم كانوا يسبّون رسول الله ﷺ ويؤذونه بالقبيح من القول ، ويقولون له : اسمع منا غير مسمع ، كقول القائل للرجل يَسُبُّه : اسمع ، لا أسمعَك الله "[٣].

قال الزجاج:" كانت إليهود - لعنت - تقول للنبي - ﷺ -: اسمع، وتقول في أنفسها لا أسمعت.

وقيل غير مسمع، غير مجاب إلى ما تدعو إليه"[٤].

عن مجاهد: " {واسمع غير مسمع}: غير مقبول ما تقول "[٥].

وفي قوله تعالى:{وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ} [النساء : ٤٦]، قولان :

إحداهما : معناه : اسمع لا سمعت ، وهو قول ابن عباس[٦]، وابن زيد[٧] .

والثاني : أنه غير مقبول منك ، وهو قول الحسن[٨]، ومجاهد[٩]، والسدي[١٠].

قوله تعالى:{وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} [النساء : ٤٦]، أي:" ويقولون: راعنا سمعك، يلوون ألسنتهم بذلك، وهم يريدون الدعاء عليه بالرعونة، والطعن في دين الإسلام"[١١].

قال البغوي:" أي: ويقولون راعنا، يريدون به النسبة إلى الرعونة، تحريفا بالسنتهم، وقدحا {في الدين}، لأن قوله: {وراعنا}، من المراعاة، وهم يحرفونه، يريدون به الرعونة "[١٢].

قال الطبري:أي:" أي : راعنا سمعك ، افهم عنّا وأفهمنا، تحريكًا منهم بألسنتهم بتحريف منهم لمعناه إلى المكروه من معنييه، واستخفافًا منهم بحق النبي ﷺ ، وطعنًا في الدين"[١٣].

قال محمد بن إسحاق:" أي: أرعنا سمعك "[١٤].

قال الحسن:" الراعن من القول: السخري منه"[١٥].

قال ابن عباس:" {ليا بألسنتهم}: تحريفا بالكذب"[١٦].

قال ابن قتيبة:" {لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ}،أي: قلبا للكلام بها"[١٧].

---

[١] صفوة التفاسير:٢٥٧.

[٢] تفسير البغوي:٢/٢٣٠.

[٣] تفسير الطبري:٨/٤٣٣.

[٤] معاني القرآن:٢/٥٨.

[٥] أخرجه ابن المنذر(١٨٣٦):ص٢/٧٣٢.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٦٩٨):ص٨/٤٣٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٦٩٧):ص٨/٤٣٣-٤٣٤.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٧٠١):ص٨/٤٣٤.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٦٩٩)، و(٩٧٠٠):ص٨/٤٣٤.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٧٠٢):ص٨/٤٣٣٤-٤٣٥.

[١١] التفسير الميسر:٨٦.

[١٢] تفسير البغوي:٢/٢٣٠.

[١٣] تفسير الطبري:٨/٤٣٥.

[١٤] أخرجه ابن المنذر(١٨٣٩):ص٢/٧٣٤.

[١٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٠٠):ص٣/٩٦٦.

[١٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٠١):ص٣/٩٦٧.

[١٧] تأويل مشكل القرآن:٢١٨.

قال مجاهد:"{ ليا بألسنتهم}،: يلوون ألسنتهم"[١]، وفي رواية اخرى:" {ليا}: خلافا يكون يكون بألسنتهم"[٢].

قال عطاء:" يلوي بذلك لسانه ويطعن في الدين"[٣].

قال قتادة : "كانت اليهود يقولون للنبي ﷺ : " راعنا سمعك " ! يستهزئون بذلك ، فكانت اليهود قبيحة أن يقال : راعنا سمعك ، {ليًّا بألسنتهم}، واللَيّ :تحريكهم ألسنتهم بذلك، وطعنًا في الدين " [٤].

قال السدي:" قوله عز وجل " {ليا بألسنتهم} قال: الكلام شبه الاستهزاء {وطعنا في الدين} ، قال: في دين محمد عليه السلام "[٥].

قال الزجاج:" {ليا بألسنتهم}،أي: يفعلون ذلك معاندة للحق وطغيانا في الدين، وأصل {ليا }،لويا، ولكن الواو أدغمت في الياء لسبقها بالسكون"[٦].

قال الراغب:" اللي: أصله الفتل فاستعير لصرف الإنسان عما يريده، وصرف الكلام من وجه إلى وجه استعارة الجدل في الجدال، ومنه لي الغريم، ولواء الجيش لكونه في الأصل خيطا ملويا. واللوى: الملوئ من الرمل؛ لا يصنعه البشر"[٧].

وفي قوله تعالى:{وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} [النساء : ٤٦]، ثلاثة أقاويل: أحدها : أن هذه الكلمة كانت سَبّاً في لغتهم ، كانوا يسبون النبي - ﷺ - بهذه الكلمة، فأطلع الله نبيّه عليها فنهاهم عنها. حكاه الزجاج عن بعضهم[٨].

والثاني : أنها كانت تجري مجرى الهُزْءِ والسخري. وهذا قول ابن عباس[٩]، وقتادة[١٠]، والسدي[١١]، واختيار الزجاج[١٢].

والثالث : إنها كانت تخرج مخرج الكِبْر، " كأنهم يقولون: ارعنا سمعك أي اجعل كلامك لسمعنا مرعى. حكاه الزجاج عن بعضهم[١٣].

قال الزجاج:" وهذا مما لا تخاطب به الأنبياء - صلوات الله عليهم –، إنما يخاطبون بالإجلال والإعظام"[١٤].

قوله تعالى:{وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}[النساء :٤٦]، أي:" ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا عوضا عن قوله سمعنا وعصينا"[١].

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٠٢):ص٩٦٧/٣.

[٢] أأخرجه ابن المنذر(١٨٤١):ص٧٣٤/٢.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٠٤):ص٩٦٧/٣.

[٤] أأخرجه الطبري(٩٧٠٣):ص٤٣٥/٨، وأخرجه ابن المنذر(١٨٤٢):ص٧٣٤/٢، مختصرا.

[٥] أأخرجه ابن المنذر(١٨٤٠):ص٧٣٤/٢.

[٦] معاني القرآن:٥٩/٢.

[٧] تفسير الراغب الأصفهاني:١٢٥٩/٣.

[٨] انظر: معاني القرآن للزجاج:٥٨/٢، والنكت والعيون:٤٩٣/١.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٧٠٥):ص٤٣٦/٨.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٧٠٣):ص٤٣٥/٨.

[١١] انظر: تفسير ابن المنذر(١٨٤٠):ص٧٣٤/٢.

[١٢] انظر: معاني القرآن:٥٨/٢.

[١٣] انظر: معاني القرآن للزجاج:٥٨/٢-٥٩، والنكت والعيون:٤٩٣/١.

[١٤] معاني القرآن:٥٩/٢.

قال مقاتل بن حيان:" سمعنا للقرآن الذي جاد من الله، وأطعنا: أقروا لله أن يطيعوه في أمره ونهيه"[٢].

قوله تعالى:{وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا} [النساء : ٤٦]، أي: " واسمع وانظرنا، عوضاً عن قولهم غير مسمع وراعنا"[٣].

قال مجاهد:" {انظرنا}: أفهمنا"[٤]، وفي رواية: "أفهمنا وبين لنا يا محمد "[٥]، وفي رواية أخرى:"يقولون: أفهمنا لا تعجل علينا سوف نتبعك إن شاء الله"[٦].

قوله تعالى:{لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ} [النساء : ٤٦]، "أي: لكان ذلك القول خيراً لهم عند الله وأعدل وأصوب"[٧].

قال الزمخشري:أي:" لكان قولهم ذلك خيرا لهم وأقوم وأعدل وأسد"[٨].

قال ابن عطية:" {أقوم}، معناه: أعدل وأصوب"[٩].

قوله تعالى:{وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ } [النساء : ٤٦]، " أي: ولكن أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق "[١٠].

قال الزمخشري:أي:" ولكن لعنهم الله بكفرهم أى خذلهم بسبب كفرهم، وأبعدهم عن ألطافه"[١١].

قال ابن عطية:" «واللعنة» : الإبعاد، فمعناه: أبعدهم من المهدي"[١٢].

قوله تعالى:{فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ٤٦]، " أي: فلا يصدقون بالحق إلا تصديقًا قليلا"[١٣].

قال قتادة:" لا يؤمنون هم إلا قليلا"[١٤].

وقال الكلبي: "لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم "[١٥].

قال الزجاج:" أي: فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، لا يجب به أن يسموا المؤمنين، وقيل: أي: إلا قليلا منهم، فإنهم آمنوا"[١٦].

قال البغوي:أي:" إلا نفرا قليلا منهم، وهو عبد الله بن سلام ومن أسلم معه منهم"[١].

---

[١] انظر: التفسير الميسر:٨٦، وصفوة التفاسير:٢٥٧

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٠٦):ص٩٦٧/٣.

[٣] انظر: التفسير الميسر:٨٦، وصفوة التفاسير:٢٥٧

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٠٧):ص٩٦٧/٣.

[٥] أخرجه ابن المنذر(١٨٤٤):ص٧٣٥/٢.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم٨٥٤٠٧):ص٩٦٧/٣.

[٧]صفوة التفاسير:٢٥٧.

[٨] الكشاف:٥١٨/١.

[٩] المحرر الوجيز:٦٢/٢.

[١٠] صفوة التفاسير:٢٥٧.

[١١] الكشاف:٥١٨/١.

[١٢] المحرر الوجيز:٦٢/٢.

[١٣] انظر: التفسير الميسر:٨٦.

[١٤] أخرجه ابن المنذر(١٨٤٥):ص٧٣٥/٢.

[١٥] أخرجه ابن المنذر(١٨٤٦):ص٧٣٥/٢.

[١٦] معاني القرآن:٥٩/٢.

قال الزمخشري:أي:" فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا أى ضعيفا ركيكا لا يعبأ به، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره، أو أراد بالقلة العدم، كقوله(٢):
قَلِيلُ التَّشَكِّي للمُهِمِّ يُصِيبُهُ [كَثِيرُ الهَوَى شَتَّى النَّوَى والمَسَالِك]
أى عديم التشكي، أو إلا قليلا منهم قد آمنوا"(٣).

قال ابن عطية:" {قليلا}: نعت، إما لإيمان وإما لنفر أو قوم، والمعنى مختلف، فمن عبر بالقلة عن الإيمان قال: إما هي عبارة عن عدمه على ما حكى سيبويه من قولهم: أرض قل ما تنبت كذا، وهي لا تنبته جملة، وإما قلل الإيمان لما قلت الأشياء التي آمنوا بها فلم ينفعهم ذلك، وذلك أنهم كانوا يؤمنون بالتوحيد ويكفرون بمحمد وبجميع أوامر شريعته ونواهيها، ومن عبر بالقلة عن النفر قال: لا يؤمن منهم إلا قليل، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما، وإذا قدرت الكلام نفرا قليلا، فهو نصب في موضع الحال وفي هذا نظر"(٤).

الفوائد:

١- أن من صفات اليهود: تحريف الكلم عن مواضعه، إذ بين الله تعالى كيفية ضلال علماء اليهود وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق فقال:{من الذين هادوا حرفون الكلم عن مواضعه}.

٢- أن تحريف اليهود يكمن في تغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعا. فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك، فهذا حالهم في العلم أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق، وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم {يقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين}.

٣-أن الله تعالى طرد اليهود من رحمته بسبب كفرهم وعنادهم، فقال: {ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا}.

---

(١) تفسير البغوي:٢/٢٣٠.

(٢)لتأبط شرا، يمدح شمس بن مالك من رؤساء العرب. انظر: حماسة أبي تمام ١/ ٤٧. وقيل لأبى كبير الهذلي يمدح تأبط شرا. والمعنى: أنه عديم التشكي ليظهر المدح. أى لا يشتكى لأجل المهم حال كونه يصيبه. كثير هوى النفس. والشت كالشتات في الأصل مصدر، ويستعملان بمعنى المتفرق المنتشر. وروى نشر النوى، وهو بمعناه. وروى شتى النوى وهو جمع شتيت، أى متفرق مختلف، أى نواه ومسالكه شتى أى كثيرة مختلفة. والنوى: اسم جمع نواة، وهي نية المسافر، ويطلق على البعد أيضا فهو مذكر، ويطلق على نية المسافر فيؤنث. والموماة: المفازة لا ماء بها..

(٣) الكشاف:٥١٨/١ قال أبو حيان: ما ذكره من أنَّ القليل يراد به العدم" صحيح في نفسه، لكن ليس هذا التركيب الاستثنائي من تراكيبه. فإذا قلت: لا أقوم إلا قليلا، لم يوضع هذا لانتفاء القيام ألبتة، بل هذا يدل على انتفاء القيام منك إلا قليلا فيوجد منك. وإذا قلت: قلما يقوم أحد إلا زيد، وأقل رجل يقول ذلك احتمل هذا، أن يراد به التقليل المقابل للتكثير، واحتمل أن يراد به النفي المحض. وكأنك قلت: ما يقوم أحد إلا زيد، وما رجل يقول ذلك. إما أن تنفي ثم توجب ويصير الإيجاب بعد النفي يدل على النفي، فلا إذ تكون إلا وما بعدها على هذا التقدير، جيء بها لغوا لا فائدة فيه، إذ الانتفاء قد فهم من قولك: لا أقوم. فأي فائدة في استثناء مثبت يراد به الانتفاء المفهوم من الجملة السابقة؟ وأيضا، فإنه يؤدي إلى أن يكون ما بعد إلا موافقا لما قبلها في المعنى. وباب الاستثناء لا يكون فيه ما بعد إلا موافقا لما قبلها، وظاهر قوله: فلا يؤمنون إلا قليلا، إذا جعلناه عائدا إلى الإيمان، أن الإيمان يتجزأ بالقلة والكثرة، فيزيد وينقص، والجواب: أن زيادته ونقصه هو بحسب قلة المتعلقات وكثرتها".[البحر المحيط:٦٦٤/٣-٦٦٥]..

(٤) المحرر الوجيز:٦٢/٢.

٤- إن التحريف من دأب اليهود، قال الشيخ ابن عثيمين:" فكل من حرف نصوص الكتاب والسنة، ففيه شبه من اليهود، فأحذر هذا، ولا تتشبه بالمغضوب عليهم الذين جعل الله منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، لا تحرف، بل فسر الكلام على ما أراد الله ورسوله"[١].
٥- أن الإيمان القليل لا يجدي صاحبه ولا ينفعه بحال.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)} [النساء : ٤٧]

التفسير:

يا أهل الكتاب، صدِّقوا واعملوا بما نزَّلنا من القرآن، مصدقًا لما معكم من الكتب من قبل أن نأخذكم بسوء صنيعكم، فنمحو الوجوه ونحولها قِبَلَ الظهور، أو نلعن هؤلاء المفسدين بمسخهم قردة وخنازير، كما لعنَّا اليهود مِن أصحاب السبت، الذين نُهوا عن الصيد فيه فلم ينتهوا، فغضب الله عليهم، وطردهم من رحمته، وكان أمر الله نافذًا في كل حال.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدها: أخرج الطبري وابن أبي حاتم[٢]، عن السدي : " {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} إلى قوله : { كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ} ، قال : نزلت في مالك بن الصَّيِّف ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، من بني قينقاع"[٣].

والثاني: أخرج الطبري ابن عباس قال : "كلَّم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود : منهم عبد الله بن صوريا ، وكعب بن أسد فقال لهم : «يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا! فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحقٌّ! فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد! وجحدوا ما عرفوا ، وأصرّوا على الكفر»[٤]، فأنزل الله فيهم : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا}، الآية"[٥]. وروي عن عكرمة نحو ذلك[٦].

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [النساء : ٤٧]،أي:" يا أهل الكتاب"[٧].

قال الطبري:يعني:" اليهود من بني إسرائيل ، الذين كانوا حوالَيْ مهاجَر رسول الله ﷺ ، قال الله لهم : يا أيها الذين أنزل إليهم الكتاب فأعطوا العلم به"[٨].

قال الماوردي:" يعني اليهود والنصارى"[٩].

قال ابو السعود:" تلوين للخطاب وتوجيه له إما إلى من حكيت أحوالهم وأقوالهم خاصة بطريق الالتفات ووصفهم تارة بإيتاء الكتاب أي التوراة وأخرى بإيتاء نصيب منها لتوفية كل من المقامين حقه فإن المقصود فيما سبق بيان أخذهم الضلالة وإزالة ما أوتوه بمقابلتها بالتحريف وليس ما أزالوه بذلك كلها حتى يوصفوا بإيتائه بل هو بعضها فوصفوا بإيتائه وأما ههنا فالمقصود تأكيد إيجاب الامتثال بالأمر الذي يعقبه والتحذير عن مخالفته من حيث أن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه والكفر بالثاني مقتض للكفر بالأول قطعا ولا ريب

---

[١] شرح العقيدة الواسطية:١/١١٨.
[٢] انظظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤١٠):ص٣/٩٦٨.
[٣] تفسير الطبري(٩٧٢١):ص٨/٤٤٢.
[٤]صحيح البخاري: ٤/ ٢٦٠ بتفاوت..
[٥] تفسير الطبري(٩٧٢٤):ص٨/٤٤٥-٤٤٦.
[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤١١):ص٣/٩٦٨.
[٧] التفسير الميسر:٨٦.
[٨] تفسير الطبري:٨/٤٤٠.
[٩] النكت والعيون:١/٤٩٤.

في أن المحذور عندهم إنما هو لزوم الكفر بالتوراة نفسها لا ببعضها وذلك إنما يتحقق بجعل القرآن مصدقا لكلها وإن كان مناط التصديق بعضا منها ضرورة أن مصدق البعض مصدق للكل المتضمن له حتما وإما إليهم وإلى غيرهم قاطبة وهو الأظهر وأياما كان فتفصيل ما فصل لما كان من مظان إقلاع كل من الفريقين عما كانوا عليه من الضلالة"[(١)].

قوله تعالى: {آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ} [النساء : ٤٧]، أي:" صدِّقوا واعملوا بما نزَّلنا من القرآن، مصدقًا لما معكم من الكتب"[(٢)].

قال الطبري: أي:" صدِّقوا بما نزلنا إلى محمد من الفرقان، محقِّقًا للذي معكم من التوراة التي أنزلتها إلى موسى بن عمران"[(٣)].

قال ابن كثير:" يقول تعالى - آمرا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات"[(٤)].

قال أبو السعود:" عبّر عنه[أي القرآن] بالموصول، تشريفا له بما في حيز الصلة وتحقيقا لكونه من عنده عز وجل، وقوله: {مصدقا لما معكم}، أي: من التوراة، فعبر عنها بذلك للإيذان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال فإن المعية المستدعية لدوام تلاوتها وتكرير المراجعة إليها من موجبات العثور على ما في تضاعيفها المؤدي إلى العلم بكون القرآن مصدقا لها ومعنى تصديقه إياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أو كونه موافقا لها في القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش وأما ما يتراءى من مخالفته لها في جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأمم والأعصار فليست بمخالفة في الحقيقة بل هي عين الموافقة من حيث إن كلا منها حق بالإضافة إلى عصره متضمن للحكمة التي عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال ﷺ :«لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي»[(٥)]"[(٦)].

قوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا } [النساء : ٤٧]، أي:" من قبل أن نأخذكم بسوء صنيعكم، فنمحو الوجوه ونحولها قِبَلَ الظهور"[(٧)].

قال القاسمي:" أي: نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم"[(٨)].

قال ابن عباس:" طمسها: أن تعمى"[(٩)].

قال أبو عبيدة:" أي: نسوها حتى تكون كأقفائهم، يقال للريح: طمست آثارنا، أي: محتها، وطمس الكتاب "[(١٠)].

قال أبو دريس عائذ الله الخولاني: "كان أبو مسلم معلم كعب، وكان يلومه على إبطائه عن رسول الله ﷺ، قال: بعثه إليه لينظر أهو هو؟ قال: حتى أتيت المدينة، فإذا تال يقرأ القرآن

---

(١) تفسير أبي السعود:٢/١٨٥.

(٢) التفسير الميسر:٨٦.

(٣) تفسير الطبري:٨/٤٤٠.

(٤) تفسير ابن كثير:٢/٣٢٤.

(٥) الحديث:" لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني". أخرجه أحمد(١٤٦٨٥):ص ٣/٣٣٨ ، ، وفي(١٥٢٢٣):ص ٣/٣٨٧ ، والدارمي (٤٣٥).

(٦) تفسير أبي السعود:٢/١٨٥.

(٧) التفسير الميسر:٨٦.

(٨) محاسن التأويل:٣/١٤٣.

(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٤١٢):ص٣/٩٦٨.

(١٠) أخرجه ابن المنذر(١٨٥٠):ص٢/٧٣٧.

يقول: {يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها}، فبادرت الماء اغتسل وأني لأمس وجهي مخافة أن يطمس ثم أسلمت"[١].

وقال سهل:" أي: يحول الله عن الهدى والبصيرة إلى طبع الجهالة[٢].

قال المراغي:" أي آمنوا قبل أن يحل بكم العقاب من طمس الوجوه والرد على الأدبار: أي من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التي توجهتم بها من كيد الإسلام، ونردها خاسرة إلى الوراء بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وقد كان لهم عند نزول الآية شيء من المكانة والقوة والعلم والمعرفة"[٣].

وفي قوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا } [النساء : ٤٧]، اقوال:

أحدهما : أن طمس الوجوه هو محو آثارها حتى تصير كالأقفاء ونجعل عيونها في أقفائها حتى تمشي القهقرى ، وهو قول ابن عباس[٤]، وقتادة[٥]، وعطية العوفي[٦]، وأبي عبيدة[٧].

قال ابن كثير:" وهذا أبلغ في العقوبة والنكال ، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم ، وهذا كما قال بعضهم في قوله : { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} [يس ٨ ، ٩] إن هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى"[٨].

والثاني : أن نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها ، أي في ضلالها ذمّاً لها بأنها لا تصلح أبداً ، وهذا قول الحسن[٩]، والضحاك[١٠]، ومجاهد[١١]، والسدي[١٢]، وسهل التستري[١٣].

قال الزجاج:" المعنى: قبل أن نضلهم مجازاة لما هم عليه من المعاندة، فنضلهم ضلالا لا يؤمنون معه أبدا"[١٤].

والثالث: معناه: : من قبل أن نمحو آثارهم من وجوههم التي هم بها ، وناحيتهم التي هم بها، {فنردها على أدبارها}، من حيث جاءوا منه بَديًّا من الشام. وهذا قول ابن زيد[١٥].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٤١٣):ص٣/٩٦٩.

[٢] ا تفسير التستري:٥٤.

[٣] تفسير المراغي:٥/٥٦.

[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٧١٣):ص٨/٤٤٠.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٧١٦):ص٨/٤٤١.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٧١٤)، و(٩٧١٥):ص٨/٤٤١.

[٧] انظر: تفسير ابن المنذر(١٨٥٠):ص٢/٧٣٧.

[٨] تفسير ابن كثير:٢/٣٢٤.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٧٢٠):ص٨/٤٤٢.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٧٢٢):ص٨/٤٤٢.

[١١] انظر: تفسير الطبري(٩٧١٧)-(٩٧١٩):ص٨/٤٤١.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(٩٧٢١):ص٨/٤٤٢.

[١٣] انظر: تفسير التستري:٥٤.

[١٤] معاني القرآن:٢/٥٩.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(٩٧٢٣):ص٨/٤٤٢.

والرابع: معناه: {من قبل أن نطمس وجوهًا} ، فنمحو أثارها ونسوّيها، {فنردها على أدبارها}، بأن نجعل الوجوه منابتَ الشَّعر ، كما وجوه القردة منابت للشعر ، لأن شعور بني آدم في أدبار وجوههم. فقالوا : إذا أنبت الشعر في وجوههم ، فقد ردَّها على أدبارها ، بتصييره إياها كالأقفاء وأدبار الوجوه. حكاه الطبري عن البعض[1].

والراجح-والله أعلم- ان المعنى:" من قبل أن نطمس أبصارَها ونمحو آثارها فنسوّيها كالأقفاء ،{فنردها على أدبارها}، فنجعل أبصارها في أدبارها ، يعني بذلك : فنجعل الوجوه في أدبار الوجوه ، فيكون معناه : فنحوّل الوجوه أقْفاءً والأقفَاء وجوهًا ، فيمشون القهقرى ، كما قال ابن عباس وعطية، لأن الله جل ثناؤه خاطب بهذه الآية اليهودَ الذين وصف صفتهم بقوله : {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يشترون الضلالة }، ثم حذرهم جل ثناؤه بقوله :{ يا أيها الذين أوتوا الكتاب أمنوا بما نزلنا مصدِّقًا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها }الآية ، بأسَه وسطوته وتعجيل عَقابه لهم ، إن هم لم يؤمنوا بما أمرهم بالإيمان به. ولا شك أنهم كانوا لما أمرهم بالإيمان به يومئذ كفارًا"[2].

قال أبو هلال السكري المعتزلي:"«الطمس»:أصله ذهاب الأثر؛ طريق طامس: لا علم فيه، كتاب مطموس: ممحو، وجبل طامس: لا طريق إليه؛ قال جميل[3]:

ألا تلكمُ أعلامُ بثنةَ قد بدتْ　　كأنَّ ذَرَاها في السَّراب سَبيبُ
طوامسُ لي من دونهنَّ عداوةٌ　　ولي من وراءِ الطَّامساتِ حبيبُ
بعيدٌ على من ليسَ يطلبُ حاجةً　　وأمَّا على ذي حاجة فقريبُ

وهو في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى القلب؛ قال الله: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا}، أي: نقلبها فنجعلها إلى ما يلي أدبارها، وقوله: {فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} تفسير لطمسها، وصديق هذا قوله: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ} [الانشقاق : ١٠]، لأن الوجوه إذا قلبت أقفاء كان أصحابها يعطون الكتب وراء ظهورهم.

الثاني: ذهاب البركات؛ قال: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [يونس : ٨٨]، أي: اذهب ببركتها ونفعتها وخذهم بالقحط، {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ }، أي: حبب إليهم أوطانهم حتى لا يغار قومها لطلب الأرزاق فيموتوا هزلا وجوعا هكذا قِيل.

والصواب أن يقال: أراد أن صبرهم على البلاء والإقامة في البلد المطموس فيه على أموالهم حتى لا يجزعوا فيخرجوا منه. وذلك أن الشد على القلب والربط عليه هو تصبيره بما هو فيه.

وقوله: {فَلَا يُؤْمِنُوا} موصول بقوله: {لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ} ومعنى ذلك كله على العاقبة؛ كقوله تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص : ٨].

الثالث: ذهاب النور؛ قال الله: {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ}"[4].

قوله تعالى: {أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ} [النساء : ٤٧]،أي:" أو نلعن هؤلاء المفسدين بمسخهم قردة وخنازير، كما لعنَّا اليهود مِن أصحاب السبت"[5].

قال الحسن:" يقول: أو نجعلهم قردة"[1]. وروي عن السدي[2]، وقتادة[3] نحو ذلك.

---

[1] انظر: تفسير الطبري:٨/٤٤٢-٤٤٣.

[2] تفسير الطبري:٨/٤٤٣.

[3] انظر الابيات في الأشباه والنظائر للخالديين:١/٩، والمصون في الادب:١٧٥، وديوان المعاني١/١٣، وسمط اللآلي:١/٧١٩، والحماسة المغريبية:٢/٩١٩.

[4] الوجوه والنظائر:٣١٧-٣١٨.

[5] التفسير الميسر:٨٦.

قال ابن زيد:" هم يهود جميعًا ، نلعن هؤلاء كما لعنّا الذين لعنّا منهم من أصحاب السبت"[٤].

قال ابن كثير:" يعني : الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير"[٥].

قوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} [النساء : ٤٧]، أي:" وكان أمر الله نافذًا في كل حال"[٦].

قال مقاتل:" يقول أمره كائن لا بد"[٧].

قال ابن ابي زمنين:" أي: إذا أراد الله أمرا فإنما يقول له: كن فيكون"[٨].

قال ابن كثير:" أي : إذا أمر بأمر ، فإنه لا يخالف ولا يمانع"[٩].

قال الطبري: يعني:" وكان جميع ما أمر الله أن يكون ، كائنًا مخلوقًا موجودًا ، لا يمتنع عليه خلق شيء شاء خَلْقه. و «الأمر » في هذا الموضع : المأمور، سمي {أمر الله}، لأنه عن أمره كان وبأمره. والمعنى : وكان ما أمر الله مفعولا"[١٠].

الفوائد:

١- يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيمن على غيره من الكتب السابقة التي قد صدقها، فإنها أخبرت به فلما وقع المخبر به كان تصديقا لذلك الخبر[١١].

٢- أن أهل الكتاب إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا، ويوافق بعضها بعضا. فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض دعوى باطلة لا يمكن صدقها[١٢].

٤-في الآية حثّ لأهل الكتاب وأنهم ينبغي أن يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال: {من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها} وهذا جزاء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقا والحق باطلا جوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق[١٣].

القرآن

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤١٩):ص٣/٩٧٠.

[٢] انظر:الطبري(٩٧٢٨):ص٨/٤٤٧-٤٤٨، و تفسير ابن أبي حاتم(٥٤١٩):ص٣/٩٧٠.

[٣] انظر:الطبري(٩٧٢٦):ص٨/٤٤٧، و تفسير ابن أبي حاتم(٥٤١٩):ص٣/٩٧٠.

[٤] أخرجه الطبري(٩٧٢٩):ص٨/٤٤٨.

[٥] تفسير ابن كثير:٢/٣٢٥.

[٦] التفسير الميسر:٨٦.

[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٧٧.

[٨] تفسير ابن أبي زمنين:١/٣٧٨.

[٩] تفسير ابن كثير:٢/٣٢٥.

[١٠] تفسير الطبري:٨/٤٤٨.

[١١] انظر: تفسير السعدي:١٨١.

[١٢] انظر: تفسير السعدي:١٨١.

[١٣] انظر: تفسير السعدي:١٨١.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)} [النساء : ٤٨]

التفسير:

إن الله تعالى لا يغفر ولا يتجاوز عمَّن أشرك به أحدًا من مخلوقاته، أو كفر بأي نوع من أنواع الكفر الأكبر، ويتجاوز ويعفو عمَّا دون الشرك من الذنوب، لمن يشاء من عباده، ومن يشرك بالله غيره فقد اختلق ذنبًا عظيمًا.

سبب نزول الآية:

قال أبو أيوب الأنصاري: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام، قال: وما دينه؟ قال: يصلي ويوحد الله. قال: استوهب منه دينه، فإن أبى فابتاعه منه، فطلب الرجل ذاك منه فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال: وجدته شحيحا على دينه، قال: ونزلت: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}"[١].

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} [النساء : ٤٨]، أي: إن الله تعالى لا يغفر ولا يتجاوز عمَّن أشرك به أحدًا من مخلوقاته، أو كفر بأي نوع من أنواع الكفر الأكبر"[٢].

قال مقاتل:" هذا وعيد {إن الله لا يغفر أن يشرك به}، فيموت عليه، يعني: اليهود"[٣].

قال ابن عباس:" فحرم الله المغفرة على من مات وهو كافر، وأرجاها أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة"[٤].

قال جابر بن عبد الله: "قال رسول الله ﷺ: ما من عبد يموت لا يشرك بالله شيئا إلا حلت له المغفرة إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه قال: إن الله استثنى، فقال: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}"[٥].

قوله تعالى: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء : ٤٨]، أي:" ويتجاوز ويعفو عمَّا دون الشرك من الذنوب، لمن يشاء من عباده"[٦].

قال مقاتل:أي:" لمن مات موحدا فمشيئته- تبارك وتعالى- لأهل التوحيد"[٧].

قال عبدالله بن عمر:" كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار في كتاب الله حتى نزلت علينا هذه الآية: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله"[٨].

وفي رواية أخرى عن ابن عمر:" كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل المؤمن وآكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وشهادة الزور حتى نزلت هذه الآية: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} فأمسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة"[٩].

وأخرج ابن ابي حاتم عن عبدالله بن عمر، قال:" لما نزلت هذه الآية: { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}[١]، فقام رجل، فقال: والشرك يا نبي الله، فكره ذلك ذلك النبي ﷺ فقال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }"[٢].

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٢٤):ص٣/٩٧١.

[٢] التفسير الميسر:٨٦.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٧٧.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٢٣):ص٣/٩٧٠.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٢٠):ص٣/٩٧٠.

[٦] التفسير الميسر:٨٦.

[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٧٧.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٢١):ص٣/٩٧٠.

[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٤٢٦):٣/٩٧١.

قال جابر بن عبد الله: "قال رسول الله ﷺ: ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئا إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبها، وإن شاء الله غفر لها، {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}"[٣].

وعن عمران بن حصين، أن رسول الله ﷺ قال: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، الإشراك بالله، {ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما}"[٤].

قال السمعاني:" فإن قال قائل: قد قال الله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به} وقال في موضع آخر: {إن الله يغفر الذنوب جميعا} فكيف وجه الجمع؟

قيل أراد به: يغفر الذنوب جميعا سوى الشرك"[٥].

قوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء : ٤٨]، " أي من أشرك بالله فقد اختلق إثماً عظيماً"[٦].

قال مقاتل:" يقول: فقد قال ذنبا عظيما"[٧].

قال أبو هلال العسكري:" أصل الشرك: إضافة الشيء إلى مثله، ومنه قيل: شراكا النعل، لأن كل واحد منها يشبه الآخر، وشراك الطريق مشبه بشراك النعل، وأشرك بالله عبد معه غيره؛ لأنه أضافه إليه وشبهه به، والشرك في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: الإشراك بالله في العبادة، كقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}،

وقوله: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ}[المائدة:٧٢]، وقوله: {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[التوبة:٣].

الثاني: قالوا: الشرك بمعنى الطاعة، قال الله: {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ}[إبراهيم:٢٢]، أي: أطعتموني.

الثالث: الربا علي ما جاء في التفسير، قال الله: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}[الكهف:١١٠]، أي: لا يرائي فيما نفعل من العبادة"[٨].

الفوائد:

١- أنه ليس في الأعمال أخبث من الشرك بالله- عز وجل-، وانه أعظم وزر.

٢-إن سائر الذنوب كبائرها وصغائرها قد يغفرها الله تعالى لمن شاء إلا الشرك، فلا يغفر لصاحبه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قيل: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: "الشرك بالله، والسّحر، وقَتْل النفسِ التي حرّم الله إلاّ بالحقّ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنة"[٩].

القرآن

---

[١][سورة الزمر : ٥٣].

[٢] تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٢٢):ص٣/٩٧٠.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٤٢٥):ص٣/٩٧١.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٤٢٩):ص٣/٩٧١.

[٥] تفسير السمعاني:١/٤٣٤.

[٦] صفوة التفاسير:٢٥٧.

[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٧٨.

[٨] الوجوه والنظائر:٢٦٥-٢٦٦.[بتصرف]..

(٩)أخرجه البخاري (٦٨٥٧) كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، ومسلم (٨٩): الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)} [النساء : ٤٩]

التفسير:

ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك الذين يُثنون على أنفسهم وأعمالهم، ويصفونها بالطهر والبعد عن السوء؟ بل الله تعالى وحده هو الذي يثني على مَن يشاء مِن عباده، لعلمه بحقيقة أعمالهم، ولا يُنقَصون من أعمالهم شيئًا مقدار الخيط الذي يكون في شق نَواة التمرة.

في سبب نزول الآية والتي بعدها وجوه:

أحدها: أخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس:" كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب، وكذبوا قال الله إني لا أطهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له، ثم أنزل الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ}"[(١)].

قال ابن أبي حاتم:"وروي عن مجاهد[(٢)]، وأبي مالك، والسدي، وعكرمة والضحاك نحو نحو ذلك"[(٣)].

والثاني: وقال الضحاك:" أما قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ}، فإن اليهود قالوا: ليس لنا ذنوب كما أنه ليس لآبائنا ذنوب، فأنزل الله تعالى ذلك فيهم"[(٤)].

والثالث: نقل الواحدي عن الكلبي، قال: "نزلت في رجال من اليهود أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأطفالهم وقالوا: يا محمد. هل على أولادنا هؤلاء من ذنب؟ قال: لا، فقالوا: والذي نحلف به ما نحن إلا كهيئتهم، ما من ذنب نعمله بالنهار إلا كفر عنا بالليل، وما من ذنب نعمله بالليل إلا كفر عنا بالنهار، فهذا الذين زكوا به أنفسهم"[(٥)]. وذكر مقاتل مثل ذلك[(٦)].

والرابع: أخرج الطبري عن الحسن، قال:"هم اليهود والنصارى ، قالوا : {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}[(٧)]، وقالوا : {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى}[(٨)]" [(٩)].

وفي السياق نفسه أخرج الطبري عن قتادة، قال:" وهم أعداء الله اليهود ، زكوا أنفسهم بأمر لم يبلغوه ، فقالوا : {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}[(١٠)] وقالوا : لا ذنوب لنا " [(١١)].

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} [النساء : ٤٩]، "أي: ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى؟"[(١٢)].

قال مجاهد:" هم اليهود كانوا يقدمون صبيانهم في الصلاة فيؤمونهم ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم، فتلك التزكية[(١٣)].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٣٠):ص٣/٩٧٢.

(٢) تفسير مجاهد:٢٨٣، واخرجه ابن المنذر(١٨٥٩):ص٢/٧٤٠

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٣٠):ص٣/٩٧٢.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٣٢):ص٣/٩٧٢.

(٥) أسباب النزول:١٥٥.

(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٧٨.

(٧) [سورة المائدة : ١٨].

(٨) [سورة البقرة : ١١١].

(٩) تفسير الطبري(٩٧٣٤):ص٨/٤٥٢.

(١٠) [سورة المائدة : ١٨].

(١١) تفسير الطبري(٩٧٣٣):ص٨/٤٥٢.

(١٢) صفوة التفاسير:٢٥٧.

(١٣) تفسير مجاهد:٢٨٣، واخرجه ابن المنذر(١٨٥٩):ص٢/٧٤٠

قال الزمخشري:" {لذين يزكون أنفسهم}: اليهود والنصارى، قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى... ويدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله. فإن قلت: أما قال رسول الله ﷺ: «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض»[1] ؟ قلت: إنما قال ذلك حين قال له المنافقون: اعدل في القسمة، إكذابا لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه. وشتان من شهد الله له بالتزكية، ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم "[2].

قال الزجاج:" {ألم تر}: ألم تخبر في قول بعضهم، وقال أهل اللغة ألم تعلم وتأويله سؤال فيه معنى الإعلام، تأويله: أعلم قصتهم، وعلى مجرى اللغة ألم ينته علمك إلى هؤلاء، ومعنى يزكون انفسهم أي تزعمون أنهم أزكياء، وتأويل قولنا: زكاء الشيء: في اللغة نماؤه في الصلاح. وهذا أيضا يعني به إليهود"[3].

قال السعدي:" هذا تعجيب من الله لعباده، و توبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه. وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: {نحن أبناء الله وأحباؤه} ويقولون: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى} وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} فهؤلاء هم الذين زكاهم الله"[4].

قوله تعالى:{بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} [النساء : ٤٩]، أي:" بل الله تعالى وحده هو الذي يثني على مَن يشاء مِن عباده، لعلمه بحقيقة أعمالهم"[5].

قال الزجاج:" أي: يجعل من يشاء زاكيا"[6].

قال الزمخشري:" إعلام بأن تزكية الله هي التي يعتد بها، لا تزكية غيره لأنه هو العالم بمن هو أهل للتزكية. ومعنى يزكى من يشاء: يزكى المرتضين من عباده الذين عرف منهم الزكاء فوصفهم به ولا يظلمون فتيلا أى الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم أنفسهم حق جزائهم. أو من يشاء يثابون على زكائهم ولا ينقص من ثوابهم. ونحوه : {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم : ٣٢]"[7].

قوله تعالى:{وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء : ٤٩]، "أي: ولا ينقصون من أعمالهم بقدر الفتيل، وهو الخليط الذي في شق النواة"[8].

قال الزجاج:" ولا يظلمون مقدار فتيل"[9].

قال الواحدي:" يريد لا ينقصون من ثواب أعمالهم مثل فتيل النواة"[10].

قال السمعاني:" أي: لا ينقص من أجورهم شئ إن أسلموا، ولا من أوزارهم إن لم يسلموا. والفتيل والقطمير والنقير: ثلاثة أسامي مذكورة في القرآن فالفتيل: اسم لما يكون في شق

---

[1] لم اقف عليه.

[2] الكشاف:١/٥٢٠.

(٣)معاني القرآن:٢/٦٠.

[4] تفسير السعدي:١٨٢.

[5] التفسير الميسر:٨٦.

(٦)معاني القرآن:٢/٦٠.

[7] الكشاف:١/٥٢٠-٥٢١.

[8] صفوة التفاسير:٢٥٨.

(٩)معاني القرآن:٢/٦٠.

[10] التفسير البسيط:٦/٦٠٩.

النواة، والقطمير: اسم للقشرة التي تكون على النواة، والنقير: اسم للنقطة التي تكون على ظهر النواة، هذا قول ابن عباس"[١].

وفي قوله تعالى:{وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء : ٤٩]، وجهان:

أحدهما : أي الفتيل الذي شق النواة ، وهو قول عطاء[٢]، وقتادة[٣]، ومجاهد[٤]، والضحاك[٥]، والضحاك[٥]، وابن زيد[٦]، وعطية العوفي[٧]، وخصيف[٨]، وأبو عبيدة[٩]، والحسن[١٠]، وأحد وأحد قولي ابن عباس[١١].

والثاني : أنه ما انفتل بين الأصابع من الوسخ ، وهذا قول السدي[١٢]، وأبي مالك[١٣]، وأحد قولي ابن عباس[١٤].

قال الطبري:" إنما قصد بقوله : {ولا يظلمون فتيلا }، الخبرَ عن أنه لا يظلم عبادَه أقلَّ الأشياء التي لا خطر لها ، فكيف بما له خطر ؟ وكان الوسخ الذي يخرج من بين إصبعي الرجل أو من بين كفيه إذا فتل إحداهما على الأخرى ، كالذي هو في شق النواة وبطنها ، وما أشبه ذلك من الأشياء التي هي مفتولة ، مما لا خطر له ، ولا قيمة، فواجبٌ أن يكون كل ذلك داخلا في معنى «الفتيل»، إلا أن يخرج شيئًا من ذلك ما يجب التسليم له ، مما دل عليه ظاهر التنزيل"[١٥].

قال ابن السكيت: "القطمير: القشرة الرقيقة على النواة، والفتيل: ما كان في شق النواة، والنقير: النكتة في ظهر النواة"[١٦].

قال الأزهري: "وهذه الأشياء كلها تضرب أمثالا للشيء التافه الحقير القدر، أي: لا يظلمون قدرها، قال النابغة[١٧]:

يَجْمَعُ الْجَيْشَ ذَا الْأُلُوفِ وَيَغْزُو ثُمَّ يَرْزَأُ الْعَدُوَّ فَتِيلًا"[١٨]

---

[١] تفسير السمعاني:٤٣٥/١.

[٢] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٣):ص٤٥٨/٨.

[٣] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٦):ص٤٥٩/٨.

[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٥)، و(٩٧٥٦):ص٤٥٨/٨.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٨):ص٤٥٩/٨.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٩):ص٤٥٩/٨.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٧٦٢):ص٤٥٩/٨.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٧٦٢):ص٤٥٩/٨.

[٩] انظر: تفسير ابن المنذر(١٨٦٤):ص٧٤١/٢.

[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٣٦):ص٩٧٣/٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٢):ص٤٥٨/٨.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٠):ص٤٥٨/٨.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(٩٧٤٩):ص٤٥٧/٨-٤٥٨.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(٩٧٤٥)-(٩٧٤٨):ص٤٥٦/٨-٤٥٨، و(٩٧٥١):ص٤٥٨/٨.

[١٥] تفسير الطبري:٤٥٩/٨-٤٦٠.

[١٦] التفسير الوسيط للواحدي:٦١/٢.

[١٧] البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ١٧٠، والشعر والشعراء ٧٦ (ليدن) ، ٧١ (شاكر) ، وبلا نسبة في المقاييس ٤٧٢/٤، والمخصص ٢٥٤/١٣.

[١٨] التفسير الوسيط للواحدي:٦١/٢.

الفوائد:
١-التحذير من تزكية النفس بأمر ليس فيه.
٢- أن هؤلاء اليهود وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء، وأن الثواب لهم وحدهم- فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم لا بظلم من الله لهم.

القرآن

{انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠)} [النساء : ٥٠]

التفسير:
انظر إليهم -أيها الرسول- متعجبًا من أمرهم، كيف يختلقون على الله الكذب، وهو المنزَّه عن كل ما لا يليق به؟ وكفى بهذا الاختلاق ذنبًا كبيرًا كاشفًا عن فساد معتقدهم.

قوله تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [النساء : ٥٠]، " أي: انظر يا محمد، كيف اختلقوا على الله الكذب"[١].

قال ابن عباس:" {يفترون}: يكذبون"[٢].

وقال قتادة:" {يفترون}، أي: يشركون"[٣].

قال مقاتل:" لقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه"[٤].

قال أبو عبيدة: " {انظر كيف يفترون على الله الكذب} مثل: {ألم تر إلى الذين} "[٥].

قال الزمخشري:أي:" كيف يفترون على الله الكذب في زعمهم أنهم عند الله أزكياء "[٦].
"[٦].

قال الزجاج:" أي: يفعلونه ويختلقونه، ويقال: قد فرى الرجل يفري إذا عمل، وإذا قطع زمن هذا: فريت جلده. فتأويله أن هذا القول أعني تزكيتهم أنفسهم فرية منهم"[٧].

قال ابن عطية:" يبين أن تزكيتهم أنفسهم كانت بالباطل والكذب، ويقوي أن التزكية كانت بقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه [المائدة: ١٨] إذ الافتراء في هذه المقالة أمكن"[٨].

قال ابن كثير:" أي:في تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وقولهم : { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى } [البقرة : ١١١] وقولهم : { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } [البقرة : ٨٠]واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة ، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئا ، في قوله : { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة : ١٤١]"[٩].

قال الطبري:أي:" انظر ، يا محمد ، كيف يفتري هؤلاء الذين يزكون أنفسهم من أهل الكتاب القائلون :{نحن أبناء الله وأحباؤه}، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى ، الزاعمون أنه لا ذنوب لهم الكذبَ والزور من القول ، فيختلقونه على الله"[١٠].

---

[١] صفوة التفاسير :٢٥٨.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٣٧):ص٩٧٣/٣.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٣٨):ص٩٧٣/٣.

[٤] تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٧٨/١.

[٥] أخرجه ابن المنذر(١٨٦٨):ص٧٤٢/٢.

[٦] الكشاف: ٥٢١/١.

[٧] معاني القرآن:٦١/٢.

[٨] المحرر الوجيز:٦٦/٢.

[٩] تفسير ابن كثير:٣٣٣/٢-٣٣٤.

[١٠] تفسير الطبري:٤٦٠/٨.

أخرج ابن ابي حاتم عن عكرمة: "قال النضر -وهو من بني عبد الدار-: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى فأنزل الله تعالى: { افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}"[١].
قوله تعلى:{وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا} [النساء : ٥٠]، " أي: وكفى بهذا الافتراء وزراً بيناً وجرماً عظيماً"[٢].
قال ابن كثير:" أي : وكفى بصنعهم هذا كذبا وافتراء ظاهرا"[٣].
قال الزمخشري:" وكفى بزعمهم هذا إثما مبينا من بين سائر آثامهم"[٤].
قال الزجاج:" أي كفى هو إثما. منصوب على التمييز، أي كفى به في الآثام"[٥].
قال ابن عطية:" والخبر في قوله: يفترون وكفى به إثما مبينا خبر في مضمنه تعجب وتعجيب من الأمر، ولذلك دخلت الباء لتدل على معنى الأمر بالتعجب، وأن يكتفى لهم بهذا الكذب إثما ولا يطلب لهم غيره، إذ هو موبق ومهلك"[٦].

الفوائد:

١-أن القرآن يحذر من تزكية النفس، بمعنى مدحها والثناء عليها، ولا يظنّ أنه كامل، وأنّه من الأخيار، بل دائماً الإنسان يتّهم نفسَه بالتقصير في حقّ الله تعالى.
٢-أن تزكية النفس لا تتفق مع أدب المؤمن الذي ينبغي أن يكون دوما في مقام بين الخوف والرجاء، الخوف من أن لا يقبل عمله أو لا يختم له بالصالحات، والرجاء في القبول وحسن الخاتمة[٧].
٣-أن هناك نوعان من التزكيةٌ[٨]:
أحدهما: التزكية المنهيّ عنها، وهي: الإعجاب والمدح للنفس.
والآخر: التزكية المأمور بها، وهي: الإصلاح والتوبة والعمل الصالح: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) }
٤- لقد تعمّقت خصلة الكذب في اليهود وباءوا بأدنى مراتبها، وأبعدها فساداً وهو الكذب على الله عز وجل الذي لا يخفى عليه خافية.
٥-أن تزكية النفس لدى أهل الكتاب من أعظم الافتراء على الله، لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقا وما عليه المؤمنون المسلمون باطلا. وهذا أعظم الكذب[٩].
الكذب[٩].
٦- جعل تزكيتهم لأنفسهم إثماً مبيناً لأن حقيقة النفس وما فيها من خير وما يختم لها به لا يعلمه إلا الله، فلما تجرءوا وزكوا أنفسهم جعل الله ذلك من الكذب عليه سبحانه، وهكذا هنا الذي يدعي بأن العمل الفلاني جزاءه الجنة أو مغفرة الذنوب، أو أن العمل الفلاني فيه كذا أو كذا من الأجر من دون علم به عن طريق الوحي، فهو من المفترين على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً![١٠].

---

[١] تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٣٩):ص٩٧٣/٣.
[٢] صفوة التفاسير:٢٥٨.
[٣] تفسير ابن كثير:٣٣٤/٢.
[٤] الكشاف:٥٢١/١.
[٥] معاني القرآن:٦١/٢.
[٦] المحرر الوجيز:٦٦/٢.
[٧] انظر: موسوعة الفرق:٢٩٨/٨.
[٨] انظر: إعانة المستفيد، صالح بن فوزان:٢٤٦/٢.
[٩] انظر: تفسير السعدي:١٨٢.
[١٠] انظر: موسوعة الفرق:٢٧١/٧.

٧-إن في قوله:{وكفى به إثماً مبيناً} من تعظيم الذنب وتهويله ما لا يخفى، أي: كفى بالافتراء وحده وبالأولى إذا انضم إلى التزكية، والتنكير في إثماً للتشديد[١].
٨-أن الآية جاءت بعد التنديد باليهود لتزكيتهم أنفسهم بليغة المدى حيث انطوى فيها تكذيب لزعمهم أنهم أحباء الله وأصفياؤه والحظوة لديه وتزكيتهم لأنفسهم نتيجة لهذا الزعم. وتقرير لكون ذلك منهم افتراء على الله تعالى.
٩- أن الكذب مطلقاً هو إثم، والكذب المبين: هو الكذب على الله.

القرآن

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)} [النساء : ٥١]

التفسير:
ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك اليهود الذين أُعطوا حظًّا من العلم يصدقون بكل ما يُعبد من دون الله من الأصنام وشياطين الإنس والجن تصديقا يحملهم على التحاكم إلى غير شرع الله، ويقولون للذين كفروا بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ: هؤلاء الكافرون أقْومُ، وأعدلُ طريقًا من أولئك الذين آمنوا؟

في سبب نزول الآيات[٥١-٥٢]:
أخرج الطبري وابن ابي حاتم[٢]، وغيرهما[٣]، عن ابن عباس قال : "لما قدم كعب بن بن الأشرف مكة ، قالت له قريش : أنت حَبْر أهل المدينة وسيدهم ؟ قال : نعم. قالوا : ألا ترى إلى هذا الصُّنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية ؟ قال : أنتم خير منه. قال : فأنزلت : {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}[سورة الكوثر : ٣] ، وأنزلت : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} ، إلى قوله : " {فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا }[٤]"[٥]. وروي عن قتادة[٦]، ومجاهد[٧]، والسدي[٨]، وعكرمة[٩]، نحو ذلك. نحو ذلك.

وفي السياق نفسه اخرج الطبري عن ابن عباس أيضا:" : كان الذين حَزَّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة : حيي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق أبو رافع ، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وأبو عمار ، ووَحْوَح بن عامر ، وهوذة بن قيس فأما وحوح وأبو عمار وهوذة ، فمن بني وائل ، وكان سائرهم من بني النضير فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأوَل ، فاسألوهم : أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم ،

---

[١] انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن:١٤٦/٣.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٤٠):ص٩٧٣/٣-٩٧٤.
[٣] عزاه ابن كثير في "تفسيره:٣٣٤/٢ إلى الإمام أحمد وليس هو في "مسنده"، وعزاه الهيثمي في "المجمع" "٧/ ٦" إلى الطبراني، وأخرجه ابن حبان انظر "موارد الظمآن" "ص٤٢٨"، وعزاه السيوطي إلى عبد الرزاق انظر "الدر" "٢/ ٥٦٣"..
[٤] [سورة النساء:٥٢]..
[٥] تفسير الطبري(٩٧٨٦):ص٤٦٦/٨-٤٦٧.
[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٧٩٣):ص٤٧٠/٨، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٤٥٩):ص٩٧٧/٣، وفيه سبب نزول الآية[٥٢ من السورة]، كما سيأتي.
[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٧٩١):ص٤٦٩/٨.
[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٧٩٠):ص٤٦٨/٨-٤٦٩..
(٩)انظر: تفسير الطبري(٩٧٨٧)-(٩٧٨٩) :٤٦٧/٨-٤٦٩.

فقالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه! فأنزل الله فيهم : {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت}، إلى قوله :{وآتيناهم ملكًا عظيمًا} "[١].

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ} [النساء : ٥١]، أي:" ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك اليهود الذين أُعطوا حظًّا من العلم"[٢].

قال الشوكاني:" قوله: {ألم تر}،هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأول، وهم اليهود"[٣].

قال القاسمي: أي: أعطوا: "علما بالتوراة الداعية إلى التوحيد وترجيح أهله. والكفر بالجبت والطاغوت. ووصفهم بما ذكر، من إيتاء النصيب، لما مر من منافاته لما صدر عنهم من القبائح"[٤].

قال الإمام الشافعي:" أهل كتاب، بدَّلوا من أحكامه، وكفروا بالله، فافتعلوا كذباً صاغوه بألسنتهم، فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم، فذكر تبارك وتعالى لنبيه - ﷺ - من كفرهم - نماذج منها -: وقال اللَّه تبارك وتعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)}[النساء:٥١-٥٢]"[٥].

قوله تعالى:{يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} [النساء : ٥١]، أي: "يصدّقون بكل ما يُعبد من دون الله من الأصنام وشياطين الإنس والجن تصديقا يحملهم على التحاكم إلى غير شرع الله"[٦].
الله"[٦].

وفي قوله تعالى:{يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} [النساء : ٥١]، أقوال:

أحدها : أنهما صنمان كان المشركون يعبدونهما ، وهذا قول عكرمة [٧].

والثاني : أن الجبت : الأصنام ، والطاغوت : تراجمة الأصنام ، وهذا قول ابن عباس[٨] .

والثالث : أن الجبت: السحر ، والطاغوت : الشيطان ، وهذا قول عمر[٩]، ومجاهد[١٠]، والشعبي[١١].

والرابع: أن الجبت: الساحر ، والطاغوت : الشيطان. قاله ابن زيد[١٢].

والخامس : أن الجبت: الساحر ، والطاغوت: الكاهن ، وهذا قول سعيد بن جبير[١٣]، ورفيع[١]، وأبو العالية[٢].

والسادس : أن الجبت: الشيطان، والطاغوت: الكاهن، وهذا قول قتادة[٣]، والسدي[٤].

---

(١)تفسير الطبري(٩٧٩٢):ص٨/٤٦٩-٤٧٠ .

(٢) التفسير الميسر:٨٦.

(٣) فتح القدير:١/٥٥٢.

(٤) محاسن التاويل:٣/١٧٢.

(٥) تفسير الإمام الشافعي:٢/٦١٦.

(٦) التفسير الميسر:٨٦.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٩٧٦٤):ص٨/٤٦١.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٩٧٦٥):ص٨/٤٦١.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٩٧٦٦)، و(٩٧٦٧):ص٨/٤٦٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٩٧٦٨)، و(٩٧٧٠)، و(٩٧٧١):ص٨/٤٦٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٩٧٦٩):ص٨/٤٦٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٩٧٧٢):ص٨/٤٦٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٩٧٧٣):ص٨/٤٦٣.

والسابع: ان الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر. وهذا قول محمد بن سيرين[٥]، وسعيد بن جبير في رواية أخرى[٦].
والثامن:أن الجبت: حُيي بن أخطب ، والطاغوت: كعب بن الأشرف ، وهو قول الضحاك[٧]، وابن عباس في رواية أخرى[٨].
والتاسع: ان الجبت: كعب بن الأشرف، والطاغوت: الشيطان. وهذا قول مجاهد في رواية أخرى[٩].
والعاشر: أن الجبت: الأصنام وكل ما عبد من دون الله، والطاغوت: الشيطان. قاله صاحب الكشاف[١٠].
والحادي عشر: أن {الجبت} و {الطاغوت}: اسمان لكل معظَّم بعبادةٍ من دون الله ، أو طاعة ، أو خضوع له ، كائنًا ما كان ذلك المعظَّم ، من حجر أو إنسان أو شيطان. وهذا قول الطبري[١١].

قال الطبري:" والصواب من القول في تأويل:{ يؤمنون بالجبت والطاغوت}، أن يقال : يصدِّقون بمعبودَين من دون الله ، يعبدونهما من دون الله ، ويتخذونهما إلهين، وذلك أن {الجبت} و {الطاغوت}: اسمان لكل معظَّم بعبادةٍ من دون الله ، أو طاعة ، أو خضوع له ، كائنًا ما كان ذلك المعظَّم ، من حجر أو إنسان أو شيطان. وإذ كان ذلك كذلك ، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها ، كانت معظمة بالعبادة من دون الله فقد كانت جُبوتًا وطواغيت. وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله ، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبولا منهما ما قالا في أهل الشرك بالله. وكذلك حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ، لأنهما كانا مطاعين في أهل ملّتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله ، فكانا جبتين وطاغوتين"[١٢].

قال ابن عطية: "فمجموع هذا يقتضي أن بالجبت والطاغوت هو كل ما عبد وأطيع من دون الله تعالى، وكذلك قال مالك رحمه الله: الطاغوت كل ما عبد من دون الله تعالى، وذكر بعض الناس أن الجبت: هو من لغة الحبشة، وقال قطرب: بالجبت أصله الجبس، وهو الثقيل الذي لا خير عنده، وأما الطاغوت فهو من طغى، أصله طغووت وزنه فعلوت، وتاؤه زائدة، قلب فرد فلعوت، أصله طوغوت، تحركت الواو وفتح ما قبلها فانقلبت ألفا"[١٣].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(٩٧٧٤):ص٨/٤٦٣.
[٢] انظر: تفسير الطبري(٩٧٧٥):ص٨/٤٦٣.
[٣] انظر: تفسير الطبري(٩٧٧٧)، و(٩٧٧٨):ص٨/٤٦٣-٤٦٤
[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٧٧٩):ص٨/٤٦٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٧٨٠):ص٨/٤٦٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٧٨١):ص٨/٤٦٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٧٨٣)، و(٩٧٨٤):ص٨/٤٦٤-٤٦٥.
[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٧٨٢):ص٨/٤٦٤.
[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٧٨٥):ص٨/٤٦٥.
[١٠] انظر: الكشاف:١/٥٢١.
[١١] انظر: تفسير الطبري:٨/٤٦٥.
[١٢] تفسير الطبري:٨/٤٦٥.
[١٣]المحرر الوجيز:٢/٦٦.

قال السعدي:" وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله، فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت"[١].

قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا } [النساء : ٥١]، أي:" ويقولون للذين كفروا بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ: هؤلاء الكافرون أقْومُ، وأعدلُ طريقًا من أولئك الذين آمنوا؟"[٢].

قال مجاهد:" يهود تقول ذلك، يقولون: قريش أهدى من محمد وأصحابه"[٣].

قال مقاتل:" { سَبِيلًا }، يعنى: طريقا"[٤].

قال الشوكاني:" أي: يقول اليهود لكفار قريش: أنتم أهدى من الذين آمنوا بمحمد {سبيلا}، أي: أقوم دينا، وأرشد طريقا"[٥].

قال الزجاج:" وهذا برهان ودليل على معاندة إليهود لأنهم زعموا إن الذين لم يصدقوا بشيء من الكتب وعبادة الأصنام، أهدى طريقا من الذين يجامعونهم على كثير مما يصدقون به، وهذا عناد بين"[٦].

قال الطبري: أي:" ويقولون للذين جحدوا وحدانية الله ورسالة رسوله محمد ﷺ : هؤلاء الذين وصفهم الله بالكفر أقوم وأعدل من الذين صدَّقوا الله ورسوله وأقرُّوا بما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ طريقًا، وإنما ذلك مَثَلٌ، ومعنى الكلام : أن الله وصف الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة والإذعان له بالطاعة في الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما ، بأنهم قالوا : إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به ، وأن دين أهل التكذيب لله ولرسوله ، أعدل وأصوبُ من دين أهل التصديق لله ولرسوله. وذكر أن ذلك من صفة كعب بن الأشرف ، وأنه قائل ذلك"[٧].

قال السعدي:" حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله -عبدة الأصنام- على طريق المؤمنين فقال: {ويقولون للذين كفروا} أي: لأجلهم تملقا لهم ومداهنة، وبغضا للإيمان: {هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا} أي: طريقا. فما أسمجهم وأشد عنادهم وأقل عقولهم! كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادي الذميم؟ هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء، فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال، فهل هذا إلا من الهذيان، وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلا وإما من أعظمهم عنادا وتمردا

---

[١] تفسير السعدي:١٨٢.

[٢] التفسير الميسر:٨٦.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٤٥٨):ص٣/٩٧٧.

[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٧٩.

[٥] فتح القدير:١/٥٥٢.

[٦] معاني القرآن:٢/٦١.

[٧] تفسير الطبري:٨/٤٦٦.

ومراغمة للحق، وهذا هو الواقع"[1].

الفوائد:

١- من صفات اليهود :الإيمان بالجبت والطاغوت، وتفضيل دين المشركين على دين المسلمين.
٢-إيمان اليهود ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله.
٣-أن التصديق بالتكهن من الإيمان بالجبت والطاغوت.
٤-أن صناعة التنجيم، التي مضمونها الإحكام والتأثير، -وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمزيج بين القرى الفلكية والغوائل الأرضية -: صناعة محرمة بالكتاب والسنة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين، قال تعالى: {ولا يفلح الساحر حيث أتى} [طه: ٦٩] . وقال تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت} [النساء: ٥١][2].

القرآن

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)} [النساء : ٥٢]

التفسير:

أولئك الذين كَثُرَ فسادهم وعمَّ ضلالهم، طردهم الله تعالى من رحمته، ومَن يطرده الله من رحمته فلن تجد له من ينصره، ويدفع عنه سوء العذاب.

سبب نزول الآية:

أخرج ابن ابي حاتم عن قتادة:" قتادة قال: ذكر لنا هذه الآية، نزلت في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، رجلين من اليهود من بني النضير، لقيا قريشا بالموسم، فقال لهم المشركون: نحن أهدى أم محمد وأصحابه؟ فأنزل الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}"[3].

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ} [النساء : ٥٢]، أي: "أولئك طردهم الله وأبعدهم عن رحمته"[4].

قال الزجاج:" أي الذين باعدهم من رحمته"[5].

قال السعدي:" أي: طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته"[6].

قال السمرقندي:" أي خذلهم وطردهم الله من رحمته، ويقال: عذبهم الله بالجزية"[7].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} [النساء : ٥٢]، أي:" ومَن يطرده الله من رحمته فلن تجد له من ينصره، ويدفع عنه سوء العذاب"[8].

قال البيضاوي:"{ نَصِيرًا}، يمنع العذاب منه بشفاعة أو غيرها"[9].

قال السعدي:" أي: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان"[10].

---

[1] تفسير السعدي:١٨٢-١٨٣.

[2] انظر: شرح العقيدة الطحاوية:٧٦٢/٢.

[3] تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٥٩):ص٩٧٧/٣، والآيتان[٥١، و٥٢]، في السياق نفسه.

[4] انظر: صفوة التفاسير:٢٥٨.

[5] معاني القرآن:٦٢/٢.

[6] تفسير السعدي:١٨٢.

[7] تفسير السمرقندي:٣٠٩/١.

[8] .التفسير الميسر:٨٧.

[9] تفسير البيضاوي:٧٩/٢.

[10] تفسير السعدي:١٨٢.

قال القاسمي:" أي: ومن يبعده الله عن رحمته، فلن تجد له نصيرا يدفع عنه العذاب دنيويا كان أو أخرويالا بشفاعة ولا بغيرها"[١].

قال الزجاج:" أي من يباعد الله من رحمته فهو مخذول في دعواه وحجته ومغلوب، واليهود خاصة أبين خذلانا في أنهم غلبوا من بين جميع سائر أهل الأديان، لأنهم كانوا أكثر عنادا، وأنهم كتموا الحق وهم يعلمونه"[٢].

قال الرازي:" فبين أن عليهم اللعن من الله، وهو الخذلان والإبعاد، وهو ضد ما للمؤمنين من القربة والزلفى، وأخبر بعده بأن من يلعنه الله فلا ناصر له، كما قال: {مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} [الأحزاب : ٦١] ، فهذا اللعن حاضر، وما في الآخرة أعظم، وهو يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله، وفيه وعد للرسول ﷺ بالنصرة وللمؤمنين بالتقوية، بالضد على الضد، كما قال في الآيات المتقدمة: {وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا} [النساء : ٤٥].

واعلم أن القوم إنما استحقوا هذا اللعن الشديد لأن الذي ذكروه من تفضيل عبدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ﷺ يجري مجرى المكابرة، فمن يعبد غير الله كيف يكون أفضل حالا ممن لا يرضى بمعبود غير الله! ومن كان دينه الإقبال بالكلية على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، كيف يكون أقل حالا ممن كان بالضد في كل هذه الأحوال"[٣].

الفوائد:

١-أن غلبة الهوى على اليهود وتعصبهم الأعمى أدت إلى أن يحالفوا الكفار ويمالئوهم في القول والعمل، فيسجدوا لأصنامهم، ويزكوا أفعالهم، ويقولوا إن طريقهم هو طريق الهداية، وطريق أهل التوحيد لَا هداية فيه! بسبب هذا لعنهم الله تعالى بأن طردهم من رحمته، فكتب عليهم بُغض الناس في الدنيا، والذل والمقت فيها، وعذاب الله تعالى في الآخرة.

٢- أن الحكم الذي أصدروه اليهود، حكم مبنيّ على الزور والبهتان، فأشار الله إليهم، بهذا الحكم القائم على العدل والردع، لهذا الجرم الذي اقترفوه، وهذا الضلال الذي غرقوا فيه، وأغرقوا غيرهم معه، فقال:{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً}، واللعنة دائما حيث كانت، فهى لليهود، وعلى اليهود.

القرآن

{أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)} [النساء : ٥٣]

التفسير:

بل ألهم حظ من الملك، ولو أوتوه لما أعطوا أحدًا منه شيئًا، ولو كان مقدار النقرة التي تكون في ظهر النَّواة؟

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ} [النساء : ٥٣]، "أي: أم لهم حظٌ من الملك؟"[٤].

قال ابن جريج:" فليس لهم نصيب من الملك"[٥].

قال الطبري:أي:" أم لهم حظ من الملك ، يقول: ليس لهم حظ من الملك"[٦].

قال الثعلبي:" وهذا على وجه الإنكار، يعني ليس لهم من الملك شيء"[٧].

---

[١] محاسن التأويل:١٧٢/٣.

[٢] معاني القرآن:٦٢/٢.

[٣] مفاتيح الغيب:١٠١/١٠-١٠٢.

(٤)صفوة التفاسير:٢٥٨.

[٥] أخرجه الطبري(٩٧٩٧):ص٤٧٢/٨.

[٦] تفسير الطبري:٤٧٢/٨.

[٧] تفسير الثعلبي:٣٢٨/٣ونقله الصابوني في تفسيره:٢٥٨.

قوله تعالى:{فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرً} [النساء : ٥٣]، " أي: لو كان لهم نصيب من الملك، فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير، لفرط بخلهم"[١].

قال مقاتل:" يعني لا يعطون الناس من بخلهم وحسدهم وقلة خيرهم نقيرا يعني بالنقير النقرة التي في ظهر النواة التي ينبت منها النخلة"[٢].

قال الثعلبي:أي:" ولو كان لهم من الملك فإذا لا يؤتون الناس محمدا وأصحابه نقيرا من حسدهم وبخلهم وبغضهم"[٣].

قال السمعاني:" وصفهم بشدة البخل، وهذا على طريق ضرب المثل؛ إذ من اليهود من يؤتي المال، والنقير: اسم تلك النقطة على ظهر النواة، ومنها تنبت النخلة"[٤].

قال الزجاج:" قال بعضهم: إنما معناه أنهم لو أعطوا الملك، ما أعطوا الناس نقيرا، وذكر «النقير» ههنا تمثيل، المعنى لضنوا بالقليل"[٥].

قال مجاهد:" ولو كان لهم نصيب لم يؤتوا الناس نقيرا"[٦].

قال ابن جريج:" ولو كان لهم نصيب وحظ من الملك ، لم يكونوا إذًا يعطون الناس نقيرًا ، من بُخْلهم"[٧].

قال السدي:" يقول : لو كان لهم نصيب من الملك ، إذًا لم يؤتوا محمدًا نقيرًا"[٨].

وفي النقير ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الذي يكون في ظهر النواة ، وهذا قول ابن عباس[٩]، والسدي[١٠]، وعطاء[١١]، والضحاك[١٢]، وأبي مالك[١٣].

والثاني : أنه الذي يكون في وسط النواة ، وهو قول مجاهد[١٤]، والضحاك في قوله الآخر[١٥].

والثالث : أنه نقر الرجل الشيء بطرفِ إبهامه ، وهو رواية أبي العالية عن ابن عباس[١٦].

والراجح-والله أعلم- أن "الله وصف هؤلاء الفرْقة من أهل الكتاب بالبخل باليسير من الشيء الذي لا خطر له ، ولو كانوا ملوكًا وأهلَ قدرة على الأشياء الجليلة الأقدار. فإذْ كان ذلك كذلك ، فالذي هو أولى بمعنى " النقير " ، أن يكون أصغرَ ما يكون من النَّقر. وإذا كان ذلك

---

(١)صفوة التفاسير:٢٥٨ .

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٩/١.

(٣)تفسير الثعلبي:٣٢٨/٣ونقله الصابوني في تفسيره:٢٥٨ .

(٤) .تفسير السمعاني:٤٣٦/١.[بتصرف بسيط].

(٥) معاني القرىن:٦٢/٢.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٤٦١):ص٩٧٧/٣.

(٧) أخرجه الطبري(٩٧٩٧):ص٤٧٢/٨.

(٨) أخرجه الطبري(٩٧٩٦):ص٤٧٢/٨.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٩٧٩٨)-(٩٨٠١):ص٤٧٣/٨.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٩٨٠٢):ص٤٧٣/٨.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٩٨٠٣):ص٤٧٣/٨.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٩٨٠٤):ص٤٧٤/٨.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٩٨٠٥):ص٤٧٤/٨.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٩٨٠٦)-(٩٨٠٩):ص٤٧٤/٨.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(٩٨١٠):ص٤٧٤/٨.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(٩٨١١):ص٤٧٥/٨.

أولى به ، فالنقرة التي في ظهر النواة من صغار النُّقر ، وقد يدخل في ذلك كل ما شَاكلها من النُّقر"[1].

وفي الآية ثلاثة اقوال[2]:

أحدها: أنه: استفهام بمعنى الإنكار والنفي، يعنى: ليس لهم نصيب من الملك؛ إذ لو كان الملك لهم، فإذا لا يؤتون الناس نقيرا، من بخلهم، وقلة خيرهم.

والثاني: أن المعنى: ليس لهم نصيب من الملك فكيف يؤتون الناس شيئا؟! إنما الملك لله - عز وجل - هو الذي يؤتى الملك من يشاء؛ كقوله - تعالى -: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران : ٢٦].

والثالث: إنه بمعنى الإثبات، يعني: لهم نصيب من الملك من الشرف والأموال والرياسة فيما بينهم، لكن ألا يأتون الناس، نقيرا، فكيف يتبعونهم؟!.

وفي قراءة عبد الله: {فإذا لا يؤتوا الناس}، بالنصب[3].

الفوائد:

١- أن الله وحده هو المالك للملك الذي يهب ما يشاء لمن يشاء.

٢- أنكر الله على اليهود دعوة أن الملك يؤول إليهم، وهم لشدة بخلهم لو آل الملك لهم لما أعطوا أحداً أحقر الأشياء وأتفهها ولو مقدار نواة.

٣- ذم اليهود بالبخل بعد ذمهم بلازم الجهل، وهو تفضيلهم الشرك على التوحيد.

القرآن

{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤)} [النساء : ٥٤]

التفسير:

بل أيحسدون محمدًا ﷺ على ما أعطاه الله من نعمة النبوة والرسالة، ويحسدون أصحابه على نعمة التوفيق إلى الإيمان، والتصديق بالرسالة، واتباع الرسول، والتمكين في الأرض، ويتمنون زوال هذا الفضل عنهم؟ فقد أعطينا ذرية إبراهيم عليه السلام -من قَبْلُ- الكتب، التي أنزلها الله عليهم وما أوحي إليهم مما لم يكن كتابا مقروءا، وأعطيناهم مع ذلك ملكا واسعا.

سبب نزول الآية:

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قوله أعطي نبي الله ﷺ بضع سبعين شابا، فحسدته اليهود، فقال الله تعالى: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله"[4].

وفي السياق نفسه أخرج الطبري[5]، وابن أبي حاتم عن ابن عباس:" وذلك أن أهل الكتاب قالوا: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في س همه إلا النكاح، فأي ملك أفضل من هذا؟! فقال الله تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}"[6]. قال ابن أبي حاتم:"وروي عن عطية والضحاك[7]، وسعيد بن جبير والسدي[8] نحو ذلك"[1].

---

[1] تفسير الطبري:٤٧٥/٨.

[2] انظر: تفسير السمعاني:٤٣٦/١، وتفسير الماتريدي:٢٠٨/٣-٢٠٩.

[3] انظر: تفسير الثعلبي:٣٢٨/٣.

[4] تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٧١):ص٩٧٩/٣.

[5] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢٣):ص٤٧٨/٨.

[6] تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٧٠):ص٩٧٨/٣-٩٧٩.

[7] وانظر: قول الضحاك في تفسير الطبري(٩٨٢٥):ص٤٧٨/٨.

[8] وانظر: قول السدي في تفسير الطبري(٩٨٢٤):ص٤٧٨/٨-٤٧٩..

قوله تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء : ٥٤] أي:" بل أيحسدون محمدًا ﷺ على ما أعطاه الله من نعمة النبوة والرسالة، ويحسدون أصحابه على نعمة التوفيق إلى الإيمان،والتصديق بالرسالة، واتباع الرسول، والتمكين في الأرض، ويتمنون زوال هذا الفضل عنهم؟"[٢].

قال أبو عبيدة، وابن قتيبة:" {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ}، معناها: أيحسدون الناس"[٣].

قال الزمخشري:أي:" بل أيحسدون رسول الله ﷺ والمؤمنين على إنكار الحسد واستقباحه. وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصرة والغلبة وازدياد العز والتقدم كل يوم"[٤].

وفي الناس الذين عناهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم العرب ، وهو قول قتادة[٥].

والثاني : أنه النبي محمد - ﷺ - خاصة ، وهو قول ابن عباس[٦]، ومجاهد[٧]، والضحاك[٨]، والسدي[٩]، وأبي مالك[١٠]، وعكرمة[١١]، ومقاتل[١٢].

والثالث : أنهم النبي - ﷺ - وأصحابه ، قاله عكرمة في رواية اخرى[١٣]، وهو قول بعض المتأخرين[١٤].

والتفسير الأشبه بالصواب-والله اعلم-، أن يقال:" أتحسدون محمدًا وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله، وذلك لأن ما قبل قوله : {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله}، مضى بذّم القائلين من اليهود للذين كفروا : {هؤلاء أهدىَ من الذين آمنوا سبيلا }، فإلحاق قوله : {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله}، بذمهم على ذلك ، وتقريظ الذين آمنوا الذين قيل فيهم ما قيل أشبهُ وأولى ، ما لم تأت دلالة على انصراف معناه عن معنى ذلك"[١٥].

قال الفراء:" هذه اليهود حسدت النبي ﷺ كثرة النساء، فقالوا: هذا يزعم أنه نبى وليس له هم إلا النساء، فأنزل الله تبارك وتعالى: {فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة}، وفي آل إبراهيم سليمان بن داود، وكان له تسعمائة امرأة، ولداود مائة امرأة "[١٦].

---

[١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٧٠):ص٣/٩٧٩.

[٢] التفسير الميسر:٨٧.

[٣] مجاز القرآن:١/١٣٠، وتأويل مشكل القرآن:٢٩١.

[٤] الكشاف:١/٥٢٢.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢٠):ص٨/٤٧٧.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٨١٧):ص٨/٤٧٧.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٨١٨):ص٨/٤٧٧.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٨١٩):ص٨/٤٧٧.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٨١٦):ص٨/٤٧٦.

[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٩):ص٣/٩٧٨.

[١١] انظر:تفسير الطبري(٩٨١٥):ص٨/٤٧٦، و تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٦٩):ص٣/٩٧٨ في حديث عمرو.

[١٢] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٧٩.

[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٦٩):ص٣/٩٧٨.

[١٤] انظر: النكت والعيون:١/٤٩٦.

[١٥] تفسير الطبري:٨/٤٧٧.

[١٦] معاني القرآن:١/٢٧٥.

قال أبو هلال العسكري:" أصل الناس: أناس أسكنت الهمزة منه فأدغمت اللام، كما قيل: لكنا، وقيل: الناس لغة مفردة، والأناس لغة أخرى، ولو كان أصله أناسا لقيل في التصغير أنيس، وإنما يقال: نويس وتجمع أناس على أناسي، وقيل: أناسي جمع، إنسي واشتقاقه من الأنس، خلاف الوحشية، لأن بعضهم يأنس ببعض، والناس جماعة لا واحد لها من لفظها، وواحدها إنسان على المعنى"[١].

وفي الفضل المحسود عليه قولان :

أحدهما : أنه النبوة ، إذ حسدواْ العرب على أن كانت فيهم ، وهو قول الحسن[٢]، وقتادة[٣]، وابن وابن جريج[٤].

والثاني : أنه إباحته للنبي - ﷺ - نكاح من شاء من النساء من غير عدد ، وهو قول ابن عباس[٥]، والضحاك[٦] ، والسدي[٧]، وعطية[٨]، وسعيد بن جبير[٩].

والراجح-والله أعلم- أن «الفضل» في هذا الموضع هو " النبوّة التي فضل الله بها محمدًا ، وشرّف بها العرب ، إذ آتاها رجلا منهم دون غيرهم لما ذكرنا من أن دلالة ظاهر هذه الآية ، تدلّ على أنها تقريظٌ للنبي ﷺ وأصحابه رحمة الله عليهم ، (٢) على ما قد بينا قبل. وليس النكاح وتزويجُ النساء وإن كان من فضْل الله جل ثناؤهُ الذي آتاه عباده بتقريظ لهم ومدح"[١٠].

قوله تعالى:{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } [النساء : ٥٤]، أي:" فقد أعطينا ذرية إبراهيم عليه السلام -من قَبْلُ- الكتب، التي أنزلها الله عليهم وما أوحي إليهم مما لم يكن كتابا مقروءا، وأعطيناهم مع ذلك ملكا واسعا"[١١].

قال الزمخشري: قوله"{فقد آتينا}، إلزام لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة آل إبراهيم الذين هم أسلاف محمد ﷺ، وأنه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ما آتى أسلافه"[١٢].

وفي { الْكِتَابَ} [النساء : ٥٤]، وجهان:

أحدها: أنه الخط والقلم. قاله ابن عباس[١٣]، وروي عن عطاء[١٤]، ويحيى بن أبي كثير[١٥]، ومقاتل بن حيان[١٦] نحو ذلك.

---

[١] الوجوه والنظائر:٤٦٥.

[٢] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢١):ص٤٧٨/٨.

[٣] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢١):ص٤٧٨/٨.

[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢٢):ص٤٧٨/٨.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢٣):ص٤٧٨/٨.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢٥):ص٤٧٩/٨.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢٤):ص٤٧٨/٨-٤٧٩.

[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٠):ص٩٧٩/٣.

[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٠):ص٩٧٩/٣.

[١٠] تفسير الطبري:٤٧٩/٨.

[١١] التفسير الميسر:٨٧.

[١٢] الكشاف:٥٢٢/١.

[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٣):ص٩٧٩/٣.

[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٤):ص٩٧٩/٣.

[١٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٤):ص٩٧٩/٣.

[١٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٤):ص٩٧٩/٣.

والثاني: أنه القرآن. وهذا قول الحسن[١]، وأبي مالك[٢].

وفي {الْحِكْمَةَ } [النساء : ٥٤]، وجوه:

أحدها: انها السنة. قاله الحسن[٣]، وأبو مالك[٤]، وقتادة[٥]، ومقاتل بن حيان[٦]، ويحيى بن ابي ابي كثير[٧].

والثاني: انها النبوة. قاله السدي[٨].

والثالث: أن الحكمة: العقل في الدين. قاله زيد بن أسلم عن أبيه[٩].

وفي قوله:{مُلْكًا عَظِيمًا } [النساء : ٥٤]، أربعة أقاويل :

أحدها : أنه ملك سليمان بن داود ، وهو قول ابن عباس[١٠]، وعطية[١١].

والثاني : النبوة ، وهو قول مجاهد[١٢].

والثالث : ما أُيّدُوا به من الملائكة والجنود ، وهو قول همام بن الحارث[١٣].

والرابع : من أباحه الله لداود وسليمان من النساء من غير عدد ، حتى نكح داود تسعاً وتسعين امرأة ، ونكح سليمان مائة امرأة ، وهذا قول السدي[١٤].

والراجح-والله أعلم- أنه يعني بالملك العظيم :" ملك سليمان، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب ، دون الذي قال إنه ملك النبوّة، ودون قول من قال : إنه تحليلُ النساء والملك عليهن، لأن كلام الله الذي خوطب به العرب ، غيرُ جائز توجيهه إلا إلى المعروف المستعمل فيهم من معانيه ، إلا أن تأتي دلالةٌ أو تقوم حُجة على أن ذلك بخلاف ذلك ، يجبُ التسليم لها"[١٥].

قال السمعاني:" أراد بـ{آل إبراهيم}: داود، وسليمان، و{الكتاب}: هو الكتاب الذي أنزل عليهم، وأما {الحكمة}: قيل: هي النبوة، وقيل هي السنة، ومعنى الآية: أنهم إن حسدوا الرسول بما أوتى من الفضل، فليحسدوا آل إبراهيم؛ فإنهم قد أوتوا الكتاب والحكمة {وآتيناهم ملكا عظيما}، واختلفوا في الملك العظيم: فمن فسر الفضل بتحليل الزوجات، فسر الملك العظيم به

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٥):ص٣/٩٧٩.

[٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٥):ص٣/٩٧٩.

[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٦):ص٣/٩٧٩.

[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٦):ص٣/٩٧٩.

[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٦):ص٣/٩٧٩.

[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٦):ص٣/٩٧٩.

[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٦):ص٣/٩٧٩.

[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٧):ص٣/٩٨٠.

[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٨):ص٣/٩٨٠.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢٩):ص٨/٤٨١.

[١١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٧٩):ص٣/٩٨٠.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢٦)، و(٩٨٢٧):ص٨/٤٨٠-٤٨١.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(٩٨٣٠):ص٨/٤٨١-٤٨٢.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(٩٨٢٨):ص٨/٤٨١.

[١٥] تفسير الطبري:٨/٤٨٢.

أيضا، وقد كان لداود تسع وتسعون امرأة، ولسليمان مائة امرأة، وقيل: كان لسليمان سبعمائة امرأة، وثلثمائة سرية، وقيل: أعطى نبينا صلوات الله عليه قوة سبعين شابا في المباضعة "[١].

الفوائد:

١- ذم اليهود على حسدهم المسلمين، وأن الحسد من صفاتهم وأخلاقهم.

٢- أن الإيمانُ بالقدَر يقضي على كثيرٍ من الأمراض التي تعصفُ بالمجتمعات، وتزرعُ الأحقادَ بين المؤمنين، وذلك مثلُ رذيلةِ الحسَدِ، فالمؤمنُ لا يحسدُ الناس على ما آتاهم اللهُ من فضله؛ لأنه هو الذي رزقَهم وقدَّر لهم ذلك، وهو يعلم أنه حين يحسدُ غيره إنما يعترضُ على المقدورِ، قال تعالى عن اليهود: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ..}.

٣-أن الحسد مذموم، والحاسد غير الغائظ، لأن الحاسد من لا يحب الخير لغيره، ويتمنى زواله عنه. والغائظ من يتمنى أن يكون له من الخير مثل ما لغيره. ولهذا جاز أن يقال في الدعاء للنبي ﷺ: "اللهم ابعثه مقامًا محمودًا يغبطه به الأولون والآخرون"[٢]، فإن المعنى: ابعثه مقامًا يتمنى كل واحد من الأولين والآخرين إن كان له مثله. ولو كان ذلك كالحسد ما جاز بهذا القول ولا حسن، وإنما كان الحسد مذمومًا، لأن الحسد يعد إحسان الله تعالى إلى أخيه المسلم إساءة إليه، وهذا جهل منه. لأن الإحسان الواقع لمكان أخيه لا يضره شيئًا. فإنما عند الله تعالى ليس بنقص من ذلك فيخشى أن لا يناله منه بعد ما نال غيره نصيب، لكن ما عند الله واسع. وذا كان ذلك كذلك، فالأولى به أن يفرح بما يراه من آثار نعمة الله عند أخيه المسلم، ويشكره ويحمد عليه ويسأله أن يؤتيه مثله. فأما الاعتماد بما أكرم أخاه فليس له في المعتقد وجه[٣].

القرآن

{فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)} [النساء : ٥٥]

التفسير:

فمن هؤلاء الذين أوتوا حظًّا من العلم، مَن صدَّق برسالة محمد ﷺ، وعمل بشرعه، ومنهم مَن أعرض ولم يستجب لدعوته، ومنع الناس من اتباعه. وحسبكم -أيها المكذبون- نار جهنم تسعَّر بكم.

قوله تعالى:{فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ} [النساء : ٥٥]، أي:" فمن هؤلاء الذين أوتوا حظًّا من العلم، مَن صدَّق برسالة محمد ﷺ، وعمل بشرعه "[٤].

قال مقاتل:" يقول: صدق بالكتاب الذي جاء به"[٥].

قال ابن كثير:" أي : بهذا الإيتاء وهذا الإنعام"[٦].

وفي قوله تعالى:{فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ} [النساء : ٥٥]، وجهان:

أحدهما: أي: من اليهود، منهم من آمن بما أنزل على النبي محمد-ﷺ-. وهذا قول مجاهد[٧].

---

[١] تفسير السمعاني:٤٣٧/١.

[٢]سنن ابن ماجه برقم (٩٠٦).

[٣] انظر: المنهاج في شعب الإيمان:١٠٣-١٠٤.

[٤] التفسير الميسر:٨٧.

[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٠/١.

[٦] تفسير ابن كثير:٣٣٦/٢.

[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٨٤):ص٩٨١/٣.

والثاني: أن معنى قوله:{فمنهم من آمن به}، كان الناس يأتون إبراهيم الخليل عليه السلام، فيسألونه يعني: الحنطة، فيقول: من قال: لا إله إلا الله، فليدخل فليأخذ، فمنهم من قال: وأخذ. وهذا قول السدي[1].

قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ} [النساء : ٥٥]، أي:"ومنهم مَن أعرض ولم يستجب لدعوته"[2].

قال مقاتل:" يعني: أعرض عن الإيمان بالكتاب ولم يصدق به"[3].

قال ابن كثير:" أي : كفر به وأعرض عنه ، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم ، أي من بني إسرائيل ، فقد اختلفوا عليهم ، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل ؟"[4].

وفي قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ} [النساء : ٥٥]، وجهان:

أحدهما: معناه: تركه فلم يتبعه. قاله الحسن[5].

والثاني: أنهم الذين أبوا قول لا إله إلا الله، وذلك عند سؤالهم إبراهيم-عليه السلام- الحنطة، فيرجعون. وهذا قول السدي[6].

قوله تعالى:{وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا} [النساء : ٥٥]، أي: "وكفى بالنار المسعّرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم"[7].

قال مقاتل:" يقول: وكفى بوقودها وعذابها وقودا لمن كفر بكتاب إبراهيم فلا وقود أحر من جهنم لأهل الكفر"[8].

قال ابن كثير:" أي : وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله"[9].

قال أبو مالك:"{سعيرا}، يعني:وقودا"[10].

وقال سعيد بن جبير:" السعير: وادي من فيح في جهنم"[11].

الفوائد:

١-بيان تكذيب اليهود للنبي-ﷺ-، على الرغم من أنهم أهل كتاب، ويزعمون أنهم أهل دين وتوحيد.

٢-أن كفر اليهود بالنبي محمد-ﷺ- كان بغيا وحسدا، لأنهم كانوا قبل مبعثه عالمين بقرب مبعثه مجمعين على نبوته، مما عرفوه عنه في كتبهم من البشارة به وبيان أحواله وصفاته، فلما بعث اختلفوا :{ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ}.

---

[1] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٨٦):ص٣/٩٨١.

[2] التفسير الميسر:٨٧.

[3] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٠.

[4] تفسير ابن كثير:٢/٣٣٦.

[5] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٨٧):ص٣/٩٨١.

[6] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٨٨):ص٣/٩٨١.

[7] صفوة التفاسير:٢٥٨.

[8] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٠.

[9] تفسير ابن كثير:٢/٣٣٦.

[10] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٨٩):ص٣/٩٨٢.

[11] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩٠):ص٣/٩٨٢.

٣-أن اليهود آثروا اتباع الباطل والعمل بما يزينه لهم على اتباع الحق، ولا يزال ذلك دأبهم حتى يرديهم فى دار الشقاء والنكال وهى جهنم وبئس القرار.
٤- أن النار فهي دار أعدها الله لمن عصاه من الكفرة والمعرضين والمجانبين للصراط المستقيم، وجعل لهم فيها النكال والأغلال والويل والثبور، حتى ينالوا بذلك جزاء كفرهم وإعراضهم[١].

يقول ابن سعدي في وصف النار وأهلها المستحقين لدخولها:
".....فهي دار من طغى وبغى وتجبر على الخلق وآثر الحياة الدنيا، دار الشقاء الأبدي والعذاب الشديد السرمدي، دار جمع الله فيها للطاغين أصناف العذاب، وأحل على أهلها السخط والسعير والحجاب، دار اشتد غيظها وزفيرها، وتفاقمت فظاعتها وحمى سعيرها قعرها بعيد وعذابها شديد ولباس أهلها القطران والحديد وطعامهم الغسلين وشرابهم الصديد، ويتجرعه المجرم ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت فيستريح من التنكيد، يتردد أهلها بين الزمهرير والمفرط برده وبين السعير ويلاقون فيها العنا والشقا فيا بئس المثوى ويا بئس المصير ويلقى عليهم الجوع الشديد المفظع والعطش العظيم الموجع، فيستغيثون للطعام والشراب، فيغاثون من هذا العذاب بأفظع عذاب، يغاثون بماء كالمهل وهو الرصاص المذاب، خبيث الطعم منتن الريح، حره قد تناها، إذا قرب من وجوههم أسقط جلدها ولحمها وشواها، وإذا وقع في بطونهم صهرها وقطع معاها، يغلي طعام الزقوم في بطونهم كغلي الحميم، فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الإبل العطاش الهيم، هذا نزلهم فبئس النزل غير الكريم"[٢].
وقال أيضاً في تعداد صنوف العذاب وألوانه وأنواعه في جهنم: " فتارة يعذبون بالسعير المحرق لظواهرهم وبواطنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، وتارة بالزمهرير الذي قد بلغ برده أن يهرى اللحوم ويكسر العظام، وتارة بالجوع المفرط والعطش المفظع، وإذا استغاثوا لذلك أغيثوا بعذاب آخر، ولون من الشقاء ينسى ما سبقه فيغاثون بطعام ذي غصة، بشجرة الزقوم التي تخرج في الذي يوقد عليه النار، وإن يستغيثوا للشراب يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، إذا قرب إليها فلا يدعهم العطش مع ذلك أن يتناولها، فإذا وصلت إلى بطونهم قطعت أمعاءهم ولا يزالون في عذاب شديد لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا يرجون رحمة ولا فرجا ... "[٣].

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)} [النساء : ٥٦]

التفسير:
إن الذين جحدوا ما أنزل الله من آياته ووحي كتابه ودلائله وحججه، سوف ندخلهم نارًا يقاسون حرَّها، كلما احترقت جلودهم بدَّلْناهم جلودًا أخرى؛ ليستمر عذابهم وألمهم. إن الله تعالى كان عزيزًا لا يمتنع عليه شيء، حكيمًا في تدبيره وقضائه.
قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا} [النساء : ٥٦]، أي:" إن الذين جحدوا ما أنزل الله من آياته ووحي كتابه ودلائله وحججه"[٤].
قال مقاتل:" يعني: اليهود، {بآياتنا}، يعني القرآن"[٥].

---

[١] انظر: العقيدة، الشيخ السعدي:٢٩٢.
[٢] الفواكة الشهية /٤٥، ٤٦.
[٣] الخلاصة /٢٨.
[٤] التفسير الميسر:٨٧.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٠.

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله"[١].

قال الطبري:أي:" إن الذين جحدوا ما أنزلتُ على رسولي محمد ﷺ ، من آياتي يعني: من آيات تنزيله ، ووَحي كتابه ، وهي دلالاته وحججه على صدق محمد ﷺ فلم يصدقوا به من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر أهل الكفر به، [و] هذا وعيد من الله جل ثناؤه للذين أقاموا على تكذيبهم بما أنزل الله على محمد من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر الكفار ، وبرسوله"[٢].

قوله تعالى:{سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا} [النساء : ٥٦]، أي:" سوف ندخلهم نارًا يقاسون حرَّها"[٣].

قال ابن كثير:" أي: ندخلهم نارا دخولا يحيط بجميع أجرامهم ، وأجزائهم"[٤].

قال الطبري:أي:" سوف ننضجهم في نارٍ يُصلون فيها أي يشوون فيها"[٥].

قال الحسن: "قوله: {سَوْفَ}، وعيد"[٦].

قال أبو عبيدة: " { نُصْلِيهِمْ نَارًا}، نشويهم بالنار وننضجهم، يقال: أتانا بالحمل مصلي، أي: مشوي، وذكر أن يهودية أهدت إلى النبي ﷺ شاة مصلية: أي: مشوية "[٧].

قوله تعالى:{كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ} [النساء : ٥٦]، " أي: كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تاماً"[٨].

قال ابن عمر:" إذا احترقت جلودهم"[٩].

قال الطبري:أي:" كلما انشوت بها جلودهم فاحترقت"[١٠].

قال الواحدي:" يعني: أنَّ جلودهم إذا نضجت"[١١].

قال الراغب:" الجلد: قشر البدن، وجمعه جلود، والجلود عبارة عن الأبدان، والقلوب عن النفوس"[١٢].

قوله تعالى:{بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [النساء : ٥٦]، " أي: بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب"[١٣].

قال الواحدي:" يعني: جُدِّدت بأن تُردَّ إلى الحال التي كانت عليها غير محترقة، ليقاسوا العذاب وينالوه"[١٤].

قال الطبري:"يعني : غير الجلود التي قد نضجت فانشوت"[١].

---

[١] تفسير ابن كثير:٢/٣٣٧.

[٢] تفسير الطبري:٨/٤٨٤.

[٣] التفسير الميسر:٨٧.

[٤] تفسير ابن كثير:٢/٣٣٧.

[٥] تفسير الطبري:٨/٤٨٤.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩١):ص٣/٩٨٢.

[٧] أخرجه ابن المنذر(١٩١٠):ص٢/٧٥٨.

[٨] صفوة التفاسير:٢٥٨.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩٢):ص٣/٩٨٢.

[١٠] تفسير الطبري:٨/٤٨٤.

[١١] الوجيز:٢٦٩.

[١٢] المفردات في غريب القرآن:١٩٩.

[١٣] صفوة التفاسير:٢٥٨.

[١٤] الوجيز:٢٦٩.

وقيل : المراد بقوله:{ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ }، أي : سرابيلهم، ، قال تعالى:{سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} [سورة إبراهيم : ٥٠]، وذلك لما صارت لهم لباسًا لا تفارق أجسامهم، فجعلت لهم جلودًا ، فقيل : كلما اشتعل القَطِران في أجسامهم واحترق ، بدلوا سرابيل من قطران آخر. حكاه ابن جرير[٢].

قال ابن كثير:"وهو ضعيف ؛ لأنه خلاف الظاهر"[٣].

قال البيضاوي:أي:" أعدنا تلك الجلود غير محترقة فالتبديل والتغيير لتغاير الهيئتين لا لتغاير الأصلين عند أهل الحق، {لِيَذُوقُواْ العذاب} ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز أعزك الله أي أدامك على عزك"[٤].

قال مقاتل:" وذلك أن النار إذا أكلت جلودهم بدلت كل يوم سبع مرات على مقدار كل يوم من أيام الدنيا. {ليذوقوا العذاب}،عذاب النار جديدا "[٥].

قال ابن عمر:" إذا احترقت جلودهم بدلوا جلودا بيضاء أمثال القراطيس"[٦].

وروي عن ابن عمر قال: "قرأ رجل عند عمر هذه الآية: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا}، فقال عمر: أعدها عليّ، فأعادها عليه، فقال معاذ بن جبل: عندي تفسيرها: تبدل في ساعة مائة مرة، فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ"[٧].

قال الربيع بن انس:" سمعنا أنه مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعين ذراعا وسنه تسعين ذراعا، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلودا غيرها"[٨].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حسين الجعفي، عن الحسن:" تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة، وفي رواية أخرى:" كلما أنضجتهم وأكلت لحومهم، قيل لهم: عودوا، فعادوا"[٩].

وقال يحيى بن يزيد الحضرمي:" يجعل للكافر مائة جلد بين كل جلدين لون من العذاب"[١٠].

وعن زر عبد الله، قال: " إنه تسمع للهوام جلبة بين أطباق جلد الكافر كما تسمع جلبة الوحش في البر "[١١].

وعن أبي هريرة، قال: " قال لي عبد الله: أتدري كم عرض جلد الكافر؟ فقلت: لا، قال: هو أربعون ذراعا بذراع الخباز"[١٢].

---

[١] تفسير الطبري:٤٨٤/٨.

[٢] انظر: تفسير الطبري:٤٨٧/٨.

[٣] تفسير ابن كثير:٣٣٧/٢.

[٤] تفسير البيضاوي:٣٦٦/١.

[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٠/١.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩٤):ص٩٨٢/٣.

[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩٣):ص٩٨٢/٣.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩٥):ص٩٨٢/٣.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩٦):ص٩٨٣/٣.

[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩٧):ص٩٨٣/٣.

[١١] أخرجه ابن المنذر(١٩١١):ص٧٥٨/٢-٧٥٩.

[١٢] أخرجه ابن المنذر(١٩١٢):ص٧٥٨/٢-٧٥٩.

وقال الضحاك:" تأخذ النار فتأكل جلودهم حتى تكشطها عن اللحم، حتى تفضي النار إلى العظام، ويبدلون جلودا غيرها، فيذيقهم الله شديد العذاب، فذلك دائم لهم أبدا، بتكذيبهم رسول الله ﷺ، وكفرهم بآيات الله "[1].

وقال ابن أبي زمنين:" قال يحيى: بلغنا أنها تأكل كل شيء حتى تنتهي إلى الفؤاد؛ فيصيح الفؤاد فلا يريد الله أن تأكل أفئدتهم؛ فإذا لم تجد شيئا تتعلق به منهم، خبت - أي: سكنت - ثم يعادون خلقا جديدا؛ فتأكلهم كلما أعيد خلقهم"[2].

فإن قيل وكيف يجوز أن يُبدّلواْ جلوداً غير جلودهم التي كانت لهم في الدنيا فيعذبوا فيها ؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يُبدَّلواْ أجساماً ، وأرواحاً ، غير أجسامهم وأرواحهم التي كانت في الدنيا ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكون المعذبون في الآخرة بالنار غير الذين وعدهم الله في الدنيا على كفرهم بالعذاب بالنار . وقد أجاب أهل العلمِ عنه بثلاثة أجوبة [3]:

أحدها : أن ألم العذاب إنما يصل إلى الإنسان الذي هو غير الجلد واللحم ، وإنما يحرق الجلد ليصل إلى الإنسان ألم العذاب ، فأما الجلد واللحم فلا يألمان فسواء أعيد على الكافر جلده الذي كان عليه وجلدٌ غَيْرُهُ .

والجواب الثاني : أنه تُعَادُ تلك الجلود الأولى جديدة غير محترقة .

والجواب الثالث : أن الجلود المُعادَةَ إنما هي سرابيلهم من قبل أن جعلت لهم لباساً ، فسماها الله جلوداً ، وأنكر قائل هذا القول أن تكون الجلود تحترق وتعاد غير محترقة ، لأن في حال احتراقها إلى حال إعادتها فناءَها ، وفي فنائها راحتها ، وقد أخبر الله تعالى : أنهم لا يموتون ولا يخفف عنهم العذاب .

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء : ٥٦]، أي:" إن الله تعالى كان عزيزًا لا يمتنع عليه شيء، حكيمًا في تدبيره وقضائه"[4].

قال الواحدي:أي"قوياً لا يغلبه شيء {حَكِيمًا } فيما دبَّر"[5].

قال الزمخشري:"{ عَزِيزًا}، لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين، {حَكِيمًا }،لا يعذب إلا بعدل من يستحقه"[6].

قال البيضاوي:أي:" غالباً بالانتقام لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين، {حَكِيماً} فيما يفعل بالكافرين"[7].

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية :"{ عَزِيزًا حَكِيمًا}، يقول: عزيزا في نقمته إذا انتقم"[8]. وروي عن قتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك[9].

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء"[10].

الفوائد:

١-أن الآية تناولت صفة النار والترهيب منها وصفة أهلها.

---

[1] أخرجه ابن المنذر(١٩١٣):ص٧٥٩/٢.

[2] تفسير ابن أبي زمنين:٣٨١/١.

[3] انظر: تفسير الطبري: ٤٨٥/٨-٤٨٦، والنكت والعيون:٤٩٨/١-٤٩٩.

[4] التفسير الميسر:٨٧.

[5] الوجيز:٢٦٩.

[6] الكشاف:٥٢٣/١.

[7] تفسير البيضاوي:٣٦٦/١.

[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩٨):ص٩٨٣/٣.

[9] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٩٨):ص٩٨٣/٣.

[10] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٩٨):ص٩٨٣/٣.

٢-أن الشرك بالله عبادة غير الله معه، وهو أعظمُ ذنب عُصي الله به، وهو الذنب الذي لا يغفره الله، قال الله عزَّ وجلَّ: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}، وهو الذنب الذي يُخلَّد صاحبُه في النار أبد الآباد، ولا سبيل له للخروج منها، كما قال الله عزَّ وجلَّ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}.

القرآن

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)} [النساء : ٥٧]

التفسير:

والذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان بالله تعالى والتصديق برسالة رسوله محمد ﷺ، واستقاموا على الطاعة، سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ينعمون فيها أبدًا ولا يخرجون منها، ولهم فيها أزواج طهرها الله من كل أذى، وندخلهم ظلا كثيفًا ممتدًا في الجنة.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [النساء : ٥٧]، أي: و"الذين آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الأعمال الصالحات"(١).

قال ابن عباس:"يقول : أدوا فرائضي"(٢).

وعنه أيضا: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر"(٣).

قال زيد بن أسلم:" {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}: رسول الله ﷺ وأصحابه"(٤).

قوله تعالى:{سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [النساء : ٥٧]، "أي: أي: سيدخلهم الله -بفضله- جنات تمر الأنهار من تحت أشجارها"(٥).

قال السعدي:" وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة"(٦).

قال ابن عثيمين:" وظاهر كلمة {أنهار} أن الماء عذب، وجمع {الأنهار} باعتبار تفرقها في الجنة، وانتشارها في نواحيها؛ إذاً يعتبر هذا البستان كاملاً من كل النواحي: نخيل، وأعناب، ومياه، وثمرات؛ وهو أيضاً جنة كثيرة الأشجار، والأغصان، والزروع، وغير ذلك "(٧).

قال أبو مالك:" يعني: المساكن تجري أسفلها أنهارها"(٨).

قال مقاتل:" يعني: البساتين تجري من تحتها الأنهار"(٩).

قال الزجاج:" المعنى: تجري من تحتها مياه الأنهار، لأن الجاري على الحقيقة الماء"(١٠).

قال مسروق:" أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وثمرتها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، العنقود اثنا عشر ذراعا"(١١).

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ٣٨٠/٣.

(٢) أخرجه الطبري(٧١٥٦):ص٤٦٥/٦.

(٣)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٩٧):ص٦٦٤/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠٠):ص٩٨٣/٣.

(٥)صفوة التفاسير: ١٥٣/١.[بتصرف].

(٦) تفسير السعدي: ١١٥/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ٣٣١/٣.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠٣):ص٩٨٤/٣.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨١/١.

(١٠) معاني القرآن:٦٦/٢.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠٤):ص٩٨٤/٣.

قال ابن كثير:" هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن ، التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا وأين أرادوا"[١].

قال عبد الله: "الجنة سجسج لا حر فيها ولا برد"[٢]. وعنه أيضا:" أنهار الجنة تفجر من جبل مسك"[٣].

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [النساء : ٥٧]، أي:" مقيمين في الجنة لا يموتون"[٤].

قال سعيد بن جبير، ومقاتل:"يعني: لا يموتون"[٥].

وعن ابن عباس:" {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، قال: لا انقطاع"[٦].

قال ابن كثير:أي:" وهم خالدون فيها أبدا ، لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولا"[٧].

قال سعيد بن جبير:" طول الرجل من أهل الجنة سبعون ميلا، وطول المرأة ثلاثون ميلا، مقعدتها جريب أرض، وإن شهوته لتجري في جسدها مقدار سبعين عاما، يجد اللذة ولو انقلب الرجل من أهل النار كسلسلة لزالت الجبال "[٨].

قوله تعالى:{لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ} [النساء : ٥٧]، " أي: لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأقدار والأذى"[٩].

قال ابن كثير:" أي : من الحيض والنفاس والأذى. والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة"[١٠].

قال ابن عباس:" يقول: مطهرة من القذر والأذى"[١١].

وقال قتادة:" قيل: مطهرة من الأذى والمآثم"[١٢]، وفي رواية اخرى:" لا حيض ولا كلف"[١٣].

عن مجاهد، في قوله عز وجل " {ولهم فيها أزواج مطهرة} ، من الحيض، والغائط، والبول، والمخاط، والنخام، والبزاق، والمني، والولد "[١٤].

قال مقاتل:" يعني: النساء، {مطهرة}، يعني: المطهرات من الحيض والغائط والبول والقذر كله"[١٥].

---

[١] تفسير ابن كثير:٣٣٨/٢.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠١):ص٩٨٣/٣.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠٢):ص٩٨٣/٣.

[٤] صفوة التفاسير:٢٥٩.

[٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٠٥):ص٩٨٤/٣، وتفسير مقاتل بن سليمان:٣٨١/١.

[٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٠٦):ص٩٨٤/٣.

[٧] تفسير ابن كثير:٣٣٨/٢.

[٨] أخرجه ابن المنذر(١٩١٥):ص٧٦٠/٢.

[٩] صفوة التفاسير:٢٥٩.

[١٠] تفسير ابن كثير:٣٣٨/٢.

[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠٧):ص٩٨٤/٣.

[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠٩):ص٩٨٤/٣.

[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥١٠):ص٩٨٤/٣.

[١٤] أخرجه ابن المنذر(١٩١٦):ص٧٦٠/٢.

[١٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨١/١.

قوله تعالى:{وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النساء : ٥٧]، "أي ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس ولا حر فيه ولا برد"[١].
قال ابن كثير:" أي : ظلا عميقا كثيرا غزيرا طيبا أنيقا"[٢].
قال مقاتل:" يعني أكنان القصور، {ظليلا}، يعني: لا خلل فيها"[٣].
قال الربيع:" وهو ظل العرش الذي لا يزول"[٤].
قال الزجاج:" معنى «ظليل»: يظل من الريح والحر، وليس كل ظل كذلك، أعلم الله - عز وجل - أن ظل أهل الجنة ظليل لا حر معه ولا برد، وكذلك قوله: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} [الواقعة : ٣٠]، لأن ليس كل ظل ممدودا"[٥].

الفوائد:

١-أخبر الله تعالى عما يؤول إليه أمر الموحدين بأنه سيدخلهم الجنة، وإن عذبهم فبذنوبهم ولا يخلدون في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة والقدرية. وقد أخبر الله سبحانه في القرآن أنه إنما يدخل العباد الجنة بالإيمان والعمل في آيات كثيرة.
٢- إن الله لم يعلق وعد الجنة إلا باسم الإيمان، لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الإسلام، وإخباره أنه دينه الذي ارتضاه، وأنه لا يقبل ديناً غيره، ومع هذا فما قال: إن الجنة أعدت للمسلمين، ولا قال: وعد الله المسلمين بالجنة، بل إنما ذكر ذلك باسم الإيمان، فقال: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا..}[٦].
٣- الإيمان بأن الجنة والنار لا يفنيان.

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)} [النساء : ٥٨]

التفسير:

إن الله تعالى يأمركم بأداء مختلف الأمانات، التي اؤتمنتم عليها إلى أصحابها، فلا تفرطوا فيها، ويأمركم بالقضاء بين الناس بالعدل والقسط، إذا قضيتم بينهم، ونِعْمَ ما يعظكم الله به ويهديكم إليه. إن الله تعالى كان سميعًا لأقوالكم، مُطَّلعًا على سائر أعمالكم، بصيرًا بها.
في سبب نزول الآية وجهان:
أحدهما: اخرج الطبري وابن المنذر[٧]، عن ابن جريج:" نزلت في عُثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، قَبض منه النبي ﷺ مفاتيح الكعبة ، ودخل به البيت يوم الفتح ، فخرج وهو يتلو هذه الآية ، فدعا عثمان فدفع إليه المفتاح. قال : وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية : فداهُ أبي وأمي! ما سمعته يَتلوها قبل ذلك!"[٨].
وفي هذا السياق قال الثعلبي:أنها " نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار وكان سادن الكعبة، فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح فطلب رسول الله ﷺ المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلب منه علي -رضي الله عنه- فأجاب: لو

---

[١] صفوة التفاسير:٢٥٩.
[٢] تفسير ابن كثير:٣٣٨/٢.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨١/١.
(٤)أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥١١):ص٩٨٥/٣ .
[٥] معاني القرآن:٦٦/٢.
[٦] انظر: الإيمان لابن تيمية:٢٧٣.
[٧] انظر: تفسير ابن المنذر(١٩٢٠):ص٧٦٢/٢.
[٨] تفسير الطبري(٩٨٤٦):ص٤٩١/٨-٤٩٢.

علمت إنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلوى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- يده، فأخذ منه المفتاح وفتح الباب، ودخل رسول الله ﷺ وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ عليا أن يرد المفتاح إلى عثمان، فأوعز إليه ففعل ذلك علي -رضي الله عنه-. فقال له عثمان: يا علي كرهت، وآذيت ثم جئت ترفق، فقال له: بما أنزل الله تعالى في شأنك؟ وقرأ عليه هذه الآية. فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وأسلم، فجاء جبرائيل رسول الله ﷺ إنه مادام هذا البيت أول لبنة من لبناته قائمة فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان وهو اليوم في أيديهم"[١].

والثاني: أخرج الطبري، وابن المنذر[٢]، وابن ابي حاتم[٣]، عن زيد بن أسلم ، قال:" نزلت هذه هذه الآية : {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}، في ولاة الأمر"[٤]. وروي عن محمد بن بن كعب[٥]، وشهر بن حوشب[٦]، نحو ذلك.

قال الواحدي:" أجمعوا على أنها نازلة في شأن مفتاح الكعبة"[٧].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء : ٥٨]، أي:" يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أربابها"[٨].

قال الزمخشري:" الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة"[٩].

قال الشوكاني:" هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع، لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس في جميع الأمانات"[١٠].

قال الزجاج:" هذا أمر عام للنبي - ﷺ - وجميع أمته، ويروى في التفسير أن العباس عم النبي - ﷺ - سأل النبي - ﷺ - أن يجعل له السقاية والسدانة وهي الحجبة، وهو أن يجعل له مع السقاية فتح البيت وإغلاقه، فنازعه شيبة بن عثمان فقال يا رسول الله اردد علي ما أخذت مني يعني مفتاح الكعبة، فرده - ﷺ - على شيبة"[١١].

قال أبو السعود:" في تصدير الكلام بكلمة التحقيق وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه وهو خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذمهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد سواء كانت فعلية أو قولية إو اعتقادية وإن ورد في شأن عثمان بن طلحة ابن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة"[١٢].

---

[١] تفسير الثعلبي:٣/٣٣٣ ذكره دون ذكر السند.

[٢] تفسير ابن المنذر(١٩١٩):ص٢/٧٦٢.

[٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٢٣):ص٣/٩٨٦.

[٤] تفسير الطبري(٩٨٣٩):ص٨/٤٩٠.

[٥] انظر: تفسير ابن أبي جاتم(٥٥١٨):ص٣/٩٨٦.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٨٤٠):ص٨/٤٩٠.

[٧] التفسير البسيط:٦/٥٣٥.

[٨] صفووة التفاسير:٢٦١.

[٩] الكشاف:١/٥٢٣.

[١٠] فتح القدير:١/٥٥٥.

[١١] معاني القرآن:٢/٦٦.

[١٢] تفسير أبي السعود:٢/١٩٢.

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ، وفي حديث الحسن ، عن سمرة ، أن رسول الله ﷺ قال : "أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك". رواه الإمام أحمد وأهل السنن [١] وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان ، من حقوق الله ، عز وجل ، على عباده ، من الصلوات والزكوات ، والكفارات والنذور والصيام ، وغير ذلك ، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك. فأمر الله ، عز وجل ، بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة ، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : "لتؤدن الحقوق إلى أهلها ، حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء"[٢]"[٣].

قال السعدي:" الأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به. فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله. وقد ذكر الفقهاء على أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها. قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك. وفي قوله: {إلى أهلها} دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديا لها"[٤].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء : ٥٨]، على اربعة أقاويل:

أحدها : أنه عَنَى وُلاَةَ أمور المسلمين ، وهذا قول شهر بن حَوْشَبٍ [٥]، ومكحول[٦]، وزيد بن أسلم[٧].

والثاني : أنه أمر السلطان أن يعظ النساء ، وهذا قول ابن عباس[٨].

---

[١]) قال المحقق: لم أجد من رواه من حديث سمرة رضى الله عنه :

أ – وإنما رواه الإمام أحمد في مسنده (٤١٤/٣) عن رجل عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ب – ورواه الترمذي في سننه برقم (١٢٦٤) وأبو داود في سننه برقم (٣٥٣٥) من طريق طلق بن غنام عن شريك وقيس عن أبي حصين عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي : "حديث حسن غريب" ، وقال أبو حاتم : "حديث منكر لم يرو هذا الحديث غير طلق" العلل (٣٧٥/١).

جـ – ورواه الحاكم في المستدرك (٦٤/٢) والطبراني في المعجم الصغير (١٧١/١) من طريق أيوب بن سويد عن ابن شوذب عن أبي التياح ، عن أنس رضي الله عنه ، وأيوب بن سويد ضعيف. ،

د – ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٥٠/٨) من طريق يحيى بن عثمان ، عم عمرو بن الربيع ، عن يحيى بن أيوب عن إسحاق ابن أسيد عن أبي حفص عن مكحول عن أبي أمامة رضي الله عنه. قال الهيثمي في المجمع (١٢٨/٨) : "فيه يحي بن عثمان بن صالح المصري. قال ابن أبي حاتم : تكلموا فيه".

هـ – ورواه الطبري في تفسيره (٤٩٣/٨) من طريق قتادة عن الحسن مرسلا..

[٢] رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٢).

[٣] تفسير ابن كثير:٣٣٨/٢.

[٤] تفسير السعدي:١٨٣.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٨٤٠):ص٤٩٠/٨.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٨٤٣):ص٤٩١/٨.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٨٣٩):ص٤٩٠/٨.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٨٤٥):ص٤٩١/٨.

والثالث : أنه خُوْطِبَ بذلك النبي - ﷺ - في عثمان بن أبي طلحة ، أن يرد عليه مفاتيح الكعبة ، وهذا قول ابن جريج [1].
والرابع : أنه في كل مَؤْتَمنٍ على شيء ، وهذا قول أُبَيّ بن كعب[2].
والراجح-والله أعلم- أنه " خطاب من الله ولاةَ أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من وَلُوا أمره في فيئهم وحقوقهم ، وما ائتمنوا عليه من أمورهم ، بالعدل بينهم في القضية ، والقَسْم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وَعظ به الرعية في : {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ}، فأمرهم بطاعتهم ، وأوصى الرّاعي بالرعية ، وأوصى الرعية بالطاعة"[3].
وقرئ: {الأمانة}، على التوحيد[4].
قوله تعالى:{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء : ٥٨]، أي:"ويأمركم بالقضاء بين الناس بالعدل والقسط، إذا قضيتم بينهم"[5].
قال السعدي:" وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو، والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به"[6].
قال الشوكاني:" أي: وإن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. والعدل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء، إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل، لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلا عن أن يحكم بها بين عباد الله. قوله: نعما ما موصوفة أو موصولة، وقد قدمنا البحث في مثل ذلك"[7].
قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ} [النساء : ٥٨]، أي:" ونِعْمَ ما يعظكم الله به ويهديكم إليه"[8].
قال ابن كثير:" أي : يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس ، وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة"[9].
قال السعدي:" وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون"[10].
وقرئ :{نعما}، بفتح النون[1].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(٩٨٤٦):ص٨/٤٩١-٤٩٢.
[2] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٥١٧):٩٨٦/٢٣.
[3] تفسير الطبري:٨ظم٤٩٢.
[4] انظر: الكشاف:٥٢٣/١.
[5] التفسير الميسر:٨٧.
[6] تفسير السعدي:١٨٣.
[7] فتح القدير:٥٥٥/١.
[8] التفسير الميسر:٨٧.
[9] تفسير ابن كثير:٣٤١/٢.
[10] تفسير السعدي:١٨٣.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء : ٥٨]، أي: إن الله "سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم"[٢].

قال ابن كثير:" أي : سميعا لأقوالكم ، بصيرا بأفعالكم "[٣].

قال محمد بن إسحاق:"{سميعا}، أي: سميع ما يقولون"[٤].

قال عقبة بن عامر: "رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرئ هذه الآية: {سميعا بصيرا}، يقول: بكل شيء بصير"[٥].

قال مقاتل:" فلا أحد أسمع منه، «بصيرا» فلا أحد أبصر منه، فكان من العدل أن دفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب والحجابة إلى عثمان بن طلحة لأنهما كانا أهلها فى الجاهلية"[٦].

الفوائد:

١- أمر الله جل شأنه جميع الناس أن يرد كل منهم ما لديه من أمانة إلى أهلها أيا كانت تلك الأمانة، فعم سبحانه بأمره كل مكلف وكل أمانة، سواء كان ما ورد في نزول الآية صحيحا أم غير صحيح؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٢- أوصى سبحانه من وكل إليه الحكم في خصومة أو الفصل بين الناس في أمر ما أن يحكم بينهم بالعدل سواء كان: محكما، أو ولي أمر عام، أو خاص، ولا عدل إلا ما جاء في كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ؛ فذلك الهدى، والنور، والصراط المستقيم.

٣- أثنى على ما أسداه إلى عباده من الموعظة؛ إغراء لهم بالقيام بحقها، والوقوف عند حدودها.

٤-إن الآية مدح من الله لأوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

٥-الدلالة على فضل العقل والحياة وشرفهما، وأمانة الإنسان إنما صار صالحا للتكليف بسببهما[٧].

٦- ختم الآية بالثناء على نفسه بما هو أهله؛ من كمال السمع والبصر، ترغيبا في امتثال أمره رجاء ثوابه، وتحذيرا من مخالفة شرعه خوف عقابه.

٧- إثبات البصر لله تعالى المحيط بجميع المبصرات، وإثبات السمع له المحيط بجميع المسموعات، وهاتان الصفتان من صفات ذاته تعالى وهما متضمن اسميه «السميع البصير».

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)} [النساء : ٥٩]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، استجيبوا لأوامر الله تعالى ولا تعصوه، واستجيبوا للرسول ﷺ فيما جاء به من الحق، وأطيعوا ولاة أمركم في غير معصية الله، فإن اختلفتم في شيء بينكم، فأرجعوا الحكم فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ، إن كنتم

---

[١] انظر: الكشاف:٥٢٣/١.

[٢] صفووة التفاسير:٢٦١.

[٣] تفسير ابن كثير:٣٤١/٢.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٢٥):ص٩٨٧/٣.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٢٦):ص٩٨٧/٣.

[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٢/١.

[٧] انظر: المنهاج في شعب الإيمان:٢٥/٣.

تؤمنون حق الإيمان بالله تعالى وبيوم الحساب. ذلك الردُّ إلى الكتاب والسنة خير لكم من التنازع والقول بالرأي، وأحسن عاقبة ومآلا.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدها: أخرج أحمد[1]، والبخاري[2]، ومسلم[3]، والثلاثة[4]، والطبري[5]، وابن أبي حاتم[6]، والواحدي[7]، من طريق يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، قال: "نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى[8]، بعثه رسول الله ، ﷺ ، فى سرية".

وفي السياق نفسه أخرج أحمد[9]، والبخاري[10]، ومسلم[11]، وأبو داود[12]، والنسائي[13]، من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن علي-رضي الله عنه- قال: " بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، قال: فلما خرجوا - قال -: وجد عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قال: قالوا: بلى، قال: فقال: اجمعوا حطبا، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فهم القوم أن يدخلوها، قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا النبي ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوا، قال: فرجعوا إلى النبي ﷺ، فأخبروه بذلك، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا إنما الطاعة في المعروف»[14]".

---

(1) المسند(٣١٢٤):ص٣٣٧/١.

(2) صحيح البخاري(٤٥٨٤):ص٦٧/٦.

(3) صحيح المسلم(٤٧٧٤):ص١٣/٦.

(4) انظر: سنن أبي داود(٢٦٢٤)، وسنن الترمذي(١٦٧٢)، وسنن النسائي١٥٤/٧، والكبرى(٧٧٦٩)، و(٨٧٧٣)، و(١١٠٤٤).

(5) انظر: تفسير الطبري(٩٨٥٧)، و(٩٨٥٨):ص٤٩٧/٨.

(6) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٢٩):ص٩٨٧/٣-٩٨٨.

(7) أسباب النزول:١٥٨-١٥٩.

(٨)هكذا الاسم في البخاري والنسائي، ونقص في أبي داود: "قيس"، وزاد مسلم والترمذي: "السهمي".

(9) انظر: المسند(٦٢٢):ص٨٢/١، و(٧٢٤):ص٩٤/١، و(١٠١٨):ص١٢٤/١، و(١٠٦٥):ص١٢٩/١.

(10) صحيح البخاري(٤٣٤٠):ص٢٠٣/٥، و(٧١٤٥):ص٧٨/٩، و(٧٢٥٧):ص١٠٩/٩.

(11) صحيح المسلم(٤٧٩٣):ص٣٨٥/١٣، و(٤٧٩٤)، و(٤٧٩٥):ص١٦/٦.

(12) انظر: سنن أبي داود(٢٦٢٥).

(13) انظر: سنن النسائي:١٥٩/٧، والكبرى(٧٧٨٠)، و(٨٦٦٨)، و(٨٦٦٩).

(١٤) وتعددت الروايات:

- في رواية أخرى: فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: "لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة"، وقال للآخرين قولا حسنا، وقال:" لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف".

- وفي رواية: «لا طاعة لبشر في معصية الله".

- وفي رواية: "لا طاعة لمخلوق في معصية الله، عز وجل".

[انظر: المسند الجامع(١٠٣٠١):ص٣٨٤/١٣].

والثاني: أخرج الطبري، وابن ابي حاتم[1]، وغيرهما[2]، عن السدي، قال:" قال : بعث رسول الله ﷺ سريَّة عليها خالد بن الوليد ، وفيها عمار بن ياسر ، فساروا قِبَل القوم الذين يريدون ، فلما بلغوا قريبًا منهم عرَّسوا ، وأتاهم ذو العُيَيْنَتين فأخبرهم ، فأصبحوا قد هربوا، غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم، ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد ، فسأل عن عمار بن ياسر ، فأتاه فقال : يا أبا اليقظان ، إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإنّ قومي لما سمعوا بكم هربوا ، وإني بقيت ، فهل إسلامي نافعي غدًا ، وإلا هربت ؟ قال عمار : بل هو ينفعك ، فأقم. فأقام ، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحدًا غير الرجل ، فأخذه وأخذ ماله. فبلغ عمارًا الخبر ، فأتى خالدًا ، فقال : خلِّ عن الرجل ، فإنه قد أسلم ، وهو في أمان مني. فقال خالد : وفيم أنت تجير ؟[3] فاستبَّا وارتفعا إلى النبي ﷺ : فأجاز أمان عمار ، ، ونهاه أن يجير الثانية على أمير. فاستبَّا عند رسول الله ﷺ ، فقال خالد : يا رسول الله ، أتترك هذا العبد الأجدع يسبني ؟ فقال رسول الله ﷺ : يا خالد ، لا تسبَّ عمارًا ، فإنه من سب عمارًا سبه الله ، ومن أبغض عمارًا أبغضه الله ، ومن لعن عمارًا لعنه الله. فغضب عمار فقام ، فتبعه خالد حتى أخذ بثوبه فاعتذر إليه ، فرضي عنه ، فأنزل الله تعالى قوله :{ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ }"[4].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [النساء : ٥٩]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[5].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[6].

وعن خيثمة قال: "ما تقرأون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين"[7].

ويجدر القول بأن تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"[1].

---

[1] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٣١):ص٩٨٨/٣.

[2] أخرجه الواحدي في اسباب النزول: ١٥٩-١٦٠، باختلاف يسير في الالفاظ، مثلا قوله:" أنت تجير عليّ وأنا الامير؟، "، وقوله:" واستب عمار وخالد بين يدي رسول الله فأغلظ عمار لخالد، فغضب خالد وقال: يا رسول الله أتدع هذا العبد يشتمني، فوالله لولا أنت ما شتمني، وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "يا خالد كف عن عمار فإنه من يسب عمارا يسبه الله، ومن يبغض عمارا يبغضه الله".

وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره:١/-٣٨٣٣٨٢، باختلاف يسير في الألفاظ، مثلا:" فقال خالد: يا نبي الله يسبني هذا العبد الأجدع، وشتم خالد عمارا"، وفيه:" قال خالد: فيم أنت تجير دوني وأنا أمير عليك؟". وفيه:" فقال النبي– صلى الله عليه وسلم – لخالد: قم فاعتذر إليه".

[3] في رواية الواحدي:١٦٠:"أنت تجير عليّ وأنا الامير؟ فقال: نعم، أنا أجير عليك وأنت الأمير"، وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره:٣٨٢/١.

[4] تفسير الطبري(٩٨٦١):ص٤٩٨/٨-٤٩٩.

[5] التفسير الميسر:٨٧.

[6] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١، و(٥٠٢٥):ص٩٠٢/٣

[7] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٢٦):ص٩٠٢/٣.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٢].

قوله تعالى:{ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}[النساء : ٥٩]، أي:" استجيبوا لأوامر الله تعالى ولا تعصوه، واستجيبوا للرسول ﷺ فيما جاء به من الحق"[٢].

قال الطبري:أي:" أطيعوا الله ربكم فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، وأطيعوا رسوله محمدًا ﷺ ، فإن في طاعتكم إياه لربكم طاعة ، وذلك أنكم تطيعونه لأمر الله إياكم بطاعته"[٣].

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :" من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن عصى أميري فقد عصاني"[٤].

وفي تفسير قوله تعالى:{ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}[النساء : ٥٩]، وجهان:

أحدهما: أن : ذلك أمرٌ من الله باتباع سنته. وهذا قول عطاء[٥].

والثاني: أن ذلك أمرٌ من الله بطاعة الرّسول في حياته. وهذا قول ابن زيد[٦].

والراجح-والله أعلم- أنه "أمرٌ من الله بطاعة رسوله في حياته فيما أمرَ ونهى ، وبعد وفاته باتباع سنته. وذلك أن الله عمّ بالأمر بطاعته ، ولم يخصص بذلك في حال دون حال ، فهو على العموم حتى يخصّ ذلك ما يجبُ التسليم له"[٧].

قوله تعالى:{وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء : ٥٩]، أي:" وأطيعوا ولاة أمركم في غير معصية الله"[٨].

قال البيضاوي:" يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول ﷺ وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية. أمر الناس بطاعتهم بعد ما أمرهم بالعدل تنبيها على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق"[٩].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء : ٥٩]، خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم الأمراء ، وهو قول ابن عباس ، وأبي هريرة [١٠]، وابن عباس[١١]، والسدي[١٢]، وابن زيد[١٣]، وميمون بن مهران[١٤].

واختلف قائلو هذا القول في سبب نزولها في الأمراء على قولين:

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١/٣٣٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١/١٩٦، و(٥٠٢٧):ص٣/٩٠٢

(٢) التفسير الميسر:٨٧.

(٣) تفسير الطبري:٨/٤٩٥.

(٤) أخرجه الطبري(٩٨٥١):ص٨/٤٩٥.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٩٨٥٢)-(٩٨٥٤):ص٨/٤٩٥-٤٩٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٩٨٥٥):ص٨/٤٩٦.

(٧) تفسير الطبري:٨/٤٩٦.

(٨) التفسير الميسر:٨٧.

(٩) تفسير البيضاوي:٢/٨٠.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٩٨٥٦):ص٨/٤٩٧.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٩٨٥٧)، و(٩٨٥٨):ص٨/٤٩٧.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٩٨٦١):ص٨/٤٩٨-٤٩٩.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٩٨٦٠):ص٨/٤٩٨.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٩٨٥٩):ص٨/٤٩٨.

الأول: قال ابن عباس : نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي إذ بعثه رسول الله - ﷺ - في سرية[1] .

والثاني: وقال السدي : نزلت في عمار بن ياسر ، وخالد بن الوليد حين بعثهما رسول الله - ﷺ - في سرية [2].

قال الماوردي:" وطاعة وَلاَةِ الأمر تلزم في طاعة الله دون معصيته ، وهي طاعة يجوز أن تزول ، لجواز معصيتهم ، ولا يجوز أن تزول طاعة رسول الله - ﷺ- ، لامتناع معصيته"[3].

والقول الثاني : أنهم أهل العلم والفقه، وهو قول جابر بن عبد الله [4]، والحسن[5]، وعطاء[6]، وأبي العالية[7]، ومجاهد في إحدى الروايت[8]، و ابن أبي نجيح[9]، وابن عباس في إحدى الروايات[10].

والثالث : أنهم أصحاب رسول الله - ﷺ - ، وهو قول مجاهد[11].

والرابع : أنهم أبو بكر وعمر –رضي الله تعالى عنهما-، وهو قول عكرمة[12].

والخامس:أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان ، بدليل قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة : ١٠٠]. وهذا قول عطاء[13].

والصواب-والله أعلم- ان المعنيين هم " الأمراء والولاة، [وذلك] لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان [لله] طاعةً ، وللمسلمين مصلحة"[14].

روي عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال : "على المرء المسلم ، الطاعةُ فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ؛ فمن أمر بمعصية فلا طاعة"[15].

وروي ، عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : "سيليكم بعدي ولاة ، فيليكم البَرُّ ببِرّه ، والفاجر بفجوره ، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق ، وصلّوا وراءهم. فإن أحسنوا فلكم ولهم ، وإن أساؤوا فلكم وعليهم"[1].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(٩٨٥٧)، و(٩٨٥٨):ص٤٩٧/٨.وباقي الروايات في بيّناها في سبب النزول.

[2] انظر: تفسير الطبري(٩٨٦١):ص٤٩٨/٨-٤٩٩.

[3] النكت والعيون:٥٠٠/١.

[4] انظر: تفسير الطبري(٩٨٦٢):ص٤٩٩/٨.

[5] انظر: تفسير الطبري(٩٨٧١):ص٥٠١/٨.

[6] انظر: تفسير الطبري(٩٨٦٩)، و(٩٨٧٠):ص٥٠٠/٨.

[7] انظر: تفسير الطبري(٩٨٧٣):ص٥٠١/٨.

[8] انظر: تفسير الطبري(٩٨٦٣)، و(٩٨٦٤)، و(٩٨٦٨)، و(٩٨٧٢):ص٥٠٠/٨-٥٠١.

[9] انظر: تفسير الطبري(٩٨٦٥):ص٥٠٠/٨.

[10] انظر: تفسير الطبري٩٨٦٧):ص٥٠٠/٨.

[11] انظر: تفسير الطبري(٩٨٧٤):ص٥٠١/٨.

[12] انظر: تفسير الطبري(٩٨٧٥):ص٥٠٢/٨.

[13] انظر: تفسير البغوي:٦٥٣/١.

[14] تفسير الطبري:٥٠٢/٨.

[15] أخرجه الطبري(٩٨٧٧):ص٥٠٣/٨. والحديث رواه أحمد في المسند : (٤٦٦٨)، وفي(٦٢٧٨).

قوله تعالى:{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء : ٥٩]، "أي: فإن اختلفتم في أمرٍ من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[٢].

قال قتادة:" يقول : ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله "[٣].

وعن السدي : " {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}، إن كان الرسول حيًا، و {إلى الله }،قال : إلى كتابه"[٤].

قال الزمخشري:أي:" فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في شيء من أمور الدين، فارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولى الأمر بما لا يبقى معه شك، وهو أن أمرهم أولا بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخرا بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل، وأمراء الجور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئا إلى كتاب ولا إلى سنة، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم:
اللصوص المتغلبة"[٥].

عن ليث :قال مجاهد:" فإن تنازع العلماء ردّوه إلى الله والرسول. قال يقول : فردّوه إلى كتاب الله وسنة رسوله"[٦]. وفي رواية أخرى:" كتاب ، الله وسنة نبيه ﷺ"[٧].

قال مهران:" الرد إلى الله ، الردّ إلى كتابه والرد إلى رسوله إن كان حيًا ، فإن قبضه الله إليه فالردّ إلى السنة"[٨].

والتنازع: "هو التشاجر، سمى تنازعا؛ لأن كل واحد من الخصمين ينزع بحجة وآية"[٩].

قال السمعاني:" والرد إلى الكتاب والسنة واجب، ما دام في الحادثة شئ من الكتاب والسنة، فإن لم يكن فالسبيل فيه الاجتهاد، وروى أن مسلمة بن عبد الملك قال لرجل: إنكم أمرتم أن تطيعونا، فقال الرجل: قد نزعها الله منكم؛ حيث قال: {فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول} وقد تنازعتم، فقال مسلمة: أين الله؟ فقال: الكتاب، وقال: أين الرسول؟ فقال: السنة، وقيل: الرد إلى الله والرسول: أن يقول الرجل فيما لا يدرى: الله ورسوله أعلم، وهذا قول حسن"[١٠].

---

[١] أخرجه الطبري(٩٨٧٦):ص٨/٥٠٢. وهذا الحديث ضعيف جدا. فيه عبد الله بن محمد بن عروة : هو عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة بن الزبير المدني. قال أبو حاتم : " هو متروك الحديث ، ضعيف الحديث جدًا " . وقال ابن حبان : " يروى الموضوعات عن الثقات " . مترجم في لسان الميزان ٣ / ٣٣١ – ٣٣٢ ، وابن أبي حاتم : ٢ / ١٥٨.

[٢] صفوة التفاسير:٢٦١.

[٣] أخرجه الطبري(٩٨٨٤):ص٨/٥٠٥.

[٤] أخرجه الطبري(٩٨٨٥):ص٨/٥٠٥.

[٥] الكشاف:١/٥٢٤.

[٦] أخرجه الطبري(٩٨٧٩):ص٨/٥٠٤. قال الليث:"ثم قرأ مجاهد هذه الآية : {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } [سورة النساء : ٨٣]".

[٧] أخرجه الطبري(٩٨٨٠):ص٨/٥٠٥.

[٨] أخرجه الطبري(٩٨٨٣):ص٨/٥٠٥.

[٩] تفسير السمعاني:١/٤٤١.

[١٠] تفسير السمعاني:١/٤٤١.

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ} [النساء : ٥٩]، أي:" إن كنتم تؤمنون حق الإيمان بالله تعالى وبيوم الحساب"[١].

قال البيضاوي:أي:" فإن الإيمان يوجب ذلك"[٢].

قوله تعالى:{ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء : ٥٩]، أي:" ذلك الرجوع إلى الكتاب والسنة خير لكم وأصلح، وأحسن عاقبة ومآلا "[٣].

قال البيضاوي:أي:" ذلك الرد، {خير لكم}، وأحسن عاقبة، أو أحسن تأويلا من تأويلكم بلا رد"[٤].

قال الطبري: أي:" { خير} لكم عند الله في معادكم ، وأصلح لكم في دنياكم ، لأن ذلك يدعوكم إلى الألفة ، وترك التنازع والفرقة، {وأحسن تأويلا }، يعني : وأحمد مَوْئلا ومغبّة ، وأجمل عاقبة"[٥].

قال ابن كثير:" أي : التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله. والرجوع في فصل النزاع إليهما خير { وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا } أي : وأحسن عاقبة ومآلا"[٦].

قال ابن زيد:" التأويل " ، التصديق"[٧].

وفي قوله تعالى:{ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء : ٥٩]، وجوه:

أحدها : أحسن عَاقِبَةً ، وهذا قول قتادة[٨]، والسدي[٩]، وابن زيد[١٠]. واختاره الزجاج[١١]..

والثاني : أحسن جزاءا ، وهو معنى قول مجاهد[١٢]. قال ابن كثير:"وهو قريب من القول الأول[١٣].

والثالث : أحسن من تاويلكم انتم. دون ردكم إياه إلى الكتاب والسنة. أجازه الزجاج[١٤].

قال ابن عطية:" { تَأْوِيلًا}، معناه: مآلا على قول جماعة"[١٥].

الفوائد:

١-وجوب رد الأمور المتنازع فيها إلى الله ورسوله؛ لقوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ}.

٢- تحريم رد المسائل المتنازع فيها إلى القوانين الوضعية، أو تحكيم أهل الكفر والإلحاد، لقوله: { {إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} }.

---

(١) التفسير الميسر:٨٧.

(٢) تفسير البيضاوي:٢/٨٠.

(٣) انظر: التفسير الميسر:٨٧، وصفوة التفاسير:٢٦١.

(٤) تفسير البيضاوي:٢/٨٠.

(٥) تفسير الطبري:٨/٥٠٦.

(٦)فسير ابن كثير:٢/٣٤٦.

(٧) أخرجه الطبري(٩٨٩٠):ص٨/٥٠٧.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٩٨٨٨):ص٨/٥٠٦.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٩٨٨٩):ص٨/٥٠٦.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٩٨٩٠):ص٨/٥٠٧.

(١١) انظر: معاني القرآن:٢/٦٨.

(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٤٥):ص٣/٩٩٠.

(١٣) انظر: تفسير ابن كثير:٢/٣٤٦.

(١٤) انظر: معاني القرآن:٢/٦٨.

(١٥) المحرر الوجيز:٢/٧١.

٣ ـ تحريم التقليد مع وضوح الدليل، لقوله: {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} ، وإنما قلنا: مع وضوح الدليل؛ لأن التقليد يجوز للضرورة إذا لم يعلم الإنسان، لقوله تعالى:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣] ، ولم يأمر سبحانه بسؤال أهل الذكر إلا للرجوع إلى ما يقولون، وإلا لم يكن هناك فائدة من سؤال أهل الذكر.
٤ـ أن الرد إلى الله والرسول من مقتضيات الإيمان، لقوله:{إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ}.
٥ـأن من ادعى الإيمان بالله واليوم الآخر ولكنه لا يرد مسائل النزاع إلى الله ورسوله فإنه كاذب؛ لأن قوله:{إِنْ كُنْتُمْ} بمنزلة التحدي، فيكون كاذباً فيما يدعي، وقد قال الله تبارك وتعالى:{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[النساء: ٦٥]

القرآن

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)} [النساء : ٦٠]

التفسير:
ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك المنافقين الذين يدَّعون الإيمان بما أُنزل إليك -وهو القرآن- وبما أُنزل إلى الرسل من قبلك، وهم يريدون أن يتحاكموا في فَصْل الخصومات بينهم إلى غير ما شرع الله من الباطل، وقد أُمروا أن يكفروا بالباطل؟ ويريد الشيطان أن يبعدهم عن طريق الحق، بعدًا شديدًا.
في سبب نزول الآية أقوال:
أحدها:أخرج الطبري، وابن المنذر[١]، والواحدي[٢]، عن عامر، قال : "كان بين رجل من اليهود اليهود ورجل من المنافقين خصومة ، فكان المنافق يدعو إلى اليهود ، لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة ، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين ، لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة. فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جُهَيْنة ، فأنزل الله فيه هذه الآية : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ}، حتى بلغ { وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[٣]"[٤].
وفي السياق نفسه أخرج الطبري وابن ابي حاتم[٥]، عن اسباط عن السدي[٦]، قال:" كان كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم. وكانت قُرَيظة والنَّضير في الجاهلية ، إذا قُتِل الرجل من بني النضير قتلته بنو قريظة ، قتلوا به منهم. فإذا قُتِل الرجل من بني قريظة قتلته النضير ، أعطوْا ديتَه ستين وَسْقًا من تمر. فلما أسلم ناس من بني قريظة والنضير ، قتل رجلٌ من بني النضير رجلا من بني قريظة ، فتحاكموا إلى النبي ﷺ ، فقال النضيري : يا رسول الله ، إنا كنا نعطيهم في الجاهلية الدية ، فنحن نعطيهم اليوم ذلك. فقالت قريظة : لا ولكنا إخوانكم في النسب والدين ، ودماؤنا مثل دمائكم ، ولكنكم كنتم تغلبوننا في الجاهلية ، فقد جاء الله بالإسلام!

---

[١] انظر: تفسير ابن المنذر(١٩٤٢):ص٢/٧٦٩.
[٢] انظر: أسباب النزول:١٦١-١٦٣.
[٣] [سورة النساء:٦٥].
[٤] تفسير الطبري(٩٨٩١):ص٨/٥٠٨.
[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٤٩):ص٣/٩٩-٩٩٢.
[٦] رواية أسباط بن نصر عن السدي، سنده ضعيف جداً؛ فيه علتان:
الأولى: الإعضال.
الثانية: أسباط؛ صدوق كثير الخطأ، يُغْرب.

فأنزل الله يُعَيِّرهم بما فعلوا فقال : {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [سورة المائدة : ٥٤] ، فعيَّرهم ، ثم ذكر قول النضيري : " كنا نعطيهم في الجاهلية ستين وسقًا ، ونقتل منهم ولا يقتلونا " ، فقال{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ}[سورة المائدة : ٥٠]. وأخذ النضيري فقتله بصاحبه ، فتفاخرت النضير وقريظة ، فقالت النضير : نحن أكرم منكم! وقالت قريظة : نحن أكرم منكم! ودخلوا المدينة إلى أبي بُرْدة ، الكاهن الأسلمي ، فقال المنافق من قريظة والنضير : انطلقوا إلى أبي بردَة ينفِّر بيننا!"[1].

وفي المعنى نفسه، أخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس:" كان أبو بردة الأسلمي كاهنا يقضي بين اليهود، فتنافروا إليه أناس من أسلم من اليهود فأنزل الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}"[2].

والثاني: أخرج الطبري عن عطية العوفي عن ابن عباس في قوله : {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ }، قال:" و{الطَّاغُوتِ}: رجل من اليهود كان يقال له : كعب بن الأشرف ، وكانوا إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ليحكم بينهم قالوا ، بل نحاكمكم إلى كعب! فذلك قوله : {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ}، الآية"[3]. وروي عن مجاهد[4]، والربيع بن انس[5]، والضحاك[6] نحو ذلك.

والثالث: ونقل الثعلبي والواحدي[7]، والحافظ[8]، عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال: "نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر[9]، كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال: انطلق انطلق بنا إلى محمد وقال المنافق بل إلى كعب بن الأشرف، وهو الذي سماه الله الطاغوت، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ فلما رأى المنافق ذلك أتى معه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختصما إليه، فقضى رسول الله ﷺ لليهودي فلما خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال: انطلق بنا إلى عمر -رضي الله عنه- فأقبلا إلى عمر، فقال اليهودي: اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصم إليكم وأنه تعلق بي فجئت معه فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم. فقال لهما: رويد كما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر البيت وأخذ السيف ثم خرج إليهما فضرب به المنافق حتى برد وقال. هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسول الله ﷺ، وهرب اليهودي، ونزلت هذه الآية"[10].

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} [النساء : ٦٠]، " ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك المنافقين الذين يدَّعون الإيمان بما أُنزل إليك -وهو القرآن- وبما أُنزل إلى الرسل من قبلك"[11].

---

[1] تفسير الطبري(٩٨٩٦):ص٨/٥١٠.

[2] تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٤٧):ص٣/٩٩١.

[3] تفسير الطبري(٩٨٩٧):ص٨/٥١١.

[4] .انظر: تفسير الطبري(٩٨٩٨):ص٨/٥١١-٥١٢

[5] .انظر: تفسير الطبري(٩٨٩٩):ص٨/٥١٢.

[6] .انظر: تفسير الطبري(٩٩٠٢):ص٨/٥١٣.

[7] انظر: اسباب النزول:١٦٢.

[8] انظر: الفتح" "٥/ ٣٧-٣٨" وقال: "وهذا الإسناد وإن كان ضعيفا لكن تقوى بطريق مجاهد ولا يضره الاختلاف لإمكان التعدد".

[9] لم يحدد الاسم في الواحدي..

[10] تفسير الثعلبي:٣/٣٣٧.

[11] التفسير الميسر:٨٨.

قال مقاتل:" يعني: صدقوا بما أنزل إليك من القرآن وصدقوا بما أنزل من قبلك من الكتاب على الأنبياء"[1].

قال الزجاج:" يعنى به المنافقون، وقوله: {يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت}إلى الكاهن والشيطان"[2].

قال ابن كثير:" هذا إنكار من الله ، عز وجل ، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله"[3].

وقرئ:{بما أنزل....بما أنزل}، على البناء للفاعل [4].

قوله تعالى:{يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ} [النساء : ٦٠]، أي:"وهم يريدون أن يتحاكموا في فَصْل الخصومات بينهم إلى غير ما شرع الله من الباطل"[5].

قال مقاتل:" يعني كعب بن الأشرف وكان يتكهن"[6].

وقال عطاء: "يعني: حيي بن أخطب"[7].

قال الشعبي:" يعني به: الكاهن، كان بين رجل ممن زعم أنه مسلم، وبين رجل من اليهود خصومة، فاتفقا على أن يتحاكما إلى كاهن في جهينة"[8].

وقد ذكر أهل التفسير في {الطَّاغُوتِ}، سبعة أقوال:

أحدها : أنه الشيطان[9]، وهو قول عمر بن الخطاب[10]، ومجاهد[11]، والشعبي[12]، والضحاك[1]، وقتادة[2]، والسدي[3]، وعكرمة[4]، واختاره ابن كثير[5]، والقاسمي[6] وآخرون.

وآخرون.

---

(1) تفسير الثعلبي:٣٨٣/١.

(2) معاني القرآن:٦٨/٢.

(3) تفسير ابن كثير:٣٤٧/٢.

(4) انظر: الكشاف:٥٢٥/١.

(5) التفسير الميسر:٨٨.

(6) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٥/١.

(7) الوجيز للواحدي:٧٣/٢.

(8) أخرجه ابن المنذر(١٩٤٥):ص٧٧٠/٢-٧٧١.

(9) قال الشنقيطي:" قال بعض العلماء : (الطاغوت): الشيطان، ويدل لهذا قوله تعالى : {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه}، أي يخوفكم من أوليائه . وقوله تعالى : {الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا، وقوله : {أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو} وقوله : {إنهم اتخذوا الشياطين أولياء}، والتحقيق أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت والحظ الأكبر من ذلك للشيطان كما قال تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى ءادم أن لا تعبدوا الشيطان (وقال : (إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا {وقال عن خليله ابرهيم} يا أبت لا تعبد الشيطان وقال : {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون}،إلى غير ذلك من الآيات".[أضواء البيان: ١٥٩/١].

(10) أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٤) و(٥٨٣٥):ص٤١٧/٥. وابن ابي حاتم(٢٦١٨):ص٤٩٥/٢.

(11) أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٦):ص٤١٧/٥.

(12)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٧):ص٤١٧/٥.

والثاني : أنه الساحر ، وهو قول أبي العالية[٧]، ومحمد ابن سيرين[٨] والشعبي[٩].
والثالث : الكاهن ، وهو قول جابر[١٠]، وسعيد بن جبير[١١]، والرفيع[١٢]، وابن جريج[١٣].
والرابع : الأصنام والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله تعالى[١٤]. روي ذلك عن مالك[١٥].
والخامس: مَرَدَة الإنس والجن[١٦].
والسادس: أنه كل ذي طغيان طغى على الله ، فيعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده، أو بطاعة له ، سواء كان المعبود إنساناً أو صنماً، روي ذلك عن الإمام مالك[١٧]، وابن القيم[١٨]، وهذا قول أبي جعفر الطبري[١٩].

---

(١)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٨):ص٥/٤١٧.

(٢)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٩):ص٥/٤١٧.

(٣)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٠):ص٥/٤١٧.

(٤)البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾، قبل الحديث رقم ٤٥٨٣، ولفظه: "الْجِبْتُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: شَيْطَانٌ، وَالطَّاغُوتُ: الْكَاهِنُ".

(٥) أنظر: تفسير ابن كثير: ٦٨٣/١، إذ يقول: " ومعنى قوله في الطاغوت : إنه الشيطان قوي جدًّا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية ، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها".

(٦) محاسن التأويل: ١٩٤/٢.

(٧)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤١):ص٥/٤١٧.

(٨)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٢):ص٥/٤١٧.

(٩) أنظر تفسير ابن أبي حاتم(٢٦٢٠):ص٢/٤٩٥.

(١٠) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ}، قبل الحديث رقم (٤٥٨٣)، ولفظه: ""كَانَتْ الطَّوَاغِيتُ الَّتِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا: فِي جُهَيْنَةَ وَاحِدٌ، وَفِي أَسْلَمَ وَاحِدٌ، وَفِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ، كُهَّانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ".

(١١)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٣):ص٥/٤١٨.

(١٢)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٤):ص٥/٤١٨. والرفيه: ، هو أبو العالية الرياحي.

(١٣)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٥):ص٥/٤١٨.

(١٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢/ ٤٤٦– ٤٤٧، تفسير قوله تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ}.

(١٥) تفسير ابن أبي حاتم(٢٦٢٢):ص٢/٤٩٥.

(١٦) أنظر: النكت والعيون: ٣٢٧/١.

(١٧) ذكره القرطبي في تفسيره، ٥/ ٢٤٨، عن ابن وهب، عن الإمام مالك، وانظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص ٤٤.

(١٨) وأجمع ما قيل في تعريف الطاغوت ما ذكره ابن القيم / بقوله: "والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع" . [إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١/ ٥٠].

(١٩) أنظر: تفسير الطبري: ٤١٩/٥.

والسابع : أنها النفس لطغيانها فيما تأمر به من السوء ، كما قال تعالى:{إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف : ٥٣]، ذكره الماوردي[١].

والراجح-والله أعلم- أن الطاغوت عبارة عن كل مُعتدٍ وكل معبود من دون الله[٢]، وهو اختيار الإمام الطبري وأبي حيان[٣] وغيرهم. وبه قال أكثر أهل العلم.

واختلفوا في أصل كلمة {الطَّاغُوتِ}[البقرة:٢٥٦]، على وجهين[٤]:

أحدهما : أنه اسم أعجمي معرّب، ومن ثم اختلف هؤلاء في اشتقاقه على أقوال[٥]:

أ- قال الشوكاني: "الطاغوت: فعلوت، من طغى يطغي ويطغو، إذا جاوز الحد"[٦].

ب-قال سيبويه: "هو اسم مذكَّر"[٧] مفرد، أي اسم جنس، يشمل القليل والكثير.

ج- وقال أبو على الفارسي: "إنه مصدر: كرهبوت، وجبروت، يوصف به الواحد، والجمع، وقلبت لامه إلى موضع العين، وعينه إلى موضع اللام"[٨]، كجبذ، وجذب، ثم تقلب الواو ألفًا؛ لتحركها، وتحرك ما قبلها، فقيل: طاغوت. واختار هذا القول النحاس[٩].

وقيل: "أصل الطاغوت في اللغة: مأخوذ من الطغيان، يؤدي معناه من غير اشتقاق، كما قيل: لآلٍ، من اللؤلؤ"[١٠].

ثم اختلف في لفظ الطاغوت أمفرد هو أم جمع على قولين:

الأول: أنه جمع، قاله المبرد ورده عليه جماعة كالفارسي وابن عطية وآخرون[١١].

الثاني: أنه مفرد، واختلفوا على قولين:

---

(١) أنظر: النكت والعيون: ٣٢٧/١.

(٢)انظر :المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى: ٣٠٤.

(٣) قال أبو حيان بعد أن سرد الأقوال في معنى (الطاغوت): " وينبغي أن تجعل هذه الأقوال كلها تمثيلاً ، لأن الطاغوت محصور في كل واحد منها".[البحر المحيط: ٢١٠/٢].

(٤) أنظر: النكت والعيون:٣٢٨/١.

(٥) انظر: فتح القدير: ٢٧٥/١، والمحرر الوجيز: ٣٤٤/١، وتفسير القرطبي: ٢٨١/٣، والبحر المحيط:٥٩٩/٢، وفتح البيان في مقاصد القرآن: ٩٩/٢، والحجة للقراء السبعة: ١٣٧/٤.

(٦)فتح القدير: ٢٧٥/١.

(٧) الكتاب: ٢٤٠/٣. وذكر صاحب اللسان(طغى)، قال ابن منظور: يقع على الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، وهي مشتقة من طغى، والطاغوتُ الشيطان، والكاهِنُ، وكلُّ رأْسٍ في الضَّلالة، وقد يكون واحداً قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}[النساء: ٦٠]، وقد يكون جَمْعاً، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ}[البقرة: ٢٥٧]، وهو مثل الفُلْكِ يُذَكَّرُ ويؤنَّث، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا}[الزمر: ١٧]، والطاغوتُ يكونُ من الأَصْنامِ، ويكون من الجِنِّ والإِنس، ويكون من الشياطين، وجمعُ الطاغوتِ: طَواغِيتُ، والطَّواغِي: جمع طاغيَةٍ، ويجوز أَن يُراد بالطَّواغِي: من طَغَى في الكُفرِ، وجاوَزَ الحَدَّ".[لسان العرب لابن منظور، ١٥/ ٧، مادة (طغى) ، و مقاييس اللغة، ٣/ ٣٢٢، مادة (طغى)،و المصباح المنير، ٢/ ٢٧٣، مادة (طغى)].

(٨) المحرر الوجيز: ٣٤٤/١.

(٩) أنظر: معاني القرآن: ٢٧٠/١.

(١٠) معاني القرآن للنحاس: ٢٦٩/١.

(١١)انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٨٥/٢، مفاتيح الغيب للرازي: ١٦/٧-١٧، البحر المحيط لأبي حيان: ٢٧٢/٢.

أ-أنه مصدر على وزن فَعَلُوت، أي: طَغَيُوت، فوقع فيه قلب مكاني بين عينه ولامه فصار على وزن فَلَعُوت، أي: طَيَغُوت، ثم قلبت لامه (الياء) ألفا فصار طاغوت. وهو مصدر يوصف به الواحد والجمع، نظير قولهم: رجل عدل وقوم عدل، إذ في الكلام دليل على الواحد أو الجماعة، وهو قولهم: رجل أو قوم، وقد وجد هنا ما يرجح كون المراد به الجماعة وهو قوله: {يُخْرِجُونَهُمْ}[البقرة:٢٥٧]، وذلك ما جعله الزجاج[١] شرطاً للجواز، وذلك ظاهر قول الكسائي وأبي حاتم والطبري وأبي علي الفارسي والواحدي والزبيدي وآخرين[٢].

ب-أنه اسم جنس مفرد لطائفة جاوزت الحد في الطغيان، وقد اختار هذا القول أبو حيان[٣]، وحُمِل عليه قول سيبويه بأن: الطاغوت اسم مفرد[٤].

والثاني : أنه اسم عربي مشتق من الطاغية، قاله ابن بحر[٥].

قوله تعالى:{وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} [النساء : ٦٠]، أي:" وقد أُمروا أن يكفروا بالباطل"[٦].

قال مقاتل:" يعنى أن يتبرأوا من الكهنة"[٧].

قال السدي:" وهو أبو الأسلمي الكاهن"[٨].

وقرأ عباس بن الفضل: {أن يكفروا بها}، ذهابا بالطاغوت إلى الجمع، كقوله: {أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم} [٩].

قوله تعالى:{وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء : ٦٠]، أي:" ويريد الشيطان أن يبعدهم عن طريق الحق، بعدًا شديدًا"[١٠].

قال الواحدي:" أي: ضلالا لا يرجعون عنه إلى دين الله أبدا"[١١].

قال عكرمة:" إنما سمي الشيطان لأنه تشيطن"[١٢].

الفوائد:

١-من أقبح صفات المنافقين: رفض التحاكم إلى شريعة الله، والتحاكم إلى الطواغيت التي تحقق رغباتهم.

---

(١) أنظر: معاني القرآن: ٣٤٠/١.

(٢)انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ١٦٨/٨، جامع البيان للطبري: ٤٢٨/٥، الكشف والبيان للثعلبي: ١٦٢/١ب، البسيط للواحدي: ١٥٤/١ب، فتح الباري لابن حجر: ١٧٨/٩.

(٣)انظر: البحر المحيط: ٢٨٣/٢.

(٤)انظر: الكتاب لسيبويه: ٢٤٠/٣، مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٧٩/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٨٥/٢، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٠٧/١.

(٥) نقلا عن الماوردي في النكت والعيون: ٣٢٨. ولم اجده في تفسير ابي مسلم الأصفهاني المشهور بابن بحر.

(٦) التفسير الميسر:٨٨.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٥/١.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٥٥١):ص٩٩٢/٣.

(٩) انظر: الكشاف:٥٢٥/١.

(١٠) التفسير الميسر:٨٨.

(١١) الوجيز:٧٣/٢.

(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٥٥٠):ص٩٩٢/٣.

٢-أن التحاكم إلى غير الله ورسوله تحاكم إلى الطاغوت، لقوله: { {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ}.
٣-ومن الفوائد أن الإيمان الصادق، يقتضي الانقياد لشرع الله، والحكم به في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في زعمه.
٤- بيان تمرد المنافقين على الوحي وهروبهم من الحق وصعرهم إلى الباطل، فلما أَوْجَبَ الله تعالى الطَّاعَة على جميع المُكَلَّفين في قوله جلت عظمته:{يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول... }، ذكر في هذه الآيةِ أن المُنَافقين والذين في قُلُوبهم مَرَضٌ لا يُطيعُون الرَّسولَ ، ولا يَرْضُونَ بحُكْمِهِ ، وإنما يُريدُون حُكْمَ غيره.
٥-اتضاح اشتمال لفظ الطاغوت على كل ما يعبد من دون الله ويصد عن سبيله ويعترض على حكمه وشريعته، وفي ذلك السرداب وخلال تلك السبل يرتع أهل النفاق منذ أقدم العهود.
٦-كشف كراهية المنافقين للحكم بما أنزل الله تعالى وتعصبهم ضده، ووقوفهم مع أي نظام طاغوتي بديل عنه، وبغضهم للحق وحملته، وبعدهم عن الاستماتة في سبيله، وضيقهم ذرعاً بشعائره، فيمقتون لذلك كل الطاعات من صلاة وزكاة وحج..، وإن تستروا حال خوفهم على ذلك المقت وغطوه، لكن بواطنهم تنفضح وسرائرهم تنكشف إذا أعلنت شعيرة الجهاد في سبيل الله أو رفعت راية الحكم بما أنزل الله، فعند هذين الأمرين لابد أن يتبدى الوجه الكالح للنفاق ويصدح أهله بخسيس مكنوناتهم.
٧- أظهرت الآيات بما لا مجال للشك فيه من خلال التعبير القرآني {يَزْعُمُونَ} أن الإيمان والتحاكم إلى غير شرع الله لا يجتمعان في قلب واحد، ذلك أن الإيمان لا يكون إلا بالكفر بالطاغوت {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ}، والرضا بالتحاكم إلى القوانين الوضعية يناقض الكفر بها، كما أنه ينافي الرضا بتحكيم شرع الله، فكل من حكم بغير ما جاء به النبي- ﷺ-، أو حاكم إليه فقد حكم بالطاغوت وحاكم إليه، وذلك مناف للإيمان.

القرآن

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)} [النساء : ٦١]

وإذا نُصح هؤلاء، وقيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول محمد ﷺ، وهديه، أبصَرْتَ الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يعرضون عنك إعراضًا.

قوله تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ} [النساء : ٦١]، أي:" وإذا نُصح هؤلاء، وقيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول محمد ﷺ، وهديه"[١].

قال الماتريدي:" أي: إذا قيل لهم: تعالوا إلى حكم ما أنزل الله في كتابه، وإلى الرسول، وإلى أمر الرسول - ﷺ – وسنته"[٢].

قال ابن جريج:" دعا المسلم المنافق إلى رسول الله ﷺ ليحكم "[٣].

قال ابن عباس:" كانوا إذا دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ليحكم بينهم، قالوا: بل نتحاكم إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا"[٤].

وقرأ الحسن :{تعالوا}، بضم اللام على أنه حذف اللام من تعاليت تخفيفا[٥].

---

(١)التفسير الميسر:٨٨.

(٢)تفسير الماتريدي:٢٣٦/٣.

(٣) أخرجه ابن المنذر(١٩٤٨):ص٧٧٢/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٥٢):ص٩٩٣/٣.

(٥) انظر: الكشاف:٥٢٥/١.

قوله تعالى:{رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [النساء : ٦١]، أي:" أبصَرْتَ الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يعرضون عنك إعراضًا"(١).

قال السمرقندي:" أي يعرضون عنك إعراضا"(٢).

قال الصابوني" أي: رأيتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضاً"(٣).

قال الزجاج والنحاس:" أي يصدون عن، حكمك"(٤).

قال الواحدي:أي:" يُعرضون عنك إعراضاً إلى غيرك عداوةً للدِّين"(٥).

قال ابن كثير:" أي : يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين عن ذلك ، كما قال تعالى عن المشركين : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } [لقمان : ٢١]هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين ، الذين قال الله فيهم : { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور : ٥١]"(٦).

قال السمعاني:أي:" أن المنافقين دعوا إلى التحاكم إلى الرسول، فأعرضوا عنه، وتحاكموا إلى الطاغوت"(٧).

قال عطاء:" الصدود: الإعراض"(٨).

قال الماتريدي:" الصدود: هو الإعراض في اللغة، والصد: الصرف"(٩).

قال الراغب:" الصد: كالسد: إلا أن السد بحائل محسوس.والصد بحائل في النفس من إرادة أو كراهة، ونحو ذلك من الحوايل"(١٠).

قال الشعراوي:" أي يُعرضون عنك يا رسول الله لأنهم منافقون، وكل منافق عنده قضيتان: قضية لسانية وقضية قلبية؛ فهو باللسان يعلن إيمانه بالله وبرسول الله، وفي القلب تتعارض ملكاته عكس المؤمن أو الكافر، فالمؤمن ملكاته متساندة؛ لأن قلبه انعقد على الإيمان ويقود انسجام الملكات إلى الهدى، والكافر أيضاً ملكاته متساندة؛ لأنه قال: إنه لم يؤمن ويقوده انسجام ملكاته إلى الضلال، لكن المنافق يبعثر ملكاته!! ملكة هنا وملكة هناك، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار، الكافر منطقي مع نفسه، فلم يعلن الإيمان؛ لأن قلبه لم يقنع، وكان من الممكن أن يقول كلمة الإيمان لكن لسانه لا يرضى أن ينطق عكس ما في القلب، وعداوته للإسلام واضحة. أما المنافق فيقول: يا لساني. . أعلن كلمة الإيمان ظاهراً؛ كي أنفذ من هذا الإعلان إلى أغراضي وأن تطبّق عليّ أحكام الإسلام فانتفع بأحكام الإسلام، وأنا من صميم نفسي إن وجدت فرصة ضد الإسلام فسأنتهزها"(١١).

---

(١)التفسير الميسر:٨٨.

(٢) تفسير السمرقندي:٣١٣/١.

(٣) صفوة التفاسير:٢٦٢.

(٤) معاني القرآن للزجاج:٦٩/٢، ومعاني القرآن للنحاس:١٢٥/٢

(٥) الوجيز:٢٧١.

(٦) تفسير ابن كثير:٣٤٦/٢.

(٧) تفسير السمعاني:٤٤٢/١.

(٨) أخرجه ابن المنذر(١٩٤٩):ص٧٧٢/٢.

(٩)تفسير الماتريدي:٢٣٦/٣.

(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني:١٢٩٣/٣.

(١١) تفسير الشعراوي:٢٣٦٦/٤.

قال الكسائي: يقرأ: {يصدون}، بكسر الصاد، و {يصدون}، بضم الصاد، وهي قراءة علي والنخعي ومعناه يعرضون[1].

الفوائد:

١-بيَّن تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البُعد من الإيمان.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: "هذا دليل على أن من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسنَّة، فأبى أنَّه من المنافقين»[2].

قال شيخ الإسلام:" ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول في كل ما شَجَرَ بين الناس، في أمر دينهم ودنياهم، في أصول دينهم وفروعه، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء، ألا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما حكم، ويسلموا تسليماً"[3].

٢-أن "الدعاء إلى ما أنزل الله يستلزم الدعاء إلى الرسول، والدعاء إلى الرسول يستلزم الدعاء إلى ما أنزله الله، وهذا مثل طاعة الله والرسول، فإنهما متلازمان، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن أطاع الله فقد أطاع الرسول"[4].

٣-وصف سبحانه من دعي إلى الكتاب والسنة فأعرض عن ذلك بالنفاق، وإن زعم أنه يريد التوفيق بذلك بين الدلائل النقلية والعقلية، أو نحو ذلك، وأنه يريد إحسان العلم أو العمل[5].

القرآن

{فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)} [النساء : ٦٢]

التفسير:

فكيف يكون حال أولئك المنافقين، إذا حلَّت بهم مصيبة بسبب ما اقترفوه بأيديهم، ثم جاؤوك -أيها الرسول- يعتذرون، ويؤكدون لك أنهم ما قصدوا بأعمالهم تلك إلا الإحسان والتوفيق بين الخصوم؟

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها : أن عمر قتل منافقاً لم يرض بحكم رسول الله ﷺ ، فجاء إخوانه من المنافقين يطالبون بدمه ، وحلفواْ بالله أننا ما أردنا في المطالبة بدمه إلا إحساناً إلى النساء ، وما يوافق الحق في أمرنا[6].

والثاني : أن المنافقين بعد القَوَدِ من صاحبهم اعتذرواْ إلى رسول الله - ﷺ - في محاكمتهم إلى غيره بان قالواْ ما أردنا في عدولنا عنك إلا توفيقاً بين الخصوم وإحساناً بالتقريب في الحكم دون الحمل على مُرّ الحق ، فنزلت هذه الآية[7].

والثالث: وقيل: نزلت في المنافقين في بناء مسجد ضرار؛ كقوله - سبحانه وتعالى -: {وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى} [التوبة : ١٠٧][8].

---

[1] انظر: تفسير الماتريدي:٢٣٦/٣، وتفسير الثعلبي:٣٤٠/٨.

[2] فتح المجيد:٣٨١.

[3] الإيمان لابن تيمية:٣٤.

[4] الإيمان لابن تيمية:٣٤.

[5] التسعينية: ابن تيمية:١٥٢/١.

[6] انظر: معاني القرآن للزجاج:٦٩/٢، وتفسير الماتريدي:٢٣٧/٣-٢٣٨، تفسير الثعلبي:٣٣٩/٣، والنكت والعيون: ٥٠٢/١، و الوجيز للواحدي:٧٤/٢، وتفسير ابن كثير:٣٤٦/٢.

[7] انظر: النكت والعيون: ٥٠٢/١، والكشاف:٥٢٦/١.

[8] انظر: تفسير الماتريدي:٢٣٧/٣-٢٣٨.

قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}[النساء:٦٢]، أي:" فكيف يكون حال أولئك المنافقين، إذا حلَّت بهم مصيبة بسبب ما اقترفوه بأيديهم"[١].

قال الزجاج:" أي :فكيف تكون حالهم إذا قتل صاحبهم بما أظهر من الخيانة ورد حكم النبي - ﷺ -"[٢].

قال الطبري:أي:" فكيف بهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، إذا نزلت بهم نقمة من الله بذنوبهم التي سلفت منهم"[٣].

قال ابن كثير:" أي : فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم واحتاجوا إليك في ذلك"[٤].

قال الواحدي:أي:" عقوبة من الله مجازاة على ما صنعوا، وهو قوله: {بما قدمت أيديهم} [النساء: ٦٢] أي: من التكذيب والكفر بالقرآن والرسول؟"[٥].

قال الزمخشري:أي:" من التحاكم إلى غيرك واتهامهم لك في الحكم"[٦].

قال الحسن:" عقوبة لهم بنفاقهم وكرهوا حكم الله، {ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا}"[٧].

وعن مجاهد :" {فكيف إذا أصابتهم مصيبة} في أنفسهم، وبين ذلك ما بينهما من القرآن هذا من تقديم القرآن "[٨].

قال الثعلبي:" يعني: فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم يعني عقوبة صدودهم، هذا وعيد وتهديد وتم الكلام"[٩].

وقيل:" أراد بالمصيبة قتل صاحبهم"[١٠].

قال السمعاني:" قيل: هو قتل عمر رضي الله عنه ذلك المنافق؛ فإنهم جاءوا يطلبون دمه، وقيل: هو في جميع المنافقين، والمصيبة: كل مصيبة تصيبهم في الدنيا والعقبى"[١١].

والمصيبة هنا "تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين، فالدنيوية مثل: الفقر، والجدب، وما أشبه ذلك"[١٢].

قوله تعالى:{ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء : ٦٢]، أي:" ثم جاؤوك -أيها الرسول- يعتذرون، ويؤكدون لك أنهم ما قصدوا بأعمالهم تلك إلا الإحسان والتوفيق بين الخصوم؟"[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:٨٨.

[٢] معاني القرآن:٦٩/٢.

[٣] تفسير الطبري:٥١٣/٨.

[٤] تفسير ابن كثير:٣٤٦/٢.

[٥] الوجيز:٧٤/٢.

[٦] الكشاف:٥٢٦/١.

[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٥٣):ص٩٩٢/٣.

[٨] أخرجه ابن المنذر(١٩٥٠):ص٧٧٢/٢.

[٩] تفسير الثعلبي:٣٣٨/٣.

[١٠] تفسير الثعلبي:٣٣٩/٣.

[١١] تفسير السمعاني:٤٤٢/١.

[١٢] القول المفيد على كتاب التوحيد:١٦٩/٢، الهامش.

[١٣] التفسير الميسر:٨٨.

قال الزجاج:" أي: ما أردنا بمطالبتنا بدم صاحبنا إلا إحسانا وطلبا لما يوافق الحق"[١].

قال الطبري:" وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يردعهم عن النفاق العِبر والنِّقم ، وأنهم إن تأتهم عقوبة من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم ينيبوا ولم يتوبوا، ولكنهم يحلفون بالله كذبًا وجرأة على الله : ما أردنا باحتكامنا إليه إلا الإحسان من بعضنا إلى بعض ، والصوابَ فيما احتكمنا فيه إليه"[٢].

قال الثعلبي:" وذلك أن عمر -رضي الله عنه- لما قتل المنافق جاءوا قومه يطلبون الدية ويحلفون: ما أردنا بالترافع إلى عمر. إلا إحسانا وتوفيقا"[٣].

قال ابن كثير:" أي : يعتذرون إليك ويحلفون : ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى عداك إلا الإحسان والتوفيق ، أي : المداراة والمصانعة ، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة ، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله : { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } [المائدة : ٥٢] "[٤].

قال الواحدي:" ثم عاد الكلام إلى ما سبق من القصة فقال: {ثم جاءوك يحلفون بالله} [النساء: ٦٢] ، وذلك أن المنافقين أتوا نبي الله ﷺ: وحلفوا أنهم ما أرادوا بالعدول عنه في المحاكمة، {إلا إحسانا وتوفيقا} [النساء: ٦٢] أي: إلا توفيقا بين الخصوم أي: جمعا وتأليفا، وإحسانا بالتقريب في الحكم دون الحمل على مر الحق. وكل ذلك كذب منهم"[٥].

قال الزمخشري:أي:" حين يصابون فيعتذرون إليك يحلفون ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا إحسانا لا إساءة وتوفيقا بين الخصمين، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا لحكمك، ففرج عنا بدعائك وهذا وعيد لهم على فعلهم، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم. ولا يغنى عنهم الاعتذار عند حلول بأس الله، وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنه يحكم له بما حكم به"[٦].

قال الكلبي:" إلا إحسانا في القول، وتوفيقا صوابا"[٧].

قال ابن كيسان:أي:" حقا وعدلا، نظيرها: {وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى} [التوبة : ١٠٧]"[٨].

قال السمعاني:" قيل: هو إحسان بعضهم إلى بعض، وقيل أرادوا بالإحسان: تقريب الأمر من الحق، لا القضاء على مر الحكم"[٩].

وقد ذكر الماتريدي في هذه الآية وجوها [١٠]:

---

[١] معاني القرآن:٢/٦٩.

[٢] تفسير الطبري:٨/٥١٣.

[٣] تفسير الثعلبي:٣/٣٣٩.

[٤] تفسير ابن كثير:٢/٣٤٦.

[٥] الوجيز:٢/٧٤.

[٦] الكشاف:١/٥٢٦.

[٧] تفسير الثعلبي:٣/٣٣٩.

[٨] تفسير الثعلبي:٣/٣٣٩.

[٩] تفسير السمعاني:١/٤٤٢.

[١٠] انظر: تفسير الماتريدي:٣/٢٣٧-٢٣٨.

أحدها: يحتمل هذا ما ذكر في القصة الأولى: أن عمر - رضي الله عنه - لما قتل ذلك الرجل المنافق جاء المنافقون إلى الرسول - ﷺ - يحلفون بالله ما أراد ذلك الرجل إلا {إحسانا}، أي: تخفيفا وتيسيرا عليك؛ ليرفع عنك المؤنة، {وتوفيقا} إلى الخير والصواب.
والثاني:أنها نزلت في المنافقين في بناء مسجد ضرا.
والثالث: في كل مصيبة تصيبهم، وكل نكبة تلحقهم أن كانوا يأتون رسول الله - ﷺ - فيعتذرون كما {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة : ٩٤] ، لأنهم كانوا يميلون إلى حيثما كانوا يطمعون من المنافع من الغنيمة وغيرها، إن رأوا النكبة والدبرة على المؤمنين مالوا إلى هؤلاء، ويظهرون الموافقة لهم؛ طمعا منهم، ويقولون: إنا معكم، وإن كانت النكبة والدبرة على الكافرين يظهرون الموافقة لهم؛ كقوله - تعالى -: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء : ١٤١]، هذا كان دأبهم وعادتهم أبدا.

الفوائد:

١- وجوب التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرضا بذلك والتسليم له.
٢-إن الآية تناولت غباوة المنافقين وقُبْح سجيّتهم، فالاعتذار أخسّ من الفعل، لأنهم يدّعون أن تحكيم غير كتاب الله إحسان وتوفيق، فهذا عذرٌ أقبح من فعل، لأن الإحسان والتوفيق هو بإتّباع كتاب الله وسنّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
٣-التحذير من كيد الشيطان وصدّه الإنسان عن الحق.
٤- أن دعوى قصد الإصلاح ليست بعذر في الحكم بغير ما أنزل الله.

القرآن

{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)} [النساء : ٦٣]

التفسير:

أولئك هم الذين يعلم الله حقيقة ما في قلوبهم من النفاق، فتولَّ عنهم، وحذِّرهم من سوء ما هم عليه، وقل لهم قولا مؤثرًا فيهم زاجرًا لهم.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} [النساء : ٦٣]، أي:" أولئك هم الذين يعلم الله حقيقة ما في قلوبهم من النفاق"[١].

قال مقاتل:" من النفاق"[٢].

قال الماوردي:" يعني من النفاق الذي يضمرونه"[٣].

قال ابن كثير:أي" هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية ، فاكتف به يا محمد فيهم ، فإن الله عالم بظواهرهم وبواطنهم"[٤].

قال الزجاج:" ههنا الذين يعلم الله ما في قلوبهم أي أولئك الذين قد علم الله أنهم منافقون، والفائدة لنا هي: اعلموا أنهم منافقون"[٥].

وفي قوله تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} [النساء : ٦٣]، وجوه من التفسير:

---

[١] التفسير الميسر:٨٨.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٥.

[٣] النكت والعيون:١/٥٠٢.

[٤]تفسير ابن كثير:٢/٣٤٧.

[٥] معاني القرآن:٢/٧٠.

احدها: معناه: أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم من الشرك والنفاق. وهذا قول الحسن[١]، ومقاتل[٢].

والثاني: معناه: كذبهم الله تعالى بهذه الآية. يريد أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. وهذا قول عطاء[٣]، وروي عن ابن عباس نحو ذلك المعنى[٤].

والثالث: أن المعنى: أي لا يُغني عنهم كتمان ما يضمرونه، ولا يدفع عنهم شيئًا من العقاب؛ لأن الله تعالى يعلم ما في قلوبهم[٥].

والرابع: أن المعنى: الله عز وجل يعلم ما في قلوب أولئك وقلوب غيرهم، إلا أن تخصيصهم بالذكر هنا يفيد أن المعنى أولئك الذين قد علم الله أنهم منافقون، فكأنه قيل لنا: اعلموا أنهم منافقون. وهذا قول الزجاج[٦].

قوله تعالى:{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } [النساء : ٦٣]، أي:" فتولَّ عنهم"[٧].

قال الصابوني:أي:" فأعرض عن معاقبتهم للمصلحة ولا تُظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجلٍ وحذر"[٨].

قال ابن عباس: "يريد: فاصفح عنهم. قال: وهذا منسوخ يعني بآية السيف"[٩].

وقال بعض أصحاب المعاني: معناه فأعرض عن قبول الاعتذار منهم [١٠].

وقال مقاتل: "معنى {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} لا تعاقبهم"[١١].

قوله تعالى:{ وَعِظْهُمْ} [النساء : ٦٣]، أي:" وحذِّرهم من سوء ما هم عليه"[١٢].

قال ابن كثير:" أي : وانههم على ما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر"[١٣].

قال الصابوني:" أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات"[١٤].

قال ابن عباس: "يريد ذكرهم"[١].

---

[١] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٥/١.

[٢] مقله الواحدي في التفسير البسيط:٥٥٦/٦، ولم اقف عليه.

[٣] ذكره الواحدي في التفسير البسيط:٤٤٦/٦، ولم اقف عليه..

[٤]ذكر ابن الجوزي معناه عن ابن عباس في "زاد المسير" ٢/ ١٢٢.

[٥]انظر: "النكت والعيون" ١/ ٥٠٢، "التفسير الكبير" ١٠/ ١٥٨.

[٦] انظر: معاني القرآن:٧٠/٢.

[٧] التفسير الميسر:٨٨.

[٨] صفوة التفاسير:٢٦٢.

[٩]ذكره الواحدي في التفسير البسيط: ٥٥٧/٦، وقد ذكر نحو ذلك غير منسوب لابن عباس كثير من المفسرين، وبعضهم ينسب القول بالنسخ إلى مقاتل. انظر: تفسير الطبري ٨/ ٥١٥، وبحر العلوم: ١/ ٣٦٥، وتفسير الثعلبي:٣٣٩/٣، والوسيط للواحدي: ٢/ ٦٠٥، ومعالم التنزيل: ٢/ ٢٤٤، وزاد المسير: ٢/ ١٢٢.

[١٠]ذكره الماوردي في "النكت والعيون" ١/ ٥٠٣، والبغوي في "معالم التنزيل" ٢/ ٢٤٤، والقرطبي ٥/ ٢٦٥، والرازي في التفسير الكبير: ١٠/ ١٥٨.، والواحدي في التفسير البسيط:٥٥٧/٦

[١١] انظر: بحر العلوم: ١/ ٣٦٥، تفسير الثعلبي:٣٣٩/٣، والتفسير البسيط للواحدي: ٥٥٧/٦، وزاد المسير: ٢/ ١٢٢.

[١٢] التفسير الميسر:٨٨.

[١٣] تفسير ابن كثير:٣٤٧/٢.

[١٤] صفوة التفاسير:٢٦٢.

وقال مقاتل: "وعظهم بلسانك"[٢].

وفي الجمع بين الإعراض والوعظ مع تنافي اجتماعهما في الظاهر - ثلاثة أوجه [٣]:

أحدها : أعرض عنهم بالعداوة لهم وعِظهم فيما بدا منهم .

والثاني : أعرض عن عقابهم وعظهم .

والثالث : أعرض عن قبول الأعذار منهم وعظهم .

قال ابن الجوزي:" قال المفسرون في هذه الآية تقديم وتأخير. تقديره: فعظهم فإن امتنعوا عن الإجابة فأعرض. وهذا كان قبل الأمر بالقتال ثم نسخ ذلك بآية السيف"[٤].

وقد ذكر دعوى النسخ هنا ابن حزم [٥]، وابن سلامة[٦]، وابن هلال [٧]، ولم يتعرض له النحاس أو مكي بن أبي طالب أصلا.

قوله تعالى:{وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء : ٦٣]، أي:" ، وقل لهم قولا مؤثرًا فيهم زاجرًا لهم"[٨].

قال الطبري:أي:" مرهم باتقاء الله والتصديق به وبرسوله ووعده ووعيده"[٩].

قال ابن كثير:" أي : وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم"[١٠].

قال الزجاج:" أي: أعلمهم أنهم إن ظهر منهم رد لحكمك وكفر، فالقتل حقهم، يقال قول بليغ إذا كان يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، ويقال أحمق بلغ وبلغ. وفيه قولان: إنه أحمق يبلغ حيث يريد، ويكون " أحمق بلغ وبلغ " قد بلغ في الحماقة. والقول الأول قول من يوثق بعلمه، والثاني وجه جيد"[١١].

قال مقاتل:"نسختها آية السيف"[١٢].

قال الزمخشري:" أى قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولا بليغا، وأن الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفى عليه فلا يغنى عنكم إبطانه. فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق، وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك من انتقامه، وشرا من ذلك وأغلظ. أو قل لهم في أنفسهم- خاليا بهم، ليس معهم غيرهم، مسارا لهم بالنصيحة، لأنها في السر أنجع، وفي الإمحاض أدخل- قولا بليغا يبلغ منهم ويؤثر فيهم"[١٣].

وفي قوله تعالى:{وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء : ٦٣]، وجوه من التفسير:

---

[١]أورده الواحدي في التفسير البسيط:٥٥٧/٦، و في التفسير الوسيط: ٢/ ٦٠٥، بلفظ: "خوفهم بالله". وذكره بنحو ما في "الوسيط" البغوي غير منسوب لأحد. انظر: "معالم التنزيل" ٢/ ٢٤٤.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٥/١.

[٣] انظر: النكت والعيون:٥٠٢/١-٥٠٣.

[٤] نواسخ القرآن:٣٧٥/٢.

[٥]في ناسخه :ص٣٣٢.

[٦]في ناسخه :ص٣٧.

[٧]في ناسخه المخطوط: ورقة ٢٣.

[٨] التفسير الميسر:٨٨.

[٩] تفسير الطبري:٥١٥/٨.

[١٠] تفسير ابن كثير:٣٤٧/٢.

[١١] معاني القرآن:٧٠/٢.

[١٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٦/١.

[١٣] الكشاف:٥٢٧/١.

أحدها : أن يقول لهم : إن أظهرتم ما في قلوبكم قتلكم ، فإنه يبلغ من نفوسهم كل مبلغ ، وهذا قول الحسن[1].
والثاني : يريد: خوفهم بالله. قاله ابن عباس[2].
والثالث:أن يزجرهم عما هم عليه بأبلغ الزواجر[3].
والرابع: معناه: مبلغا بلسانك كنه ما في قلبك بأحسن العبارة عني. وهذا قول التستري[4].
والخامس:معناه: أعلمهم إن ظهر منهم رد لحكمك وكفر، فالقتل حقهم. وهذا قول الزجاج[5].
والسادس: أي: قل لهم في أنفسهم من الغيب بما أطلعك الله عليه من غشهم قولًا بليغًا، شديدًا باللسان، يعني: فازجرهم عما هم عليه بأبلغ الزجر، كي لا يستمروا الكفر، وعظهم كي لا يغتروا بطول الإمهال[6].

قال الواحدي:" والأظهر أن قوله: {فِي أَنْفُسِهِمْ} حقه التأخير؛ لأن المعنى: قولًا بليغًا في أنفسهم"[7].

الفوائد:

١- فدلت الآية على أن المعول على النية دون اللسان ، وقال النبي - ﷺ -: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» الحديث[8]، فربط الأعمال بالنيات، ومفهوم هذا أن الانتفاع بالأعمال والاعتداد بها يكون بالنية، وأن النية هي عماد الأعمال ومعلولها

القرآن

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤)} [النساء : ٦٤]

التفسير:

وما بعَثْنَا من رسول من رسلنا، إلا ليستجاب له، بأمر الله تعالى وقضائه. ولو أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم باقتراف السيئات، جاؤوك -أيها الرسول- في حياتك تائبين سائلين الله أن يغفر لهم ذنوبهم، واستغفرت لهم، لوجدوا الله توابًا رحيمًا.

سبب نزول الآية:

أخرج الطبري عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله : " { ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}، إلى قوله : {وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[9]، قال : إن هذا في الرجل اليهودي والرجل المسلم اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف"[10].

---

[1]ذكره الماوردي في "النكت والعيون" ١/ ٥٠٣، والواحدي في التفسير البسيط:٥٥٨/٦

[2] انظر: التفسير البسيط للواحدي:٥٥٨/٦.

[3] انظر: النكت والعيون" ١/ ٥٠٣،.

[4] تفسير التستري:٥٤.

[5] انظر: معاني القرآن:٧٠/٢.

[6] انظر: التفسير البسيط:٥٥٨/٦، والتفسير الكبير: ١٠/ ١٥٩، والبحر المحيط: ٣/ ٢٨١.

[7] التفسير البسيط:٥٥٩/٦.

[8]صحيح البخاري برقم (١، ٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٧) وسنن أبي داود برقم (٢٢٠١) وسن الترمذي الترمذي برقم (١٦٤٧) ، وسنن النسائي (٥٩/١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٢٧) ومسند أحمد (٢٥/١) ومسند الحميدي (١٦/١) ومسند الطيالسي (٢٧/٢) "منحة المعبود".

[9] [سورة النساء:٦٥].

[10] تفسير الطبري(٩٩٠٧):ص٥١٧/٨، وانظر: تفسير مجاهد:٢٨٦.

قال ابن الجوزي:"قال المفسرون: اختصم يهودي ومنافق، وقيل: بل مؤمن ومنافق، فأراد اليهودي، وقيل: المؤمن، أن تكون الحكومة بين يدي الرسول ﷺ فأبى المنافق. فنزل قوله تعالى: {يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت}[النساء:٦٠]، إلى هذه الآية"[١].

قلت: هذا السبب الذي أورده ابن الجوزي في نزول الآية هو مكون من أسباب رويت من طرق محتلفة، أشرنا إليها في تفسير الآية:(٦٠)، من السورة.

قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [النساء : ٦٤]، أي:" وما بعَثْنَا من رسول من رسلنا إلا ليطاع بأمر الله تعالى"[٢].

قال الزجاج:" إي، أذن في ذلك"[٣].

قال ابو جعفر الترمذي:" لا يطيعهم أحد إلا بإذن الله"[٤].

قال مجاهد:" أوجب الله لهم أن يطيعهم من شاء الله من الناس، ثم أخبر أنه لا يطيعهم أحد إلا بإذن الله"[٥].

قال مقاتل:" يعني: إلا لكي يطاع، {بإذن الله}، يقول: لا يطيعه أحد حتى يأذن الله- عز وجل- له في طاعة رسوله- ﷺ-"[٦].

قال البغوي:" أي: بأمر الله، لأن طاعة الرسول وجبت بأمر الله"[٧].

قال الواحدي:أي:" فيما يأمرُ به ويحكم لا ليُعصى ويُطلب الحكم من غيره وقوله: {بإذن الله} أَيْ: لأنَّ الله أذن في ذلك وأمر بطاعته"[٨].

قال الزمخشري:أي:" وما أرسلنا رسولا قط إلا ليطاع بإذن الله بسبب إذن الله في طاعته، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه، لأنه مؤد عن الله، فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله من يطع الرسول فقد أطاع الله ويجوز أن يراد بتيسير الله وتوفيقه في طاعته"[٩].

قال البيضاوي:{بإذن الله}، أي:"بسبب إذنه في طاعته وأمره المبعوث إليهم بأن يطيعوه، وكأنه احتج بذلك على أن الذي لم يرض بحكمه وإن أظهر الإسلام كان كافرا مستوجب القتل، وتقريره أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرض بحكمه لم يقبل رسالته ومن كان كذلك كان كافرا مستوجب القتل"[١٠].

يحتمل قوله تعالى:{بإذن الله}[النساء : ٦٤]،وجوها[١١]:

أحدها: بمشيئة الله، ؛ أي: من أطاع الرسول - ﷺ - إنما يطيعه بمشيئته، وكذلك من عصاه إنما يعصيه بمشيئته، من أطاعه أو عصاه فإنما ذلك كله بمشيئة الله.

---

[١] نواسخ القرآن:٣٧٥/٢.

[٢] انظر: التفسير الميسر:٨٨، وصفوة التفاسير:٢٦٢.

[٣] معاني القرآن:٧٠/٢.

[٤]الجزء فيه تفسير القرآن ليحيى بن يمان ونافع بن أبي نعيم القارئ ومسلم بن خالد الزنجي وعطاء الخراساني برواية أبي جعفر الترمذي:٨٦.

[٥] تفسير مجاهد:٢٨٥.

[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٦/١.

[٧] تفسير البغوي:٢٤٤/٢.

[٨] الوجيز:٢٧٢.

[٩] الكشاف:٥٢٨/١.

[١٠] تفسير البيضاوي:٨١/٢.

[١١] انظر: تفسير الماتريدي:٢٣٩/٣-٢٤٠، والوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري:١٠٨.

والثاني: بأمر الله. وذلك أنه أمر أن يطاع.
والثالث: بعلم الله، إنه يعلم من يطيعه ومن يعصيه، أي: كل ذلك إنما يكون بعلمه، لا عن غفلة منه وسهو، كصنيع ملوك الأرض أن ما يستقبلهم من العصيان والخلاف إنما يستقبلهم الغفلة، منهم وسهو بالعواقب، فأما الله - سبحانه وتعالى - إذا بعث رسلا بعث على علم منه بالطاعة لهم وبالمعصية، لكنه عثهم لما لا ينفعه طاعة أحد؛ ولا يضره معصية أحد، فإنما ضر ذلك عليهم، ونفعه لهم[١].

قال ابن عطية:" {بإذن الله}، معناه بأمر الله، وحسنت العبارة بالإذن، إذ بنفس الإرسال تجب طاعته وإن لم ينص أمر بذلك، قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} تنبيه على جلالة الرسل، أي: فأنت يا محمد منهم، تجب طاعتك وتتعين إجابة الدعوة إليك"[٢].

قال ابن عطية:" تنبيه على جلالة الرسل، أي: فأنت يا محمد منهم، تجب طاعتك وتتعين إجابة الدعوة إليك"[٣].

قوله تعالى:{وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ} [النساء : ٦٤]، " أي: ولو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم"[٤].

قال مقاتل:" يعني: حين لم يرضوا بقضائك جاءوك فاستغفروا الله من ذنوبهم"[٥].

قال الزجاج:أي:" لو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم أنفسهم مع استغفارهم {لوجدوا الله توابا رحيما"[٦].

قال الزمخشري:أي:" جاؤك تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا فاستغفروا الله من ذلك بالإخلاص"[٧].

قال البيضاوي:أي:"{ إذ ظلموا أنفسهم}، بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت. {جاؤك}، تائبين من ذلك {فاستغفروا الله}، بالتوبة والإخلاص"[٨].

قال الطبري:أي:" ولو أن هؤلاء المنافقين الذين وصف صفتهم في هاتين الآيتين ، الذين إذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله صدّوا صدودًا ، {إذ ظلموا أنفسهم}، باكتسابهم إياها العظيم من الإثم في احتكامهم إلى الطاغوت ، وصدودهم عن كتاب الله وسنة رسوله إذا دعوا إليها

---

[١] وقد قالت المعتزلة في قوله – تعالى –: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع}: أخبر أنه ما أرسل الرسل إلا إلا لتطاع، ومن الرسل من لم يطع؛ كيف لا تبينتم أن من الفعل ما قد أراد – عز وجل – أن يفعل، وأن يكون، ولكن لم يكن على ما أخبر أنه ما أرسل من رسول إلا ليطاع. ثم من قد كان من الرسل ولم يطع.

قيل: هو ما ذكر في آخره: {إلا ليطاع بإذن الله}، أي: بمشيئة الله، فمن شاء من الرسل أن يطاع فقد أطيع، ومن شاء ألا يطاع، فلم يطع، وكذلك من علم أنه يطاع فأرسله ليطاع فأطيع، ومن علم أنه لا يطاع فلم يطع، ومن أرسل أن يطاع بأمر ليكون عليه الأمر فذلك مستقيم، ومن أرسل ليطاع بالأمر فلا يجوز ألا يطاع.[انظر: تفسير الماتريدي:٣/٣٤٠].

[٢] المحرر الوجيز:٢/٧٤.

[٣] المحرر الوجيز:٢/٧٤.

[٤] صفوة التفاسير:٢٦٢.

[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٦.

[٦] معاني القرآن:٢/٧٠.

[٧] الكشاف:١/٥٢٨.

[٨] تفسير البيضاوي:٢/٨١.

{جاؤوك}، يا محمد ، حين فعلو ما فعلوا من مصيرهم إلى الطاغوت راضين بحكمه دون حكمك ، جاؤوك تائبين منيبين ، فسألوا الله أن يصفح لهم عن عقوبة ذنبهم بتغطيته عليهم"[١].

قال سعيد بن جبير:" الاستغفار على نحوين، أحدهما: في القول، والآخر في العمل، فأما استغفار القول: فإن الله يقول: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول} وأما استغفار العمل، فإن الله عز وجل: يقول: {وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} فعنى بذلك: أن يعملوا عمل الغفران، وقد علمت أن أناسا سيدخلون النار وهم يستغفرون الله بألسنتهم ممن يدعي الإسلام، ومن سائر الملل "[٢].

أخرج ابن المنذر عن عبد الله بن مسعود، قال: " إن في النساء خمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها، ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها، قوله جل وعز: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما} ، وذكر بقية الحديث "[٣].

قوله تعالى:{وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ} [النساء : ٦٤]، " أي : "وسألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم"[٤].

قال الطبري:أي:" وسأل لهم اللهَ رسولهُ ﷺ مثل ذلك[من الاستغفار] "[٥].

قال الزمخشري:أي:" وبالغوا في الاعتذار إليك من إيذائك برد قضائك، حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله ومستغفرا"[٦].

ولم يقل: «واستغفرت لهم»، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات، تفخيما لشأن رسول الله ﷺ وتعظيما لاستغفاره، وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان[٧].

قوله تعالى:{لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } [النساء : ٦٤]، " أي: لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم"[٨].

قال الطبري:أي:" راجعًا لهم مما يكرهون إلى ما يحبون، {رحيمًا} بهم ، في تركه عقوبتهم على ذنبهم الذي تابوا منه"[٩].

قال الزمخشري:أي:" لعلموه توابا، أى لتاب عليهم"[١٠].

قال مجاهد:" عُنِي بذلك اليهوديُّ والمسلم اللذان تحاكما إلى كعب بن الأشرف"[١١].

قال ابن الجوزي:" زعم بعض منتحلي التفسير أن هذه الآية نسخت بقوله: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [التوبة : ٨٠].

وهذا قول مرذول، لأنه إنما قيل { فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} لإصرارهم على النفاق، فأما إذا جاءوا فاستغفروا واستغفر لهم الرسول، فقد ارتفع الإصرار فلا وجه للنسخ"[١].

---

[١] تفسير الطبري:٥١٧/٨.

[٢] أخرجه ابن المنذر(١٩٥٥):ص٧٧٤/٢.

[٣] تفسير ابن المنذر(١٩٥٦):ص٧٧٤/٢-٧٧٥.

[٤] صفوة التفاسير:٢٦٢.

[٥] تفسير الطبري:٥١٧/٨.

[٦] الكشاف:٥٢٨/١.

[٧] انظر: الكشاف:٥٢٨/١.

[٨] صفوة التفاسير:٢٦٢.

[٩] تفسير الطبري:٥١٧/٨.

[١٠] الكشاف:٥٢٨/١.

[١١] تفسير الطبري:٥١٧/٨. وانظر: الأثر(٩٩٠٧):ص٥١٧/٨

ويجدر القول بانه لم يتعرض لدعوى النسخ في هذه الآية أصحاب أمهات كتب النسخ ولا المفسرون لضعف ذلك، وإنما ذكره ابن سلامة بدون نسبته إلى أحد[٢].

الفوائد:

١- أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل قال تعالى:{وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله}.

٢- أن طاعة الأنبياء هداية ومعصيتهم ضلالة، وهذا معلوم من الدين بالضرورة، وقد قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}، وقال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}، وقال تعالى بعد ذكره لبعض المرسلين: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}، وقال تعالى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}، وقال تعالى: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٣-وفي الآية إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقا، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقا.

٤-أن «التَّوَّاب»من أسمائه تعالى، و الكثير التَّوْب؛ بمعنى: الرجوع على عبده بالمغفرة وقبول التوبة، وتوبته سبحانه على عبده نوعان[٣]:

أحدهما: أنه يلهم عبده التوبة إليه، ويوفقه لتحصيل شروطها من الندم والاستغفار والإقلاع عن المعصية والعزم على عدم العود إليها واستبدالها بعمل الصالحات.

والثاني: توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها؛ فإنَّ التوبة النصوح تجب ما قبلها.

واسم «الرحيم» من أسمائه تعالى، يتضمن صفة الرحمة التي تعم عباده المؤمنين فحسب بأن هداهم إلى الإيمان في الدنيا، وهو يثيبهم في الآخرة الثواب الدائم الذي لا ينقطع، إذ يقول سبحانه: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب : ٤٣].

القرآن

{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)} [النساء : ٦٥]

التفسير:

أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتى يجعلوك حكمًا فيما وقع بينهم من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلى سنتك بعد مماتك، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما انتهى إليه حكمك، وينقادوا مع ذلك انقيادًا تاماً، فالحكم بما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون الحياة من صميم الإيمان مع الرضا والتسليم.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: تقدم قبل هذا النقل عمن قال: إنها نزلت في تحاكم إلى الكاهن، وهو ظاهر السياق، فإن الآيات المذكورة متعاطفة بعضها على بعض، وأولها قصة المتحاكمين، على الاختلاف في ذلك[٤].

عن مجاهد " {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم}،إلى {فلا وربك لا يؤمنون}، حتى قوله: {ويسلموا تسليما} هذا في الرجل اليهودي والرجل المسلم، اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف "[٥].

---

[١]نواسخ القرآن:٢/٣٧٥-٣٧٦.

[٢]في ناسخه ص: ٣٧ – ٣٨.

[٣] انظر: صفات الله عزل وجل الواردة في الكتب والسنة:١٠٧-١٠٨.

[٤] انظر: العجاب:٢/٩٠٥.

[٥] أخرجه ابن المنذر(١٩٥٩):ص٢/٧٧٦.

والثاني: أخرج أحمد[١]، والبخاري[٢]، ومسلم [٣]، وغيرهم[٤]، عن عروة بن الزبير:" أن الزبير كان يحدث؛أنه خاصم رجلا من الأنصار، قد شهد بدرا، إلى رسول الله ﷺ، في شراج من الحرة، كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله، آن كان ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: اسق، ثم احبس، حتى يبلغ الجدر، فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك، أشار على الزبير برأي، سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ، استوعى للزبير حقه في صريح الحكم.
قال عروة: قال الزبير: والله، ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم} الآية".
والثالث: أخرج ابن ابي حاتم، وابن مردوية[٥]، عن عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود قال: "اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ، فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: نعم، انطلقا إلى عمر، فلما أتيا عمر قال الرجل: يا ابن الخطاب قضى لي رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر فردنا إليك. قال: أكذلك؟ قال: نعم، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما، فخرج إليهما، مشتملا على سيفه فضرب الذي قال: ردنا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فارا إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قتل عمر والله صاحبي ولو ما أني أعجزته لقتلني، فقال رسول الله ﷺ: ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمنين، فأنزل الله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}، فهدر دم ذلك الرجل وبرئ عمر من قتله، فكره الله أن يسن ذلك بعد، فقال: {ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم} إلى قوله: {وأشد تثبيتا}"[٦].
قال ابن حجر:" وفيه تقوية لقول من قال: إن الآيات كلها أنزلت في حق المتخاصمين إلى الكاهن كما تقدم، وبهذا جزم الطبري[٧] وقواه بأن الزبير لم يجزم بأن الآية نزلت في قصته بل أورده ظنا[٨].

---

[١] المسند(١٤١٩):ص١/١٦٥، و(١٦٢١٥):ص٤/٤.

[٢] صحيح البخاري(٢٧٠٨):ص٣/٢٤٥، و(٣٣٥٩)، (٣٣٦٠)، (٢٣٦١)، و(٢٣٦٢):ص٣/١٤٥-١٤٦، و(٤٥٨٥):ص٦/٥٨.

[٣] صحيح المسلم(٦١٨٣):ص٧/٩٠.

[٤] أخرجه كذلك عبد بن حميد(٥١٩)، وأبو داود(٣٦٣٧)، وابن ماجة(١٥)، و(٢٤٨٠)، والترمذي(١٣٦٣)، و(٣٠٢٧)، والنسائي٨/٢٤٥، و٨/٢٣٨، وفي الكبرى(٥٩٢٥)، و(٥٩٢٦)، والبزاز في مسنده٣/١٨٤، وابن حبان في الإحسان باب الاعتصام بالسنة: (٢٤):ص١/٢٠٣-٢٠٤، والطبري في تفسيره(٩٩١٢):ص٨/٥١٩-٥٢٠، وابن ابي حاتم(٥٥٥٨):ص٣/٩٩٣-٩٩٤.

[٥] انظر: لباب النقول:٧٣.

[٦] تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٦٠):ص٣/٩٩٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري:٨/٥٢٤-٥٢٥.

[٨]لم أجد هذا المعنى في كلام الطبري في "التفسير" وقد قال الحافظ في "الفتح" "٥/ ٣٨": "ورجح الطبري في "تفسيره" وعزاه إلى أهل التأويل في "تهذيبه" إن سبب نزولها: هذه القصة ليتسق نظام الآيات كلها في سبب واحد قال. ولم يعرض بينها ما يقتضي خلاف ذلك، ثم قال: ولا مانع أن تكون قصة الزبير وخصمه وقعت في أثناء ذلك فيتناولها عموم الآية". فلعل هذا المعنى في كتابه "التهذيب"..

قلت[ابن حجر]: لكن تقدم في حديث أم سلمة الجزم بذلك، ويحتمل أن تكون قصة الزبير وقعت في أثناء ذلك، فتناولها عموم الآية والله أعلم، وقد تقدم أن القصة المذكورة نزل فيها {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}"[1].
والرابع: أخرج ابن ابي حاتم عن عكرمة قال:" نزلت في اليهود"[2].
قال ابن عطية:" والصحيح في سبب قوله تعالى:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ}، حديث الزبير مع جاره الأنصاري في حديث السقي"[3].
قوله تعالى:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [النساء : ٦٥]، " أي: فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكماً بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور"[4].
قال مقاتل:" يقول لا يستحقون الإيمان حتى يرضوا بحكمك فيما اختلفوا فيه من شيء"[5].
قال الزجاج:" أي فيما وقع من الاختلاف بينهم"[6].
قال ابن كثير:" يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة : أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكم الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا"[7].
عن أبي عبيدة: " {فيما شجر بينهم}، أي: اختلط "[8].
قال السمعاني:أي:" لا يكمل إيمانهم حتى يرضوا بحكمك، وينقادوا لك، قيل: هذه أبلغ آية في كتاب الله - تعالى - في الوعيد"[9].
قال السعدي:" قسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة"[10].
والاشتجار: "الاختلاف، ومنه الشجر لالتفاف أغصانه بعضها على بعض، قال الشاعر[11]:

هم الحكام أرباب الندي   وسراة الناس إذ الأمر شجر

أي: اختلف"[12].
قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء : ٦٥]، "أي: ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمك وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً لقضائك"[13].

---

[1] العجاب:٢/٩٠٩.
[2] تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٦١):ص٣/٩٩٤.
[3] المحرر الوجيز:١/٣٤٣.
[4] صفوة التفاسير:٢٦٢.
[5] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٦.
[6] معاني القرآن:٢/٧٠.
[7] تفسير ابن كثير:٢/٣٤٩.
[8] أخرجه ابن المنذر(١٩٦١):ص٢/٧٧٧.
[9] تفسير السمعاني:١/٤٤٤.
[10] تفسير السعدي:١٨٤.
[11] البيت من شواهد السمعاني في تفسيره:١/٤٤٤، ولم أتعرف على قائله.
[12] تفسير السمعاني:١/٤٤٤.
[13] صفوة التفاسير:٢٦٢.

قال مقاتل:" يقول: لا يجدون في قلوبهم شكا مما قضيت أنه الحق ويسلموا لقضائك لهم وعليهم تسليما"[١].

قال الواحدي:" الأمر إلى الله وإلى رسوله من غير معارضةٍ بشيءٍ"[٢].

قال الزجاج:" أي: لا تضيق صدورهم من قضيتيك، [و] يسلمون لما يأتي به من حكمك، لا يعارضونه بشيء"[٣].

قال ابن كثير:" أي : إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به ، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة ، كما ورد في الحديث : «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[٤]"[٥].

قال السعدي:" ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك حتى يسلموا لحكمه تسليما بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن، فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين"[٦].

قال السمعاني:"{حرجا}، أي: ضيقا، ومنه الحرجة، روى أن عمر - رضي الله عنه - قال لبعض العرب: ما الحرجة عندكم؟ قال: هي شجرة ملتفة، لا يصل الماء إليها، ومن ذلك قوله - تعالى -: {يجعل صدره ضيقا حرجا} أي: يضيق مسلكه بحيث لا تصل إليه الهداية"[٧].

عن مجاهد في قوله: "{ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت}، قال: شكا"[٨].

وعن الضحاك، في قوله عز وجل: " {ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا} ، قال: إثما "[٩].

وعن أبي عبيدة: " {ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت} ، أي: ضيقا "[١٠].

قال الزمخشري:" {حرجا}: ضيقا، أى: لا تضيق صدورهم من حكمك، وقيل: شكا، لأن الشاك في ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين ويسلموا وينقادوا ويذعنوا لما تأتى به من قضائك، لا يعارضوه بشيء، من قولك: سلم الأمر لله وأسلم له، وحقيقة سلم نفسه وأسلمها، إذا جعلها سالمة له خالصة"[١١].

الفوائد:

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان: ١/٣٨٦.

[٢] الوجيز: ٢٧٢.

[٣] معاني القرآن: ٢/٧٠.

[٤] أخرجه البغوي في شرح السنة ١/٢١٢ - ٢١٣، حديث رقم ١٠٤، قال النووي في آخر الأربعين النووية "حسن صحيح"، وقال الحافظ في الفتح ١٣/٢٨٩: أخرجه الحسن بن سفيان وغيره؛ ورجاله ثقات؛ وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/٣٩٤) : تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه...".

[٥] صفوة التفاسير: ٢٦٢.

[٦] تفسير السعدي: ١٨٤.

[٧] تفسير السمعاني: ١/٤٤٤.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٦٢): ص٣/٩٩٥.

[٩] أخرجه ابن المنذر(١٩٦٢): ص٢/٧٧٧.

[١٠] أخرجه ابن المنذر(١٩٦٣): ص٢/٧٧٨.

[١١] الكشاف: ١/٥٢٩.

١- أن الآية توبيخ لمن لم يحكم الرسول ﷺ في موارد الشجار.
٢-أن التحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها[١].

القرآن

{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦)} [النساء : ٦٦]

التفسير

ولو أوجبنا على هؤلاء المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت أن يقتل بعضهم بعضًا، أو أن يخرجوا من ديارهم، ما استجاب لذلك إلا عدد قليل منهم، ولو أنهم استجابوا لما يُنصحون به لكان ذلك نافعًا لهم، وأقوى لإيمانهم.

في سبب نزول الآية:

أخرج الطبري[٢] وابن أبي حاتم[٣] عن أسباط ، عن السدي[٤]، قال :"افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من يهود ، فقال اليهودي : والله لقد كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم ، فقتلنا أنفسنا! فقال ثابت : والله لو كُتب علينا أن اقتلوا أنفسكم ، لقتلنا أنفسنا! أنزل الله في هذا:{وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا}"[٥].

قوله تعالى:{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ} [النساء : ٦٦]، "أي: لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على ما قبلهم من المشقات وشدّدنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بني إسرائيل"[٦].

قال الطبري:أي:"ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، المحتكمين إلى الطاغوت ، أن يقتلوا أنفسهم وأمرناهم بذلك أو أن يخرجوا من ديارهم مهاجرين منها إلى دار أخرى سواها"[٧].

قال مجاهد:" كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضًا بالخناجر ، لم يفعلوا إلا قليل منهم"[٨].

قوله تعالى:{مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} [النساء : ٦٦]، "أي: ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم"[٩].

وقرأ ابن عامر:{ما فعلوه إلا قليلا منهم }، نصبا[١٠].

---

[١] انظر: تفسير السعدي:١٨٤.

[٢] تفسير الطبري(٩٩٢٠):ص٥٢٥/٨

[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٦٨):ص٩٩٦/٣.

[٤] رواية أسباط بن نصر عن السدي، سنده ضعيف جداً؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال.

الثانية: أسباط؛ صدوق كثير الخطأ، يُغْرب.

[٥] تفسير الطبري(٩٩٢٠):ص٥٢٥/٨

[٦] صفوة التفاسير:٢٦٢.

[٧] تفسير الطبري:٥٢٦/٨.

[٨] أخرجه الطبري(٩٩١٩):ص٥٢٦/٨.

[٩] صفوة التفاسير:٢٦٢.

[١٠] انظر: السبعة:٢٣٥.

قوله تعالى:{وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء : ٦٦]، أي:"ولو أنهم استجابوا لما يُنصحون به لكان ذلك نافعًا لهم، وأقوى لإيمانهم"[١].

عن السدي : {لكان خيرًا لهم وأشد تثبيتًا}، قال : تصديقًا"[٢].

قال الطبري:أي:" ولو أن هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ، ويصدُّون عنك صدودًا ، [فعلوا] ما يذكّرون به من طاعة الله والانتهاء إلى أمره، { لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} في عاجل دنياهم ، وآجل معادهم، وأثبت لهم في أمورهم ، وأقوم لهم عليها، وذلك أن المنافق يعمل على شك ، فعمله يذهب باطلا وعناؤه يضمحلّ فيصير هباء ، وهو بشكه يعمل على وناءٍ وضعف، ولو عمل على بصيرة ، لاكتسب بعمله أجرًا ، ولكان له عند الله ذخرًا ، وكان على عمله الذي يعمل أقوى ، ولنفسه أشدَّ تثبيتًا ، لإيمانه بوعد الله على طاعته ، وعمله الذي يعمله "[٣].

قال أبو إسحاق السبيعي:" لما نزلت :{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ } ، قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذي عافانا! فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : «إنّ من أمتي لَرجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرَّواسي»"[٤].

وعن شريح بن عبيد قال: لما تلى رسول الله ﷺ هذه الآية : {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ}، أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة، فقال: لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل- يعني ابن رواحة"[٥].

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: لما نزلت: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}، قال أبو بكر: يا رسول الله، والله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت. قال:«صدقت يا أبا بكر»"[٦].

سئل سفيان عن قوله: "{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ}، قال النبي ﷺ: «لو نزلت كان ابن أم عبد منهم»"[٧].

الفوائد:

١-أخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس من قتل النفوس والخروج من الديار لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها[٨].

٢- أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتخف عليه العبادات، ويزداد حمدا وشكرا لربه[٩].

٣-أنه ينبغي للعبد، أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئا فشيئا حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط[١٠].

---

[١] التفسير الميسر:٨٩.

[٢] أخرجه الطبري(٩٩٢٢):ص٨/٥٢٩.

[٣] تفسير الطبري:٨/٥٢٨-٥٢٩.

[٤] أخرجه الطبري(٩٩٢١):ص٨/٥٢٦.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٦٤):ص٣/٩٩٥.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٦٦):ص٣/٩٩٥.

[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٦٧):ص٣/٩٩٦.

[٨] انظر: تفسير السعدي:١٨٥.

[٩] انظر: تفسير السعدي:١٨٥.

[١٠] انظر: تفسير السعدي:١٨٥.

٤-أن الله عز وجل جعل الجلاء عن الوطن بمرتبة القتل، فقال:{ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم، أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم}، فضرب المثل بمفارقة الدار كما ضربه بمفارقة الحياة[١].

القرآن

{وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧)} [النساء : ٦٧]

التفسير:

ولأعطيناهم من عندنا ثوابًا عظيمًا في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:{ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا} [النساء : ٦٧]، أي:" ولأعطيناهم من عندنا ثمرة الطاعة"[٢].

قال البيضاوي:" جواب لسؤال مقدر كأنه قيل وما يكون لهم بعد التثبيت فقال وإذا لو تثبتوا لآتيناهم، لأن إذا جواب وجزاء"[٣].

قال الطبري:أي:" ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم، لإيتائنا إياهم على فعلهم ما وعِظُوا به من طاعتنا والانتهاء إلى أمرنا"[٤].

قال المراغي:" أي: ولو أنهم فعلوا هذا الخير العظيم وامتثلوا ما أمروا به وأخلصوا العمل"[٥].

قال ابن كثير:{ مِنْ لَدُنَّا}،" أي : من عندنا "[٦].

قال الراغب:"وإنما قال: {من لدنا}، لأنه تعالى لا يكاد ينسب إلى نفسه من النعم إلا ما كان أجلها قدرا وأعظمها خطرا، نحو: وروحنا"[٧].

قوله تعالى:{ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء : ٦٧]، أي:" ثواباً كثيرا"[٨].

قال الطبري:أي:" جزاء وثوابًا عظيمًا"[٩].

قال البغوي:أي:" ثوابا وافرا"[١٠].

قال ابن كثير:" يعني : الجنة"[١١].

قال السمعاني:"هو الجنة"[١٢].

قال القرطبي:" أي: ثوابا في الآخرة"[١٣].

قال الخازن:" يعني: ثوابا وافرا جزيل"[١٤].

---

[١] انظر: المنهاج في شعب الإيمان:١٨٠/٢.

[٢] انظر: التفسير الميسر:٨٩، وصفوة التفاسير:٢٦٣.

[٣] تفسير البيضاوي:٨٢/٢.

[٤] تفسير الطبري:٥٢٩/٨.

[٥] تفسير المراغي:٨٣/٥.

[٦] تفسير ابن كثير:٣٥٣/٢.

[٧] تفسير الراغب الأصفهاني:١٣٠٩/٣.

[٨]صفوة التفاسير:٢٦٣.

[٩] تفسير الطبري:٥٢٩/٨.

[١٠] تفسير البغوي:٢٤٦/٢.

[١١] تفسير ابن كثير:٣٥٣/٢.

[١٢] تفسير السمعاني:٤٤٥/١.

[١٣] تفسير القرطبي:٢٧٠/٥.

[١٤] تفسير الخازن:٣٩٧/١.

قال الزمخشري:" المراد: العطاء المتفضل به من عنده، وتسميته أجرا، لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته"[١].

عن سعيد بن جبير قوله: { مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا}،قال: الجنة"[٢]. وروي عن أبي هريرة هريرة وعكرمة وأنس، والضحاك وقتادة نحو ذلك[٣].

قال الراغب:" بيّن أنهم لو قبلوا الموعظة، لجمع لهم بين خير الدنيا والآخرة، وذلك هو المعني بقوله: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [محمد : ١٧] "[٤].

الفوائد:

١-أنه مما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به هو الثواب العظيم في العاجل والآجل الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٢ أن الله تعالى وصف هذا الأجر بالعظيم، والشيء الذي وصفه أعظم العظماء بالعظمة لا بد وأن يكون في نهاية الجلالة، وكيف لا يكون عظيما، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[٥][٦].

القرآن

{وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)} [النساء : ٦٨]

التفسير:

ولأرشدناهم ووفقناهم إلى طريق الله القويم.

قوله تعالى: {وَلَهَدَيْنَاهُمْ} [النساء : ٦٨]، أي:" ولأرشدناهم ووفقناهم"[٧].

قال ابن كثير:" أي: في الدنيا والآخرة"[٨].

قال الزمخشري:أي:" وللطفنا بهم ووفقناهم لازدياد الخيرات"[٩].

قوله تعالى:{ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء : ٦٨]، أي:" إلى طريق الله القويم"[١٠].

قال البغوي:" أي: إلى الصراط المستقيم"[١١].

قال البيضاوي:أي:" يصلون بسلوكه جناب القدس ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبي صلى الله عليه وسلم «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» [١٢]"[١].

---

[١] الكشاف:١/٥٣٠.

[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٥٧٠):ص٣/٩٩٦.

[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٧٠):ص٣/٩٩٦.

[٤] تفسير الراغب الأصفهاني:٣/١٣٠٩.

[٥]المسند (٥/٣٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٥) .

[٦] انظر: مفاتيح الغيب:١٠/١٣١.

[٧] التفسير الميسر:٨٩.

[٨] تفسير ابن كثير:٢/٣٥٣.

[٩] الكشاف:١/٥٣٠.

[١٠] التفسير الميسر:٨٩.

[١١] تفسير البغوي:٢/٢٤٦.

[١٢]موضوع، انظر الضعيفة (٤٢٢)، أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٠/ ١٤، ١٥) من حديث أنس وحكم على إسناده بالوضع، وذكره في "الدر المنثور" (٢/ ١٢٣) وعزاه لأبي نعيم في "الحلية" عن سيدنا أنس رضي اللَّه

وفي «الصراط المستقيم»، وجوه من التفسير:
أحدها: أنه «كتاب الله». رواه أبو نواس الانصاري عن رسول الله-ﷺ-[٢].
والثاني: أنه «الإسلام». رواه أبو نواس الانصاري أيضا عن رسول الله-ﷺ-[٣].
والثالث: أن الصراط المستقيم : هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده. قاله أبو العالية[٤].
قال عاصم: "فذكرناه ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية، ونصح"[٥].
والرابع: أن الصراط المستقيم هو: الحق. وهذا قول مجاهد[٦].
قال الراغب:"و«الصراط المستقيم» الذي وعدهم، هو الذي حرض على سؤاله في قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة : ٦]"[٧].
قال ابن عطية:" و «الصراط المستقيم» : الإيمان المؤدي إلى الجنة، وجاء ترتيب هذه الآية كذا، ومعلوم أن الهداية قبل إعطاء الأجر، لأن المقصد إنما هو تعديد ما كان الله ينعم به عليهم دون ترتيب، فالمعنى: ولهديناهم قبل حتى يكونوا ممن يؤتى الأجر"[٨].
الفوائد:
١-أن الهداية تكون من ثمرة تحكيم الشريعة والانقياد التام للرسول -ﷺ-.
٢-أن الهداية من الله تعالى، وَقَالَ اهل السّنة ان الْهِدَايَة من الله تَعَالَى على وَجْهَيْن[٩]:
احدهما: من جِهَة ابانة الْحق وَالدُّعَاء اليه وَنصب الادلة عَلَيْهِ وعَلى هَذَا الْوَجْه يَصح اضافة الْهِدَايَة الى الرُّسُل والى كل دَاع الى دين الله عز وَجل لانهم يرشدون اهل التَّكْلِيف الى الله تَعَالَى وَهَذَا تَأْوِيل قَول الله عز وَجل فِي رَسُوله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم {وَإِنَّك لتهدي إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم} اى تَدْعُو اليه.
وَالْوَجْه الثانى: من هِدَايَة الله سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ خلق الاهتداء فِي قُلُوبهم كَمَا ذكره فِي قَوْله {فَمن يرد الله أَن يهديه يشْرَح صَدره لِلْإِسْلَامِ وَمن يرد أَن يضله يَجْعَل صَدره ضيقا حرجا}، وَهَذَا النَّوْع من الْهِدَايَة لَا يقدر عَلَيْهِ الا الله تَعَالَى.
وَالْهِدَايَة الاولى من الله تَعَالَى شَامِلَة لجَمِيع الْمُكَلّفين وَالْهِدَايَة الثَّانِيَة من خاصته للمهتدين وفى تَحْقِيق ذَلِك نزل قَول الله تَعَالَى {وَالله يَدْعُو إِلَى دَار السَّلَام وَيهْدِي من يَشَاء إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم}

القرآن

{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)} [النساء : ٦٩]
التفسير:

عنه، وَضَعفه، وانظر: الفوائد المجموعة(٤٣) :ص٢٨٦،تخريج أحاديث الإحياء:٨٥، والفتح المبين بشرح الأربعين:٥٧٤، وفيض القدير للمناوي ٤/٥١٠ – ٥١١، وكشف الخفاء للعجلوني ٢/٣٤٧.
[١] تفسير البيضاوي:٢/٨٢.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٥٧١):ص٣/٩٩٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٥٧٢):ص٣/٩٩٦.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٧٣):ص٣/٩٩٧.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٥٧٣):ص٣/٩٩٧.
[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٧٤):ص٣/٩٩٧.
[٧] تفسير الراغب الأصفهاني:٣/١٣٠٩.
[٨] المحرر الوجيز:٢/٧٥.
[٩] انظر: الفرق بين الفرق:٣٢٩.

ومن يستجب لأوامر الله تعالى وهدي رسوله محمد ﷺ فأولئك الذين عَظُمَ شأنهم وقدرهم، فكانوا في صحبة مَن أنعم الله تعالى عليهم بالجنة من الأنبياء والصديقين الذين كمُل تصديقهم بما جاءت به الرسل، اعتقادًا وقولا وعملا والشهداء في سبيل الله وصالح المؤمنين، وحَسُنَ هؤلاء رفقاء في الجنة.

في سبب نزول الآية:

أخرج الطبري من طريق جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير قال : "جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون ، فقال له النبي ﷺ : يا فلان ، مالي أراك محزونًا ؟ قال : يا نبي الله ، شيء فكرت فيه! فقال : ما هو ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ، ننظر في وجهك ونجالسك ، غدًا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك! فلم يردّ النبي ﷺ شيئًا. فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية : {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}. قال : فبعث إليه النبي ﷺ فبشره"[1].

وفي السياق نفسه أخرج الطبري[2] وابن أبي حاتم[3]، والواحدي[4]، عن أبي الضحى ، ، عن مسروق قال : "قال أصحاب رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا ، فإنك لو قَدْ مِتَّ رُفِعت فوقنا فلم نرك! فأنزل الله : {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ}، الآية"[5].

وروي عن قتادة[6]، والربيع[7] نحوذلك.

وقال السدي:" قال ناس من الأنصار : يا رسول الله ، إذا أدخلك الله الجنة فكنت في أعلاها ، ونحن نشتاق إليك ، فكيف نصنع ؟ فأنزل الله : {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ}"[8].

وأخرج ابن ابي حاتم عن عكرمة قال: "أتى فتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله: إن لنا منك نظرة في الدنيا، ويوم القيامة لا نراك، لأنك في الجنة في الدرجات العلى، فأنزل عز وجل:{فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت معي في الجنة إن شاء الله»"[9].

وأخرج الطبراني عن الأسود، عن عائشة-رضي الله عنها- قالت: "جاء رجل إلى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي - ﷺ - حتى نزل جبريل بهذه الآية: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ .....}، الآية"[10].

---

[1] تفسير الطبري(٩٩٢٤):ص٨/٥٣٤.

[2] انظر: تفسير الطبري(٩٩٢٥):ص٨/٥٣٤.

[3] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٧٧):ص٣/٩٩٧.

[4] انظر: اسباب النزول:١٦٥.

[5] تفسير الطبري(٩٩٢٥):ص٨/٥٣٤.

[6] انظر: تفسير الطبري(٩٩٢٦):ص٨/٥٣٤.

[7] انظر: تفسير الطبري(٩٩٢٨):ص٨/٥٣٥.

[8] أخرجه الطبري(٩٩٢٧):ص٨/٥٣٤-٥٣٥.

[9] تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٧٨):ص٣/٩٩٨.

[10] المعجم الأوسط: (٤٨٠):ص١ / ٢٦٩ ، والمعجم الصغير :١ / ٢٦.

قال الهيثمي في الموضع السابق من "المجمع": «رواه الطبراني في "الصغير" و"الأوسط"، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة» .

وقال مقاتل:" نزلت في رجل من الأنصار يسمى عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري، قال للنبي- ﷺ -وهو الذي رأى الأذان في المنام مع عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- : إذا خرجنا من عندك إلى أهالينا اشتقنا إليك فلم ينفعنا شيء حتى نرجع إليك، فذكرت درجاتك في الجنة، فكيف لنا برؤيتك إن دخلنا الجنة «٢» . فأنزل الله- عز وجل- {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ} "[١].

قال ابن عطية:" وحكى مكي عن عبد الله هذا، أنه لما مات النبي عليه السلام، قال: اللهم أعمني حتى لا أرى شيئا بعده، فعمي"[٢].

وقال مقاتل:" فلما توفي النبي- ﷺ- أتاه ابنه وهو في حديقة له فأخبره بموت النبي- ﷺ- فقال عند ذلك: اللهم اعمني فلا أرى شيئا بعد حبيبي أبدا. فعمي مكانه وكان يحب النبي- صلى الله عليه وسلم- حبا شديدا فجعله الله- عز وجل- مع النبي- ﷺ- في الجنة"[٣].

وذكر الثعلبي - بغير إسناد-[٤]، والواحدي[٥]عن الكلبي، قال: "نزلت في ثوبان مولى رسول الله - ﷺ - وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه يعرف في وجهه الحزن، فقال له رسول الله: «يا ثوبان ما غير لونك؟ » فقال: يا رسول الله ما بي من ضر ولا وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك، لأني أعرف أنك ترفع مع النبيين، وأني وإن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذاك أحرى أن لا أرك أبدا، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٦].

قوله تعالى:{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [النساء : ٦٩]، أي:" ومن يستجب لأوامر الله تعالى وهدي رسوله محمد صلى الله عليه"[٧].

قال الواحدي:" أي: في الفرائض، والرسول، أي: في السنن"[٨].

قوله تعالى:{فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } [النساء : ٦٩]، أي:" فأولئك الذين عَظُمَ شأنهم وقدرهم، فكانوا في صحبة مَن أنعم الله تعالى عليهم بالجنة"[١].

ومن طريق الطبراني أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٤ / ٢٣٩ - ٢٤٠) .

والحافظ أبو عبد الله الضياء المقدسي في "صفة الجنة" كما في "تفسير ابن كثير" (١ / ٥٢٣) .

ومن طريق أبي نعيم أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" :١٦٦ .

قال أبو نعيم: "هذا حديث غريب من حديث منصور وإبراهيم، تفرد به فضيل، وعنه العابدي" .

وقال المقدسي: "لا أرى بإسناده بأسا" .

وأخرجه ابن مردويه في "تفسيره" كما في الموضع السابق من "تفسير ابن كثير"، فقال: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا عبد الله بن عمران ... ، فذكره بنحو سياق الطبراني.

[١] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٧.

[٢] المحرر الوجيز:٢/٧٦.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٨.

[٤] انظر: تفسير الثعلبي:٣/٣٤١.

[٥] أسباب النزول:١٦٥.

[٦] أسباب النزول:١٦٥.

[٧] التفسير الميسر:٨٩.

[٨] الوجيز:٢/٧٧.

قال الواحدي:"يعني: المطيعين"[٢].

قال ابن عطية:" وهذه الآية تفسير قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم} [الفاتحة: ٥]، ومعنى- أنهم معهم- أنهم في دار واحدة، ومتنعم واحد، وكل من فيها قد رزق الرضا بحاله، وذهب عنه أن يعتقد أنه مفضول، وإن كنا نحن قد علمنا من الشريعة أن أهل الجنة تختلف مراتبهم على قدر أعمالهم، وعلى قدر فضل الله على من شاء"[٣].

قوله تعالى:{مِنَ النَّبِيِّينَ} [النساء : ٦٩]، أي:" من الأنبياء"[٤].

قال الواحدي:" أي: أنه يستمتع برؤية النبيين، وزيارتهم، والحضور معهم، فلا يتوهمن من أجل أنهم في أعلى عليين أنه لا يراهم"[٥].

قال البغوي:" أي لا تفوتهم رؤية الأنبياء ومجالستهم لا أنهم يرفعون إلى درجة الأنبياء"[٦].

وقال عكرمة: "النبيون هاهنا: محمد ﷺ"[٧].

قوله تعالى:{وَالصِّدِّيقِينَ} [النساء : ٦٩]، أي: " والصديقين الذين كمُل تصديقهم بما جاءت به الرسل، اعتقادًا وقولا وعملا "[٨].

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج، قال: "وقال غير مجاهد، عن أبي ذر، في قوله جل وعز " {مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين}، الصديقين: المؤمنين "[٩].

وقال الكلبي: "الصديقون: أفاضل أصحاب النبي ﷺ"[١٠].

قال الزمخشري:" الصديقون: أفاضل صحابة الأنبياء الذين تقدموا في تصديقهم كأبى بكر الصديق رضى الله عنه وصدقوا في أقولهم وأفعالهم"[١١].

قال البغوي:" أفاضل أصحاب النبي ﷺ، والصديق المبالغ في الصدق"[١٢].

وروي عن النبي عليه السلام:" الصديقون: المتصدقون"[١٣].

وقال مقاتل:" هم أول من صدق بالأنبياء- عليهم السلام- حين عاينوهم"[١٤].

وقال عكرمة: " والصديقون: أبو بكر"[١٥].

---

[١] التفسير الميسر:٨٩.

[٢] الوجيز:٧٧/٢.

[٣] المحرر الوجيز:٧٦/٢.

[٤] التفسير الميسر:٨٩.

[٥] الوجيز:٧٧/٢.

[٦] تفسير البغوي:٢٤٧/٢.

[٧] تفسير البغوي:٢٤٧/٢.

[٨] التفسير الميسر:٨٩.

[٩] تفسير ابن المنذر(١٩٧٦):ص٧٨٢/٢.

[١٠] الوجيز:٧٨/٢.

[١١] الكشاف:٥٣٠/١-٥٣١.

[١٢] تفسير البغوي:٢٤٧/٢.

[١٣] المحرر الوجيز:٧٦/٢.

[١٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٨/١.

[١٥] تفسير البغوي:٢٤٧/٢.

قال الواحدي:" والصديقين: كل من صدق بكل ما أمر الله، لا يدخله شك، وصدق الأنبياء فهو صديق، وهو قول الله تعالى: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} [الحديد: ١٩]"[١].

وفي تسمية الصديق قولان[٢]:

أحدهما : أنه فِعِّيل من الصِدْقِ .

والثاني : أنه فِعّيل من الصَدَقَة .

قوله تعالى:{وَالشُّهَدَاءِ} [النساء : ٦٩] أي: " والشهداء في سبيل الله"[٣].

قال مقاتل:" يعني: القتلى في سبيل الله بالشهادة"[٤].

قال البغوي:" قيل: هم الذين استشهدوا في يوم أحد، وقيل: الذين استشهدوا في سبيل الله"[٥].

وقال عكرمة: " والشهداء عمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم-"[٦].

قال الماوردي:" {الشهداء}، جمع شهيد ، وهو المقتول في سبيل اللَّه تعالى"[٧].

قال ابن عطية:" والشهداء المقتولون في سبيل الله، هم المخصوصون بفضل الميتة، وهم الذين فرق الشرع حكمهم في ترك الغسل والصلاة، لأنهم أكرم من أن يشفع لهم، [و] الشهداء في هذه الآية يعم أنواع الشهداء"[٨].

وفي تسمية الشهيد قولان[٩]:

أحدهما : لقيامه بشهادة الحق ، حتى قتل في سبيل الله .

والثاني : لأنه يشهد كرامة الله تعالى . في الآخرة . ويشهد على العباد بأعمالهم يوم القيامة إذا ختم له بالقتل في سبيل الله .

قوله تعالى:{وَالصَّالِحِينَ} [النساء : ٦٩]، أي: "وصالح المؤمنين"[١٠].

قال مقاتل:" يعني: المؤمنين أهل الجنة"[١١].

قال الواحدي:" هم سائر المسلمين"[١٢].

وقال عكرمة: " {والصالحين}: سائر الصحابة -رضي الله عنهم-"[١٣].

قال الماوردي:"الصالحون، جمع صالح، وفيه قولان :

أحدهما : أنه كل من صلح عمله .

والثاني : هو كل من صلحت سريرته وعلانيته"[١].

---

[١] الوجيز:٧٨/٢.

[٢] انظر: النكت والعيون:٥٠٤/١.

[٣] التفسير الميسر:٨٩.

[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٨/١.

[٥] تفسير البغوي:٢٤٧/٢.

[٦] تفسير البغوي:٢٤٧/٢.

[٧]النكت والعيون:٥٠٤/١.

[٨] المحرر الوجيز:٧٦/٢.

[٩] انظر: النكت والعيون:٥٠٤/١-٥٠٥.

[١٠] التفسير الميسر:٨٩.

[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٨/١.

[١٢] الوجيز:٧٨/٢.

[١٣] تفسير البغوي:٢٤٧/٢.

قوله تعالى:{وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء : ٦٩]، أي:" وحَسُنَ هؤلاء رفقاء في الجنة"[٢].

قال الزجاج:" أي الأنبياء ومن معهم حسنوا رفيقا"[٣].

قال الزمخشري:" فيه معنى التعجب كأنه قيل: وما أحسن أولئك رفيقا! وهذا ترغيب للمؤمنين في الطاعة، حيث وعدوا مرافقة أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجات عنده"[٤].

عن الاثرم، عن أبي عبيدة: " {وحسن أولئك رفيقا} أي رفقاء ، والعرب تلفظ بلفظ الواحد والمعنى يقع على الجميع قال عباس بن مرداس[٥]:

فقلنا أسلموا إنا أخوكم فقد برئت من الإحن الصدور

وقال في القرآن: {يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}[٦]، والمعنى: أطفالا"[٧].

قال الواحدي:" وسمي الصاحب رفيقا لارتفاقك به وبصحبته، ويقال للجماعة في السفر: رفقة لارتفاق بعضهم ببعض"[٨].

وأما «الرفيق»، ففيه قولان[٩]:

أحدهما : أنه مأخوذ من الرفق في العمل .

والثاني : أنه مأخوذ من الرفق في السير .

قرئ: {وحسن}، بسكون السين[١٠].

عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: "كنت أسمع أن النبي ﷺ قال: لا يموت حتى يخير بين الدنيا والآخرة، قالت: وأصابته بحة في مرضه الذي مات فيه، فسمعته يقول: « مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}»، فظننت أنه خير"[١١].

عن ابن وهب، قال مالك:" سمعت ذلك الرجل -يعني عبد الله بن يزيد بن هرمز وهو يصف المدينة وفضلها-: يبعث منها أشراف هذه الأمة يوم القيامة، وحولها الشهداء أهل بدر

---

[١] النكت والعيون:١/٥٠٥.

[٢] التفسير الميسر:٨٩.

[٣] معاني القرآن:٢/٧٣.

[٤] الكشاف:١/٥٣١.

[٥]العباس بن مرداس: ابن أبى عامر السلمى، وأمه الخنساء الشاعرة، وهو مخضرم. أخباره فى الأغانى ١٣/ ٦٢، والإصابة رقم ٤٥١١، والاستيعاب ٣/ ١٠١، والخزانة ١/ ٧٣. والبيت لعباس بن مرداس في ديوانه ص ٥٢، ولسان العرب (أخا) ، والمقتضب ٢/ ١٧٤، ومجاز القرآن ١/ ٧٩، ١٣١، ٢/ ٤٤، ١٩٥، ومجمع البيان ١/ ٣٦٥، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٤/ ٢٨٥، وتذكرة النحاة ص ١٤٤، وجمهرة اللغة ص ١٣٠٧، وخزانة الأدب ٤/ ٤٧٨، والخصائص ٢/ ٤٢٢.

[٦][سورة غافر : ٦٧].

[٧] أخرجه ابن المنذر(١٩٧٧):ص٢/٧٨٣، وانظر: مجاز القرآن:١/١٣١.

[٨] الوجيز:٢/٧٨.

[٩] انظر: النكت والعيون:١/٥٠٥.

[١٠] انظر: الكشاف:١/٥٣١.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٥٧٦):ص٣/٩٩٧.

وأحد والخندق، ثم تلا مالك هذه الآية:{ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}، والآية التي بعدها"[1].

الفوائد:

١-أنه من ثمرة إطاعة الله والرسول مرافقة النبيين والصديقين، إذ سمّى الله تبارك وتعالى التحاكم إلى الرسول «طاعة»، وجعل عاقبتهما معية كريمة ومُقاماً كريماً في صحبة كريمة في جوار الله الكريم وحق لمن أقام هذا التحاكم على ما يريد الله تعالى، أن يرقى صُعُداً مع هذه الصحبة المباركة في الفردوس الأعلى، لأن النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين هم خير من أطاع الله تعالى ظاهراً وباطناً وأقام شريعته ووحّده، فمن حذا حذوهم حُشِر معهم وصحبهم في الفردوس الأعلى من الجنة وهو طريق مفتوح لكلّ من اقتدى بهم ظاهراً وباطناً[2].

٢- أن السلامة تكون في الإلتزام بسنة النبي -ﷺ-وتقبل وصيته وترك الفضول، ومن ثم َأَبْشِرُوا بِالْفَضْلِ والكرامة وَالْخُلُود فِي دَار المقامة مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصالحين.

٣-أن المراد بالمعية في الآية، هو المعية من جهة رفع الحجاب، وليس المراد المعية من حيث المقام.

٤- أن الآية دليل على أن طاعة الرسول ﷺ تثمر الهداية، وثبات القلب عليها، ومخالفته تثمر زيغ القلب، واضطرابه، وعدم ثباته.

٥-إن الحقوق ثلاثة:

- حق لله تعالى لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.
- وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة.
- وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما، كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح : ٩].

٦- دلت الآية على أن من جاء بالإيمان الكامل، فإن الله يتولاه بأن يخرجه من الظلمات بصرفها عنه، أو صرفه عنها، ويوفقه للنور ويثبته عليه.

٧- ومن **الفوائد:** أن الاستقامة حظ الرب، وطلب الكرامة حظ النفس.

القرآن

{ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)} [النساء : ٧٠]

التفسير:

ذلك العطاء الجزيل من الله وحده. وكفى بالله عليما يعلم أحوال عباده، ومَن يَستحقُّ منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحة.

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ} [النساء : ٧٠]، أي:" ذلك العطاء الجزيل من الله وحده"[3].

قال مقاتل:" يعني: هذا الثواب هو الفضل من الله"[4].

قال الواحدي:" تفضل به على من أطاعه"[5].

قال ابن كثير:" أي : من عند الله برحمته ، هو الذي أهلهم لذلك ، لا بأعمالهم"[6].

قال الزمخشري:أي:" أن ما أعطى المطيعون من الأجر العظيم ومرافقة المنعم عليهم، من الله، لأنه تفضل به عليهم تبعا لثوابهم"[1].

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٥٧٩):ص٣/٩٩٨.

[2] انظر: هجر القرآن العظيم صـــ ٦٣٦إلى ٦٣٩.

[3] التفسير الميسر:٨٩.

[4] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٨.

[5] الوجيز:٢/٧٨.

[6] تفسير ابن كثير:٢/٣٥٧.

قال الراغب:" بيّن الله تعالى أن ذلك الفضل الذي ذكره بقوله: {أنعم الله عليهم}، هو من الله علي الإطلاق، فنسب إلى نفسه تفخيما لأمره"[٢].
قال الطبري:" فإن قال قائل : أو ليس بالطاعة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من فضله ؟ قيل له : إنهم لم يطيعوه في الدنيا إلا بفضله الذي تفضل به عليهم ، فهداهم به لطاعته ، فكل ذلك فضل منه تعالى ذكره"[٣].
قوله تعالى:{وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا} [النساء : ٧٠]، " أي: وكفى به تعالى مجازياً لمن أطاع عالماً بمن يستحق الفضل والإحسان"[٤].
قال سعيد بن جبير:" {عليما}، يعني: عالما بها"[٥].
قال الزجاج:" معناه: كفى الله عليما، والباء مؤكدة. المعنى اكتفوا بالله عليما"[٦].
قال البغوي:" أي: بثواب الآخرة، وقيل: بمن أطاع رسول الله وأحبه، وفيه بيان أنهم لن ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم، وإنما نالوها بفضل الله عز وجل"[٧].
قال ابن كثير:"أي : هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق"[٨].
قال الواحدي:" أي: أنه لا يضيع عنده عمل عامل لأنه لا يخفى عليه شيء"[٩].
قال الزمخشري:أي:" بجزاء من أطاعه أو أراد أن فضل المنعم عليهم ومزيتهم من الله، لأنهم اكتسبوه بتمكينه وتوفيقه وكفى بالله عليما بعباده فهو يوفقهم على حسب أحوالهم"[١٠].
الفوائد:
١-أن الله تعالى يهدي من يشاء بفضله وحكمته.
٢- من أسمائه تعالى:«العليم»، والْعِلْمُ: صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ، فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[١١].
قال أبو سليمان:" العليم :هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، وجاء على بناء: فعيل، للمبالغة في وصفه بكمال العلم"[١٢].
جاء في الحديث:" اللهم إني أستخيرك بعلمك"[١٣].
وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقول الخضِر لموسى عليهما السلام: "إنك على علمٍ من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علمٍ من علم الله علمنيه لا تعلمه"[١٤].

---

[١] الكشاف:١/٥٣١-٥٣٢.
[٢] تفسير الراغب الاصفهاني:٣/١٣١٥.
[٣] تفسير الطبري:٨/٥٣٥.
[٤] صفوة التفاسير:٢٦٣.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٨٠):ص٣/٩٩٨.
[٦] معاني القرآن:٢/٧٤.
[٧] تفسير البغوي:٢/٢٤٨.
[٨] تفسير ابن كثير:٢/٣٥٧.
[٩] الوجيز:٢/٧٨.
[١٠] الكشاف:١/٥٣٢.
[١١] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١/١٨٨.
[١٢] الاسماء والصفات للبيهقي:١/١٢١.
[١٣]رواه البخاري (٦٣٨٢).
[١٤] رواه البخاري(١٢٢)، ومسلم(٤٣٨٥).

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١)} [النساء : ٧١]

التفسير:

يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم بالاستعداد لعدوكم، فاخرجوا لملاقاته جماعة بعد جماعة أو مجتمعين.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } [النساء : ٧١]، " أي: يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله"[١].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[٢].

وعن خيثمة قال: "ما تقرأون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين"[٣].

كما أن تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"[٤].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٢].

قوله تعالى:{خُذُوا حِذْرَكُمْ} [النساء : ٧١]، أي:" احترزوا من عدوكم واستعدوا له"[٥].

قال مقاتل:" يعني: عدتكم من السلاح"[٦].

قال الزمخشري:أي:" احذروا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم"[٧].

قال السمعاني:" أي: عدتكم، والحذر: ما يتقى به من العدو، نحو العدة والسلاح"[٨].

قال الزجاج:" أمر الله أن لا يلقي المؤمنون بأيديهم إلى التهلكة وأن يحذروا عدوهم وأن يجاهدوا في الله حق الجهاد، ليبلو الله الأخيار وضمن لهم مع ذلك النصر، لأنه لو تولى الله تعالى قتل أعدائه بغير سبب للآدميين لم يكونوا مثابين، ولكنه أمر أن يؤخذ الحذر"[٩].

قال ابن كثير:" يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد وتكثير العدد بالنفير في سبيله"[١٠].

قوله تعالى:{فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا } [النساء : ٧١]، " أي: اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين، سريةً بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف"[١١].

---

[١] تفسير المراغي: ٤٣/١١، وانظر: صفوة التفاسير: ٤٨٧/٢.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١، و(٥٠٢٥):ص٩٠٢/٣

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٢٦):ص٩٠٢/٣.

[٤] انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١، و(٥٠٢٧):ص٩٠٢/٣

[٥] صفوة التفاسير:٢٦٥.

[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٨/١.

[٧] الكشاف:٥٣٢/١.

[٨] تفسير السمعاني:٤٤٦/١.

[٩] معاني القرآن:٧٤/٢.

[١٠] تفسير ابن كثير:٣٥٧/٢.

[١١] صفوة التفاسير:٢٦٥.

قال ابن عباس:" ، يقول : عصبًا ، يعني: سَرايَا متفرقين، {أو انفروا جميعًا}، يعني : كلكم"[١].

عن مجاهد في قول الله : " {فانفروا ثبات}، قال : فرقًا ، قليلا قليلا"[٢].

عن السدي : " {فانفروا ثبات}، فهي العصبة ، وهي الثبة، {أو انفروا جميعًا}، مع النبي ﷺ"[٣].

قال قتادة: " الثبات: الفرق"[٤].

قال الضحاك:" رفانفروا ثبات}، يعني : عصبًا متفرّقين"[٥].

قال مقاتل:" عصبا سرايا جماعة إلى عدوكم أو انفروا إليهم جميعا مع النبي- صلى الله عليه وسلم- إذا نفر"[٦].

عن مسلم بن حيان الهذلي: {أو انفروا جميعا}، قال: مرة واحدة"[٧].

قال الطبري:أي:" فانفروا إلى عدوكم جماعة بعد جماعة متسلحين، أو انفروا جميعًا مع نبيكم ﷺ لقتالهم"[٨].

قال الفراء:" يقول: عصبا ، يقول: إذا دعيتم إلى السرايا، أو دعيتم لتنفروا جميعا"[٩].

قال الزجاج:أي:" انفروا جماعات متفرقة أو انفروا بعضكم إلى بعض"[١٠].

قال الواحدي:" أيْ: فانهضوا إلى لقاء العدوِّ {ثباتٍ} جماعاتٍ مُتفرِّقين إذا لم يكن معكم الرَّسول، {أو انفروا جميعاً} إذا خرج الرَّسول إلى الجهاد"[١١].

قال الزمخشري:أي:" فانفروا إذا نفرتم إلى العدو. إما ثبات جماعات متفرقة سرية بعد سرية، وإما جميعا أى مجتمعين كوكبة واحدة، ولا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة"[١٢].

و«الثبات»: الجماعات المتفرقة، واحدها ثبة. قال زهير ابن أبي سلمى[١٣]:

وَقَدْ أَغْدُوا عَلَى ثُبَةٍ كِرَامٍ   نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاء

وإنما اشتقت ثبة الجماعة من ثبيت على الرجل إذا أثنيت عليه في حياته، وتأويله أنك جمعت ذكر محاسنه[١٤].

قال ابن كثير:" { ثُبَاتٍ } أي : جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة ، وسرية بعد سرية"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(٩٩٢٩):ص٨/٥٣٧.

[٢] أخرجه الطبري(٩٩٣٠):ص٨/٥٣٧.

[٣] أخرجه الطبري(٩٩٣٣):ص٨/٥٣٧.

[٤] أخرجه الطبري(٩٩٣١):ص٨/٥٣٧.

[٥] أخرجه الطبري(٩٩٣٤):ص٨/٥٣٧.

[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٨.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٥٨٥):ص٣/٩٩٩.

[٨] تفسير الطبري:٨/٥٣٦-٥٣٧.

[٩] معاني القرآن:١/٣٧٥.

[١٠] معاني القرآن:٢/٧٥.

[١١] الوجيز:٢٧٤.

[١٢] الكشاف:١/٥٣٢.

[١٣]ديوانه: ٧٢، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ١٣٢، واللساق (ثبا) و (نشا) ، وغيرها.

[١٤] انظر: معاني القرآن للزجاج:٢/٧٥.

وقرئ: {فانفروا}، بضم الفاء"[2].

قال السمعاني: وهذه الآية:" دليل على أن الجهاد فرض على الكفاية"[3].

وقد ذهب قوم: إلى أن هذه الآية منسوخة[4]، استندوا في ذلم ما روي عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما:" {خذوا حذركم فانفروا ثبات}[5]، وقال: {انفروا خفافا وثقالا} [6]، وقال: {إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما} [7]، ثم نسخ هذه الآيات، فقال: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة}[8] الآية"[9].

قال ابن الجوزي:" وهذه الرواية فيها مغمز[10]، وهذا المذهب لا يعمل عليه. وأحوال المجاهدين تختلف، والأمر في ذلك على حسب ما يراه الإمام وليس في هذه الآيات شيء منسوخ بل كلها محكمات. وقد ذهب إلى ما قد ذهبت إليه، أبو سليمان الدمشقي"[11].

الفوائد:

١- أن التوكل على الله تعالى لا ينافي اتخاذ الأسباب بل إن التوكل لا يتم إلا إذا اتخذ الإنسان لكل عملٍ يريده الأسباب التي توصله إلى تحقيقه فالله سبحانه وتعالى قد ربط المسببات بأسبابها. بل إن الإنسان ينساق إلى الأخذ بالأسباب بمقتضى فطرته وبمقتضى التكليف الشرعي فإذا قال الإنسان أنا متوكل على الله في تحصيل رزقي ولم يتخذ الأسباب التي توصله إلى ذلك وتحقق له مطلبه فهو مخالف للفطرة ومخالف لشرع الله الذي جاء الأمر فيه باتخاذ الأسباب.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}، وقال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ}[الأنفال: ٦٠]، وقال سبحانه وتعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}[البقرة:١٩٧].

وغيرها من الآيات كثير في الأمر بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله في إتمام الأمور التي يسعى العبد في تحصيلها لأن التوكل من أعظم الأسباب وأنفعها في دفع المضار وجلب المنافع، فلا بد من الأخذ بالأسباب التي توصل الإنسان إلى تحقيق حاجاته والحصول على مطالبه، ومن قال بنفي الأسباب فتوكله مشوب ومدخول[12].

٢-استدل أهل القدر بهذه الآية بقوله:{خذوا حذركمْ}، قالوا: لولا أن الحذر يمنع عنهم مكايد الأعداء ما كان لأمره بالحذر إياهم معنى.

---

[1] تفسير ابن كثير:٣٥٧/٢.

[2] الكشاف:٥٣٢/١.

[3] تفسير السمعاني:٤٤٦/١.

[4]وروى قول النسخ البيهقي في سننه٩/ ٤٧، من طريق عطاء عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر المنثور٢/ ١٨٣ وزاد نسبته إلى أبي داود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم..

(٥)[سورة النساء:٧١]

[6] [سورة التوبة:٤١].

[7] [سورة التوبة:٣٩].

[8] [سورة التوبة:١٢٢].

[9] سنن البيهقي:٤٧/٩.

[10]المغمز: عيب يقال، ليس فيه غميزة ولا مغمز، أي: عيب انظر: المصباح المنير ٢/ ١٠٧.

[11] نواسخ القرآن:٣٧٧/٢-٣٧٨. وابن الجوزي ذكر هذا القول في زاد المسير ٢/ ١٣٠ عن أبي سليمان الدمشقي. ويجدر القول، بأن لم يذكر النحاس ومكي بن أبي طالب هذه الآية من المنسوخة أصلا.

[12] انظر: مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر بن علي:٢٨٧.

فيقال لهم: الائتمار لأمر الله والانتهاء عن نهيه واجب عليهم لأنهم به يسلمون من معصية الله عز وجل لأن المعصية تزل، فائتمروا وانتهوا عما نهوا عنه.

وليس في هذه الآية دليل على أن حذرهم ينفع من القدر شيئا، وهذا كقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- : «اعقلها وتوكل»[1]، والمراد به طمأنينة النفس لا أن ذلك يدفع القدر، كذلك في أخذ الحذر فهو الدليل على ذلك، أن الله تعالى أثنى على أصحاب رسول الله ﷺ بقوله حاكيا عنهم: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة : ٥١]، وأمر بذلك رسوله ﷺ كان يصيبهم غير ما قضى عليهم ما كان هذا مني[2].

القرآن

{وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)} [النساء : ٧٢]

التفسير:

وإنَّ منكم لنفرًا يتأخر عن الخروج لملاقاة الأعداء متثاقلا ويثبط غيره عن عمد وإصرار، فإن قُدِّر عليكم وأُصِبتم بقتل وهزيمة، قال مستبشرًا: قد حفظني الله، حين لم أكن حاضرًا مع أولئك الذين وقع لهم ما أكرهه لنفسي، وسرَّه تخلفه عنكم.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: إنها نزلت في المنافقين وإنما جمع منهم في الخطاب من جهة الجنس والسبب ومن جهة الإيمان[3].

أخرج ابن ابي حاتم عن بكير بن معروف عن مقاتل: "قوله: { قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا}، قال عدو الله عبد الله بن أبي: {قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا}، فيصيبني مثل الذي أصابهم من البلاء والشدة"[4].

قال مقاتل بن سليمان:" نزلت في عبد الله بن أبي بن ملك بن أبي عوف بن الخزرج رأس المنافقين"[5].

واخرج الطبري عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله : " {وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة}، إلى قوله : {فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا}، ما بين ذلك في المنافقين"[6].

والثاني: وقال البعض: أنها نزلت في المؤمنين، لأن الله خاطبهم بقوله: {وإن منكم}، وقد فرق الله بين المؤمنين والمنافقين بقوله: {مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ} [المجادلة : ١٤][7].

قال الماتريدي:" قوله: {منكم} يحتمل وجوها:

يحتمل: في الظاهر منكم.

ويحتمل: في الحكم منكم.

ويحتمل: في الدعوى؛ لأنهم كانوا يدعون أنهم منا، ويظهرون الموافقة للمؤمنين، وإن كانوا -في الحقيقة- لم يكونوا"[1].

---

[1] سنن الترمذي(٢٥٢٢)، كتاب صفة القيامة باب: اعقلها وتوكل.

[2] انظر: تفسير الثعلبي:٣٤٣/٣.

[3] انظر: تفسير الثعلبي:٣٤٣/٣.

[4] تفسير ابن ابي حاتم(٥٥٩١):ص٩٩٩/٣.

[5] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٨/١.

[6] تفسير الطبري(٩٩٣٥):ص٥٣٨/٨.

[7] انظر: تفسير الثعلبي:٣٤٣/٣، وتفسير القرطبي:٢٧٦/٥.

والراجح-والله أعلم- انها نزلت في المنافقين، وهذا قول اكثر المفسرين[٢].

قال القرطبي:" وقيل: المراد بقوله {وإن منكم لمن ليبطئن} بعض المؤمنين، لأن الله خاطبهم بقوله: {وإن منكم}، وقد فرق الله تعالى بين المؤمنين والمنافقين بقوله : {وَمَا هُمْ مِنْكُمْ} [التوبة : ٥٦]، وهذا يأباه مساق الكلام وظاهره، وإنما جمع بينهم في الخطاب من جهة الجنس والنسب كما بينا لا من جهة الإيمان. هذا قول الجمهور وهو الصحيح"[٣].

قوله تعالى:{وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ} [النساء : ٧٢]، أي:" وإنَّ منكم لنفرًا يتأخر عن الخروج لملاقاة الأعداء متثاقلا ويثبط غيره عن عمد وإصرار"[٤].

قال مقاتل بن جيان:" يقول: وإن منكم لمن ليتخلفن عن الجهاد"[٥].

قال مقاتل بن سليمان:" يعني: ليتخلفن النفر"[٦].

قال الزجاج:" أي: ممن أظهر الإيمان لمن يبطى عن القتال"[٧].

عن مجاهد قوله: {وإن منكم لمن ليبطئن}، قال: في المنافق"[٨].

قال السمعاني:" أي: ليتأخرن، والبطء: التأخير. وقيل: هذا في عبد الله بن أبي بن سلول"[٩].

قال الواحدي:" أيْ: ليتخلفنَّ ويتثاقلنَّ عن الجهاد وهم المنافقون وجعلهم من المؤمنين من حيث إنَّهم أظهروا كلمة الإسلام فدخلوا تحت حكمهم في الظَّاهر"[١٠].

قال السمرقندي:" أي: وإن منكم من يتثاقل ويتخلف عن الجهاد، يعني المنافقين، فهذا الخطاب للمؤمنين، فكأنه يقول: إن فيكم منافقين يتثاقلون ويتخلفون عن الجهاد"[١١].

قال الثعلبي:" أي ليثاقلن ويتخلفن عن الجهاد والغزو. وقيل: معناه ليصدقن غيره، وهو عبد الله بن أبي المنافق"[١٢].

قال الزمخشري:" والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ والمبطئون منهم المنافقون لأنهم كانوا يغزون معهم نفاقا. ومعنى {ليبطئن}، ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد وبطأ. بمعنى: أبطأ كعتم بمعنى: أعتم، إذا أبطأ، ويجوز أن يكون منقولا من بطؤ، نحو؟ ثقل من ثقل، فيراد ليبطئن غيره وليثبطنه عن الغزو، وكان هذا ديدن المنافق عبد الله ابن أبى، وهو الذي ثبط الناس يوم أحد"[١٣].

---

[١] تفسير الماتريدي:٣/٢٥٢.

[٢] انظر: تفسير الثعلبي:٣/٣٤٣.

[٣] تفسير القرطبي:٥/٢٧٦.

[٤] التفسير الميسر:٨٩.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٨٨):ص٣/٩٩٩.

[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٨.

[٧] معاني القرآن:٢/٧٥.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٨٧):ص٣/٩٩٩.

[٩] تفسير السمعاني:١/٤٤٧.

[١٠] الوجيز:٢٧٤.

[١١] تفسير السمرقندي:١/٣١٦.

[١٢] تفسير الثعلبي:٣/٣٤٣.

[١٣] الكشاف:١/٥٣٢-٥٣٣

قال الراغب:" البطء والريث والأناة والثبات واللبث تتقارب، ولكن الثبات يقتضي الزوال، ويقالان متعديين عن بطء تقول يبطئن أي يثبط غيره. وقيل: يكثر هو التثبيط في نفسه. بيّن تعالى أن قوما بعد فيكم ومنكم أي يتأخرون عن الحرب أو يؤخرون غيرهم"[1].

قال الماتريدي :"قيل: إن المنافقين كانوا يبطئون الناس عن الجهاد ويتخلفون؛ كقوله - تعالى -: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب : ١٨]، كانوا يسرون ذلك ويضمرونه، فأطلع الله - عز وجل - نبيه - صلى الله عليه وسلم - على ذلك؛ ليعلموا أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى، وفيه دلالة إثبات رسالة محمد - ﷺ - "[2].

وقرئ :{ليبطئن}، بالتخفيف[3].

قوله تعالى:{فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ} [النساء : ٧٢]، أي:" فإن قُدِّر عليكم وأُصِبتم بقتل وهزيمة"[4].

عن مقاتل قوله:"{فإن أصابتكم مصيبة}، من العدو وجهد من العيش"[5].

قال مقاتل بن سليمان:" يعني: بلاء من العدو أو شدة من العيش"[6].

قوله تعالى:{قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا} [النساء : ٧٢]، "أي: قال ذلك المنافق مستبشرا: قد تفضَّل الله عليَّ إذ لم أشهد الحرب معهم فأُقتل ضمن من قتلوا"[7].

قال قتادة:" هذا قول مكذب"[8].

قال مقاتل:" قال المنافق: {قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا}، يعني: شاهدا فيصيبني من البلاء ما أصابهم"[9].

قال الزجاج:" أي: لم أشركهم في مصيبتهم"[10].

قال الثعلبي:" أي: حاضرا في تلك الغزاة فيصيبني مثل ما أصابهم"[11].

قال القرطبي:" {قال قد أنعم الله علي}، يعني: بالقعود وهذا لا يصدر إلا من منافق، لا سيما في ذلك الزمان الكريم، بعيد أن يقول مؤمن"[12].

الفوائد:

١-أن الله تعالى امر عباده بالتعجيل والمسارعة في الخيرات.
٢-فضيلة الجهاد في سبيل الله.
٣-إن من أبطأ يبطئ غيره بإبطائه إذ يكون قدوة في ذلك.

القرآن

---

[1] تفسير الراغب الاصفهاني:١٣١٩/٢.
[2] تفسير الماتريدي:٢٥٢/٣.
[3] انظر: الكشاف:٥٣٢/١.
[4] التفسير الميسر:٨٩.
[5] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٨٩):ص٩٩٩/٣.
[6] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٨/١.
[7] صفوة التفاسير:٣٦٥، والتفسير الميسر:٨٩.
[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٩٠):ص٩٩٩/٣.
[9] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٨/١.
[10] معاني القرآن:٧٦/٢.
[11] تفسير الثعلبي:٣٤٣/٣.
[12] تفسير القرطبي:٢٧٦/٥.

{وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)} [النساء : ٧٣]

التفسير:

ولئن نالكم فضل من الله وغنيمة، ليقولن -حاسدًا متحسرًا، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة في الظاهر-: يا ليتني كنت معهم فأظفر بما ظَفِروا به من النجاة والنصرة والغنيمة.

قوله تعالى:{وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ} [النساء : ٧٣]، أي:" ولئن نالكم فضل من الله وغنيمة"[١].

قال مقاتل بن حيان:" يعني: فتحا وغنيمة وسعة في الرزق"[٢].

قال مقاتل بن سليمان:" يعني: رزق من الله- عز وجل- يعني: الغنيمة"[٣].

قال الزجاج:" أي: ظفرتم وغنمتم"[٤].

قال ابن كثير:" أي : نصر وظفر وغنيمة"[٥].

قال الراغب:" أي: غنيمة وظفر يتحسرون على تأخرهم عنكم"[٦].

ويحسدونكم على الفضل الذي أوتيتم

قوله تعالى:{لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا} [النساء : ٧٣]، " أي: ليقولنَّ هذا المنافق قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة يا ليتني كنت معهم في الغزو لأنال حظاً وافراً من الغنيمة"[٧].

قال مقاتل بن حيان:" ليقولن المنافق وهو نادم في التخلف"[٨]. وفي رواية اخرى:" كأن كأن المنافق عبد الله بن أبي لم تكن بينكم وبينه مودة"[٩].

وعن مقاتل بن حيان ايضا: "{كأن لم تكن بينكم وبينه مودة}، يقول: كأنه ليس من أهل دينكم في المودة، فهذا من التقديم"[١٠].

قال مقاتل بن سليمان:" ليقولن ندامة في التخلف -كأن لم تكن بينكم وبينه مودة في الدين والولاية-: {يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما}، فألحق من الغنيمة نصيبا وافرا"[١١]. وفي رواية اخرى:" المنافق نادم في التخلف، يتمنى {يا ليتني كنت معهم}"[١٢].

وعن مقاتل بن حيان ايضا: قوله: "{فأفوز}، يعني: أنجو بالغنيمة"[١٣]. قوله"{فوزا}: آخذ نصيبا"[١٤].

---

[١] التفسير الميسر:٣٦٥/١.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٩٢):ص١٠٠٠/٣.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٨/١.

[٤] معاني القرآن:٧٦/٢.

[٥] تفسير ابن كثير:٣٥٨/٢.

[٦] تفسير الراغب الأصفهاني:١٣٢٠/٣.

[٧] صفوة التفاسير:٢٦٥.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٩٣):ص١٠٠٠/٣.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٩٤):ص١٠٠٠/٣.

[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٩٥):ص١٠٠٠/٣.

[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٨/١-٣٨٩.

[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٩٧):ص١٠٠٠/٣.

[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٩٨):ص١٠٠٠/٣.

[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٩٩):ص١٠٠٠/٣.

عن قتادة :قوله: "{يا ليتني كنت معهم}، قال: قول حاسد"[١].

قال ابن كثير:أي: يقول -" وكأنه ليس من أهل دينكم-: { يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا }، أي : بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده"[٢].

وفي قوله تعالى: {كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ} [النساء : ٧٣]، وجهان[٣]:

أحدهما: أن ذلك اعتراض متعلق بالجملة الأولى، والمعنى: وتقديره: «يقولون: قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا، كأن لم تكن بينكم وبينهم مودة»، فأخر ذلك.

قال الراغب:" وذلك مستقبح في العربية، فإنه لا يفصل بين بعض الجملة التي دخل في إثباتها، وتقديره: يقول: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما كأن لم تكن، أي: قولهم ذلك قول من ليس بينكم وبينهم مواصلة دينية، وذلك تنبيه على ضعف عقيدتهم، وسوء نيتهم"[٤].

قال الزجاج:"ومعنى «المودة» ههنا، أي: كأنه لم يعاقدكم على الإيمان أي كأنه لم يظهر لكم المودة"[٥].

والثاني: أن يكون حكاية عنهم، أي ليقولن لمن يثبطكم: «كأن لم تكن بينكم وبين محمد مودة، حيث لم يستعينوا بكم»، ثم يقولون: «{يا ليتني كنت معهم}»، فيكون القول الأول منهم إثارة للشر. والقول الثاني منهم إظهارا للحسد.

قال الواحدي:" قوله: {كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ} متصلٌ في المعنى بقوله: {قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ} {كأن لم تكن بينكم وبينه مودَّة} أَيْ: كأنْ لم يعاقدكم على الإسلام ويعاضدكم على قتال عدوِّكم ولم يكن بينكم وبينه مودة في الظَّاهر"[٦].

ويقرأ في الشواذ:{ليقولن}، برفع اللام، والمعنى واحد[٧].

الفوائد:

١- أن كل من كان بينه وبين آخر مودة إذا أصابته نكبة يحزن عليه ويتألم، فأخبر الله - عز وجل - أن هؤلاء المنافقين إذا أصابت المؤمنين نكبة يسرون بذلك ولا يحزنون، كأن لم يكن بينهم مودة ولا صحبة[٨].

٢-في الآية تنبيه أن عامة الناس لا يعدون إلا أعراض الدنيا، فيفرحون بما ينالهم منها، ولا من المحن إلا مصائبها، فيتألمون بما يصيبهم منها، وذلك قوله: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} [الفجر : ١٥].

٢- إن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة. وأيضا فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين:

- صادقون في إيمانهم أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد.
- وضعفاء دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد[٩].

القرآن

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٩٦):ص٣/١٠٠٠.

[٢] تفسير ابن كثير:٢/٣٥٨.

[٣] انظر: معاني القرآن للزجاج:٢/٧٦، وتفسير الراغب الاصفهاني:٣/١٣٢٠-١٣٢١.

[٤]تفسير الراغب الاصفهاني:٣/١٣٢٠-١٣٢١.

[٥] معاني القرآن:٢/٧٦.

[٦] الوجيز:٢٧٤.

[٧] انظر: تفسير السمعاني:١/٤٤٧.

[٨] انظر: تفسير الماتريدي:٣/٢٥٢.

[٩] انظر: تفسير السعدي:١٨٦.

{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)} [النساء : ٧٤]

التفسير:

فليجاهد في سبيل نصرة دين الله، وإعلاء كلمته، الذين يبيعون الحياة الدنيا بالدار الآخرة وثوابها. ومن يجاهد في سبيل الله مخلصًا، فيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ، فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا.

في سبب نزول الآية ثلاثة اقوال:

أحدها: أنها نزلت في المؤمنين المخلصين، ومعنى {يشرون}، أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ويختارون الآخرة [١].

قال مقاتل:" لقولهم للنبي- ﷺ-: «إن نقاتل فنقتل ولا نقتل؟»، فنزلت هذه الآية، فأشركهم جميعا في الأجر"[٢].

قال ابن حجر:" قال بعضهم: معناه نزلت هذه الآية في المؤمنين المخلصين"[٣].

والثاني: وقيل انها "نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن أحد"[٤].

قال البغوي:" قيل: نزلت في المنافقين، ومعنى {يشرون}، أي: يشترون، يعني الذين يختارون الدنيا على الآخرة، ومعناه: آمنوا ثم قاتلوا"[٥].

والثالث: وقيل: "نزلت في المؤمنين المتخلفين، و{يشرون}، بمعنى يبيعون ويؤثرون الآجلة على العاجلة، ويستبدلونها بها أمر الله تعالى بالجهاد من تخلف من ضعفة المؤمنين"[٦].

قوله تعالى:{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ} [النساء : ٧٤]، أي:" فليجاهد في سبيل نصرة دين الله، وإعلاء كلمته، الذين يبيعون الحياة الدنيا بالدار الآخرة وثوابها"[٧].

قال الطبري:أي: فليجاهد "في دين الله والدعاء إليه، والدخول فيما أمر به أهل الكفر به، الذين يبيعون حياتهم الدنيا بثواب الآخرة وما وعد الله أهل طاعته فيها. وبيعُهم إياها بها : إنفاقهم أموالهم في طلب رضى الله ، لجهاد من أمر بجهاده من أعدائه وأعداء دينه ، وبَذْلهم مُهَجهم له في ذلك"[٨].

عن السدي :"{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ}، يقول : يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة"[٩].

قال ابن زيد : "{يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ}، فـ«يشري» : يبيع ، و«يشري»: يأخذ وإن الحمقى باعوا الآخرة بالدنيا"[١٠].

قال الماوردي:قوله:{ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ}" يعني: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ، فعبر عن البيع بالشراء"[١].

---

[١] انظر: تفسير البغوي:١/٦٦٢.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٩.

[٣] العجاب:٢/٩١٦.

[٤] البحر الميط:٣/٧١٠، وانظر: تفسير البغوي:١/٦٦٢.

[٥]تفسير البغوي:١/٦٦٢.

[٦] البحر الميط:٣/٧١٠.

[٧] التفسير الميسر:٨٩.

[٨] تفسير الطبري:٨/٥٤١.

[٩] أخرجه الطبري(٩٩٤٢):ص٨/٥٤١.

[١٠] أخرجه الطبري(٩٩٤٣):ص٨/٥٤١.

قال الواحدي:" أَيْ: يختارون الجنَّة على البقاء في الدُّنيا"[٢].

قال الزجاج:{ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ}" أي: يبيعون، يقال شريت بمعنى بعت، وشريت بمعنى اشتريت، قال يزيد بن مفرغ[٣]:

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي   مِنْ قَبْلِ بُرْدٍ كنْتُ هَامَهْ

برد غلامه، وشريته بعته"[٤].

قال الماتريدي:" كأنه - والله أعلم - نهى المنافقين بالخروج إلى الغزو كقوله - تعالى -: (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا)، وأمر المؤمنين أن يخرجوا لذلك؛ لأنه قال الله - تعالى -: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ} [النساء : ٧٤]، والمؤمنون هم الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة"[٥].

قال النسفي:" والمراد المؤمنون الذين يستحبون الحياة الآجلة على العاجلة ويستبدلونها بها أي إن صد الذين مرضت قلوبهم وضعفت نياتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون أو يشترون والمراد المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة وعظوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله ويجاهدوا في سبيل الله حق جهاده"[٦].

قرأ الجمهور: {فليقاتل}، بسكون لام الأمر. وقرأت فرقة: بكسرها على الأصل[٧]..

قوله تعالى:{وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء : ٧٤]، " أي: من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله"[٨].

قال سعيد بن جبير:"يعني: ومن يقاتل المشركين"[٩].

وفي قوله تعالى: {فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء : ٧٤]، وجهان [١٠]:

أحدهما: في إظهار دين الله.

والثاني: في طاعة الله - تعالى - ونصر أوليائه.

قوله تعالى:{ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ} [النساء : ٧٤]، " أي: فيُستشهد أو يظفر على الأعداء"[١١].

قال سعيد بن جبير:"{فيقتل}، يعني: يقتله العدو"[١٢]. "{أو يغلب}، يعني: يغلب العدو من المشركين"[١].

---

[١] النكت والعيون:٥٠٦/١.

[٢] الوجيز:٢٧٤.

[٣]طبقات فحول الشعراء: ٥٥٥ من قصيدة له، في هجاء عباد بن زياد، حين باع ما له في دين كان عليه، وقضى الغرماء، وكان فيما باع غلام لابن مفرغ، يقال له"برد"، وجارية يقال لها"أراكة". وقوله: "كنت هامة" أي هالكا. يقال: فلان هامة اليوم أو غد، أي قريب هلاكه، فإذا هو"هامة"، وذلك زعم أبطله الله بالإسلام كان في الجاهلية: أن عظم الميت أو روحه تصير هامة (وهو طير كالبومة) فتطير. ورواية غيره: "من بعد برد"..

[٤] .

[٥] تفسير الماتريدي:٢٥٥/٣.

[٦] تفسير النسفي:٣٧٣/١.

[٧] انظر: البحر الميط:٧١٠/٣.

[٨] صفوة التفاسير:٢٦٦.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٠٣):ص١٠٠١/٣.

[١٠] انظر: تفسير الماتريدي:٢٥٥/٣.

[١١] صفوة التفاسير:٢٦٦.

[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٠٤):ص١٠٠١/٣.

قال الواحدي:أي:" فيستشهد، {أو يغلب} فيظفر، فكلاهما سواءٌ"[٢].
قال السمعاني:" وهو معنى قوله في سورة التوبة: {فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ}[٣]"[٤].
قرأ الجمهور: {فيقتل}، مبنيا للمفعول. وقرأ محارب بن دثار: {فيقتل}، على بناء الفعل للفاعل، وأدغم باء {يغلب}، في "الفاء" أبو عمرو والكسائي وهشام وخلاد بخلاف عنه، وأظهرها باقي السبعة[٥]..
قوله تعالى:{فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء : ٧٤]، " أي: فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً"[٦].
قال سعيد بن جبير:" {أجرا عظيما}، يعني: جزاء وافرا في الجنة، فجعل القاتل والمقتول من المسلمين في جهاد المشركين شريكين في الأجر"[٧].
عن الأوزاعي عن يحيى، قال:" الأجر العظيم: الجنة "[٨].
قال الواحدي:"أي: ثواباً لا صفة له"[٩].
قال البغوي:أي:" في كلا الوجهين أجرا عظيما"[١٠].
قال النسفي:" وعد الله المقاتل في سبيل الله ظافراً أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله"[١١].
قال ابن كثير:" أي : كل من قاتل في سبيل الله - سواء قتل أو غَلَب وسَلَب - فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل ، كما ثبت في الصحيحين[١٢] وتكفل الله للمجاهد في سبيله ، إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة"[١٣].
قال الطبري:" وهذا حضٌّ من الله المؤمنين على جهاد عدوه من أهل الكفر به على أحايينهم غالبين كانوا أو مغلوبين ، والتهاونِ بأقوال المنافقين في جهاد من جاهدوا من المشركين ، وأن لهم في جهادهم إياهم - مغلوبين كانوا أو غالبين - منزلة من الله رفيعة"[١٤].
قال ابن عطية:" وعد من قاتل في سبيل الله بالأجر العظيم، سواء استشهد، أو غلب. واكتفى في الحالتين بالغاية، لأن غاية المغلوب في القتال أن يقتل، وغاية الذي يقتل أن يغلب ويغنم، فأشرف الحالتين ما بدء به من ذكر الاستشهاد في سبيل الله، ويليها أن يقتل أعداء الله،

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٠٥):ص٣/١٠٠١.
[٢] الوجيز:٢٧٤.
[٣][سورة التوبة : ١١١].
[٤] تفسير السمعاني:١/٤٧٧.
[٥] انظر: البحر الميط:٣/٧١٠.
[٦] صفوة التفاسير:٢٦٦.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٠٨):ص٣/١٠٠١.
[٨] أخرجه ابن المنذر(١٩٩٩):ص٢/٧٩١، وابن ابي حاتم(٥٦٠٩):ص٢/١٠٠٢.
[٩] الوجيز:٢٧٤.
[١٠] تفسير البغوي:١/٦٦٢.
[١١] تفسير النسفي:١/٣٧٣.
[١٢]رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٤٦٣ ، ٧٤٥٧) ومسلم في صحيحه برقم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
[١٣] تفسير ابن كثير:٢/٣٥٨.
[١٤] تفسير الطبري:٨/٥٤١.

ودون ذلك الظفر بالغنيمة، ودون ذلك أن يغزو فلا يصيب ولا يصاب، ولفظ الجهاد في سبيل الله يشمل هذه الأحوال، والأجر العظيم فسر بالجنة. والذي يظهر أنه مزيد ثواب من الله تعالى مثل كونهم أحياء عند ربهم يرزقون، لأن الجنة موعود دخولها بالإيمان. وكأن الذي فسره بالجنة ينظر إلى قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة : ١١١]،الآية"[١].

عن عون، قال: "قيل لعمر بن الخطاب :إن مدرك بن عوف نشر نفسه يوم نهاوند، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، ذاك خالي، وناس يزعمون أنه ألقى بيده إلى التهلكة، قال: فقال عمر: كذب أولئك، ولكنه من الذين اشتروا الآخرة بالدنيا "[٢].

قرأ الجمهور: {نؤتيه}، بالنون. وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف: {يؤتيه}، بالياء[٣].

الفوائد:

١- مدح المجاهدين في سبيل الله، والثناء عليهم.

٢- أنه من لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق عنهم أبوابها. بل من حصل منه غير ما يليق أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه، [ص:١٨٧] فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخروج في سبيله فقال: {فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة}.

٣-من أسماء يوم القيامة، اليوم الآخر، أو الآخرة، او الدار الآخرة، وسمى ذلك اليوم باليوم الآخر، لأنه اليوم الذي لا يوم بعده.

القرآن

{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)} [النساء : ٧٥]

التفسير:

وما الذي يمنعكم -أيها المؤمنون- عن الجهاد في سبيل نصرة دين الله، ونصرة عباده المستضعفين من الرجال والنساء والصغار الذين اعتُدي عليهم، ولا حيلة لهم ولا وسيلة لديهم إلا الاستغاثة بربهم، يدعونه قائلين: ربنا أخرجنا من هذه القرية -يعني «مكة» - التي ظَلَم أهلها أنفسهم بالكفر والمؤمنين بالأذى، واجعل لنا من عندك وليّاً يتولى أمورنا، ونصيرًا ينصرنا على الظالمين؟

في سبب نزول الآية:

أخرج عبد بن حميد من رواية سعيد عن قتادة: "كان بمكة رجال ونساء وولدان من المسلمين فأمر الله نبيه أن يقاتل حتى يستنقذهم"[٤].

وأخرج من رواية أبي يونس القوي[٥]:" قلت لسعيد بن جبير في قوله:{وَالْمُسْتَضْعَفِينَ}؟ قال: كان بمكة ناس مظلومون مقهورون"[٦].

وأخرج ابن المنذر[١] وابن أبي حاتم[٢]، عن مجاهد:" أمر المؤمنين أن يقاتلوا عن مستضعفين مؤمنين كانوا بمكة"[٣].

---

[١] البحر الميط:٣/٧١٠.

[٢] أخرجه ابن المنذر(١٩٩٨):ص٢/٧٩٠.

[٣] انظر: البحر الميط:٣/٧١٠.

[٤] العجاب:٢/٩١٦.

[٥]هو الحسن بن يزيد بن فروخ الصخري ... القوي، بفتح القاف وتخفيف الواو، مكي سكن الكوفة، ثقة. انظر: التقريب:١٦٤.

[٦] العجاب:٢/٩١٦.

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء : ٧٥]، أي:" وما الذي يمنعكم -أيها المؤمنون- عن الجهاد في سبيل نصرة دين الله"[٤].

قال الزجاج:" المعنى: أي شيء لكم تاركين القتال؟"[٥].

قال الثعلبي:" أي: تجاهدون في طاعة الله"[٦].

قوله تعالى:{وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ} [النساء : ٧٥]، أي:" وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين"[٧].

قال الزجاج:" أي: ما لكم لا تسعون في خلاص هؤلاء؟"[٨].

قال الحسن: "يعني: وعن المستضعفين من أهل مكة من المسلمين"[٩].

قال ابن زيد:" : وما لكم لا تفعلون ؟ تقاتلون لهؤلاء الضعفاء المساكين"[١٠].

قال مجاهد:" أمر المؤمنين أن يقاتلوا عن مستضعفين مؤمنين كانوا بمكة"[١١].

عن ابن عباس: قوله "{والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان}، فهم أناس مسلمون كانوا بمكة لم يستطيعوا أن يخرجوا منها فيهاجروا، فعذرهم الله، فهم أولئك"[١٢]. وروي عن عطاء نحو ذلك[١٣].

وقال ابن عباس ايضا:" كنت أنا وأمي من المستضعفين"[١٤]. وفي حديث ابن أبي عمر زيادة: "{من الرجال والنساء والولدان}، فأنا من {الولدان}، وأمي من {النساء}"[١٥].

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا} [النساء : ٧٥]، " أي: الذين يدعون ربهم لكشف الضُرّ عنهم قائلين: ربنا أخرجنا من هذه القرية -وهي مكة- التي ظَلَم أهلها أنفسهم بالكفر والمؤمنين بالأذى"[١٦].

قال ابن زيد:"الذين يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها ، فهم ليس لهم قوة ، فما لكم لا تقاتلون حتى يسلم الله هؤلاء ودينهم ؟ و{القرية الظالم أهلها}، مكة"[١٧].

---

[١] انظر: تفسير ابن المنذر(٢٠٠١):ص٧٩١/٢.

[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦١٠):ص١٠٠٢/٣.

[٣] تفسير ابن المنذر(٢٠٠١):ص٧٩١/٢.

[٤] التفسير الميسر:٩٠.

[٥] معاني القرآن:٧٧/٢.

[٦] تفسير الثعلبي:٣٤٤/٣.

[٧] صفوة التفاسير:٢٦٦.

[٨] معاني القرآن:٧٧/٢.

[٩] تفسير ابن ابي زمنين:٣٨٧/١.

[١٠] أخرجه الطبري(٩٩٥٠):ص٥٤٥/٨-٥٤٦.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦١٠):ص١٠٠٢/٣.

[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦١٢):ص١٠٠٢/٣.

[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٦١٢):ص١٠٠٢/٣.

[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦١١):ص١٠٠٢/٣.

[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦١١):ص١٠٠٢/٣.

[١٦] انظر: صفوة التفاسير:٢٦٦، والتفسير الميسر:٩٠.

[١٧] أخرجه الطبري(٩٩٥٠):ص٥٤٥/٨-٥٤٦.

و{الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا}، هي مكة. وهذا قول عائشة-رضي الله عنها-[1]، وابن عباس من رواية ابن عطية عن أبيه[2]، ومجاهد[3]، والسدي[4]. وهو قول جميع المفسرين[5].

قوله تعالى:{وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء : ٧٥]، أي:" واجعل لنا من عندك وليّاً يتولى أمورنا، ونصيرًا ينصرنا على الظالمين"[6].

قال الزجاج:" أي: تولنا بنصرك وخلصنا من أهل مكة الظالم أهلها"[7].

عن الربيع بن أنس: "{من لدنك}، من عندك"[8]. وروي عن السدي مثل ذلك[9].

عن مجاهد وعكرمة: "{واجعل لنا من لدنك نصيرا}، قالا: حجة ثابتة"[10].

قال الثعلبي:" أجاب الله دعاءهم. فلما فتح رسول الله ﷺ مكة جعل الله لهم النبي وليا فاستعمل عليها عتاب بن أسيد، فجعله الله لهم نصيرا وكان ينصف للضعيف من الشديد فنصرهم الله به وأعانهم وكانوا أعز بها من الظلمة قبل ذلك"[11].

الفوائد:

١-أن الإيمان اسم للخاص من العبادات لا للكل[12]، ودليله أن الله تعالى عاتبهم على صنيعهم ذلك وأعظم الوعيد في ذلك ولم يزل عنهم اسم الإيمان.

٢-ان ردّ الاعتداء هو من اسباب القتال في الإسلام، وأن القرآن شرع القتال للدفاع عن المستضعفين في الأرض، بل حرض أبلغ التحريض على القتال ذوداً عن حرماتهم، ودرءاً للظلم عنهم، قال تعالى:{ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ}، أي: وكيف تقعدون عن القتال في سبيل الله واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟.

٣-أهمية الدعاء، وأنه سلاح المؤمن، عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء:سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض»[13].

قال الثعلبي:" وفي هذه الآية دليل على إبطال قول من زعم أن العبد لا يستفيد بالدعاء معنى، لأن الله تعالى حكى عنهم إنهم دعوه وأجابهم وآتاهم ما سألوه ولولا أنه أجابهم إلى دعائهم لما كان لذكر دعائهم معنى"[1].

---

[1] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦١٤):ص١٠٠٢/٣.

[2] انظر: تفسير الطبري(٩٩٤٧):ص٥٤٤/٨.

[3] انظر: تفسير الطبري(٩٩٤٥):ص٥٤٤/٨.

[4] انظر: تفسير الطبري(٩٩٤٦):ص٥٤٤/٨.

[5] انظر: النكت والعيون:٥٠٦/١، معاني القرآن:٧٧/٢.

[6] التفسير الميسر:٩٠.

[7] معاني القرآن:٧٧/٢.

[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦١٦):ص١٠٠٣/٣.

[9] انظر: ابن أبي حاتم(٥٦١٦):ص١٠٠٣/٣.

[10] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦١٦):ص١٠٠٣/٣.

[11] تفسير الثعلبي:٣٤٥/٣.

[12] انظر: التوحيد للماتريدي:٣٧٩.

[13]أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٢) ، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢١٨١) ، وأبو يعلى (١/ ٣٤٤) رقم (٤٣٩) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح، ووافقه الذهبي، والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٠) ، وقال: رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد، وهو متروك.

٤- يوصف الله عَزَّ وجَلَّ بأنه الناصر والنصير، وأنَّ النصر بيده، كما يوصف الله عَزَّ وجَلَّ بأنه وَلِيُّ الذين آمنوا ومولاهم.

القرآن

{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)} [النساء : ٧٦]

التفسير:

الذين صدَقُوا في إيمانهم اعتقادًا وعملا يجاهدون في سبيل نصرة الحق وأهله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل البغي والفساد في الأرض، فقاتلوا أيها المؤمنون أهل الكفر والشرك الذين يتولَّون الشيطان، ويطيعون أمره، إن تدبير الشيطان لأوليائه كان ضعيفًا.

قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء : ٧٦]،

قال ابن كثير:" أي : المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه"[٢].

قال الطبري:أي:" الذين صدقوا الله ورسوله ، وأيقنوا بموعود الله لأهل الإيمان به {يقاتلون} في طاعة الله ومنهاج دينه وشريعته التي شرعها لعباده"[٣].

قال مقاتل:" {في سبيل الله}، يعني: طاعة الله"[٤].

قال ابن عباس: "يريد في طاعة الله "[٥].

قال الواحدي:"وتأويل ذلك أنها تُؤدي إلى ثواب الله في جنته التي أعدها لأوليائه، فلذلك سُميت طاعة الله: سبيل الله.

وقيل: معنى {في سَبِيلِ اَللَّهِ}: في دين الله الذي شرعه ليؤدي إلى ثوابه ورحمته، فيكون التقدير على هذا: في نصرة دين الله"[٦].

قال التستري:" قال: المؤمنون خصماء الله على أنفسهم"[٧].

قال الراغب:" المقاتل في سبيل الله يتناول المحارب بالسيف والمدافع عن الدين بالقول، والمنازع لهوى النفس ولوساوس الشيطان، ونبه أن من قاتل في سبيل الله فهو وليه"[٨].

قال الزمخشري:" رغب الله المؤمنين ترغيبا وشجعهم تشجيعا بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله. فهو وليهم وناصرهم"[٩].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ} [النساء : ٧٦]،

قال ابن كثير:أي:" والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان"[١٠].

قال الطبري:أي:" والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وما جاءهم به من عند ربهم {يقاتلون} في طاعة الشيطان وطريقه ومنهاجه الذي شرعه لأوليائه من أهل الكفر بالله"[١].

---

[١] تفسير الثعلبي:٣٤٥/٣.

[٢] تفسير ابن كثير:٣٥٨/٢.

[٣] تفسير الطبري:٥٤٦/٨.

[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٩/١.

[٥] ذكره الواحدي في التفسير البسيط/٦٠٣/٦. ولم اقف عليه، وغير منسوب في بحر العلوم:٣٦٨/١، وتفسير القرطبي:٢٨٠/٥.

[٦] التفسير البسيط للواحدي:٦٠٣/٦.

[٧] تفسير التستري:٥٤.

[٨] تفسير الراغب الاصفهاني:١٣٢٥/٣-١٣٢٦.

[٩] الكشاف:٥٣٥/١.

[١٠] تفسير ابن كثير:٣٥٨/٢.

قال مقاتل:" {في سبيل الطاغوت}، يعني: في طاعة الشيطان"[٢].

قال التستري:" والمنافقون خصماء النفوس على الله عز وجل، يبتدرون إلى السؤال ولا يرضون بما يختار الله لهم وهو سبيل الطاغوت، إذ النفس أكبر الطواغيت، إذا خلا العبد معها، قيل له عن المعصية"[٣].

قال الزجاج:" الطاغوت الشيطان، وكل معبود من دون الله فهو طاغوت، والدليل على أن الطاغوت الشيطان قوله: { وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء : ٦٠]"[٤].

قال الراغب:" الطاغوت عام في كل ما شغل عن الله، والمراد به وبالشيطان واحد"[٥].

والقول بأن «الطاغوت» ههنا هو «الشيطان»، قول عامة المفسرين[٦].

قوله تعالى:{فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ} [النساء : ٧٦]،

قال البغوي:" أي: حزبه وجنوده وهم الكفار"[٧].

قال السمعاني:" أي: الكفار"[٨].

قال ابن عباس: "يريد جند الأصنام"[٩].

قال الطبري:" يقول الله ، مقوِّيًا عزم المؤمنين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحرِّضهم على أعدائه وأعداء دينه من أهل الشرك به : {فقاتلوا} أيها المؤمنون، الذين يتولَّون الشيطان ويطيعون أمره ، في خلاف طاعة الله ، والتكذيب به"[١٠].

قال مقاتل:" {أولياء الشيطان}، يعني: المشركين بمكة"[١١].

قال الزمخشري:أي:" وأعداء المؤمنين يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا ولى لهم إلا الشيطان"[١٢].

قوله تعالى:{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء : ٧٦]،

قال مقاتل:" يعني: إن مكر الشيطان {ضعيفا}، يعني: واهنا، كقوله- سبحانه-: {مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ}[١٣]، يعني: مضعف كيد الكافرين. فسار النبي- ﷺ- إلى مكة ففتحها وجعل الله- عز وجل- للمستضعفين مخرجا"[١٤].

---

[١] تفسير الطبري:٥٤٦/٨.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٩/١.

[٣] تفسير التستري:٥٤.

[٤] معاني القرىن:٧٨/٢.

[٥] تفسير الراغب الاصفهاني:١٣٢٦/٣.

[٦]انظر: تفسير الطبري ٨/ ٥٤٦، وتفسير الهواري: ١/ ٣٩٩، وبحر العلوم: ١/ ٣٦٨، والكشف والبيان:٣٤٥/٣، ومعالم التنزيل: ٢/ ٢٥٠، وزاد المسير: ٢/ ١٣٣.

[٧] تفسير البغوي:٦٦٣/١.

[٨] تفسير السمعاني:٤٤٨/١.

[٩]تنوير المقباس بهامش المصحف:٩٠.

[١٠] تفسير الطبري:٥٤٦/٨.

[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٩/١.

[١٢] الكشاف:٥٣٥/١.

[١٣][سورة الأنفال : ١٨].

[١٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٩/١.

قال البغوي:" أي مكره كان ضعيفا، كما فعل يوم بدر لما رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخذلهم"[١].

قال ابن عباس: "يعني: خذلانه إياهم يوم بدر، قتلوا ببدر"[٢].

قال الطبري:" يعني بـ«كيد الشيطان»: ما كاد به المؤمنين، من تحزيبه أولياءه من الكفار بالله على رسوله وأوليائه أهل الإيمان به. يقول : فلا تهابوا أولياء الشيطان ، فإنما هم حزبه وأنصاره ، وحزب الشيطان أهل وَهَن وضعف"[٣].

قال السمعاني:" قيل: {كان ضعيفا}، بمعنى: أنه لا يرد أحدا عن الإسلام والهداية، وقيل: أراد به أن كيده كان ضعيفا يوم بدر، حين رأى الملائكة، وخاف أن يأخذوه، فهرب، فكيده ضعيف بأحد هذين المعنيين"[٤].

قال الزمخشري:أي:" وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه"[٥].

قال البيضاوي:" لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان ثم شجعهم بقوله: إن كيد الشيطان كان ضعيفا أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين، ضعيف لا يؤبه به فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه"[٦].

قال الواحدي:" معنى الكيد: السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال، يقال: كاده يكيده كيدًا، إذا عمل في إيقاع الضرر به على جهة الحيلة عليه"[٧].

وفائدة إدخال كان في قوله: {كَانَ ضَعِيفًا}، "التأكيد لضعف كيده، وذلك أنَّ كان يدلُّ على لزوم الضعف كيده، خلاف العارض الذي لم يكن ثم كان، وكيده مما يلزمه صفة الضعف، وليس عارضة فيه، بدلالة كان على هذا المعنى"[٨].

قال الراغب :" ونبه بقوله {إن كيد الشيطان كان ضعيفا}، على ضعف أوليائه، ووصف كيده بالضعف إذ لا بطش له، وإنما سلطانه بين باطل، ولضعفه في الحقيقة قال تعالى حاكيا عنه: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} [إبراهيم : ٢٢]، الآية"[٩].

الفوائد:

١-أن الشيطان يدفع أولياءَه ويجندهم إلى حرب المسلمين وقتالهم، قال تعالى:{ والَّذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت}.

٢- أن كل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت. ولا تنفع عبادة الله إلا بشرط اجتناب عبادة ما سواه.

٣- أن الجن والشياطين كالإنس فيهم جوانب قوة، وجوانب ضعف، قال تعالى:{ إنَّ كيد الشَّيطان كان ضعيفاً}، لأن كيد إبليس تسويل بلا حجة والحجج ترده، ولهذا كان ضعيفا، فلما مالت الطباع إليه آثر وفعل.

---

[١] تفسير البغوي:٦٦٣/١.

[٢]تنوير المقباس بهامش المصحف:٩٠.

[٣] تفسير الطبري:٥٤٧/٨.

[٤] تفسير السمعاني:٤٤٨/١.

[٥] الكشاف:٥٣٥/١.

[٦] تفسير البيضاوي:٨٥/٢.

[٧] التفسير البسيط:٦٠٤/٦.

[٨] التفسير البسيط للواحدي:٦٠٥/٦.

[٩] تفسير الراغب الاصفهاني:١٣٢٦/٣.

القرآن

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)} [النساء : ٧٧]

التفسير:

ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك الذين قيل لهم قبل الإذن بالجهاد: امنعوا أيديكم عن قتال أعدائكم من المشركين، وعليكم أداء ما فرضه الله عليكم من الصلاة، والزكاة، فلما فرض عليهم القتال إذا جماعة منهم قد تغير حالهم، فأصبحوا يخافون الناس ويرهبونهم، كخوفهم من الله أو أشد، ويعلنون عما اعتراهم من شدة الخوف، فيقولون: ربنا لِمَ أَوْجَبْتَ علينا القتال؟ هلا أمهلتنا إلى وقت قريب، رغبة منهم في متاع الحياة الدنيا، قل لهم -أيها الرسول-: متاع الدنيا قليل، والآخرة وما فيها أعظم وأبقى لمن اتقى، فعمل بما أُمر به، واجتنب ما نُهي عنه. لا يظلم ربك أحدًا شيئًا، ولو كان مقدار الخيط الذي يكون في شق نَواة التمرة.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: أخرج الطبري[١]، والنسائي[٢]، والفاكهي[٣]، والحسن بن سفيان[٤]، وابن أبي حاتم[٥]، حاتم[٥]، والحاكم[٦]، والواحدي[٧]،عن عكرمة ، عن ابن عباس : "أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، كنا في عِزّ ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذِلة! فقال : إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا. فلما حوَّله الله إلى المدينة ، أمر بالقتال فكفوا ، فأنزل الله تبارك وتعالى : " ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم " ، الآية"[٨]. وروي عن قتادة[٩]، والسدي نحو ذلك[١٠].

وفي السياق نفسه ذكر الواحدي عن الكلبي، قال:" نزلت هذه الآية في نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - منهم عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وقدامة بن مظعون وسعد بن أبي وقاص كانوا يلقون من المشركين أذى كثيرا ويقولون: يا رسول الله ائذن لنا في قتال هؤلاء، فيقول لهم: «كفوا أيديكم عنهم فإني لم أؤمر بقتالهم»، فلما هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، وأمرهم الله تعالى بقتال المشركين كرهه بعضهم وشق عليهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[١١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(٩٩٥٢):ص٨/٥٤٩.

[٢]في "المجتبى" (٦/ ٢، ٣)، وفي "الكبرى" (٣/ ٣ رقم ٤٢٩٣، ٦/ ٣٢٥ رقم ١١١١٢).

[٣] في أخبار مكة، كما في العجاب:٢/٩١٧.

[٤] انظر: العجاب:٢/٩١٧.

[٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٣٠):ص٣/١٠٠٥.

[٦]في "المستدرك" (٢/ ٦٧ رقم ٣٠٧) -وعنه البيهقي في "السنن الكبرى" (٩/ ١١).

[٧] انظر:أسباب النزول:١٦٧.

[٨] تفسير الطبري(٩٩٥٢):ص٨/٥٤٩.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٩٥٣):ص٨/٥٤٩-٥٥٠.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٩٥٤):ص٨/٥٥٠، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٦١٩):ص٣/١٠٠٣. وهذا سند صحيح؛ رجاله ثقات رجال مسلم. وصححه الإمام الألباني -رحمه الله- في "صحيح سنن النسائي" (رقم ٢٨٩١).

[١١] اسباب النزول:١٦٦-١٦٧.

وفي السياق نفسه قال مقاتل:"نزلت في عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص- رضي الله عنهما- وهما من بني زهرة وقدامة بن مظعون الجمحي والمقداد بن الأسود الكندي- رضي الله عنهم- وذلك أنهم استأذنوا في قتال كفار مكة سرا، مما كانوا يلقون منهم من الأذى فقال النبي- ﷺ- :«مهلا كفوا أيديكم عن قتالهم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فإني لم أومر بقتالهم»، فلما هاجر النبي- ﷺ- إلى المدينة أمر الله- عز وجل- بالقتال فكره بعضهم فذلك قوله- عز وجل-: { فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ}، يعني: فرض القتال بالمدينة، { إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ}: نزلت في طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه-[1]، { يَخْشَوْنَ النَّاسَ}، يعني كفار مكة، { كَخَشْيَةِ اللَّهِ}، فلا يقاتلونهم، { أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}، وقالوا: وهو الذي قال: { رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ }"[2].

الثاني: أن هذه الآية وآيات بعدها، نزلت في اليهود. وهذا قول ابن عباس[3] ومجاهد[4].

أخرج الطبري عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : " {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، إلى قوله : {لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا }[5]، ما بين ذلك في اليهود"[6].

والثالث: أنها نزلت في المنافقين ، وهو قول بعض البصريين[7].

والرابع : أنها من صفة المؤمن لما طُبِعَ عليه البشر من المخافة ، وهذا قول الحسن[8].

قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ} [النساء : ٧٧]، أي:" ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك الذين قيل لهم قبل الإذن بالجهاد: امنعوا أيديكم عن قتال أعدائكم من المشركين"[9].

قال الزمخشري:" أى: كفوها عن القتال، وذلك أن المسلمين كانوا مكفوفين عن مقاتلة الكفار ما داموا بمكة، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه "[10].

قوله تعالى:{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [النساء : ٧٧]، أي:" وعليكم أداء ما فرضه الله عليكم من الصلاة، والزكاة"[11].

عن الحسن في قوله: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، قال: "فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة"[12]. وروي عن عطاء بن أبي رباح، وقتادة نحو ذلك[1].

---

[1] قال ابن حجر:" ولعله كان ممن قال ذلك أولا، وأما الفريق {وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ}، فاللائق أنهم أنهم ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه وطلحة كان من الراسخين".[العجاب:٢/٩١٨]. وانظر ترجمته في الإصابة:٢/ ٢٢٩-٢٣٠.

[2] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٨٩-٣٩٠.

[3] انظر: تفسير الطبري(٩٩٥٦):ص٨/٥٥٠، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٦٣٣):ص٣/١٠٠٦. وهو ضعيف جداً؛ إسناده مسلسل بالعوفيين.

[4] انظر: تفسير الطبري(٩٩٥٥):ص٨/٥٥٠، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٦١٩):ص٣/١٠٠٣. وهو مرسل صحيح.

[5] [سورة النساء:٨٣].

[6] تفسير الطبري(٩٩٥٥):ص٨/٥٥٠.

[7] انظر: النكت والعيون:١/٥٠٧.

[8] انظر: النكت والعيون:١/٥٠٧.

[9] التفسير الميسر:٩٠.

[10] الكشاف:١/٥٣٥.

[11] التفسير الميسر:٩٠.

[12] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٢١):س٣/١٠٠٤.

قال عبد الرحمن بن نمر: "سألت الزهري عن قوله: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، قال الزهري: إقامتها: أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها"[٢].
وعن ابن عباس: "{وَآتُوا الزَّكَاةَ}، يعني: بالزكاة طاعة الله والإخلاص"[٣].
عن ابن عباس ايضا: في قوله: {وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "ما يوجب الزكاة؟ قال: مائتين فصاعدا"[٤].
وعن عكرمة: {وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "زكاة المال من كل مائتي درهم خمسة دراهم"[٥].
وعن الحسن في قوله: {وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها مع الصلاة"[٦]. وروي عن قتادة نحو ذلك[٧].
وعن الحارث العكلي في قوله: وآتوا الزكاة قال: صدقة الفطر"[٨].
قوله تعالى:{فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [النساء : ٧٧]، أي:" فلما فرض عليهم القتال إذا جماعة منهم قد تغير حالهم، فأصبحوا يخافون الناس ويرهبونهم، كخوفهم من الله أو أشد"[٩].
قال سعيد بن جبير:" {كتب}، يعني: فرض"[١٠].
قال الزمخشري: أى: "فلما كتب عليهم القتال بالمدينة كع فريق منهم [١١] لا شكّا في الدين ولا رغبة عنه، ولكن نفورا عن الإخطار بالأرواح وخوفا من الموت"[١٢].
قوله تعالى:{وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ}[النساء:٧٧]، "أي: وقالوا جزعاً من الموت ربنا لم فرضت علينا القتال؟"[١٣].
قال أبو عبيدة:" لم فرضته علينا؟ "[١٤].
قوله تعالى:{ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} [النساء : ٧٧]، أي:" هلا أمهلتنا إلى وقت قريب"[١٥].
قال السدي: "وهو الموت"[١٦].
قال ابن جريج:" أي: إلى أن نموت موتا، الأجل القريب "[١].

---

[١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٢٢):ص٣/١٠٠٤.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٢٢):س٣/١٠٠٤.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٢٤):س٣/١٠٠٤.
[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٢٥):س٣/١٠٠٤.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٢٦):س٣/١٠٠٤.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٢٧):س٣/١٠٠٥.
[٧] نظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٢٧):س٣/١٠٠٥.
[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٢٩):س٣/١٠٠٥.
[٩] التفسير الميسر:٩٠.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٣٢):ص٣/١٠٠٥.
[١١] قوله «كع فريق منهم» أى جبن. أفاده الصحاح. (ع).
[١٢] الكشاف:١/٥٣٥.
[١٣] صفوة التفاسير:٢٦٧.
[١٤] أخرجه ابن المنذر(٢٠٠٨):ص٢/٧٩٤.
[١٥] التفسير الميسر:٩٠.
[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٣٤):ص٣/١٠٠٦.

قال أبو عبيدة:" معناها: هلا أخرتنا إلى أجل قريب "[٢].
قال مقاتل:" هلا تركتنا حتى نموت موتا وعافيتنا من القتل"[٣].
قال الزمخشري:" استزادة في مدة الكف، واستمهال إلى وقت آخر، كقوله: { لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ}[٤] "[٥].
قوله تعالى:{قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ} [النساء : ٧٧]، "أي: قل لهم -يا محمد-: إن نعيم الدنيا قليل"[٦].
قال مقاتل:" تتمتعون فيها يسيرا"[٧].
عن هشام قال: "قرأ الحسن: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ}، قال: رحم الله عبدا صحبها على حسب ذلك، ما الدنيا كلها من أولها إلى آخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه"[٨].
قال ميمون بن مهران:" الدنيا قليل، وقد مضى القليل وبقي قليل من قليل"[٩].
قال سهل التستري:" الدنيا كلها جهل إلا موضع العلم، العلم كله حجة إلا موضع العمل به، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص، والإخلاص لا يتم إلا بالسنة. ثم قال: دنياك نفسك، فإذا أفنيتها فلا دنيا لك"[١٠].
قوله تعالى:{وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى} [النساء : ٧٧]، أي:" ونعيم الآخرة باقٍ فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله فعمل بما أُمر به، واجتنب ما نُهي عنه"[١١].
قال مقاتل:" يعني: الجنة أفضل من الدنيا"[١٢].
عن ابن عباس: "قوله:{ لِمَنِ اتَّقَى}، يقول: اتقى معاصي الله"[١٣].
وعن أبي العالية:" أما قوله: { لِمَنِ اتَّقَى}، يقول: لمن اتقى فيما بقي"[١٤].
قوله تعالى:{وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء : ٧٧]، أي:" لا يظلم ربك أحدًا شيئًا، ولو كان مقدار الخيط الذي يكون في شق نَواة التمرة"[١٥].
قال الطبري:"يعني: ولا ينقصكم الله من أجور أعمالكم فتيلا"[١٦].

---

[١] أخرجه ابن المنذر(٢٠٠٩):ص٢/٧٩٥.
[٢] أخرجه ابن المنذر(٢٠١٠):ص٢/٧٩٥.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٠.
[٤][سورة المنافقون : ١٠].
[٥] الكشاف:١/٥٣٦.
[٦] صفوة التفاسير:٢٦٧.
[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٠.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٣٥):ص٣/١٠٠٦.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٣٦):ص٣/١٠٠٦.
[١٠] تفسير التستري:٥٤.
[١١] صفوة التفاسير:٢٦٧، والتفسير الميسر:٩٠.
[١٢] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٠.
[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٣٧):ص٣/١٠٠٦.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٣٨):ص٣/١٠٠٦.
[١٥] التفسير الميسر:٩٠.
[١٦] تفسير الطبري:٨/٥٥١.

قال الزمخشري:أي:" ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتال فلا ترغبوا عنه"[١].

وفي تفسير قوله تعالى: {وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء : ٧٧]، وجهان:

أحدهما : أي الفتيل الذي شق النواة ، وهو قول عطاء[٢]، وقتادة[٣]، ومجاهد[٤]، والضحاك[٥]، والضحاك[٥]، وابن زيد[٦]، وعطية العوفي[٧]، وخصيف[٨]، وأبو عبيدة[٩]، والحسن[١٠]، وأحد وأحد قولي ابن عباس[١١].

والثاني : أنه ما انفتل بين الأصابع من الوسخ ، وهذا قول السدي[١٢]، وأبي مالك[١٣]، وأحد قولي ابن عباس[١٤].

قال الطبري:" إنما قصد بقوله : {ولا يظلمون فتيلا }، الخبرَ عن أنه لا يظلم عبادَه أقلَّ الأشياء التي لا خطر لها ، فكيف بما له خطر ؟ وكان الوسخ الذي يخرج من بين إصبعي الرجل أو من بين كفيه إذا فتل إحداهما على الأخرى ، كالذي هو في شق النواة وبطنها ، وما أشبه ذلك من الأشياء التي هي مفتولة ، مما لا خطر له ، ولا قيمة، فواجبٌ أن يكون كل ذلك داخلا في معنى «الفتيل»، إلا أن يخرج شيئًا من ذلك ما يجب التسليم له ، مما دل عليه ظاهر التنزيل"[١٥].

قال ابن السكيت: "القطمير: القشرة الرقيقة على النواة، والفتيل: ما كان في شق النواة، والنقير: النكتة في ظهر النواة"[١٦].

قال الأزهري: "وهذه الأشياء كلها تضرب أمثالا للشيء التافه الحقير القدر، أي: لا يظلمون قدرها، قال النابغة[١٧]:

يَجْمَعُ الْجَيْشَ ذَا الْأُلُوفِ وَيَغْزُو ثُمَّ يَرْزَأُ الْعَدُوَّ فَتِيلًا"[١٨]

---

[١] الكشاف:٥٣٦/١.

[٢] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٣):ص٤٥٨/٨.

[٣] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٦):ص٤٥٩/٨.

[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٥)، و(٩٧٥٦):ص٤٥٨/٨.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٨):ص٤٥٩/٨.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٩):ص٤٥٩/٨.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٧٦٢):ص٤٥٩/٨.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٧٦٢):ص٤٥٩/٨.

[٩] انظر: تفسير ابن المنذر(١٨٦٤):ص٧٤١/٢.

[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٤٣٦):ص٩٧٣/٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٢):ص٤٥٨/٨.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(٩٧٥٠):ص٤٥٨/٨.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(٩٧٤٩):ص٤٥٧/٨-٤٥٨.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(٩٧٤٥)-(٩٧٤٨):ص٤٥٦/٨-٤٥٨، و(٩٧٥١):ص٤٥٨/٨.

[١٥] تفسير الطبري:٤٥٩/٨-٤٦٠.

[١٦] التفسير الوسيط للواحدي:٦١/٢.

[١٧] البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ١٧٠، والشعر والشعراء ٧٦ (ليدن) ، ٧١ (شاكر) ، وبلا نسبة في المقاييس ٤٧٢/٤، والمخصص ٢٥٤/١٣.

[١٨] التفسير الوسيط للواحدي:٦١/٢.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: {ولا يظلمون}، بالياء، وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر {تظلمون} بالتاء [1].

الفوائد:

١-إن الأصل أن دمّ الآدمي معصوم وكان دم الكافر في أول الإسلام معصوماً بالعصمة الأصلية وبمنع الله المؤمنين من قتله قال تعالى:- {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم} ، ولقوله - ﷺ -:- (لم أؤْمر بالقتل بعد) وكدم القبطي الذي قتله موسى - عليه السلام - ودم الكفار الذين لم تبلغهم الدعوة في زماننا فإن موسى - عليه السلام - عدّ ذلك ذنباً في الدنيا والآخرة ولأن بلوغ الدعوة استتابة عامة من كل كفر.

٢-أنه من شرط الجهاد أن يكون بالمسلمين قوة يقوون بها على جهاد الكفار، أي: عندهم عدة واستعداد لجهاد الكفار، فإذا لم يكونوا على استعداد؛ كأن يكون فيهم ضعف والكفار أقوى منهم، فلو قاتل المسلمون الكفار لأبيدت خضراء المسلمين، فلا يجوز القتال في هذه الحالة؛ لأن هذا يلزم عليه مفسدة أكبر من المصلحة، وهي تسلط الكفار على المسلمين؛ ولهذا فالنبي ﷺ بقي في مكة ثلاثة عشر عاما مقتصرا على الدعوة إلى الله، والمسلمون يؤذون ويضايقون ولم يؤمر بالجهاد، بل الله أمرهم بالصبر وكف الأيدي حتى يأذن الله - جل وعلا - لهم بالجهاد: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [النساء: ٧٧].

٣-أن القرآن يرشادنا إلى الإيمان الذي لا ينفك عن الجهاد، بل إن الجهاد تطبيق عملي له، ويحمل حملة عنيفة عن أولئك الذين يريدون أن يحققوا لأنفسهم، أو لأمتهم أمجادا رخيصة سهلة عن طريق رفع الأصوات وكثرة الادعاءات، إن هذا الصنف من الناس وجد في الأمة الإسلامية، ولكن كشفهم القرآن ليكونوا عبرة لمن يسلك سبيلهم كان هذا الصنف يتمنى أن يأذن الله له في القتال قبل مجيء أوانه فلما كتب عليهم القتال أصبحوا يخشون الأعداء أكثر مما يخشون الله.

٤- وقد استدل البعض بقوله:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، على عدم رفع اليدين في الصلاة غير تكبيرة الإحرام[2]، وهذا تحريف.

٥-أن الخوف من الله تعالى جده وحده، فمن خاف غيره فإنما صرف إليه حقا من حقوق ربه[3].

٦-أن الدنيا فانية مفروغ منها والأمر أسرع من ذلك، وقد صور لنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة بمثال ضربه فقال: "والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه - وأشار بالسبابة - في اليم، فلينظر بم ترجع"[4]. ما الذي تأخذه تأخذه الإصبع إذا غمست في البحر الخضم، إنها لا تأخذ منه قطرة. هذا هو نسبة الدنيا إلى الآخرة.

٧- أخبر الله - تعالى - أنه حرم الظلم على نفسه، فقال: {ولا تظلمون فتيلا} [النساء: ٧٧]، وقال: {ولا يظلم ربك أحدا} [الكهف: ٤٩] وقال: {وما ربك بظلام للعبيد} [فصلت: ٤٦]، كما قال على لسان رسوله - ﷺ -: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي»[5].

وقد اتفق المسلمون على أن الله منزه عن الظلم، ولكن تنازعوا في معناه الذي يجب تنزيه الرب عنه على ثلاثة أقوال[1]:

---

[1] انظر: السبعة: ٢٣٥الكشاف:٥٣٦/١.

[2] انظر: موسوعة الفرق المنسبة للإسلام:٥٠٠/٨.

[3] انظر: المنهاج في شعب الإيمان:٥١٥/١.

[4]رواه مسلم: (٢٨٥٨).

[5]رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم، وأحمد في "المسند" ٥/ ١٦٠.

الأول: قول المعتزلة، فقد ذهبوا إلى أن الظلم الذي ينزه عنه الخالق من جنس الظلم الذي ينهى عنه المخلوق، فشبهوا الله بخلقه، وأوجبوا عليه جنس ما يجب على المخلوق.
الثاني: قول الأشاعرة وطوائف من أهل الكلام وبعض أهل الحديث: إن الظلم من الله تعالى ممتنع لذاته، لأن الظلم -عندهم-: التصرف في ملك الغير، أو الخروج عن طاعة من تجب طاعته، وهذان ممتنعان في حق الله تعالى.
الثالث: قول كثير من أهل السنة وبعض أهل الكلام: إن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فالظلم ممكن لذاته، يمتنع وقوعه من الرب تعالى ولا يفعله؛ لكمال عدله ورحمته وغناه، وعلمه بقبحه، ولإخباره أنه لا يفعله، فالله تعالى لا يضع الأشياء في غير مواضعها، كأن يبخس المحسن شيئًا من إحسانه، أو يحمل عليه من سيئات غيره، أو يعاقبه بلا موجب للعقاب، ونحو ذلك، وهذا القول هو الحق الذي دلت عليه النصوص واللغة. والله اعلم.

القرآن
{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)} [النساء : ٧٨]
التفسير:
أينما تكونوا يلحقكم الموت في أي مكان كنتم فيه عند حلول آجالكم، ولو كنتم في حصون منيعة بعيدة عن ساحة المعارك والقتال. وإن يحصل لهم ما يسرُّهم من متاع هذه الحياة، ينسبوا حصوله إلى الله تعالى، وإن يقع عليهم ما يكرهونه ينسبوه إلى الرسول محمد ﷺ جهالة وتشاؤمًا، وما علموا أن ذلك كله من عند الله وحده، بقضائه وقدره، فما بالهم لا يقاربون فَهْمَ أيِّ حديث تحدثهم به؟
في سبب نزول الآية قولان:
أحدهما: قال الواحدي:" قال ابن عباس في رواية أبي صالح: "لما استشهد الله من المسلمين من استشهد يوم "أحد" قال المنافقون الذين تخلفوا عن الجهاد: لو كان إخواننا الذين قتلوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٢].
والثاني: أخرج الطبري[٣]، وابن ابي حاتم[٤]، عن عن مجاهد قال : "كان فيمن كان قبلكم امرأة ، وكان لها أجيرٌ ، فولدت جارية. فقالت لأجيرها : اقتبس لنا نارًا ، فخرج فوجد بالباب رجلا فقال له الرجل : ما ولدت هذه المرأة ؟ قال : جارية. قال : أما إنّ هذه الجارية لا تموت حتى تبغي بمئة ، ويتزوجها أجيرها ، ويكون موتها بالعنكبوت. قال : فقال الأجير في نفسه : فأنا أريد هذه بعد أن تفجر بمئة!! فأخذ شفرة فدخل فشق بطن الصبية. وعولجت فبرِئت ، فشبَّت ، وكانت تبغي ، فأتت ساحلا من سواحل البحر ، فأقامت عليه تبغي. ولبث الرجل ما شاء الله ، ثم قدم ذلك الساحل ومعه مال كثير ، فقال لامرأة من أهل الساحل : ابغيني امرأة من أجمل امرأة في القرية أتزوجها! فقالت : ههنا امرأة من أجمل الناس ، ولكنها تبغي. قال : ائتيني بها. فأتتها

---

[١]انظر: "مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" ٨/ ٥٠٥ - ٥١٠، ١٧/ ١٧٥ - ١٨٠، ١٨/ ١٣٧ - ١٥٦، و"مختصر الصواعق المرسلة" ص ١٨٩ - ٢٠٦، و"غاية المرام في علم الكلام" ص ٢٤٤، ٢٤٥، و"لسان العرب" (ظلم) ٥/ ٢٧٥٧.
[٢] أسباب النزول:١٦٧. وأورده الحافظ في العجاب:٩١٩/٢، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. إسناده مختلق مصنوع.
[٣] انظر: تفسير الطبري(٩٩٥٨):ص٥٥١/٨-٥٥٢.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٦٤٠):ص١٠٠/٣-١٠٠٨.

فقالت : قد قدم رجل له مال كثير ، وقد قال لي : كذا. فقلت له : كذا. فقالت : إني قد تركت البغاء ، ولكن إن أراد تزوَّجته! قال : فتزوجها ، فوقعت منه موقعًا. فبينا هو يومًا عندها إذ أخبرها بأمره ، فقالت : أنا تلك الجارية! وأرته الشق في بطنها وقد كنت أبغي ، فما أدري بمئة أو أقل أو أكثر! قال : فإنّه قال لي : يكون موتها بعنكبوت. قال : فبنى لها برجًا بالصحراء وشيده. فبينما هما يومًا في ذلك البرج ، إذا عنكبوت في السقف ، فقالت : هذا يقتلني ؟ لا يقتله أحد غيري! فحركته فسقط ، فأتته فوضعت إبهام رجلها عليه فشدَخَتْه ، وساحَ سمه بين ظفرها واللحم ، فاسودت رجلها فماتت. فنزلت هذه الآية : {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}"[١].

وأما الأثر الثاني: فلا يصلح أن يكون قولا آخر ، لأن السياق يأباه، وإنما هو كما سماه ابن كثير رحمه الله :"حكاية"[٢]، أي: عمن مضى. والله أعلم.

قوله تعالى:{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء : ٧٨]، "أي: في أي مكانٍ وجدتم فلا بدّ أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجلِ ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة"[٣].

قال الزمخشري:أي:" أينما تكونوا في ملاحم حروب أو غيرها، والبروج: الحصون"[٤].

وفي «البروج» ها هنا، أربعة أقوال :

أحدها:أنها القصور، وهو قول مجاهد[٥]، وقتادة[٦]، وابن جريج[٧]. وهو قول الجمهور[٨].

والثاني: أنها قصور في السماء بأعيانها تسمى بهذا الاسم ، وهو قول أبي العالية[٩]، والسدي[١٠]، والربيع[١١]، وأبي مالك[١٢].

والثالث: أنها البيوت التي في الحصون وهو قول بعض البصريين[١٣].

والرابع: أن قوله:{بروج مشيدة}، معناه:" في قصور من حديد". حكاه النقاش عن ابن عباس[١٤]. وضعفه ابن عطية[١٥].

---

[١] تفسير الطبري(٩٩٥٨):ص٥٥١/٨-٥٥٢. وهو مرسل ضعيف.

[٢] تفسير ابن كثير:٣٦١/٢.

[٣] صفوة التفاسير:٢٦٧/١.

[٤] الكشاف:٥٣٨/١.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٩٥٨):ص٥٥٢/٨-٥٥٣.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٩٥٧):ص٥٥٢/٨.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٩٥٩):ص٥٥٣/٨.

[٨] انظر: المحرر الوجيز:٨٠/٢.

[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٦٤١):ص١٠٠٨/٣.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٩٦٠):ص٥٥٣/٨.

[١١] انظر: تفسير الطبري(٩٩٦١):ص٥٥٣/٨.

[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٦٤١):ص١٠٠٨/٣.

[١٣] انظر: النكت والعيون:٥٠٨/١.

[١٤] انظر: المحرر الوجيز:٨٠/٢.

[١٥] انظر: المحرر الوجيز:٨١/٢، وقال:" وهذا لا يعطيه اللفظ، وإنما البروج في القرآن إذا وردت مقترنة بذكر السماء بروج المنازل للقمر وغيره على ما سمتها العرب وعرفتها، وبرج معناه ظهر، ومنه البروج أي المطولة الظاهرة، ومنه تبرج المرأة".

قال ابن عطية:" فالأكثر والأصح أنه أراد البروج والحصون التي في الأرض المبنية، لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة، فمثل الله لهم بها"[1].

وفي معنى «المُشَيَّدَةِ»، أقوال:

أحدها : المجصصة ، والشيد الجص ، وهذا قول عكرمة[2]، وبعض البصريين[3].

والثاني : الحصينة. وهذا قول الضحاك[4]، وأبي مالك[5].

والثالث: أن المُشَيَّدَ المطول في الارتفاع، يقال شاد الرجل بناءه وأشاده إذا رفعه ، ومنه أَشدت بذِكِرْ الرجل إذا رَفَعْتَ منه ، وهذا قول الزجاج[6].

والرابع: أن المُشَيَّد ، بالتشديد : المُطَّول ، وبالتخفيف : المجصَّص[7].

قال البيضاوي:قوله {في بروج مشيدةؤ، أي:" في قصور أو حصون مرتفعة، والبروج في الأصل بيوت على أطراف القصور، من تبرجت المرأة إذا ظهرت"[8].

وقرئ :{يدرككم}، بالرفع، وقيل: هو على حذف الفاء[9].

وقرئ :{مشيدة}، من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجص. وقرأ نعيم بن ميسرة {مشيدة}، بكسر الياء وصفا لها بفعل فاعلها مجازا كما قالوا: قصيدة شاعرة، وإنما الشاعر فارضها[10].

قوله تعالى:{وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [النساء : ٧٨]، أي:" وإن يحصل لهم ما يسرُّهم من متاع هذه الحياة، ينسبوا حصوله إلى الله تعالى"[11].

قال أبو العالية:" هذه في السراء"[12].

قال السدي:" والحسنة: الخصب، تنتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم وتحسن حالهم، وتلد نساؤهم الغلمان. قالوا: هذه من عند الله"[13].

قال الطبري:أي:" وإن ينلهم رخاء وظفر وفتح ويصيبوا غنيمة،[يقولوا هذه]: من قبل الله ومن تقديره"[14].

قال الزمخشري:" المعنى: وإن تصبهم نعمة من خصب ورخاء نسبوها إلى الله"[15].

---

(١) المحرر الوجيز:٨٠/٢.

(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٦٤٤):ص١٠٠٨/٣.

(٣) انظر: النكت والعيون:٥٠٩/١.

(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٦٤٢):ص١٠٠٨/٣.

(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٦٤٢):ص١٠٠٨/٣.

(٦) انظر: معاني القرآن:٧٩/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري:٥٥٤/٨، والنكت والعيون:٥٠٩/١.

(٨) تفسير البيضاوي:٨٥/٢.

(٩) انظر: الكشاف:٥٣٧/١.

(١٠) انظر: الكشاف:٥٣٨/١.

(١١) التفسير الميسر:٢٦٧.

(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٤٥):ص١٠٠٨/٣.

(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٤٦):ص١٠٠٨/٣.

(١٤) تفسير الطبري:٥٥٥/٨.

(١٥) الكشاف:٥٣٨/١.

قال ابن عطية:أي:" وإن تصب هؤلاء المنافقين حسنة من هزم عدو أو غنيمة أو غير ذلك رأوا أن ذلك بالاتفاق من صنع الله، لا أنه ببركة اتباعك والإيمان بك"[1].

قوله تعالى:{وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} [النساء : ٧٨]، أي:" وإن يقع عليهم ما يكرهونه ينسبوه إلى الرسول محمد ﷺ جهالة وتشاؤمًا"[2].

قال أبو العالية:" فهذه في الضراء"[3].

قال ابن عطية:" أي هزيمة أو شدة جوع وغير ذلك، قالوا: هذه بسببك، لسوء تدبيرك، وقيل لشؤمك علينا"[4].

قال الطبري:أي:" وإن تنلهم شدة من عيش وهزيمة من عدو وجراح وألم ، يقولوا لك يا محمد : {هذه من عندك}، بخطئك التدبير، وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره عن الذين قال فيهم لنبيه : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ}[5] "[6].

قال الزمخشري:أي:" وإن تصبهم بلية من قحط وشدة أضافوها إليك، وقالوا: هي من عندك، وما كانت إلا بشؤمك، كما حكى الله عن قوم موسى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ} [الأعراف : ١٣١]، وعن قوم صالح: {قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ} [النمل : ٤٧]، وروى عن اليهود- لعنت- أنها تشاءمت برسول الله ﷺ فقالوا: منذ دخل المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها، فرد الله عليهم قل كل من عند الله يبسط الأرزاق ويقبضها على حسب المصالح"[7].

قال السدي:" والسيئة: الجدب والضرر في أموالهم وتأشموا بمحمد ﷺ، قالوا: هذه من عندك، يقولون: بتركنا ديننا واتباع محمد أصابنا هذا البلاء، فأنزل الله تعالى: {قل كل من عند الله}"[8].

عن ابن وهب قال:"قال ابن زيد في قوله : {وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك}، فقرأ حتى بلغ : {وأرسلناك للناس رسولا}، قال : إن هذه الآيات نزلت في شأن الحرب. فقرأ:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا }، فقرأ حتى بلغ : {وإن تصبهم سيئة}، يقولوا : هذه من عند محمد عليه السلام ، أساء التدبير وأساء النظر! ما أحسن التدبير ولا النظر "[9].

في القائلين {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ}[النساء : ٧٨]، قولان :

أحدهما : أنهم المنافقون ، وهو قول الحسن[10]، واختيار ابن عطية[11].

والثاني : اليهود ، وهو قول الزجاج [1].

---

[1] المحرر الوجيز:٨١/٢.

[2] التفسير الميسر:٢٦٧.

[3] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٤٧):ص١٠٠٩/٣.

[4] المحرر الوجيز:٨١/٢.

[5] [سورة النساء:٧٧].

[6] تفسير الطبري:٥٥٥/٨.

[7] الكشاف:٥٣٨/١.

[8] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٤٩):ص١٠٠٩/٣.

[9] أخرجه الطبري(٩٩٦٤):ص٥٥٦/٨.

[10] انظر: النكت والعيون:٥٠٩/١.

[11] انظر: المحرر الوجيز:٨١/٢.

قال الزجاج:" قيل كانت إليهود - لعنت - تشاءمت برسول الله - ﷺ - عند دخوله المدينة فقالت: منذ دخل المدينة نقصت ثمارنا وغلت أسعارنا، فأعلم الله عز وجل أن الخصب والجدب من عند الله"[٢].

قال ابن عطية:" و«الهاء والميم» في قوله: {وإن تصبهم}، رد على الذين قيل لهم، {كفوا أيديكم}، وهذا يدل على أنهم المنافقون، لأن المؤمنين لا تليق بهم هذه المقالة، ولأن اليهود لم يكونوا للنبي عليه السلام تحت أمر، فتصيبهم بسببه أسواء"[٣].

وفي «الحسنة والسيئة» ها هنا، أربعة وجوه:

أحدها : السراء والضراء. وهذا قول أبي العالية[٤] .

والثاني : النعم والمصائب. وهو قول قتادة[٥].

والثالث: النعم والابتلاء. وهذا معنى قول ابن عباس[٦].

والثالث : النصر والهزيمة ، وهو قول الحسن[٧]، وابن زيد[٨].

والرابع: الخصب والجذب. وهذا قول الزجاج[٩].

قال ابن عطية:" وهذا كله شيء واحد"[١٠].

قال الزمخشري:" السيئة: تقع على البلية والمعصية. والحسنة: على النعمة والطاعة. قال الله تعالى: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف : ١٦٨]، وقال: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود : ١١٤]"[١١].

وفي قوله :{مِنْ عِندِكَ}[النساء : ٧٨]، تأويلان :

أحدهما : أي بسوء تدبيرك ، وهو قول ابن زيد [١٢].

والثاني : يعنون بالشؤم الذي لحقنا منك على جهة التطُّير به، وهذا قول الزجاج[١٣]، ومثله قوله تعالى:{وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ}[الأعراف : ١٣١].

روي عن مطرف أن عبد الله قال: "ما تريدون من القدر؟ ما تكفيكم الآية التي في سورة النساء: {وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك}؟ أي من نفسك، والله ما وكلوا القدر وقد أمروا، وإليه يصيرون"[١٤].

قوله تعالى:{قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [النساء : ٧٨]، أي:قل لهم -يا محمد-" أن ذلك كله من عند الله وحده، بقضائه وقدره"[١].

---

[١] انظر: معاني القرآن:٢/٧٩.

[٢]معاني القرآن:٢/٧٩.

[٣] المحرر الوجيز:٢/٨١.

[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٩٦٢)، و(٩٩٦٣):ص٨/٥٥٥-٥٥٦.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٩٦٥):٨/٥٥٦-٥٥٧.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٩٦٧):٨/٥٥٧.

[٧] انظر: النكت والعيون:١/٥٠٩.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٩٦٤):ص٨/٥٥٦.

[٩] انظر: معاني القرآن:٢/٧٩.

[١٠] المحرر الوجيز:٢/٨١.

[١١] الكشاف:١/٥٣٨.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(٩٩٦٤):ص٨/٥٥٦.

[١٣] انظر: معاني القرآن:٢/٧٩.

[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٤٨):ص٣/١٠٠٩.

قال قتادة:" النعم والمصائب"[٢].
قال ابن زيد:"النصر والهزيمة"[٣].
قال ابن عباس:" يقول : الحسنة والسيئة من عند الله ، أما الحسنة فأنعم بها عليك ، وأما السيئة فابتلاك بها"[٤]. وروي عن السدي نحو ذلك[٥].
قال الطبري: أي:"قل، يا محمد، لهؤلاء القائلين: كل ذلك من عند الله ، دوني ودون غيري ، من عنده الرخاء والشدة ، ومنه النصر والظفر ، ومن عنده القَلُّ والهزيمة... وهذا إعلام من الله عبادَه أن مفاتح الأشياء كلها بيده ، لا يملك شيئًا منها أحد غيره"[٦].
قال ابن عطية:" إعلام من الله تعالى، أن الخير والشر، والحسنة والسيئة خلق له ومن عنده، لا رب غيره ولا خالق ولا مخترع سواه، فالمعنى: قل يا محمد لهؤلاء: ليس الأمر كما زعمتم من عندي ولا من عند غيري، بل هو كله من عند الله"[٧].
قوله تعالى:{فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء : ٧٨]،أي:" ، فما بالهم لا يقاربون فَهْمَ أيِّ حديث تحدثهم به؟"[٨].
قال الزمخشري:اي:" فيعلموا أن الله هو الباسط القابض، وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب"[٩].
قال البيضاوي: أي:" يوعظون به، وهو القرآن، فإنهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا أن الكل من عند الله سبحانه وتعالى، أو حديثا ما كبهائم لا أفهام لها أو حادثا من صروف الزمان فيفتكرون فيه فيعملون أن القابض والباسط هو الله سبحانه وتعالى"[١٠].
عن السدي قوله: "{فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}، قال: يقول: القرآن"[١١].

الفوائد:

١- أن للموت أجلا محددا، وأن الله ﷻ أجل لكل مخلوق أجلا، وأن نفسا لن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا، فإذا انقضى الأجل فليس إلا الموت وليس منه فوت، قال الله تعالى: {ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} [الأعراف: ٣٤]، وإن مات أو قتل فقد انتهى أجله المسمى له قال الله تعالى: {قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم} [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: {أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة} [النساء: ٧٨].
٢-أن الإيمان يبعث فى النفس احتقار الموت والرغبة فى الاستشهاد من أجل الحق.

---

[١] التفسير الميسر:٢٦٧.
[٢] أخرجه الطبري(٩٩٦٥):٨/٥٥٦-٥٥٧.
[٣] أخرجه الطبري(٩٩٦٦):٨/٥٥٧.
[٤] أخرجه الطبري(٩٩٦٧):٨/٥٥٧.
[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٦٥٠):ص٣/١٠٠٩.
[٦] تفسير الطبري:٨/٥٥٦-٥٥٧.
[٧] المحرر الوجيز:٢/٨١.
[٨] التفسير الميسر:٢٦٧.
[٩] الكشاف:١/٥٣٨.
[١٠] تفسير البيضاوي:٢/٨٥.
[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٦١):ص٣/١٠٠٩.

إذ الإيمان يوحى بأن واهب العمر هو الله، وأنه لا ينقص بالإقدام، ولا يزيد بالأحجام؛ فكم من إنسان يموت وهو على فراشه الوثير، وكم من إنسان ينجو وهو يخوض غمرات المعارك والحروب!

قال الطحاوي:" وقدر لهم أقدارا، وضرب لهم آجالا"[١].

٣- وقد يحتج بعض الناس للقدرية النفاة بقوله تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك} [النساء: ٧٩] ، ويظنون أن المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعات والمعاصي.

وهؤلاء أخطؤوا الفهم، فالمراد بالحسنات هنا النعم، والمراد بالسيئات المصائب، يدلنا على صحة هذا الفهم سياق النص. قال تعالى: {أينما تكنوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلٌ من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً - ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك} [النساء: ٧٨ -٧٩] .

فالله يحكي عن المنافقين أنهم كانوا إذا أصابتهم حسنة مثل الرزق والنصر والعافية، قالوا: هذه من الله، وإذا أصابتهم سيئة - مثل ضَرْبٍ ومرض وخوف من عدو - قالوا: هذه من عندك يا محمد. أنت الذي جئت بهذا الدين الذي عادانا الناس لأجله، وابتلينا لأجله بهذه المصائب.

فالحسنات هنا النعم، والسيئات المصائب، وهذه كقوله تعالى: (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) [آل عمران: ١٢٠] ، وقوله: (وبلونهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) [الأعراف: ١٨٦] .

٤- أن المصائب والنعم لا تخرج عن قدر الله ومشيئته، قال تعالى:{ قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً} [النساء: ٧٨] .

القرآن

{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)} [النساء : ٧٩]

التفسير:

ما أصابك -أيها الإنسان- مِن خير ونعمة فهو من الله تعالى وحده، فضلا وإحسانًا، وما أصابك من جهد وشدة فبسبب عملك السيئ، وما اقترفته يداك من الخطايا والسيئات. وبعثناك -أيها الرسول- لعموم الناس رسولا تبلغهم رسالة ربك، وكفى بالله شهيدًا على صدق رسالتك.

قوله تعالى:{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النساء : ٧٩]، أي:" أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحانا"[٢].

قال الحسن:" ما أصابك من نعمة فمن الله "[٣].

قال ابن عباس في رواية عطية:" هذا يوم أحد"[٤].

وعن ابن عباس في رواية علي بن ابي طلحة:"ما فتح الله عليك يوم بدر"[٥]. وروي عن عن الضحاك نحو ذلك[٦].

قال مقاتل:" يعني: الفتح والغنيمة يوم بدر فمن الله كان"[١].

---

[١] عقيدة الطحاوية:٨.

[٢] صفوة التفاسير:٢٦٨.

[٣] أخرجه ابن المنذر(٢٠٢٧):ص٧٩٩/٢.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٥٢):ص١٠٠٩/٣.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٥٣):ص١٠١٠/٣.

[٦] انظر: تفسير ابن المنذر(٢٠٢٦):ص٧٩٩/٢، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٦٥٣):ص١٠١٠/٣.

قال الزجاج:" أي: ما أصبتم من غنيمة أو أتاكم من خصب فمن تفضل الله"[٢].
قال الطبري:أي:" ، ما يصيبك ، يا محمد ، من رخاء ونعمة وعافية وسلامة ، فمن فضل الله عليك ، يتفضل به عليك إحسانًا منه إليك"[٣].
واختلف في المراد بهذا الخطاب على ثلاثة أقاويل .
أحدها : أن الخطاب متوجه إلى النبي ﷺ - وهو المراد به. وهذا قول ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة[٤].
والثاني : أنه متوجه إلى النبي -ﷺ- والمراد به غيره ، وهو قول الزجاج[٥].
والثالث : أنه متوجه إلى الإنسان ، وتقديره : ما أصابك أيها الإنسان من حسنة فمن الله ، وهذا قول قتادة[٦].
قال ابن عطية:" والخطاب للنبي ﷺ، وغيره داخل في المعنى"[٧].
والراجح-والله أعلم – أن "الخطاب للنبي - ﷺ - يراد به الخلق، ومخاطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - قد تكون للناس جميعا لأنه عليه السلام لسانهم، والدليل على ذلك قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ }[٨]، فنادى النبي - ﷺ - وحده وصار الخطاب شاملا له ولسائر أمته"[٩].
قوله تعالى:{وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء : ٧٩]، أي:" وما أصابك من جهد وشدة فبسبب عملك السيئ، وما اقترفته يداك من الخطايا والسيئات"[١٠].
قال مقاتل:" يعني: البلاء من العدو، والشدة من العيش يوم أحد، {فمن نفسك}، يعني: فبذنبك، يعني: ترك المركز"[١١].
قال الطبري:" يعني : وما أصابك من شدة ومشقة وأذى ومكروه ، فبذنب استوجبتها به، اكتسبته نفسك"[١٢].
قال الزجاج:" أي: من جدب أو غلبة في حرب فمن نفسك، أي أصابكم ذلك بما كسبتم كما قال الله جل وعز {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}[١٣]"[١٤].
عن أبي هريرة قال:"لما نزلت ؟{من يعمل سوءا يجز به}، بلغت من المسلمين مبلغا شديدا فقال رسول الله ﷺ :«قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها»"[١].

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان: ١/٣٩١.
[٢] معاني القرآن: ٢/٨٠.
[٣] تفسير الطبري: ٨/٥٥٨.
[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٩٧٠):ص٨/٥٥٨
[٥] انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢/٧٩.
[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٩٦٩):ص٨/٥٥٨
[٧] المحرر الوجيز: ٢/٨٢.
[٨][سورة الطلاق : ١].
[٩] معاني القرآن للزجاج: ٢/٧٩.
[١٠] التفسير الميسر: ٩٠.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان: ١/٣٩١.
[١٢] تفسير الطبري: ٨/٥٥٨.
[١٣][سورة الشورى : ٣٠].
[١٤] معاني القرآن: ٢/٨٠.

أخرج ابن المنذر عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، قال: "هي في قراءة أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود: «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك»"[2].

وعن ابن مجاهد:" أن ابن عباس كان يقرأ قوله عز وجل: «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك»، قال مجاهد: وكذلك في قراءة أبي، وابن مسعود"[3].

وقال مقاتل:"وفي مصحف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب «فبذنبك وأنا كتبتها عليك»"[4].

وفي «الحسنة والسيئة»، ها هنا ثلاثة أقاويل:

أحدها : أن الحسنة النعمة في الدين والدنيا، والسيئة المصيبة في الدين والدنيا ، وهذا قول بعض البصريين[5].

والثاني : أن الحسنة ما أصابه يوم بدر، والسيئة ما أصابه يوم أحد من شج رأسه وكسر رباعيته ، وهو قول ابن عباس[6]، والحسن[7].

والثالث : أن الحسنة الطاعة ، والسيئة المعصية ، وهذا قول أبي العالية[8].

وفي قوله تعالى:{ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء : ٧٩]، قولان:

أحدهما : يعني فبذنبك. وهذا قول قتادة[9]، والسدي[10]- وابن جريج[11]، وابن زيد[12]، وأبي صالح[13].

والثاني : فبفعلك[14].

قوله تعالى:{وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا } [النساء : ٧٩]، أي:" وبعثناك -أيها الرسول- لعموم الناس رسولا تبلغهم رسالة ربك"[15].

---

[1] أخرجه الحميدي(١١٤٨)، وأحمد(٧٣٨٠):ص٢/٢٤٨، ومسلم(١٦/٨، والترمذي(٣٠٣٨)، والنسائي في الكبرى(١١٠٥٧).

[2] تفسير ابن المنذر(٢٠٢٨):ص٢/٨٠٠.

[3] أخرجه ابن المنذر(٢٠٢٩):ص٢/٨٠٠.

[4] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩١.

[5] انظر: النكت والعيون:١/٥٠٩.

[6] انظر: تفسير الطبري(٩٩٧٠):ص٨/٥٥٨، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٦٥٤):ص٣/١٠١٠، و(٥٦٥٧):ص٣/١٠١٠، و(٥٦٥٨):ص٣/١٠١٠.

[7] انظر: النكت والعيون:١/٥٠٩.

[8] انظر: تفسير الطبري(٩٩٧٢):ص٨/٥٥٩.

[9] انظر: تفسير الطبري(٩٩٧١):ص٨/٥٥٩.

[10] انظر: تفسير الطبري(٩٩٦٨):ص٨/٥٥٨.

[11] انظر: تفسير الطبري(٩٩٧٤):ص٨/٥٥٩.

[12] انظر: تفسير الطبري(٩٩٧٥):ص٨/٥٥٩.

[13] انظر: تفسير الطبري(٩٩٧٦):ص٨/٥٥٩.

[14] انظر: النكت والعيون:١/٥٠٩.

[15] التفسير الميسر:٩٠.

قال الطبري:أي:" إنما جعلناك ، يا محمد ، رسولا بيننا وبين الخلق ، تبلّغهم ما أرسلناك به من رسالة ، وليس عليك غير البلاغ وأداء الرسالة إلى من أرسلت ، فإن قبلوا ما أرسلت به فلأنفسهم ، وإن ردُّوا فعليها"[1].

قال الزمخشري:" أي: رسولا للناس جميعا لست برسول العرب وحدهم، أنت رسول العرب والعجم، كقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ} [سبأ : ٢٨]، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف : ١٥٨]"[2].

قال ابن كثير:" أي : تبلغهم شرائع الله ، وما يحبه ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه"[3].

قال أبو صالح:"أرسل: بعث"[4].

قال الزجاج:" معنى «الرسول» ههنا مؤكد لقوله: {وأرسلناك}، لأن {وأرسلناك للناس} تدل على أنه رسول"[5].

قوله تعالى:{وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} [النساء : ٧٩]، أي:" وحسبك أن يكون الله شاهداً على صدق رسالتك"[6].

قال الزمخشري:أي:" وكفى بالله شهيدا على ذلك، فما ينبغي لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك"[7].

قال ابن كثير:" أي : على أنه أرسلك ، وهو شهيد أيضا بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه ، وبما يردون عليك من الحق كفرا وعنادًا"[8].

قال مقاتل:" يعني: فلا شاهد أفضل من الله بأنك رسوله"[9].

قال الزجاج:" أي: الله قد شهد أنه صادق، وأنه رسوله"[10].

قال الطبري:أي:" حسبك الله تعالى ذكره ، شاهدًا عليك في بلاغك ما أمرتك ببلاغه من رسالته ووحيه، وعلى من أرسلت إليه في قبولهم منك ما أرسلت به إليهم ، فإنه لا يخفى عليه أمرك وأمرهم ، وهو مجازيك ببلاغك ما وعدَك ، ومجازيهم ما عملوا من خير وشر ، جزاء المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته"[11].

قال ابن عطية:" توعد للكفرة، وتهديد تقتضيه قوة الكلام، لأن المعنى شهيدا على من كذبه، والمعنى أن الرسول إنما يأمر وينهى بيانا من الله وتبليغا، فإنما هي أوامر الله ونواهيه"[12].

قال أنس بن مالك:" بينا نحن مع رسول الله ﷺ جلوس في المسجد، إذ دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال: أيكم محمد، ورسول الله ﷺ متكئ بين ظهرانيهم. قال:

---

[1] تفسير الطبري:٥٦١/٨.

[2] الكشاف:٥٣٩/١.

[3] تفسير ابن كثير:٣٦٣/٢.

[4] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٦٢):ص١٠١١/٣.

[5] معاني القرآن:٨٠/٢.

[6] انظر: صفوة التفاسير:٢٦٨، والتفسير الميسر:٩٠.

[7] الكشاف:٥٣٩/١.

[8] تفسير ابن كثير:٣٦٣/٢.

[9] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩١/١.

[10] معاني القرآن:٨٠/٢.

[11] تفسير الطبري:٥٦١/٨.

[12] المحرر الوجيز:٨٢/٢.

فقلنا له: هو الأبيض الرجل المتكئ. قال:يا ابن المطلب، فقال له رسول الله ﷺ: قد أجبتك. فقال له الرجل: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك علي. قال: سل عما بدا لك، فقال: أنشدك بربك ورب من كان قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم نعم"[١].

الفوائد:

١-الآية فيه الرد على القدرية، فإن مذهب أهل السنة أن القدر خيره وشره، وحلوه ومره، من الله تعالى، ،وفي حديث جبرائيل: "وتؤمن بالقدر خيره وشره"[٢]، فقوله تعالى، {فَمِنْ نَفْسِكَ} محمولٌ محمولٌ على السبب الذي سبق من الربِّ تقديره بدليل قوله: {ما أصابَكَ}.

٢- وصف الله عَزَّ وجَلَّ بأنه (شهيد) ، والشهيد اسم من أسمائه تعالى،و"هو الذي لا يغيب عنه شيء، يقال: شاهد وشهيد؛ كعالم وعليم؛ أي أنه حاضر يشاهد الأشياء ويراها"[٣].

قال السعدي:" الشهيد؛ أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه"[٤].

قال النبي-ﷺ-:" اللهم اشهد! فليبلغ الشاهد الغائب"[٥].

القرآن

{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)} [النساء : ٨٠]

التفسير:

من يستجب للرسول ﷺ، ويعمل بهديه، فقد استجاب لله تعالى وامتثل أمره، ومن أعرض عن طاعة الله ورسوله فما بعثناك -أيها الرسول- على هؤلاء المعترضين رقيبًا تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، فحسابهم علينا.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أنها نزلت في المنافقين. وهذا قول أكثر المفسرين[٦].

قال مقاتل:" وذلك أن النبي- ﷺ- قال في المدينة «من أحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله»[٧]. فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى هذا الرجل وما يقول؟ لقد قارب الشرك وهو

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٦٣):ص١٠١١/٣.

[٢]رواه مسلم "٩" من حديث عمر رضي الله عنه.

[٣] جامع الأصول، ابن الأصير:١٧٩/٤.

[٤] تفسير السعدي:٣٠٣/٥.

[٥]رواه: البخاري (٧٠٧٨) ، ومسلم (١٦٧٩-٣١).

[٦] انظر: تفسير مقاتل:٣٩٢/١، وتفسير الماتريدي:٢٦٩/٣، والكشاف: ٥٣٩/١، ومفاتيح الغيب:١٥٠/١٠، وتفسير البيضاوي: ٨٦/٢، والمحرر الوجيز:٨٢/٢، وتفسير السعدي:٢٠٦/٢.

[٧]لم أجد الحديث في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ولم أجده في صحيح البخاري ولا في مسند الإمام أحمد. وإنما ورد في صحيح البخاري (٥٦) كتاب الجهاد والسير (١٠٩) باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به رقم الحديث (٢٩٥٧) «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله ... إلخ»، و ذكره المناوي في فتح السماوي(٣٨٠):ص٥٠٤/٢، قال الولي العراقي: لم أقف عليه هكذا، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده، وقد ورد هذا الحديث في بعض كتب التفاسير، مثل: تفسير مقاتل:٣٩٢/١، وتفسير الماتريدي:٢٦٩/٣، و والكشاف: ٥٣٩/١، ومفاتيح الغيب:١٥٠/١٠، وتفسير البيضاوي: ٨٦/٢، والمحرر الوجيز:٨٢/٢، وتفسير السعدي:٢٠٦/٢، وغيرها.

ينهي ألا يعبد إلا الله، فما حمله على الذي قال إلا أن نتخذه حنانا- يعنون ربا- كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم حنانا. فأنزل الله- عز وجل- تصديقا لقوله نبيه- ﷺ-:{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}"[١].

قال الزمخشري:"وروى أنه قال: «من أحبنى فقد أحب الله، ومن أطاعنى فقد أطاع الله»[٢]، فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل، لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله! ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى، فنزلت "[٣].

والثاني: أنها نزلت في اليهود.

قال ابن عطية:" قالت فرقة: سبب هذه الآية أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبني فقد أحب الله»[٤]، فاعترضت اليهود عليه في هذه المقالة، وقالوا: هذا محمد يأمر بعبادة الله وحده، وهو في هذا القول مدع للربوبية، فنزلت هذه الآية تصديقا للرسول عليه السلام، وتبيينا لصورة التعلق بينه وبين فضل الله تعالى"[٥].

قوله تعالى:{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء : ٨٠]، أي:" من يستجب للرسول ﷺ، ويعمل بهديه، فقد استجاب لله تعالى وامتثل أمره"[٦].

قال الزجاج:" أي: من قبل ما أتى به الرسول فإنما قبل ما أمر الله به"[٧].

قال التستري:" يعني: من يطع الرسول ﷺ في سنته فقد أطاع الله في فرائضه"[٨].

قال الحسن: "جعل الله طاعة رسوله طاعته، وقامت به الحجة على المسلمين"[٩].

قال السمرقندي:" يعني: من يطع الرسول فيما أمره فقد أطاع الله، لأن النبي ﷺ كان يدعوهم بأمر الله تعالى، وفي طاعة الله تعالى"[١٠].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى"[١١].

قال الماتريدي:" لأن الله - تعالى - أمر بطاعة الرسول، فإذا أطاع رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقد أطاع الله - تعالى - لأنه اتبع أمره؛ ألا ترى أنه قال - عز وجل -: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [المائدة : ٩٢، والتغابن:٦٤]، وحتى جعل طاعة الرسول من شرط الإيمان بقوله - عز وجل -: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [النساء : ٦٥]الآية،... فطاعة الله - تعالى - إنما تكون في اتباع أمره، وانتهاء مناهيه، وكذلك حبه إنما يكون في اتباع أمره ونواهيه؛ كقوله - تعالى -: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران : ٣١]"[١٢].

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩١-٣٩٢.

[٢] سبق تخريجه.

[٣] الكشاف:١/٥٣٩.

[٤] سبق تخريجه.

[٥] المحرر الوجيز:٢/٨٢.

[٦] التفسير الميسر:٩٠.

[٧] معاني القرآن:٢/٨٠.

[٨] تفسير التستري:١٨.

[٩] الوجيز للواحدي:٢/٨٤.

[١٠] تفسير السمرقندي:١/٣٢٠.

[١١] تفسير ابن كثير:٢/٣٦٤.

[١٢] تفسير الماتريدي:٣/٣٦٩.

قال الشافعي:" أبان لهم أنَّ ما قبلوا عن نبيه - ﷺ -، فعنه جل ثناؤه قبلوا بما فرض من طاعة رسوله في غير موضع من كتابه"[1].

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني»"[2].

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر، قال:" قال رسول الله ﷺ: «ألستم تعلمون أني رسول الله إليكم "؟ قالوا: بلى نشهد أنك رسول الله، قال: «ألستم تعلمون أن الله أنزل في كتابه أنه من أطاعني فقد أطاع الله؟»، قالوا: بلى، نشهد أنه من أطاعك فقد أطاع الله، قال:« فإن من طاعة الله أن تطيعوني، وإن من طاعتي أن تطيعوا أئمتكم، وإن صلوا قعودا، فصلوا قعودا أجمعين»"[3].

قوله تعالى:{وَمَنْ تَوَلَّى} [النساء : ٨٠]، "أي: ومن أعرض عن طاعتك"[4].

قال ابن عباس، ومقاتل: "أعرض عن طاعتك يا محمد"[5].

قوله تعالى:{فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء : ٨٠]، أي:" أي ومن أعرض عن طاعتك، فما بعثناك -أيها الرسول- على هؤلاء المعترضين رقيبًا تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، فحسابهم علينا"[6].

قال مقاتل:" يعني: رقيبا"[7].

قال أبو عبيدة:" أي: محاسبا "[8].

قال السدي وابن قتيبة:"{حفيظا}، أي:محاسبا لهم"[9].

قال ابن عباس:"رقبلا تؤخذ بهم"[10].

قال الواحدي:أي:" حافظا من التولي والإعراض"[11].

قال الزمخشري:أي:" لا حفيظا ومهيمنا عليهم تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم، كقوله: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام : ، الزمر:٤١، الشورى:٦١٠٧] "[12].

قال الزجاج:أي:" أنك لا تعلم غيبهم إنما لك ما ظهر منهم"[13].

وقد ذهب قوم منهم عبد الرحمن بن زيد، إلى أن هذه الآية نزلت في بداية الأمر ثم نسخت بآية السيف، أخرج الطبري عن ابن وهب قال: "سألت ابن زيد عن قول الله : {فما

---

[1] تفسير الإمام الشافعي:٦٢٣/٢.

[2] تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٦٤):ص١٠١١/٣، وأخرجه البخاري كتاب الجهاد ٤/ ٦٠، ومسلم كتاب الاماره(١٨٣):ص ٦/ ١٣ .

[3] تفسير ابن المنذر(٢٠٣٤):ص٨٠١/٢.

[4] انظر: التفسير الميسر:٩٠، وصفوة التفاسير:٢٦٨..

[5] الوجيز للواحدي:٨٤/٢.

[6] انظر: التفسير الميسر:٩٠، وصفوة التفاسير:٢٦٨..

[7] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٢/١.

[8] أخرجه ابن المنذر(٢٠٣٦):ص٨٠٢/٢.

[9] انظر: زاد المسير:١٤٢/٢، ونواسخ القرآن لابن الجوزي:٣٧٨/٢.

[10] انظر: زاد المسير:١٤٢/٢، ونواسخ القرآن لابن الجوزي:٣٧٨/٢.

[11] الوجيز للواحدي:٨٤/٢.

[12] الكشاف:٥٣٩/١.

[13] معاني القرآن:٨٠/٢.

أرسلناك عليهم حفيظًا }، قال : هذا أول ما بعثه ، قال: { إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ }[سورة الشورى : ٤٨]. قال : ثم جاء بعد هذا بأمره بجهادهم والغلظة عليهم حتى يسلموا"[١].
قال ابن الجوزي:"وفيه بعد، لأنه إذا كان تفسيرها ما ذكرنا[٢] فأي وجه للنسخ؟"[٣].

الفوائد:

١- إن الأصل الثاني من أصول الشريعة الإسلامية هو السنة. أي ما ثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قولاً أو فعلاً أو تقريراً. وقد أمرنا بالتمسك بها، قال تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر : ٧].

٢-أن الرسول - ﷺ - هو الناطق بالوحي، قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** (٤)} [النجم : ٣-٤]، وعلى ذلك جعلت طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله {من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً}، وقال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء : ١١٥].
ولذلك قرنت إطاعة الرسول بإطاعة الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} [الأنفال : ٢٠].
والآيات في هذه المعنى كثيرة جداً، ومنكر السنة النبوية الثابتة عن كافر، كما أن منكر القرآن خارج عن الملة الإسلامية، لأن السنة بيان للقرآن وتوضح وشرح له وتفسير لمعانيه ومطالبه {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل : ٤٤].

٣-قال الشافعي:" وضع الله نبيه - ﷺ - من دينه، وأهل دينه، موضع الإبانة عن كتاب الله - عزَّ وجلَّ معنى ما أراد الله، وفرض طاعته فقال:{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} ، وقال: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [النساء : ٦٥]، الآية، وقال: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} [النور : ٦٣]، الآية، فعلم أن الحق كتاب الله، ثم سُنَّة نبيه - صلى الله عليه وسلم -، فليس لمفتٍ ولا لحاكم، أن يفتي ولا يحكم حتى يكون عالماً بهما، ولا أن يخالفهما ولا واحداً منهما بحال، فإذا خالفهما فهو عاصٍ لله - عز وجل -، وحكمه مردود، فإذا لم يوجدا منصوصين فالاجتهاد"[٤].

٤-قال الثعلبي:" وفي قوله: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}، دليل على إبطال قول من زعم أن السنة تعرض على الكتاب لم يعمل بها وذلك إن كل ما نص الله عز وجل، عليه فإنما صار فرضا بالكتاب، فإذا عدم النص من الكتاب، وورد به السنة فوجب إتباعها، ومن خالفها فقد خالف رسول الله ﷺ، ومن خالف رسول الله فقد خالف الله، لأن في طاعة الرسول طاعة الله، فمن زعم أنه لم يقبل خبره إلا بعد أن يعرض على كتاب الله، فقد أبطل كل حكم ورد عنه ما لم ينص عليه الكتاب"[٥].

القرآن

{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)} [النساء : ٨١]

التفسير:

---

[١] تفسير الطبري (٩٩٧٩):ص٥٦٢/٨..

[٢] يقصد قول ابن عباس: ابن عباس:"رقبلا تؤخذ بهم".، وقول قال السدي وابن قتيبة:"{حفيظا}، أي:محاسبا لهم". كما وردت في زاد المسير:١٤٢/٢، ونواسخ القرآن:٣٧٨/٢.

[٣] نواسخ القرءن:٣٧٨/٢.

[٤] تفسير الإمام الشافعي:٦٢١/٢.

[٥] تفسير الثعلبي:٣٥٠/٣.

ويُظْهر هؤلاء المعرضون -وهم في مجلس رسول الله ﷺ- طاعتهم للرسول وما جاء به، فإذا ابتعدوا عنه وانصرفوا عن مجلسه، دبَّر جماعة منهم ليلا غير ما أعلنوه من الطاعة، وما علموا أن الله يحصي عليهم ما يدبرون، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، فتول عنهم -أيها الرسول- ولا تبال بهم، فإنهم لن يضروك، وتوكل على الله، وحسبك به وليّاً وناصرًا.

في سبب نزول الآية:

قال مقاتل:" وذلك أنهم دخلوا على النبي- ﷺ- فقالوا: مرنا بما شئت، فأمرك طاعة، فإذا خرجوا من عنده خالفوا، وقالوا غير الذي قال لهم النبي- ﷺ- فأنزل الله- عز وجل-: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ}...{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ }،يعني: الجلاس بن سويد، وعمرو بن زيد"[1].

وقد أخرج الطبري ابن عباس: "قوله : {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ}، وهم ناس كانوا يقولون عند رسول الله ﷺ :آمنا بالله ورسوله، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم. وإذا برزوا من عند رسول الله -ﷺ-، خالفوا إلى غير ما قالوا عنده ، فعابهم الله ، فقال :{ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ }، يقول : يغيرون ما قال النبي ﷺ"[2].

قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ} [النساء : ٨١]، "أي: ويقول المنافقون: أمرك يا محمد طاعة"[3].

قال ابن عباس:" فهم أناس كانوا يقولون عند رسول الله ﷺ آمنا بالله ورسوله، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم"[4].

قال السدي:" هؤلاء المنافقون الذين يقولون إذا حضروا النبي ﷺ، فأمرهم بأمر قالوا: طاعة"[5].

قال الماوردي:" يعني المنافقين ، أي أمرنا طاعة"[6].

قال السمعاني:" يعني: المنافقين يقولون باللسان: مرنا، فإن أمرك طاعة"[7].

قال الزمخشري:أي:" ويقولون إذا أمرتهم بشيء طاعة بالرفع أى أمرنا وشأننا طاعة. ويجوز النصب بمعنى أطعناك طاعة. وهذا من قول المرتسم: سمعا وطاعة، وسمع وطاعة"[8].
وطاعة"[8].

قال الزجاج:" قال النحويون تقديره: أمرنا طاعة. وقال بعضهم منا طاعة"[9].

قوله تعالى:{ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ} [النساء : ٨١]، أي:" فإذا ابتعدوا عنك وانصرفوا من مجلسك"[10].

قال السدي:" فإذا خرجوا من عندك"[11].

قال ابن عباس:" يقول: إذا برزوا من عند رسول الله ﷺ"[1].

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٢/١.

[2] تفسير الطبري(٩٩٨٥):ص٥٦٥/٨.

[3] صفوة التفاسير:٢٦٨.

[4] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٦٥):ص١٠١٢/٣.

[5] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٦٦):ص١٠١٢/٣.

[6] النكت والعيون:٥٠٩/١.

[7] تفسير السمعاني:٤٥١/١.

[8] الكشاف:٥٣٩/١.

[9] معاني القرآن:٨١/٢.

[10] انظر: صفوة التفاسير:٢٦٨، والتفسير الميسر:٩١.

[11] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٦٧):ص١٠١٢/٣.

قال مقاتل:" يعني: خرجوا من عندك يا محمد"[٢].
قوله تعالى:{بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ} [النساء : ٨١]، أي:" دبّر جماعة منهم- ليلا- غير الذي تقوله لهم"[٣].
قال السمعاني:" أي: خالفوا بالليل ما قالوا بالنهار"[٤].
قال مقاتل:" يقول: ألفت طائفة منهم غير الذي تقول"[٥].
قال الضحاك:" هم المنافقون"[٦].
قال الطبري: أي:" غيَّر جماعة منهم ليلا الذي تقول لهم"[٧].
قال أبو عبيدة:" أي قدروا ذلك ليلا"[٨].
قال الزمخشري:أي:" زورت طائفة وسوت خلاف ما قلت وما أمرت به. أو خلاف ما قالت وما ضمنت من الطاعة، لأنهم أبطلوا الرد لا القبول، والعصيان لا الطاعة. وإنما ينافقون بما يقولون ويظهرون"[٩].
قال الزجاج:" أي: فلست حفيظا عليهم تعلم ما يغيب عنك من شأنهم ، وهذا ونظائره في كتاب الله من أبين آيات النبي - ﷺ - ، لأنهم ما كانوا يخفون عنه أمرا إلا أظهره الله عليه"[١٠].
قال مجاهد:" الطائفة: رجل"[١١]. وفي رواية أخرى:" الطائفة: رجل إلى ألف رجل"[١٢].
وفي تفسير قوله تعالى:{ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ} [النساء : ٨١]، قولان:
أحدهما : أنها غيّرت ما أضمرت من الخلاف فيما أمرتهم به أو نهيتهم عنه ، وهذا قول ابن عباس[١٣]، وقتادة[١٤]، والسدي[١٥].
والثاني : معناه فدبَّرت غير الذي تقول على جهة التكذيب ، وهذا قول الحسن[١٦].
قال الماوردي:"والتبييت كل عمل دُبِّر ليلاً"[١٧].

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٦٨):ص١٠١٢/٣.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٢/١.
[٣] انظر: صفوة التفاسير:٢٦٨، والتفسير الميسر:٩١.
[٤] تفسير السمعاني:٤٥٢/١.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٢/١.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٧١):ص١٠١٢/٣.
[٧] تفسير الطبري:٥٦٢/٨.
[٨] أخرجه ابن المنذر(٢٠٣٩):ص٨٠٣/٢.
[٩] الكشاف:٥٣٩/١.
[١٠] معاني القرآن:٨١/٢.
[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٧٢):ص١٠١٣/٣.
[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٧٣):ص١٠١٣/٣.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(٩٩٨١):ص٥٦٤/٨.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(٩٩٨٠):ص٥٦٤/٨.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(٩٩٨٢):ص٥٦٤/٨.
[١٦] انظر: النكت والعيون:٥١٠/١.
[١٧] النكت والعيون:٥٠٩/١.

قال أهل العلم: يقال لكل أمر قد قضي بليل قد بيت، وكل عمل عُمِل ليلا فقد " بُيِّت " ، ومن ذلك " بيَّت " العدو ، وهو الوقوع بهم ليلا ومنه قول عبيدة بن همام[1]:

أتوني فلم أرض ما بيّتوا وكانواْ أتوْني بأمرٍ نُكُر
لأنْكِحَ أَيِّمَهُمْ مُنْذِرًا وَهَلْ يُنْكِحَ الْعَبْدَ حُرٌّ لِحُرْ؟!

يعني بقوله : " فلم أرض ما بيتوا " ، ليلا، أي : ما أبرموه ليلا وعزموا عليه ، ومنه قول النمر بن تولب العُكْليّ [2]:

هَبَّتْ لِتَعْذُلَنِي مِنَ اللَّيْل اسْمَع! سَفَهًا تُبَيِّتُكِ المَلامَةُ فَاهْجَعِي[3]

قال الزمخشري:" التبييت: إما من البيتوتة لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل، يقال: هذا أمر بيت بليل. وإما من أبيات الشعر، لأن الشاعر يدبرها ويسويها"[4].

قال أبو رزين: "بيت أي: ألف. وقال غيره: بيت، أي: بدل"[5]

قال السمعاني:"والأصح أنه من التبييت، وهو فعل الشيء ليلا، يقال: هذا أمر بيت ليلا، قيل: أي: فعل بالليل، ويجوز أن يقال لما فعل بالنهار: تبييتا؛ لأن الفعل بالليل إنما سمى تبييتا؛ لأن الإنسان بالليل يكون أفرغ لتدبير أمره، فعلى هذا المعنى يجوز أن يقال لما فعل بالنهار: تبييتا، قال الشاعر[6]:

بيتوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحوا على ضوضاء"[7]

وفي تسمية العمل بالليل «بياتاً»، قولان[8]:

أحدهما : لأن الليل وقت المبيت .

والثاني : لأنه وقت البيوت.

وقرئ :{بيت طائفة}، بالإدغام وتذكير الفعل، لأن تأنيث الطائفة غير حقيقى، ولأنها في معنى الفريق والفوج[9].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ} [النساء : ٨١]، أي:" والله يحصي عليهم ما يدبرون، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء"[10].

---

[1] انظر البيت في: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٣٣ ، الحيوان ٤ / ٣٧٦ ، الكامل ٢ / ٣٥ ، ١٠٦ ، الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١ / ٢٦٣ ، ديوان الأسود بن يعفر لنهشلي ، أعشى بني نهشل ، في ديوان الأعشين : ٢٩٨ ، اللسان (نكر). وروى : " فقد طرقوني بشيء " . " طرقوني " : أتوني ليلا. و " نكر " بضمتين ، مثل " نكر " بضم فسكون : الأمر المنكر الذي تتكره. والبيت يتممه الذي بعده.

[2] انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٣٣ ، والخزانة ١ / ١٥٣ ، والعيني (بهامش الخزانة) ٢ / ٥٣٦ ، وشرح شواهد المغني : ١٦١ ، وغيرها.

[3] انظر: تفسير الطبري: ٥٦٢/٨-٥٦٣، ومعاني القرآن:٨١/٢.

[4] الكشاف:٥٣٩/١.

[5] تفسير السمعاني:٤٥٢/١.

[6] لم اجد البيت بهذا اللفظ، وانشد الحارث بن حلزة في معلقته نحوه:" أَجْمَعُوا أمْرَهُمْ عِشَاءَ فلَمَّا.... أصْبَحُوا أصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لُهمْ ضَوْضَاءُ". انظر شرح المعلقات السبع للزوزني:٨٤.

[7] تفسير السمعاني:٤٥٢/١.

[8] انظر: النكت والعيون:٥١٠/١.

[9] انظر: الكشاف:٤٠.

[10] التفسير الميسر:٩١.

قال مقاتل:" يعني: الحفظة فيكتبون ما يقولون من الكذب"[1].
قال الطبري:أي:" والله يكتب ما يغيِّرون من قولك ليلا في كُتب أعمالهم التي تكتبها حَفَظته"[2].
قال الواحدي:" أي: يحفظ عليهم ليجازوا به"[3].
قال الزمخشري:أي:" يثبته في صحائف أعمالهم، ويجازيهم عليه على سبيل الوعيد. أو يكتبه في جملة ما يوحى إليك فيطلعك على أسرارهم فلا يحسبوا أن إبطانهم يغنى عنهم"[4].
عن عطاء: "قوله: {والله يكتب ما يبيتون}، قال: يغيرون ما يقول النبي ﷺ"[5].
وعن السدي:" قوله: {والله يكتب ما يبيتون}، يقول: ما يقولون"[6].
وفي تفسير قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ} [النساء : ٨١]، وجهان:
أحدهما : يكتبه في اللوح المحفوظ ليجازيهم عليه[7].
والثاني : يكتبه بأن ينزله إليك في الكتاب، وهذا قول الزجاج[8] .
قوله تعالى:{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [النساء : ٨١]، أي:" فتولّ عنهم -أيها الرسول- ولا تبال بهم"[9].
قال ابن عباس:"فاصفح عنهم"[10].
قال مقاتل:"يعني: الجلاس بن سويد، وعمرو بن زيد، فلا تعاتبهم"[11].
قال الزجاج:" أي لا تسم هؤلاء بأعيانهم لما أحب الله من ستر أمر المنافقين إلى أن يستقيم أمر الإسلام"[12].
قال الزمخشري:أي:" فأعرض عنهم ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم"[13].
قوله تعالى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [النساء : ٨١]، أي:" وفوّض أمرك إلى الله وثق به"[14].
قال مقاتل:"يعني: وثق بالله- عز وجل-"[15].
قال الواحدي:" اعتمد بأمرك عليه"[16].
قال محمد بن إسحاق:" أي: ارض به من العباد"[1].

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٢/١.
[2] تفسير الطبري:٥٦٤/٨.
[3] الوجيز:٨٦/٢.
[4] الكشاف:٥٣٩/١.
[5] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٥٧):ص١٠١٣/٣.
[6] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٥٨):ص١٠١٣/٣.
[7] انظر: معاني القرآن:٨١/٢، والنكت والعيون:٥١٠/١
[8] انظر: معاني القرآن:٨١/٢.
[9] التفسير الميسر:٩١.
[10] الوجيز للواحدي:٨٦/٢.
[11] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٢/١.
[12] معاني القرآن:٨١/٢.
[13] الكشاف:٥٣٩/١.
[14] صفوة التفاسير:٢٦٨.
[15] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٢/١.
[16] الوجيز للواحدي:٨٦/٢.

قال الزمخشري:أي:" وتوكل على الله في شأنهم"[٢].

قال التستري:" التوكل طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والتبري من الحول والقوة، قيل له: بماذا يصل العبد إليه؟ فقال: إن أول الأشياء المعرفة، ثم الإقرار، ثم التوحيد، ثم الإسلام، ثم الإحسان، ثم التفويض، ثم التوكل، ثم السكون إلى الحق جل وعز في جميع الحالات، وقال: لا يصح التوكل إلا للمتقي. قيل: ما التقوى؟ قال: كف الأذى"[٣].

قوله تعالى:{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } [النساء : ٨١]، أي:" وكفى بالله ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه"[٤].

قال الواحدي:" معتمدا وملجأ"[٥].

قال مقاتل:" يعني: وكفى به منيعا فلا أحد أمنع من الله- عز وجل- ويقال وكيلا يعني شهيدا لما يكتمون"[٦].

قال الزمخشري:أي:" فإن الله يكفيك معرتهم [٧]، وينتقم لك منهم إذا قوى أمر الإسلام وعز أنصاره"[٨].

قال البيضاوي:أي:" يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم"[٩].

وقد قد ذكر بعض المفسرين أن الإعراض في قوله تعالى:{ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، منسوخ عنهم بآية السيف، وقد ذكر النسخ ابن حزم[١٠]، وابن سلامة[١١]، وابن هلال[١٢]، كما ذكره ابن الجوزي وعزاه إلى ابن عباس، ولم يبد رأيه[١٣]. وأما النحاس ومكي بن أبي طالب فلم يتعرضا هنا لدعوى النسخ أصلا.

الفوائد:

١- أن من أبرز صفات المنافقين موالاة الكفار، وكراهية دين الله والتخذيل في صف المسلمين لذلك حين يبين الله حالهم للمؤمنين: كان لابد من مفاصلتهم والبراءة منهم ونزل في ذلك آيات توضح صور هذه المفاصلة وذلك البراء، منها: هذه الآية التي تشير إلى الإعراض عنهم.

٢- فضيلة التوكل على الله جل ثناؤه، فلما أكثر المنافقون من الدس والكيد والرياء أمره الوكيل - سبحانه - أن يتوكل عليه ليكفيه أمرهم ويدفع عنه أذاهم وكل ما لا يقدر على دفعه بنفسه.

٣-يوصف الله عَزَّ وجَلَّ بأنه «الوَكِيل»، وهذا ثابتٌ بالكتاب والسنة، وهو اسم من أسمائه، وهو هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقلُّ بأمر التوكل الموكَل إليه.

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٧٧):ص٣/١٠١٣.

[٢] الكشاف:١/٥٣٩-٥٤٠.

[٣] تفسير التستري:٥٤.

[٤] صفوة التفاسير:٢٦٨.

[٥] الوجيز للواحدي:٢/٨٦.

[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٢.

[٧]أي إثمهم.

[٨] الكشاف:١/٥٣٩-٥٤٠.

[٩] تفسير البيضاوي:٢/٨٦.

[١٠]في ناسخه ص: ٣٣٣..

[١١]في ناسخه ص: ٣٨.

[١٢]في ناسخه المخطوط :ورقة ٢٢.

[١٣] انظر: زاد المسير٢/ ١٤٣.

قال تعالى في آية أخرى:" {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل} [آل عمران: ١٧٣]، وقال الرسول-ﷺ-:" "حسبنا الله ونعم الوَكِيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ"[١].

القرآن

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)} [النساء : ٨٢]

التفسير:

أفلا ينظر هؤلاء في القرآن، وما جاء به من الحق، نظر تأمل وتدبر، حيث جاء على نسق محكم يقطع بأنه من عند الله وحده؟ ولو كان مِن عند غيره لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

قوله تعالى:{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [النساء : ٨٢]، أي:" أفلا ينظر هؤلاء في القرآن، وما جاء به من الحق، نظر تأمل وتدبر، حيث جاء على نسق محكم يقطع بأنه من عند الله وحده"[٢].

وحده"[٢].

قال الزجاج:" يعنى به المنافقون"[٣].

عن الضحاك: "{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}، قال: النظر فيه"[٤].

قال البيضاوي:" يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه"[٥].

قال الثعلبي:" يعني: أفلا يتفكرون في القرآن، فيرون بعضه يشبه بعضا، ويصدق بعضه بعضا، وإن أحدا من الخلائق لم يكن يقدر عليه فسيعلمون بذلك إنه من عند الله"[٦].

قال ابن أبي زمنين:" يقول: لو تدبروه، لم ينافقوا ولآمنوا"[٧].

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرًا عباده بتدبر القرآن ، وناهيا لهم عن الإعراض عنه ، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة"[٨].

قال الطبري:أي:" أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم ، يا محمد كتاب الله ، فيعلموا حجّة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك ، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم ، لاتِّساق معانيه ، وائتلاف أحكامه ، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق ، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق"[٩].

وقال ابن عباس في رواية الكلبي عنه في هذه الآية: "أفلا يتفكرون في القرآن فيرون بعضه يُشبه بعضًا، ويصدق بعضه بعضًا، وأن أحدًا من الخلائق لم يكن يقدر عليه، فيسلمون بذلك أنه من عند الله"[١٠].

قال الزمخشري:" تدبر الأمر: تأمله والنظر في إدباره وما يؤل إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه"[١١].

---

[١] رواه: البخاري (٤٥٦٣).

[٢] التفسير الميسر:٩١.

[٣] معاني القرآن:٢/٨٢.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٧٨):ص٣/١٠١٣.

[٥] تفسير البيضاوي:٢/٨٦.

[٦] تفسير الثعلبي:٣/٣٥٠.

[٧] تفسير ابن أبي زمنين:١/٣٩٠.

[٨] تفسير ابن كثير:٢/٣٦٤.

[٩] تفسير الطبري:٨/٥٦٧.

[١٠] تنوير المقباس" بهامش المصحف : ٩١، والتفسير البسيط للواحدي:٦/٦٣٢.

[١١] الكشاف:١/٥٤٠.

قوله تعالى:{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ} [النساء : ٨٢]، " أي: لو كان هذا القرآن مختلقاً كما يزعم المشركون والمنافقون"[١].

قال ابن كثير:" أي : لو كان مفتعلا مختلقا ، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم"[٢].

قوله تعالى:{لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء : ٨٢]، " أي: لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه"[٣].

قال الطبري: اي:" لاختلفت أحكامه ، وتناقضت معانيه ، وأبان بعضه عن فساد بعض"[٤].

قال قتادة:" أي قول الله لا يختلف فيه، حق ليس فيه باطل كقول الناس يختلف"[٥].

وقال ابن عباس في رواية الكلبي:" أي تفاوتًا وتناقضًا كثيراً"[٦].

قال مقاتل:{اخْتِلَافًا كَثِيرًا}" يعني: كذبا كبيرا، لأن الاختلاف في قول الناس، وقول الله- عز وجل- لا اختلاف فيه"[٧].

قال ابن كثير: {اخْتِلَافًا كَثِيرًا}،" أي: اضطرابا وتضادًّا كثيرًا. أي : وهذا سالم من الاختلاف ، فهو من عند الله"[٨].

قال الزمخشري:" لكان الكثير منه مختلفا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغا حد الإعجاز، وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته، وبعضه إخبارا بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني. وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائتة لقوى البلغاء وتناصر صحة معان وصدق إخبار، علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره، عالم بما لا يعلمه أحد سواه. فإن قلت: أليس نحو قوله: { فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ} [الأعراف : ١٠٧، الشعراء:٣٢] ، {كَأَنَّهَا جَانٌّ} [النمل : ١٠، القصص:٣١] ، {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر : ٩٢]، {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن : ٣٩] من الاختلاف؟ قلت: ليس باختلاف عند المتدبرين"[٩].

قال ابن المنكدر:" إنما يأتي الاختلاف من قلوب العباد، فأما ما جاء من عند الله فليس فيه اختلاف"[١٠].

عن ابن وهب قال ، قال ابن زيد : "إن القرآن لا يكذِّب بعضه بعضًا ، ولا ينقض بعضه بعضًا ، ما جهل الناس من أمرٍ ، فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم! وقرأ : {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا} . قال : فحقٌّ على المؤمن أن يقول : كل من عند الله، ويؤمن

---

[١] صفوة التفاسير:٢٦٨.

[٢] تفسير ابن كثير:٢/٣٦٤.

[٣] صفوة التفاسير:٢٦٨.

[٤] تفسير الطبري:٨/٥٦٧.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٧٩):ص٣/١٠١٣.

[٦]تنوير المقباس" بهامش المصحف : ٩١، والتفسير البسيط للواحدي:٦/٦٣٢.

[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٢-٣٩٣.

[٨] تفسير ابن كثير:٢/٣٦٤-٣٦٥.

[٩] الكشاف:١/٥٤٠.

[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٨٠):ص٣/١٠١٤.

بالمتشابه ، ولا يضرب بعضه ببعض وإذا جهل أمرًا ولم يعرف أن يقول : الذي قال الله حق ، ويعرف أن الله تعالى لم يقل قولا وينقضه، ينبغي أن يؤمن بحقيقة ما جاء من الله"[١].

قال الشافعي:" أبى الله أن يكون كتاب صحيح غير كتابه، يدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}، الآية"[٢].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}[النساء : ٨٢]، أربعة اقوال:

أحدها : تناقض من جهة حق وباطل ، وهذا قول قتادة[٣]، وابن زيد[٤].

والثاني : يعني: اختلافاً في الأخبار عما يُسِرُّونَ ، وهذا قول الزجاج[٥].

قال الزجاج:" أي: لو كان ما يخبرون به مما بيتوا، وما يسرون ويوحى إلى النبي - ﷺ -. لولا أنه من عند الله لما كان الإخبار به غير مختلف، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله. وهذا من آيات النبي - ﷺ - البينة"[٦].

قال الواحدي:" وهذا القول معناه كالأول؛ لأنَّ تأويله: أنه لو كان من عند غير الله لكان ما فيه من الإخبار عن الغيب بعضه حقًا وبعضها باطلًا"[٧].

والثالث: من جهة بليغ ومرذول، يعني أنه لو كان من عند مخلوق لكان على قياس كلام العباد، بعضه بليغ حسن وبعضه مرذول فاسد، فلما كان جميع القرآن بليغًا عرف أنه من عند الله. وهذا قول بعض البصريين[٨] .

والرابع: يعني: ولو كان هو من عند غير الله {لوجدوا فيه} أي في الإخبار عما غاب عنهم، ما كان وما يكون اختلافا كثيرا، يعني تفاوتا بينا. إذا الغيب لا يعلمه إلا الله فيعلم بذلك أنه كلام الله وأن محمدا رسول الله صادق. ذكره الثعلبي عن بعضهم[٩].

ومعنى الاختلاف في اللغة: "أن يذهب أحد الشيئين خلاف ما ذهب إليه الآخر، والأقوال المختلفة أن يذهب بعضها إلى الخطأ وبعضها إلى الصواب، أو بعضها إلى الحسن البليغ وبعضها إلى المرذول القبيح"[١٠].

قال الجصاص:" فإن الاختلاف على ثلاثة أوجه: اختلاف تناقض بأن يدعو أحد الشيئين إلى فساد الآخر، واختلاف تفاوت وهو أن يكون بعضه بليغا وبعضه مرذولا ساقطا؛ وهذان الضربان من الاختلاف منفيان عن القرآن، وهو إحدى دلالات إعجازه؛ لأن كلام سائر الفصحاء والبلغاء إذا طال مثل السور الطوال من القرآن لا يخلو من أن يختلف اختلاف التفاوت. والثالث: اختلاف التلاؤم، وهو أن يكون الجميع متلائما في الحسن، كاختلاف وجوه

---

[١] أخرجه الطبري(٩٩٨٨):ص٨/٥٦٧-٥٦٨.

[٢] تفسير الإمام الشافعي:٢/٦٣١.

[٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٧٩):ص٣/١٠١٣.

[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٩٨٨):ص٨/٥٦٧-٥٦٨.

[٥] انظر: معاني القرآن:٢/٨٢.

[٦] معاني القرآن:٢/٨٢.

[٧] التفسير البسيط:٦/٦٣٠.

[٨] انظر: النكت والعيون:١/٥١٠.

[٩] انظر: تفسير الثعلبي:٣/٣٥٠.

[١٠] التفسير البسيط للواحدي:٦/٦٣١.

القراءات ومقادير الآيات واختلاف الأحكام في الناسخ والمنسوخ. فقد تضمنت الآية الحض على الاستدلال بالقرآن لما فيه من وجوه الدلالات على الحق الذي يلزم اعتقاده والعمل به"[1].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- كلام جيد يوضح هذا المعنى ويؤكده، فمما قال حول ذلك: "الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وذلك صنفان:

أحدهما: أن يُعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبة تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمَّى ... كما قيل في اسم السيف: الصارم والمهند، وذلك مثل أسماء الله الحسنى وأسماء رسوله - ﷺ - وأسماء القرآن.

الصنف الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه .

ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملًا للأمرين، إما لكونه مشتركًا في اللفظ كلفظ {قسورة} الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد. ولفظ {عسعس}، الذي يراد به إقبال الليل وإدباره ... "[2].

الفوائد:

١-قال الثعلبي:" وفي هذه الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق إذ هو معرى عن الأختلاف من كل الجهات ولو كان مخلوقا لكان لا يخلو من اختلاف وتفاوت"[3].

٢- كتاب بحجم القرآن يحتوي على أكثر من ستة آلا ف آية لا يوجد تعارض بين اثنتين منها مطلقا، إنه الإعجاز!

٣- أنه لا اختلاف في القرآن وأن التدبر يعين على تصديق ما أخبر به، قال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن} [النساء: ٨٢] فحضهم على التدبر أولا، ثم أعقبه: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [النساء: ٨٢].

٤-ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا. فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور.

القرآن

{وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)} [النساء : ٨٣]

التفسير:

وإذا جاء هؤلاء الذين لم يستقر الإيمان في قلوبهم أمْرٌ يجب كتمانه متعلقًا بالأمن الذي يعود خيره على الإسلام والمسلمين، أو بالخوف الذي يلقي في قلوبهم عدم الاطمئنان، أفشوه وأذاعوا به في الناس، ولو ردَّ هؤلاء ما جاءهم إلى رسول الله ﷺ وإلى أهل العلم والفقه لَعَلِمَ حقيقة معناه أهل الاستنباط منهم. ولولا أنْ تَفَضَّلَ الله عليكم ورحمكم لاتبعتم الشيطان ووساوسه إلا قليلا منكم.

في سبب نزول الآية وجوه:

---

[1] أحكام القرآن:٢/٢٦٩.

[2] مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٣٣ – ٣٤٠، وانظر: البحر المحيط: ٣/ ٣٠٥.

[3] تفسير الثعلبي:٣/٣٥٠.

أحدها: أخرج مسلم[1] وابن أبي حاتم[2]، عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-؛ قال: "لما اعتزل نبي الله - ﷺ - نساءه؛ قال: دخلت المسجد؛ فإذا الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله - ﷺ - نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب. فقال عمر: فقلت: لأعلمن ذلك اليوم. قال: فدخلت على عائشة، فقلت: يا بنت أبي بكر! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله - ﷺ -؟ فقالت: مالي ومالك يا ابن الخطاب؟! عليك بعيبتك، قال: فدخلت على حفصة بنت عمر، فقلت لها: يا حفصة! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله - ﷺ -؟ والله لقد علمت أن رسول الله - ﷺ - لا يحبك، ولولا أنا؛ لطلقك رسول الله - ﷺ -؛ فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله - ﷺ -؟ قالت: هو في خزانته في المشربة، فدخلت؛ فإذا أنا برباح غلام رسول الله - ﷺ - قاعداً على أسكفة المشربة مدل رجليه على نقير من خشب، وهو جذع يرقى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وينحدر، فناديت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله - ﷺ -؛ فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً، ثم قلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله - ﷺ -؛ فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليَّ فلم يقل شيئاً، ثم رفعت صوتي؛ فقلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله - ﷺ -؛ فإني أظن أن رسول الله - ﷺ - ظن أني جئت من أجل حفصة، والله! لئن أمرني رسول الله - ﷺ - بضرب عنقها؛ لأضربن عنقها، ورفعت صوتي. فأومأ إليّ أن ارقه. فدخلت على رسول الله - ﷺ - وهو مضطجع على حصير. فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه. فنظرت ببصري في خزانة رسول الله - ﷺ - فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظاً في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق؛ قال: فابتدرت عيناي، قال: "ما يبكيك يا ابن الخطاب؟! "، قلت: يا نبي الله! ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله - ﷺ - وصفوته، وهذه خزانتك! فقال: "يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ "، قلت: بلى، قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت: يا رسول الله! ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن؛ فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. وقلما تكلمت -وأحمد الله- بكلام؛ إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية: آية التخيير: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ} [التحريم: ٥] {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} [التحريم: ٤]. وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي - ﷺ -، فقلت: يا رسول الله! أطلقتهن؟ قال: "لا"، قلت: يا رسول الله! إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى، يقولون: طلق رسول الله - ﷺ - نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: "نعم؛ إن شئت"، فلم أزل أحدثه؛ حتى تحسر الغضب عن وجهه، وحتى كشر فضحك. وكان من أحسن الناس ثغراً. ثم نزل نبي الله - صلى الله عليه وسلم - ونزلت، فنزلت أتشبث بالجذع ونزل رسول الله - ﷺ - كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده، فقلت: يا رسول الله! إنما كنت في الغرفة تسعة وعشرين، قال: "إن الشهر يكون تسعاً وعشرين"، فقمت على باب المسجد؛ فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله نساءه، ونزلت هذه الآية: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}؛ فكنت أنا استنبطت ذاك الأمر، وأنزل الله -عزّ وجلّ- آية التخيير"[3].

والثاني: أخرج ابن المنذر عن ابن جريج: " {وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به} فهذا في الأخبار، إذا غزت السرية من المسلمين، تخبر الناس عنها، فقالوا: أصاب المسلمون من

---

[1] صحيح مسلم(١٤٧٩):ص٢/١١٠٥-١١٠٨.

[2] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٦٨٢):ص٣/١٠١٤ مختصرا..

[3] صحيح مسلم(١٤٧٩):ص٢/١١٠٥-١١٠٨.

عدوهم كذا وكذا، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا، فأفشوه بينهم، من غير أن يكون النبي ﷺ هو يخبرهم به"[١].

والثالث: أنها نزلت في ضعفة المسلمين. وهذا قول الحسن[٢]، والزجاج[٣].

قال الزجاج:" وكان إذا علم النبي - ﷺ - أنه ظاهر على قوم أمن منهم، أو أعلم تجمع قوم يخاف من جمع مثلهم، أذاع المنافقون ذلك ليحذر من يحذر من الكفار، ويقوى قلب من ينبغي أن يقوى قلبه لما أذاعوا، وكان ضعفة المسلمين يشيعون ذلك معهم من غير علم بالضرر في ذلك"[٤].

والرابع: أنها نزلت في المنافقين. وهو قول ابن زيد[٥]، والضحاك[٦]،وابن عباس في رواية الضحاك[٧]، واختاره الثعلبي[٨] والبغوي[٩].

نقل الثعلبي عن الضحاك عن ابن عباس: "في قوله :{وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به}: إن المنافقين كانوا إذا أمروا بالقتال لم يطيعوا الله فيما أمرهم به، وإن نهاهم عن محارمه لم ينتهوا عنها، وإن أفضى الرسول إليهم سرا أذاعوا به إلى العدو ليلا بتكتم، فأنزل الله تعالى ردا عليهم"[١٠].

قال السيوطي:" نزل في جماعة من المنافقين أو في ضعفاء المؤمنين كانوا يفعلون ذلك فتضعف قلوب المؤمنين ويتأذى النبي"[١١].

والظاهر-والله اعلم- "أن إشاعة الأخبار وترويج الإشاعات إما أن تكون من المنافقين أعداء الأمة بقصد سيء، وإما أن تكون من ضعاف الإيمان وعوام الناس الجهلة بقصد حسن، وربما كان موقف عمر أحد أسباب النزول"[١٢].

قوله تعالى:{وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ} [النساء : ٨٣]، "أي: إذا جاء المنافقين خبرٌ من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة، أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته"[١٣].

قال الطبري:أي:"وإذا جاء هذه الطائفة المبيّتة غير الذي يقول رسول الله ﷺ خبرٌ عن سريةٍ للمسلمين غازية بأنهم قد أمِنوا من عدوهم بغلبتهم إياهم، أو تخوّفهم من عدوهم بإصابة عدوهم منهم، أفشوه وبثّوه في الناس قبل رسول الله ﷺ ، وقبل مأتَى سرايا رسول الله ﷺ"[١٤].

---

[١] تفسير ابن المنذر(٢٠٤٥):ص٨٠٥/٢.

[٢] انظر: النكت والعيون:٥١١/١.

[٣] انظر: معاني القرآن:٨٣/٢.

[٤] معاني القرآن:٨٣/٢.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٩٩٤):ص٥٧٠/٨.

[٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٨٤):ص١٠١٤/٣.

[٧] انظر: تفسير الثعلبي:٣٥١/٣.

[٨] انظر: تفسير الثعلبي:٣٥٠/٣.

[٩] انظر: تفسير البغوي:٢٥٥/٢.

[١٠] تفسير الثعلبي:٣٥١/٣.

[١١] تفسير الجلالين:١١٥.

[١٢] التفسير المنير:١٧٥/٥.

[١٣] صفوة التفاسير:٢٦٨.

[١٤] تفسير الطبري:٥٦٨/٨.

قال السدي:"يقول: إذا جاءهم أمر أنهم قد أمنوا من عدوهم أو أنهم خائفين منه"[١]، " {أذاعوا به}، يقول: بالحديث، حتى يبلغ عدوهم أمرهم"[٢].

قال ابن عباس:" يقول: أفشوه وسعوا به"[٣]. وروي عن عكرمة[٤]، وقتادة[٥]، وعطاء وعطاء الخراساني[٦]، وابن جريج[٧] نحو ذلك.

قال الثعلبي:" وذلك أن رسول الله ﷺ كان يبعث السرايا فإذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون إلى الاستفسار عن حال السرايا فيفشون ويحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله :{وإذا جاءهم}، يعني: المنافقين"[٨].

قال الزمخشري:" هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال ولا استبطان للأمور، كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به وكانت إذاعتهم مفسدة"[٩].

عن ابن عباس: "كل شيء في القرآن:{ ولو}، فإنه لا يكون أبدا"[١٠].

عن الضحاك:{أذاعوا به}، يقول: فشوه وسعوا به، وهم أهل النفاق"[١١].

قال الزجاج:{ أَذَاعُوا بِهِ}، " أي: أظهروه ونادوا به في الناس"[١٢]، ومنه قول أبي الأسود[١٣]:

أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّهُ ... بِعَلْيَاءَ نَارٌ أُوقِدَتْ بِثَقُوبِ

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٨١):ص٣/١٠١٤.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٨٥):ص٣/١٠١٥.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٨٣):ص٣/١٠١٤.

[٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٨٣):ص٣/١٠١٤.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٩٩٠):ص٨/٥٦٩.

[٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٨٣):ص٣/١٠١٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٩٩٣):ص٨/٥٧٠.

[٨] تفسير الثعلبي:٣/٣٥٠، وانظر: تفسير البغوي:٢/٢٥٥.

[٩] الكشاف:١/٥٤٠-٥٤١.

[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٨٦):ص٣/١٠١٥.

[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٨٤):ص٣/١٠١٤.

[١٢] معاني القرآن:٢/٨٣.

[١٣]ديوانه (في نفائس المخطوطات : ٢) : ٤٤ ، والأغاني ١٢ : ٣٠٥ ، مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ١٣٣ ، اللسان (ذيع) ، من أبيات قالها أبو الأسود الدؤلي لما خطب امرأة من عبد القيس يقال لها أسماء بنت زياد ، فأسر أمرها إلى صديق له ، فحدث الصديق ابن عم لها كان يخطبها ، فمشى ابن عمها إلى أهلها وسألهم أن يمنعوها من نكاحه ، ففعلوا ، وضاروها حتى تزوجت ابن عمها ، فقال أبو الأسود : أَمِنْتُ امْرءًا فِي السِّرِّ لَمْ يَكُ حَازِمًا ... ولكِنَّهُ فِي النُّصْحِ غَيْرُ مُرِيبِ

أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ ، حَتَّى كأَنَّهُ ... بعَلْيَاءَ نَارٌ أُوقِدَتْ بثُقوبِ

وكُنْتَ مَتَى لَمْ تَرْعَ سِرّكَ تَلْتَبِسْ ... قَوَارِعُهُ مِنْ مُخْطِئٍ ومُصِيبِ

فَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ... وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ

وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتُجْمِعَا عِنْدَ وَاحِدٍ ، ... فَحُقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

وهي أبيات حسان كما ترى ، و " الثقوب " : ما أثقبت به النار ، أي أوقدتها.

قوله تعالى:{وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ} [النساء : ٨٣]، "أي: ولو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم، وردوه إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم، لَعَلِمَ حقيقة معناه أهل الاستنباط منهم"[١].

قال الزجاج:أي:" ولو ردوا ذلك إلى أن يأخذوه من قبل الرسول ومن قبل أولي الأمر منهم، أي من قبل ذوي العلم والرأي منهم"[٢].

قال الزمخشري:" ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى أولى الأمر منهم- وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور أو الذين كانوا يؤمرون منهم"[٣].

قال السدي:"لو سكتوا، وردوا الحديث إلى النبي ﷺ"[٤]، "{وإلى أولي الأمر منهم} يقول: يقول: إلى أميرهم حتى يتكلم هو به"[٥].

وقال قتادة: {وإلى أولي الأمر منهم}، يقول: إلى علمائهم"[٦]. وروي عن خصيف نحو ذلك[٧].

قوله تعالى: {لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء : ٨٣]، "أي:لَعَلِمَ حقيقة معناه أهل الاستنباط منهم"[٨].

قال ابن عباس:" يقول: أعلنوه، وتجسسوه منهم"[٩].

وقال عكرمة: "يحرصون عليه ويسألون عنه"[١٠].

وقال ابن عبيدة والقتيبي: "يخرجونه"[١١].

وقال أبو العالية وعطاء الخراساني:" الذين يتتبعونه ويتجسسونه"[١٢].

قال عمر بن الخطاب:" فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، فأنزل الله آية التخيير"[١٣].

وعن مجاهد :قوله: "{لعلمه الذين يستنبطونه منهم}، قولهم ماذا كان؟ وما سمعتم؟"[١٤].

عن السدي قوله: لعلمه الذين يستنبطونه منهم على الأخبار، وهم الذين ينقرون عن الأخبار"[١٥].

وروي عن قتادة أنه قال: "يفحصون"[١٦].

---

[١] انظر: صفوة التفاسير:٢٦٨، والتفسير الميسر:٩١.

[٢] معاني القرآن:٨٣/٢.

[٣] الكشاف:٥٤١/١.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٨٧):ص١٠١٥/٣.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٨٨):ص١٠١٥/٣.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٠٩):ص١٠١٥/٣.

[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٠٩):ص١٠١٥/٣.

[٨] انظر: صفوة التفاسير:٢٦٨، والتفسير الميسر:٩١.

[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٩٢):ص١٠١٦/٣.

[١٠] تفسير الثعلبي:٣٥١/٣.

[١١] تفسير الثعلبي:٣٥١/٣.

[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٩٣):ص١٠١٦/٣.

[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٩١):ص١٠١٥/٣.

[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٩٤):ص١٠١٦/٣.

[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٩٥):ص١٠١٦/٣.

[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٦٩٥):ص١٠١٦/٣.

قال الزجاج:" أي: لعلمه هؤلاء الذين أذاعوا به من ضعفة المسلمين من النبي - صلى الله عليه وسلم - وذوي العلم، وكانوا يعلمون مع ذلك هل ينبغي أن يذاع أو لا يذاع"[1].

قال الزمخشري:أي:" لعلم تدبير ما أخبروا به الذين يستنبطونه الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها. وقيل: كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولى الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء، أو على خوف واستشعار، فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء، فتعود إذاعتهم مفسدة. ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا، لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون فيه. وقيل: كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئا من الخبر عن السرايا مظنونا غير معلوم الصحة فيذيعونه، فيعود ذلك وبالأعلى المؤمنين. ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع، لعلمه الذين يستنبطونه منهم، لعلم صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع هؤلاء المذيعون، وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الأمر، أى يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم"[2].

ومعنى {يستنبطونه} في اللغة:" يستخرجونه، وأصله من النبط وهو الماء الذي يخرج من البئر في أول ما يحفر، يقال من ذلك: قد أنبط فلان في غضراء، أي استنبط الماء من طين حر. والنبط إنما سموا نبطا لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين"[3].

وقرئ :{لعلمه}، بإسكان اللام[4].

قوله تعالى:{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ٨٣]، أي:" ولولا أنْ تَفَضَّلَ الله عليكم ورحمكم لاتبعتم الشيطان ووساوسه إلا قليلا منكم"[5].

قال مجاهد:" فضل الله: الدين"[6]. وروي عن أبي العالية، وعكرمة، وهلال بن يساف، وقتادة، والربيع أنس نحو ذلك[7].

وقال أبو سعيد:" فضل الله القرآن"[8]. وروي عن زيد بن أسلم مثل ذلك[9].

عن ابن عباس:"{ورحمته}، قال: ورحمته أن جعلكم من أهل القرآن"[10]. وروي عن أبي العالية، ومجاهد، والحسن، والضحاك، وهلال بن يساف، وقتادة، وزيد بن أسلم، وسالم ابن أبي الجعد، والربيع بن أنس نحو ذلك [11].

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه :"قول الله تعالى: {ورحمته}، قال: الإسلام"[12].

---

[1] معاني القرآن:٢/٨٣.

[2] الكشاف:١/٥٤١.

[3] معاني القرآن للزجاج:٢/٨٣.

[4] انظر: الكشاف:١/٥٤١.

[5] التفسير الميسر/٩١.

[6] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٩٦):ص٣/١٠١٦.

[7] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٩٦):ص٣/١٠١٦.

[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٩٧):ص٣/١٠١٦.

[9] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٩٧):ص٣/١٠١٦.

[10] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٩٨):ص٣/١٠١٦.

[11] انظر تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٩٨):ص٣/١٠١٦.

[12] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٦٩٩):ص٣/١٠١٧.

وعن قتادة في قوله: "{ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا}، يقول: لاتبعتم الشيطان كلكم"[١].

وعن ابن عباس قوله: "{إلا قليلا}، يعني: بالقليل: المؤمنين"[٢].

وعن الضحاك قوله: "{إلا قليلا}، فهم أصحاب النبي ﷺ، كانوا حدثوا أنفسهم بأمر من أمر الشيطان"[٣].

قال مقاتل:{ {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ}" يعني: ونعمته، فعصمكم من قول المنافقين، {لاتبعتم الشيطان إلا قليلا}، نزلت في أناس كانوا يحدثون أنفسهم بالشرك"[٤].

قال الزمخشري:{فضل الله}:"هو إرسال الرسول، وإنزال الكتاب، والتوفيق، {لاتبعتم الشيطان}، أي: لبقيتم على الكفر إلا قليلا منكم، أو إلا اتباعا قليل"[٥].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ٨٣]، وجوه:

أحدها: معناه: لولا ما أنزله الله عليكم من القرآن، وبيّن لكم من الآيات على لسان نبيه لاتبعتم الشيطان إلا قليلا منكم لمم يكن يتبع الشيطان. ذكره الزجاج عن بعضهم[٦].

والثاني: لعلمه الذين يستنبطون إلا قليلاً منكم .وهذا قول الحسن[٧]، وقتادة[٨]، وأهل اللغة[٩].

والثالث:أن المعنى: أذاعوا به إلا قليلاً لم يذع ولم يفش، وهذا قول ابن عباس[١٠]، وابن زيد[١١]، والكلبي[١٢]، وهو اختيار الفراء[١٣]، و النحويين[١٤].

قال الفراء:" وهو أجود، لأن علم السرايا إذا ظهر علمه المستنبط وغيره، والإذاعة قد تكون في بعضهم دون بعض. فلذلك استحسنت الاستثناء من الإذاعة"[١٥].

فاحتجوا بأن ما علم بالاستنباط فليس الأكثر يعرفه، إنما يستنبط القليل، لأن الفضائل والاستنباط، والاستخراج في القليل من الناس، فيكون الاستثناء من «أذاعوا به إلا قليلا» أجود [١٦].

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٠١):ص٣/١٠١٧.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٠٢):ص٣/١٠١٧.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٠٣):ص٣/١٠١٧.

[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٣.

[٥] الكشاف:١/٥٤١.

[٦] انظر: معاني القرآن:٢/٨٤.

[٧] انظر: النكت والعيون:١/٥١١.

[٨] انظر: النكت والعيون:١/٥١١.

[٩] انظر: معاني القرآن:٢/٨٤.

[١٠] انظر: النكت والعيون:١/٥١٢.

[١١] انظر: النكت والعيون:١/٥١٢.

[١٢] انظر: تفسير الثعلبي:٣/٣٥١.

[١٣] انظر: معاني القرآن:١/٢٧٩.

[١٤] انظر: معاني القرآن:٢/٨٤.

[١٥] معاني القرآن:١/٢٧٩-٢٨٠.

[١٦] انظر: معاني القرآن:٢/٨٤.

قال الزجاج:" وهذا في هذا الموضع غلط من النحويين، لأن هذا الاستنباط ليس بشيء يستخرج بنظر وتفكر، إنما هو استنباط خبر، فالأكثر يعرف الخبر، إذا خبر به، وإنما القليل المبالغ في البلادة لا يعلم ما يخبر به والقول الأول مع هذين القولين جائزة كلها، لأن القرآن قبل أن ينزل والنبي قبل أن يبعث قد كان في الناس القليل ممن لم يشاهد القرآن ولا النبي - ﷺ – مؤمنا، وقد يجوز أن يقول القائل إن من كان قبل هذا مؤمنا فبفضل الله وبرحمته آمن، فالفضل والرحمة لا يخلو منهما من نال ثواب الله جل وعز إلا أن المقصود به في هذا الموضع النبي - ﷺ - والقرآن "[1].

الفوائد:

١-في هذه الآية تأديب لمن يحدث بكل ما يسمع، وكفى به كذبا، وخصوصا عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء والمقيمين في نحر العدو، وما أعظم المفسدة في لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم، خيرا أو غيره[2].

٢- وفي هذه الآية دليل ممن يحبون القول بالاجتهاد عند عدم النص.

٣-ومنها: أن العلم محيط بالاستنباط، ليس تلاوة. يؤخذ من قوله:**{لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}**، وإذا كان إدراكه بالاستنباط، فقد دل بذلك على أن من العلم ما يدرك بالتلاوة والرواية وهو النص، ومنه ما يدرك منه ومن المعنى، وحقيقة الاعتبار والاستنباط من القياس للحكم بالمعاني المودعة في النصوص غير الحكم بالنصوص[3].

القرآن

{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤)} [النساء : ٨٤]

التفسير:

فجاهد -أيها النبي- في سبيل الله لإعلاء كلمته، لا تلزم فعل غيرك ولا تؤاخذ به، وحُضَّ المؤمنين على القتال والجهاد، ورغِّبهم فيه، لعل الله يمنع بك وبهم بأس الكافرين وشدتهم. والله تعالى أشد قوة وأعظم عقوبة للكافرين.

في سبب نزول الآية:

قال الثعلبي:" وذلك أن رسول الله ﷺ لما التقى هو وأبو سفيان بن حرب يوم أحد وكان من هربهم ما كان، ورجع أبو سفيان إلى مكة فواعد رسول الله ﷺ موسم بدر الصغرى في ذي القعدة فلما بلغ الميعاد قال الناس: اخرجوا إلى العدو، فكرهوا ذلك كراهة شديدة أو بعضهم، فأنزل الله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ}"[4].

قوله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ} [النساء : ٨٤]، " أي: فقاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك"[5].

قال الثعلبي:" أي: لا تدع جهاد العدو وإنصاف المستضعفين من المؤمنين ولو وحدك"[6].

قال الواحدي:" أَيْ: إلاَّ فعلَ نفسك على معنى: أنَّه لا ضرر عليك في فعل غيرك فلا تهتمَّ بتخلُّف مَنْ يتخلَّف عن الجهاد"[1].

---

[1] معاني القرآن:٢/٨٤.

[2] انظر: الكشاف:١/٥٤٠، الهامش(٢)..

[3] انظر: تفسير الثعلبي:٣/٣٥١-٣٥٢.

[4] تفسير الثعلبي:٣/٣٥٢، وانظر: الكشاف:١/٥٤٢.

[5] صفوة التفاسير:٢٦٨.

[6] فسير الثعلبي:٣/٣٥٢.

قال الزجاج:" أمره الله بالقتال ولو أنه قاتل وحده، لأنه قد ضمن له النصر"[٢].
قال ابن ابي زمنين:" أي: أخبرهم بحسن ثواب الله في الآخرة للشهداء"[٣].
قال مقاتل:" أمره أن يقاتل بنفسه، {لا تكلف إلا نفسك}، يعني: ليس عليك ذنب غيرك"[٤].
قال سعيد بن جبير:" { فِي سَبِيلِ اللَّهِ }، يعني: في طاعة الله"[٥].
قال الزمخشري:" لما ذكر في الآي قبلها تثبطهم عن القتال، وإظهارهم الطاعة وإضمارهم خلافها. قال: {فقاتل في سبيل الله}، إن أفردوك وتركوك وحدك، {لا تكلف إلا نفسك}، غير نفسك وحدها أن تقدمها إلى الجهاد، فإن الله هو ناصرك لا الجنود، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف"[٦].
قال الجصاص:" أوجب عليه فرض الجهاد من وجهين: أحدهما: بنفسه، ومباشرة القتال وحضوره، والآخر: بالتحريض والحث والبيان"[٧].
قال الراغب:" ن قيل: كيف قال: {لا تكلف إلا نفسك} وقد بعث النبي - ﷺ - ليكلف الناس؟
قيل: لم يعن التكليف الاستدعاء الذي رشح له، ألا ترى أنه قال {وحرض المؤمنين} الآية تقتضي أن على الإنسان أن لا يني في نصرة الحق وإن تفرد، يعد أن لا يني في فعله.
وروي أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «لو خالفتني يميني جاهدتها بشمالي»[٨]، وتلا هذه الآية.
وقال بعض الحكماء: من طلب رفيقا في سلوك طريق الحق فلقلة يقينه، وسوء معرفته.
فالمحقق للسعادة والعارف بالطريق إليها لا يفرح على رفيق ولا يبالي بطول طريق، فمن خطب الحسناء لم يغلها مهر"[٩].
وقرئ {لا تكلف}، بالجزم على النهى. ولا نكلف: بالنون وكسر اللام، أى لا نكلف نحن إلا نفسك وحدها[١٠].
قوله تعالى: { وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء : ٨٤]، " أي شجِّع المؤمنين على القتال ورغبْهم فيه"[١١].
عن أبي سنان: "قوله: { وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ }، قال: عظمهم"[١٢].
قال أبو عبيدة:" أي: حضض "[١٣].

---

[١] الوجيز:٢٧٨.
[٢] معاني القرآن:٢/٨٥.
[٣] تفسير ابن ابي زمنين:١/٣٩١.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٣.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٠٥):ص٣/١٠١٨.
[٦] الكشاف:١/٥٤٢.
[٧] أحكام القرىن:٣/١٤٨.
[٨] انظر: معاني القرآن للزجاج:٢/٨٥، وتفسير السمرقندي:١/٣٢٢، وتفسير الراغب الأصفهاني:٣/١٣٥٦.
[٩] تفسير الراغب الاصفهاني:٣/١٣٥٦-١٣٥٧.
[١٠] انظر: الكشاف:١/٥٤٢.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٣.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٠٦):ص٣/١٠١٨.
[١٣] أخرجه ابن المنذر(٢٠٥٩):ص٢/٨١١.

قال مقاتل:" يعني: وحضض على القتال، يعني: على قتال العدو"[1].
قال الزمخشري:أي:" وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب، لا التعنيف بهم"[2].
قال الواحدي:" حُضَّهم على القتال"[3].
قال ابن كثير:"أي : على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عنده كما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وهو يسوي الصفوف : «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»[4]"[5].

قال ابن عطية:" هذا أمر في ظاهر اللفظ للنبي عليه السلام وحده، لكن لم نجد قط في خبر أن القتال فرض على النبي ﷺ دون الأمة مدة ما، المعنى- والله أعلم- أنه خطاب للنبي عليه السلام في اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه، أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له :{فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك}، ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يستشعر أن يجاهد ولو وحده"[6].

ومن ذلك قول النبي عليه السلام «فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره »[7]، وقول أبي بكر وقت الردة: «ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي»[8].

ومن أحاديث الترغيب في قتال المشركين ايضا:
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : "من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها" قالوا : يا رسول الله ، أفلا نبشر الناسَ بذلك ؟ فقال : "إن في الجنة مائةَ درجة ، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة. وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة" [9].

وعن أبي سعيد الخدْري أنّ رسول الله ﷺ قال : "«يا أبا سعيد ، من رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيًا ، وجبت له الجنة»، قال : فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها عليَّ يا رسول الله. ففعل. ثم قال رسول الله ﷺ : «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»، قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : «الجهاد في سبيل الله»"[10].

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٣/١.
[2] الكشاف:٥٤٢/١.
[3] الوجيز:٢٧٨.
[4] أخرجه أحمد(١٢٤٢٥):ص١٣٦/٣، وعبد بن حميد(١٢٧٢)، ومسلم(٤٩٥٠):ص٤٤/٦، وأبو داود(٢٦١٨).
[5] تفسير ابن كثير:٣٦٧/٢.
[6] المحرر الوجيز:٨٦/٢.
[7] أخرجه أحمد (١٨٩٢٨):ص٢٤٣/٣١-٢٥٦ مطولا، والبخاري في صحيحه(٢٧٣١):ص١٩/٣، وانظر: مصنف عبدالرزاق الصنعاني٣٢٠/٥.
[8] انظر: معاني القرآن للزجاج:٨٥/٢، وتفسير السمرقندي:٣٢٢/١، وتفسير الراغب الأصفهاني:١٣٥٦/٣، والمحرر الوجيز:٨٦/٢.
[9]) صحيح البخاري(٢٧٩٠).
[10]صحيح مسلم (١٨٨٤)..

قوله تعالى: { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [النساء : ٨٤]، أي:" لعل الله يمنع بك وبهم بأس الكافرين وشدتهم"[١].

قال الطبري:أي:" لعل الله أن يكف قتال من كفر بالله وجحد وحدانيته وأنكر رسالتك ، عنك وعنهم ، ونكايتهم"[٢].

قال الزمخشري:" {الذين كفروا}، وهم قريش، وقد كف بأسهم فقد بدا لأبى سفيان وقال: هذا عام مجدب، وما كان معهم زاد إلا السويق، ولا يلقون إلا في عام مخصب فرجع بهم"[٣].

قال مقاتل:" يعنى: قتال الذين كفروا"[٤].

قال الراغب:" أي: كن راجيا في دفع أذاهم، وقول المفسرين: عسى من الله واجب، أي الكريم إذا رجي حقق" [٥].

قال ابن عباس:" {عسى} من الله واجب"[٦].

قال أبو عبيدة:" " {عسى الله} هي إيجاب، وهي في القرآن كلها واجبة، فجاءت على إحدى لغتي العرب، لأن عسى في كلامهم رجاء ويقين، قال ابن مقبل[٧]:

ظَنِّي بِهِمْ كَعَسَى وَهُمْ بِتَنُوفَةٍ يَتَنَازَعُون جوائز الأمثال

أي: ظني بهم يقين"[٨].

قال سفيان:"في قراءة ابن مسعود هكذا: «عسى الله أن يكف عن بأس الذين كفروا»"[٩].

كفروا»"[٩].

قوله تعالى: { وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} [النساء : ٨٤]، "أي: هو سبحانه أشد قوة وسطوة، وأعظم عقوبة وعذاباً"[١٠].

قال الزمخشري:" والله أشد بأسا من قريش وأشد تنكيلا تعذيبا"[١١].

---

[١] التفسير الميسر:٩١.

[٢] تفسير الطبري:٥٧٩/٨.

[٣] الكشاف:٥٤٢/١.

[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٣/١.

[٥] تفسير الراغب الأصفهاني:١٣٥٨/٣-١٣٥٩.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٠٧):ص١٠١٨/٣.

[٧]ورد البيت في "الأضداد" لابن الأنباري ص ٢٣، "الأضداد" للأصمعي ص ٣٥، والسجستاني ص ٩٥، وابن وابن السكيت ص ١٨٨، "تهذيب اللغة" (ظن) ٣/ ٢٢٥٣، "اللسان" ٢/ ٧٢٤ (جوز)، و٥/ ٢٧٦٢ (ظن)، و٥/ ٢٩٥٠ (عسا)، "الجمهرة" ١/ ١٥٤، ٢/ ٩٣٥، "الخزانة" ٩/ ٣٣٣.

ويروى البيت (ظن) و (ظنوا) بدل (ظني) وفي "الجمهرة": (عهدي بهم) في موضع: (ظني بهم) وفي عدد من المصادر "جوائز الأمثال" وفي "الجمهرة" (جوائب) ويروى (سوائر). ولم أجد رواية (جوانب الأميال) والتنوفة: الفلاة، يتنازعون، يتجاذبون، جوائز الأمثال: (الأمثال السائرة) في البلاد، وبمعناه: (جوائب الأمثال) من جاب يجوب.

[٨] مجاز القرآن: ١٣٤/١، وأخرجه ابن المنذر(٢٠٦٠):ص٨١١/٢.

[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٠٨):ص١٠١٨/٣.

[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٣/١.

[١١] الكشاف:٥٤٢/١.

قال الطبري:أي:" والله أشد نكاية في عدوه ، من أهل الكفر به منهم فيك يا محمد وفي أصحابك ، فلا تنكُلَنَّ عن قتالهم ، فإني راصِدُهم بالبأس والنكاية والتنكيل والعقوبة ، لأوهن كيدهم ، وأضعف بأسهم ، وأعلي الحق عليهم"[١].

قال ابن كثير:" أي : هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى: { ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } [محمد : ٤]"[٢].

قال مقاتل:{ بَأْسًا }" يعنى: أخذا،{وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا}، يعني: نكالا، يعني عقوبة من الكفار"[٣].
الكفار "[٣].

قال سفيان:" {وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا}، أي تعسرا"[٤].

عن قتادة قوله: "{والله أشد بأسا وأشد تنكيلا}، أي: عقوبة"[٥].

قال الراغب:" قوله: {والله أشد بأسا وأشد تنكيلا}، تنبيه أنك لا تحتاج أن تقصر عن قتالهم، فالله معك، وهو أشد بأسا من عداك، فلا يجب أن ينكادك من تاخر عنك، و«التنكيل»: مصدر نكلت به، والنكال العقوبة التي تنكل المعاقب وغير المعاقب عن إتيان مثله، وأصله من النكل، وهو ضرب من القيد، ومنه نكل عن الشيء"[٦].

قال ابن الجوزي:" وقد زعم بعض منتحلي التفسير أن قوله: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ} [النساء : ٨٤] منسوخ بآية السيف[٧]، فكأنه استشعر أن معنى الكلام: لا تكلف أن تقاتل أحدا، وليس كذلك، إنما المعنى: لا تكلف في الجهاد إلا فعل نفسك"[٨].

الفوائد:

١-فضيلة الجهاد في سبيل الله، وأنه ينبغي لكل مؤمن أن يجاهد ولو وحده، قال النبي ﷺ: "والله لا قاتلنهم حتى تنفرد[٩]سالفتي"[١٠].

وقول أبي بكر وقت الردة: ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي"[١١].

٢-ومن **الفوائد:** حث المؤمنين على القتال، وتحريك هممهم إلى الشهادة.

٣- أن هذه الآية في الغاية القصوى من التحريض على القتال وخوض المعارك، فلا يكلف إلا النبي وحده إذا امتنع المسلمون عن مشاركته في الجهاد، والمعنى لا تدع جهاد العدو والاستنصار عليهم للمستضعفين من المؤمنين، ولو وحدك لأنه وعده بالنصر[١٢].

القرآن

---

[١] تفسير الطبري:٥٨٠/٨.

[٢] تفسير ابن كثير:٣٦٨/٢.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٣/١.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧١٠):ص١٠١٨/٣.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٠٩):ص١٠١٨/٣.

[٦] تفسير الراغب الأصفهاني:١٣٥٦/٣-١٣٥٨/٣.

[٧]ذكر النسخ هنا ابن سلامة في ناسخه :٣٨..

[٨] نواسخ القرآن:٣٧٩/٢.

[٩]أي حتى أموت. والسالفة: صفحة العنق، وكنى بانفرادها عن الموت، لأنها لا تنفرد عما يليها الا به..

[١٠]أخرجه البخاري (٢٧٣١ - ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

[١١] انظر: معاني القرآن للزجاج:٨٥/٢، وتفسير السمرقندي:٣٢٢/١، وتفسير الراغب الأصفهاني:١٣٥٦/٣، والمحرر الوجيز:٨٦/٢.

[١٢] انظر: التفسير المنير للزحيلي:١٨٠/٥.

{مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥)} [النساء : ٨٥]

التفسير:

من يَسْعَ لحصول غيره على الخير يكن له بشفاعته نصيب من الثواب، ومن يَسْعَ لإيصال الشر إلى غيره يكن له نصيب من الوزر والإثم. وكان الله على كل شيء شاهدًا وحفيظًا.

قوله تعالى:{مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا} [النساء : ٨٥]، أي:" من يَسْعَ لحصول غيره على الخير يكن له بشفاعته نصيب من الثواب"[١].

قال ابن كثير:" أي : من سعى في أمر ، فترتب عليه خير ، كان له نصيب من ذلك"[٢].

ذلك"[٢].

قال الواحدي:" هي كلُّ شفاعة تجوز في الدِّين، كان له فيها أجر"[٣].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا} [النساء : ٨٥]، أي:" ومن يَسْعَ لإيصال الشر إلى غيره يكن له نصيب من الوزر والإثم"[٤].

قال مقاتل:" وهو الرجل يذكر أخاه بسوء عند رجل فيصيبه عنت منه، فيأثم المبلغ،{ يكن له كفل منها}، يعني إثما من شفاعته"[٥].

قال ابن كثير أي : يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء»[٦]"[٧].

في «الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة»، أقوال :

أحدها : أنه في شفاعات الناس بينهم في حوائجهم، فمن يشفع لينفع فله نصيب، ومن يشفع ليضر فله كفل، وهذا قول الحسن[٨]، ومجاهد[٩]، وابن زيد[١٠].

والثاني :أن المعنى: من يشفع وتر الإسلام بالمعونة للمسلمين، أو من يشفع وتر الكفر بالمعونة على الإسلام، ودله على هذا التأويل ما تقدم من أمر القتال. وهذا قول الطبري[١١].

والثالث:أن «الشفاعة الحسنة» هي في البر والطاعة، والسيئة هي في المعاصي. وهذا قول الحسن أيضا[١٢].

والرابع:أن الشفاعة الحسنة الدعاء للمؤمنين، لأنها في معنى الشفاعة إلى الله، والشفاعة السيئة الدعاء عليهم، لأن اليهود كانت تفعل ذلك فتوعَّدَهُم الله عليه[١].

---

[١] التفسير الميسر:٩١.

[٢] تفسير ابن كثير:٣٦٨/٢.

[٣] الوجيز:٢٧٩.

[٤] التفسير الميسر:٩١.

[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٤/١.

[٦] أخرجه الحميدي(٧٧١)، واحمد:٤٠/٤، ٤٠٩، ٤١٣، والبخاري:١٤/٢، ٨، و٨/١٥، و١٧١/٩، ومسلم:٣٧/٨، وأبو داود(٥١٣١)، و(٥١٣٣)، والترمذي(٢٦٧٢)، والنسائس:٧٧/٥.

[٧] تفسير ابن كثير:٣٦٨/٢.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٠١٧):ص٥٨١/٨-٥٨٢.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٠١٥):ص٥٨١/٨.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٠١٩):ص٥٨٢/٨.

[١١] انظر: تفسير الطبري:٥٨١/٨.

[١٢] انظر: المحرر الوجيز:٨٦/٢.

قال ابن عطية:" وهذا كله قريب بعضه من بعض" [٢].

قال الزمخشري:" الشفاعة الحسنة: هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر أو جلب إليه خير. وابتغى بها وجه الله ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حد من حدود الله ولا في حق من الحقوق. والسيئة: ما كان بخلاف ذلك. وعن مسروق أنه شفع شفاعة فأهدى إليه المشفوع جارية، فغضب وردها وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك، ولا أتكلم فيما بقي منها" [٣].

وفي الكِفْلِ تأويلان :

أحدها : أنه الوزر والإثم ، وهو قول الحسن[٤]، وقتادة[٥].

والثاني : أنه النصيب ، كما قال تعالى :{يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ}[الحديد : ٢٨] وهو قول السدي[٦]، وقتادة في إحدى الروايات[٧]، والربيع[٨]، وابن زيد[٩]، وأبي عبيدة[١٠].

والراجح-والله أعلم- أن:" «الكفل»، النصيب والحظ من الوزر والإثم، وهو مأخوذ من: كِفل البعير والمركب، وهو الكساء أو الشيء يهيأ عليه شبيه بالسرج على الدابة" [١١].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا} [النساء : ٨٥]، أي:" وكان الله على كل شيء شاهدًا وحفيظًا" [١٢].

وفي قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا} [النساء : ٨٥]، وجوه:

أحدها : يعني مقتدراً ، وهو قول السدي[١٣]، وابن زيد[١٤]، وسعيد بن جبير[١٥].

والثاني : حفيظاً ، وهو قول ابن عباس[١٦]، والزجاج[١٧]، وأبي عبيدة[١٨].

والثالث : شهيداً ، وهو قول مجاهد[١٩].

والرابع : حسيباً ، وهو قول ابن الحجاج[١]، ويحكى عن مجاهد أيضاً[٢].

---

[١] انظر: النكت والعيون:٥١٢/١.

[٢] المحرر الوجيز:٨٦/٢.

[٣] الكشاف:٥٤٣/١.

[٤] انظر: النكت والعيون:٥١٢/١.

[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧١٨):ص١٠١٩/٣.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٢١):ص٥٨٢/٨.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٢٠):ص٥٨٢/٨.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٢٢):ص٥٨٢/٨.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٢٣):ص٥٨٢/٨-٥٨٣.

[١٠] انظر: تفسير ابن المنذر(٢٠٦٥):ص٨١٣/٢.

[١١] تفسير الطبري:٥٨١/٨.

[١٢] التفسير الميسر:٩١.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٢٩):ص٥٨٤/٨.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٣٠):ص٥٨٤/٨.

[١٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٢٢):ص١٠٢٠/٣.

[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٢٤):ص٥٨٣/٨.

[١٧] انظر: معاني القرآن:٨٥/٢.

[١٨] انظر: تفسير ابن المنذر(٢٠٦٩):ص٨١٤/٢.

[١٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٢٥):ص٥٨٣/٨.

والخامس : مجازياً[3].
والسادس: القائم على كل شيء بالتدبير. وهذا قول عبدالله بن كثير[4].
والسادس: ان المقيت: الرازق. وهذا قول الضحاك[5].
والراجح-والله أعلم- ان " معنى «المقيت»: القدير، وذلك أن ذلك فيما يُذكر ، كذلك بلغة قريش ، وينشد للزبير بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ [6]:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءتِهِ مُقِيتَا

أي : قادرًا. وقد قيل إن منه قول النبي ﷺ : -« كفى بالمرء إثما أن يُضِيعَ من يُقيت»[7]، في رواية من رواها : «يُقيت»، يعني : من هو تحت يديه وفي سلطانه من أهله وعياله ، فيقدّر له قوته. يقال منه: أقات فلان الشيء يقتيه إقاتة، و قاته يقوته قياتةً وقُوتًا، والقوت، الاسم، وأما «المقيت» في بيت اليهوديّ الذي يقول فيه[8] :

لَيْتَ شِعْرِي ، وَأَشْعُرَنَّ إِذَا مَا قَرَّبُوهَا مَنْشُورَةً وَدُعِيتُ!
أَلِيَ الْفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إذا حُوسِبْتُ؟ إِنِّي عَلَى الْحِسَابِ مُقِيتُ

فإن معناه : فإنّي على الحساب موقوف ، وهو من غير هذا المعنى"[9].

الفوائد:

١- أن الشفاعات الدنيوية منها ما هو مشروع، ومنها ما ليس بمشروع، وهي تنقسم إلى قسمين:
أحدهما: شفاعة حسنة، ومثالها: إذا استشفع شخص بشخص آخر عند ذي مال أو منصب أو سلطان ليشفع له عنده برفع حاجته إليه، لإظهار حقه أو إزالة الضرر والظلم عنه، فإنَّ تلك الشفاعة جائزة، وينال فاعلها الثواب من الله تبارك وتعالى، بدليل قوله تعالى: {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا}، وقول الرسول ﷺ: "اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء"[10].
والثاني:الشفاعة السيئة: وهي ما إذا استشفع شخصٌ بشخص آخر في تعطيل حد من الحدود، أو إسقاط حق من الحقوق، أو إلحاق الضرر بآخر، فإنَّ تلك الشفاعة غير جائزة، وينال فاعلُها العقاب، بدليل قوله تعالى: {وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا}.

---

[1] انظر: النكت والعيون:١/٥١٣.
[2] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٢٤):ص٣/١٠٢٠.
[3] انظر: النكت والعيون:١/٥١٣.
[4] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٢٩):ص٨/٥٨٤.
[5] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٢٣):ص٣/١٠٢٠.
[6]انظر: اللسان ، مادة"قوت"، وطبقات فحول الشعراء : ٢٤٢ ، ٢٤٣..
[7]رواه أحمد في مسنده ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رقم : ٦٤٩٥ ، ٦٨١٩ ، ٦٨٢٨ ، ٦٨٤٢ ، والحاكم في المستدرك ١ : ٤١٥ ، وهو حديث صحيح ، وروايته " يقوت " .
[8] البيت لسموال بن عادياء اليهودي، انظر: ديوانه : ١٣ ، ١٤ ، والأصمعيات : ٨٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ١٣٥ ، وطبقات فحول الشعراء للجمحي : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، اللسان (قوت) وغيرها. وقوله : " ليت شعري " : أي ليتني أعلم ما يكون. وقوله : " وأشعرن " استفهام ، أي : وهل أشعرن. وقوله : " قربوها منشورة " يعني : صحف أعماله يوم يقوم الناس لرب العالمين. وفي البيت روايات أخر..
[9] تفسير الطبري:٨/٥٨٤-٥٨٥.
[10]صحيح البخاري بشرح الفتح ٣/٢٩٩ كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، ومسلم ٤/٢٠٢٦ كتاب البر والصلة، حديث رقم: ١٤٥، وأحمد في المسند ٤/٤٠٠..

وقد أمر الله تعالى عباده بالتعاون على فعل الخيرات، ونهاهم عن المنكرات، فقال تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[المائدة:٢].
٢-إثبات اسمه تعالى«المقيت»: يوصف الله عَزَّ وجَلَّ بأنه مُقِيت، يقدر لعباده القوت، ويحفظ عليهم رزقهم، وهذا ثابت بالكتاب العزيز. والمقيت من أسمائه تعالى.

القرآن
{وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦)} [النساء : ٨٦]
التفسير:
وإذا سلَّم عليكم المسلم فردُّوا عليه بأفضل مما سلَّم لفظًا وبشاشةً، أو ردوا عليه بمثل ما سلَّم، ولكل ثوابه وجزاؤه. إن الله تعالى كان على كل شيء مجازيًا.
سبب نزول الآية:
قال مقاتل والثعلبي:" نزلت في نفر بخلوا بالسلام"[١].
قوله تعالى:{وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ} [النساء : ٨٦]، " أي: إذا سلّم عليكم المسلم"[٢].
قال ابن عباس:" من سلم عليك من خلق الله"[٣].
قال الطبري:أي:" إذا دعي لكم بطول الحياة والبقاء والسلامة"[٤].
قال ابن ابي زمنين:" التحية: السلام"[٥].
في المراد بالتحية ها هنا قولان :
أحدهما : أنه الدعاء بطول الحياة والبقاء والسلامة. وهذا قول الطبري[٦].
والثاني : أنه السلام،وهو تطوع مستحب، ورده فرض. وهذا قول الحسن[٧].
قال السمعاني:" أكثر المفسرين على أن المراد بالتحية هاهنا: السلام، وأصل التحية: هو دعاء بالحياة، وهو في الشريعة عبارة عن السلام، والسلام: دعاء السلامة، وقد تكون التحية بمعنى: الملك والبقاء، ومنه: التحيات لله، ومنه قول زهير بن جناب[٨]:
من كل ما نال الفتى   قد نلتُه إلا التحيةْ
يعني: إلا الملك"[٩].
قوله تعالى:{فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} [النساء : ٨٦]، أي:" فردوا عليه بأفضل مما سلّم أو رُدُّوا عليه بمثل ما سلّم"[١٠].

---
[١] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٤، وانظر: تفسير الثعلبي:٣/٣٥٤
[٢] صفوة التفاسير: ٢٦٩، والتفسير الميسر:٩١.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٢٥):ص٣/١٠٢٠.
[٤] تفسير الطبري:٨/٥٨٦.
[٥] تفسير ابن ابي زمنين:١/٣٩٢.
[٦] انظر: تفسي الطبري:٨/٥٨٥.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٤٦):ص٨/٥٨٩.
[٨]البيت في "غريب الحديث" لأبي عبيد ١/ ٧٥، و"الشعر والشعراء" ص ٢٤٠، و"طبقات الشعراء" ص ٣٧، و"تهذيب اللغة" ١/ ٢٥٥ (حي)، و"اللسان" ٢/ ١٠٧٩ (حيا).
[٩] تفسير السمعاني:١/٤٥٦.
[١٠] صفوة التفاسير:٢٦٩.

قال مقاتل:" يقول: فردوا عليه أحسن مما قال، قال: فيقول: وعليك ورحمة الله وبركاته، أو يرد عليه مثل ما سلم عليه"[١].

قال الطبري:" يقول : فادعوا لمن دعا لكم بذلك بأحسن مما دعا لكم،أو ردّوا التحية"[٢].
التحية"[٢].

قال السمعاني:" أراد به: رد السلام بأحسن مما سلم، أو ترد كما سلم"[٣].

قال التستري:" يعني: زيادة على سلامه الصادر بالنصح لله تعالى. وقال النبي ﷺ: «السلام اسم من أسماء الله تعالى أظهره في أرضه، فأفشوه بينكم»[٤] "[٥].

قال الفراء:" أي زيدوا عليها كقول القائل: السلام عليكم، فيقول: وعليكم ورحمة الله. فهذه الزيادة أو ردوها قيل هذا للمسلمين. وأما أهل الكتاب فلا يزادون علي: وعليكم"[٦].

قال الزجاج:" إذا قيل لكم :السلام عليكم، فقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله، فالتحية التي هي أحسن منها هي: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ويقال لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام كلمة: وبركاته"[٧].

قال ابن ابي زمنين:" معنى: {أحسن منها} إذا قال الرجل: السلام عليكم، رد عليه: السلام عليكم ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله رد عليه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ومعنى: {أو ردوها} أي: ردوا عليه مثل ما يسلم؛ وهذا إذا سلم عليك المسلم"[٨].

وفي ردّ التحية قولان :

أحدهما : أن فرض رّدِّهِ عَامٌّ في المسلم والكافر، وهذا قول ابن عباس[٩]، وقتادة[١٠]، والحسن[١١]
والحسن[١١] وابن زيد[١٢]، وسفيان[١٣]، وسعيد بن جبير[١٤].

والثاني: أنه خاص في المسلمين دون الكافر، وهذا قول عطاء[١٥].

والراجح –والله اعلم- أن قوله: {فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا} المراد بها المسلمون، {أَوْ رُدُّوهَا} إذا كان المسلم من غير أهل الإسلام، وقد "خَصّت السنة أهل الكفر بالنهي عن رد الأحسن من تحيتهم عليهم أو مثلها ، إلا بأن يقال:وعليكم، فلا ينبغي لأحد أن يتعدَّى ما حدَّ في ذلك رسول

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٤.

[٢] تفسير الطبري:٨/٥٨٦.

[٣] تفسير السمعاني:١/٤٥٦.

[٤]في صحيح البخاري: كتاب صفة الصلاة، رقم ٧٩٧ والمعجم الكبير ١٠/ ٨٢ (١٠٣٩١) والمعجم الصغير ١/ ١٥٣ (٢٠٣) والمعجم الأوسط ٣/ ٢٣١ (٣٠٠٨) : "إن الله هو السلام".

[٥] تفسير التستري:٥٥.

[٦] معاني القرآن:١/٢٨٠.

[٧] معاني القرآن:٢/٨٦.

[٨] تفسير ابن ابي زمنين:١/٣٩٢.

[٩] انظر: تفسير الطبر](١٠٠٣٩):ص٨/٥٨٧.

[١٠] انظر: تفسير الطبر](١٠٠٤٠):ص٨/٥٨٧.

[١١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٣٠):ص٣/١٠٢١.

[١٢] انظر: تفسير الطبر](١٠٠٤٣):ص٨/٥٨٨.

[١٣] انظر تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٢٨):ص٣/١٠٢١.

[١٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٣١):ص٣/١٠٢١.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٣٤)، و(١٠٠٣٥:ص٨/٥٨٦-٥٨٧.

الله ﷺ. فأما أهل الإسلام ، فإن لمن سلَّم عليه منهم في الردّ من الخيار ، ما جعل الله له من ذلك"[1].

قال ابن كثير:" المراد أن يرد بأحسن مما حياه به ، فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام ؛ رد عليه مثل ما قال ، فأما أهل الذمة فلا يُبْدؤون بالسلام ولا يزادون ، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم : السام عليك فقل : وعليك»[2].

وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه»[3]"[4].

وقد روي عن سلمان الفارسي قال : «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله. فقال : وعليك ورحمة الله. ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله. فقال له رسول الله : وعليك ورحمة الله وبركاته. ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فقال له : وعليك. فقال له الرجل : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، أتاك فلان وفلان فسلَّما عليك ، فرددتَ عليهما أكثر مما رددت عليّ! فقال : إنك لم تدع لنا شيئًا ، قال الله : " وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها " ، فرددناها عليك»[5].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} [النساء : ٨٦]، أي:" إن الله تعالى كان على كل شيء مجازيًا"[6].

قال الثعلبي:" أي: حاسبا مجازيا"[7].

قال الطبري:أي:" إن الله كان على كل شيء مما تعملون ، أيها الناس ، من الأعمال ، من طاعة ومعصية ، حفيظًا عليكم ، حتى يجازيكم بها جزاءه"[8].

قال الزجاج:" أي: يعطي كل شي من العلم والحفظ والجزاء مقدار ما يحسبه، أي: يكفيه، تقول حسبك بهذا أي اكتف بهذا، وقوله تعالى: {عَطَاءً حِسَابًا} [النبأ : ٣٦]، أي كافيا، وإنما سمي الحساب في المعاملات حسابا لأنه يعلم ما فيه كفاية ليس فيها زيادة على المقدار ولا نقصان"[9].

وفي قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} [النساء : ٨٦]، وجوه:

أحدها : يعني حفيظاً، وهو قول مجاهد[10].

والثاني : محاسباً على العمل للجزاء عليه ، وهو قول أبي عبيدة[11]، وبعض المتكلمين[12].

والثالث : كافياً ، وهو قول ابي عبيدة[1]، والبلخي[2].

---

[1] تفسير الطبري:٥٨٨/٨-٥٨٩.

[2]رواه البخاري في صحيحه برقم (٦٢٥٧) ومسلم في صحيحه برقم (٢١٦٤).

[3]صحيح مسلم برقم (٢١٦٧).

[4] تفسير ابن كثير:٣٧٠/٢.

[5] أخرجه الطبري(١٠٠٤٤):ص٥٨٩/٨.

[6] التفسير الميسر:٩١.

[7] تفسير الثعلبي:٣٥٤/٣.

[8] تفسير الطبري:٥٩١/٨.

[9] معاني القرآن:٨٧/٢.

[10] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٤٧):ص٥٩١/٨.

[11] انظر: مجاز القرآن ١ / ١٣٥.

[12] انظر: النكت والعيون:٥١٤/١.

والرابع:يعني: شهيدا. وهذا قول سعيد[3].
والراجح-والله أعلم- هو قول مجاهد، لأن أصل "الحسيب" في هذا الموضع، " فعيل " من "الحساب" الذي هو في معنى الإحصاء، يقال منه :حاسبت فلانًا على كذا وكذا، وهو حسيبه، وذلك إذا كان صاحبَ حِسابه[4].

الفوائد:

١- أنه من سلم فإنما يتأدب بأدب الله تعالى، قال تعالى:{وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها}، فأمر أن يقال التحيي بأحسن من تحية.
وليس معنى ردوها، إسقاطها عن نفسه، وإعادتها إليه كمن يهدى إليه شيء فلا يقبله ويرده. وإنما معناه أن يدعوا له مثل ما دعا، فيقول: وعليكم السلام. وهذا في الرد على المؤمنين[5].

٢-أن السلام الذي يوجب الرد هو حق للمسلم كما قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}، ولهذا يرد السلام على من سلم وإن كان كافراً، وكان اليهود إذا سلموا على النبي-ﷺ-، يقول لهم: «وعليكم» . وأمر أمته بذلك[6].
وإنما قال: «عليكم» لأنهم يقولون السام، والسام: الموت، فيقول: «عليكم» . قال صلى الله عليه وسلم: «يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا». ولما قالت عائشة: وعليكم السام واللعنة. قال: "مهلاً يا عائشة؛ فإن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، أو لم تسمعي ما قلت لهم؟! »[7]. يعني: رددت عليهم، فقلت: "عليكم". فهذا إذا قالوا السام عليكم، وأما إذا عُلم أنهم قالوا السلام؛ فلا يخصون في الرد فيقال: عليكم. فيصير بمعنى السلام عليكم لا علينا بل يقال: وعليكم.

٣-إثبات اسم«الحسيب» لله تعالى، وهو اسم له ثابتٌ بالكتاب والسنة، قال الرسول-ﷺ-:" إن كان أحدكم مادحاً لا محالةَ؛ فليقل: أحسب كذا وكذا - إن كان يرى أنه كذلك -، وحسيبه الله، ولا يُزكَّى على الله أحد"[8].
ومعنى الحسيب؛ أي: الحفيظ، والكافي، والشهيد، والمحاسب.

القرآن

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)} [النساء : ٨٧]

التفسير:
الله وحده المتفرد بالألوهية لجميع الخلق، ليجمعنكم يوم القيامة، الذي لا شك فيه، للحساب والجزاء. ولا أحد أصدق من الله حديثًا فيما أخبر به.
سبب النزول:

---

[1] انظر: تفسير ابن المنذر(١٠٨٠):ص٨١٨/٢.
[2] انظر: النكت والعيون:٥١٤/١.
[3] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٣٣):ص١٠٢٢/٣.
[4] انظر: تفسير الطبري:٥٩١/٨-٥٩٢.
[5] انظر: المنهاج في شعب الإيمان:٣٢٦/٣.
[6]أخرجه البخاري (٦٢٥٧، ٦٩٢٨) ومسلم (٢١٦٤) من حديث عبد الله بن عمر. وأخرجه البخاري (٦٢٥٨، ٦٩٢٦) ومسلم (٢١٦٣) من حديث أنى بن مالك.
[7]أخرجه البخاري (٦٢٥٦) ومسلم (٢١٦٥) .
[8]رواه: البخاري (٦١٦٢).

قال مقاتل:" نزلت في قوم شكوا في البعث فأقسم الله- عز وجل- بنفسه ليبعثهم إلى يوم القيامة لا ريب فيه"[١].

قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [النساء : ٨٧]،" أي: الله الواحد الذي لا معبود سواه"[٢].
سواه"[٢].

قال ابن كثير:" إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات ، وتضمَّن قسما"[٣].

عن ابن عباس في قوله: "{لا إله إلا هو}، قال: توحيد"[٤].

قال محمد بن إسحاق: "لا إله إلا الله ،أي ليس معه غيره شريك في أمره"[٥].

قوله تعالى:{لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} [النساء : ٨٧]، " أي: ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شك فيه"[٦].

قال الواحدي:" أَيْ: واللَّهِ ليجمعنَّكم في القبور"[٧].

قال الطبري:أي:" ليبعثنَّكم من بعد مماتكم ، وليحشرنكم جميعًا إلى موقف الحساب الذي يجازي الناس فيه بأعمالهم ، ويقضي فيه بين أهل طاعته ومعصيته ، وأهل الإيمان به والكفر، و لا شك في حقيقة ما أقول لكم من ذلك وأخبركم من خبري : أنّي جامعكم إلى يوم القيامة بعد مماتكم "[٨].

قال ابن كثير:" خبر وقَسَم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد فيجازي كل عامل بعمله"[٩].

قال الواحدي:" معنى {ليجمعنكم}: أي: في الموت، أو في النشور إلى يوم القيامة، أي: ليضمنكم إلى ذلك اليوم ويجمعن بينكم وبينه بأن يجمعكم فيه"[١٠].

قال اب عطية:" والجمع هنا بمعنى الحشر، فلذلك حسنت بعده إلى، أي: إليه السوق والحشر"[١١].

قال ابو العالية:"{ لَا رَيْبَ فِيهِ}، لا شك فيه"[١٢].

قال مقاتل:{ لا رَيْبَ فِيهِ}،" يعني: لا شك في البعث"[١٣].

قال ابن عطية: { لا رَيْبَ فِيهِ}، معناه:" لا ريب فيه في نفسه وحقيقة أمره، وإن ارتاب فيه الكفرة فغير ضائر"[١٤].

وفي تسمية القيامة قولان [١]:

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٤/١.

[٢] صفوة التفاسير:٢٦٩.

[٣] تفسير ابن كثير٣٧٠/٢.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٣٥):ص١٠٢٢/٣.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٣٦):ص١٠٢٢/٣.

[٦] صفوة التفاسير:٢٦٩.

[٧] الوجيز:٢٧٩.

[٨] تفسير الطبري:٥٩٢/٨.

[٩] تفسير ابن كثير٣٧٠/٢.

[١٠] التفسير البسيط:٢٥/٧.

[١١] المحرر الوجيز:٨٨/٢.

[١٢] أخرجه ابن اب حاتم(٥٧٣٧):ص١٠٢٢/٣.

[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٤/١.

[١٤] المحرر الوجيز:٨٨/٢.

أحدهما : لأن الناس يقومون فيه من قبورهم، قال تعالى: {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر : ٧].
والثاني : لأنهم يقومون فيه للحساب. قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين : ٦].

قال ان عطية:" القيامة: أصلها القيام، ولما كان قيام الحشر من أذل الحال وأضعفها إلى أشد الأهوال وأعظمها لحقته هاء المبالغة"[٢].

قوله تعالى:{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء : ٨٧]، أي:" ولا أحد أصدق من الله حديثًا فيما أخبر به"[٣].

قال الواحدي:" أَيْ: قولاً وخبراً يريد: أنَّه لا خُلفَ لوعده"[٤].

قال ابن عباس: "يريد موعدًا"[٥]. أي: "لا يخلف لوعده"[٦].

قال مقاتل:" يقول: فلا أحد أصدق من الله حديثا إذا حدث يعني في أمر البعث"[٧].

قال ابن كثير:" أي : لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ، ووعده ووعيده ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه"[٨].

قال الطبري:يقول:" وأي ناطق أصدق من الله حديثًا ؟ وذلك أن الكاذب إنما يكذب ليجتلب بكذبه إلى نفسه نفعًا ، أو يدفع به عنها ضرًّا. والله تعالى ذكره خالق الضر والنفع ، فغير جائز أن يكون منه كذب ، لأنه لا يدعوه إلى اجتلاب نفع إلى نفسه أو دفع ضر عنها داعٍ"[٩].
قال ابن عطية:" ظاهره الاستفهام ومعناه تقرير الخبر، تقديره:

لا أحد أصدق من الله تعالى، لأن دخول الكذب في حديث البشر إنما علته الخوف والرجاء أو سوء السجية، وهذه منفية في حق الله تعالى وتقدست أسماؤه، والصدق في حقيقته أن يكون ما يجري على لسان المخبر موافقا لما في قلبه، وللأمر المخبر عنه في وجوده"[١٠].

قال الزمخشري:" لأنه عز وعلا صادق لا يجوز عليه الكذب. وذلك أن الكذب مستقل بصارف عن الإقدام عليه وهو قبحه. ووجه قبحه، الذي هو كونه كذبا وإخبارا عن الشيء بخلاف ما هو عليه، فمن كذب لم يكذب إلا لأنه محتاج إلى أن يكذب ليجر منفعة أو يدفع مضرة. أو هو غنى عنه إلا أنه يجهل غناه. أو هو جاهل بقبحه. أو هو سفيه لا يفرق بين الصدق والكذب في إخباره ولا يبالى بأيهما نطق، وربما كان الكذب أحلى على حنكه من الصدق. وعن بعض السفهاء أنه عوتب على الكذب فقال: لو غرغرت لهواتك به ما فارقته. وقيل لكذاب: هل صدقت قط؟ فقال: لولا أنى صادق في قولي «لا» لقلتها. فكان الحكيم الغنى الذي لا يجوز عليه الحاجات العالم بكل معلوم، منزها عنه، كما هو منزه عن سائر القبائح"[١١].

---

[١] انظر: معاني القرآن للزجاج:٨٧/٢، والنكت والعيون:٥١٤/١.

[٢] المحرر الوجيز:٨٨/٢.

[٣] التفسير الميسر:٩٢.

[٤] الوجيز:٢٧٩.

[٥] التفسير البسيط للواحدي:٢٥/٧.

[٦] التفسير البسيط للواحدي:٢٥/٧.

[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٤/١.

[٨] تفسير ابن كثير٣٧٠/٢.

[٩] تفسير الطبري:٥٩٣/٨.

[١٠] المحرر الوجيز:٨٨/٢.

[١١] الكشاف:٥٤٥/١.

وقرأ حمزة والكسائي:{أصدق}، صاد ساكنة بعدها دال بإشمام الزاي[1].

الفوائد:

١-إثبات يوم القيامة، وهو الركن الخامس من أركان الإيمان، إذ أن الله يجمع الخلق للجزاء والعرض والحساب، والثواب والعقاب.

٢- أن الحشر يكون لجميع المخلوقات، أولهم وآخرهم ليوم الفصل.

٣-أن الصدق من صفات الكمال، فهو أحق بها، قال تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}، وقال النبي-ﷺ- :" أصدق الحديث كتاب الله"[2]، وأن كلامه قائم بذاته غيرمخلوق عند أهل السنة فإن الكلام صفة كمال فلا بد أن يتصف بها سواء قالوا إنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته وهو معنى قائم بالنفس أو حروف او أصوات قديمة أو قالوا إنه متعلق بمشيئته وأنه تكلم بعد أن لم يكن متكلما أو أنه لم يزل متكلما إذا شاء.

القرآن

{فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)} [النساء : ٨٨]

التفسير:

فما لكم -أيها المؤمنون- في شأن المنافقين إذ اختلفتم فرقتين: فرقة تقول بقتالهم وأخرى لا تقول بذلك؟ والله تعالى قد أوقعهم في الكفر والضلال بسبب سوء أعمالهم. أتودون هداية من صرف الله تعالى قلبه عن دينه؟ ومن خذله الله عن دينه، واتباع ما أمره به، فلا طريق له إلى الهدى.

في سبب نزول الآيات:[٨٨، ٨٩، ٩٠]، أقول:

أحدها : أنها نزلت في الذين تخلَّفُواْ عن رسول الله -ﷺ- يوم أحد ، وانصرفوا إلى المدينة ، وقالوا لرسول الله عليه السلام ولأصحابه : {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالا لاتَّبَعْنَاكُمْ}[سورة آل عمران : ١٦٧]، وهذا قول زيد بن ثابت[3].

روي عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه-؛ قال: "لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد، خرج معه ناس، فرجعوا، قال: فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: قالت فرقة: نقتلهم ، وفرقة قالت: لا نقتلهم ، فنزلت: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا}، قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث، كما تنفي النار خبث الفضة»"[4].

والثاني : أنها نزلت في قوم قَدِمُواْ المدينة فأظهروا الإسلام، ثم رجعواْ إلى مكة فأظهروا الشرك، وهذا قول الحسن[5]، ومجاهد[1]، وروي عن أبي سلمة بن عبدالرحمن نحو ذلك[2].

---

[1] انظر: تفسير البغوي:٢/٢٥٨.

(٢)أخرجه: أحمد ٣/٣١٠ و٣١٩ و٣٧١ و، والدارمي (٢١٢) ، ومسلم ٣/١١ (٨٦٧) (٤٣) و (٤٤) و (٤٥) ، وأبو داود (٢٩٥٤) ، وابن ماجه (٤٥) ، والنسائي ٣/٥٨ و١٨٨ وفي " الكبرى "، له (١٧٨٦) و (٥٨٩٢) ، وأبو يعلى (٢١١١) ، وابن الجارود (٢٩٧) و (٢٩٨) ، وابن خزيمة (١٧٨٥) ، وأبو عوانة كما في " إتحاف المهرة " ٣/٣٢٨.

[3] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٤٩)-(١٠٠٥١):ص٩/٨-٩،وتفسير ابن أبي حاتم(٥٧٣٩):ص٣/١٠٢-١٠٢٣.

[4] . أخرجه أحمد (٢١٩٣٥):ص ٥/١٨٤، و(٢١٩٦٨):ص٥/١٨٧، و(٢١٩٦٩ و٢١٩٧٣):ص ٥/١٨٧، و(٢١٩٧٥):ص ٥/١٨٨، وعبد بن حميد (٢٤٢)، والبخاري (١٨٨٤):ص ٣/٢٩، و(٤٠٥٠):ص ٥/١٢٢، و(٤٥٨٩):ص ٦/٥٩، ومسلم (٣٣٣٥):ص٤/١٢١، و(٧١٣٢):ص٨/١٢١، و(٧١٣٣):ص ٨/١٢١، والترمذي(٣٠٢٨)، والنسائي فى "الكبرى" (١١٠٤٨).

[5] انظر: النكت والعيون:١/٥١٤.

قال مجاهد:" قوم خرجوا من مكة حتى أتوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ، ثم ارتدوا بعد ذلك ، فاستأذنوا النبيّ ﷺ إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتّجرون فيها. فاختلف فيهم المؤمنون ، فقائل يقول : هم منافقون، وقائل يقول :هم مؤمنون، فبين الله نفاقهم فأمر بقتالهم ، فجاؤوا ببضائعهم يريدون المدينة ، فلقيهم علي بن عويمر ، أو : هلال بن عويمر الأسلمي، وبينه وبين النبي ﷺ حلف وهو الذي حَصِر صدره أن يقاتل المؤمنين أو يُقاتل قومه ، فدفع عنهم بأنهم يَؤُمُّون هلالا وبينه وبين النبي ﷺ عهد"[٣].

والثالث : أنها نزلت في قوم أظهروأ الإسلام بمكة وكانوأ يعينون المشركين على المسلمين ، وهذا قول ابن عباس[٤]، وقتادة[٥]، ومعمر بن راشد[٦]، وروي عن الضحاك نحو ذلك[٧].

روي عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ "قوله: {فَمَا لَكُمْ في الْمُنَافِقِينَ}؛ وذلك أن قوماً كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام؛ فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة؛ قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخبثاء، فاقتلوهم؛ فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله -أو كما قالوا- أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به، أمن أجل أنهم لم يهاجروا ويتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم لذلك؟! فكانوا كذلك فئتين، والرسول عليه الصلاة والسلام عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء؛ فنزلت: {فَمَا لَكُمْ في الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ الله}"[٨].

والرابع : أنها نزلت في قوم من أهل المدينة أرادوا الخروج عنها نفاقاً ، وهذا قول السدي[٩]، وروي عن عبدالرحمن بن عوف نحو ذلك[١٠].

قال السدي:" كان ناس من المنافقين أرادوا أن يخرجوا من المدينة ، فقالوا للمؤمنين : إنّا قد أصابنا أوجاعٌ في المدينة واتَّخَمْناها ، فلعلنا أن نخرج إلى الظَّهر حتى نتماثل ثم نرجع ، فإنا كنا أصحاب برّيّة. فانطلقوا ، واختلف فيهم أصحاب النبي ﷺ ، فقالت طائفة : أعداءٌ لله منافقون! وددنا أن رسول الله ﷺ أذن لنا فقاتلناهم! وقالت طائفة : لا بل إخواننا غَمَّتهم المدينة فاتّخموها ، فخرجوا إلى الظهر يتنزهون ، فإذا بَرَؤوا رجعوا. فقال الله : {فما لكم في المنافقين فئتين}، يقول : ما لكم تكونون فيهم فئتين{ والله أركسهم بما كسبوا}" [١١].

---

[١]انظر: تفسير الطبري(١٠٠٥٢)، (١٠٠٥٣):ص٩/٩-١٠، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٧٤٤):ص٣/١٠٢٤.

[٢]انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٤٢):ص٣/١٠٢٣.

[٣] أخرجه الطبري(١٠٠٥٢):ص٩/٩-١٠ــ وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥٧٤٤):ص٣/ ١٠٢٤، من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به. وسنده صحيح؛ لكنه مرسل.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ١٢١)، وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٥٤):ص٩/١٠-١١، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٧٤١):ص٣/١٠٢٣.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٥٥):ص٩/١١.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٥٦):ص٩/١١.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٥٧):ص٩/١١-١٢.

[٨] . أخرجه الطبري في تفسيره(١٠٠٥٤):ص٩/١٠-١١، وابن أبي حاتم في تفسيره(٥٧٤١)ص: ٣/ ١٠٢٣.وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٥٨):ص٩/١-١٣.

[١٠]انظر: مسند الإمام أحمد (١٦٦٧):ص ١٩٢/١.

[١١] . أخرجه الطبري(١٠٠٥٨):ص٨/١٢-١٣، وسنده ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف أسباط.

وفي السياق نفسه قال عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه-:" أن قوما من العرب أتوا رسول الله ﷺ المدينة، فأسلموا، وأصابهم وباء بالمدينة، حماها، فأركسوا، فخرجوا من المدينة، فاستقبلهم نفر من أصحابه، يعني من أصحاب النبي ﷺ، فقالوا لهم: ما لكم رجعتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة، فاجتوينا المدينة، فقالوا: أما لكم في رسول الله ﷺ أسوة؟ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، هم مسلمون، فأنزل الله، عز وجل: {فَمَا لَكُمْ في الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا}، الآية "[1].

والخامس : أنها نزلت في قوم من أهل الإفك ، وهذا قول ابن سعد بن معاذ[2]، وابن زيد[3].

عن ابن سعد بن معاذ؛ قال: "خطب رسول الله - ﷺ - الناس، فقال: "مَنَ لي ممن يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني؟ "، فقال سعد بن معاذ: إن كان من الأوس؛ قتلناه، وإن كان من إخواننا من الخزرج؛ أمرتنا فأطعناك؛ فقام سعد بن عبادة، فقال: ما بك يا ابن معاذ؟! طاعة رسول الله - ﷺ -، ولقد تكلمت ما هو منك؛ فقام أُسيد بن حُضير، فقال: إنك يا ابن عبادة! منافق تحب المنافقين؛ فقام محمد بن مسلمة، فقال: اسكتوا أيها الناس؛ فإن فينا رسول الله - ﷺ -، وهو يأمرنا فننفِّذ أمره؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {فَمَا لَكُمْ في الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا}"[4].

والسادس: وقال عكرمة:" أخذ أناس من المسلمين أموالا من المشركين فانطلقوا بها، فاختلف المسلمون فيهم، فقالت طائفة: لو لقيناهم قتلناهم وأخذنا ما في أيديهم، وقال بعض: لا يصلح لكم ذلك إخوانكم انطلقوا تجارا، فنزلت هذه الآية"[5].

والسابع: وقيل: "هم العرنيون[6] الذين أغاروا على السرح وقتلوا بسارا مولى الرسول صلى الله الله عليه وسلم"[1].

---

[1] اخرجه أحمد (١٦٦٧):ص ١٩٢/١. وسنده ضعيف؛ لأن فيه علتان:

الأولى: ابن إسحاق مدلس، وقد عنعنه.

الثانية: أبو سلمة لم يسمع من أبيه؛ كما صرح بذلك الأئمة؛ كما في "المراسيل" (ص ٩١)، و"التهذيب" (١٠/ ٤٣٨، ٤٣٩، ١٢/ ١١٧).

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٧): "رواه أحمد؛ وفيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وأبو سلمة لم يسمع من أبيه".

وقال السيوطي في "الدر المنثور" :٢/ ٦١٠: "وأخرجه أحمد بسند فيه انقطاع".

[2] انظر: سنن سعيد بن منصور (٦٦٣) :ص٤/ ١٣١٣، ١٣١٤، وتفسير ابن أبي حاتم (٥٧٤٠):ص٣/ ١٠٢٣.

[3] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٥٩)/ (١٠٠٦٠):ص١٣/٨.

[4]أخرجه سعيد بن منصور في "سننه"(٦٦٣) :ص٤/ ١٣١٣، ١٣١٤، وابن أبي حاتم في "تفسيره(٥٧٤٠):ص٣/ ١٠٢٣ ، كلاهما من طريق الدراوردي عن زيد بن أسلم عن ابن سعد بن معاذ به، وسنده ضعيف؛ للانقطاع بين زيد بن أسلم وابن سعد هذا، وزيد هذا كان يرسل ولم يصرح بالتحديث، ولم ينص أحد ممن كتب في الرجال أنه روى عن ابن سعد هذا.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٠٩)، وزاد نسبته لابن المنذر.

[5] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٤٣):ص٣/١٠٢٤.

[6]وأما العرنيون: فإنهم غدروا برسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وارتدوا عن الإسلام، وذهبوا بإبله، فجمعوا بين الكفر والغدر والغصب، فلذلك قطع أيديهم في جزاء السرقة، وسمر أعينهم قصاصًا لأنهم سمروا أعين الرعاء؛ لئلا يدلوا على صوبهم؛ الذي ذهبوا فيه، وقتلهم في جواب شركهم بالله.[انظر: الإفصاح في

والراجح-والله أعلم- أنها " نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في قوم كانوا ارتدُّوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة، لأنّ اختلاف أهل التأويل في ذلك إنما هو على قولين:
أحدهما: أنهم قوم كانوا من أهل مكة.
والآخر : أنهم قوم كانوا من أهل المدينة.
وفي قول الله تعالى ذكره :{ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا} [النساء : ٨٩]، أوضح الدّليل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة، لأنّ الهجرة كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى داره ومدينته من سائر أرض الكفر. فأما من كان بالمدينة في دار الهجرة مقيمًا من المنافقين وأهل الشرك ، فلم يكن عليه فرضُ هجرة ، لأنه في دار الهجرة كان وطنُه ومُقامه"[٢].
قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ} [النساء : ٨٨]، " أي: ما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين"[٣].
قال الزجاج:" هذا خطاب للمسلمين، أي: أي شيء لكم في الاختلاف في أمرهم"[٤].
قال الزمخشري:أي:" ما لكم اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقا ظاهرا وتفرقتم فيه فرقتين، وما لكم لم تبتوا القول بكفرهم"[٥].
قال المراغي:" أي فما لكم صرتم فى المنافقين فئتين واختلفتم فى كفرهم مع تظاهر الأدلة عليه، فليس لكم أن تختلفوا فى شأنهم، بل عليكم أن تقطعوا بثبوته"[٦].
قوله تعالى:{وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا} [النساء : ٨٨]، أي:" والله نكَّسهم وردّهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان"[٧].
قال الزمخشري:" أى: ردهم في حكم المشركين كما كانوا بما كسبوا من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين واحتيالهم على رسول الله ﷺ. أو أركسهم في الكفر بأن خذلهم حتى أركسوا فيه، لما علم من مرض قلوبهم"[٨].
قال ابن كثير:" أي:ردهم وأوقعهم في الخطأ،وقوله:{ بِمَا كَسَبُوا}، أي : بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل"[٩].
قال القاسمي:" أي: نكسهم وردهم إلى الكفر، بسبب ما كسبوه من لحوقهم بالكفار"[١٠].

معاني الصحاح:١٦٠/٥].

وانظر: الحديث في صحيح البخاري (٢٨٥٥)، ومسلم (١٦٧١)ص٣/ ١٢٩٦، ومسند أبو يعلى الموصلي(٢٨١٦).

[١] الكشاف:٥٤٦/١، ومفاتيح الغيب:١٦٨/١٠.

[٢] تفسير الطبري:١٣/٩-١٤[بتصرف بسيط].

[٣] صفوة التفاسير:٢٧١.

[٤] معاني القرىن:٨٨/٢.

[٥] الكشاف:٥٤٦/١.

[٦] تفسير المراغي:١١٤/٥.

[٧] صفوة التفاسير:٢٧١.

[٨] الكشاف:٥٤٦/١.

[٩] تفسير ابن كثير:٣٧١/٢.

[١٠] محاسن التأويل:٢٥١/٣.

قال المراغي:" أي: كيف تفترقون فى شأنهم والله قد صرفهم عن الحق الذي أنتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك واجترحوا من المعاصي، حتى إنهم لا ينظرون إليكم نظرة المودة والإخاء، بل نظرة العداوة والبغضاء، ويتربصون بكم الدوائر، وقد جعلهم الله مركسين كأنهم قد نكسوا على رءوسهم وصاروا يمشون على وجوههم كما قال تعالى «أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم؟» لأنهم قد فسدت فطرتهم وأحاطت بهم خطيئاتهم، فأوغلوا فى الضلال، وبعدوا عن الحق، حتى لم يعد يجول فى أذهانهم إلا الثبات على ما هم فيه ومقاومة ما عداه، وقد نسبه الله تعالى إليه لأنه ما كان سببا إلا بسنته فى تأثير الأعمال الاختيارية فى نفوس العالمين"[١].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا} [النساء : ٨٨]، وجوه:

أحدها : معناه ردهم، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء الخراساني[٢]، وعطاء[٣].

والثاني : أوقعهم، وهذا مروي عن ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة[٤].

والثالث : أهلكهم، وهذا قول قتادة[٥]، والسدي[٦].

والرابع : أَضَلَّهم بما كسبوا، وهذا مروي عن السدي أيضا[٧].

والخامس : نكسهم وردهم إلى حكم الكفار، وهذا قول الزجاج[٨].

قال الراغب:" الركس والنكس: الرذل، والركس أبلغ، لأن النكس ما جعل أسفله أعلاه، والركس: أصله ما جعل رجيعا بعد أن كان طعاما فهو كالرجس، وقد وصف أعمالهم به، كما قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} [التوبة : ٢٨]، ويقال: ركسه وأركسه، وأركس أبلغ، كما أن أسقاه أبلغ من قولهم سقاه"[٩].

وقرئ: {ركسهم}،و {رُكِسُوا فِيهَا } [النساء : ٩١][١٠].

قوله تعالى:{أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ} [النساء : ٨٨]، أي:" أتودون هداية من صرف الله تعالى قلبه عن دينه؟"[١١].

قال السمعاني:" يعنى: أتريدون أن ترشدوا من أضله الله"[١٢].

قال الزجاج:" أي: أتقولون أن هؤلاء مهتدون والله قد أضلهم"[١٣].

قال الواحدي:" أيْ: يقولون: هؤلاء مهتدون والله قد أضلَّهم"[١٤].

---

[١] تفسير المراغي:٥/١١٤-١١٥.

[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٦١):ص٩/١٥.

[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٤٧):ص٣/١٠٢٥.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٦٢):ص٩/١٥.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٦٣):ص٩/١٥.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٦٤):ص٩/١٥.

[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٤٦):ص٣/١٠٢٥.

[٨] انظر: معاني القرآن:٢/٨٨.

[٩] تفسير الراغب الأصفهاني:٣/١٣٧٣-١٣٧٤.

[١٠] انظر: الكشاف:١/٥٤٦.

[١١] التفسير الميسر:٩٢.

[١٢] تفسير السمعاني:١/٤٥٩.

[١٣] معاني القرىن:٢/٨٨.

[١٤] الوجيز:٢٧٩.

قال الزمخشري:أي:" أن تجعلوا من جملة المهتدين من أضل الله من جعله من جملة الضلال، وحكم عليه بذلك أو خذله حتى ضل"[١].

قال ابن كثير:" أي : لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه"[٢].

قال ابن عطية:" استفهام معناه الإبعاد واليأس مما أرادوه، والمعنى أتريدون أيها المؤمنون القائلون: بأن أولئك المنافقين مؤمنون أن تسموا بالهدى من قد يسره الله لضلالة وحتمها عليه؟"[٣].

قال المراغي:" أي: إنه ليس فى استطاعتكم أن تبدلوا سنن الله فى نفوس الناس فتريدوا أن تحصلوا على مقاصد وغايات ضد ما انطبع فيها من الأخلاق والصفات، بتأثير ما كسبته طوال عمرها من الأعمال"[٤].

وفي تفسير قوله تعالى:{أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ} [النساء : ٨٨]، وجهان[٥]:

أحدهما : أن تُسَمُّوهم بالهُدى وقد سمّاهم الله بالضلال عقوبة لهم.

والثاني : تهدوهم إلى الثواب بمدحهم والله قد أَضَلَّهم بذمهم .

قوله تعالى:{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء : ٨٨]، أي:" ومن خذله الله عن دينه، واتباع ما أمره به، فلا طريق له إلى الهدى"[٦].

قال البغوي:"أي: ومن يضلل الله عن الهدى، فلن تجد له طريقا إلى الحق"[٧].

قال الواحدي:" أَيْ: ديناً وطريقاً إلى الحجَّة"[٨].

قال ابن عطية:"ثم أخبر تعالى أنه من يضلل فلا سبيل إلى إصلاحه ولا إلى إرشاده"[٩].

إرشاده"[٩].

أي ومن تقضى سننه فى خلقه أن يكون ضالا عن طريق الحق فلن تجد له سبيلا يصل بسلوكها إليه، فإن للحق سبيلا واحدة هى صراط الفطرة المستقيم، وللباطل سبلا كثيرة عن يمين سبيل الحق وعن شمالها، كل من سلك منها سبيلا بعد عن سبيل الحق بقدر إيغاله فى السبيل التي سلكها كما قال تعالى : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام : ١٥٣]، وقد أوضح النبي ﷺ معنى الآية بالخطوط الحسية، فخط فى الأرض خطا وجعله مثالا لسبيل الله، وخط على جانبيه خطوطا لسبل الشيطان[١٠]، وهذه الخطوط المستقيمة لا تلتقى مع الخط الأول بحال، وسبيل الفطرة تقتضى أن يعرض الإنسان جميع

---

[١] الكشاف:٥٤٦/١.

[٢] تفسير ابن كثير:٣٧١/٢.

[٣] المحرر الوجيز:٨٩/٢.

[٤] تفسير المراغي:١١٥/٥.

[٥] انظر: النكت والعيون:٥١٤/١.

[٦] التفسير الميسر:٩٢.

[٧] تفسير البغوي:٦٧٣/١.

[٨] الوجيز:٢٧٩.

[٩] المحرر الوجيز:٨٩/٢.

[١٠] عن جابر قال:" كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فخط خطا هكذا أمامه، فقال: هذا سبيل الله، عز وجل، وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله، قال: هذه سبيل الشيطان، ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}". [الأنعام : ١٥٣]. أخرجه احمد(١٥٣٥١):ص٣٩٧/٣، وعبد بن حميد(١١٤١)، وابن ماجة(١١).

أعماله على سنن العقل ويتبع ما يظهر له أنه الحق الذي فيه منفعته عاجلا وآجلا، وفيه كماله الإنسانى، وأكثر ما يصده عن هذه السبيل التقليد والغرور وظنه أنه ليس هناك ما هو أكمل مما هو فيه، وبهذا يقطع على نفسه طريق العقل والنظر فى النفع والضر والحق والباطل، وشبهته فى ترك صراط الفطرة أن عقله قاصر عن التمييز بين الحق والباطل والخير والشر، فعليه أن يتبع ما وجد عليه الآباء والأجداد من زعماء عصره ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون"[1].

قال ابن حزم وابن البارزي:" قوله تعالى: {فما لكم في المنافقين فئتين} [النساء:٨٨]، نسخها آية السيف"[2].

الفوائد:

١- تحريم موالاة المنافقين، إنكار الله على المؤمنين بسبب اختلافهم في المنافقين.

٢-أن من أضله الله تعالى لا سبيل له إلى الهدى وأن الضلال وقع مع الإضلال من الله تعالى للكافر والفاسق.

٣- أن القلوب لها أقفال ومفاتيح أعظم من أقفال ومفاتيح أي باب، فإذا كان الله تعالى طبع على قلب فلان فلا يمكن لجميع الأنبياء والمرسلين مجتمعين أن يفتحوا هذا القلب، ومهمة الأديان والأنبياء والمرسلين هي تبليغ دعوة الحق إلى الخلق فقط، أي: إرشادهم إلى الله، والذي يملك الهداية والضلال هو الله عز وجل.

القرآن

{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)} [النساء : ٨٩]

التفسير:

تمنَّى المنافقون لكم -أيها المؤمنون-، لو تنكرون حقيقة ما آمنت به قلوبكم، مثلما أنكروه بقلوبهم، فتكونون معهم في الإنكار سواء، فلا تتخذوا منهم أصفياء لكم، حتى يهاجروا في سبيل الله، برهانًا على صدق إيمانهم، فإن أعرضوا عما دعوا إليه، فخذوهم أينما كانوا واقتلوهم، ولا تتخذوا منهم وليّاً من دون الله ولا نصيرًا تستنصرونه به.

سبب النزول:

أخرج ابن ابي حاتم عن الحسن، أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر يعني النبي ﷺ على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج، فأتيته فقلت: أنشدك النعمة فقالوا: مه، فقال رسول الله ﷺ: دعوه ما يريد. فقلت: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم فإن أسلم قومك ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا لم تخشن لقلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال: اذهب معه، فافعل ما يريد، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، فإن أسلمت قريش أسلموا معهم، فأنزل الله تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ}"[3].

قوله تعالى:{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً } [النساء : ٨٩]، " أي: تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فتستوا أنتم وهم وتصبحوا جميعاً كفارا"[4].

قال محمد بن كعب:" يقول: ود الذين كفروا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء"[5].

---

[1] تفسير المراغي:٥/١١٥-١١٦.

[2] الناسخ والمنسوخ لابن حزم:٣٥، وناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن البارزي:٢٩.

[3] تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٥٠):ص٣/١٠٢٦.

[4] صفوة التفاسير:٢٧١.

[5] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٤٩):ص٣/١٠٢٥.

قال ابن كثير:" أي : هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها ، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم"[1].

قال الزمخشري: أي:" ودوا كفركم فكونكم معهم شرعا واحدا فيما هم عليه من الضلال واتباع دين الآباء"[2].

قوله تعالى:{فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ} [النساء : ٨٩]،أي:" فلا تتخذوا منهم أصفياء لكم"[3].

قال ابن أبي زمنين:" أي: لا توالوهم"[4].

قال ابن كثير:" أي : لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك"[5].

قال الزمخشري:أي:" فلا تتولوهم وإن آمنوا "[6].

قوله تعالى:{حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء : ٨٩]،أي:" حتى يهاجروا في سبيل الله، برهانًا على صدق إيمانهم"[7].

قال ابن عباس:"يقول: حتى يصنعوا كما صنعتم يعني الهجرة"[8].

قال عكرمة:" حتى يهاجروا هجرة أخرى"[9].

قال ابن أبي زمنين:" فيرجعوا إلى الدار التي خرجوا منها؛ يعني: المدينة"[10]. قال

قال الزمخشري:أي:" حتى يظاهروا إيمانهم بهجرة صحيحة هي لله ورسوله- لا لغرض من أغراض الدنيا- مستقيمة ليس بعدها بداء ولا تعرب"[11].

قال الراغب:"والهجرة: ترك الشيء والإعراض عنه مكانا أو خليطا، وسمي القبيح من الكلام هجرا لكونه مقتضيا لهجره، والرفث هاجرة لكونه حاملا على أن يهجره، وسمي المهاجر لتركه وطنه، وصار اسم مدح في الإسلام، وسمي من رفض فضولات شهواته مهاجرا"[12].

قال البغوي:" والهجرة على ثلاثة أوجه: هجرة المؤمنين في أول الإسلام، وهي قوله تعالى رللفقراء المهاجرين}[الحشر:٨]، وقوله:{ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله} [النساء :١٠٠}، ونحوهما من الآيات، وهجرة المنافقين: وهي الخروج في سبيل الله مع رسول الله ﷺ صابرا محتسبا كما حكى ها هنا منع من موالاتهم حتى يهاجروا في سبيل الله، وهجرة سائر المؤمنين وهي ما قال النبي ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[13]"[1].

---

[1] تفسير ابن كثير:٣٧١/٢.

[2] الكشاف:٥٤٦/١-٥٤٧.

[3] التفسير الميسر:٩٢.

[4] تفسير ابن أبي زمنين:٣٩٤/١.

[5] تفسير ابن كثير:٣٧١/٢-٣٧٢.

[6] الكشاف:٥٤٧/١.

[7] التفسير الميسر:٩٢.

[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٥١):١٠٢٦/٣.

[9] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٥٢):١٠٢٦/٣.

[10] تفسير ابن أبي زمنين:٣٩٤/١.

[11] الكشاف:٥٤٧/١.

[12] تفسير الراغب الأصفهاني:١٣٧٨/٣.

[13]أخرجه البخاري في الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده،: ١ / ٥٧ وفي الرقاق، والمصنف في شرح السنة: ١ / ٢٧.

قوله تعالى:{فَإِنْ تَوَلَّوْا} [النساء : ٨٩]، " أي: فإن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله"[٢].
قال البغوي:" أعرضوا عن التوحيد والهجرة"[٣].
عن ابن عباس:" {فإن تولوا}، قال: عن الهجرة"[٤].
وقال السدي :"إذا أظهروا كفرهم"[٥].
قال الزمخشري:أي:" فإن تولوا عن الإيمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة"[٦].
قوله تعالى:{فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [النساء : ٨٩]، " أي:فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلٍّ أو حرم"[٧].
قال السمعاني:" أي: فأسروهم، والأخذ هاهنا: الأسر، ويقال للأسير: أخيذ"[٨].
قال الزمخشري:أي:" فحكمهم حكم سائر المشركين يقتلون حيث وجدوا في الحل والحرم، وجانبوهم مجانبة كلية"[٩].
قوله تعالى:{وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء : ٨٩]، أي:" ولا تتخذوا منهم وليّاً من دون الله ولا نصيرًا تستنصرونه به"[١٠].
قال الواحدي:" أيْ: لا تتولوهم ولا تستنصروا بهم على عدوِّكم"[١١].
قال الزمخشري:أي:" وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم"[١٢].
قال المراغي: أي:" ولا تتخذوا منهم وليا يتولى شيئا من مهام أموركم ولا نصيرا ينصركم على أعدائكم"[١٣].
عن مجاهد في قوله: "{واقتلوهم حيث وجدتموهم}، قال: نسخت ما كان قبلها من من أو فدا"[١٤].

الفوائد:

١- إن أعداء الله حريصون كل الحرص على إضلال المسلمين وصدهم عن دينهم.
٢-أن الحسد خلق نفس ذميمة وضيعه سَاقِطَة لَيْسَ فِيهَا حرص على الْخَيْر فلعجزها ومهانتها تحسد من يكْسب الْخَيْر والمحامد ويفوز بهَا دونهَا وتتمنى أَن لوفاته كسبها حَتَّى يساويها فِي الْعَدَم كَمَا قَالَ تَعَالَى:{ودوا لَو تكفرون كَمَا كفرُوا فتكونون سَوَاء}.

---

[١] تفسير البغوي:٢/٢٦٠.
[٢] التفسير الميسر:٩٢.
[٣] تفسير البغوي:٢/٢٦٠.
[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٥٣):٣/١٠٢٦.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٥٤):٣/١٠٢٦.
[٦] الكشاف:١/٥٤٧.
[٧] التفسير الميسر:٩٢.
[٨] تفسير السمعاني:١/٤٥٩.
[٩] الكشاف:١/٥٤٧.
[١٠] التفسير الميسر:٩٢.
[١١] الوجيز:٢٨٠.
[١٢] الكشاف:١/٥٤٧.
[١٣] تفسير المراغي:٥/١١٦.
[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٥٥):٣/١٠٢٧.

٣- إن الكفار والمنافقين يفرحون بما يكون من بعض المسلمين من المخالفة لهدي نبيهم - ﷺ - وارتكابهم لما حذرهم منه من البدع والضلالات.
٤- يجب على المؤمن الحذر من غير المؤمن مهما أظهر من المودة وأبدى من النصح فإن الله تعالى يقول عنهم: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً}.
٥- دلت الآية على أنه لا يجوز موالاة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقة والإلحاد، وهذا متأكد بعموم قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء والسبب فيه أن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين، لأن ذلك هو الأمر الذي به يتقرب إلى الله تعالى، ويتوسل به إلى طلب السعادة في الآخرة، وإذا كان كذلك كانت العداوة الحاصلة بسببه أعظم أنواع العداوة، وإذا كان كذلك امتنع طلب المحبة والولاية في الموضع الذي يكون أعظم موجبات العداوة حاصلا فيه[1].

القرآن

{إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)} [النساء : ٩٠]

التفسير:

لكن الذين يتصلون بقوم بينكم وبينهم عهد وميثاق فلا تقاتلوهم، وكذلك الذين أتَوا إليكم وقد ضاقت صدورهم وكرهوا أن يقاتلوكم، كما كرهوا أن يقاتلوا قومهم، فلم يكونوا معكم ولا مع قومهم، فلا تقاتلوهم، ولو شاء الله تعالى لسلَّطهم عليكم، فلقاتلوكم مع أعدائكم من المشركين، ولكن الله تعالى صرفهم عنكم بفضله وقدرته، فإن تركوكم فلم يقاتلوكم، وانقادوا اليكم مستسلمين، فليس لكم عليهم من طريق لقتالهم.

في سبب نزول الآية قولان:

احدهما: قال ابن عباس، وعكرمة[2]:" نزلت في هلال بن عويمر الأسلمي وسراقة بن مالك المدلجي وفي بني جذيمة بن عامر بن عبد مناف"[3].

والثاني: قال الحسن : "فالذين حصرت صدور، هم بنو مدلج ، فمن وصل إلى بني مدلج من غيرهم كان في مثل عهدهم" [4].

قوله تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ} [النساء : ٩٠]، أي:" لكن الذين يتصلون بقوم بينكم وبينهم عهد وميثاق فلا تقاتلوهم"[5].

قال أبو عبيدة:" يقول:فإذا كانوا من أولئك القوم الذين بينكم وبينهم ميثاق فلا تقتلوهم"[6].

قال السدي:" يقول : إذا أظهروا كفرهم فاقتلوهم حيث وجدتموهم ، فإن أحدٌ منهم دخل في قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فأجروا عليه مثل ما تجرُون على أهل الذمة"[7].

قال ابن زيد:" يصلون إلى هؤلاء الذين بينكم وبينهم ميثاق من القوم ، لهم من الأمان مثل ما لهؤلاء"[1].

---

[1] انظر: مفاتيح الغيب:١٧٠/١٠.

[2]اخرجه الطبري(١٠٠٧٠):ص١٩/٩ .

[3]اخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٥٧):ص١٠٢٧/٣

[4] مصنف ابن أبي شيبة(٣٦٦١٢)ص:٢٤٤/٧، وانظر: النكت والعيون:٥١٤/١.

[5] التفسير الميسر:٩٢.

[6] مجاز القرآن:١٣٦/١.

[7] أخرجه الطبري(١٠٠٦٩):ص١٩/٩.

قال ابن كثير:" أي : إلا الذين لجؤوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة ، فاجعلوا حكمهم كحكمهم"[٢].

قال ابن ابي زمنين:" يعني: إلا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق، ومعني «اتصل»: انتسب"[٣].

قال الطبري:أي:" فإن تولىَّ هؤلاء المنافقون الذين اختلفتم فيهم عن الإيمان بالله ورسوله ، وأبوا الهجرة فلم يهاجروا في سبيل الله ، فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، سوى من وَصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم مُوادعة وعهد وميثاق ، فدخلوا فيهم ، وصاروا منهم ، ورضوا بحكمهم ، فإن لمن وصل إليهم فدخل فيهم من أهل الشرك راضيًا بحكمهم في حقن دمائهم بدخوله فيهم : أن لا تسبى نساؤهم وذراريهم ، ولا تغنم أموالهم"[٤].

قال عكرمة:" قال نزلت في هلال بن عويمر الأسلمي ، وسراقة بن مالك بن جعشم ، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف"[٥].

قال الزمخشري:" والقوم هم الأسلميون، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، وذلك أنه وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمى على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال. وقيل: القوم بنو بكر بن زيد مناة كانوا في الصلح"[٦].

وقال بعض اهل اللغة[٧]: "أن معنى قوله :{إلا الذين يصلون إلى قوم}، إلا الذين يتَّصلون في أنسابهم لقوم بينكم وبينهم ميثاق، من قولهم : اتّصل الرجل، بمعنى : انتمى وانتسب ، كما قال الأعشى في صفة امرأة انتسبت إلى قوم [٨]:

إذَا اتَّصَلَتْ قَالَتْ : أَبَكْرَ بنَ وَائِلٍ!   وَبَكْرٌ سَبَتْهَا وَالأنُوفُ رَوَاغِمُ!

يعني بقوله : اتصلت، انتسبت"[٩].

قال الطبري:" ولا وجه لهذا التأويل في هذا الموضع ، لأن الانتساب إلى قوم من أهل الموادعة أو العهد ، لو كان يوجب للمنتسبين إليهم ما لهم ، إذا لم يكن لهم من العهد والأمان ما لهم ، لما كان رسول الله ﷺ لِيقاتل قريشًا وهم أنسباءُ السابقين الأوَّلين. ولأهل الإيمان من الحق بإيمانهم ، أكثر مما لأهل العهد بعهدهم. وفي قتال رسول الله ﷺ مشركي قريش بتركها الدخول فيما دخل فيه أهل الإيمان منهم ، مع قرب أنسابهم من أنساب المؤمنين منهم - الدليلُ الواضح أنّ

---

[١] أخرجه الطبري(١٠٠٧٠):ص١٩/٩.

[٢] تفسير ابن كثير:٣٧٢/١.

[٣] تفسير ابن أبي زمنين:٣٩٤/١.

[٤] تفسير الطبري:١٩/٩.

[٥] أخرجه الطبري(١٠٠٧١):ص١٩/٩.

[٦] الكشاف:٥٤٧/١.

[٧]انظر: مجاز القرآن:١٣٦/١، وتفسير ابن ابي زمنين:٣٩٤/١

[٨]ديوانه : ٥٩ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ١٣٦ والناسخ والمنسوخ : ١٠٩ واللسان (وصل) ، وغيرهما. وفي اللسان " لبكر بن وائل " ، وفسرها " اتصلت " : انتسبت. وفسرها شارح شعر الأعشى : إذا دعت ، يعني دعت بدعوى الجاهلية ، وهو الاعتزاء. وهذا البيت آخر بيت في قصيدة الأعشى تلك. يقول : تدعى إليهم وتنتسب ، وهي من إمائهم اللواتي سبين وقد رغمت أنوفهن وأنوف رجالهن الذي كانوا يدافعون عنهن ، ثم انهزموا عنهن وتركوهن للسباء.

[٩]تفسير الطبري:١٩/٩، وانظر: مجاز القرآن:١٣٦/١.

انتساب من لا عهد له إلى ذي العهد منهم ، لم يكن موجبا له من العهد ما لذي العهد من انتسابه"[1].

قوله تعالى:{أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ } [النساء : ٩٠]، أي:" وكذلك الذين أتَوا إليكم وقد ضاقت صدورهم وكرهوا أن يقاتلوكم، كما كرهوا أن يقاتلوا قومهم"[2].

قال السدي:"يقول : رجعوا فدخلوا فيكم،{حصرت صدورهم}، يقول : ضاقت صدورهم {أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم}"[3].

قال مجاهد:" يريدون: هلال بن عويمر وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين أو يقاتل قومه"[4].

قال الحسن:" فالذين حصرت صدُورُهم: بني مدلج، فمن وصل إلى بني مدلج من غيرهم؛ كان في مثل عهدهم"[5].

قال قتادة:" {حصرت صدورهم}، أي: كارهة صدورهم"[6].

قال ابن كثير:" هؤلاء قوم آخرون من المُسْتَثْنَين عن الأمر بقتالهم ، وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حَصِرَةٌ صدورهم أي : ضيقة صدورهم مُبْغضين أن يقاتلوكم ، ولا يهون عليهم أيضا أن يقاتلوا قومهم معكم ، بل هم لا لكم ولا عليكم"[7].

قال الطبري:" والعرب تقول لكل من ضاقت نفسه عن شيء من فعل أو كلام : قد حَصِرَ، ومنه :«الحَصَرُ»، في القراءة"[8].

وفي قوله تعالى:{ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ } [النساء : ٩٠]، وجهان:

أحدهما : أنه إخبارٌ من الله عنهم بأن صدورهم حَصِرتْ. وهذا قول الجمهور وهو المشهور[9].

والثاني : أنه دعاء من الله عليهم بأن تُحصَرَ صدورهم، ومنه قوله تعالى: {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ } [التوبة : ٣٠]، وهذا قول المبرد[10].

وقرأ الحسن البصري:{أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَةً صُدُورُهُمْ}، نصبًا[11].

---

[1] تفسير الطبري:٢٠/٩.

[2] التفسير الميسر:٩٢.

[3] أخرجه الطبري(١٠٠٧٢):ص٢١/٩.

[4] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٦٠)ص١٠٢٨/٣.

[5]أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٣١، ٣٣٢ رقم ١٨٤٦١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره:(٥٧٥٠):ص٣/ ١٠٢٦، والحارث بن أبي أسامة في "مسنده" :(٦٧٨):ص٢/ ٦٩٢، ٦٩٣، "بغية الباحث"، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (١/ ٥٤٦) جميعهم من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن: أن سراقة. . وذكره.

سنده ضعيف؛ فيه علي بن زيد بن جدعان؛ ضعيف.

[6] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٦٢)ص١٠٢٨/٣.

[7] تفسير ابن كثير:٣٧٢/١.

[8] تفسير الطبري:٢١/٩، وانظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٣٦ ، ومعاني القرآن للفراء ١ / ٢٨٢.

[9] انظر: تفسير الطبري:٢١/٩، والنكت والعيون:٥١٤/١.

[10] انظر: تفسير السمعاني:٤٦٠/١، والنكت والعيون:٥١٤/١، والكشاف:٥٤٧/١.

[11] انظر: معاني القرآن للفراء:٢٨٢/١، وتفسير الطبري:٢٢/٩.

وفي قراءة أبيّ: {بينكم وبينهم ميثاق جاؤكم حصرت صدورهم}، بغير «أو»، ووجهه أن يكون {جاؤكم} بيانا ليصلون، أو بدلا أو استئنافا، أو صفة بعد صفة لقوم[١].

قال الطبري:"وهي صحيحة في العربية فصيحة ، غير أنه غير جائزة القراءة بها عندي ، لشذوذها وخروجها عن قراءة قرأة الإسلام"[٢].

قوله تعالى:{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ} [النساء : ٩٠]، أي:" ولو شاء الله لقوّاهم وجرّأهم عليكم فقاتلوكم"[٣].

قال ابن كثير:" أي : من لطفه بكم أن كفهم عنكم"[٤].

قال الثعلبي:" يعني سلط الله المشركين على المؤمنين عقوبة ونقمة"[٥].

قال السمعاني:" معنى هذا: أن الله - تعالى - هو الذي ألقى الرعب في قلوبهم، وكفهم عن قتالكم، حتى جاءوا معاهدين، ولو شاء الله لسلطهم عليكم"[٦].

وفي تسليطهم قولان[٧]:

أحدهما : بتقوية قلوبهم .

والثاني : بالإذن في القتال ليدافعواْ عن أنفسهم .

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف يجوز أن يسلط الله الكفرة على المؤمنين؟ قلت: ما كانت مكافتهم إلا لقذف الله الرعب في قلوبهم، ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقذفه، فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين، فذلك معنى التسليط"[٨].

وقرئ: {فلقتلوكم}، بالتخفيف والتشديد[٩].

قوله تعالى:{فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} [النساء : ٩٠]، "أي: فإن لم يتعرضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تقاتلوهم"[١٠].

قال السمعاني:" يعني: الصلح فانقادوا، واستسلموا"[١١].

والسَّلَم:"هو الاستسلام. وإنما هذا مثلٌ ، كما يقول الرجل للرجل :أعطيتك قِيادي، و ألقيت إليك خِطَامي، إذا استسلم له وانقاد لأمره. فكذلك قوله : {وألقوا إليكم السلم}، إنما هو : ألقوا إليكم قيادَهم واستسلموا لكم ، صلحًا منهم لكم وسَلَمًا. ومن «السَّلم»، قول الطرمَّاح[١٢] :

---

[١] انظر: الكشاف:٥٤٧/١.

[٢] تفسير الطبري:٢٢/٩.

[٣] صفوة التفاسير:٢٧١.

[٤] تفسير ابن كثير:٣٧٢/١.

[٥] تفسير الثعلبي:٣٥٧/٣.

[٦] تفسير السمعاني:٤٦٠/١.

[٧] انظر: النكت والعيون:٥١٤/١.

[٨] الكشاف:٥٤٧/١-٥٤٨.

[٩] انظر: الكشاف:٥٤٨/١.

[١٠] صفوة التفاسير:٢٧١.

[١١] تفسير السمعاني:٤٦٠/١.

[١٢] ديوانه : ١٤٥ ، من قصيدته التي هجا بها الفرزدق وبيوت بني دارم وبني سعد فقال قبله : وَدَارِمٌ قد قَذَفْنا مِنْهُمُ مِئَةً ... فِي جَاحِمِ النَّارِ ، إِذْ يُلْقَوْنَ فِي الخُدَدِ
يَنْزُونَ بالْمُشْتَوَى مِنْهَا ، ويُوقِدُهَا ... عَمْرٌو ، وَلَوْلا لُحُومُ الْقَوْمِ لَمْ تَقِدِ
وَذَاكَ أنَّ تَميمًا ....

وَذَاكَ أَنَّ تَمِيمًا غَادَرَتْ سَلَمًا   لِلأَسْدِ كُلَّ حَصَانٍ وَعْثَةِ اللِّبَدِ

يعني بقوله :سلمًا، استسلامًا"[1].

وفي قوله تعالى:{فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} [النساء : ٩٠]، قولان:

أحدهما : الصلح ، وهو قول الربيع[2].

والثاني : الإسلام ، وهو قول الحسن[3].

وقرئ:{السلم}، بسكون اللام مع فتح السين[4].

قوله تعالى:{فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا} [النساء : ٩٠]، ي:" فليس لكم عليهم من طريق لقتالهم"[5].

قال الزمخشري:أي:" فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم"[6].

قال السمعاني:" أي: طريقا عليهم بالقتل والقتال"[7].

قال ابن كثير:" أي : فليس لكم أن تقتلوهم ، ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين ، فحضروا القتال وهم كارهون ، كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وعبّر بأسره"[8].

وفي نسخ هذه الآية قولان:

أحدهما: انها نسخت بآية السيف. وهذا قول ابن عباس[9]، الزهري[10]، وعكرمة[11]، والحسن[12]، وقتادة [13]، واختيار الطبري[14]، والنحاس[15]، ومكي بن ابي طالب[16].

قال ابن الجوزي:" أمر المسلمون في هذه الآية بترك قتال من له معهم عهد، أو ميثاق، أو ما يتعلق بعهد، ثم نسخ ذلك بآية السيف، وبما أمروا به من نبذ العهد إلى أربابه في سورة براءة. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وقتادة"[1].

فزعم أن عمرو بن المنذر اللخمي ، أحرق بني دارم رهط الفرزدق ، قال أبو عبيدة : ولم يكن للطرماح بهذا الحديث علم. يعني حديث يوم أوارة ، وهو يوم غزا عمرو بن المنذر بني دارم ، فقتل منهم تسعة وتسعين رجلا.

[1] تفسير الطبري:٢٣/٩.

[2] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٧٣):ص٢٤/٩.

[3] انظر: النكت والعيون:٥١٤/١.

[4] انظر: الكشاف:٥٤٨/١.

[5] التفسير الميسر:٩٢.

[6] الكشاف:٥٤٨/١.

[7] تفسير السمعاني:٤٦٠/١.

[8] تفسير ابن كثير:٣٧٢/١.

[9] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٥٦):ص١٠٢٧/٣.

[10] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٥٦):ص١٠٢٧/٣.

[11] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٥٦):ص١٠٢٧/٣.

[12] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٥٦):ص١٠٢٧/٣.

[13] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٧٥)، (١٠٠٧٦):ص٢٥/٩-٢٦.

[14] انظر: تفسير الطبري:٢٤/٩-٢٥.

[15] انظر: الناسخ والمنسوخ:١٠٩.

[16] انظر: الإيضاح:١٩٥.

عن عطاء عن ابن عباس-رضي الله عنهما-:"{إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ} [٢]، وَقَالَ: {إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنّ}[٣]، وَقَالَ: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ} [٤]، نَسَخَ هَذَا {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [٥]، {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ}"[٦].

وعن قتادة:" {إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ}[٧]، الآيَةَ، قَالَ: نُسِخَ ذلك في براءة، وَنُبِذَ إِلَى كُلِّ ذِي عَهْدٍ عَهْدُهُ، وأمر الله نبيه أَنْ يُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَقَالَ: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}[٨] الآية"[٩].

واخرج الطبري عن عن عكرمة والحسن قالا قال : "{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا إلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ}، إلى قوله : {وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا}، وقال في «الممتحنة» : {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} ، وقال فيها : {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ } إلى{ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[سورة الممتحنة : ٨ ، ٩]، فنسخ هؤلاء الآيات الأربعة في شأن المشركين فقال : {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ }[سورة التوبة : ١ ، ٢]. فجعل لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض ، وأبطل ما كان قبل ذلك. وقال في التي تليها :{فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}، ثم نسخ واستثنى فقال : رفَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ }، إلى قوله:{ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ }[سورة التوبة : ٥ ، ٦]"[١٠].

والثاني: انهما محكمة. وإنما نزلت في قوم مخصوصين، وهم بنو خزيمة وبنو مدلج، عاقدوا حلفاء المسلمين فنهي عن قتلهم، ونزلت آية السيف بعد إسلام الذين ذكرناهم. ذكره عبدالقاهر البغدادي عن بعضهم[١١].

الفوائد:

---

[١] .نواسخ القرآن:٣٨١/٢

[٢][سورة النساء:٩٠].

[٣][سورة مالممتحنة:١٠].

[٤][سورة التوبة:١].

[٥][سورة التوبة:٥].

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٥٦):ص١٠٢٧/٣، وابن الجوزي في نواسخ القرآن:٣٨١/٢، والنحاس في الناسخ والمنسوخ:١٠٩، وذكر النسخ ايضا مكي بن ابي طالب عن ابن عباس بدون إسناد.

[٧] [سورة النساء:٩٠].

[٨] [سورة التوبة:٥].

[٩] الناسخ والمنسوخ لقتادة:٤٠، وأخرجه الطبري في تفسيره(١٠٠٧٥)، (١٠٠٧٦):ص٢٥/٩-٢٦، من طريقين عن قتادة، كما أخرجه النحاس في ناسخه (١٩٥) عنه وعن مجاهد، وذكره مكي بن أبي طالب في ناسخه ص: ١٩٥، عن قتادة بدون إسناد، وانظر: ابن حزم ١٢٧، وابن سلامة ٣٨، وبن الجوزي ٣٨٢/٢، والعتائقي ٤٤، وابن المتوج ٩٤.

[١٠] تفسير الطبري(١٠٠٧٤):ص٢٥/٩.

[١١] انظر: الناسخ المخطوط لعبد القاهر ورقة من الفلم ٦١.

١- أن الله أوجب مسالمة من يقف من المسلمين موقف الحياد، فلا يحاربهم، لا يعين عليهم محاربًا.
٢- أن أصل علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم، والآية تدل على الأمر بقبول السلم من الكفار إذا جنحوا إليه، وقد نهى النبي ﷺ عن الرغبة في الحرب وتمني لقاء العدو فقال:" لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية"[١].

القرآن

{سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)} [النساء : ٩١]

التفسير:

ستجدون قومًا آخرين من المنافقين يودون الاطمئنان على أنفسهم من جانبكم، فيظهرون لكم الإيمان، ويودون الاطمئنان على أنفسهم من جانب قومهم الكافرين، فيظهرون لهم الكفر، كلما أعيدوا إلى موطن الكفر والكافرين، وقعوا في أسوأ حال. فهؤلاء إن لم ينصرفوا عنكم، ويقدموا إليكم الاستسلام التام، ويمنعوا أنفسهم عن قتالكم فخذوهم بقوة واقتلوهم أينما كانوا، وأولئك الذين بلغوا في هذا المسلك السيِّئ حدّاً يميزهم عمَّن عداهم، فهم الذين جعلنا لكم الحجة البينة على قتلهم وأسرهم.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: أنهم أناس كانوا من أهل مكة أسلموا - على ما وصفهم الله به من التقيَّة - وهم كفار ، ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم، يقول الله : {كلما ردُّوا إلى الفتنة أركسوا فيها}، ، يعني كلما دعاهم قومهم إلى الشرك بالله، ارتدوا فصاروا مشركين مثلهم ، ليأمنوا عند هؤلاء وهؤلاء. وهذا قول ابن عباس[٢]، ومجاهد[٣].

والثاني: وقال قتادة:" حيٌّ كانوا بتهامة ، قالوا :يا نبيّ الله ، لا نقاتلك ولا نقاتل قومنا، وأرادوا أن يأمنوا نبيَّ الله ويأمنوا قومهم ، فأبى الله ذلك عليهم ، فقال : {كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها}، يقول : كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه"[٤].

والثالث: أنها نزلت في نعيم بن مسعود الأشجعي، وكان يأمن في المسلمين والمشركين ، ينقل الحديث بين النبي ﷺ والمشركين. وهذا قول السدي[٥].

والرابع: انههم قوم من المنافقين. وهذا قول الحسن[٦].

---

[١]صحيح البخاري: كتاب الجهاد، ٢٨٠٤، ٢٨٦١، ٢٨٦٣ وصحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، ١٧٤١-١٧٤٢.

[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٨٠):ص٢٧/٩، وابن ابي حاتم(٥٧٧٠):ص١٠٢٩/٣، وسنده ضعيف جدا، مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٧٨):ص٢٧/٩، وابن ابي حاتم(٥٧٦٩):ص١٠٢٩،٣، اسناده صحيح ولكنه مرسل، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦١٤)، وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر.

[٤] أخرجه الطبري(١٠٠٨١):ص٢٨/٩، وابن ابي حاتم(٥٧٥٨):ص١٠٢٩/٣، إسناده صحيح لكنه مرسل، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦١٤)، وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٨٢):ص٢٨/٩، وابن ابي حاتم(٥٧٦٧):ص١٠٢٩/٣، وسنده ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف أسباط.

[٦] انظر: النكت والعيون:٥١٧/١.

قوله تعالى:{سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ} [النساء : ٩١]، "أي: ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم"[١].

قال مقاتل:" يعني يأمنوا فيكم معشر المؤمنين بأنهم مقرون بالتوحيد ويأمنوا قومهم المشركين لأنهم على دينهم"[٢].

قال الفراء:" معناه: أن يأمنوا فيكم ويأمنوا في قومهم. فهؤلاء بمنزلة الذين ذكرناهم في أن قتالهم حلال إذا لم يرجعوا"[٣].

قال ابن قتيبة:" هؤلاء منافقون يعطون المسلمين الرضا ليأمنوهم ويعطون قومهم الرضا ليأمنوهم"[٤].

قال الزجاج:" ستجدون من يظهر لكم الصلح ليأمنكم، وإذا سنحت فتنة كانوا مع أهلها عليكم"[٥].

قال ابن كثير:" هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك ، فإن هؤلاء منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ؛ ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ويصانعون الكفار في الباطن ، فيعبدون معهم ما يعبدون ، ليأمنوا بذلك عندهم ، وهم في الباطن مع أولئك ، كما قال تعالى : { وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة : ١٤]"[٦].

قال ابن عطية:" لما وصف الله تعالى فيما تقدم صفة المحقين في المتاركة، المجدين في إلقاء السلم، نبه على طائفة مخادعة مبطلة مبطنة كانوا يريدون الإقامة في مواضعهم مع أهليهم، يقولون لهم: نحن معكم وعلى دينكم، ويقولون أيضا للمسلمين إذا وفدوا وأرسلوا: نحن معكم وعلى دينكم خبثة منهم وخديعة، قيل: كانت أسد وغطفان بهذه الصفة، وقيل: نزلت في نعيم بن مسعود الأشجعي، كان ينقل بين النبي عليه السلام والكفار الأخبار، وقيل: نزلت في قوم يجيئون من مكة إلى النبي عليه السلام رياء، يظهرون الإسلام ثم يرجعون إلى قريش فيكفرون، ففضح الله تعالى هؤلاء، وأعلم أنهم على غير صفة من تقدم"[٧].

قوله تعالى:{كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا} [النساء : ٩١]، "أي: كلما دعوا إلى الكفر أو قتال المسلمين عادوا إليه وقُلبوا فيه على أسوأ شكل"[٨].

قال الزمخشري:" قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شرا فيها من كل عدو"[٩].

قال ابن كثير:" أي : انهمكوا فيها"[١٠].

قال الزجاج:" أي: انتكسوا عن عهدهم الذي عقدوه"[١١].

---

[١] صفوة التفاسير:٢٧١.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٦/١.

[٣] معاني القرآن:٢٨٢/١.

[٤] غريب القرآن:١٣٤.

[٥] معاني القرآن:٨٩/٢.

[٦] تفسير ابن كثير:٣٧٣/٢.

[٧] المحرر الوجيز:٩١/٢.

[٨] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[٩] الكشاف:٥٤٨/١.

[١٠] تفسير ابن كثير:٣٧٣/٢.

[١١] معاني القرآن:٨٩/٢.

قال ابن عطية:"{إلى الفتنة}، معناه: إلى الاختبارأي: أهلكوا في الاختبار بما واقعوه من الكفر"[1].

قال ابو السعود:" أي [كلما] دعوا إلى الكفر وقتال المسلمين، قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه وكانوا فيها شرا من كل عدو شرير"[2].

قال مقاتل:" يعني كلما دعوا إلى الشرك، {أركسوا فيها}، يقول: عادوا في الشرك"[3].

قال مجاهد:" يرجعون إلى قريش، فيرتكسون في الأوثان"[4].

قال قتادة:" يقول: كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه "[5].

قال ابن عباس:" كلما أرادوا أن يخرجوا من الفتنة أركسوا فيها"[6].

قال السدي:" { كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ}، يقول: إلى الشرك"[7].

قال ابو العالية:" كلما ابتلوا بها عموا فيها"[8].

قال القرطبي:" ومعنى {أركسوا فيها}، أي انتكسوا عن عهدهم الذين عاهدوا ، وقيل: أي إذا دعوا إلى الشرك رجعوا وعادوا إليه"[9].

وقرأ عبد الله بن مسعود، {ركسوا}، بضم الراء من غير ألف، وحكاه عنه أبو الفتح بشد الكاف على التضعيف[10].

وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش: {ردوا}، بكسر الراء، لأن الأصل «رددوا»، فأدغم وقلبت الكسرة على الراء[11].

قوله تعالى:{ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ} [النساء : ٩١]، "أي: فإن لم يجتنبوكم"[12].

قال مجاهد:" أمر بقتالهم إن لم يعتزلوا، فيصالحوا"[13].

قال الزجاج:" أي: فإن لم يعتزلوا قتالكم ولم يعاونوا عليكم"[14].

قال النسفي:" أي ولم ينقادوا لكم بطلب الصلح"[15].

قوله تعالى:{وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} [النساء : ٩١]، "أي: ويستسلموا إليكم"[16].

قال الزجاج:" أي: المقادة والاستسلام"[1].

---

[1] المحرر الوجيز:٩١/٢.

[2] تفسير أبي السعود:٢١٤/٢.

[3] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٦/١.

[4] أخرجه ابن المنذر(٢١٠٠٣):ص٨٢٧/٢-٨٢٨.

[5] أخرجه ابن المنذر(٢١٠٠٤):ص٨٢٨/٢.

[6] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٧٠):ص١٠٢٩/٣.

[7] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٧٢):ص١٠٢٩/٣.

[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٧٤):ص١٠٣٠/٣.

[9] تفسير القرطبي:٣١١/٥.

[10] انظر: المحرر الوجيز:٩١/٢.

[11] انظر: تفسير القرطبي:٣١١/٥.

[12] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[13] أخرجه ابن المنذر(٢١٠٠٦):ص٨٢٨/٢.

[14] معاني القرآن:٨٩/٢-٩٠.

[15] تفسير النسفي:٣٨٣/١.

[16] صفوة التفاسير:٢٧٢.

قال البغوي:" أي: المفاداة والصلح"[٢].
قال أبو السعود:" أي: لم يلقوا إليكم الصلح والعهد بل نبذوه إليكم"[٣].
قال الشوكاني:" أي: يستسلمون لكم ويدخلون في عهدكم وصلحكم وينسلخون عن قومهم"[٤].
قوله تعالى:{وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ} [النساء : ٩١]، "أي: ويكفوا أيديهم عن قتالكم"[٥].
قال الزجاج:" أي: عن الحرب"[٦].
قال البغوي: أي: "ولم يقبضوا أيديهم عن قتالكم"[٧].
قوله تعالى:{فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [النساء : ٩١]،" أي: فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم"[٨].
قال مقاتل:" يعنى: أأسروهم، {واقتلوهم حيث ثقفتموهم}، يعني: أدركتموهم من الأرض في الحل والحرم"[٩].
قال ابن عطية:" {ثقفتموهم}، مأخوذ من الثقاف، أي: ظفرتم بهم مغلوبين متمكنا منهم"[١٠].
قوله تعالى:{وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء : ٩١]، أي:" فهم الذين جعلنا لكم الحجة البينة على قتلهم وأسرهم"[١١].
قال ابن كثير:" أي : بيّنا واضحا"[١٢].
قال الزجاج:"أي: حجة بينة بأنهم غدرة، لا يفون بما يفارقونكم عليه من الهدنة والصلح"[١٣].
قال الزمخشري:أي:" حجة واضحة لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بأهل الإسلام أو تسلطا ظاهرا حيث أذنا لكم في قتلهم"[١٤].
قال الشوكاني:" أي: حجة واضحة، تتسلطون بها عليهم، وتقهرونهم بها، بسبب ما في قلوبهم من المرض، وما في صدورهم من الدغل، وارتكاسهم في الفتنة بأيسر عمل وأقل سعي"[١٥].
قال السدي:" أما السلطان: فهو الحجة"[١].

---

[١] معاني القرآن:٢/٨٩-٩٠.

[٢] تفسير البغوي:٢/٢٦٢.

[٣] تفسير أبي السعود:٢/٢١٤.

[٤] فتح القدير:١/٥٧٣.

[٥] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[٦] معاني القرآن:٢/٨٩-٩٠.

[٧] تفسير البغوي:٢/٢٦٢.

[٨] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[٩] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٦.

[١٠] المحرر الوجيز:٢/٩٢.

[١١] التفسير الميسر:٩٢.

[١٢] تفسير ابن كثير:٢/٣٧٣.

[١٣] معاني القرآن:٩٠.

[١٤] الكشاف:١/٥٤٨.

[١٥] فتح القدير:١/٥٧٣.

قال عكرمة:"حيث ما وقع السلطان في كتاب الله تعالى فهو الحجة"[٢].
قال مقاتل:" يعنى: حجة بينة ثم صارت منسوخة"[٣].
وقد ذكر ابن حزم[٤]، وابن سلامة[٥]، وابن هلال[٦]، وابن الجوزي[٧]، أن هذه الآية نسخت بقوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}، وذلك بدون أن ينسبوه إلى أحد.
يقول الأستاذ مصطفى زيد:" عن هذه الآية والتي قبلها: "أن كلتيهما في المنافقين وكان الإسلام يأبى أن يقتلهم حتى لا يقال أن محمداً يقتل أصحابه"[٨].

الفوائد:

١- إن واجب المسلم أن يكون مع المسلمين قولاً وفعلاً واعتقادًا، ومن لم يكن كذلك يكون داخلاً تحت مفهوم قول الله تعالى: {سَتَجِدُونَ آَخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا}[٩].
٢-الحذر من تولي الكفار، وأنه لايجوز قتال المسلمين تحت ذريعة الإكراه في ذلك، لأن الإكراه مهما يكن، لا يجوز معه أن يحمل المسلم سلاحه، ضد أهل الحق من المسلمين.
٣-قال ابن عطية:"وهذه الآية حض على قتل هؤلاء المخادعين إذا لم يرجعوا عن حالهم إلى حال الآخرين المعتزلين الملقين للسلم، وتأمل فصاحة الكلام في أن سياقه في الصيغة المتقدمة قبل هذه سياق إيجاب الاعتزال. وإيجاب إلقاء السلم، ونفي المقاتلة، إذ كانوا محقين في ذلك معتقدين له، وسياقه في هذه الصيغة المتأخرة سياق نفي الاعتزال، ونفي إلقاء السلم، إذ كانوا مبطلين فيه مخادعين، والحكم سواء على السياقين، لأن الذين لم يجعل الله عليهم سبيلا لو لم يعتزلوا لكان حكمهم حكم هؤلاء الذين جعل عليهم «سلطان مبين» ، وكذلك هؤلاء الذين عليهم السلطان، إذ لم يعتزلوا، لو اعتزلوا لكان حكمهم حكم الذين لا سبيل عليهم. ولكنهم بهذه العبارة تحت القتل إن لم يعتزلوا"[١٠].

القرآن

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)} [النساء : ٩٢]

التفسير:
ولا يحق لمؤمن الاعتداء على أخيه المؤمن وقتله بغير حق، إلا أن يقع منه ذلك على وجه الخطأ الذي لا عمد فيه، ومن وقع منه ذلك الخطأ فعليه عتق رقبة مؤمنة، وتسليم دية مقدرة إلى أوليائه، إلا أن يتصدقوا بها عليه ويعفوا عنه. فإن كان المقتول من قوم كفار أعداء للمؤمنين،

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٧٧):ص٣/١٠٣٠.
[٢] المحرر الوجيز:٢/٩٢.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٩٦.
[٤]في ناسخه ص: ٣٣٣ .
[٥]في ناسخه ص: ٣٩ .
[٦]في ناسخه المخطوط ٢٣ .
[٧]في نواسخ القرآن:٢/٣٨٣ .
[٨]النسخ في القرآن الكريم: ٢/ ٧٨٥.
[٩]انظر الدرر السنية ج١ ص٦٦.
[١٠] المحرر الوجيز:٢/٩٢.

وهو مؤمن بالله تعالى، وبما أنزل من الحق على رسوله محمد ﷺ، فعلى قاتله عتق رقبة مؤمنة، وإن كان من قوم بينكم وبينهم عهد وميثاق، فعلى قاتله دية تسلم إلى أوليائه وعتق رقبة مؤمنة، فمن لم يجد القدرة على عتق رقبة مؤمنة، فعليه صيام شهرين متتابعين؛ ليتوب الله تعالى عليه. وكان الله تعالى عليما بحقيقة شأن عباده، حكيمًا فيما شرعه لهم.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها : أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وكان أخا أبي جهل لأمه، قتل الحارث بن زيد من بني عامر بن لؤي، لأنه كان يعذب عياشاً مع أبي جهل، وهو لا يعلم بإسلامه. وهذا قول عكرمة[١]، ومجاهد[٢]، والسدي[٣]، وسعيد بن جبير[٤]، والقاسم بن محمد بن أبي بكر[٥].

واختلف أين قتله:

أ- فقال عكرمة[٦]، وجاهد[٧]: قتله بالحرّة بعد هجرته إلى المدينة وهو لا يعلم بإسلامه.

ب- وقال السدي[٨]: قتله يوم الفتح وقد خرج من مكة وهو لا يعلم بإسلامه .

والثاني : وقال ابن زيد:"نزل هذا في رجل قتله أبو الدرداء ، نزل هذا كله فيه، كانوا في سرية ، فعدَل أبو الدرداء إلى شِعْبٍ يريد حاجة له ، فوجد رجلا من القوم في غنم له ، فحمل عليه بالسيف فقال : لا إله إلا الله! قال : فضربه ، ثم جاء بغنمه إلى القوم. ثم وجد في نفسه شيئًا ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال له رسول الله ﷺ :«ألا شققتَ عن قلبه!» فقال : ما عَسَيْتُ أجِدُ! هل هو يا رسول الله إلا دمٌ أو ماء؟ قال : «فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه؟»، قال : كيف بي يا رسول الله ؟ قال : «فكيف بلا إله إلا الله؟»، قال : فكيف بي يا رسول الله ؟ قال:«فكيف بلا إله إلا الله؟» حتى تمنَّيتُ أن يكون ذلك مبتدأ إسلامي. قال : ونزل القرآن :{وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ}،حتى بلغ {إلا أن يصدّقوا}، قال : إلا أن يَضَعوها"[٩].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٩١):ص٩/٣٢-٣٣ ، من طريق سنيد، وسنده ضعيف جداً؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: ابن جريج لم يسمع من مجاهد.

الثالثة: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف.

[٢]انظر: تفسير الطبري(١٠٠٨٩)-(١٠٠٩١):ص٩/٣٢ -٣٣، و وابن أبي حاتم في تفسيره(٥٧٨١):ص٣/ ١٠٣١، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٩/ ١٤) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به. وهذا سند صحيح؛ لكنه مرسل.

[٣]انظر: تفسير الطبري(١٠٠٩٢):ص٩/٣٣، وسنده واهٍ بمرة؛ لإعضاله، وضعف أسباط، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦١٦)، وزاد نسبته لابن المنذر.

[٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٨٢):ص٣/١٠٣١.

[٥]أخرجه البيهقي في "السنن الكبرى" (٨/ ٧٢)، سنده ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. الثانية: ابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، وأخرجه البيهقي (٨/ ١٣١)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢/ ٨١٣، ٨١٤ رقم ٢١٣٧)، مرسل حسن الإسناد، وهو أصح من الذي قبله. وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦١٦، ٦١٧)، وزاد نسبته لابن المنذر.

ثم رأينا الحافظ ذكره في "الإصابة" (١/ ٢٩٥) ونسبه لأبي يعلى، والحارث بن أبي أسامه، وأبي مسلم الكجي.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٩١):ص٩/٣٢-٣٣.

[٧]انظر: تفسير الطبري(١٠٠٨٩)-(١٠٠٩١):ص٩/٣٢ -٣٣.

[٨]انظر: تفسير الطبري(١٠٠٩٢):ص٩/٣٣ .

[٩] تفسير الطبري(١٠٠٩٣):ص٩/٣٣. سنده واهٍ بمرةٍ؛ لإعضاله، وعبد الرحمن بن زيد متروك.

والثالث: عن بكر بن حارثة الجهني؛ قال: "كنت في سرية بعثها رسول الله - ﷺ -؛ فاقتتلنا نحن والمشركون، وحملت على رجل من المشركين؛ فتعوذ مني بالإسلام؛ فقتلته، فبلغ ذلك النبي - ﷺ -؛ فغضب وأقصاني؛ فأوحى الله إليه: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً}. قال: فرضي عني، وأدناني"[1].

والرابع:أخرج ابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير:" قوله: {فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن}، يعني: من أهل الحرب، {وهو مؤمن}، يعني: المقتول، قال: نزلت في مرداس بن عمرو وكان أسلم، وقومه كفار من أهل الحرب فقتله أسامة بن زيد خطا"[2].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال :إن الله عرَّف عبادَه بهذه الآية مَا على مَن قتل مؤمنًا خطأ من كفَّارة ودية. وجائز أن تكون الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله ، وفي أبي الدرداء وصاحبه. وأيّ ذلك كان ، فالذي عَنَى الله تعالى بالآية : تعريفَ عباده ما ذكرنا ، وقد عرف ذلك من عَقَل عنه من عباده تنزيلَه، وغير ضائرهم جهلهم بمن نزلت فيه"[3].

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً} [النساء : ٩٢]، "أي: لا ينبغي لمؤمنٍ ولا يليق به أن يقتل مؤمناً إلاَّ على وجه الخطأ"[4].

قال السدي:" المؤمن لا يقتل مؤمنا"[5].

قال قتادة:" يقول : ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه ، من عهد الله الذي عهد إليه"[6].

قال أبو عبيدة:" وهذا كلام تستثنى العرب الشيء من الشيء وليس منه على اختصار وضمير، وليس لمؤمن أن يقتل مؤمنا على حال إلّا أن يقتله مخطئا، فإن قتله خطئا"[7].

قال الطبري:أي:" وما أذن الله لمؤمن ولا أباح له أن يقتل مؤمنًا، يقول : ما كان ذلك له فيما جعل له ربه وأذن له فيه من الأشياء البتة"[8].

قال الزجاج:" المعنى: ما كان لمؤمن ألبتة، إلا أن يخطئ المؤمن، فكفارة خطئه ما ذكر بعد"[9].

قال الزمخشري:أي:" وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله، أن يقتل مؤمنا ابتداء غير قصاص إلا على وجه الخطإ"[10].

قال الماوردي:" يعني: أن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأ وليس مما جعله الله له ، وهذا من الاستثناء الذي يسميه أهل العربية : الاستثناء المنقطع ، ومنه قول جرير[1]:

---

[1]أخرجه الدولابي؛ كما في "الإصابة" (١/ ١٦٣) -وعنه أبو نعيم في "المعرفة" (٣/ ١٤٢ رقم ١٢١٤). في السند من لم نعرفه، ولم نجد له ترجمة.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦١٧) وزاد نسبته للروياني وابن منده.

[2] تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٩٨):ص١٠٣٤/٣.

[3] تفسير الطبري:٣٣/٩-٣٤.

[4] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[5] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٠):ص١٠٣٠/٣-١٠٣١.

[6] أخرجه الطبري(١٠٠٨٨):ص٣٠/٩.

[7] مجاز القرآن:١٣٦/١.

[8] تفسير الطبري:٣٠/٩.

[9] معاني القرآن:٩٠/٢.

[10]الكشاف:٥٤٨/١.

من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ   على الأرض إلاّ رِيْط بُرِدٍ مرحّلِ

يعني: ولم تطأ على الأرض إلا أن تطأ ذيل البرد وليس البرد من الأرض"[٢].

وقرئ: {خطاء}، بالمد، و{خطا}، بوزن «عمى»، بتخفيف الهمزة[٣].

قوله تعالى:{وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً} [النساء : ٩٢]، "أي: ومن قتل مؤمناً على وجه الخطأ"[٤].

قال إبراهيم:" إذا قتل المسلم"[٥].

قوله تعالى:{فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء : ٩٢]، "أي: فعليه إعتاق رقبةٍ مؤمنة"[٦].

عن محمد بن علي فتحرير:"{رقبة مؤمنة}، قال: في الخطأ إذا أقرت ولم يعلم منها إلا خيرا"[٧].

قال ابن عباس:" يعني بالـ{مؤمنة}: من قد عقل الإيمان وصام وصلى"[٨]. وروي عن سعيد بن جبير، والحسن، وإبراهيم، والحكم نحو ذلك"[٩].

وقال عطاء:" ولدت على الإسلام"[١٠].

وعن الشعبي:"{فتحرير رقبة مؤمنة}، قال: قد صلت"[١١]. وروي عن مجاهد، وعطاء. وقتادة نحو ذلك"[١٢].

قال إبراهيم:"فهذا له ولورثته المسلمين"[١٣].

قال الزمخشري:" المراد بـ{رقبة مؤمنة}: كل رقبة كانت على حكم الإسلام عند عامة العلماء"[١].

---

[١] ديوانه: ٤٥٧، والنقائض: ٧٠٦، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ١٣٧، من قصيدته التي هجا فيها الفرزدق وآل الزبرقان بن بدر، وهو من أول القصيدة، وقبله: أَمِنْ عَهْدِ ذِي عَهْدٍ تَفِيضُ مَدَامِعِي ... كَأَنَّ قَذَى الْعَيْنَيْنِ مِنْ حَبِّ فُلْفُلِ؟

فَإِنْ يَرَ سَلْمَى الجِنُّ يَسْتَأْنِسُوا بِهَا، ... وَإِنْ يَرَ سَلْمَى رَاهِبُ الطُّورِ يَنْزِلِ

ورواية الديوان وأبي عبيدة في النقائض: "إلاَّ نيرَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ"

و"النير" (بكسر النون) : علم الثوب. و"المرط": إزار خز له علم، ويكون من صوف أيضا. وأما "الريط" فهو جمع"ريطة": وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة، ولم تكن لفقين، وتكون ثوبًا دقيقًا لينًا. و"المرحل": الموشى، وهو ضرب من البرود، وشيه معين كتعيين جديات الرحل.

[٢] النكت والعيون:٥١٨/١، وانظر: تفسير الطبري:٣٠/٩-٣١.

[٣] انظر: الكشاف:٥٤٨/١.

[٤] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٣):ص١٠٣١/٣.

[٦] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٤):ص١٠٣١/٣.

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٧):ص١٠٣٢/٣.

[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٨٧):ص١٠٣٢/٣.

[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٦):ص١٠٣٢/٣.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٨):ص١٠٣٢/٣.

[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٨٨):ص١٠٣٢/٣.

[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٣):ص١٠٣١/٣.

واختلف في تفسير قوله تعالى: { وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء : ٩٢]، على قولين:
أحدهما : أنها لا يجزىء عتقها في الكفارة إلا أن تكون مؤمنة بالغة قد صلت وصامت ، وهذا قول ابن عباس[٢]، والشعبي[٣]، والحسن[٤]، وقتادة[٥]، وإبراهيم[٦].
والقول الثاني : أن الصغيرة المولودة من أبوين مسلمين تكون مؤمنة تجزىء في الكفارة ، وهذا قول عطاء[٧]، والشافعي[٨].
والصواب-والله أعلم- أنه "لا يجزئ في قتل الخطأ من الرقاب إلا من قد آمن وهو يعقل الإيمان من بالغي الرجال والنساء، إذا كان ممن كان أبواه على مِلّة من الملل سوى الإسلام ، وولد بينهما وهما كذلك، ثم لم يسلما ولا واحدٌ منهما حتى أعتِق في كفارة الخطأ. وأما من ولد بين أبوين مسلمين ، فقد أجمع الجميع من أهل العلم أنه وإن لم يبلغ حدّ الاختيار والتمييز ، ولم يدرك الحُلُم ، فمحكوم له بحكم أهل الإيمان في الموارثة ، والصلاة عليه إن مات ، وما يجب عليه إن جَنَى ، ويجب له إن جُنِيَ عليه ، وفي المناكحة، فإذْ كان ذلك من جميعهم إجماعًا ، فواجب أن يكون له من الحكم فيما يجزئ فيه من كفارة الخطأ إن أعتق فيها من حكم أهل الإيمان ، مثلُ الذي له من حكم الإيمان في سائر المعاني التي ذكرناها وغيرها"[٩].
قال الزمشخري:" قيل: لما أخرج نفسا مؤمنة عن جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسا مثلها في جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار"[١٠].
قال ابن عباس:" أتي النبي ﷺ رجل فقال: إن علي أي رقبة، وعندي أمة سوداء، فقال: ائتني بها، فقال رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟»، قالت: نعم. قال:«أعتقها»"[١١].
ومعنى «التحرير»: "الإعتاق. والحر والعتيق: الكريم، لأن الكرم في الأحرار كما أن اللؤم في العبيد. ومنه: عتاق الخيل، وعتاق الطير لكرامها. وحر الوجه: أكرم موضع منه. وقولهم للئيم «عبد» وفلان عبد الفعل: أى لئيم الفعل. والرقبة: عبارة عن النسمة، كما عبر عنها بالرأس في قولهم: فلان يملك كذا رأسا من الرقيق"[١٢].
قوله تعالى:{وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ} [النساء : ٩٢]، "أي: وعليه كذلك ديةٌ مؤداة إلى ورثة المقتول"[١٣].

---

[١] الكشاف:٥٤٩/١.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٩٤):ص٣٤/٩.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٩٥):ص٣٤/٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٩٧):ص٣٤/٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٩٩):ص٣٥/٩.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٠٩٦):ص٣٤/٩.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠١٠٣):ص٣٥/٩.
[٨] انظر: النكت والعيون:٥١٨/١.
[٩] تفسير الطبري:٣٦/٩-٣٧.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٥):ص١٠٣٢/٣، ذكر بلفظ آخر في المسند ٣/ ٤٥١.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٥):ص١٠٣٢/٣، ذكر بلفظ آخر في المسند ٣/ ٤٥١.
[١٢] الكشاف:٥٤٩/١.
[١٣] صفوة التفاسير:٢٧٢.

قال ابن شهاب:" فقد بلغنا أن رسول الله ﷺ فرضها مائة من الإبل"[١].
قال سعيد بن المسيب:" المسلمة: التامة"[٢].
قال سعيد بن جبير:" {ودية مسلمة إلى أهله}، يعني: تسلمها عاقلة القاتل"[٣].
وفي قوله تعالى:{ إِلَى أَهْلِهِ} [النساء : ٩٢]، وجهان:
أحدهما: معناه: إلى أولياء المقتول. وهذا قول سعيد بن جبير[٤].
والثاني: معناه: إلى ورثة المقتول. وهذت قول إبراهيم النخعي[٥]، وقتادة[٦]، ومقاتل بن حيان[٧].

قال الزمخشري:أي:" مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث، لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، يقضى منها الدين، وتنفذ الوصية وإن لم يبق وارثا فهي لبيت المال، لأن المسلمين يقومون مقام الورثة، كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «أنا وارث من لا وارث له»[٨]"[٩].

وفي رواية سعيد بن المسيب :« أن عمر كان يقول: الدية للعاقلة ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئا، حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان، أن النبي، ﷺ، ورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها"[١٠].

وعن ابن مسعود: «يرث كل وارث من الدية غير القاتل»[١١].
وعن شريك: «لا يقضى من الدية دين، ولا تنفذ وصية»[١٢].
وعن ربيعة: «الغرة لأم الجنين وحدها»[١٣].
قال الزمخشري:"وذلك خلاف قول الجماعة"[١٤].
وإن قلت: "على من تجب الرقبة والدية؟
قلت:على القاتل إلا أن الرقبة في ماله، والدية تتحملها عنه العاقلة، فإن لم تكن له عاقلة فهي في بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله"[١٥].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٨٩):ص٣/١٠٣٢، والترمذي كتاب الديات (١٣٨٧).
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٩٠):ص٣/١٠٣٢.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٩١):ص٣/١٠٣٣.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٩٢):ص٣/١٠٣٣.
[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٨٣):ص٣/١٠٣١.
[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٩٢):ص٣/١٠٣٣.
[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٩٢):ص٣/١٠٣٣.
[٨]أخرجه أبو داود (٢٩٠١).
[٩] الكشاف:١/٥٤٩-٥٥٠.
[١٠]أخرجه أصحاب السنن، انظر: مسند الإمام احمد(١٥٨٣٧)، و(١٥٨٣٨):ص٣/٤٥٢، وابن ماجة(٢٦٤٢)، والترمذي(١٤١٥)، و(٢١١٥)، والنسائي في الكبرى(٦٣٢٩)، و(٦٣٣٥)، و(٦٣٣١)، ومالك في الموطأ(٢٥٣٥).
[١١] الكشاف:١/٥٤٩-٥٥٠.
[١٢] الكشاف:١/٥٤٩-٥٥٠.
[١٣] الكشاف:١/٥٤٩-٥٥٠.
[١٤] الكشاف:١/٥٤٩-٥٥٠.
[١٥] الكشاف:١/٥٥٠.

وذكر الماوردي في «الدية»، وجهين [١]:
أحدهما : أنها مجملة أخذ بيانها من رسول الله -ﷺ- .
والثاني : أنها معهودة تقدم العمل بها ثم توجه الخطاب إليها فجعل الله الرقبة تكفيراً للقاتل في ماله والدية بدلاً من نفس المقتول على عاقلته .
قوله تعالى:{إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا} [النساء : ٩٢]، أي:" إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية"[٢].
قال ابن عباس:" إلا أن يتصدق بها عليه"[٣].
قال السدي:" فيتركوا الدية"[٤]. وروي عن إبراهيم النخعي نحو ذلك[٥].
قال سعيد بن جبير:" يعني: إلا أن يصدق أولياء المقتول بالدية على القاتل فهو خير لهم، فأما عتق رقبة فإنه واجب على القاتل من ماله"[٦].
قال الزمخشري:أي:" إلا أن يتصدقوا عليه بالدية ومعناه العفو، كقوله: {إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ} [البقرة : ٢٣٧]، ونحوه : { وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ } [البقرة : ٢٨٠]، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «كل معروف صدقة»[٧]"[٨].
قوله تعالى:{فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء : ٩٢]، "أي: فإِن كان المقتول خطأً مؤمناً وقومه كفاراً أعداء -وهم المحاربون- فإِنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية"[٩].
قال ابن زيد:" القتيل مسلم وقومه كفّار ، فتحرير رقبه مؤمنة ، ولا يؤدِّي إليهم الدية فيتقوّون بها عليكم"[١٠].
قال ابن عباس:" كان الرجل يأتي النبي ﷺ، ثم يرجع إلى قومه فيكون معهم وهم مشركون فيصيبه المسلمون خطا في سرية أو غارة فيعتق الذي يصيبه رقبة"[١١].
قال الزجاج:" ولا مال للكفار الذين هم حرب، لأن الدية في الخطأ إنما جعلت - والله أعلم - ليحذر الناس حذرا شديدا من أن يخطئوا خطأ يؤدي إلى القتل، لتذهب الضغائن بينهم"[١٢].
وفي قوله تعالى:{فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء : ٩٢]، وجهان:
أحدهما: ان المعنى: فإن كان المقتول من قوم عدو لكم. وهذا قول ابن عباس[١]، وإبراهيم[٢]، وعكرمة[٣]، والشعبي[٤]، وقتادة[٥]، والسدي[٦]، سعيد بن جبير[٧].

---

[١] انظر: النكت والعيون:٥١٨/١.
[٢] صفوة التفاسير:٢٧٢.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٩٣):ص١٠٣٣/٣.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٩٥):ص١٠٣٣/٣.
[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٧٩٥):ص١٠٣٣/٣.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٧٩٤):ص١٠٣٣/٣.
[٧] أخرجه احمد(١٨٩٤٨):ص٣٠٧/٤، والبخاري(٢٣١).
[٨] الكشاف:٥٥٠/١.
[٩] صفوة التفاسير:٢٧٢.
[١٠] أخرجه الطبري(١٠١١٤):ص٤٠/٩.
[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٩٨):ص١٠٣٣/٣.
[١٢] معاني القرآن:٩١/٢.

والثاني: أن المعنى: إن كان المؤمن الذي قتل ليس له ورثة بين ظهراني المسلمين ووراثة المشركون من أهل الحرب للمسلمين، {فتحرير رقبة}، فلم يجعل له ذرية. وهذا قول مقاتل بن حيان[8].

قال الزمخشري: المعنى:" من قوم كفار أهل حرب، وذلك نحو رجل أسلم في قومه الكفار وهو بين أظهرهم لم يفارقهم، فعلى قاتله الكفارة إذا قتله خطأ وليس على عاقلته لأهله شيء. لأنهم كفار محاربون. وقيل: كان الرجل يسلم ثم يأتى قومه وهم مشركون فيغزوهم جيش المسلمين، فيقتل فيهم خطأ لأنهم يظنونه كافرا مثلهم"[9].

وذكر أهل العلم في قوله تعالى:{فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء : ٩٢]، وجهان:

أحدهما : أي إن كان قومه كفاراً وهو مؤمن ففي قتله تحرير رقبة مؤمنة وليس فيه ديةُ ، وهو قول ابن عباس[10]، والحسن، وقتادة[11]، والسدي[12]، وإبراهيم[13]، وعكرمة[14]، وابن زيد[15].

والثاني : معناه فإن كان من قومٍ عدو لكم يعني أهل حرب إذا كان فيهم مؤمن فَقُتِلَ من غير علم بإيمانه ففيه الكفارة دون الدية سواء كان وارثه مسلماً أو كافراً. وهو أحد قولي ابن عباس[16]، واختيار الشافعي[17].

قال الماوردي:"ويكون معنى قوله {من قوم}، إلى قوم، وعلى القول الأول هي مستعملة على حقيقتها"[18].

والراجح-والله أعلم- أن المعنى:" فإذا قتل المسلم خطأ رجلا من عِداد المشركين ، والمقتول مؤمن ، والقاتل يحسب أنه على كفره ، فعليه تحرير رقبة مؤمنة"[19].

---

[1] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٩٨):ص١٠٣٣/٣.

[2]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٩٨):ص١٠٣٣/٣.

[3]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٩٨):ص١٠٣٣/٣.

[4]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٩٨):ص١٠٣٣/٣.

[5]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٩٨):ص١٠٣٣/٣.

[6]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٩٨):ص١٠٣٣/٣.

[7] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٩٧):ص١٠٣٣/٣.

[8]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧٩٩):ص١٠٣٤/٣.

[9] الكشاف:٥٥٠/١.

[10] انظر: تفسير الطبري(١٠١٠٨)،و(١٠١١١)، و(١٠١١٣):ص٣٩/٩-٤٠.

[11] انظر: تفسير الطبري(١٠١١٠):ص٣٩/٩.

[12] انظر: تفسير الطبري(١٠١٠٩):ص٣٩/٩.

[13] انظر: تفسير الطبري(١٠١٠٦):ص٣٩/٩.

[14] انظر: تفسير الطبري(١٠١٠٧):ص٣٩/٩.

[15] انظر: تفسير الطبري(١٠١١٤):ص٤٠/٩.

[16] انظر: تفسير الطبري(١٠١١٥):ص٤٠/٩.

[17] انظر: تفسير الإمام الشافعي:٦٣٣/٢-٦٤٢.

[18] النكت والعيون:٥١٩/١.

[19] تفسير الطبري:٣٨/٩.

قوله تعالى:{وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ} [النساء : ٩٢]، "أي: وإن كان المقتول خطأً من قوم كفرة بينكم وبينهم عهد كأهل الذمة"[١].

قال الزجاج:" وإن كان من قوم بينهم وبين المسلمين عهد"[٢].

قال ابن عباس:" هو الرجل يكون معاهدا ويكون قومه أهل عهد فيسلم إليهم دينه"[٣].

وروي عن سعيد بن جبير[٤]، وعكرمة[٥]، والسدي[٦]، والزهري[٧]، وعطاء الخراساني[٨]، وقتادة[٩]، وإبراهيم النخعي[١٠]، أنهم قالوا: "عهد"[١١].

وقال مقاتل بن حيان:" إن كان المؤمن الذي قتل ليس له ذرية في المسلمين وله ذرية في المشركين من أهل عهد النبي ﷺ فيمن بين النبي ﷺ ميثاق "[١٢].

قال الزمخشري:أي:" وإن كان من قوم كفرة لهم ذمة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل الذمة من الكتابيين، فحكمه حكم مسلم من مسلمين"[١٣].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ} [النساء : ٩٢]، وجوه:

أحدها : هم أهل الذمة من أهل الكتاب ، وهو قول ابن عباس[١٤]، يجب في قتلهم الدية والكفارة.

والثاني : هم أهل عهد رسول الله -ﷺ- من العرب خاصة ، وهذا قول الحسن[١٥].

والثالث : هم كل من له أمان بذمة أو عهد فيجب في قتله الدية والكفارة ، وهو قول الشافعي[١٦].

وقرأ الحسن «وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق وهو مؤمن»[١٧].

قوله تعالى:{فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء : ٩٢]، "أي: فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله، وإعتاق رقبة مؤمنة"[١٨].

قال الزجاج:" فتحرير رقبة وتسليم الدية إلى ذوي الميثاق لئلا تقع ضغينة بين أهل الميثاق والمؤمنين"[١٩].

---

[١] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[٢] معاني القرآن:٢/٩١.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠١٢٨):ص٩/٤٤، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠١٢٥):ص٩/٤٤، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠١٢٦):ص٩/٤٤، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[١١] تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠١):ص٣/١٠٣٤.

[١٣] الكشاف:١/٥٥٠.

[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص٣/١٠٣٤.

[١٥] انظر: النكت والعيون:١/٥١٩.

[١٦] انظر: تفسير الإمام الشافعي:٢/٦٣٣-٦٤٢.

[١٧] انظر: المحرر الوجيز:٢/٩٣-٩٤.

[١٨] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[١٩] معاني القرآن:٢/٩١.

قال ابن عباس: " فعلى قاتله الدية مسلمة إلى أهله"[١]، وفي رواية:" فيسلم إليهم دينه ويعتق الذي أصابه رقبة"[٢].
قال مقاتل بن حيان:"يقول: ادفعوا الدية إلى ورثته"[٣].
قال سعيد بن جبير:" لأهل المقتول من أهل العهد من مشركي العرب"[٤].
قال ابن عطية:" واختلف على هذا في دية المعاهد، فقال أبو حنيفة وغيره: ديته كدية المسلم، وروي ذلك عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال مالك وأصحابه: ديته على نصف دية المسلم، وقال الشافعي وأبو ثور: ديته على ثلث دية المسلم"[٥].
قال ابن شهاب:" بلغنا أن دية المعاهد كانت كدية مسلم، ثم نقصت بعد في آخر الزمان فجعلت مثل نصف دية المسلم، وأن الله تعالى أمر بتسليم دية المعاهد إلى أهله وجعل معها تحرير رقبة مؤمنة"[٦].
قال الشافعي:" فجعل في كل واحد منهما دية مُسَلَّمَةٌ - أي: إلى أهله -، ولم يقل في أهل الميثاق نصف الدية، - كما قال أهل المدينة - وأهل الميثاق ليسوا مسلمين، فجعل في كل واحد منهما دية مسلمة إلى أهله، والأحاديث في ذلك كثيرة عن رسول الله - ﷺ - مشهورة معروفة، أنَّه جعل دية الكافر مثل دية المسلم، وروى ذلك أفقههم، وأعلمهم في زمانه، وأعلمهم بحديث رسول الله - ﷺ - ابن شهاب الزهري رحمه الله فذكر أن دية المعاهَد في عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم مثل دية الحر المسلم، فلما كان معاوية - رضي الله عنه - جعلها مثل نصف دية الحر المسلم، فإن الزهري كان أعلمهم في زمانه بالأحاديث فكيف رغبوا عما رواه أفقههم إلى قول معاوية؟!"[٧].
قوله تعالى:{فَمَنْ لَمْ يَجِدْ} [النساء : ٩٢]، أي:" فمن لم يجد القدرة على عتق رقبة مؤمنة"[٨].
قال الزمخشري:" بمعنى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها"[٩].
قال مجاهد:" يقول: من لم يجد دية عتاقه في قتل مؤمن خطا"[١٠].
وقال سعيد بن جبير:" فمن لم يجد رقبة"[١١]. وروي عن مقاتل نحو ذلك[١٢].
وقال عكرمة:" إذا كان فمن لم يجد فالأول الأول"[١٣].
قوله تعالى:{فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ} [النساء : ٩٢]، أي:" فعليه صيام شهرين متتابعين"[١].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠٢):ص١٠٣٥/٣.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠٠):ص١٠٣٤/٣.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠١):ص١٠٣٤/٣.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠٤):ص١٠٣٥/٣.
[٥] المحرر الوجيز:٩٤/٢.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠٣):ص١٠٣٥/٣، والترمذي كتاب الديات (٤٥٨٣).
[٧] تفسير الإمام الشافعي:٦٣٩/٢.
[٨] التفسير الميسر:٩٣.
[٩] الكشاف:٥٥٠/١.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠٥):ص١٠٣/٣، والطبري(١٠١٧١):ص٥٥/٩.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠٦):ص١٠٣٥/٣.
[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٦):ص١٠٣٥/٣.
[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠٧):ص١٠٣٥/٣.

قال الطبري:أي:" فمن لم يجد رقبةً مؤمنة يحرّرها كفارة لخطئه في قتله من قتل من مؤمن أو معاهد ، لعُسْرته بثمنها، فعليه صيام شهرين متتابعين"[٢].

قال الحسن:" تغليظا وتشديدا من الله قال: هذا في الخطأ تشديد من الله"[٣].

وفي قوله تعالى:{فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ} [النساء : ٩٢]، وجهان:

أحدهما : أن الصوم بدل من الرقبة وحدها إذا عدمها دون الدية ، وهذا قول الجمهور[٤].

قال الضحاك:" الصيام لمن لا يجد رقبة ، وأما الدية فواجبةٌ لا يبطلها شيء"[٥].

والثاني : أنه بدل من الرقبة والدية جميعاً عند عدمها ، وهذا قول مسروقٍ[٦].

قال الزجاج:" ويحتمل أن يكون الصيام بدلا من الرقبة وبدلا مما ينبغي أن يؤدى في الدية"[٧].

عن الشعبي عن مسروق: "أنه سئل عن الآية التي في سورة النساء: {فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين}: صيام الشهرين عن الرقبة وحدَها ، أو عن الدية والرقبة ؟ فقال : من لم يجد ، فهو عن الدية والرقبة"[٨].

قال ابن عطية:" يريد عند الجمهور: فمن لم يجد العتق ولا اتسع ماله له فيجزيه «صيام شهرين» متتابعين في الأيام لا يتخللها فطر، وقال مكي عن الشعبي: «صيام الشهرين» يجزىء عن الدية والعتق لمن لم يجدها، وهذا القول وهم، لأن الدية إنما هي على العاقلة وليست على القاتل، والطبري حكى القول عن مسروق[٩]"[١٠].

عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد:" وسألته عن صيام «شهرين متتابعين»، قال: لا يفطر فيها ولا يقطع صيامها فإن فعل من غير مرض ولا عذر استقبل صيامها جميعا، فإن عرض له مرض أو عذر صام ما بقي منهما فإن مات ولم يصم أطعم عنه ستون مسكينا لكل مسكين مد"[١١].

قوله تعالى:{تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ} [النساء : ٩٢]، أي:" ليتوب الله تعالى عليه"[١٢].

قال الزجاج:" أي: فعل ذلك توبة من الله"[١٣].

قال الطبري:" يعني : تجاوزًا من الله لكم إلى التيسير عليكم ، بتخفيفه عنكم ما خفف عنكم من فرض تحرير الرقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها ، بإيجابه عليكم صوم شهرين متتابعين"[١٤].

---

[١] التفسير الميسر:٩٣.

[٢]تفسير الطبري:٩/٥٥.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٠٩):ص٣/١٠٣٦.

[٤] انظر: النكت والعيون:١/٥١٩.

[٥] أخرجه الطبري(١٠١٧٠):ص٩/٥٤.

[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٠٨):ص٣/١٠٣٥.

[٧] معاني القرآن:٢/٩٠.

[٨] أخرجه الطبري(١٠١٧٢):ص٩/٥٥-٥٦، وابن ابي حاتم(٥٨٠٨):ص٣/١٠٣٥.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠١٧٢):ص٩/٥٥-٥٦.

[١٠] المحرر الوجيز:٢/٩٤.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨١٠):ص٣/١٠٣٦.

[١٢] التفسير الميسر:٩٣.

[١٣] معاني القرآن:٢/٩١.

[١٤] تفسير الطبري:٩/٥٦.

قال سعيد بن جبير:"يعني: تجاوزا من الله لهذه الأمة حين جعل في قتل الخطأ كفارة ودية"[1].

قال الزمخشري:أي" قبولا من الله ورحمة منه، من تاب الله عليه إذا قبل توبته يعنى شرع ذلك توبة منه، أو نقلكم من الرقبة إلى الصوم توبة منه، وهذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ، وومن ثم روى عن ابن عباس ما روى من أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة[2]"[3].

وعن سفيان: "كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا: لا توبة له"[4].

قال الزمخشري:"وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة"[5].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء : ٩٢]، أي:" وكان الله تعالى عليما بحقيقة شأن عباده، حكيمًا فيما شرعه لهم"[6].

قال الطبري:" يقول : ولم يزل الله {عليمًا}، بما يصلح عباده فيما يكلفهم من فرائضه وغير ذلك، {حكيمًا}، بما يقضي فيهم ويريد"[7].

قال سعيد بن جبير:" يعني: حكم الكفارة لمن قتل خطا ثم صارت دية في العهد والموادعة لمشركي العرب منسوخة، نسختها الآية التي في براءة {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}، وقال النبي ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين»[8]"[9].

وفي نسخ قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ}[النساء:٩٢]، قولان[10]:

أحدهما: قال جمهور أهل العلم: أن الإشارة بهذا إلى الذي يقتل خطأ فعلى قاتله الدية والكفارة. وهذا قول ابن عباس[11]، والشعبي[12]، وقتادة[13]، والزهري[14]، وابن زيد[15]، وأبي حنيفة[1]، والشافعي[2]، فالآية على هذا محكمة.

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨١١):ص٣/١٠٣٦.

[2] المسند (١/٢٤٠) وسنن النسائي (٨/٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٦٢١).

[3] الكشاف:١/٥٥٠.

[4] الكشاف:١/٥٥٠-٥٥١.

[5] الكشاف:١/٥٥٠-٥٥١.

[6] التفسير الميسر:٩٣.

[7] تفسير الطبري:٩/٥٦.

[8] أخرجه احمد في مسنده(٦٨٤٣):ص٦/٣٢٢، والدارمي في سننه(٣٠٣٥):ص٤/١٩٥٣، وابن ماجة(٢٧٣١):ص٢/٩١٢، وأبي داود(٢٩١١):ص٣/١٢٥" بزيادة "شتى" في آخره، والترمذي(٢١٠٨):ص٣/٤٩٦، والنسائي(٦٣٤٩):ص٦/١٢٥، وغيرهم. ومن طرق مختلفة.

[9] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨١٢):ص٣/١٠٣٦.

[10] انظر: نواسخ القرآن:ابن الجوزي:٢/٣٨٣-٣٨٤.

[11] انظر: تفسير الطبري(١٠١١٦):ص٩/٤١.

[12] انظر: تفسير الطبري(١٠١١٨):ص٩/٤٢.

[13] انظر: تفسير الطبري(١٠١٢٠):ص٩/٤٢.

[14] انظر: تفسير الطبري(١٠١١٧):ص٩/٤١-٤٢.

[15] انظر: تفسير الطبري(١٠١٢١):ص٩/٤٢.

والثاني: وقد ذهب بعض المفسرين[3] إلى أن المراد به من كان من المشركين بينه وبين النبي ﷺ عهد وهدنة إلى أجل، ثم نسخ ذلك بقوله: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[التوبة:١] وبقوله: {فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ}[الأنفال:٨٥].

الفوائد:

١-قال الزمخشري:" والعجب من قوم يقرؤن هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة، أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟"[4].

٢- إن كفَّارة القتل الخطأرففيه الدية؛ إذ تسلَّم إلى أهل الميت إذا طلبوها فتصبح ملكًا لهم يتصرَّفون فيها كما يشاءون وينتفعون بها.

٣-من أسماءه تعالى:«العليم»: يدل على أن له سبحانه وتعالى علما محيطاً عاما لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

قال أبو سليمان:" العليم :هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، وجاء على بناء: فعيل، للمبالغة في وصفه بكمال العلم"[5].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقول الخضِر لموسى عليهما السلام: "إنك على علمٍ من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علمٍ من علم الله علمنيه لا تعلمه"[6].

وأما«الحكيم»، فالحكمة: هي وضع الشيء في موضعه اللائق به، فالله تعالى الحكيم الذي له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق سبحانه شيئا إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة فالله الحكيم سبحانه حكيم في خلقه، وأمره، وتعليمه ما يشاء، ومنعه ما يشاء.

و«حكيم» بمعنى: «مُحْكِم»، والله تعالى مُحكِم للأشياء، متقن لها، كما قال سبحانه: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النحل آية ٨٨].

قال أبو إسحاق الإسفراييني:" من أسامي صفات الذات ما هو للعلم...منها: «الحكيم»، ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف"[7].

القرآن

{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)} [النساء : ٩٣]

التفسير:

ومن يَعْتَدِ على مؤمن فيقتله عن عمد بغير حق فعاقبته جهنم، خالدًا فيها مع سخط الله تعالى عليه وطَرْدِهِ من رحمته، إن جازاه على ذنبه وأعدَّ الله له أشد العذاب بسبب ما ارتكبه من هذه الجناية العظيمة. ولكنه سبحانه يعفو ويتفضل على أهل الإيمان فلا يجازيهم بالخلود في جهنم.

سبب النزول:

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ٩٤/٢، ونواسخ القرآن:ابن الجوزي:٣٨٣/٢-٣٨٤.

(٢) انظر: تفسير الإمام الشافعي:٦٣٩/٢.

(٣)ذكر مكي به أبي طالب هنا في الإيضاح (٦٠) قول النسخ وعزاه إلى أبي أويس، وانظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي:٣٨٤/٢.

(٤) الكشاف:٥٥١/١.

(٥) الاسماء والصفات للبيهقي:١٢١/١.

(٦) رواه البخاري(١٢٢)، ومسلم(٤٣٨٥).

(٧) الاسماء والصفات للبيهقي:٢٩٤/١.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، قال:"نزلت في مقيس بن ضبابة الكناني، وذلك أنه أسلم وأخوه هشام بن ضبابة، وكان بالمدينة فوجد مقيس أخاه هشاما ذات يوم قتيلا في الأنصار في بني النجار، فانطلق إلى النبي ﷺ، فأخبره بذلك، فأرسل رسول الله ﷺ رجلا من قريش من بني فهر ومعه مقيس إلى بني النجار ومنازلهم يومئذ بقباء أن ادفعوا إلى مقيس قاتل أخيه أن علمتم ذلك وإلا فادفعوا إليه الدية، فلما جاءهم الرسول، قالوا: السمع والطاعة لله وللرسول، والله ما نعلم له قاتلا ولكن نؤدي الدية فدفعوا إلى مقيس مائة من الإبل دية أخيه، فلما انصرف مقيس والفهري راجعين من قباء إلى المدينة وبينهما ساعة، عمد مقيس إلى الفهري رسول رسول الله ﷺ فقتله، وارتد عن الإسلام وركب جملا منها وساق معه البقية ولحق بمكة وهو يقول في شعر له[1]:

قتلت به فهرا وحملت عقله سراة بني النجار أرباب فارع

حَلَلْتُ بِهِ وِترِي ، وَأَدْرَكْتُ ثُؤْرَتِي وَكُنْتُ إِلَى الأَوْثَانِ أَوَّلَ راجِعِ

فنزلت فيه بعد قتل النفس وأخذ الدية وارتد عن الإسلام ولحق بمكة كافرا، {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا}"[2]. وذكر الواحدي نحوه عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس[3].

وفي السياق نفسه اخرج الطبري عن عن ابن جريج ، عن عكرمة : "أن رجلا من الأنصار قتل أخا مقيس بن صُبَابة ، فأعطاه النبي ﷺ الديةَ فقبلها ، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله قال ابن جريج : وقال غيره : ضرب النبيّ ﷺ ديتَه على بني النجار ، ثم بعث مقيسًا ، وبعث معه رجلا من بني فهر في حاجة للنبي ﷺ ، فاحتمل مقيسٌ الفِهريَّ وكان أيّدًا فضرب به الأرض ، ورَضخَ رأسه بين حجرين ، ثم ألفى يتغنى[4]:

ثَأَرْتُ بِهِ فِهْرًا ، وَحَمَّلْتُ عَقْلَهُ سَرَاةَ بَنِي النَّجَّارِ أَرْبَابِ فَارِعِ

فقال النبي ﷺ : أظنّه قد أحدث حدثًا! أما والله لئن كان فعل ، لا أومِنه في حِلّ ولا حَرَم ولا سلم ولا حرب! فقتل يوم الفتح، قال ابن جريج : وفيه نزلت هذه الآية : {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا}، الآية"[5].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا} [النساء : ٩٣]، "أي: ومن يقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمداً لقتله"[6].

قال سعيد بن جبير:" متعمدا لقتله"[7].

قال سعيد ابن المسيب: "العمد: الإبرة فما فوقها من السلاح"[8].

قال السمعاني:" فالقتل المتعمد عند أكثر العلماء: هو الذي يحصل بكل ما يقصد به القتل، وقال سعيد بن المسيب، وطاوس: القتل العمد لا يكون إلا بالحديد"[1].

---

[1] سيرة ابن هشام ٣ : ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، تاريخ الطبري ٣ : ٦٦ ، معجم البلدان (فارع).

[2] تفسير ابن أبي حاتم(٥٨١٦):ص١٠٣٧/٣-١٠٣٨. سنده ضعيف، لعلتي: الغرسال، وابن لهيعة ضعيفة.

[3] انظر: أسباب النزول:١٧٠-١٧١. بزيادة:"ثم أهدر النبي - صلى الله عليه وسلم - دمه يوم فتح مكة، فأدركه الناس بالسوق فقتلوه".

[4] سيرة ابن هشام ٣ : ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، تاريخ الطبري ٣ : ٦٦ ، معجم البلدان (فارع).

[5] تفسير الطبري(١٠١٨٦):ص٦١/٩-٦٢. وسنده ضعيف جداً؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. الثانية: ابن جريج لم يسمع عن عكرمة.الثالثة: سنيد ضعيف.

[6] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[7] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨١٧):ص١٠٣٨/٣.

[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨١٨):ص١٠٣٨/٣.

قال الراغب:" العمد: فعل الشيء عن إرادة واختيار، ويضاده الخطأ، وصفة قتل العمد أن يقصده بحديدة أو حجر يقتل غالبا، أو توبع عليه بخنق أو بسوط فتوالى عليه حتى يموت"[٢].

قوله تعالى:{فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ} [النساء : ٩٣]، أي:" فعاقبته جهنم"[٣].

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله:"{ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم}، قال: «هو جزاءه إن جازاه»"[٤].

عن أبي روق، قال: "وكان ابن عباس يقول: فجزاؤه جهنم إن جازاه، يعني: للمؤمن وليس للكافر، فإن شاء عفى عن المؤمن وإن شاء عاقب"[٥]. قال ابن ابي حاتم:"وروي عن أبي صالح، ومحمد بن سيرين، وأبي مجلز، وعون بن عبد الله، وعمرو بن دينار نحو ذلك"[٦].

وقال الحسن في هذه الآية قوله: {فجزاؤه جهنم}:" قد أوجب الله هذا عليك، فانظر من يضع هذا عنك ومن يعزك يا لكع"[٧].

قال البغوي:أي:" بكفره وارتداده، وهو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة،عمن أمنه، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة"[٨].

قوله تعالى:{خَالِدًا فِيهَا} [النساء : ٩٣]، أي:" مخلداً فيها على الدوام"[٩].

قال سعيد بن جبير:" فجعل له الخلود في النار بكفره، كما جعل لمن كفر بقسمة المواريث"[١٠].

قال النسفي:" والخلود قد يراد به طول المقام وقول المعتزلة بالخروج من الإيمان يخالف قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى}"[١١].

قوله تعالى:{وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ} [النساء : ٩٣]،" أي وينالُه السخط الشديد من الله"[١٢].

قال النسفي:" أي انتقم منه"[١٣].

قوله تعالى:{وَلَعَنَهُ} [النساء : ٩٣]، أي:" وطَرْدِهِ من رحمته"[١٤].

قوله تعالى:{وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء : ٩٣]، أي: وأعدّ له العذاب الشديد في الآخرة"[١٥].

قال مقاتل بن حيان:" يعني: عذابا وافرا"[١)].

---

[١] تفسير السمعاني:٤٦٣/١.

[٢] تفسير الراغب الاصفهاني:١٣٩٩/٣.

[٣] التفسير الميسر:٩٣.

[٤] اخرجه ابن أبي حاتم(٥٨١٩):ص١٠٣٨/٣.

[٥] اخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٢٠):ص١٠٣٨/٣.

[٦] اخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٢٠):ص١٠٣٨/٣.

[٧] اخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٢١):ص١٠٣٨/٣.

[٨] تفسير البغوي:٦٧٨/١.

[٩] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[١٠] اخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٢٢):ص١٠٣٨/٣.

[١١] تفسير النسفي:٣٨٥/١.

[١٢] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[١٣] تفسير النسفي:٣٨٥/١.

[١٤] التفسير الميسر:٩٣.

[١٥] صفوة التفاسير:٢٧٢.

قال الزجاج:" وهذا وعيد شديد في القتل حظر الله عز وجل به الدماء"[٢].
قال الواحدي:" غلَّظ الله وعيد قاتل المؤمن عمداً للمبالغة في الرَّدع والزَّجر"[٣].
قال ابن كثير:" وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم ، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله ، حيث يقول ، سبحانه ، في سورة الفرقان : { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ (٦) } الآية [الفرقان : ٦٨] وقال تعالى : { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } إلى أن قال:{ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الأنعام : ١٥١].

والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدا. من ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : "أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء" [٤].

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود ، من رواية عمرو بن الوليد بن عبدة المصري ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : "لا يزال المؤمن مُعنقا صالحا ما لم يصب دما حراما ، فإذا أصاب دما حراما بَلَّح" [٥].

وفي حديث آخر : "لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم" [٦].

وفي الحديث الآخر : "لو أجمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم ، لأكبهم الله في النار"[٧].

وفي الحديث الآخر : "من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه : آيس من رحمة الله" [٨]"[٩].

وقد اختلف العلماء هل هذه الآية محكمة أم منسوخة، على قولين:
أحدهما: أنها منسوخة، وهو قول جماعة من العلماء[١٠]، قالوا: بأنها حكمت بخلود القاتل في النار، وذلك منسوخ بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء : ٤٨].

وقال بعضهم: نسخها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [الفرقان : ٦٨] إلى قوله: {إِلَّا مَنْ

---

[١] اخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٢٣):ص١٠٣٩/٣.
[٢] معاني القرآن:٩١/٢.
[٣] الوجيز:٢٨٢.
[٤] صحيح البخاري برقم (٦٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٨).
[٥] سنن أبي داود برقم (٤٢٧٠).
[٦] روي من حديث عبد الله بن عمرو ، ومن حديث البراء بن عازب ، أما حديث عبد الله بن عمرو ، فرواه الترمذي في السنن برقم (١٣٩٥) ، والنسائي في السنن (٨٢/٧) وهذا هو لفظه.
[٧] رواه الطبراني في المعجم الصغير برقم (٥٦٥) من طريق جعفر بن جبير بن فرقد عن أبيه عن الحسن عن أبي بكرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في المجمع (٢٩٧/٧) : "فيه جسر بن فرقد ، وهو ضعيف".
[٨] رواه ابن ماجة في السنن برقم (٢٦٢٠) من طريق يزيد بن زياد عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الذهبي رحمه الله : "هذا حديث باطل موضوع".
[٩] تفسير ابن كثير:٣٧٦/٢-٣٧٧.
[١٠] منهم ابن حزم، انظر الناسخ والمنسوخ:٣٥، ونواسخ القرآن لابن الجوزي:٣٩١/٢، والمحرر الوجيز:٩٥/٢-٩٦.

تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان : ٧٠].

وحكى أبو جعفر النحاس: أن بعض العلماء قال: معنى نسختها آية الفرقان، أي: نزلت بنسختها[١].

وقال ابن الجوزي:" ذهب الأكثرون إلى أنها منسوخة بقوله {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}"[٢].

والثاني: أنها محكمة. وهذا قول أبي هريرة[٣]، وابن عمر[٤]، وأبي سلمة[٥]، وعبيد بن عمير[٦]، عمير[٦]، والحسن[٧]، والضحاك[٨]، وقتادة[٩]، واختاره أبو جعفر النحاس[١٠]، واختلف هؤلاء هؤلاء في طريق أحكامها على قولين[١١]:

القول الاول: أن قاتل المؤمن مخلد في النار، وأكدوا هذا بأنها خبر، والأخبار لا تنسخ.

عن سعيد بن جبير قال ابن عباس:" نزلت هذه الآية:{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا}، هي آخر ما نزل وما نسخها شيء" [١٢].

وعن سالم بن أبي الجَعْد، عن ابن عباس قال:" أن رجلا أتاه فقال : أرأيت رجلا قتل رجلا متعمدا ؟ فقال:{ جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} قال : لقد نزلت في آخر ما نزل ، ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ ، وما نزل وحي بعد رسول الله ﷺ. قال : أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ؟ قال : وأنى له بالتوبة. وقد سمعت رسول الله ﷺ. يقول : "ثكلته أمه ، رجل قتل رجلا متعمدا ، يجيء يوم القيامة آخذا قاتله بيمينه أو بيساره - وآخذا رأسه بيمينه أو بشماله - تَشْخَب أوداجه دما من قبل العرش يقول : يا رب ، سل عبدك فيم قتلني ؟"[١٣].

والقول الثاني: أنها عامة دخلها التخصيص، بدليل أنه لو قتله كافر ثم أسلم الكافر سقطت عنه العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذا ثبت كونها من العام المخصص، فأي دليل صلح للتخصيص وجب العمل به. ومن أسباب التخصيص أن يكون قد قتله مستحلا لأجل إيمانه فيستحق التخليد لاستحلاله.

---

[١] انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس: ١١٢.

[٢] المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ:٢٦.

[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٨١٥):ص٣/١٠٣٧.

[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٨١٥):ص٣/١٠٣٧.

[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٨١٥):ص٣/١٠٣٧.

[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٨١٥):ص٣/١٠٣٧.

[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٨١٥):ص٣/١٠٣٧.

[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٨١٥):ص٣/١٠٣٧.

[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٨١٥):ص٣/١٠٣٧.

[١٠] في ناسخه:١١٠-١١٢.

[١١] انظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي:٢/٣٨٩-٣٩٠.

[١٢] صحيح البخاري برقم (٤٥٩٠) وصحيح مسلم برقم (٣٠٢٣) وسنن النسائي (٨/٦٢).

[١٣] المسند (١/٢٤٠) وسنن النسائي (٨/٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٦٢١).

وقد ضعف هذا الوجه أبو جعفر النحاس فقال: ومن لفظ عام لا يخص إلا بتوقيف أو دليل قاطع[١]، وقد ذهب قوم إلى أنها مخصوصة في حق من لم يتب، بدليل قوله تعالى: {إلا من تاب}[٢][٣].

قال ابن الجوزي:" والصحيح أن الآيتين محكمتان، فإن كانت التي في النساء أنزلت أولا فإنها محكمة نزلت على حكم الوعيد غير مستوفاة الحكم، ثم بين حكمها في الآية التي في الفرقان، وكثير من المفسرين منهم ابن عباس وأبوا مجلز وأبو صالح. يقولون: فجزاؤه جهنم إن جازاه. وقد روى لنا مرفوعا إلا أنه لا يثبت رفعه، والمعنى: يستحق الخلود غير أنه لا يقطع له به، وفي هذا الوجه بعد لقوله: {وغضب الله عليه ولعنه}. فأخبر بوقوع عذابه كذلك، وقال أبو عبيد: وإن كانت التي في الفرقان الأولى فقد استغنى بما فيها عن إعادته في سورة النساء فلا وجه للنسخ بحال"[٤].

يقول الشوكاني- بعد أن أورد الآثار الواردة عن سعيد بن جبير وزيد بن ثابت بعدم النسخ-:"ومن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف: أبو هريرة وعبد الله بن عمرو، وأبو سلمة، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم عنهم، وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة، واستدلوا بمثل قوله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود : ١١٤]، وقوله: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [الشورى : ٢٥]، وقوله: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء : ٤٨، و١١٦].

قالوا أيضا: والجمع ممكن بين آية النساء هذه وآية الفرقان فيكون معناهما: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، لا سيما وقد اتحد السبب وهو القتل الموجب والتوعد بالعقاب"[٥]. ثم سرد الشوكاني الشوكاني أدلة الجمهور.

قال ابن كثير:" والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها : أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل ، فإن تاب وأناب وخشع وخضع ، وعمل عملا صالحا ، بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلابته.

قال الله تعالى : { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الفرقان : ٦٨ ، ٦٩] وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين ، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر ، ويحتاج حمله إلى دليل.

وقال تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر : ٥٣] وهذا عام في جميع الذنوب ، من كفر وشرك ، وشك ونفاق ، وقتل وفسق ، وغير ذلك : كل من تاب من أي ذلك تاب الله عليه، وقال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء : ٤٨]. فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك ، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها ، لتقوية الرجاء.

وثبت في الصحيحين[٦] خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ، ثم سأل عالما : هل لي من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟! ثم أرشده إلى بلد يَعْبد الله فيه ، فهاجر إليه ،

---

[١] انظر: نص ما ذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ص: ١١٢ .

[٢] [سورة الفرقان:٧٠].

[٣] انظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي:٣٩١/٢.

[٤] نواسخ القرآن:٣٩٢/٢.

[٥] فتح القدير:٤٦١/١.

[٦] انظر: مسند الإمام احمد(١١٦٨٧):ص٢١٩/١٨-٢٢٠. إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن

فمات في الطريق ، فقبضته ملائكة الرحمة. كما ذكرناه غير مرة ، إن كان هذا في بني إسرائيل فَلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن الله وضع عنا الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة.

فأما الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى:{ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف : «هذا جزاؤه إن جازاه»[1]"[2].

قال ابن كثير:"اي: أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه ، وكذا كل وعيد على ذنب ، لكن قد يكون كذلك مُعَارِض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه ، على قولي أصحاب الموازنة أو الإحباط. وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، وبتقدير دخول القاتل إلى النار ، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحا ينجو به ، فليس يخلد فيها أبدًا ، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان"[3].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: " أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله، من كان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله، من كان في قلبه من الخير ما يزن ذرة، أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله، من كان في قلبه من الخير ما يزن برة "[4].

وأما حديث معاوية : " كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافرا، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا" [5].

ماجه (٢٦٢٢)،

[1]هذا القول عزاه ابن كثير إلى أبي هريرة وجماعة من السلف، وقال:" وقد رواه ابن مردويه مرفوعا ، من طريق محمد بن جامع العطار ، عن العلاء بن ميمون العنبري ، عن حجاج الأسود ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة مرفوعا ، ولكن لا يصح "، انظر: تفسير ابن كثير:٣٨٨/٢.

ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٣١٠) "مجمع البحرين" من طريق محمد بن جامع العطار عن العلاء بن ميمون به ، وفي إسناده العلاء بن ميمون ، ومحمد بن جامع العطار وهما ضعيفان.

قال مكي: "وهذا هو مذهب أهل السنة في الوعد والوعيد، فهي محكمة".

[2] تفسير ابن كثير:٣٨٠/٢.

[3] تفسير ابن كثير:٣٨١/٢.[بتصرف بسيط].

[4] أخرجه احمد(١٢٧٧٢):ص١٧١/٢٠-١٧٢، إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" ٧٠٠/٢ من طريق محمد بن جعفر وحده، بهذا الإسناد، وأخرجه أبو عوانة ١٨٤/١ من طريق حجاج بن محمد وحده، به.

وأخرجه الطيالسي (١٩٦٦) ، ومسلم (١٩٣) (٣٢٥) ، والترمذي (٢٥٩٣) ، وابن أبي عاصم في "السنة" (٨٥١) ، وأبو يعلى (٢٩٥٦) و (٣٢٧٣) ، وابن خزيمة في "التوحيد" ٧٠١/٢ و٧٠٢، وأبو عوانة ١٨٤/١، وابن منده في "الإيمان" (٨٧٢) ، والبيهقي في "الاعتقاد" ص١٩٤ من طرق عن شعبة، به.

[5] أخرجه احمد(١٦٩٠٧):ص١١٢/٢٨.حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، وأخرجه المزي في ترجمة أبي عون من "تهذيب الكمال" ١٥٥/٣٤، من طريق الإمام أحمد، بهذا الإسناد، وأخرجه النسائي في "المجتبى" ٨١/٧، والحاكم ٣٥١/٤، من طريق صفوان بن عيسى، به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وأخرجه الطبراني في "الكبير" ١٩/ (٨٥٨) من طريقين عن ثور. بن يزيد، به.

قال ابن كثير:"«عسى» للترجي ، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لا ينتفى وقوع ذلك في أحدهما ، وهو القتل ؛ لما ذكرنا من الأدلة. وأما من مات كافرا ؛ فالنص أنه لا يغفر له البتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين وهي لا تسقط بالتوبة ، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه ، والمغضوب منه والمقذوف وسائر حقوق الآدميين ، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة ، ولا بد من أدائها إليهم في صحة التوبة ، فإن تعذر ذلك فلا بد من الطلابة يوم القيامة ، لكن لا يلزم من وقوع الطلابة وقوع المجازاة ، وقديكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة ، أو يعوض الله المقتول من فضله بمايشاء ، من قصور الجنة ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك ، والله أعلم"[1].

قال البغوي:" والذي عليه الأكثرون، وهو مذهب أهل السنة أن قاتل المسلم عمدا توبته مقبولة لقوله تعالى: وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا [طه: ٨٢] وقال: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: ٤٨، ١١٦] ، وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو تشديد ومبالغة في الزجر عن القتل، كما روي عن سفيان بن عيينة أنه قال: إن لم يقتل يقال له لا توبة لك، وإن قتل ثم جاء يقال لك توبة، ويروى مثله ابن عباس رضي الله عنهما، وليس في الآية متعلق لمن يقول بالتخليد في النار بارتكاب الكبائر، لأن الآية نزلت في قاتل هو كافر، وهو مقيس بن صبابة، وقيل: إنه وعيد لمن قتل مؤمنا مستحلا لقتله بسبب إيمانه، ومن استحل قتل أهل الإيمان لإيمانهم كان كافرا مخلدا في النار، وقيل: قوله تعالى: فجزاؤه جهنم خالدا فيها معناه هي جزاؤه إن جازاه، ولكنه إن شاء عذبه بذنبه وإن شاء غفر له بكرمه، فإنه وعد أن يغفر لمن يشاء، حكي أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء فقال له: هل يخلف الله وعده؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها فقال أبو عمرو بن العلاء: من العجمة أتيت يا أبا عثمان! إن العرب لا تعد الإخلاف في الوعيد خلفا وذما وإنما تعد إخلاف الوعد خلفا وذما وأنشد[2]:

وأخرجه الطبراني في "الكبير" ١٩/ (٨٥٦) و (٨٥٧) ، وفي "مسند الشاميين" (١٨٩٢) من طريقين عن أبي عون، به.

وله شاهد من حديث أبي الدرداء عند أبي داود (٤٢٧٠) ، وصححه ابن حبان (٥٩٨٠) ، والحاكم ٣٥١/٤، ووافقه الذهبي.

وآخر من حديث عبادة بن الصامت عند البزار (٣٣٢٥) .

قال السندي: قوله: "إلا الرجل"، أي: إلا ذنب الرجل.

"أو الرجل يقتل" ظاهر الحديث موافق لظاهر القرآن، وكان ابن عباس يقول بما يوافقه، والجمهور يقول: إنه محمول على التغليظ، وإلا فقد قال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [النساء: ٤٨] .

[1] تفسير ابن كثير:٢/٣٨٠-٣٨١.

[2] البيت لعامر بن الطفيل، وهو في "ديوانه" ٥٨. وقد ورد منسوبًا له، في "العقد الفريد" لابن عبد ربه: ١/ ٢٨٤، وأورده بنفس رواية المؤلف: "يتيمة الدهر" للثعالبي: ٢/ ١٥٧، "لسان العرب" ٢/ ١٠٩٨ (ختأ)، ٨/ ٤٨٧١ (وعد)، ٢/ ١١٠٣ (ختا)، "تاج العروس" ١/ ١٤٣ (ختأ)، ١٩/ ٣٦٩ (ختا). كما ورد غير معزوٍ في "عيون الأخبار" لابن قتيبة: ٢/ ١٤٢، "ضرورة الشعر" للسيرافي، تحقيق د. رمضان عبد التواب: ١٣٨، "مجالس العلماء" للزجّاجي: ٦٢، "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩١٥ (وعد)، "الصحاح" ٢/ ٥٥١ (وعد) "طبقات

وإني وإن أوعدته أو وعدته   لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

والدليل على أن غير الشرك لا يوجب التخليد في النار: ما رويناه أن النبي ﷺ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة»[1]"[2].

الفوائد:

١- إثبات الفعل للعبد ومؤاخذته بفعله، قال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً}.

٢-أن الفعل وأثره ينسبان إلى الله خلقاً وإيجاداً، وينسبان إلى العبد فعلاً وكسباً.

هذه المسألة تتعلق بما يسمى المتولدات وهي آثار الأفعال، كإبانة الغصن بالضرب فالضرب هو الفعل والإبانة هي أثر الضرب ، وقد اختلف المتكلمون في محدثها:

فقال الأشاعرة ومن وافقهم: إن الإنسان لا يكون فاعلاً في غير محل قدرته فلهذا قالوا: إن الأمور التي تقع بأثر الفعل هي من خلق الله وإرادته وليس للعبد فيها فعل وهو قول المصنف هنا.

أما المعتزلة فلهم في ذلك أقوال: فقال النظام ومعمر: إنها تحصل بالطبع في المحل أي المحل الواقع عليه الفعل، وقال الجاحظ: إنها تحصل بالطبع في أفعال الجوارح، وقال ثمامة بن أشرس منهم: إنها حوادث لا محدث لها، وقال عبد الجبار المعتزلي في شرح الأصول الخمسة: إنها من فعل العبد بواسطة.

والناظر في هذه الأقوال يتبين له خطأ بعضها وقصور بعضها عن الحق، فإن المعتزلة وإن أجاز بعضهم نسبتها إلى العبد فإنهم ينفون خلق الله عزوجل للفعل وأثره.

أما الأشعرية فإنّهم يمنعون أن ينسب الأثر الواقع بفعل الإنسان إليه، والصحيح أن الفعل وأثره ينسبان إلى الله خلقاً وإيجاداً، وينسبان إلى العبد فعلاً وكسباً فقد اشترك في وقوعه الإنسان والسبب المتصل به ولم يستقل كل واحد منهما بالفعل، وقد نسبه الله عزوجل إلى الإنسان فقال عز من قائل: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً} وقال: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ} وقال: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} وقال: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ} والقتل

النحويين واللغويين" للزبيدي: ٣٩، "العمدة" لابن رشيق: ١/ ٥٨٩، "الحماسة البصرية" لصدر الدين البصري: ٢/ ٣٠. وروايته في "الديوان":

وإنِّيَ إن أوعدتُه أو وعدتُه ... لأخلِفُ إيعادي وأنجز موعدي

وبرواية أخرى:

لمخلِفُ إيعادي ومنجز موعدي

كما ورد في "اللسان" ١/ ٦٣ كالتالي:

لَيأمَنُ ميعادي ومنجز موعدي

وانظر الفرق بين (وعد) و (أوعد) في: "ما تلحن فيه العامة" للكسائي: ١١٠، "مجاز القرآن" لأبي عبيدة: ٢/ ١٨٩، "أدب الكاتب" لابن قتيبة: ١/ ٢٧٢، "مجالس ثعلب" ١/ ٢٢٧، "والخاطريات" لابن جني: ١٩٨، "خزانة الأدب" للبغدادي: ٥/ ١٨٩، ١٩٠. وانظر مادة (وعد) في "تهذيب اللغة" "الصحاح" "اللسان". وقد وردت هذه المحاورة في "عيون الأخبار" ٢/ ١٤٢، "مجالس العلماء" ٦٢، "طبقات النحويين واللغويين" ٣٩، "إنباه الرواة" ٤/ ١٣٣، "مدارج السالكين" لابن القيم: ١/ ٣٩٦، "ميزان الاعتدال" للذهبي: ٤/ ١٩٨، ١٩٩، "لوامع الأنوار" للسفاريني: ١/ ٣٧١.

[1]أخرجه البخاري في اللباس. باب الثياب البيض: ١٠ / ٢٨٣. ومسلم في الإيمان. باب: من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة برقم (٩٤) ١ / ٩٥، والمصنف في شرح السنة: ١ / ٩٦، ٩٧.

[2]تفسير البغوي:٦٧٩/١ .

لا يكون إلا بواسطة في الغالب إلا أن يكون خنقاً ونحوه وكذلك القطع والنحت، وقد نسبه الله عزوجل إلى الإنسان باعتبار أنه من فعله وكسبه لهذا فإن الإنسان يجازى على فعله وعلى أثر فعله، قال عزوجل: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} . وقال - صلى الله عليه وسلم- في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعى إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل إثم من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً"[١].

والله عزوجل خالق فعل العبد وخالق السبب والمسبب، ولو شاء لجعل من الموانع ما يمنع من أثر الفعل مع وجود سببه، كما هو الحال في النار التي ألقي فيها إبراهيم عليه السلام، وفي الذي مر على قرية خاوية فأماته الله مائة عام فقد حفظه الله من أن تأكله الأرض ونحو ذلك. أما قول المصنف: إنه لو كان العبد هو الفاعل لإبانة الغصن والموت في المقتول لاستطاع إعادة الغصن وبث الحياة في المقتول. فالواقع أن العلة في ذلك أن الغصن وكذلك الإنسان المقتول هو من صنع الله عزوجل وخلقه، وليس هو من صنع الإنسان ولا فعله لهذا إذا أفسده فإنه يمكنه أن يرجعه ويصلحه وهو مع ذلك من خلق الله تعالى[٢].

٣- مذهب أهل السنة والجماعة: أن القتل العمد من أعظم كبائر الذنوب عند الله، ولكن القاتل لا يخلد في نار جهنم، بل هو إن مات ولم يتب من ذلك تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه في النار، ثم يخرجه منها إلى الجنة؛ لأنه تعالى - فضلاً منه - لا يخلد في النار أحداً من الموحدين. وقد ذكر الشوكاني في فتح القدير:" أن مذهب جمهور العلماء هو القول بقبول توبة القاتل"[٣].

٤-إثبات صفة الغضب لله تعالى، قال الطحاوي:" "والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضا، والعداوة والولاية، والحب والبغض، ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى"[٤].

قال ابن القيم: "والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه على أعدائه وذلك صفة قائمة به يترتب عليها العذاب واللعنة، لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة، بل هما أثر السخط والغضب وموجبهما ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته، وجعل كل واحد غير الآخر، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك،أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[٥]. فتأمل ذكر استعاذته صلى الله عليه وسلم بصفة "الرضا" من صفة "الغضب" وبفعل "المعافاة" من فعل "العقوبة" فالأول للصفة، والثاني لأثرها المترتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره..."[٦].

---

[١]أخرجه مسلم كتاب العلم (ب. من سن سنة حسنة) ٢٠٦٠/٤.

[٢] انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الاشرار:٢٣٨/١، وانظر: الأقوال في: الإرشاد للجويني ص ٢٠٦، أصول الدين للبغدادي ص ١٣٧-١٣٨، شرح الأصول الخمسة ص ٣٨٧-٣٩٠، درء تعارض العقل والنقل ٣٤١/٩، مجموع الفتاوى ١٣٧/٨.

[٣] فتح القدير:٤٦١/١.

[٤]شرح الطحاوية ص٤١١- ٤١٢.

[٥]مسند أحمد: ١/ ٩٦، وسنن ابن ماجة: ٢/ ١٢٦٣.

[٦]مدارج السالكين ٢٥٤/١.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)} [النساء : ٩٤]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه إذا خرجتم في الأرض مجاهدين في سبيل الله فكونوا على بينة مما تأتون وتتركون، ولا تنفوا الإيمان عمن بدا منه شيء من علامات الإسلام ولم يقاتلكم؛ لاحتمال أن يكون مؤمنًا يخفي إيمانه، طالبين بذلك متاع الحياة الدنيا، والله تعالى عنده من الفضل والعطاء ما يغنيكم به، كذلك كنتم في بدء الإسلام تخفون إيمانكم عن قومكم من المشركين فمَنَّ الله عليكم، وأعزَّكم بالإيمان والقوة، فكونوا على بيِّنة ومعرفة في أموركم. إن الله تعالى عليم بكل أعمالكم، مطَّلع على دقائق أموركم، وسيجازيكم عليها.

في سبب نزول الآية أقوال:

أجمعت الروايات بأن هذه الآية نزلت في سبب قتيل قتلته سريّة لرسول الله ﷺ بعد ما قال : "إنيّ مسلم " أو بعد ما شهد شهادة الحق أو بعد ما سلَّم عليهم، لغنيمة كانت معه، أو غير ذلك من ملكه ، فأخذوه منه. وقد تعددت الروايات في سرد تفاصيل القصة وبيان القاتل والمقتول على أقوال:

أحدها:أن القاتل كان أناسا من المسلمين، والمقتول كان رجلا في غنيمة. وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء[1].

عن عطاء عن ابن عباس، قال:" لقى ناس من المسلمين رجلا في غنيمة له فقال السلام عليكم. فأخذوه فقتلوه وأخذوا تلك الغنيمة، فنزلت:{ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}"[2].

والثاني: ان القاتل كان من اصحاب النبي-ﷺ-، والمقتول كان رجلا من بني سليم. وهذا قول ابن عباس في رواية عكرمة[3].

روي عن عكرمة عن ابن عباس، قال: "مر رجل من بنى سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم له فسلم عليهم، قالوا ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم، فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}"[4].

---

[1] سوف يأتي تخريجه.

[2] أخرجه البخاري(٤٥٩١):ص٨/٢٥٨، ومسلم(٣٠٢٥):ص٤/ ٢٣١٩ صحيح.

[3] سوف يأتي تخريجه.

[4] أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه(٨٩٩٠، ٨٩٩١):ص١٠/ ١٢٥، و(١٤٠٥١، ١٤٠٥٢):ص ١٢/ ٣٧٧، ٣٧٧، ٣٧٨، ومسنده؛ كما في "إتحاف الخيرة المهرة(٧٦٢٦):ص ٨/ ٥٩، وأحمد بن منيع في "مسنده"؛ كما في "إتحاف الخيرة المهرة(٧٦٢٧):ص٨/ ٥٩، وأحمد(٢٠٢٣):ص١/٢٢٩، و(٢٤٦٢):ص١/٢٧٢، و(٢٩٨٧):ص ١/٣٢٤، وعبد بن حميد في "تفسيره" -وعنه الترمذي (٣٠٣٠):ص٥/ ٢٤٠، والطبري(١٠٢١٧):ص٩/٧٦، وابن حبان في "صحيحه" (٤٧٥٢):ص١١/ ٥٩ "إحسان"، والطبراني في "المعجم الكبير"(١١٧٣١):ص١١/ ٢٢٢، والواحدي في "أسباب النزول" ١٧١، والحاكم في "المستدرك" :٢/ ٢٣٥، والبيهقي :٩/ ١١٥، جميعهم من طريق إسرائيل عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس.

وهذا سند ضعيف؛ فيه سماك بن حرب؛ صدوق، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأخرة؛ فكان ربما يلقن، لكن توبع على أصل القصة عند البخاري ومسلم في الحديث السابق.

والثالث: أن القاتل كان من أصحاب رسول الله-ﷺ-، والمقتول كان رجلا من غطفان اسمه مرداس. وهذا قول قتادة[١]، وجابر[٢]،وروي عن ابن عباس نحو ذلك[٣].

قال قتادة:" وهذا الحديث في شأن مرداس ، رجل من غطفان ، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ بعث جيشًا عليهم غالب اللَّيثي إلى أهل فَدَك ، وبه ناس من غطفان ، وكان مرداس منهم ، ففرّ أصحابه ، فقال مرداس : " إني مؤمن وإنيّ غيرُ مُتَّبعكم ، فصبَّحته الخيلُ غُدْوة، فلما لقوه سلم عليهم مرداس ، فرماه أصحاب رسول الله ﷺ فقتلوه ،وأخذوا ما كان معه من متاع ، فأنزل الله جل وعز في شأنه : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}، لأن تحية المسلمين السلام ، بها يتعارفون ، وبها يُحَيِّي بعضهم بعضًا"[٤].

والرابع: أن القاتل كان رجلا من المسلمين والمقتول كان رجلا من المشركين. وهذا قول الحسن[٥]، وقتادة في رواية معمر[٦].

عن مبارك عن الحسن، قال:"أن أناسا من أصحاب رسول الله ﷺ ذهبوا يتطرقون فلقوا أناسا من العدو، فحملوا عليهم، فهزموهم، فشد منهم رجل فتبعه رجل يريد متاعه، فلما غشيه بالسنان قال: إني مسلم إني مسلم، فأوجزه بالسنان فقتله، وأخذ متبعيه، قال: فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للقاتل: أقتلته بعد ما قال إني مسلم؟ قال: يا رسول الله: قالها متعوذا. قال: شققت قلبه؟ قال: لم يا رسول الله؟ قال: لتعلم أصادقا هو أو كاذبا. قال: وكنت عالما ذلك يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: إنما كان يعبر عنه لسانه، إنما كان يعبر عنه لسانه. قال: فما لبث القاتل أن مات فحفر له أصحابه فأصبح وقد وضعته الأرض، ثم عادوا فحفروا له فأصبح وقد وضعته الأرض إلى جنب قبره. قال الحسن: فلا أدري كم قال أصحاب رسول الله ﷺ كم دفناه مرتين أو ثلاثة كل ذلك لا تقبله الأرض، فلما رأينا الأرض لا تقبله أخذنا برجليه فألقيناه في بعض تلك الشعاب، فأنزل الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا}، أهل الإسلام إلى آخر الآية. قال الحسن: أما والله ما ذاك إلا بكون الأرض تجن من هو شر منه، ولكن وعظ الله القوم ألا يعودوا"[٧].

والخامس: أن القاتل كان محلم بن جثامة بن قيس، والمقتول كان عامر الأشجعى. وهذا قول عبدالله بن ابي حدرد[٨]، وابن عمر[١].

قال الترمذي: "هذا حديث حسن"، وفي "تفسير القرآن العظيم" (١/ ٥٥١): "حديث حسن صحيح".

وقال الحاكم: "صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وقال ابن كثير: "وهذا خبر عندنا صحيح سنده".

وسكت عنه الحافظ في "فتح الباري" (٨/ ٢٥٨).

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٣٢)، وزاد نسبته لابن المنذر.

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٢٠):ص٩/٧٧-٧٨.

[٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٢٨):ص٣/١٠٤٠.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٢١٩):ص٩/٧٦-٧٧.

[٤] أخرجه الطبري(١٠٢٢٠):ص٩/٧٧-٧٨.

[٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٢٤):ص٣/١٠٣٩.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٢٢):ص٩/٧٩.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٢٤):ص٣/١٠٣٩.

[٨] سوف يأتي تخريجه.

عن القعقاع بن عبد الله بن أبى حدرد ، عن أبيه عبد الله بن أبى حدرد قال: "بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم فخرجت فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعى ومحلم بن جثامة بن قيس فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر الأشجعى على قعود له متيع ومعه وطب من لبن فلما مر بنا سلم علينا فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله بشىء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتيعه فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}"[٢].

والسادس: أن القاتل كان المقداد بن الأسود، والمقتول كان رجلا من المشركين.

عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "بعث رسول الله - ﷺ - سرية فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم؛ وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله؛ فأهوى إليه المقداد، فقتله؛ فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً يشهد أن لا إله إلا الله؟! لأذكرنَّ ذلك للنبي - ﷺ -، فلما قدموا على النبي - ﷺ -؛ قالوا: يا رسول الله! إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال: "ادع لي المقداد، يا مقداد! أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟ "؛ فأنزل الله -تبارك وتعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ

---

[١]أخرجه ابن إسحاق في "المغازي"؛ كما في "فتح الباري" ٨/ ٢٥٩،ومن طريقه الطبري في تفسيره(١٠٢١١):ص٩/٧٢-٧٣، عن نافع عن ابن عمر به، وسنده ضعيف؛ ابن إسحاق مدلس، وقد عنعنه.

[٢]أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه":(١٨٨٥٩):ص ١٤/ ٥٤٧، و"مسنده"؛ كما في "إتحاف الخيرة المهرة: (٧٦٢٩):ص٨/ ٦٠ ، وابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٢/ ١٣٣ - معلقاً)، وأحمد (٢٤٣٧٨):ص ٦/ ١١، والطبري (١٠١٢):ص٩/٧٣-٧٤، والخرائطي في "مكارم الأخلاق" ٧٢٩):ص٢/ ٦٧٩، وابن الجارود في "المنتقى" (٣/ ٩٢/٧٧٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" : (٥٨٢٦، ٥٨٢٧):ص٣/ ١٠٤٠ ، وأبو القاسم البغوي في "معجم الصحابة" (١٦٥٤):ص٤/ ١٣٦ - ١٣٧ -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول:١٧٣-١٧٤، والطبراني؛ كما في "مجمع الزوائد" (٧/ ٨)، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٣/ ١٣٥٨ رقم (٣٤٢٦، ١٦٢٤، ١٦٢٥)، رقم(٤٠٨٨، ٤٠٨٩)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٩/ ١١٥)، و"دلائل النبوة" (٤/ ٣٠٥، ٣٠٦) جميعهم من طريق ابن إسحاق -وهذا في "مغازيه" (٤/ ٢٧٥ - ابن هشام) -: ثنا يزيد بن عبد الله بن قسيط عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد عن أبيه به.

وهذا سند حسن -إن شاء الله-؛ فيه القعقاع؛ روى عنه ثقتان هما: يحيى بن سعيد الأنصاري، ويزيد بن عبد الله، ووثقه ابن حبان في "الثقات" (٣/ ٣٤٩)، بل قال أبو حاتم والبخاري: له صحبة قلنا: ولا يصح، وألمح أبو حاتم في "الجرح والتعديل" (٧/ ١٣٦) إلى أنه ليس من الضعفاء بل ممن يقبل حديثهم.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٣٣)، وزاد نسبته لابن المنذر، وأبي نعيم في "الدلائل"، وعبد بن حميد.

وسكت عنه الحافظ في "الفتح" (٨/ ٢٥٩)، وأشار إلى ثبوته بقوله: "وهذه عندي قصة أخرى، ولا مانع أن تنزل الآية في الأمرين معاً".

وقال شيخه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٨): "رواه أحمد والطبراني؛ ورجاله ثقات".

وهذا شاهد لرواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما المتقدمة، ووجه الشبه بينهما كون المقتول من سليم (وأشجع من سليم) ووجود الغنيمات في كل.

لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا}؛ فقال رسول الله - ﷺ - للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل»"(١).

والسابع: أن القاتل كان أسامة بن زيد، والمقتول كان مرداس بن نهيك. وهذا قول السدي.

قال السدي:" بعث رسول الله ﷺ سرية عليها أسامة بن زيد إلى بني ضَمْرة ، فلقوا رجلا منهم يدعى مِرداس بن نهيك ، معه غُنَيْمة له وجمل أحمر. فلما رآهم أوى إلى كهف جبل ، واتّبعه أسامة. فلما بلغ مرداسٌ الكهفَ ، وضع فيه غنمه ، ثم أقبل إليهم فقال :السلام عليكم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله. فشدّ عليه أسامة فقتله ، من أجل جمله وغُنَيْمته. وكان النبي ﷺ إذا بعث أسامة أحبَّ أن يُثْنَى عليه خيرٌ ، ويسأل عنه أصحابَه. فلما رجعوا لم يسألهم عنه ، فجعل القوم يحدِّثون النبي ﷺ ويقولون : يا رسول الله ، لو رأيت أسامة ولقيه رجل ، فقال الرجل : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله، فشد عليه فقتله! وهو معرض عنهم. فلما أكثروا عليه ، رفع رأسه إلى أسامة فقال : كيفَ أنت ولا إله إلا الله ؟ قال : يا رسول الله ، إنما قالها متعوذًا ، تعوَّذ بها!. فقال له رسول الله ﷺ : هَلا شققت عن قلبه فنظرت إليه ؟ قال : يا رسول الله ، إنما قلبه بَضْعة من جسده! فأنزل الله عز وجل خبر هذا، وأخبره إنما قتله من أجل جمله وغنمه ، فذلك حين يقول : {تبتغون عرض الحياة الدنيا}، فلما بلغ : {فمنَّ الله عليكم}، يقول : فتاب الله عليكم ، فحلف أسامةُ أن لا يقاتل رجلا يقول :لا إله إلا الله، بعد ذلك الرجل ، وما لقي من رسول الله ﷺ فيه"(٢).

وفي السياق نفسه: روي عن أبي ظبيان، قال: "سمعت أسامة بن زيد يحدث، قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، من جهينة، قال: فصبحناهم، فقاتلناهم، فكان منهم رجل، إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا، وإذا أدبروا كان حاميتهم، قال: فغشيته، أنا ورجل من الأنصار، قال: فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري، وقتلته، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذا من القتل، فكررها علي، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ"(٣).

---

(١) أخرجه البخاري –معلقاً بصيغة الجزم–: (٦٨٦٦):ص١٢/ ١٨٧ ، ووصله البزار في "مسنده" :(٢٢٠٢): ص٣/ ٤٥ – "كشف"، والطبراني في "المعجم الكبير" : ١٢٣٧٩):ص١٢/ ٣٠، ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة":ص ١٠/ ١٤٧-١٤٨ – ١٥٠ ، ومن طريقه الحافظ ابن حجر في "تغليق التعليق" (٥/ ٢٤٢ – ٢٤٣) –، والدارقطني في "الأفراد"؛ كما في "فتح الباري" (١٢/ ١٩٠) –ومن طريقه الحافظ في "تغليق التعليق" (٥/ ٢٤٣) –، وبحشل في "تاريخ واسط" (ص ١٧٨) جميعهم من طريق أبي بكر بن علي بن عطاء بن مقدم ثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قال البزار: "لا نعلمه يروى إلا عن ابن عباس، ولا له عنه إلا هذا الطريق".

وقال الدارقطني: "هذا حديث غريب من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس، تفرد به حبيب بن أبي عمرة، وتفرد به أبو بكر بن علي بن مقدم، وهو أخو عمر بن علي؛ وأبو بكر هذا والد محمد، وهو غريب الحديث".

(٢) أخرجه الطبري(١٠٢٢١):ص٩/٧٨-٧٩.

(٣)– وفي رواية: "بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية، إلى الحرقات، فنذروا بنا فهربوا، فأدركنا رجلا، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فضربناه حتى قتلناه، فعرض في نفسي من ذلك شيء، فذكرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟! قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها مخافة السلاح والقتل. فقال: ألا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟! قال: فما زال يقول ذلك حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ".

وذكر مقاتل نحو هذه القصة فقال:" وذلك أن النبي- ﷺ- بعث سرية، وبعث عليها غالب بن عبد الله الليثي أخا ثميلة بن عبد الله. فلما أصبحوا رأوا رجلا يسمى مرداس بن عمرو بن نهيك العنسي من بني تيم بن مرة من أهل فدك معه غنيمة له، فلما رأى الخيل ساق غنيمته حتى أحرزها في الجبل- وكان قد أسلم من الليل وأخبر أهله بذلك- فلما دنوا منه كبروا فسمع التكبير فعرفهم فنزل إليهم. فقال: سلام عليكم، إني مؤمن. فحمل عليه أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي من بني عبدود، فقال مرداس: إني منكم أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. فطعنه أسامة برمحه فقتله وسلبه وساق غنمه. فلما قدم المدينة أخبر أسامة النبي- ﷺ. فلامه النبي ملامة شديدة. فقال النبي- ﷺ- قتلته وهو يقول لا إله إلا الله؟ قال: إنما قال ذلك أراد أن يحرز نفسه وغنمه؟ فقال النبي- ﷺ-: أفلا شققت عن قلبه فتنظر صدق أم لا؟ قال يا رسول الله: كيف يتبين لي؟ وإنما قلبه بضعة من جسده فقال: فلا صدقته بلسانه ولا أنت شققت عن قلبه فيبين لك. فقال: استغفر لي يا رسول الله. قال: فكيف لك بلا إله إلا الله يقول ذلك ثلاث مرات. فاستغفر له النبي- ﷺ- الرابعة. قال أسامة في نفسه: وددت أني لم أسلم حتى كان يومئذ فأمره النبي- صلى الله عليه سلم- أن يعتق رقبة. قال مقاتل- رحمه الله-: فعاش أسامة زمن أبي بكر وعمر وعثمان- رضي الله عنهم- حتى أدرك علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- فدعاه علي- رحمه الله- إلى القتال. فقال أسامة: ما أحد أعز علي منك، ولكن لا أقاتل مسلما بعد قول النبي- ﷺ: كيف لك بلا إله إلا الله؟ فإن أتيت بسيف إذا ضربت به مسلما، قال السيف: هذا مسلم. وإن ضربت به كافرا، قال لي: هذا كافر، قاتلت معك. فقال له علي: اذهب حيث شئت. فانزل الله- عز وجل-: {يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله}"[1]. أي: في قتل أسامة مرداس.

والثامن: أن القاتل كان أبو الدرداء، والمقتول كان رجلا من المشركين. وهذا قول ابن زيد.

عن ابن وهب، قال ابن زيد :" نزل ذلك في رجل قتله أبو الدرداء، فذكر من قصة أبي الدرداء ، نحو القصة التي ذكرت عن أسامة بن زيد ، وقد ذكرت في تأويل قوله :{وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ} ،ثم قال في الخبر : ونزل الفرقان : {وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ}، فقرأ حتى بلغ : {لست مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدنيا}، غنمه التي كانت ، عرض الحياة الدنيا ،{فعند الله مغانم كثيرة}، خير من تلك الغنم ، إلى قوله :{إن الله كان بما تعملون خبيرًا}[2].

- وفي رواية: "بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلا، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟! قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فمازال يكررها علي، حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.

قال: فقال سعد: وأنا والله، لا أقتل مسلما حتى يقتله ذو البطين، يعني أسامة، قال: قال رجل: ألم يقل الله: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ؟ فقال سعد: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة".

أخرجه أحمد(٢٢٠٨٨):ص٥/٢٠٠، و(٢٢١٤٥):ص٥/٢٠٧، والبخاري(٤٢٦٩):ص٥/١٨٣، و(٦٨٧٢):ص٩/٤، ومسلم(١٩٠)، (١٩١):ص١/٦٧-٦٨، وأبو داود(٢٦٤٣)، والنسائي في"الكبرى"(٨٥٤٠)، (٨٥٤١).

[1] تفسير مقاتل بن سليمان: ١/٣٩٨-٣٩٩.

[2] أخرجه الطبري(١٠٢٢٥):ص٩/٨٠.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [النساء : ٩٤]، أي:" يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقرُّوا بما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند الله"[١].

قال ابن عباس:" ما في القرآن آية {يا أيها الذين آمنوا}، إلا أن عليا شريفها وأميرها وسيدها، وما من أصحاب محمد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب فإنه لم يعاتب في شيء منه"[٢].

وقال الأعمش عن خيثمة:" ما تقرأون من القرآن {يا أيها الذين آمنوا}، فإن في التوراة "يا أيها المساكين"[٣].

وروي أن "رجلا أتى عبد الله ابن مسعود فقال: أعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا}، فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٤].

قوله تعالى:{إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء : ٩٤]، "أي: إذا خرجتم في الأرض مجاهدين في سبيل الله "[٥].

قال مقاتل:" يعني: سرتم غزاة في سبيل الله"[٦].

قال ابو السعود:" أي سافرتم في الغزو"[٧].

قوله تعالى:{فَتَبَيَّنُوا} [النساء : ٩٤]، أي:" فكونوا على بينة مما تأتون وتتركون"[٨].

قال الزمخشري:" أى: اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تتهوكوا فيه من غير روية"[٩].

قال ابو السعود:" ى فاطلبوا بيان الأمر في كل ما تأتون وما تذرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية"[١٠].

وقرئ: «فتثبتوا»، وهما من التفعل بمعنى الاستفعال[١١].

قال السعدي:" يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة. فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة. فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرور عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبين له حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال غيره، ظنا أنه يستكفي بذلك قتلهم، وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فلهذا عاتبهم بقوله: {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا}"[١٢].

---

[١] تفسير الطبري:٧/٥٩.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٨٩):ص٣/٧١٨.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٩٠):ص٣/٧١٨.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٩١):ص٣/٧١٨.

[٥] التفسير الميسر:٩٣.

[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٠٠.

[٧] تفسير ابي السعود:٢/٢١٨.

[٨] التفسير الميسر:٩٣.

[٩] الكشاف:١/٥٥٢.

[١٠] تفسير ابي السعود:٢/٢١٨.

[١١] انظر: الكشاف:١/٥٥٢.

[١٢] تفسير السعدي:١٩٤.

قوله تعالى:{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء : ٩٤]، "أي: ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً"[١].

قال مقاتل:" يعني: مرداس وذلك أنه قال لهم: السلام عليكم إني مؤمن"[٢].

قال ابن عباس:" حرم الله على المؤمنين أن يقولوا لمن يشهد أن لا إله إلا الله لست مؤمنا، كما حرم عليهم الميتة فهو آمن على ماله ودمه، فلا تردوا عليه قوله"[٣].

قال الزمخشري:" السلم، والسلام، هما الاستسلام. وقيل: الإسلام. وقيل: التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام لست"[٤].

وقرئ: «السلم»[٥].

وقرئ :«مؤمنا»، بفتح الميم من آمنه، أى لا نؤمنك[٦].

قوله تعالى:{تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [النساء : ٩٤]، أي:" طالبين بذلك متاع الحياة الدنيا"[٧].

قال ابن عباس:"تلك الغنيمة"[٨]. وروي عن سعيد بن جبير[٩]، ومسروق[١٠] نحو ذلك. ذلك.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس ايضا:" تقتلونه إرادة أن يحل لكم ماله الذي وجد معه، وذلك عرض الدنيا"[١١].

قال مقاتل:" يعني: غنم مرداس"[١٢].

قال الزمخشري:أي:" تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاد، فهو الذي يدعوكم إلى ترك التثبت وقلة البحث عن حال من تقتلونه"[١٣].

قوله تعالى:{فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ} [النساء : ٩٤]، أي:" والله تعالى عنده من الفضل والعطاء ما يغنيكم به"[١٤].

قال ابن عباس:" فإن عندي مغانم كثيرة، فالتمسوا من فضل الله"[١٥].

قال سعيد بن جبير:" فعند الله مغانم كثيرة هي أحل لكم من هذا"[١٦].

---

[١] صفوة التفاسير:٢٧٢.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٠/١.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٢٩):ص١٠٤٠/٣.

[٤]الكشاف:٥٥٢/١.

[٥] انظر: الكشاف:٥٥٢/١.

[٦] انظر: الكشاف:٥٥٢/١.

[٧] التفسير الميسر:٩٣.

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٣٠):ص١٠٤١/٣.

[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٣٠):ص١٠٤١/٣.

[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٣٠):ص١٠٤١/٣.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٣١):ص١٠٤١/٣.

[١٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٠/١.

[١٣] الكشاف:٥٥٢/١-٥٥٣.

[١٤] التفسير الميسر:٩٣.

[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٣٢):ص١٠٤١/٣.

[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٣٣):ص١٠٤١/٣.

قال مقاتل:"في الآخرة والجنة"[1].
قال ابن كثير:" أي : خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر إليكم الإيمان ، فتغافلتم عنه ، واتهمتموه بالمصانعة والتقية... ، فما عند الله من المغانم الحلال خير لكم من مال هذا"[2].
قال الزمخشري:أي:"يغنمكموها تغنيكم عن قتل رجل يظهر الإسلام ويتعوذ به من التعرض له لتأخذوا ماله"[3].
قوله تعالى:{كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ} [النساء : ٩٤]، أي:" كذلك كنتم في بدء الإسلام تخفون إيمانكم عن قومكم من المشركين"[4].
قال مقاتل:" يعني: هكذا كنتم من قبل الهجرة بمنزلة مرداس تأمنون في قومكم بالتوحيد من أصحاب النبي- ﷺ- إذا لقوكم، فلا تخيفون أحدا بأمر كان فيكم تأمنون بمثله قبل هجرتكم "[5].
قال ابن كثير:" أي : قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يُسرّ إيمانه ويخفيه من قومه"[6].
قال الزمخشري:أي:" أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة، فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم"[7].
قال السعدي:" أي: فكما هداكم بعد ضلالكم فكذلك يهدي غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئا فشيئا، فكذلك غيركم. فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان - على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه"[8].
وفي قوله تعالى:{كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ} [النساء : ٩٤]، ثلاثة اقوال:
احدهما: معناه: كذلك كنتم من قبل تكتمون الإيمان، خوفا على انفسكم.
قال سعيد بن جبير:" تكتمون، قال: يخفون إيمانكم في المشركين"[9]. وفي رواية اخرى اخرى عنه ايضا:" تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه"[10].
والثاني: معناه: كذلك كنتم من قبل ضلالا.
قال مسروق:" لم تكونوا مؤمنين"[11].
قال ابن زيد:"كفارًا مثله"[12].

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٠٠.
[2] تفسير ابن كثير:٢/٣٨٤.
[3] الكشاف:١/٥٥٣.
[4] التفسير الميسر:٩٣.
[5] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٠٠.
[6] تفسير ابن كثير:٢/٣٨٥.
[7] الكشاف:١/٥٥٣.
[8] تفسير السعدي:١٩٤.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٣٤):ص٣/١٠٤١.
[10] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٣٥):ص٣/١٠٤١.
[11] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٣٦):ص٣/١٠٤١.
[12] أخرجه الطبري(١٠٢٣٠):ص٩/٨٣.

والثالث: ويحتمل أن يكون المعنى إشارة بذلك إلى القتل قبل التثبت، أي على هذه الحال كنتم في جاهليتكم لا تتثبتون، حتى جاء الله بالإسلام ومن عليكم. أفاده ابن عطية[1].

والراجح-والله أعلم- هو القول الاول، أي:" كما كان هذا الذي قتلتموه بعد ما ألقى إليكم السَّلَم ، مستخفيًا في قومه بدينه خوفًا على نفسه منهم ، كنتم أنتم مستخفين بأديانكم من قومكم حذرًا على أنفسكم منهم"[2].

قوله تعالى:{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} [النساء : ٩٤]، أي:" فمَنَّ الله عليكم، وأعزَّكم بالإيمان والقوة"[3].

قال السمعاني:" أي: تفضل الله عليكم"[4].

قال الزمخشري:أي:" بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدم، وإن صرتم أعلاما فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم، وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في المكافة، ولا تقولوا إن تهليل هذا لاتقاء القتل لا لصدق النية، فتجعلوه سلما إلى استباحة دمه وماله وقد حرمهما الله"[5].

وفي قوله تعالى:{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} [النساء : ٩٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أم المعنى: فمنّ الله عليكم بإظهار دينه وإعزاز أهله ، حتى أظهروا الإسلام بعد ما كانوا يكتتمون به من أهل الشرك.

قال سعيد بن جبير:" فأظهر الإسلام"[6]، وفي روياة اخرى:" فهداكم"[7].

والثاني: معناه: فمن الله عليكم أيها القاتلون الذي ألقى إليكم السلام طلبَ عرض الحياة الدنيا بالتوبة من قتلكم إياه.

قال السدي:" تاب عليكم. فحلف أسامة لا يقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله بعد ذلك الرجل، وما لقي من رسول الله ﷺ فيه"[8].

والثالث: معناه:فمن الله عليكم بالهجرة فهاجرتم. قاله مقاتل بن سليمان[9].

والراجح –والله أعلم-هو قول سعيد بن جبير، والمعنى: إذ"رفع الله ما كنتم فيه من الخوف من أعدائكم عنكم ، بإظهار دينه وإعزاز أهله ، حتى أمكنكم إظهار ما كنتم تستخفون به من توحيده وعبادته ، حِذَارًا من أهل الشرك"[10].

قوله تعالى:{فَتَبَيَّنُوا} [النساء : ٩٤]، أي:" فكونوا على بيِّنة ومعرفة في أموركم"[11].

قال مقاتل:" إذا خرجتم فلا تقتلوا مسلما"[12].

قال سعيد بن جبير:" وعيد من الله مرتين"[1].

---

[1] انظر: المحررالوجيز:٢/٩٧.

[2] تفسير الطبري:٩/٨٢.

[3] التفسير الميسر:٩٣.

[4] تفسير السمعاني:١/٤٦٦.

[5] الكشاف:١/٥٥٣.

[6] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٣٨):ص٣/١٠٤٢.

[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٣٩):ص٣/١٠٤٢.

[8] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٤٠):ص٣/١٠٤٢.

[9] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٠٠.

[10] تفسير الطبري:٩/٨٥.

[11] التفسير الميسر:٩٣.

[12] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٠٠.

قال ابن كثير:"تأكيد لما تقدّم"[٢].
قال الزمخشري:" تكرير للأمر بالتبين ليؤكد عليهم"[٣].
قال ابن عطية:" ثم أكد تبارك وتعالى الوصية بالتبين"[٤].
قال القرطبي: " معنى قوله: {فتبينوا} أي الأمر المشكل، أو تثبتوا ولا تعجلوا، المعنيان سواء، فإن قتله أحد فقد أتى منهياً عنه "[٥].
وقد حذّر الرسول -ﷺ- من التكفير أشد التحذير فقال: "إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما"[٦].
ويروي أبو ذر رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - أنه قال: "لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك"[٧].
قال ابن عبد البر: " فقد باء القائل بذنب كبير وإثم عظيم، واحتمله بقوله ذلك، وهذا غاية في التحذير من هذا القول والنهي عن أن يقال لأحد من أهل القبلة: يا كافر"[٨].
ويقول ابن دقيق العيد: "وهذا وعيد عظيم لمن أكفر أحداً من المسلمين وليس كذلك، وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين، ومن المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث لما اختلفوا في العقائد، فغلظوا على مخالفيهم، وحكموا بكفرهم "[٩].
وفي بيان معنى الحديث قال الحافظ ابن حجر: " والتحقيق أن الحديث سيق لزجر المسلم من أن يقول ذلك لأخيه المسلم ... وقيل: معناه رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره ... فمعنى الحديث: فقد رجع عليه تكفيره، فالراجع التكفير لا الكفر، فكأنه كفَّر نفسه لكونه كفَّر من هو مثله ...وقال القرطبي: .. والحاصل أن المقول له إن كان كافراً كفراً شرعياً، فقد صدق القائل، وذهب بها المقول له، وإن لم يكن رجعت للقائل معرَّة ذلك القول وإثمه"[١٠].
وفي حديث آخر يشبه النبي - ﷺ - تكفير المسلم بأعظم ذنب بعد الشرك بالله، وهو تعمد قتل المؤمن، فيقول: "ومن قذف مؤمناً بكفر فهو كقتله"[١١].
ورمي المسلمين بالكفر باب لشرور عظيمة، لعل أهونها أنه من التنابز بالألقاب الذي نهى الله عنه، قال تعالى: {ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان} [الحجرات: ١١].
قال ابن عبد البر: "هو قول الرجل لأخيه: يا كافر يا فاسق، وهذا موافق لهذا الحديث [الحديث السابق]، فالقرآن والسنة ينهيان عن تفسيق المسلم وتكفيره إلا ببيان لا إشكال فيه"[١٢].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٤١):ص٣/١٠٤٢.
[٢] تفسير ابن كثير:٢/٣٨٥.
[٣] الكشاف:١/٥٥٣.
[٤] المحرر الوجيز:٢/٩٧.
[٥] الجامع لاحكام القرآن:٥/٣٣٩.
[٦]رواه البخاري ح (٦١٠٣)، ومسلم ح (٦٠).
[٧]رواه البخاري ح (٦٠٤٥)، ومسلم ح (٦١).
[٨]التمهيد :١٧/ ٢٢.
[٩]إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام :٤/ ٧٦.
[١٠]فتح الباري (١٠/ ٤٦٦ – ٤٦٧.
[١١]رواه البخاري ح (٦٠٤٧).
[١٢]التمهيد :١٧/ ٢١.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء : ٩٤]، أي:" إن الله تعالى عليم بكل أعمالكم، مطَّلع على دقائق أموركم، وسيجازيكم عليها"[١].

قال البيضاوي:أي:" عالما به وبالغرض منه فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه"[٢].

قال الطبري:" يقول : إن الله كان بقتلكم من تقتلون ، وكَفِّكم عمن تكفُّون عن قتله من أعداء الله وأعدائكم ، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم ذا خبرة وعلم به، يحفظه عليكم وعليهم ، حتى يجازى جميعكم به يوم القيامة جزاءه ، المحسن بإحسانه ، والمسيءَ بإساءته"[٣].
بإساءته"[٣].

قال الزمخشري:" فلا تتهافتوا في القتل وكونوا محترزين محتاطين في ذلك"[٤].

قال ابن عطية:" أعلم أنه خبير بما يعمله العباد، وذلك منه خبر يتضمن تحذيرا منه تعالى، لأن المعنى إن الله كان بما تعملون خبيرا، فاحفظوا نفوسكم، وجنبوا الزلل الموبق بكم"[٥].

قال السعدي:" فيجازي كلا ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم"[٦].
ونياتهم"[٦].

قال مقاتل:" فقال أسامة والله لا أقتل رجلا بعد هذا يقول لا إله إلا الله"[٧].

قال البغوي:" إذا رأى الغزاة في بلد أو قرية شعار الإسلام فعليهم أن يكفوا عنهم، فإن النبي ﷺ كان إذا غزا قوما فإن سمع أذانا كف عنهم، وإن لم يسمع أغار عليهم"[٨].

وقد روي عاصم أن النبي -ﷺ- كان إذا بعث سرية قال: "إذا رأيتم مسجدا أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحدا"[٩].

الفوائد:

١- الحكم بالظاهر، هذه من المسائل العظيمة في مذهب أهل السنة في الحكم على الناس، فلا تكون أحكامهم مبنية على ظنون وأوهام أو دعاوي لا يملكون عليها بينات، وهذه من رحمة الله وتيسيره على عباده ومن باب تكليفهم بما يطيقون ويستطيعون، وكل ما سبق المقصود به الحكم الدنيوي على الشخص بالإسلام أو الكفر، أما الحكم على الحقيقة فلا سبيل إليه، يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله - مبيناً أهمية هذا الأصل وخطورة إهماله: "إن أصل الحكم بالظاهر مقطوع به في الأحكام خصوصاً، وبالنسبة إلى الاعتقاد في الغير عموماً، فإن سيد البشر مع إعلامه بالوحي يجري الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم، وإن علم بواطن أحوالهم، ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ما جرت عليه... ألا ترى إلى باب الدعاوي

---

[١] التفسير الميسر:٩٣.

[٢] تفسير البيضاوي:٩١/٢.

[٣] تفسير الطبري:٧١/٩.

[٤] الكشاف:٥٥٣/١.

[٥] المحرر الوجيز:٩٧/٢.

[٦] تفسير السعدي:١٩٤.

[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٠/١.

[٨] تفسير البغوي:٢٦٩/٢.

[٩]أخرجه أبو داود في الجهاد، باب دعاء المشركين: ٣ / ٤٣٢، وعزاه المنذري للنسائي، والترمذي في السير، باب حدثنا محمد بن يحيى: ٥ / ١٥٥، وقال: هذا حديث حسن غريب، والشافعي: ٢ / ١١٦ (من ترتيب المسند) ، وأخرجه الطبراني في الكبير مطولا. . . انظر: الإصابة لابن حجر: ٤ / ٥٠٠ – ٥٠١، وسعيد بن منصور في السنن: ٢ / ١٤٩ – ١٥٠، والمصنف في شرح السنة: ١١ / ٦٠.

المستند إلى أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر... فلو ادعى أكذب الناس على أصلح الناس لكانت البينة على المدعي، واليمين على من أنكر وهذا من ذلك والنمط واحد، فالاعتبارات الغيبية مهملة بحسب الأوامر والنواهي الشرعية "[١].

قال رسول الله -ﷺ-:"أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله"[٢].

٢- وجوب التبين والتثبت، وعدم التسرع في إصدار الحكم على الناس.

٣-التحذير من التكفير بغير حق، وضرورة الاحتياط في الحكم به، وقد ذكر الفقهاء من شتى المذاهب في كتبهم كتاب المرتد، وبينوا فيه من الأحكام المترتبة على الردة ما يؤكد خطورة التكفير، وضرورة الاحتياط في الحكم به[٣].

قال شيخ الإسلام :"ولهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم، وإن كان ذلك المخالف يكفرهم؛ لأن الكفر حكم شرعي، فليس للإنسان أن يعاقب بمثله"[٤].

٤-في الآية إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى وهي مضرة له، أن يُذَكِّرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها، وقدَّم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيبًا للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

القرآن

{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)} [النساء : ٩٥]

التفسير:

لا يتساوى المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله -غير أصحاب الأعذار منهم- والمجاهدون في سبيل الله، بأموالهم وأنفسهم، فضَّل الله تعالى المجاهدين على القاعدين، ورفع منزلتهم درجة عالية في الجنة، وقد وعد الله كلا من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الأعذار الجنة لِما بذلوا وضحَّوا في سبيل الحق، وفضَّل الله تعالى المجاهدين على القاعدين ثوابًا جزيلا.

سبب النزول:

أ- سبب نزول قوله تعالى:{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ}.

نقل أبو حيان عن سليمان الدمشقي:أنها"نزلت من أجل قوم كانوا إذا حضرت غزاة يستأذنون في القعود والتخلف عن رسول الله ﷺ"[٥].

ب- وفي سبب نزول قوله تعالى: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}، أقوال:

احدها: أنها نزلت في ابن ام مكتوم، وهذا قول البراء بن عازب[٦] ، وزيد بن ثابت[٧]،ابن عباس عباس في إحدى الروايات[٨]، وزيد بن أرقم[١]، عبدالله بن شداد[٢]، وأنس بن مالك[٣]، وقتادة[٤]، وقتادة[٤]، عبدالرحمن بن ابي ليلى[٥]، والسدي[٦].

---

[١] الموافقات:٢/ ٢٧١-٢٧٢.

[٢]رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢). من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

[٣]انظر: دائع الصنائع للكاساني (٧/ ١٣٤)، وفتح القدير لابن الهمام (٦/.

[٤]الرد على البكري لشيخ الإسلام: ١/ ٣٨١.

[٥] البحر المحيط:٣٤/٤.

[٦] سيأتي تخريجه.

[٧] سيأتي تخريجه.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٤٣):ص٩٢/٩-٩٣.

عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما-؛ قال: "لما نزلت: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}؛ دعا رسول الله - ﷺ - زيداً؛ فجاءه بكتف، فكتبها، وشكا ابن أم مكتوم ضرارته؛ فنزلت: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}"[٧].

وعن مروان بن الحكم، أن زيد بن ثابت أخبره:" أن رسول الله ﷺ أملى عليه {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} قال: فجاءه ابن أم مكتوم، وهو يملها علي، فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلا أعمى، فأنزل الله، تبارك وتعالى، على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذي، فثقلت علي، حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله، عز وجل: { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}"[٨].

وعن زيد بن أرقم؛ قال: "لما نزلت: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. . . وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}؛ جاء ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله! أما لي رخصة؟ قال: "لا"، قال ابن أم مكتوم: اللهم إني ضرير؛ فرخص لي؛ فأنزل الله: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}؛ فأمر رسول الله - ﷺ – بكتابتها"[٩].

والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم، وعذا قول ابن عباس[١٠]، ومقاتل[١١].

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} عن بدر والخارجون إلى بدر لما نزلت غزوة بدر، قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله؛ فهل لنا رخصة؟! فنزلت: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}؛ فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر، {وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} درجات منه على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر"[١٢].

---

[١] سيأتي تخريجه.

[٢] انظر: سنن سعيد بن منصور في(٦٨٢):ص٤/ ١٣٦٠، والطبري(١٠٢٤٥):ص٩/٩٣، وذكره السيوطي في الدر:٢/٦٤٢. مرسل صحيح الإسناد.

[٣]انظر: سنن سعيد بن منصور في(٦٨٣):ص٤/ ١٣٦٠. وسنده ضعيف؛ فيه علي بن زيد بن جدعان، لكنه صحيح بما سبق.

[٤]ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٤٣)، ونسبه لابن المنذر. وهو مرسل.

[٥]أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٤/ ٢١٠)، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٤٣)، وزاد نسبته لابن المنذر. إسناده صحيح لكنه مرسل.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٤٧):ص٩/٩٤. وسنده ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف أسباط.

[٧]أخرجه البخاري في صحيحه: (٢٨٣١):ص ٦/ ٤٥، و(٤٥٩٣)، (٤٥٩٤):ص ٨/ ٢٥٩، ٢٦٠،و(٤٩٩٠):ص ٩/ ٢٢، ومسلم في صحيحه: (١٨٩٨):ص٣/ ١٥٠٨- ١٥٠٩، والإمام أحمد الفتح الرباني(٢٤١):ص ١٨/١١٨،والترمذي (٣٠٣١):ص٥/٢٤٠ ، والنسائي وابن حبان في جامع الأصول: ٢/١٠٢، والطبري(١٠٣٣)-(١٠٣٧):ص٩/٨٦-٨٨، وأبو عوانة في فتح الباري: ٨/٢٦١، وابن أبي حاتم وعبد بن حميد في فتح القدير: ١/٥٠٣.

وقد فات السيوطي أن يذكر مسلماً ضمن من خرج الحديث، لما ذكره في "الدر المنثور" (٢/ ٦٣٩)؛ فليستدرك.

[٨]أخرجه أحمد(٢١٩٣٨) :ص٥/١٨٤، والبخاري(٢٨٣٢) :ص٤/٣٠ ، (٤٥٩٢):ص ٦/٥٩، والترمذي(٣٠٣٣)، والنسائي: ٦/٩، وفي "الكبرى":(٤٢٩٢)، (٤٢٩٣). صحيح.

[٩] أخرجه الطبري(١٠٢٣٨):ص٩/٨٩، والطبراني(٥٠٥٣):ص٥/١٩٠. وسنده ضعيف؛ فيه أبو إسحاق السبيعي مدلس، وكان اختلط. وقد عنعن، ولكن الحديث صحيح على كل حال بشواهده المتقدمة.

[١٠] سيأتي تخريجه.

[١١] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٠٠.

[١٢]أخرجه الترمذي في "سننه" (٥/ ٢٤١ رقم ٣٠٣٢)، والنسائي في "التفسير" (١/ ٣٩٩ رقم ١٣٧)، والطحاوي في "المشكل" (٤/ ١٤١ رقم ١٤٩٦)، والطبري في "جامع البيان" (١٠٢٤٢):ص٩/٩٢، والبيهقي في "الكبرى" :٩/ ٤٧، من طريق حجاج من محمد المصيصي عن ابن جريج: أخبرني عبد الكريم سمع مقسماً مولى عبد الله بن الحارث يحدث عن ابن عباس: (فذكره).

وسنده صحيح على شرط البخاري، وقد أخرجه في صحيحه: (٣٩٥٤):ص٨/٢٦٠، و(٤٥٩٥):ص٨/٢٦٠. مختصراً ليس فيه اللفظ المذكور.

وزاد السيوطي نسبته في "الدر المنثور" (٢/ ٦٤١) لابن المنذر.

والثالث: انها نزلت في رجل أعمى. وهذا قول عاصم[1]،وسعيد بن جبير[2].
عن الفَلَتان بن عاصم؛ قال: "كنا عند النبي - ﷺ -، فأُنزل عليه، -وكان إذا أنزل عليه؛ رام بصره، مفتوحة عيناه، وفرغ سمعه وقلبه لما يأتيه من الله-، قال: فكنا نعرف ذلك منه، فقال للكاتب: «اكتب: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. . . وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}»، قال: فقام الأعمى، فقال: يا رسول الله! ما ذنبنا؟ فقلنا للأعمى: إنه ينزل على النبي - ﷺ -، فخاف أن يكون ينزل عليه شيء من أمره؛ فبقي قائماً يقول: أعوذ بالله من غضب رسول الله، قال: فقال النبي - ﷺ -: «اكتب: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}» "[3].
والرابع: أنها نزلت في قوم مرضى. وهذا قول ابن عباس ايضا[4].
عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "هم قوم كانوا على عهد رسول الله - ﷺ - لا يغزون معه؛ لأسقام وأمراض وأوجاع، وآخرون أصحاء لا يغزون معه، وكان المرضى في عذر من الأصحاء"[5].
قوله تعالى:{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} [النساء : ٩٥]، " أي: لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار"[6].
قال الزجاج:" المعنى: لا يستوي القاعدون والمجاهدون إلا أولو الضرر، فإنهم يساوون المجاهدين، لأن الذي أقعدهم عن الجهاد الضرر، والضرر أن يكون ضريرا أو أعمى أو زمنا أو مريضا"[7].
قال مقاتل:{ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}" يعني: عبد الله بن جحش الأسدي، وابن أم مكتوم من أهل العذر"[8].
قال الواحدي:" أي: الأصحَّاء الذين لا علَّة بهم تضرُّهم وتقطعهم عن الجهاد لا يستوي هؤلاء [والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم]"[9].
قال البيضاوي:" أي: لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة. وفائدته تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد في الجهاد رفعا لرتبته وأنفة عن انحطاط منزلته"[10].

---

[1] سيأتي تخريجه.
[2] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٤٤):ص٩/٩٣.
[3]أخرجه ابن أبي شيبة في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية": (٣٩٣٧):ص٨/ ٥٤٦، ٥٤٧ المسندة، و"الإصابة" :٣/ ٢٠٩، و"إتحاف الخيرة المهرة": (٧٦٣٠):ص٨/ ٦٠، ٦١، وأبو يعلى في "المسند" (١٥٨٣):ص٣/ ١٥٦، ١٥٧، وعنه ابن حبان في "صحيحه" (١٧٣٣ - "موارد") -، والطبراني في "المعجم الكبير" (٨٥٦):ص١٨/ ٢٨٠، ٢٨١، والبزار في "مسنده" :(رقم ٢٢٠٣):ص٣/ ٤٥، ٤٦ - "كشف")، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٢/ ٢٨١ رقم ١٠٣٩/ ٥٨ رقم ٢٥٩٣)، والطحاوي في "مشكل الآثار":(١٥٠٣) :ص٤/ ١٤٨، ١٤٩، جميعهم من طريق عبد الواحد بن زياد: ثنا عاصم بن كليب عن أبيه عن الفلتان به.
وهذا سند صحيح؛ رجاله ثقات.
[4] سيأتي تخريجه.
[5]أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٢٧٧٥):ص١٢/ ١٢٨ ، والطحاوي في "مشكل الآثار" :٤/ ١٤٧، والبيهقي: ٩/ ٢٤، من طرق عن أبي عقيل الدورقي عن أبي نضرة عن ابن عباس به.
قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" :٧/ ١٩: "رواه الطبراني من طريقين، ورجال أحدهما ثقات".
قلنا: إسناده صحيح.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٤٢)، وزاد نسبته لعبد بن حميد.
[6] صفوة التفاسير:١٧٣.
[7] معاني القرآن:٢/٩٢-٩٣.
[8] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٠٠.
[9] الوجيز:٢٨٣.
[10] تفسير البيضاوي:٢/٩١.

قال ابن كثير:" فقوله تعالى:{لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } كان مطلقا ، فلما نزل بوحي سريع : { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } صار ذلك مخرجا لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد - من الْعَمَى والعَرَج والمرض - عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم"[١].

والضرر: "المرض، أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها."[٢].

قال الراغب:" والضرر: اسم عام لكل ما يضر بالإنسان في بدنه ونفسه، وعلى سبيل الكفاية عبر عن الأعمى بالضرير.

فإن قيل: كيف يصح حمله على الأمراض النفسية، وقد قال في ذم الكفار: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة : ١٠]؟

قيل: إن الذي عذرهم الله تعالى فيه هو ما لم يكن الإنسان نفسه سببه، وما ذموا به فهو المرض، أي الجهل الذي يكون هو سبب استجلابه من ترك إصغائه إلى الحق، وإهمال نفسه من العادات الجميلة"[٣].

قال الزمخشري:"فإن قلت: معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان، فما فائدة نفى الاستواء؟ قلت: معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد، ليأنف القاعد ويترقع بنفسه عن انحطاط منزلته، فيهتز للجهاد ويرغب فيه وفي ارتفاع طبقته، ونحوه {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر : ٩] ، أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليهاب به إلى التعلم، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم"[٤].

عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال : " «إن بالمدينة أقوامًا ما سِرْتُم من مَسِير ، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه »، قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال:« نعم حبسهم العذر»"[٥].

وقرئت :«غير أولي الضرر»، برفع"الراء"، وهي قراءة ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة، وقرأ نافع والكسائي وابن عامر«غير»، بالنصب[٦].

قوله تعالى:{فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً} [النساء : ٩٥]، "أي فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة"[٧].

قال الطبري:أي:" فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، على القاعدين من أولي الضرر ، فضيلة واحدة وذلك بفضل جهاده بنفسه ، فأما فيما سوى ذلك ، فهما مستويان"[٨].

قال الواحدي:" لأنَّ المجاهدين باشروا الطَّاعة والقاعدين من أهل العذر قصدوها وإن كانوا في الهمَّة والنيَّة على قصد الجهاد فمباشرة الطَّاعة فوق قصدها بالنِّيّة"[٩].

قوله تعالى:{وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [النساء : ٩٥]، " أي: وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضرر لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة"[١٠].

قال الواحدي:أي:" من المجاهدين والقاعدين المعذورين"[١١].

قال قتادة:" وهي الجنة ، والله يؤتي كل ذي فضل فضلَه"[١٢].

قال السدي:" {الحسنى}، الجنة"[١٣].

---

[١] تفسير ابن كثير:٣٨٦/٢.
[٢] الكشاف:٥٥٣/١.
[٣] تفسير الراغب الأصفهاني:١٤٠٧/٣.
[٤] الكشاف:٥٥٤/١.
[٥]صحيح البخاري برقم (٢٨٣٨) والمسند (١٠٣/٣).
[٦] انظر: معاني القرآن للفراء:٤٩٥/١، ومعاني القرآن للأخفش:٢٦٤/١، ومعاني القرآن للزجاج:٩٢/٢، والسبعة في القراءات:٢٣٧.
[٧] صفوة التفاسير:١٧٣.
[٨] تفسير الطبري:٩٥/٩.
[٩] الوجيز:٢٨٣.
[١٠] صفوة التفاسير:١٧٣.
[١١] الوجيز:٢٨٣.
[١٢] أخرجه الطبري(١٠٢٥٣):ص٩٦/٩.
[١٣] أخرجه الطبري(١٠٢٥٤):ص٩٦/٩.

قال الزجاج:" أي: وعد الجنة"[١].

قال ابن كثير:" أي : الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين بل هو فرض على الكفاية"[٢].

قال الزمخشري:أي:" وكل فريق من القاعدين والمجاهدين {وعد الله الحسنى}، أى: المثوبة الحسنى وهي الجنة وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة"[٣].

قال المراغي:" أي ووعد الله كلا ممن جاهد وقعد عن الجهاد عجزا منه مع تمنى القدرة عليه المثوبة الحسنى وهى الجنة، فكل منهما كامل الإيمان مخلص لله فى العمل"[٤].

قال الإمام الشافعي:" فوعد المتخلفين عن الجهاد الحسنى على الإيمان"[٥].

قوله تعالى:{وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء : ٩٥]، "أي: وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم"[٦].

قال ابن جريج:" على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر"[٧].

قال السمعاني:" أراد بالقاعدين هنا: غير أولي الضرر، فضل الله المجاهدين عليهم أجرا عظيما"[٨].

قال الطبري:أي:" وفضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولي الضرر ، أجرًا عظيمًا"[٩].

الفوائد:

١- مدح الله تعالى للمجاهدين، وبيان فضل الجهاد والإنفاق فيه.

٢- بيان فضل الصحابة-رضوان الله عليهم- فالصحابة خير هذه الأمة بلا شك ولكنهم على مراتب بعضهم أفضل من بعض.

٣-في الآية بيان لفضل السابقين إلى الإسلام، والمجاهدين في سبيل الله على غيرهم، وعلى هذا الأساس السابق فضل أهل السنة والجماعة أهل بدر على غيرهم من الصحابة، وقد خصهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه بأفضلية لم يشاركهم فيها غيرهم لما قال: "لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم"[١٠].

وكذلك جاء في السنة تفضيل العشرة على هؤلاء للنص عليهم بأعيانهم بأنهم في الجنة، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير بن العوام، وطلحة بن خويلد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد[١١].

أما الخلفاء الأربعة فهم في المقدمة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا باتباع سنتهم دون غيرهم كما جاء في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: " ...عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي.."[١٢].

---

[١] معاني القرآن:٩٣/٢.

[٢] تفسير ابن كثير:٣٨٨/٢.

[٣] الكشاف:٥٥٤/١.

[٤] تفسير المراغي:١٢٩/٥.

[٥] تفسير الغمام الشافعي:٦٤٦/٢.

[٦] صفوة التفاسير:١٧٣.

[٧] أخرجه الطبري(١٠٢٥٥):ص٩٦/٩-٩٧.

(٨)تفسير السمعاني:٤٦٨/١

.

[٩] تفسير الطبري:٩٦/٩.

[١٠]أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب ٩ج١٠/٥، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب ٣٦ج١٩٤١/٤، وأبو داود في كتاب الجهاد باب ١٠٨ج١٠٨/٣، والترمذي في كتاب التفسير باب ٦١ج٤٠٩/٥، والدارمي في كتاب الرقاق باب فضل أهل بدر ٣١٣/٢، وأحمد في المسند ٨٠/١.

[١١]انظر :سنن الترمذي كتاب المناقب باب ٢٦ج٢٦٤٧/٥، وأبو داود في كتاب السنن باب ٩ج٣٩/٥، وابن ماجة في مقدمة سننه باب ١١ج٤٨/١.

[١٢]أخرجه الترمذي في كتاب العلم باب ١٦ج٢٤٤/٥، وأبو داود في كتاب السنة باب ٦ج٢١٣/٥، وابن ماجة في مقدمة سننه باب ٦ج١٥/١، وأحمد في المسند ج١٢٦/٤، والدارمي في مقدمة سننه باب اتباع السنة ٤٤/١.

وهم على هذا الترتيب في أرجح الأقوال، قال ابن عمر: "كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم"[1].

وقال ابن حجر في تعليقه على هذا الحديث: "وفي هذا الحديث تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر، كما هو المشهور عند جمهور أهل السنة" ثم حكى الخلاف في ذلك وختمه بقوله: "وحديث الباب حجة للجمهور"[2].

وقال الإمام أحمد: "وخير الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر بعد أبي بكر، وعثمان بعد عمر، وعلي بعد عثمان، ووقف قوم على عثمان، وهم خلفاء راشدون مهديون، ثم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الأربعة خير الناس"[3].

وقال ابن الصلاح: "أفضلهم على الإطلاق أبو بكر، ثم عمر، ثم إن جمهور السلف على تقديم عثمان على علي...، وتقديم عثمان هو الذي استقر عليه مذاهب أصحاب الحديث وأهل السنة، وأما أفضل أصنافهم صنفاً، فقد قال أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة، ثم البدريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان. قال ابن الصلاح: وفي نص القرآن تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا إلى القبلتين في قول سعيد بن المسيب.."[4].

وقال ابن حجر: "تقرر عند أهل السنة قاطبة تقديم علي بعد عثمان وتقديم بقية العشرة المبشرة على غيرهم، وتقديم أهل بدر على من لم يشهدها وغير ذلك"[5].

قال الاشعري:" وأجمعوا على أن خير القرون قرن الصحابة، ثم الذين يلونهم على ما قال ﷺ: «خيركم قرني»[6]، وعلى أن خير الصحابة أهل بدر، وخير أهل بدر العشر، وخير العشرة الأئمة الأربعة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي - رضوان الله عليهم"[7].

٤-احتج بهذه الآية المظهرة لفضل المال من قال: إن الغنى أفضل من الفقر وإن متعلقه بها لبين[8].

٥- وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها فإنه نفى التسوية أولا بين المجاهد وغيره ثم صرَّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات، وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم - أحسن لفظا وأوقع في النفس.

القرآن

{دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)} [النساء : ٩٦]

التفسير:

هذا الثواب الجزيل منازل عالية في الجنات من الله تعالى لخاصة عباده المجاهدين في سبيله، ومغفرة لذنوبهم ورحمة واسعة ينعمون فيها. وكان الله غفورًا لمن تاب إليه وأناب، رحيمًا بأهل طاعته، المجاهدين في سبيله.

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب ٤ج١٩١/٤، وانظر سنن أبي داود كتاب السنة باب ٨ج٢٤/٥، والترمذي كتاب المناقب باب ١٩ج٦٢٩/٥.

[2] انظر فتح الباري ١٦/٧، ٣٤.

[3] رسالة السنة:٨٧.

[4] علوم الحديث :٢٦٨، ٢٦٩.

[5] فتح الباري ٥٨/٧.

[6] الحديث أخرجه النسائي بهذا اللفظ من رواية عمران بن حصين في كتاب الأيمان والنذور باب الوفاء بالنذر ١٧/٧، وأخرجه البخاري من رواية عبد الله بن مسعود بلفظ: "خير الناس قرني" ومن رواية عمران بن حصين "خير أمتي قرني". (انظر البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي باب ١ج١٨٩/٤، ومسلم فضائل الصحابة باب ٥٢ج١٩٦٢/٤، وأبو داود في كتاب السنة باب ١٠ج٤٤/٥، والترمذي في كتاب الفتن باب ٤٥ج٥٠٠/٤.

[7] رسالة إلى أهل الثغر بباب الابواب، الإجماع السادس والاربعون:ص١٧٠، ذهب الأشعري إلى هذا التفضيل كما سبقه غيره إليه أخذاً من مفهوم القرآن والسنة.

[8] انظر: المحرر الوجيز:٩٨/٢.

قوله تعالى:{دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً} [النساء : ٩٦]، أي:" هذا الثواب الجزيل منازل عالية في الجنات من الله تعالى لخاصة عباده المجاهدين في سبيله، ومغفرة لذنوبهم، ورحمة واسعة ينعمون فيها"[١].

قال الطبري:أي:" فضائل منه ومنازل من منازل الكرامة، وصفح لهم عن ذنوبهم ، فتفضل عليهم بترك عقوبتهم عليها، ورأفة بهم "[٢].

قال الواحدي:" أَيْ: منازلَ بعضُها فوقَ بعضٍ من منازل الكرامة"[٣].

قال سعيد بن جبير:"يعني: فضائل ورحمة"[٤]. وقال أيضا:" درجة: يعني: فضيلة"[٥].

وختلف في تفسير قوله تعالى:{دَرَجَاتٍ مِنْهُ} [النساء : ٩٦]، على أقوال:

أحدها: أن:"الإسلام درجة، والهجرة درجة، والقتل في سبيل الله درجة". وهذا قول قتادة[٦].

والثاني: أنه عنى بذلك درجات الجنة. وهذا قول ابن محيريز[٧].

قال ابن محيريز:" الدرجات: سبعون درجة ، ما بين الدرجتين حُضْرُ الفرس الجواد المُضَمَّر سبعين سنة "[٨].

والثالث: قال ابن زيد: " «الدرجات»: هي السبع التي ذكرها في سورة براءة:{مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ}، فقرأ حتى بلغ: {أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[سورة التوبة : ١٢٠ - ١٢١]. قال : هذه السبع الدرجات. قال : وكان أول شيء ، فكانت درجة الجهاد مُجْملة ، فكان الذي جاهد بماله له اسمٌ في هذه ، فلما جاءت هذه الدرجات بالتفصيل أخرج منها ، فلم يكن له منها إلا النفقة ، فقرأ : {لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ}، وقال : ليس هذا لصاحب النفقة. ثم قرأ : {وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً}، قال : وهذه نفقة القاعد"[٩].

واالصواب -والله أعلم- " أن يكون معنيًّا به: درجات الجنة ، كما قال ابن محيريز، لأن قوله تعالى ذكره : {درجات منه}: ترجمة وبيان عن قوله :{أجرًا عظيمًا}، ومعلوم أن «الأجر» ، إنما هو الثواب والجزاء"[١٠].

قال ابن عطية:" ودرجات الجهاد لو حصرت أكثر من هذه، لكن يجمعها بذل النفس والاعتمال بالبدن والمال في أن تكون كلمة الله هي العليا، ولا شك أن بحسب مراتب الأعمال ودرجاتها تكون مراتب الجنة ودرجاتها، فالأقوال كلها متقاربة، وباقي الآية وعد كريم وتأنيس"[١١].

واختلف في موضع نصب قوله تعالى:{دَرَجَاتٍ} [النساء : ٩٦]، على قولين[١٢]:

أحدهما، أن قوله: {دَرَجَاتٍ}، في موضع نصب بدلا من قوله:{أَجْرًا عَظِيمًا}[النسساء:٩٥]، وهو مفسر للآخر، المعنى: فضل الله المجاهدين درجات ومغفرة ورحمة.

والثاني: أن يكون{دَرَجَاتٍ} منصوباً على إضمار فعل على أن تون توكيدا لـ:{أَجْرًا عَظِيمًا}[النسساء:٩٥]، كما تقول: لك علي ألف درهم عرفا، كأنك قلت أعرفها عرفا، لأن الأجر العظيم هو رفع الدرجات من اللَّه جلَّ وعزَّ والمغفرة والرحمة، وكأنه قيل: غفر اللَّه لهُمْ مغفرة، وأجَرهم أجراً عظيماً، لأن قوله: {أَجْرًا عَظِيمًا}، فيه معنى «غَفَر ورَحِمَ وفَضَّل».

---

[١] .التفسير الميسر:٩٤

[٢] تفسير الطبري:٩٧/٩، ٩٩.

[٣] الوجيز:٢٨٢.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٥٨):ص١٠٤٤/٣.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٥٢):ص١٠٤٤/٣.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٥٩):ص١٠٤٥/٣.

[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٥٧):ص١٠٤٥/٣.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٥٧):ص١٠٤٥/٣.

[٩] أخرجه الطبري(١٠٢٥٦):ص٩٧/٩-٩٨.

[١٠] تفسير الطبري:٩٨/٩.

[١١] المحرر الوجيز:٩٨/٢.

[١٢] انظر: معاني القرآن للزجاج:٩٣/٢-٩٤، والمحرر الوجيز:٩٨/٢

عن أبي سعيد الخدري قال: "قال رسول الله ﷺ: « إن في الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»"[١].

وعن عبد الله بن مسعود قال : "قال رسول الله ﷺ : «من بلغ بسهم فله أجره درجة»، فقال رجل : يا رسول الله ، وما الدرجة ؟ فقال : «أما إنها ليست بعتبة أمك ، ما بين الدرجتين مائة عام »"[٢].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ٩٦]، أي:" وكان الله غفورًا لمن تاب إليه وأناب، رحيمًا بأهل طاعته، المجاهدين في سبيله"[٣].

قال سعيد بن جبير:" بفضل سبعين درجة"[٤].

قال الواحدي:" يريد: للفريقين جميعا، للمجاهدين والقاعدين"[٥].

قال الطبري:أي:" ولم يزل الله {غفورًا} لذنوب عباده المؤمنين ، يصفح لهم عن العقوبة عليها {رحيما} بهم ، يتفضل عليهم بنعمه ، مع خلافهم أمره ونهيه ، وركوبهم معاصيه"[٦].

عن ابن عباس في قوله:" {وَكَانَ}، قال: وكذلك كان لم يزل"[٧].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة أن أهل الجنة طوائف متفاوتة، ولهم دَرَجٌ كثيرةٌ، قال تعالى:{ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً} ، وكما قال تعالى: {هم درجاتٌ عند الله} [آل عمران: ١٦٣].

٢-والآية تدل على تفاضل المؤمنين بزيادة الأعمال.

٣-إثبات اسمين من اسماء الله تعالى، وهما:«الغفور»، «الرحيم»، فالـ«غفور»: صيغة مبالغة، يدل على كثرة الغفر لذنوب عباده التائبين- وقد ورد في القرآن الكريم إحدى وتسعين مرة، واسم «الرحيم» يتضمن صفة الرحمة التي تعم عباده المؤمنين فحسب بأن هداهم إلى الإيمان في الدنيا، وهو يثيبهم في الآخرة الثواب الدائم الذي لا ينقطع، إذ يقول سبحانه: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب آية ٤٣]، وأن اقتران اسم«الغفور» باسم«الرحيم» يفيد أنه سبحانه يغفر للمستغفرين والتائبين لأنه واسع الرحمة. بمعنى أنه يغفر لمن تاب إليه وأناب رحمة منه لهذا العبد، لأنه لو لم يرحمه ويتداركه بمغفرته لهلك وخسر. ولهذا يشير قوله تعالى: {قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣]، وقوله: {وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [هود : ٤٧][٨].

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)} [النساء : ٩٧]

التفسير:

إن الذين توفَّاهم الملائكة وقد ظلموا أنفسهم بقعودهم في دار الكفر وترك الهجرة، تقول لهم الملائكة توبيخًا لهم: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ فيقولون: كنا ضعفاء في أرضنا، عاجزين

---

[١] رواه مسلم في صحيحه برقم (١٨٨٤) ، وابن أبي حاتم (٥٨٥٠):ص١٠٤٤/٣، وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه لا من حديث أبي سعيد الخدري برقم (٢٧٩٠).

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٥١):ص١٠٤٤/٣.

[٣] .التفسير الميسر:٩٤

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٦١):ص١٠٤٥/٣.

[٥] التفسير الوسيط للواحدي:١٠٥/٢.

[٦] تفسير الطبري:٩٩/٩.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٦٠):ص١٠٤٥/٣.

[٨] انظر: مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع٤٥:ص٩٤، وع٤٦:ص٧٢-٧٣.

عن دفع الظلم والقهر عنا، فيقولون لهم توبيخا: ألم تكن أرض الله واسعة فتخرجوا من أرضكم إلى أرض أخرى بحيث تأمنون على دينكم؟ فأولئك مثواهم النار، وقبح هذا المرجع والمآب.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: روي عكرمة عن ابن عباس: "أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله -ﷺ-، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل، فأنزل الله : {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}،الآية"[1].

وفي رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس أيضا، قال : "كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم ، فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون:كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا! فاستغفروا لهم، فنزلت : {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ}، الآية ، قال : فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم. قال : فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة ، فنزلت فيهم : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ }[سورة العنكبوت : ١٠] ، إلى آخر الآية ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فحزنوا وأيسوا من كل خير ، ثم نزلت فيهم : {إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }، [سورة النحل : ١١٠] ، فكتبوا إليهم بذلك : إن الله قد جعل لكم مخرجًا، فخرجوا فأدركهم المشركون ، فقاتلوهم حتى نجا من نجا ، وقُتِل من قتل"[2].

والثاني: عن ابن جريج عن عكرمة:" قوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ} إلى قوله: {وَسَاءَتْ مَصِيرًا}؛ قال:نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبي العاص بن مُنبّه بن الحجاج وعلي بن أمية بن خلف، قال : لما خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب وعِيرِ قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأنْ يطلبوا ما نِيل منهم يوم نَخْلة، خرجوا معهم شباب كارهين كانوا قد أسلموا واجتمعوا ببدر على غير موعد ، فقتلوا ببدر كفارًا ، ورجعوا عن الإسلام ، وهم هؤلاء الذين سميناهم"[3]. وروي عن ابن إسحاق نحو ذلك[4].

والثالث: عن ابن جريج ، قال مجاهد : "نزلت هذه الآية فيمن قتل يوم بدر من الضعفاء من كفار قريش"[5].

والرابع: وقال الضحاك:" هم أناس من المنافقين تخلّفوا عن رسول الله ﷺ ، فلم يخرجوا معه إلى المدينة ، وخرجوا مع مشركي قريش إلى بدر ، فأصيبوا يومئذ فيمن أصيب ، فأنزل الله فيهم هذه الآية"[6].

والرابع: وقال قتادة:" حُدِّثنا أن هذه الآية أنزلت في أناس تكلّموا بالإسلام من أهل مكة ، فخرجوا مع عدوِّ الله أبي جهل ، فقتلوا يوم بدر ، فاعتذروا بغير عذر ، فأبى الله أن يقبلَ منهم"[7].

الظاهر-والله أعلم- أن الروايات جميعها متقاربة، وأن " المراد بهذه الآية إلى قوله :{مصيرا}، جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا وأظهروا للنبي ﷺ الإيمان به، فلما هاجر

---

[1]أخرجه البخاري(٤٥٩٦):ص٦٠/٦، والطبرانى في "الأوسط" (٣٦٠):ص٢٣٤/١، و(٧٠٨٥):ص٦٥/٩، والنسائي في "الكبرى" (١١٠٥٤)، والطبري(١٠٢٦١):ص١٠٣/٩-١٠٤، وابن أبي حاتم(٥٨٦٢):ص١٠٤٥/٣. [صحيح]

[2] أخرجه الطبري(١٠٢٦٠):ص١٠٢/٩-١٠٣، وابن أبي حاتم(٥٨٦٣):ص١٠٤٦/٣.

[3]أخرجه الطبري(١٠٢٦٤):ص١٠٥/٩-١٠٦.

[4] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٦٦):ص١٠٦/٩-١٠٧.

[5]أخرجه الطبري(١٠٢٦٤):ص١٠٥/٩-١٠٦. سنده ضعيف جداً؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. الثانية: ابن جريج لم لم يسمع من عكرمة. الثالثة: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف.

[6] أخرجه الطبري(١٠٢٦٨):ص١٠٨/٩.

[7] أخرجه الطبري(١٠٢٦٧):ص١٠٧/٩-١٠٨.

رسول الله ﷺ أقاموا مع قومهم، وفتن منهم جماعة فافتتنوا، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار فقتلوا ببدر، فنزلت الآية فيهم"[١].

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} [النساء : ٩٧]، أي:" إن الذين توفَّاهم الملائكة وقد ظلموا أنفسهم بقعودهم في دار الكفر وترك الهجرة"[٢].

قال الزجاج:" المعنى: تتوفاهم في حال ظلمهم أَنْفُسَهُم، يُعنَى به: المشركون الذين تخلفوا عن الهجرة إلى النبي - ﷺ –"[٣].

قال الزمخشري:" هم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة"[٤].

قوله تعالى:{قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ} [النساء : ٩٧]، " أي: تقول لهم الملائكة في أيّ شيء كنتم من أمر دينكم؟"[٥].

قال مقاتل:" يقول: في أي شيء كنتم"[٦].

قال الزجاج:" أي: قال الملائكة للمشركين: فيم كنتم؟ أي: أكنتم في المشركين أم في أصحاب محمد - ﷺ - ؟ وهذا سؤال توبيخ"[٧].

قال البغوي:" أي: في ماذا كنتم؟ أو في أي الفريقين كنتم؟ أفي المسلمين؟ أم في المشركين؟ سؤال توبيخ وتعيير فاعتذروا بالضعف عن مقاومة أهل الشرك"[٨].

قال السعدي:" أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير، والجهاد مع رسوله، والكون مع المسلمين، ومعاونتهم على أعدائهم. ، [و] هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم"[٩].

قوله تعالى:{قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ} [النساء : ٩٧]، أي:" فيقولون: كنا ضعفاء في أرضنا، عاجزين عن دفع الظلم والقهر عنا"[١٠].

قال الزجاج:" فأعلم الله أنهم كانوا مستضعفين عن الهجرة"[١١].

قال مجاهد:" قالوا كنا مستضعفين بمكة"[١٢].

قال مقاتل:" يعني: كنا مقهورين بأرض مكة لا نطيق أن نظهر الإيمان"[١٣].

قال السعدي:" أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك لأن الله وبخهم وتوعدهم، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقة"[١٤]

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف صح وقوع قوله كنا مستضعفين في الأرض جوابا عن قولهم {فيم كنتم} ؟ وكان حق الجواب أن يقولوا: كنا في كذا أو لم نكن في شيء؟

قلت: معنى {فيم كنتم}، للتوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين، حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا، فقالوا: كنا مستضعفين اعتذارا مما وبخوا به واعتلالا بالاستضعاف،

---

[١] المحرر الوجيز:٩٩/٢.
[٢] التفسير الميسر:٩٤.
[٣] معاني القرىن:٩٤/٢.
[٤] الكشاف:٥٥٥/١.
[٥] التفسير الميسر:٩٤، وصفوة التفاسير:١٧٦.
[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠١/١.
[٧] معاني القرآن:٩٥/٢.
[٨] تفسير البغوي:٢٧٢/٢.
[٩] تفسير السعدي:١٩٥.
[١٠] التفسير الميسر:٩٤.
[١١] معاني القرآن:٩٥/٢.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٦٧):ص١٠٤٧/٣.
[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠١/١.
[١٤] تفسير السعدي:١٩٥.

وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء، فبكتتهم الملائكة بقولهم ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها"[(١)].

قوله تعالى:{قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} [النساء : ٩٧]، أي:" فيقولون لهم توبيخا: ألم تكن أرض الله واسعة فتخرجوا من أرضكم إلى أرض أخرى بحيث تأمنون على دينكم؟"[(٢)].

قال سعيد بن جبير:" قالوا: إذا عمل فيها بالمعاصي فاخرجوا"[(٣)].

قال مقاتل:" يعني أرض الله المدينة {فتهاجروا فيها}؟ يعني إليها"[(٤)].

قال الزمخشري:" أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ كما فعل المهاجرون إلى أرض الحبشة. وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة- حقت عليه المهاجرة"[(٥)].

وعن الحسن عن النبي -ﷺ – قال:" من فر بدينه من أرض -وإن كان شبرا من الأرض- استوجب به الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ﷺ "[(٦)].

قال السدي:" لما أسر العباس وعقيل ونوفل، قال رسول الله ﷺ للعباس: افد نفسك وابني أخيك. قال: يا رسول الله، ألم نصل قبلتك ونشهد شهادتك؟ قال: يا عباس إنكم خاصمتم فخصمتم، ثم تلا عليه هذه الآية :{ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا}"[(٧)].

قوله تعالى:{فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء : ٩٧]، أي:" فأولئك مثواهم النار، وقبح هذا المرجع والمآب"[(٨)].

قال مقاتل:" يعني وبئس المصير صاروا"[(٩)].

قال الثعلبي:" فأكذبهم الله عز وجل وإنما أنهم كانوا مستطيعين الهجرة"[(١٠)].

قال البغوي:" فأكذبهم الله تعالى وأعلمنا بكذبهم، وقال: {فأولئك مأواهم} منزلهم {جهنم وساءت مصيرا} أي: بئس المصير إلى جهنم"[(١١)].

قال السدي:" فيوم نزلت هذه الآية، كان كل من أسلم ولم يهاجر فهو كافر حتى يهاجر"[(١٢)].

قال ابن عطية:" وفي هذا الذي قاله السدي نظر، والذي يجري مع الأصول أن من مات من أولئك بعد أن قبل الفتنة وارتد فهو كافر ومأواه جهنم على جهة الخلود، وهذا هو ظاهر أمر تلك الجماعة وإن فرضنا فيهم من مات مؤمنا وأكره على الخروج، أو مات بمكة فإنما هو عاص في ترك الهجرة، مأواه جهنم على جهة العصيان دون خلود، لكن لما لم يتعين أحد أنه مات على

---

(١) الكشاف:٥٥٥/١.

(٢) التفسير الميسر:٩٤.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٦٨):ص١٠٤٧/٣.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٢/١.

(٥) الكشاف:٥٥٥/١.

(٦) أخرجه الثعلبي في تفسيره مرسلا:٣٧٢/٣، وانظر: الكشاف:٥٥٥/٣١، و تفسير مجمع البيان: ٣/ ١٧٢، وتفسير القرطبي: ٥/ ٣٤٧، وتفسير البيضاوي:٩٢/٢، وتفسير السمعاني:٣٨٨/١، وغيرهم.
قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن. انظر الكافي الشاف (٣/ ٤٦١) .

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٦٩):ص١٠٤٧/٣.

(٨) التفسير الميسر:٩٤.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٢/١.

(١٠) تفسير الثعلبي:٣٧٢/٣.

(١١) تفسير البغوي:٢٧٣/٢.

(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٧٠):ص١٠٤٧/٣.

الإيمان لم يسغ ذكرهم في الصحابة، ولم يعتد بما كان عرف منهم قبل، ولا حجة للمعتزلة في شيء من أمر هؤلاء على تكفيرهم بالمعاصي"[١].
الفوائد:
١-من فوائد الآية الكريمة: أن الهجرة" فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ومن بلد البدعة التي يدعوا أهلها إليها إلى بلد السنة وأنها باقية إلى أن تطلع الشمس من مغربها"[٢]. ومن ذلك قوله تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} [العنكبوت: ٥٦].
وقال الرسول-ﷺ-:"لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها"[٣].
٢-ومن **الفوائد:** النهي عن المقام بين أظهر المشركين، لقوله تعالى: {ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها}، قال الجصاص:" وهذا يدل على الخروج من أرض الشرك إلى أي أرض كانت من أرض الإسلام"[٤].
٣- ومنها: أن من أقام في دار الجهالة ذليلاً مستضعفًا وهو يقدر على الانتقال إلى حيث يخالفها فقد ترك -وفي قول كثير من العلماء- فرضًا واجبًا، لأن الله تعالى قال:{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ...} الآية، فيوعد تارك الهجرة من البلد الذي يكون مستضعفًا فيه، إذا كان قادرًا عليها مثل هذا الوعيد، فثبت أنها فريضة لازمة أيضًا. فإن الهجرة من مكة كانت واجبة قبل الفتح لما كان المسلم يخشاه بها من الفتنة على الفتنة، وأنه كان يعجز من إظهار دينه ولا يتمكن كما ينبغي من عبادة ربه، فأي مسلم حرص له أو مثله في بلد فهو في معنى المسلمين كانوا يومئذ [٥].
أن لهجرة من واجبات الدين، ومن أفضل الأعمال الصالحة، وهي سبب لسلامة دين العبد وحفظ لإيمانه، وهي أقسام:
القسم الأول: هجر المحرمات التي حرمها الله في كتابه وحرمها رسوله -صلى الله عليه وسلم- على جميع المكلفين وأخبر أن من هجرها فقد هجر ما حرمه الله عليه، وقد أخبر -صلى الله عليه وسلم- فيما صح عنه: "المهاجر من هجر ما نهى الله عنه"[٦]، وهذا أمر مجمل شامل لجميع المحرمات القولية والفعلية.
القسم الثاني: الهجرة من كل بلد تظهر فيها شعائر الشرك وأعلام الكفر، ويعلن فيها بالمحرمات. والمقيم فيها لا يقدر على إظهار دينه والتصريح بالبراءة من المشركين وعداوتهم، ومع هذا يعتقد كفرهم وبطلان ما هم عليه؛ لكن إنما جلس بين ظهرانيهم شحا بالمال والوطن، قال أهل العلم: أن هذا عاص ومرتكب محرما، وداخل في حكم الوعيد، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً}[٧].

القرآن

{إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨)} [النساء : ٩٨]

التفسير:

---

[١] المحرر الوجيز:٩٩/٢-١٠٠.
[٢] أصول الدين الإسلامي مع قواعده الاربع، الشيخ محمد بن عبدالوهاب:١٩..
[٣] أخرجه أبو داود: الجهاد (٢٤٧٩) ، وأحمد (٩٩/٤) ، والدارمي: السير (٢٥١٣) ..
[٤] .أحكام القرىن:٢٢٨/٣.
[٥] انظر: المنهاج في شعب الإيمان:١٨٢/٢.
[٦] البخاري: الإيمان (١٠) ، والنسائي: الإيمان وشرائعه (٤٩٩٦) ، وأبو داود: الجهاد (٢٤٨١) ، وأحمد (٢٠٩/١٩٢,٢/٢) ..
[٧] انظر: الإيمان والرد على اهل البدع، الشيخ محمد بن عبدالوهاب:١٣٥.

ويعذر من ذاك المصير العجزة من الرجال والنساء والصغار الذين لا يقدرون على دفع القهر والظلم عنهم، ولا يعرفون طريقًا يخلصهم مما هم فيه من المعاناة.

في سبب نزول الآية والتي وجهان:

أحدهما: قال قتادة:" قوله:{إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}، أناسٌ من أهل مكة عذرهم الله فاستثناهم، فقال : {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}[١]"[٢].

عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن ابن عباس أنه قال : "كنت أنا وأمي ممن عَذَر الله: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}"[٣].

والثاني: روي عن مجاهد في قوله:"{لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}، قال:مؤمنون مستضعفون بمكة ، فقال فيهم أصحاب محمد ﷺ: هم بمنزلة هؤلاء الذين قتلوا ببدر ضعفاء مع كفار قريش. فأنزل الله فيهم:{لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}، الآية"[٤].

قوله تعالى:{إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ} [النساء : ٩٨]، أي:" ويعذر من ذاك المصير العجزة من الرجال والنساء والصغار الذين لا يقدرون على دفع القهر والظلم عنهم"[٥].

قال الثعلبي:" يعني: المؤمنين المخلصين المقهورين بمكة لم يستطيعوا الهجرة ومنعوا من اللحوق بالنبي ﷺ ويتجهزون للحوق به من الرجال والنساء والولدان و{المستضعفين}، نصب على الاستثناء من {مأواهم}"[٦].

قوله تعالى:{لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً} [النساء : ٩٨]، أي:" الذين لا يستطيعون الخلاص"[٧].
الخلاص"[٧].

قال مقاتل:" يقول ليس لهم سعة للخروج إلى المدينة"[٨].

قال عكرمة:" نهوضا إلى المدينة"[٩].

وقال السدي:" حيلة في المال"[١٠].

قال ابن أبي زمنين:" أي: لا قوة لهم فيخرجون من مكة إلى المدينة"[١١].

قال الثعلبي:" لا يقدرون على حيلة ولا قوة ولا نفقة للخروج منها"[١٢].

قوله تعالى:{وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} [النساء : ٩٨]، أي:" ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة"[١٣].

قال عكمرة:" طريقا إليها، يعني: المدينة"[١٤]. وروي عن مجاهد والسدي مثل ذلك.

قال مقاتل:" يعني: ولا يعرفون طريقا إلى المدينة"[١٥].

قال قتادة:" وكان ابن عباس يقول : كنتُ أنا وأمي من الذين { لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}"[١].

---

[١][سورة النساء : ٩٩].

[٢] أخرجه الطبري(١٠٢٦٧):ص١٠٧/٩-١٠٨، وابن ابي حاتم(٥٨٧٦):ص١٠٤٨/٣.

[٣] أخرجه الطبري(١٠٢٧٠):ص١٠٩/٩.

[٤] أخرجه الطبري(١٠٢٧٧):ص١١٠/٩-١١١.

[٥] التفسير الميسر:٩٤.

[٦] تفسير الثعلبي:٣٧٢/٣.

[٧] صفوة التفاسير:٢٧٦.

[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٢/١.

[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٧٣):ص١٠٤٨/٣.

[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٧٤):ص١٠٤٨/٣.

[١١] تفسير ابن ابي زمنين:٤٠١/١.

[١٢] تفسير الثعلبي:٣٧٢/٣.

[١٣] صفوة التفاسير:٢٧٦.

[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٧٥):ص١٠٤٨/٣.

[١٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٢/١.

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال : "بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال : " سمع الله لمن حمده " ثم قال قبل أن يسجد " اللهم نَج عياش بن أبي ربيعة ، اللهم نج سلمة بن هشام ، اللهم نج الوليد بن الوليد ، اللهم نَج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مُضَر ، اللهم اجعلها سنين كسِنِيِّ يوسف"[2].

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة:" أن رسول الله ﷺ رفع يده بعد ما سلم وهو مستقبل القبلة، فقال: «اللهم خلص الوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا من أيدي الكفار»"[3].

الفوائد:

١-يتضح من الآية أن من أصحاب رسول الله ﷺ من لم يهاجر - من غير شك في الدين وتزيين دين المشركين - ولكن محبة للأهل والمال والوطن، قال تعالى: {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً}، فهؤلاء خرجوا من الوعيد فلم يبق شبهة[4].

٢- من لا هجرة عليه، وهو من يعجز عنها: إما لمرض، أو إكراه على الإقامة، أو ضعف من النساء والولدان وشبههم؛ فهذا لا هجرة عليه؛ لقول الله تعالى: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} ، ولا توصف باستحباب؛ لأنها غير مقدور عليها[5].

القرآن

{فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)} [النساء : ٩٩]

التفسير:

فهؤلاء الضعفاء هم الذين يُرجى لهم من الله تعالى العفو؛ لعلمه تعالى بحقيقة أمرهم. وكان الله كثير العفو يتجاوز عن سيئاتهم، ويسترها عليهم.

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ} [النساء : ٩٩]، أي:" فهؤلاء الضعفاء هم الذين يُرجى لهم من الله تعالى العفو"[6].

قال الثعلبي:أي:" فأولئك الذين هم بهذه الصفة، {عسى الله}، أن يتجاوز [عنهم]"[7].

قال ابن كثير:" أي : يتجاوز عنهم بترك الهجرة ، وعسى من الله موجبة"[8].

قال مقاتل:" والـ«عسى» من الله واجب"[9].

قال الزجاج:" و{عَسَى} ترج، وما أمر اللَّه به أن يرجى مِن رحمته فبمنزلة الواقع كذلك الظن بأرحِم الراحمين"[10].

قال السمعاني:" و{عسى} من الله واجب؛ لأنه للإطماع، والله - تعالى - إذا أطمع عبدا أوجب له وأوصله إليه"[11].

قال الراغب:" فذكر لفظ {عسى}، لئلا يركنوا كل الركون، وليكونوا ممن قال فيهم: { وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء : ٥٧] "[12].

---

[1] أخرجه الطبري(١٠٢٦٧):ص٩/١٠٧-١٠٨.

[2] صحيح البخاري (٤٥٩٨).

[3] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٨٧٢):ص٣/١٠٤٨.

[4] انظر: التوحيد والإيمان، الشيخ محمد بن عبدالوهاب:٣٥٨-٣٥٩.

[5] انظر: إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، التويجري:٢/٣٤٢-٣٤٣.

[6] التفسير الميسر:٢٧٦.

[7] تفسير الثعلبي:٣/٣٧٢.

[8] تفسير ابن كثير:٢/٣٩٠.

[9] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٠٢.

[10] معاني القرآن:٢/٩٥.

[11] تفسير السمعاني:١/٤٧٠.

[12] تفسير الراغب الاصفهاني:٣/١٤١٣.

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء : ٩٩]، أي:" وكان الله كثير العفو يتجاوز عن سيئاتهم، ويسترها عليهم"(١).

قال مقاتل:" فلا يعاقبهم لإقامتهم عن الهجرة في عذر"(٢).

قال الراغب:" أخر ذكر الغفران إذ هو أبلغ، وقد تقدم أن الوصفين إذا اجتمعا يقدم الأعم ويؤخر الأخص، تنبيه على أن مثل هذه الصفة ليست على وجه المطابقة، واعتبارا لحصول المعفو عنه والمغفور له، بل ذلك له على وجه أشرف من ذلك"(٣).

وأختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى{وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء : ٩٩]، على أقوال:

أحدها: أن المعنى: كان غفوراً لعباده، عن عباده قبل أن يخلقهم. وهذا قول الحسن(٤).

والثاني: وقال النحويون البصريون: كأنَّ القوم شاهدوا من الله رحمة فأعلموا أن ذلك ليس بحادثٍ، وأنَّ الله لم يزل كذلك(٥).

والثالث: وقال قوم " من النحويين:"كان"، و " فعَلَ " من اللَّه بمنزلة ما في الحال، فالمعنى: والله عفو غفور(٦).

قال الزجاج:" والذي قاله الحسن وغيره أدخل في اللغة، وأشبه بكلام العرب، وأما القول الثالث فمعناه يُؤول إلى ما قاله الحسن وسيبويه، إلا أن يكون الماضي بمعنى الحال يقِل، وصاحب هذا القول له من الحجة قولنا " غفر الله لفُلَانٍ " بمعنى: ليغفر اللَّه له، فلما كان في الحال دليل على الاستقبال وقع الماضي مَؤدياً عنها استخفافاً، لأن اختلاف ألفاظ الأفعال إنما وقع لاختلاف الأوقات، فإذا أُعْلِمت الأحوال والأوقات استُغني بلفظ بعض الأفعال عن لفظ بعض، الدليل على ذلك قوله جلَّ وعزَّ: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } [الأنعام : ١٦٠]، وقوله: {وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان : ٧١]، معناه: من يَتُبْ ومن يجئ بالحسنة يعط عشْر أمثالها"(٧).

الفوائد:

١-إن هذه الآية والتي قبلها قسمت أصناف المهاجرين إلى قسمين:

أولاً: من تجب عليه الهجرة، وهو القادر عليها مع عدم إمكان إظهار دينه، هذا لا بد قيد، لا بد أن يقيد بالوجوب مع عدم إمكان إظهار دينه، وهذا يدل عليه آية النساء التي فيها ({ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}) لأن الله تعالى وصفهم بأنهم ظالمون لأنفسهم في ارتكابهم محرمًا بالإجماع.

الصنف الثاني: من لا هجرة عليه، وهو العاجز المستضعف عن الهجرة، كالمريض أو المكره والولدان والنساء والضعفة لقوله: {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ}. هذا استثناء له حكمه الخاص، لكن يجب عليهم اعتزال المشركين والصبر على أذاهم(٨).

٢-أن هذه الآية وعد من الله عز وجل بالعفو عن هؤلاء المستضعفين، وذلك لعذرهم بعدم الاستطاعة.

٣-ويدخل ضمن هذه الآية من كان في إقامته مصلحة دينية؛ كالدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بلادهم.

٤- قال أهل العلم: إن السفر إلى بلاد الكفار محرم إلا عند الضرورة؛ كالعلاج، والتجارة، والتعلم للتخصصات النافعة التي لا يمكن الحصول عليها إلا بالسفر إليهم؛ فيجوز بقدر الحاجة،

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٦.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٢/١.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني:١٤١٤/٣.

(٤)انظر: معاني القرآن للزجاج: ٩٥/٢

(٥)انظر: معاني القرآن للزجاج: ٩٥/٢-٩٦.

(٦)انظر: معاني القرآن للزجاج: ٩٦/٢

(٧) معاني القرآن:٩٦/٢.

(٨) انظر: شرح الأصول الثلاثة للحازمي:الدرس(١٦): ص٢٤.

وإذا انتهت الحاجة؛ وجب الرجوع إلى بلاد المسلمين، ويشترط كذلك لجواز هذا السفر أن يكون مُظْهِرًا لدينه، معتزًا بإسلامه، مبتعدًا عن مواطن الشر، حذرًا من دسائس الأعداء ومكائدهم[١].

القرآن

{وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)} [النساء : ١٠٠]

التفسير:

ومَن يخرج من أرض الشرك إلى أرض الإسلام فرارًا بدينه، راجيًا فضل ربه، قاصدًا نصرة دينه، يجد في الأرض مكانًا ومتحولا ينعم فيه بما يكون سببًا في قوته وذلة أعدائه، مع السعة في رزقه وعيشه، ومن يخرج من بيته قاصدًا نصرة دين الله ورسوله ﷺ، وإعلاء كلمة الله، ثم يدركه الموت قبل بلوغه مقصده، فقد ثبت له جزاء عمله على الله، فضلا منه وإحسانًا. وكان الله غفورًا رحيمًا بعباده.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: أنها نزلت في رجل اسمه: جندع بن ضمرة بن أبي العاص الجندعي الضمري .

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-:"خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً؛ فقال لأهله: احملوني؛ فأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله - ﷺ -، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي - ﷺ -؛ فنزل الوحي: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ} حتى بلغ: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}"[٢].

وعن عكرمة ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم}، فكان بمكة رجل يقال له: ضمرة، من بني بكر، وكان مريضًا ، فقال لأهله : أخرجوني من مكة ، فإني أجد الحرّ. فقالوا : أين نخرجك ؟ فأشار بيده نحو المدينة ، فنزلت هذه الآية : {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، إلى آخر الآية"[٣].

وقد تعددت الروايات في اسم الرجل، فسماه ابن عباس[٤]، وعكرمة-في إحدى الروايات[٥] برجل من بني ليث اسمه جندب بن ضمرة، وضمرة بن جندب الضمري عند السدي[٦]، وقد وردت تسميته بضمرة بن العيص الزرقي في قول سعيد بن جبير[٧]، وضمرة بن بن العاص الجندعي في قول يزيد بن عبدالله بن قسيط[٨]، وضمرة في قول قتادة[٩]، ووردت

---

[١] انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، صالح بن فوزان:٣١٠.

[٢] أخرجه أبو يعلى في "المسند"(٢٦٧٩):ص ٥/ ٨١ ،ومن طريقه ابن الأثير في "أسد الغابة" :٢/ ٤٤٣، والطبراني في "المعجم الكبير"(١١٧٠٩):ص١١/ ٢١٧، ٢١٨ ،وعنه أبو نعيم في "معرفة الصحابة":(٣٩٢٢):ص٣/ ١٥٤٨، وابن أبي حاتم في "تفسيره"(٥٨٨٩):ص ٣/ ١٠٥١، والواحدي في "أسباب النزول":١٧٨/١-١٧٩؛ وكما في "تخريج أحاديث الكشاف" (١/ ٣٥١، ٣٥٢) كلهم من طريق أشعث بن سوار الكندي عن عكرمة عن ابن عباس به.

وسنده ضعيف؛ أشعث ضعيف؛ كما في "التقريب" (١/ ٧٩)، وانظر: الاستيعاب في بيان الأسباب:٤٨١/١-٤٨٢.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠): "رواه أبو يعلى؛ ورجاله ثقات". وجوّد إسناده السيوطي (لباب النقول: ٧٩) .

[٣] أخرجه الطبري(١٠٢٩٤):ص١١٨/٩، وابن أبي حاتم(٥٨٨٧):ص١٠٥٠/٣. إسناده صحيح.

[٤] انظر: الإصابة: ٢٥١/١. أخرجه ابن منده عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٩١):ص١١٧/٩.[ضعيف جدا]. ووأخرجه الفاكهي في "أخبار مكة" ((٢٣٨٤):ص٤/ ٦٤. ٦٤. [سنده ضعيف]. وروي عن عكرمة تسميته بـ"رجل من بني ليث أحد بني جندع". ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٥٣)، ونسبه لعبد بن حميد. [وهو ضعيف؛ لإرساله].

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٩٠):ص١١٦/٩-١١٧.[ضعيف جدا].

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٩٥):ص١١٨/٩-١١٩. مرسل إسناده جيد.

[٨] انظر: معجم الصحابة، ابن قانع: (٤٧١):ص٢/ ٣١، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٥٣)، وزاد نسبته لابن سعد، وابن المنذر.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٨٥):ص١١٥/٩ إسناده صحيح، لكنه مرسل.

تسميته برجل من بني ضمرة، كما في قول عكرمة[١]، ورجل من بني خزاعة كما في قول علباء بن احمر اليشكري[٢].

ورجح الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - أن اسمه: جندع بن ضمرة بن أبي العاص الجندعي الضمري، أو الليثي[٣].

والثاني: انها نزلت في خالد بن حزام.

عن هشام بن عروة، عن أبيه أن الزبير بن العوام قال: "هاجر خالد بن حزام إلى أرض الحبشة، فنهشته حية في الطريق فمات، فنزلت فيه: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }، قال الزبير: وكنت أتوقعه وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة، فما أحزنني شيء حزني وفاته حين بلغني، لأنه قل أحد من هاجر من قريش إلا معه بعض أهله أو ذي رحمه، ولم يكن معي أحد من بني أسد بن عبد العزى ولا أرجو غيره"[٤]. وروي عن عبدالرحمن الحزامي نحو ذلك[٥].

قال ابن كثير:" وهذا الأثر غريب جدا فإن هذه القصة مكية ، ونزول هذه الآية مدنية ، فلعله أراد أنها أنزلت تعم حكمه مع غيره ، وإن لم يكن ذلك سبب النزول"[٦].

والثالث: وروي عن ابن عباس ايضا، قال:" نزلت في أكثم بن صيفي، قيل: فابن الليثي؟ قال: هذا قبل الليثي بزمان، وهي خاصة عامة"[٧].

والرابع: وقال الضحاك:"لما سمع رجل من أهل مكة أن بني كنانة قد ضربتْ وجوهَهم وأدبارَهم الملائكةُ ، قال لأهله :أخرجوني، وقد أدنفَ للموت. قال : فاحتمل حتى انتهى إلى عَقَبة قد سماها، فتوفَّي ، فأنزل الله : {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، الآية"[٨]. وروي عن عبدالرحمن بن زيد[٩]، والحسن[١٠]، نحو ذلك.

قوله تعالى:{وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء : ١٠٠]، أي:" ومَن يخرج من أرض الشرك إلى أرض الإسلام فرارًا بدينه، راجيًا فضل ربه، قاصدًا نصرة دينه"[١١].

قال الطبري:أي:" ومن يُفارق أرضَ الشرك وأهلَها هربًا بدينه منها ومنهم ، إلى أرض الإسلام وأهلها المؤمنين في منهاج دين الله وطريقه الذي شرعه لخلقه، وذلك الدين القَيِّم"[١٢].

قوله تعالى:{يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} [النساء : ١٠٠]، أي:" يجد في الأرض مكانًا ومتحولا ينعم فيه بما يكون سببًا في قوته وذلة أعدائه، مع السعة في رزقه وعيشه"[١٣].

قال الطبري:" يقول:" يجد هذا المهاجر في سبيل الله {مراغمًا كثيرًا}، وهو المضطرب في البلاد والمذْهب، وقوله :{ وَسَعَةً}، يحتمل «السّعة» في أمر دينهم بمكة، وذلك منعُهم إياهم -كان - من إظهار دينهم وعبادة ربهم علانية "[١٤].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٨٧):ص١١٥/٩-١١٦. مرسل إسناده صحيح.

[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٨٨):ص١١٦/٩. [مرسل ضعيف].

[٣]انظر: الإصابة(١٢٣٢):ص٢٥١/١.

[٤]أخرجه ابن أبي حاتم (٥٨٨٨):ص٣/ ١٠٥٠، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٢٤٦٥):ص٢/ ٩٥٣، ٩٥٤. إسناده حسن.

وذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٨٠) وزاد نسبته لابن منده والباوردي في "الصحابة".

[٥]انظر: طبقات ابن سعد:٤/ ١١٩، وسنده ضعيف جداً؛ الواقدي متروك الحديث، وكذبه أحمد وغيره، لكنه حسن بما قبله. قبله.

[٦] تفسير ابن كثير:٣٩٢/٢.

[٧]ذكره السيوطي في "الدر المنثور" :٢/ ٦٥١، و"لباب النقول": ٨١، ونسبه لأبي حاتم في كتاب "المعمرين".

[٨] اخرجه الطبري(١٠٢٨٩):ص١١٦/٩، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٥٣)، وزاد نسبته لعبد بن حميد.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٩٣):ص١١٨/٩.[وسنده واهٍ؛ لإعضاله، وعبد الرحمن متروك].

[١٠]ذكره السيوطي في "الدر":٢/ ٦٥٣، ونسبه لعبد بن حميد.[مرسل].

[١١] التفسير الميسر:٢٧٦.

[١٢] تفسير الطبري:١١٢/٩.

[١٣] التفسير الميسر:٢٧٦.

[١٤] تفسير الطبري:١١٢/٩-١١٣.

قال الزمخشري:أي: " مراغما مهاجرا وطريقا يراغم بسلوكه قومه، أى: يفارقهم على رغم أنوفهم. والرغم: الذل والهوان. وأصله لصوق الأنف بالرغام- وهو التراب- يقال: راغمت الرجل إذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك"[١].

قال ابن كثير:" هذا تحريض على الهجرة ، وترغيب في مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه"[٢].

وفي معنى «المراغم» في الآية الكريمة أقوال:

أحدها:أنه المتحوَّل من أرض إلى أرض، وهذا قول ابن عباس[٣]، والربيع[٤]، ومجاهد[٥]، والضحاك[٦]، وابو عبيدة[٧]، ابن قتيبة[٨].

قال أبو عبيدة:" المراغم والمهاجر واحد، تقول: راغمت وهاجرت قومى، وهى المذاهب، قال النابغة الجعدي[٩]:

كَطَوْدٍ يُلاذُ بأرْكَانِهِ عَزيز المُرَاغَم وَالْمَهْربِ[١٠]

فالمراغم المضطرب والمذهب في الأرض، وأنشد الزجاج في المعنى[١١]:

إلى بلد غير داني المحل بعيد المراغَمِ وَالمُضْطَرَب

قال ابن قتيبة:"المراغم والمهاجر، واحد. تقول: راغمت وهاجرت قومي، وأصله: أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه مراغما لهم. أي مغاضبا، ومهاجرا. أي مقاطعا من الهجران. فقيل للمذهب: مراغم، وللمصير إلى النبي ﷺ: هجرة - لأنها كانت بهجرة الرجل قومه"[١٢].

والثاني : مطلب المعيشة، وهو قول السدي[١٣]، وانشد الماوردي قول الشاعر[١٤]:

إلى بلدٍ غير داني المحل بَعيد المُراغم والمطلب

وهذا القول قريب من سابقه، لأنه "ليس المراغم ههنا إلا المضطرب في حال هجرة"[١٥]. ويشهد له الاختلاف في رواية الكلمة الاخيرة في البيت، بين" المُضْطَرَب، و"المطلب". فالمعنيان قريبان.

والثالث : أن المراغم المهاجر ، وهو قول ابن زيد[١٦]، والزجاج[١٧].

والرابع: يعني بالمراغم مندوحة عما يكره[١٨].

---

[١] الكشاف:٥٥٦/١.

[٢] تفسير ابن كثير:٣٩٠/٢-٣٩١.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٩٦):ص١١٩/٩.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٢٩٧):ص١١٩/٩-١٢٠.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٠٠)-(١٠٣٠٢):ص١٢٠/٩.

[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٧٨):ص١٠٤٩/٣.

[٧] انظر: مجاز القرآن:١٣٨/١.

[٨] انظر: غريب القرآن:١٣٤-١٣٥.

[٩]ديوانه ٢٢ ، مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٣٨ ، اللسان، مادة"رغم"، وتفسير الطبري ١١٢/٩، وتفسير القرطبي ٣٤٨/٥ ، وفي غريب القرآن لابن قتيبة١٣٥/١، وتفسير الكشاف:٥٥٦/١: "المراغم والمذهب".
والبيت من قصيدته التي في الديوان ، ولكنه أفرد منها فلم يعرف مكانه. و "الطود": الجبل العظيم المنيف. ويلاذ: يتحصن. والرغم: التصاق الأنف بالرغام أى التراب، وهو كناية عن الذل والهوان، وفي سلوك سبيل المهاجرة مراغمة للخصم مفارقة له على رغم أنفه.

[١٠] مجاز القرآن: ١٣٨/١، وانظر: تفسير الطبري: ١١٢/٩، وتفسير ابن كثير:٣٩١/٢.

[١١] انظر: البيت في اللسان:٢٤٧/١٢، ومعاني القرآن للزجاج:٩٦/٢، وتفسير الثعلبي:٣٧٣/٣.

[١٢] غريب القرآن:١٣٤.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٠٣):ص١٢٠/٩.

[١٤] انظر بهذه الرواية في: البيت في النكت والعيون:٥٢٢/١..

[١٥] معاني القرآن للزجاج:٩٦/٢.

[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٠٤):ص١٢٠/٩-١٢١.

[١٧] انظر: معاني القرآن:٩٦/٢.

[١٨] انظر: النكت والعيون:٥٢٢/١.

والخامس: أن يجد ما يرغمهم به ، لأن كل من شخص عن قومه رغبة عنهم فقد أرغمهم ، وهذا قول بعض البصريين[١].
والسادس: منفسحا كثيرة وسعة. وهذا قول أبي صخر[٢].
والسابع: المراغم: البروح. وهذا قول سفيان ابن عيينة[٣].
قال ابن عطية:" وهذا كله تفسير بالمعنى، فأما الخاص باللفظة، فإن «المراغم» موضع المراغمة، وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يغلبه على مراده، فكفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجر في أرض الله لأرغم أنوف قريش بحصوله في منعة منهم، فتلك المنعة هي موضع المراغمة. وكذلك الطود الذي ذكر النابغة[٤]، من صعد فيه أمام طالب له وتوقل فقد أرغم أنف ذلك الطالب"[٥].
قال ابن كثير:" والظاهر - والله أعلم – أنه[المراغم]: التمنّع الذي يُتَحصَّن به ، ويراغم به الأعداء"[٦].
وقرئ: «مرغما»[٧].
وفي قوله تعالى:{ وَسَعَةً} [النساء : ١٠٠]، أقوال:
أحدها: السعة في الرزق. وهو قول ابن عباس[٨]، والربيع[٩]، والضحاك[١٠]، ومقاتل بن حيان[١١].
والثاني : يعني من الضلالة إلى الهدى ومن العيلة إلى الغنى ، وهو قول قتادة[١٢].
والثالث: أن المعنى: ورخا. وهذا قول عطاء[١٣].
ةالرابع: أن المعنى: سعة البلاد. قاله مالك[١٤].
والخامس: سعة في إظهار الدين[١٥].
قال ابن عطية:" والمشبه لفصاحة العرب أن يريد سعة الأرض وكثرة المعاقل، وبذلك تكون «السعة» في الرزق واتساع الصدر لهمومه وفكره وغير ذلك من وجوه الفرح، ونحو هذا المعنى قول الشاعر[١٦]:
لكانَ لي مضطربٌ واسعٌ   في الأرض ذات الطولِ والعَرضِ
ومنه قول الآخر[١٧]:
وكنت إذا خليل رام قطعي   وجدت وراي منفسحا عريضا
وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً} [النساء : ٩٧]"[١٨].
قال الطبري: " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبرَ أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطرَبًا ومتَّسعًا. وقد يدخل في «السعة»، السعة في الرزق ، والغنى

---

[١] انظر: النكت والعيون:٥٢٢/١.
[٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٨٢):ص١٠٤٩/٣.
[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٨٣):ص١٠٤٩/٣.
[٤] ديوانه: ٢٢ وهو قوله:" كَطَوْدٍ يُلاذُ بأرْكَانِه   عَزيز المُرَاغَم وَالْمَهْربِ".
[٥] المحرر الوجيز:١٠١/٢.
[٦] تفسير ابن كثير:٣٩١/٢.
[٧] انظر: الكشاف:٥٥٧/١.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٠٥):ص١٢١/٩.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٠٦):ص١٢١/٩.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٠٧):ص١٢١/٩.
[١١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٨٤):ص١٠٥٠/٣.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٠٨):ص١٢١/٩.
[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٨٥):ص١٠٥٠/٣.
[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٨٨٦):ص١٠٥٠/٣.
[١٥] انظر: النكت والعيون:٥٢٢/١.
[١٦] البيت لحطان بن المعلى، انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي:١٠٢/١، والعقد الفريد:٢٧٤/٢، وغيرها.
[١٧] .لم اقف على قاله، وانظر: البي في المحرر الوجيز:١٠١/٢، وتفسير القرطبي:٣٤٨/٥.
[١٨] المحرر الوجيز:١٠١/٢.

من الفقر ، ويدخل فيه السعة من ضيق الهمّ والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة ، وغير ذلك من معاني «السعة»، التي هي بمعنى الرَّوْح والفرَج من مكروهِ ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظَهْري المشركين وفي سلطانهم. ولم يضع الله دِلالة على أنه عنى بقوله : {وسعة}، بعض معاني «السعة» التي وصفنا. فكل معاني «السعة» التي هي بمعنى الرَّوح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش ، وغم جِوار أهل الشرك ، وضيق الصدر بتعذّر إظهار الإيمان بالله وإخلاص توحيده وفراق الأنداد والآلهة ، داخلٌ في ذلك"[١].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النساء : ١٠٠]، أي:" ومن يخرج من بيته قاصدًا نصرة دين الله ورسوله ﷺ، وإعلاء كلمة الله"[٢].

قال الطبري:"يقول: ومن يخرج مهاجرًا من داره إلى الله وإلى رسوله"[٣].

قوله تعالى:{ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ} [النساء : ١٠٠]، أي:" ثم يدركه الموت قبل بلوغ دار الهجرة"[٤].

وقرئ: « ثم يدركه الموت»، بالرفع، والنصب في "الكاف"[٥].

قوله تعالى:{فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [النساء : ١٠٠]، أي:" فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى"[٦].

قال الطبري:" فقد استوجب ثواب هجرته إن لم يبلغ دارَ هجرته باخترام المنية إيّاه قبل بلوغه إياها على ربه"[٧].

قال الزمخشري:أي:" فقد وجب ثوابه عليه: وحقيقة الوجوب: الوقوع والسقوط {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} [الحج : ٣٦]، ووجبت الشمس: سقط قرصها. والمعنى: فقد علم الله كيف يثيبه"[٨].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ١٠٠]، أي: وكان الله " ساتراً على عباده، رحيماً بهم"[٩].

قال الطبري:" يقول : ولم يزل الله تعالى ذكره {غَفُورًا}، يعني: ساترًا ذنوب عبادهِ المؤمنين بالعفو لهم عن العقوبة عليها، {رحيمًا}، بهم رفيقًا"[١٠].

قال الطبري:" وقد تأول قوم من أهل العلم هذه الآية، أنها في حكم الغازي يخرج للغزو ، فيدركه الموت بعد ما يخرج من منزله فاصلا فيموت ، أنّ له سَهْمه من المغنَم ، وإن لم يكن شهد الوقعة"[١١].

قال يزيد بن أبي حبيب :"أن أهل المدينة يقولون :من خرج فاصلا وجب سهمه، وتأوّلوا قوله تبارك وتعالى:{ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله} "[١٢].

الفوائد:

١- أن الآية واردة في الهجرة من دار الشرك إلى دار الاسلام، يدل عليه سياق الآية والآيات السابقة عليها، فإن أولها: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً إِلاَّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ

---

[١] تفسير الطبري:١٢٢/٩.
[٢] التفسير الميسر:٢٧٦.
[٣] تفسير البري:١١٣/٩.
[٤] التفسير الميسر:٢٧٦، وصفوة التفاسير:٢٧٦.
[٥] انظر: الكشاف:٥٥٧/١.
[٦] صفوة التفاسير:٢٧٦.
[٧] تفسير البري:١١٣/٩.
[٨] الكشاف:٥٥٧/١.
[٩] صفوة التفاسير:٢٧٦.
[١٠] تفسير البري:١١٣/٩.
[١١] تفسير الطبري:١٢٢/٩.
[١٢] أخرجه الطبري(١٠٣٠٩):ص١٢٢/٩.

سَبِيلاً فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً} . ويدل عليه أيضاً شأن نزولها.
٢- الآية تدل على فضل الهجرة وفضل من هاجر وعلى من لم يهاجر، وهذا مما لا يمتري فيه عاقل، ولا يشك فيه مسلم.

قال الله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} (النساء: من الآية١٠٠) ، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (النحل:٤١) ، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} (الحج:٥٨_٥٩) وقال الله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} (النحل:١١٠) .

ففي هذه الآيات كلها فضيلة الهجرة وفضيلة من هاجر على من لم يهاجر، وفيها بيان ما أعد الله لهم من الأجر والثواب في الدنيا والآخرة.
٣- من يتحول من أرض إلى أرض في سبيل الله عز وجل يكرمه الله عز وجل، ويفسح له في صدره، ويوسع عليه رزقه، ويمكن له في الأرض، ويذكر له في السماء.
٤- إن هذه المهاجرة عبارة عن الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام. ومنه الهجرة من مكة إلى المدينة. فالهجرة والمهاجرة غلبتا في ذلك، وإن كان أصلها مفارقة الغير ومتاركته. وقيل: الهجرة بعد الهجرة النبوية صارت عبارة عن ترك دار الحرب وترك الأخلاق الذميمة والخصال الرذيلة[1].

قال رسول الله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

٥-قال أبو عبدالله الحليمي:" ومن الشح على الدين أن المؤمن إذا كان من قوم لا يستطيع أن يوفي الدين حقوقه بين ظهرانيهم، وهاجر إلى حيث يعلم أنه خير له وافق قال الله عز وجل:{ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت، فقد وقع أجره على الله}، فيدخل في هذا من هاجر إلى رسول الله ﷺ في حياته ليلقاه ويصحبه ويجاهد معه، ومن هاجر بعده إلى حيث يستطيع إظهار دينه ونصب إعلام شريعته، فيه قال الله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } [النساء : ٥٩]، فدخل في ذلك الرجوع إليه حقًّا في سؤاله عما أشكل والرجوع بعد وفاته إلى سنته وما بلغ الناس عن ربه ﷺ فكذلك يدخل في الهجرة، وإليه الوجهان اللذان ذكرتهما"[3].

القرآن

{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١)} [النساء : ١٠١]

التفسير:

وإذا سافرتم -أيها المؤمنون- في أرض الله، فلا حرج ولا إثم عليكم في قصر الصلاة إن خفتم من عدوان الكفار عليكم في حال صلاتكم، وكانت غالب أسفار المسلمين في بدء الإسلام مخوفة، والقصر رخصة في السفر حال الأمن أو الخوف. إن الكافرين مجاهرون لكم بعداوتهم، فاحذروهم.

---

[1] انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي:٢٤١/٤ .

[2] صحيح البخاري برقم (١، ٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٧) وسنن أبي داود برقم (٢٢٠١) وسنن الترمذي برقم (١٦٤٧) ، وسنن النسائي (٥٩/١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٢٧) ومسند أحمد (٢٥/١) ومسند الحميدي (١٦/١) ومسند الطيالسي (٢٧/٢) "منحة المعبود".

[3] المنهاج في شعب الإيمان:١٨٢/٢.

في سبب نزول الآية قولان:
أحدهما: قال علي-رضي الله عنه-: "سأل قوم من التجار رسول الله - ﷺ -، فقالوا: يا رسول الله! إنا نضرب في الأرض؛ فكيف نصلي؟ فأنزل الله: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ}، ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول؛ غزا النبي - ﷺ -، فصلَّى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم؛ هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في أثرها؛ فأنزل الله -تبارك وتعالى- بين الصلاتين: {إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا}{ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَك}[1]، إبة قوله:{ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}[2]، فنزلت صلاة الخوف"[3].
والثاني: عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في "قوله:{ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ}، قال : يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعُسْفان ، والمشركون بضَجْنَان ، فتواقفوا، فصلّى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر ركعتين أو : أربعًا ، شك أبو عاصم ركوعهم وسجودهم وقيامهم معًا جميعًا ، فهمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمْتعتهم وأثقالهم ، فأنزل الله عليه:{ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ}[4]، فصلَّى العصر ، فصفَّ أصحابه صَفَّين ، ثم كبَّر بهم جميعًا ، ثم سجد الأولون سجدة ، والآخرون قيام ، ثم سجد الآخرون حين قام النبي ﷺ ، ثم كبر بهم وركعوا جميعًا ، فتقدم الصف الآخر واستأخر الأوَّل ، فتعاقبوا السجود كما فعلوا أول مرة ، وقصَرَ العصرَ إلى ركعتين"[5].
قوله تعالى:{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ} [النساء : ١٠١]، أي:" وإذا سافرتم -أيها المؤمنون- في أرض الله"[6].
قال الطبري:أي:" وإذا سرتم أيها المؤمنون في الأرض"[7].
قال ابن كثير:" أي:سافرتم في البلاد ، كما قال تعالى:{ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ} الآية [المزمل : ٢٠]"[8].
قال المراغي:" أي: وإذا سافرتم أى سفر"[9].
قال الماوردي:" أي سرتم ، لأنه يضرب الأرض برجله في سيره كضربه بيده ، ولذلك سُمِّيَ السفر في الأرض ضَرْباً"[10].
قوله تعالى:{فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ} [النساء : ١٠١]، أي:" فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة"[11].
قال الطبري:"يقول : فليس عليكم حرج ولا إثم أن تقصروا من عددها"[12].
قال ابن كثير:" أي : تخَفَّفوا فيها ، إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية ، كما فهمه الجمهور من هذه الآية"[13].

---

[1] [سورة النسا:١٠٢].
[2] [سورة النسا:١٠٢].
[3] أخرجه الطبري(١٠٣١٤):ص١٢٦/٩، قال ابن كثير في تفسيره:٤٠٠/٢:" وهذا سياق غريب جدا".
[4] [سورة النسا:١٠٢].
[5] أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٤٢٣٦):ص٢/ ٥٠٤، والطبري(١٠٣٢١):ص١٣٠/٩-١٣١، وابن ابي حاتم(٥٨٩٥):ص١٠٥٢/٣.[صحيح الإسناد؛ لكنه مرسل].
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٥٧)، وزاد نسبته لابن المنذر.
[6] .التفسير الميسر:٩٤
[7] تفسير البري:١٢٣/٩.
[8] تفسير ابن كثير:٣٩٣/٢.
[9] تفسير المراغي:١٣٨/٥.
[10] النكت والعيون:٥٢٢/١-٥٢٣.
[11] صفوة التفاسير:٢٧٦.
[12] تفسير البري:١٢٣/٩.
[13] تفسير ابن كثير:٣٩٣/٢.

قال المراغي:" فليس عليكم تضييق ولا ميل عن محجة الدين إذا قصرتم الصلاة: أي تركتم شيئا منها فتكون قصيرة"[١].

وقرأ الجمهور :{تقصروا}، بفتح التاء وضم الصاد، وروى الضبي عن أصحابه: «تقصروا» بضم التاء وكسر الصاد وسكون القاف وقرأ الزهري :«تقصروا» بضم التاء وفتح القاف وكسر الصاد وشدها[٢].

قوله تعالى:{إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [النساء : ١٠١]،" أي: إن خشيتم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة"[٣].

قال المراغي:أي:" بشرط أن تخافوا فتنة الكافرين لكم بالقتل أو الأسر أو غيرهما"[٤].

قال القاسمي:" أي:فلا إثم عليكم أن تنقصوا شيئا من الصلاة إن خفتم أن يقاتلكم الذين كفروا في الصلاة"[٥].

قال السمعاني:" «الفتنة»، بمعنى: القتل هاهنا"[٦].

قال الزمخشري:"المراد بالفتنة: القتال والتعرض بما يكره"[٧].

قال ابن عطية:" {يفتنكم}، معناه: يمتحنكم بالحمل عليكم وإشغال نفوسكم في صلاتكم، ونحو هذا قول صاحب الحائط: لقد أصابتني في مالي هذا فتنة، وأصل الفتنة الاختبار بالشدائد، وإلى هذا المعنى ترجع كيف تصرفت، وعدو وصف يجري على الواحد والجماعة"[٨].

واختلف في هذا القصر المشروط بالخوف على قولين :

أحدهما : أنه قَصَرَ أركانها إذا خاف، مع استيفاء أعدادها فيصلي عند المسايفة والتحام القتال كيف أمكنه قائماً وقاعداً وموميأً، وهي مثل قوله :{فَإِنْ خِفْتُمْ فِرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً}[البقرة : ٢٣٩]. وهذا قول ابن عباس[٩]، واختيار الطبري[١٠].

واستدلوا على صحته :"بأن بعده {فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة} [النساء: ١٠٣] فإقامتها إتمام ركوعها وسجودها وسائر فرائضها وترك إقامتها في غير الطمأنينة هو ترك إقامة هذه الأشياء"[١١].

والثاني : أنه قصر أعدادها من أربع إلى ما دونها، وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن هذا مشروط بالخوف من أربع إلى ركعتين، فإن كان آمناً مقيماً لم يقصر، وهذا قول سعد بن أبي وقاص[١٢]، وداود بن علي[١٣]،وأهل الظاهر؛ تمسكا بظاهر القرآن[١٤].

والثاني : أنه قَصْران ، فقصر الأَمَنْ ، من الأربع إلى ركعتين ، وقصر الخوف من ركعتين إلى ركعة ، وهذا قول جابر بن عبد الله[١٥]، والحسن[١٦]، وهو قول ابن عباس[١٧].

روى مجاهد عن ابن عباس قال : " فرض الله الصلاة على لسان نبيكم عليه السلام في الحضر أربعًا ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعةً"[١].

---

[١] تفسير المراغي:١٣٨/٥.
[٢] انظر: المحرر الوجيز:١٠٤/٢.
[٣] صفوة التفاسير:٢٧٦.
[٤] تفسير المراغي:١٣٨/٥.
[٥] تفسير القاسمي:٢٩٨/٣.
[٦] تفسير السمعاني:٤٧٢/١.
[٧] الكشاف:٥٥٩/١.
[٨] المحرر الوجيز:١٠٥/١.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٤٣):ص١٣٩/٩.
[١٠] انظر: تفسير الطبري:١٣٩/٩-١٤٠.
[١١] الناسخ والمنسوخ للنحاس:٣٤٩، وانظر: تفسير الطبري: ١٣٩/٩-١٤٠.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٢٠):ص١٢٩/٩.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٥٢٣/١، وتفسير السمعاني:٤٧١/١.
[١٤] انظر: تفسير السمعاني:٤٧١/١.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٢٩):ص١٣٤/٩.
[١٦] انظر: النكت والعيون:٥٢٣/١، وتفسير السمعاني:٤٧١/١.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٣٤)-(١٠٣٣٩):ص١٣٦/٩-١٣٧.

والثالث : أنه يقصر في سفر خائفاً وآمناً من أربع إلى ركعتين لا غير.
قال السمعاني:" قال جمهور العلماء -وهو قول أكثر الأمة -: إنه يجوز القصر في حال الأمن، ولم ينقل [عن النبي-ﷺ-]أنه أتم في سفر ما"[٢].
قال ابن الجوزي:" وظاهر الآية يدل على أن القصر لا يجوز إلا عند الخوف، وليس الأمر كذلك، وإنما نزلت الآية على غالب أسفار رسول الله ﷺ، وأكثرها لم يخل عن خوف العدو"[٣].
قال الإمام الموفق رحمه الله: "وأجمع أهل العلم على أن من سافر سفرا تقصر في مثله الصلاة في حج، أو عمرة، أو جهاد، أن له أن يقصر الرباعية فيصليها ركعتين"[٤].
قال الزمخشري:" «القصر»، ثابت بنص الكتاب في حال الخوف خاصة، وهو قوله {إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا}، وأما في حال الأمن فبالسنة"[٥].
عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ «كان يقصر في السفر ويتم ، ويفطر ويصوم»[٦].
وقد روي عن يعلى بن منية قال : "قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : {فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم}، وقد أمن الناس! فقال : عجبتُ مما عجبتَ منه ، حتى سألت النبي ﷺ عن ذلك فقال : صدقة تصدَّق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدَقته"[٧].
وعن قتادة، عن أبي العالية، قال : "سافرت إلى مكة ، فكنت أصلّي ركعتين ، فلقيني قُرَّاء من أهل هذه الناحية ، فقالوا : كيف تصلي ؟ قلت ركعتين. قالوا : أسنة أو قرآن ؟ قلت : كلٌّ ، سنة وقرآن ، فقدصلَّى رسول الله ﷺ ركعتين. قالوا : إنه كان في حرب! قلت : قال الله : {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ} [سورة الفتح : ٢٧] ، وقال : {وإذا ضربتم في الأرض فليس عيكم جناح أن تقصروا من الصلاة} ، فقرأ حتى بلغ : {فإذا اطمأننتم}"[٨].
واختلفوا في القصر على قولين:
أحدها: أنه إباحة. وهو قول الشافعي[٩].
قال الشافعي:" والقصر في السفر بلا خوف سنة، والكتاب يدل على أن القصر في السفر بلا خوف رخصة من الله - عز وجل - لا أنَّ حتماً عليهم أن يقصروا كما كان ذلك في الخوف والسفر"[١٠].
والثاني: أنه واجب.
قال السمعاني:"والخلاف بين السلف مشهور فيه، والقول الأول هو أصح؛ لقوله عز ذكره: {فليس عليكم جناح}، وهو مثل قوله: {جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا} [البقرة : ٢٣٠]"[١١].
قال الزمخشري:" قوله:{فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة}، ظاهره التخيير بين القصر والإتمام، وأن الإتمام أفضل"[١٢].
قال ابن الجوزي:" وإنما يجوز للمسافر القصر إذا كان سفره مباحا، وبهذا قال مالك، والشافعي، وقال أبو حنيفة: يجوز له القصر في سفر المعصية. فأما مدة الإقامة التي إذا نواها

---

[١] أخرجه الطبري(١٠٣٣٦):ص١٣٧/٩.
[٢] تفسير السمعاني:٤٧١/١.
[٣] زاد المسير:٤٥٩/١.
[٤]المغني: ٣/ ١٠٤.
[٥] الكشاف:٥٥٨/١-٥٥٩.
[٦] سنن الدارقطني(٢٢٩٨):ص١٦٣/٣، زسنن البيهقي(٥٦٤):ص٢٢٠/١.
[٧] أخرجه الطبري(١٠٣١٠):ص١٢٤/٩.
[٨] أخرجه الطبري(١٠٣١٢):ص١٢٥/٩-١٢٦.
[٩] انظر: تفسير الغمام الشافعي:٦٥٠/٢، وتفسير السمعاني:٤٧٢/١، والكشاف:٥٥٨/١.
[١٠] تفسير الإمام الشافعي:٦٥٠/٢.
[١١] تفسير السمعاني:٤٧٢/١.
[١٢] الكشاف:٥٥٨/١.

أتم الصلاة، وإن نوى أقل منها، قصر، فقال أصحابنا: إقامة اثنين وعشرين صلاة، وقال أبو حنيفة: خمسة عشر يوما. وقال مالك، والشافعي: أربعة أيام"[١].

قوله تعالى:{إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا} [النساء : ١٠١]، أي:" إن الكافرين مجاهرون لكم بعداوتهم، فاحذروهم"[٢].

قال القاسمي:أي:" ظاهر العداوة. فلا يراعون حرمة الصلاة لعداوتهم"[٣].

قال الطبري:" يعني:الجاحدين وحدانية الله،[كانوا لكم] عدوًّا قد أبانوا لكم عداوتهم بمناصبتهم لكم الحرب على إيمانكم بالله وبرسوله ، وترككم عبادة ما يعبدون من الأوثان والأصنام ، ومخالفتكم ما هم عليه من الضلالة"[٤].

قال أبو السعود:" تعليل لذلك باعتبار تعلله بما ذكر أو لما يفهم من الكلام من كون فتنتهم متوقعة فإن كمال عداوتهم للمؤمنين من موجبات التعرض لهم بسوء"[٥].

قال ابن عطية:" المعنى: قد جلحوا في عدواتكم وراموكم كل مرام"[٦].

وقرأ أبيّ بن كعب :"{أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا}"[٧].

الفوائد:

١- ليس في الآية متمسك لمن شرط الخوف في القصر، لأن الآية وردت في قصر الصفة في صلاة الخوف، لا في قصر العدد، لما علم من تقدم شرعية قصر العدد، وكما يدل عليه آخر الآية، ولو سلم أنها في قصر العدد في صلاة السفر، فالقيد في قوله: {إِنْ خِفْتُمْ} اتفاقي لا احترازي، فعن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: إنما قال الله سبحانه وتعالى: {أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} فقد أمن الناس؟ قال عمر: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته "[٨].

قال ابن القيم: "والآية أشكلت على عمر وغيره، فسأل عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأجابه بالشفاء، وأن هذا صدقة من الله، وشرع شرعه للأمة، وكان هذا بيان أن حكم المفهوم غير مراد، وأن الجناح مرتفع في قصر الصلاة عن الآمن والخائف، وغايته أنَّه نوع تخصيص للمفهوم أو رفع له. وقد يقال: إن الآية اقتضت قصراً يتناول قصر الأركان بالتخفيف، وقصر العدد بنُقصان ركعتين، وقُيِّدَ ذلك بأمرين: الضرب في الأرض، والخوف، فإذا وُجِدَ الأمران، أُبيحَ القصران، فيصلون صلاة الخوف مقصورة عددُها وأركانها، وإن انتفي الأمران، فكانوا آمنين مقيمين، انتفي القصران، فيصلون صلاة تامة كاملة، وإن وُجِد أحدُ السببين، ترتب عليه قصره وحده، فإذا وُجِدَ الخوف والإقامة، قُصرت الأركان، واستوفي العدد، وهذا نوع قصر، وليس بالقصر المطلق في الآية، فإن وجد السفر والأمن، قُصر العددُ واستوفي الأركان، وسميت صلاة أمن، وهذا نوع قَصرٍ، وليس بالقصر المطلق، وقد تُسمى هذه الصلاة مقصورة باعتبار نقصان العدد، وقد تُسمى تامة باعتبار إتمام أركانها، وأنها لم تدخل في قصر الآية"[٩].

---

[١] زاد المسير:٤٦٠/١.
[٢] .التفسير الميسر:٩٤
[٣] تفسير القاسمي:٢٩٨/٣.
[٤]تفسير الطبري:١٢٣/٩-١٢٤ .
[٥] تفسير أبي السعود:٢٢٦/٢.
[٦] المحرر الوجيز:١٠٥/١.
[٧] أخرجه الطبري(١٠٣١٥):ص١٢٧/٩.
[٨]أخرجه الشافعي في " مسنده " ١/ ٣١١، وأحمد (١٧٤) و (٢٤٤) و (٢٤٥)، ومسلم (٦٨٦)، والطبري (١٠٣١٠) و (١٠٣١٢)، والبيهقي ٣/ ١٣٤ و١٤٠.
[٩]زاد المعاد : ١/ ٤٦٦.

٢-في الآية الرد على الذين يتمون الفرائض في السفر ولا يقصرون الصلاة وإن أباح لهم العلم ترك ذلك، لأن السفر والحضر عندهم سواء[١]، واحتجوا بان الرخص إنما هي للعامة[٢]، وهذا باطل ومخالف لفرائض الإسلام في الصلاة.

قال ابن عباس:" فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعا، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة"[٣].

قال الرملي:" المعنى: فرضت الصلاة ركعتين في السفر لمن أراد الاقتصار عليهما"[٤].
عليهما"[٤].

القرآن

{وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)} [النساء : ١٠٢]

التفسير:

وإذا كنت -أيها النبي- في ساحة القتال، فأردت أن تصلي بهم، فلتقم جماعة منهم معك للصلاة، وليأخذوا سلاحهم، فإذا سجد هؤلاء فلتكن الجماعة الأخرى من خلفكم في مواجهة عدوكم، وتتم الجماعة الأولى ركعتهم الثانية ويُسلِّمون، ثم تأتي الجماعة الأخرى التي لم تبدأ الصلاة فليأتموا بك في ركعتهم الأولى، ثم يكملوا بأنفسهم ركعتهم الثانية، وليحذروا مِن عدوهم وليأخذوا أسلحتهم. ودَّ الجاحدون لدين الله أن تغفُلوا عن سلاحكم وزادكم؛ ليحملوا عليكم حملة واحلة فيقضوا عليكم، ولا إثم عليكم حينئذ إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم في حال مرض، أن تتركوا أسلحتكم، مع أخذ الحذر. إن الله تعالى أعدَّ للجاحدين لدينه عذابًا يهينهم، ويخزيهم.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدها: عن مجاهد، عن أبي عياش الزُّرقي قال : " قال: كنا مع رسول الله - ﷺ - بُعسْفان، قال: فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى النبي - ﷺ - الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، لقد أصبنا غفلة، لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة. فقالوا: تأتي عليه الآن صلاة هي أحب إليهم من أبناءهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ} الآية، قال: فحضرت الصلاة، فقام رسول الله - ﷺ - مستقبل القبلة والمشركون أمامه، فأمرهم رسول الله - ﷺ - فأخذوا السلاح، فصففنا خلفه صفين؛ صف خلف رسول الله جميعاً، ثم سجد النبي - ﷺ - بالصف الذي يليه، قال: والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا؛ جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي - ﷺ - بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلسوا؛ جلس الآخرون، فسجدوا، ثم جلسوا جميعاً، ثم سلم عليهم جميعاً، قال: فصلاها رسول الله - ﷺ - مرتين: مرة بعُسفان، وصلاها يوم بني سُليم"[٥]. وروي عن ابن عباس نحوه [١].

---

[١] انظر: اللمع للطوسي : ٢٢٧. نسب هذا الأدب إلى بعض الصوفية.

[٢] انظر: الأمر المربوط لأبن عربي ضمن ذخائر الأعلاق له أيضاً ص ٢٦٨، ودراسات في التصوف الإسلامي:١٠٦.

[٣]صحيح مسلم برقم (٦٨٧) وسنن أبي داود برقم (١٢٤٧) وسنن النسائي (٢٢٦/١، ١١٨/٣، ١١٩، ١٦٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٦٨) وتفسير الطبري (٢٤٧/٥) .

[٤] فتاوى الرملي:٣٦١/٤.

[٥]أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" (٤٢٣٧):ص٢/ ٥٠٥، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢/ ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٦٦)، والطيالسي في "مسنده" (رقم ١٣٤٧)، وسعيد بن منصور في "سننه" (٦٨٦):ص٤/ ١٣٦٧، ١٣٦٨، وأحمد (٤/ ٥٩، ٥٩، ٦٠، ٦٠)، وأبو داود في "سننه" (١٢٣٦):ص٢/ ١١ - ١٢، والنسائي في "المجتبى" (٣/ ١٧٦، ١٧٧)، و"الكبرى" (١٩٣٧، ١٩٣٨):ص١/ ٥٩٦، ٥٩٧، وابن حبان في "صحيحه" (٢٨٧٦):ص٧/ ١٢٨ - "إحسان"، والطبري(١٠٣٢٣):ص١٣١/٩، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥٨٩٦):ص٣/ ١٠٥٢، والدارقطني في "سننه" (٢/ ٥٩،

والثاني: وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "نزلت[2] في عبد الرحمن بن عوف كان جريحاً"[3].

والثالث: قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: "نزلت في رسول الله ﷺ، وذلك أنه غزا محاربا وبنى أنمار، فنزلوا ولا يرون من العدو أحدا، فوضع الناس أسلحتهم، وخرج رسول الله ﷺ لحاجة له قد وضع سلاحه حتى قطع الوادي والسماء ترش، فحال الوادي بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه فجلس رسول الله ﷺ في ظل شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحاربي فقال: قتلني الله إن لم أقتله، ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله ﷺ إلا وهو قائم على رأسه ومعه السيف قد سله من غمده فقال: يا مُحَمَّد من يعصمك مني الآن؟ فقال رسول الله ﷺ: الله، ثم قال: اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت، ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله ﷺ ليضربه فأكب لوجهه من زلخة زلخها من بين كتفيه، وندر سيفه فقام رسول الله ﷺ فأخذه ثم قال: يا غورث من يمنعك مني الآن؟ قال: لا أحد، قال تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك؟ قال: لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبدا ولا أعين عليك عدوا، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، فقال غورث: والله لأنت خير مني، فقال النبي ﷺ: أجل أنا أحق بذلك منك، فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا: ويلك ما منعك منه؟ قال: لقد أهويت إليه بالسيف لأضربه فوالله ما أدري من زلخني بين كتفي فخررت لوجهي، وذكر حاله قال: وسكن الوادي فقطع رسول الله ﷺ الوادي إلى أصحابه فأخبرهم الخبر وقرأ عليهم هذه الآية: {ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم} أي: من عدوكم"[4].

قوله تعالى:{وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ} [النساء : ١٠٢]، أي:" وإذا كنت -أيها النبي- في ساحة القتال، فأردت أن تصلي بهم"[5].

قال البغوي:" أي: شهيدا معهم فأقمت لهم الصلاة"[6].

٦٠، ٦٠)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٥/ رقم ٥١٣٢، ٥١٣٣، ٥١٣٧، ٥١٣٩، ٥١٤٠)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٤/ ١٩٦ رقم ٢١٧٩)، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٢٩٨٥):ص٣/ ١١٧٦، والحاكم (١/ ٣٣٧، ٣٣٨)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧)، و"معرفة السنن والآثار"(١٨٤١، ١٨٤٢):ص٣/ ١٥، والبغوي في "شرح السُّنة" (١٠٩٦):ص٤/ ٢٨٩، ٢٩٠، والواحدي في "أسباب النزول" :١٨٠، و"الوسيط" (٢/ ١٠٩)، والمزي في "تهذيب الكمال" (٣٤/ ١٦١، ١٦٢) من طرق عن أبي عياش به.

قال الإمام الدارقطني: "صحيح".

وقال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وقال البيهقي: "هذا إسناد صحيح".

وقال البغوي: "هذا إسناد صحيح".

وقال ابن كثير في "تفسيره" (٢/ ٤٠١): "وهذا إسناد صحيح، وله شواهد كثيرة". وقال ابن حجر في "الإصابة" (٤/ ١٤٣): "سنده جيد".

[1]أخرجه البزار في "مسنده" (١/ ٣٢٦ رقم ٦٧٩ - كشف)، والطبري(١٠٣٧٣):ص٩/١٥٦، والحاكم (٣/ ٣٠)، والواحدي في "أسباب النزول":١٨٠، جميعهم من طريق النضر بن عبد الرحمن عن عكرمة عن ابن عباس به.

وسنده ضعيف جداً؛ مداره على النضر، وهو أبو عمر الخزاز متروك؛ كما في "التقريب" (٢/ ٣٠٢).

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٢/ ١٩٦): "رواه البزار؛ وفيه النضر بن عبد الرحمن، وهو مجمع على ضعفه". اهـ.

أما الحاكم؛ فقال: "هذا حديث صحيح ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وقال: "صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه"!!.

والبخاري لم يخرج البتة للنضر هذا! لكن الحديث صحيح بشاهده من حديث أبي عياش الزرقي -رضي الله عنه- المتقدم آنفاً.

[2] أي: قوله تعالى: {إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى}.

[3]أخرجه الحاكم (٢/ ٣٠٨) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وأخرجه البخاري (٤٥٩٩):ص٨/ ٢٦٤، والطبري(١٠٣٧٩):ص٩/١٦٤، دون قوله: "نزلت في".

[4] تفسير البغوي:٢/٢٨٠-٢٨١، وأخبره ابن كثير مختصرا في التفسير، وقال أخرجه الإمام أحمد عن جابر، وقال: تفرد به من هذا الوجه: ٢ / ٤٠١ - ٤٠٢. وانظر: البداية والنهاية: ٤ / ٨٤.

وانظر: مسند الإمام أحمد (٣/٣٩٠)، وعلق البخاري قطعة منه في صحيحه (٧/٤٧٦) وقد رواه من غير هذا الوجه برقم (٤١٣٥).

[5] التفسير الميسر:٩٥.

[6] تفسير البوغي:٢/٢٨٠.

قال ابن كثير:" أي : إذا صليت بهم إماما في صلاة الخوف"[١].
قال الماوردي:" وهذا خطاب للنبي -ﷺ- أن يصلي في الخوف بأصحابه"[٢].
واختلف أهل العلم في الخطاب في هذه البية هل خص به النبي -ﷺ- ؟ على قولين :
أحدهما: أنه خاص له وليس لغيره من أمته أن يصلي في الخوف كصلاته ، لأن المشركين عزموا على الإيقاع بالمسلمين إذا اشتغلوا بصلاتهم ، فاطلع الله نبيه على سرائرهم وأمره بالتحرز منهم ، فكان ذلك سبب إسلام خالد بن الوليد ، فلذلك صار هذا خاصاً للنبي -ﷺ- ، وهذا القول محكي عن أبي يوسف[٣].
والقول الثاني : أن ذلك عام للنبي -ﷺ- ولغيره من أمته إذا كان على مثل حاله في خوفه ، لأن ذكر السبب الذي هو الخوف يوجب حمله عليه متى وجد كما فعل الصحابة بعده حين خافوا. وهو قول الجمهور[٤].
قال السمعاني:" بيّن في هذه الآية كيفية صلاة الخوف، وأعلم أن صلاة الخوف جائزة بعد رسول الله على قول أكثر العلماء، وقال بعضهم: صلاة الخوف لا تجوز لأحد بعده، وهو قول أبى يوسف؛ تمسكا بظاهر الآية، قوله: {وإذا كنت فيهم} فشرط كونه فيهم، والأصح هو الأول، وهو الاصح، وقوله: {وإذا كنتم فيهم} ليس على سبيل الشرط، وإنما خرج الكلام على وفق الحال، وقد ورد أن أصحاب رسول الله صلوا بعده صلاة الخوف"[٥].
قال البيضاوي:" تعلق بمفهومه من خص صلاة الخوف بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لفضل الجماعة، وعامة الفقهاء على أنه تعالى علم الرسول ﷺ كيفيتها ليأتم به الأئمة بعده فإنهم نواب عنه فيكون حضورهم كحضوره"[٦].
قوله تعالى:{فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ} [النساء : ١٠٢]، أي:" فلتقم جماعة منهم معك للصلاة، وليأخذوا سلاحهم"[٧].
قال البغوي:" أي: فلتقف، كقوله تعالى: {وإذا أظلم عليهم قاموا}[البقرة :٢٠]، أي: وقفوا"[٨].
قال البيضاوي:أي:" فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك يصلون"[٩].
قال الزجاج:" وأمَّا «أَسلحة»، فجمع سلاح، مثل حمار وأحمرة. وسلاح اسم لجملة ما يدفع الناس به عن أنفسهم في الحروب مما يقاتل به خاصَّة، لا يقال للدواب وما أشبهها سلاح"[١٠].
واختلفوا في الذين يأخذون اسلحتهم على قولين:
أحدهما : أن المأمورين بأخذ السلاح هم الذين مع رسول الله -ﷺ- يصلّون، لأن من في الصلاة غير مقاتل، وأما السلاح الذي أمروا بأخذه عندهم في صلاتهم ، كالسيف يتقلَّده أحدهم ، والسكين ، والخنجر يشدُّه إلى درعه وثيابه التي هي عليه ، ونحو ذلك من سلاحه. وهذا قول الشافعي[١١].

---

[١] تفسير ابن كثير:٤٠٠/٢.
[٢] النكت والعيون:٥٢٤/١.
[٣] انظر: النكت والعيون:٥٢٤/١، وتفسير السمعاني:٤٧٢/١، والكشاف:٥٥٩/١.
[٤] انظر: النكت والعيون:٥٢٤/١، وتفسير السمعاني:٤٧٢/١، والكشاف:٥٥٩/١.
[٥] تفسير السمعاني:٤٧٢/١.
[٦] تفسير البيضاوي:٩٤/٢.
[٧] التفسير الميسر:٩٥.
[٨] تفسير البوغي:٢٨٠/٢.
[٩] تفسير البيضاوي:٩٤/٢.
[١٠] معاني القرآن:٩٨/٢.
[١١] انظر: تفسير الإمام الشافعي:٩٧/٢، وتفسير الطبري:١٤٢/٩.

قال البغوي:" فعلى هذا إنما يأخذه إذا كان لا يشغله عن الصلاة، ولا يؤذي من بجنبه فإذا شغلته حركته وثقلته عن الصلاة كالجعبة والترس الكبير أو كان يؤذي من جنبه كالرمح فلا يأخذه"[١].

والثاني : هم الذين بإزاء العدو يحرسون ، وهذا قول ابن عباس[٢].

قوله تعالى:{فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ} [النساء : ١٠٢]، أي:" فإذا سجد هؤلاء فلتكن الجماعة الأخرى من خلفكم في مواجهة عدوكم، وتتم الجماعة الأولى ركعتهم الثانية ويُسلِّمون"[٣].

قال البغوي: " أي: صلوا، {فليكونوا من ورائكم} يريد مكان الذين هم وجاه العدو"[٤].

قال ابن عطية:" الضمير في سجدوا للطائفة المصلية والمعنى: فإذا سجدوا معك الركعة الأولى فلينصرفوا "[٥].

وفي المشار إليهم في قوله تعالى:{ فَلْيَكُونُوا}[النساء : ١٠٢]، قولان:

أحدهما: أنهم الطائفة التي لم تصل، أمرت أن تحرس الطائفة المصلية، وهذا معنى قول ابن عباس[٦].

والثاني: أنهم المصلون معه، أمروا إذا سجدوا أن ينصرفوا إلى الحرس[٧].

واختلف العلماء كيف ينصرفون بعد السجود، على قولين[٨]:

أحدهما: أنهم إذا أتموا مع الإمام ركعة أتموا لأنفسهم ركعة، ثم سلموا وانصرفوا، وقد تمت صلاتهم.

والثاني:أنهم ينصرفون عن ركعة. واختلف هؤلاء، على قولين[٩]:

أحدهما: فقال بعضهم: إذا صلوا مع الإمام ركعة وسلموا، فهي تجزئهم.

والثاني: وقال آخرون منهم أبو حنيفة: بل ينصرفون عن تلك الركعة إلى الحرس وهم على صلاتهم، فيكونوا في وجه العدو مكان الطائفة التي لم تصل، وتأتي تلك الطائفة.

قوله تعالى:{وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ} [النساء : ١٠٢]، أي:" ثم تأتي الجماعة الأخرى التي لم تبدأ الصلاة فليأتموا بك في ركعتهم الأولى، ثم يكملوا بأنفسهم ركعتهم الثانية"[١٠].

قال الماوردي:"يريد الطائفة التي بإزاء العدو تأتي فتصلي مع رسول الله -ﷺ- الركعة التي بقيت عليه ، وتمضي الطائفة التي صلّت فتقف موضعها بإزاء العدو "[١١].

قال البغوي: " وهم الذين كانوا في وجه العدو"[١٢].

واختلفوا في الطائفة الأخرى، على أقوال[١٣]:

أحدهما: أنه إذا صلى بهم الإمام أطال التشهد حتى يقضوا الركعة الفائتة، ثم يسلم بهم.

الثاني: وقال آخرون: بل يسلم هو عند فراغه من الصلاة بهم، فإذا سلم قضوا ما فاتهم.

---

[١] تفسير البوغي:٢٨٠/٢.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٤٤):ص١٤٢/٩.
[٣] التفسير الميسر:٩٥.
[٤] تفسير البوغي:٢٨٠/٢.
[٥] المحرر الوجيز:١٠٧/٢.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٤٤):ص١٤٢/٩.
[٧] انظر: زاد المسير:٤٦٢/١.
[٨] انظر: زاد المسير:٤٦٢/١، والنكت والعيون:٥٢٥/١.
[٩] انظر: زاد المسير:٤٦٢/١، والنكت والعيون:٥٢٥/١.
[١٠] التفسير الميسر:٩٥.
[١١] النكت والعيون:٥٢٥/١.
[١٢] تفسير البوغي:٢٨٠/٢.
[١٣] انظر: زاد المسير:٤٦٢/١، والنكت والعيون:٥٢٥/١.

الثالث: وقال آخرون: بلى يصلي بالطائفة الثانية ركعة ويسلم هو، ولا تسلم هي، بل ترجع إلى وجه العدو، ثم تجيء الأولى، فتقضي ما بقي من صلاتها وتسلم، وتمضي وتجيء الأخرى، فتتم صلاتها، وهذا مذهب أبي حنيفة[1].

عن سهل بن أبي حثمة قال : "صلى النبي ﷺ بأصحابه في خوف ، فجعلهم خلفه صفين ، فصلى بالذين يلونه ركعة ثم قام ، فلم يزل قائمًا حتى صلى الذين خلفه ركعة ، ثم تقدموا وتخلّف الذين كانوا قُدَّامهم ، فصلى بهم ركعة ، ثم جلس حتى صلى الذين تخلفوا ركعة ، ثم سلم"[2].

وفي رواية اخرى ايضا عن سهل بن أبي حثمة في صلاة الخوف قال : "يقوم الإمام مستقبل القبلة ، وتقوم طائفة منهم معه ، وطائفة من قبل العدو وجوههم إلى العدو ، فيركع بهم ركعة ، ثم يركعون لأنفسهم ويسجدون سجدتين في مكانهم ، ويذهبون إلى مقام أولئك ، ويجيء أولئك فيركع بهم ركعة ويسجد سجدتين ، فهي له ركعتان ولهم واحدة. ثم يركعون ركعة ويسجدون سجدتين"[3].

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: «فلتقم» بكسر اللام، وقرأ الجمهور: {ولتأت طائفة}، بالتاء، وقرأ أبو حيوة: «وليأت» بالياء[4].

قوله تعالى:{وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ} [النساء : ١٠٢]، أي:" وليحذروا مِن عدوهم وليأخذوا أسلحتهم"[5].

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر في الأخذ؟

قلت: جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ، وجعلا مأخوذين. ونحوه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} [الحشر : ٩]، جعل الإيمان مستقرا لهم ومتبوأ لتمكنهم فيه فلذلك جمع بينه وبين الدار في التبوء"[6].

وفي حمل السلاح في الصلاة قولان:

أحدهما: أنه فرض عند عدم المرض الذي يشق معه حمل السلاح أو التأذي بالمطر، وهذا أحد قولي الشافعي[7].

والثاني: انه سنة مؤكدة، وهذا قول أكثر أهل العلم[8].

قال الواحدي:"والشرط أن لا يحمل سلاحًا نجسًا إن أمكنه ولا يحمل الرمح إلا في طرف الصف أو في الصف الأول لئلا يؤذي به من أمامه"[9].

قوله تعالى:{وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ} [النساء : ١٠٢]، أي:" ودَّ الجاحدون لدين الله أن تغفُلوا عن سلاحكم وزادكم"[10].

قال ابن عطية:" إخبار عن معتقد القوم وتحذير من الغفلة، لئلا ينال العدو أمله "[11].

قال البغوي: " يتمنى الكفار لو وجدوكم غافلين { عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ}"[12].

وقرئ: «وأمتعاتكم»[13].

---

[1] انظر: المغني لابن قدامة:٣٠١/٣، وزاد المسير:٤٦٢/١، والنكت والعيون:٥٢٥/١.

[2] أخرجه الطبري(١٠٣٤٦):ص١٤٥/٩.

[3] أخرجه الطبري(١٠٣٥٠):ص١٤٧/٩.

[4] المحرر الوجيز:١٠٧/٢.

[5] التفسير الميسر:٩٥.

[6] الكشاف:٥٦٠/١.

[7] انظر: "الأم" ١/ ٢١٩، و"أحكام القرآن" لابن العربي ١/ ٤٩٤، و"المغني" ٣/ ٣١١.

[8] نظر: "المغني" لابن قدامة ٣/ ٣١١، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٧١ ، و"شرح صحيح مسلم" للنووي ٦/ ١٢٥.

[9] التفسير البسيط:٥٩/٧، وانظر: الأم:٢١٩/١، والمغني:٣١١/٣ .

[10] التفسير الميسر:٩٥.

[11] المحرر الوجيز:١٠٧/٢.

[12] تفسير البوغي:٢٨٠/٢.

[13] انظر: الكشاف:٥٦٠/١.

قوله تعالى:{فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً} [النساء : ١٠٢]، أي:"ليحملوا عليكم حملة واحلة فيقضوا عليكم"[١].
قال الزمخشري:أي:" فيشدون عليكم شدة واحدة"[٢].
قال البغوي: " فيقصدونكم ويحملون عليكم حملة واحدة"[٣].
قال ابن عطية:" وفي قوله تعالى: {ميلة واحدة}، بناء مبالغة، أي: مستأصلة لا يحتاج معها إلى ثانية"[٤].
قوله تعالى:{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ} [النساء : ١٠٢]، أي:" ولا إثم عليكم حينئذ إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم في حال مرض، أن تتركوا أسلحتكم"[٥].
قال الطبري:أي:" ولا حرج عليكم ولا إثم إن نالكم أذى من مطر تمطرونه وأنتم مواقفو عدوِّكم أو كنتم جرحى أو أعِلاء ، { أن تضعوا أسلحتكم}، إن ضعفتم عن حملها"[٦].
قال مقاتل بن حيان:" فرخص في وضع السلاح عند ذلك"[٧].
قال ابن عباس:" رخص لهم في وضع الأسلحة لثقلها على المريض وفي المطر"[٨].
قال الزمخشري:أي:" ورخص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم في مطر أو يضعفهم من مرض"[٩].
قال الزجاج:" الجناح الإِثم، وتأويله من جنحت إذا عدَلْتُ عن المكان أي أخَذْتُ جانباً عن القَصْد، فتأويل لا جناح عليكم أي لا تَعدلون عن الحق إن وضَعَتم أسْلِحتكم"[١٠].
قال الواحدي:" ولا حرج على المريض، وفي حالة المطر إن وضعوا أسلحتهم طلبًا للتخفيف، وفي المطر إنما يتعذر حمل السلاح؛ لأنه يصيبه بلل المطر فيسود بالطبع، وأيضاً فإن من الأسلحة ما يكون مبطنًا فيثقل على لابسه إذا ابتل بالماء"[١١].
قال البيضاوي:" رخصة لهم في وضعها إذا ثقل عليهم أخذها بسبب مطر أو مرض، وهذا مما يؤيد أن الأمر بالأخذ للوجوب دون الاستحباب"[١٢].
قال ابن عطية:" كأنهم تلقوا الأمر بأخذ السلاح على الوجوب، فرخص الله تعالى في هاتين الحالتين، وينقاس عليهما كل عذر يحدث في ذلك الوقت"[١٣].
قوله تعالى:{وَخُذُوا حِذْرَكُمْ} [النساء : ١٠٢]، " أي: وكونوا متيقظين واحترزوا من عدوكم"[١٤].
قال الطبري: أي:" ولكن إن وضعتم أسلحتكم من أذى مطر أو مرض ، فاحترسوا من عدوكم أن يميلوا عليكم وأنتم عنهم غافلون غارّون"[١٥].
قال ابن كثير:" أي : بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة"[١٦].

---

[١] التفسير الميسر:٩٥.
[٢] الكشاف:٥٦٠/١.
[٣] تفسير البوغي:٢٨٠/٢.
[٤] المحرر الوجيز:١٠٧/٢.
[٥] التفسير الميسر:٩٥.
[٦] تفسير الطبري:١٦٣/٩.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٠٤):ص١٠٥٥/٤.
[٨] زاد المسير:٤٦٣/١.
[٩] الكشاف:٥٦٠/١.
[١٠] معاني القرآن:٩٩/٢، وانظر: زاد المسير:٤٦٣/١.
[١١] التفسير البسيط:٥٩/٧.
[١٢] تفسير البيضاوي:٩٤/٢.
[١٣] المحرر الوجيز:١٠٧/٢.
[١٤] صفوة التفاسير:٢٧٧.
[١٥] تفسير الطبري:١٦٣/٩.
[١٦] تفسير ابن طثير:٤٠٣/٢.

قال البغوي: " أي: راقبوا العدو كيلا يتغفلوكم، والحذر ما يتقى به من العدو"[١].
قال مقاتل بن حيان:" وأمرهم أن يأخذوا حذرهم"[٢].
قال الزمخشري:" وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهجم عليهم العدو"[٣].
قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء : ١٠٢]، أي:" إن الله تعالى أعدَّ للجاحدين لدينه عذابًا يهينهم، ويخزيهم"[٤].
قال الطبري:أي:" أعدّ لهم عذابًا مُذِلا يبقون فيه أبدًا ، لا يخرجون منه. وذلك هو عذاب جهنم"[٥].
قال مقاتل بن حيان:" يعني بالمهين: الهوان"[٦].
قال ابن عطية:" ثم قوى الله تعالى نفوس المؤمنين بقوله: {إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}"[٧].
قال البيضاوي:" وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم لتقوى قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله سبحانه وتعالى"[٨].
قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف طابق الأمر بالحذر قوله: {إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}؟
قلت: الأمر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واعتزازه، فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم أن الله يهين عدوهم ويخذله وينصرهم عليه، لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لذلك، وإنما هو تعبد من الله كما قال: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة : ١٩٥]"[٩].
وقال البعض ان صلاة الخوف منسوخة بعد وفات النبي-ﷺ-، واستدل بهذه الآية، لكون الخطاب موجه للنبي -ﷺ-[١٠].
قال ابن كثير:" وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله:{وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ }، فبعده تفوت هذه الصفة، فإنه استدلال ضعيف ، ويُرَدُّ عليه مثل قول مانعي الزكاة ، الذين احتجوا بقوله : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ } [التوبة : ١٠٣] قالوا : فنحن لا ندفع زكاتنا بعده ﷺ إلى أحد ، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه ، ولا ندفعها إلى من صلاته ، أي : دعاؤه ، سكن لنا ، ومع هذا ردَّ عليهم الصحابة وأبَوْا عليهم هذا الاستدلال ، وأجبروهم على أداء الزكاة ، وقاتلوا من منعها منهم"[١١].

الفوائد:

١-من الفوائد أن فعل السبب لا يمنع في التوكل وأنه لا يرد ما قدر الله، مع أن فعل الأسباب مأمور به وتركها إلقاء باليد إلى التهلكة، وأن التعرض أو فعل الأسباب التي يحصل بها الموت عمداً يصير ذنباً كبيراً.
لهذا أمر الله تعالى بأخذ الحذر في حالة صلاة الخوف، فلما أمر بصلاة الخوف أمر بأخذ الحذر، معلوم أن المسلمين قد يقول قائلهم: سوف نصلي جماعة والله تعالى يحرسنا

---

[١] تفسير البوغي:٢٨٠/٢.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٠٥):ص١٠٥٥/٤.
[٣] الكشاف:٥٦٠/١.
[٤] التفسير الميسر:٩٥.
[٥] تفسير الطبري:١٦٣/٩.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٠٦):ص١٠٥٥/٤.
[٧] المحرر الوجيز:١٠٧/٢.
[٨] تفسير البيضاوي:٩٤/٢.
[٩] الكشاف:٥٦٠/١.
[١٠] انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس:١١٨، ذكره عن البعض.
[١١] تفسير ابن كثير:٤٠٠/٢.

ويحفظنا، ولكن الله تعالى أخبر بأن المشركين يتحينون الفرص ويحتالون في أن يجدوا غفلة من المؤمنين فيقتلونهم، فقال تعالى: {وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً} [النساء:١٠٢] ، هكذا أخبر عنهم ثم أمرهم بأن يأخذوا الحذر في قوله تعالى: {وَخُذُوا حِذْرَكُمْ} [النساء:١٠٢] ، {وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ} [النساء:١٠٢] يعني في حالة صلاتهم للخوف، {وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ} [النساء:١٠٢] أي: ليكونوا حذرين[١].

٢- ومنها: ان الله تعالى رخص للمؤمنين بقصر الصلاة في السفر خوف الفتنة بادئ الأمر، ثم شرع لهم صلاة الخوف حالة الحرب على عدة صفات تناسب حال المحارب، لعظم شأن الصلاة، وأمرهم فيها أن يحملوا السلاح ويكروا ويفروا إذا اقتضت المصلحة في أثنائها، وهي صحيحة لا تتأثر في ذلك، فأي دين يأمر بالقوة ويجمع بين الحرب والعبادة في آن واحد غير دين المسلمين، حتى قال لهم الله محذراً {وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً} إلى أن قال {وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً}[٢] .

القرآن

{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)} [النساء : ١٠٣]

التفسير:

فإذا أدَّيتم الصلاة، فأديموا ذكر الله في جميع أحوالكم، فإذا زال الخوف فأدُّوا الصلاة كاملة، ولا تفرّطوا فيها فإنها واجبة في أوقات معلومة في الشرع.

قوله تعالى:{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ} [النساء : ١٠٣]، أي:" فإذا أدَّيتم الصلاة"[٣].

قال الزمخشري:أي:" فإذا صليتم في حال الخوف والقتال"[٤].

قال الزجاج:" يعني: به صلاة الخوف هذه"[٥].

قوله تعالى:{فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [النساء : ١٠٣]، أي:" فأكثروا من ذكر الله في جميع أحوالكم: في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم"[٦].

قال الزمخشري:اي:" فصلوها قياما مسايفين ومقارعين وقعودا جاثين على الركب مرامين وعلى جنوبكم مثخنين بالجراح، وقيل: معناه فإذا قضيتم صلاة الخوف فأديموا ذكر الله مهللين مكبرين مسبحين داعين بالنصرة والتأييد في كافة أحوالكم من قيام وقعود واضطجاع، فإن ما أنتم فيه من خوف وحرب جدير بذكر الله ودعائه واللجأ إليه"[٧].

وفي قوله تعالى:{فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [النساء : ١٠٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: فصلوا لله {قيامًا}: للصحيح، {وقعودًا}: للمريض الذي لا يستطيع القيام، روعلى جنوبكم}: للمرضى الذين لا يستطيعون الجلوس. قاله الكلبي[٨].

والثاني: معناه:" أذكروه بتوحيده وشكره وتسبيحه، وكل ما يمكن أن يتقرب به منه". وهذا قول الزجاج[٩].

قال الواحدي:" وهذا القول أولى من قول الكلبي؛ لأنه ذكر بعد هذا حكم صلاة الحضر، فقال: {فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}"[١٠].

---

[١] انظر: شرح الطحاوية لابن جبرين: الدرس الصوتي(٢٩).[مرقم آليا من الشاملة].

[٢] انظر: الاجوبة المفيدة لمهمات العقيدة:٦٠/١.

[٣] التفسير الميسر:٩٥.

[٤] الكشاف:٥٦٠/١.

[٥] معاني القرآن:٩٩/٢.

[٦] التفسير الميسر:٩٥، وصفوة التفاسير:٢٧٧.

[٧] الكشاف:٥٦٠/١.

[٨]انظر: الكشف والبيان: ٤/ ١١٥، تنوير المقباس بهامش المصحف : ٩٥، والتفسير البسيط للواحدي:٦٢/٧.

[٩] انظر: معاني القرآن:٩٩/٢.

[١٠] التفسير البسيط:٦٣/٧.

والثالث: فاذكروا الله باللسان. قاله مقاتل[١].
الرابع: فاذكروا الله على كل أحوالكم، وهذا قول ابن عباس[٢]، واختيار الطبري[٣].
روي عن ابن عباس قوله:{وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا }، يقول : لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذرٍ ، غيرَ الذكرِ ، فإن الله لم يجعل له حدًا ينتهي إليه ، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله ، فقال:{ **فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ**}، بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسرِّ والعلانية ، وعلى كل حالٍ"[٤].
والراجح-والله أعلم- هو قزل ابن عباس، أي: " فإذا فرغتم ، أيها المؤمنون ، من صلاتكم وأنتم مواقفو عدوِّكم التي بيّناها لكم، فاذكروا الله على كل أحوالكم قيامًا وقعودًا ومضطجعين على جنوبكم ، بالتعظيم له ، والدعاء لأنفسكم بالظفر على عدوكم ، لعل الله أن يظفركم وينصركم عليهم. وذلك نظير قوله : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة الأنفال : ٤٥]"[٥].
قوله تعالى:{فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [النساء : ١٠٣]، أي:" فإذا أمنتم وذهب الخوف فأدُّوا الصلاة كاملة"[٦].
قال الزجاج:" أي: إذا سكنت قلوبكم ، فأتموا، لأنهم جُعِلَ لهم في الخوف قصرها، وأمروا في الأمن بإتمامها"[٧].
قال ابن قتيبة:" {فإذا اطمأننتم} أي: من السفر والخوف، {فأقيموا الصلاة} أي: أتموها"[٨].
قال السمرقندي:" يقول: أمنتم ورجعتم إلى منازلكم ، فأتموا الصلاة أربعا"[٩].
قال ابن زيد:" : فإذا اطمأننتم فصلُّوا الصلاة ، لا تصلِّها راكبًا ولا ماشيًا ولا قاعدًا"[١٠].
عن مقاتل بن حيان "قوله: {فإذا اطمأننتم}، يقول: إذا استقررتم وآمنتم"[١١].
وقال الزمخشري:أي:" حين تضع الحرب أوزارها وأمنتم فأقيموا الصلاة فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال التي هي أحوال القلق والانزعاج، وهذا ظاهر على مذهب الشافعي رحمه الله في إيجابه الصلاة على المحارب في حالة المسايفة والمشي والاضطراب في المعركة إذا حضر وقتها، فإذا اطمأن فعليه القضاء. وأما عند أبى حنيفة رحمه الله فهو معذور في تركها إلى أن يطمئن"[١٢].
قال أبو هلال: «الطمأنينة»:" بمعنى الأمن؛ قال اللَّه: {فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، ويجوز أن يكون هذا أيضا بمعنى السكون، قال بعضهم: معناها هاهنا الإقامة؛ أي: فإذا أقمتم فأقيموا الصلاة؛ أي: أتموها"[١٣].
قال الواحدي:" عن أبي علي الجرجاني: أن الطمأنينة ضد الضرب في الأرض لا ضد الخوف، وضد الخوف الأمن، وهذا يدل على أن الخوف غير مشروط في جواز القصر، حيث جعل نهاية جوازه الطمأنينة في الأهل"[١].

---

[١] انظر: تفسير مقاتل بن حيان:٤٠٣/١.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٨٠):ص١٦٤/٩.
[٣] انظر: تفسير الطبري:١٦٤/٩.
[٤] أخرجه الطبري(١٠٣٨٠):ص١٦٤/٩.
[٥] تفسير الطبري:١٦٤/٩.
[٦] التفسير الميسر:٩٥، وصفوة التفاسير:٢٧٧.
[٧] معاني القرآن:٩٩/٢.
[٨] غريب القرآن:١٣٥.
[٩] تفسير السمرقندي:٣٣٤/١.
[١٠] أخرجه الطبري(١٠٣٨٣):ص١٦٥/٩.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩١٥):١٠٥٦/٤.
[١٢] الكشاف:٥٦١/١.
[١٣] الوجوه والنظائر:٣٠٩.

وفي قوله تعالى:{ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [النساء : ١٠٣]، وجهان:
أحدهما : أن «الطمأنينة» ههنا: الرجوع إلى الوطن في دار الإقامة، والمعنى: فإذا أقمتم بعد السفر فأتموا الصلاة من غير قصر ، وهذا قول الحسن[٢]، وقتادة[٣]، ومجاهد[٤].
والثاني : معناه: فإذا أمِنْتم بعد خوفكم فأتموا الركوع والسجود من غير إيماء ولا مشي ، وهذا قول السدي[٥]، وابن زيد[٦].

قال الجصاص:" من تأول القصر المذكور في قوله تعالى: {وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة} على أعداد الركعات، جعل قوله: {فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة} على إتمام الركعات عند زوال الخوف والسفر. ومن تأوله على صفة الصلاة من فعلها بالإيماء أو على إباحة المشي فيها، جعل قوله تعالى: {فأقيموا الصلاة} أمرا بفعل الصلاة المعهودة على الهيئة المفعولة قبل الخوف"[٧].

والراجح-والله أعلم- ام المعنى:" : فإذا زال خوفكم من عدوكم وأمنتم ، أيها المؤمنون ، واطمأنت أنفسكم بالأمن، {فأقيموا الصلاة }، فأتموا حدودَها المفروضة عليكم،غير قاصريها عن شيء من حدودها، لأن الله تعالى ذكره عرَّف عباده المؤمنين الواجبَ عليهم من فرض صَلاتهم بهاتين الآيتين في حالين :
إحداهما : حالُ شدة خوف ، أذن لهم فيها بقصر الصلاة ، على ما بيَّنت من قصر حدودها عن التمام.
والأخرى : حالُ غير شدة الخوف ، أمرهم فيها بإقامة حدودها وإتمامها ، على ما وصفه لهم جل ثناؤه ، من معاقبة بعضهم بعضًا في الصلاة خلف أئمتهم ، وحراسة بعضهم بعضًا من عدوهم. وهي حالة لا قصر فيها"[٨].

قوله تعالى:{إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء : ١٠٣]،أي:" إن الصلاة كانت واجبة في أوقات معلومة في الشرع"[٩].

قال الزجاج:" أي مفروضاً مؤَقتاً فرضه"[١٠].

قال ابن قتيبة:" أي موقتا. يقال: وقته الله عليهم ووقته أي جعله لأوقات، ومنه: {وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ}[١١]، و«وقتت» أيضا مخففة"[١٢].

قال السمرقندي:" يعني: فرضا مفروضا معلوما، للمسافر ركعتان، وللمقيم أربع"[١٣].

قال الزمخشري:أي:" محدودا بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أى حال كنتم، خوف أو أمن"[١٤].

قال الواحدي:" والمراد بالكتاب ههنا: المكتوب، كأنه قيل: مكتوبة موقوتة، ثم حذفت الهاء من الموقوتة، لما جعل المصدر موضع المفعول، والمصدر مذكر، ومعنى الموقوت أنها كتبت عليهم في أوقات مؤقتة"[١٥].

---

[١] التفسير البسيط:٦٤/٧.
[٢] انظر: النكت والعيون:٥٢٦/١.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٨١):ص١٦٥/٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٨٢):ص١٦٥/٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٨٣):ص١٦٥/٩.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٨٤):ص١٦٥/٩.
[٧] أحكام القرآن:٣٣٢/٢.
[٨] تفسير الطبري:١٦٦/٩.
[٩] التفسير الميسر:٩٥، وصفوة التفاسير:٢٧٧.
[١٠] معاني القرآن:٩٩/٢.
[١١][سورة المرسلات : ١١].
[١٢] غريب القرآن:١٣٥.
[١٣] تفسير السمرقنيد:٣٣٥/١.
[١٤] الكشاف:٥٦١/١.
[١٥] التفسير البسيط:٦٤/٧.

وفي قوله تعالى:{إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء : ١٠٣]، وجهان:

أحدهما : أي فرضاً واجباً ، وهو قول ابن عباس[١]، والحسن[٢]، ومجاهد[٣]، وعطية العوفي[٤]، والسدي[٥]، وابن زيد [٦]، وعلي بن الحسين[٧]، ومحمد بن علي[٨]، وسالم بن عبد الله[٩]، ومقاتل بن حيان[١٠].

والثاني : يعني مؤقتة في أوقاتها ونجومها ، كلما مضى نجم جاء نجم ، وهو قول ابن مسعود[١١]، وزيد بن أسلم[١٢].

قال الطبري:" وهذه الأقوال قريب معنى بعضها من بعض. لأن ما كان مفروضًا فواجب ، وما كان واجبًا أداؤه في وقت بعد وقت فمنجَّم، غير أن أولى المعاني بتأويل الكلمة ، قول من قال : إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضًا منجَّمًا، لأن «الموقوت» إنما هو«مفعول» من قول القائل :وَقَتَ الله عليك فرضه فهو يَقِته، ففرضه عليك «موقوت»، إذا أخرته ، جعل له وقتًا يجب عليك أداؤه. فكذلك معنى قوله :{إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا}، إنما هو : كانت على المؤمنين فرضًا وقَّت لهم وقتَ وجوب أدائه ، فبيَّن ذلك لهم"[١٣].

الفوائد:

١-فضيلة الذكر، إذ أن أصحاب العقول الزاكية الوافية يدركون آيات الله التي بثَّها في الكون، ويشغلون ألسنتهم بذكر الله من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير في كل أحوالهم، فالإنسان في دنياه إمَّا أن يكون قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا، وهم يذكرون الله في هذه الأحوال الثلاث، كما قال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [النساء: ١٠٣]، فأثْنى على الذكارين وَوَعدهمْ أجرا عَظِيما فَأمر بِذكرِهِ مُطلقًا، وَبعد الْفَرَاغ من الْعِبَادَات.

٢-أن الصلاة من دعائم الإسلام التي يتم بها النظام، قال تعالى:{ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا} أي فرضًا مؤقتًا، ودليل الأوقات قوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨].

فَتَأمل رَحِمك الله إِلَى هَذِه الْعِبَادَة وَمَا حوت من أَسبَاب السَّلامَة وَتَحْصِيل الدَّرَجَات والفوز بالمثوبات حَتَّى يتفطن لمؤكدات الْكتاب وَالسّنة فِي الحض عَلَيْهَا وَالِاعْتِبَار بهَا فِي غير مَا آيَة وَخبر[١٤].

قال الإمام علي-كرّم الله وجهه-:" تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقرَّبوا بها، فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سُئِلُوا: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} وإنها لَتَحُتُّ الذنوب حَت الورق، وتُطلقها إطلاق الرِّبَقِ، وشبَّهها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحَمَّةِ تكونُ على باب

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٩٥):ص١٦٩/٩، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٩١٧):ص١٠٥٧/٤.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٩١):ص١٦٨/٩.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٩٠)، و(١٠٣٩٢)، و(١٠٣٩٣):ص١٦٧/٩، ١٦٨.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٨٧):ص١٦٧/٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٨٩):ص١٦٧/٩.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٨٨):ص١٦٧/٩.
[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩١٧):ص١٠٥٧/٤.
[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩١٧):ص١٠٥٧/٤.
[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩١٧):ص١٠٥٧/٤.
[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩١٧):ص١٠٥٧/٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٩٧):ص١٦٩/٩.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٣٩٨):ص١٦٩/٩.
[١٣] تفسير الطبري:١٧٠/٩.
[١٤] انظر: تنزيه الانبياء: ابن خمير:١٦٢.

الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمسَ مرات، فما عسى أن يبقى عليه بن الدَّرَنِ، وقد غَرَفَ حَقَّها رجالٌ من المؤمنين"[١].

القرآن

{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)} [النساء : ١٠٤]

التفسير:

ولا تضعفوا في طلب عدوكم وقتاله، إن تكونوا تتألمون من القتال وآثاره، فأعداؤكم كذلك يتألمون منه أشد الألم، ومع ذلك لا يكفون عن قتالكم، فأنتم أولى بذلك منهم، لما ترجونه من الثواب والنصر والتأييد، وهم لا يرجون ذلك. وكان الله عليمًا بكل أحوالكم، حكيمًا في أمره وتدبيره.

سبب النزول:

عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : "لما كان قتال أُحُد ، وأصابَ المسلمين ما أصاب ، صعد النبيّ ﷺ الجبل ، فجاء أبو سفيان فقال :يا محمد ، ألا تخرج ؟ ألا تخرج ؟ الحرب سِجَال ، يوم لنا ويوم لكم " . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : أجيبوه. فقالوا : " لا سواء ، لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فقال أبو سفيان :عُزَّى لنا ولا عُزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ : قولوا له : الله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان : أُعْلُ هُبَل ، أُعْل هبل! فقال رسول الله ﷺ : قولوا له : الله أعلى وأجل! فقال أبو سفيان :موعدنا وموعدكم بدر الصغرى، ونام المسلمون وبهم الكلوم، وقال عكرمة : وفيها أنزلت : {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}[سورة آل عمران : ١٤٠] ، وفيهم أنزلت : {إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليمًا حكيمًا}[٢].

قال مقاتل:" يوم احد -بعد القتل بأيام- فاشتكوا إلى النبي- ﷺ- الجراحات، فأنزل الله- عز وجل-: { إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ}"[٣].

قال الواحدي:" المراد بالقوم ههنا: أبو سفيان وأصحابه، لما انصرفوا عن أحد منهزمين، وقد قذف الله في قلوبهم الرعب، أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يسير في آثارهم بعد الوقعة بأيام، فندب النبي - ﷺ - الناس لذلك، فاشتكوا ما بهم من الجراحات، فأنزل الله هذه الآية"[٤].

قوله تعالى:{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ} [النساء : ١٠٤]، أي:" ولا تضعفوا في طلب عدوكم وقتاله"[٥].

قال مجاهد:" يقول:لا تضعفوا في ابتغاء القوم"[٦].

قال مقاتل:" يقول: ولا تعجزوا: كقوله: {فما وهنوا}[٧]، يعني فما عجزوا"[٨].

قال الماوردي:" أي: لا تضعفواْ في طلبهم لحربهم"[٩].

قال الزجاج:" لا تضعفوا في طلب القوم بالحرب، هذا خطاب للمؤمنين، والقوم ههنا الكفار الذين هم حربُ المؤمنين"[١٠].

---

[١] النهج:٤٥٧.

[٢] أخرجه الطبري(١٠٤٠٧):ص١٧٣/٩.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٤/١.

[٤] التفسير البسيط:٦٥/٧. كما ذكره دون عزو السمرقندي في "بحر العلوم" ١/ ٣٨٤، والثعلبي في "الكشف والبيان" ٤/ ١١٥ ب، والبغوي في "معالم التنزيل" ٢/ ٢٨٢.

[٥] التفسير الميسر:٩٥.

[٦] تفسير مجاهد:٢٩١.

[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٤/١.

[٨] [سورة آل عمران: ١٤٦].

[٩] النكت والعيون:٥٢٦/١.

[١٠] .معاني القرآن:١٠٠/٢

قوله تعالى:{إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} [النساء : ١٠٤]، " أي: إن كنتم تتألمون من الجراح والقتال فإنهم يتألمون أيضاً منه كما تتألمون"[١].

قال مقاتل:" يعني: يتوجعون كما تتوجعون"[٢].

قال الزجاج:" أي: إن تكونوا توجَعُون فإنهم يجدون من الوجع بما يَنَالهم من الجراح والتَعَبَ كما تجدون"[٣].

قال الماوردي:" أي: ما أصابهم منكم فإنهم يألمون به كما تألمون بما أصابكم منهم"[٤].

قال أبو السعود:" تعليل للنهي وتشجيع لهم أي ليس ما تقاسونه من الآلام مختصا بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم إنهم يصبرون على ذلك فما لكم لاتصبرون مع أنكم أولى به منهم "[٥].

قال الزمخشري:" روى أن هذا في بدر الصغرى، كان بهم جراح فتواكلوا"[٦].

وقرأ الأعرج: «أن تكونوا تألمون»، بفتح الهمزة، بمعنى: ولا تهنوا لأن تكونوا تألمون. وقوله: رفإنهم يألمون كما تألمون} تعليل. وقرئ: «فإنهم ييلمون كما تيلمون»[٧].

قوله تعالى:{وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ} [النساء : ١٠٤]، أي:" ولكنكم ترجون من الله الثواب والنصر والتأييد حيث لا يرجونه هم"[٨].

قال مقاتل:" من الثواب والأجر، {ما لا يرجون}، يعني: أبا سفيان وأصحابه"[٩].

قال السمعاني:" أي: وتأملون من الله مالا يأملون، من الظفر في الدنيا، والثواب في الآخرة"[١٠].

قال الزجاج:" أي: أنتم ترجون النصر الذي وعدكم الله به، وإظهار دينكم على سائر أديانِ أهل الملل المخالفة لأهل الإسلام وترجُونَ مع ذلك الجنة، وهم – أعني المشركينَ - لايرجون الجنة لأنهم كانوا غير مقرين بالبعث فأنتم ترجون من الله ما لا يرجون"[١١].

قال الماوردي:" أي: هذه زيادة لكم عليهم وفضيلة خُصِصْتُم بها دونهم مع التساوي في الألم"[١٢].

قال ابن عطية:" ثم تأكد التشجيع بقوله تعالى: {وترجون من الله ما لا يرجون}، وهذا برهان بين، ينبغي بحسبه أن تقوى نفوس المؤمنين"[١٣].

قال أبو السعود:يعني:" حيث ترجون من الله من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب في الآخرة مالا يخطر ببالهم"[١٤].

وفي هذا الرجاء قولان[١٥]:

أحدهما : معناه: أنكم ترجون من نصر الله ما لا يرجون.

والثاني : تخافون من الله لا يخافون، وهذا قول الفراء والكسائي[١]، ومنه قوله تعالى :{مَا لَكُمْ لاَ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً} [نوح : ٣١]، أي: لا تخافون لله عظمة . ومنه قول الشاعر[٢]:

---

[١] صفوة التفاسير:٢٧٧.
[٢] [سورة آل عمران: ١٤٦].
[٣] .معاني القرآن:١٠٠/٢
[٤] النكت والعيون:٥٢٧/١.
[٥] تفسير أبي السعود:٢٢٨/٢.
[٦] الكشاف:٥٦١/١.
[٧] انظر: الكشاف:٥٦١/١.
[٨]صفوة التفاسير:٢٧٧، والتفسير الميسر:٩٥.
[٩] [سورة آل عمران: ١٤٦].
[١٠] تفسير السمعاني:٤٧٥/١.
[١١] .معاني القرآن:١٠٠/٢
[١٢] النكت والعيون:٥٢٧/١.
[١٣] المحرر الوجيز:١٠٨/٢.
[١٤] تفسير أبي السعود:٢٢٨/٢.
[١٥] انظر: تفسير الطبري:١٧٤/٩-١٧٥، والنكت والعيون:٥٢٧/١.

لا تَرْتَجِي حِينَ تُلاقِي الذَّائِدَا أَسَبْعَةً لاقَتْ مَعًا أَمْ وَاحِدَا
وكما قال أبو ذؤيب الهُذَلِيّ [٣]:
إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ

وهي لغةٌ لأهل الحجاز يقولونها ، بمعنى : ما أبالي ، وما أحْفِلُ[٤]، " وإنما اشتمل الرجاء على معنى الخوف لأن الرجاءَ أمل قد يخاف ألَّا يَتِمَّ"[٥].

قال الزجاج:" قال بعض أهل التفسير: معنى {ترجون} ههنا: تَخَافون، وأجمَعَ أهل اللغة الموثوق بعلمهم: أن الرجاءَ ههنا على معنى الأمل لا على تصريح الخوف"[٦].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء : ١٠٤]، أي:" وكان الله عليمًا بكل أحوالكم، حكيمًا في أمره وتدبيره"[٧].

قال الزمخشري:أي:" لا يكلفكم شيئا ولا يأمركم ولا ينهاكم إلا لما هو عالم به مما يصلحكم"[٨].

قال ابو السعود:"{ عَلِيمًا}: مبالغا في العلم فيعلم أعمالكم وضمائركم، {حكيما}: فيما يأمر وينهى فجدوا في الامتثال بذلك فإن فيه عواقب حميدة"[٩].

قال الطبري:أي:" ولم يزل الله{عليمًا} بمصالح خلقه، {حكيمًا} في تدبيره وتقديره، ومن علمه ، أيها المؤمنون ، بمصالحكم عرّفكم عند حضور صلاتكم وواجب فرض الله عليكم ، وأنتم مواقفو عدوكم ما يكون به وصولكم إلى أداء فرض الله عليكم ، والسلامة من عدوكم. ومن حكمته بصَّركم ما فيه تأييدكم وتوهينُ كيد عدوكم"[١٠].

الفوائد:

١- تحريض الله تعالى المؤمنين، وتقوية عزائمهم في قوله {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ}.

٢- أن التكاليف الشرعية ليس فيها مشقة، سواء كانت أفعالاً أو سلوكاً، فأشق ما فيها الجهاد، الذي فيه تعرض للقتل، ولكن لما علم المؤمنون بعاقبتهم الحميدة من كونهم يناصرون الإسلام وفي سبيل الله هانت عليهم نفوسهم، لما علموا أيضاً بأن الرب سبحانه يمدهم ويقويهم وينزل عليهم الملائكة لتقاتل معهم ويخذل أعداءهم، كان ذلك دافعاً لهم إلى أن يستميتوا، لما علموا بأنهم إذا قتلوا في سبيل الله فهم أحياء عند ربهم يرزقون، كان ذلك أيضاً دافعاً لهم إلى التفاني في سبيل الله، لما علموا أيضاً أن أعداء الله من الكفار يقاتلونهم على كفرهم وتهون عليهم أنفسهم وهم كفار، كانوا أولى منهم بذلك أن يفدوا دينهم الصحيح، إذا كان هؤلاء يفدون دينهم الباطل فنحن نفدي ديننا الصحيح، ولأجل ذلك قال الله تعالى: {وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} [النساء:١٠٤][١١].

٣- ومن الفوائد أن طريق الجهاد ليس مفروشاً بالورود والرياحين، وإنما هو طريق شاق له متاعبه وتبعاته، ولكنه طريق المجد والشرف، وبه تنال سلعة الله تبارك وتعالى في النهاية، قال

---

[١] انظر: معاني القرآن للزجاج:١٠٠/٢، وتفسير الطبري: ١٧٤/٩-١٧٥، وتفسير السمعاني:٤٧٥/١، وغيرها.
[٢] لم أتعرف على قائله، وانظر البيت في معاني القرآن للفراء ١ / ٢٨٦ ، والأضداد لابن الأنباري : ٩ ، واللسان، مادة: "رجا".
(٣)انظر: شرح أشعار الهذليين: ١٤٠، وتخريجه فيه: ص ١٣٨١)، وانظر: خزانة الأدب: ٥/ ٤٩٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري:١٧٤/٩-١٧٥.
[٥] .معاني القرآن:١٠٠/٢
[٦] .معاني القرآن:١٠٠/٢
[٧] التفسير الميسر:٩٥.
[٨] الكشاف:٥٦١/١.
[٩] تفسير أبي السعود:٢٢٨/٢.
[١٠] تفسير الطبري:١٧٥/٩.
[١١] انظر: شرح الطحاوية لابن جبرين:الدرس الصوتي(٧٢).[مرقم آليا].

تعالى: {وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ...}[١].

٤- ومنها: الاحتمال والصبرُ على الشدائد والابتلاءات، ذلك للرجاء فيما عند الله -عز وجل- من الأجرِ والثواب، وأنه مهما جاء من شدائدَ الدنيا فهي منقطعةٌ ولها أجلٌ، فهو ينتظرُ الفرجَ ويرجو الثواب الذي لا ينقطعُ يوم الرجوعِ إلى الله -عزّ وجل-[٢].

القرآن

{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)} [النساء : ١٠٥]

التفسير:

إنا أنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن مشتملا على الحق؛ لتفصل بين الناس جميعًا بما أوحى الله إليك، وبَصَّرك به، فلا تكن للذين يخونون أنفسهم -بكتمان الحق- مدافعًا عنهم بما أيدوه لك من القول المخالف للحقيقة.

في سبب نزول الآيات[١٠٥ إلى ١١٦]:

أخرج الترمذي عن قتادة بن النعمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: "كان أهل بيت منا يُقال لهم: بنو أُبيرقٍ بشر وبُشير ومبشر، وكان بُشير رجلاً منافقاً يقول الشعر، يهجو به أصحاب رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثم ينحله بعض العرب ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، أو كما قال الرجل، وقالوا: ابن الأبيرق قالها، قال: وكانوا أهل بيتِ حاجةٍ وفاقة في الجاهلية والإسلام وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافِطَة من الشام من الدرمك، ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضَافِطَة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حِمْلاً من الدرمك فجعله في مَشْرُبَة له، وفي المشربة سلاح، درع وسيف، فعدي عليه من تحت البيت، فنُقِّبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي إنه قد عُدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا فذُهب بطعامنا وسلاحنا. قال: فتحسسنا في الدار وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أُبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نُرى فيما نُرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أُبيرق قالوا: ونحن نسأل في الدار، والله ما نُرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجل منا له صلاح وإسلام، فلما سمع لبيد اخترط سيفه، وقال: أنا أسرق؟ فواللَّه ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنها أيها الرجل فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فذكرت ذلك له، قال قتادة: فأتيت رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقلت: إن أهل بيت منا أهلُ جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مَشْرُبَةً له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (سآمر في ذلك) فلما سمع بنو أُبيرق أتوا رجلاً منهم يُقال له أُسير بن عروة فكلموه في ذلك فاجتمع في ذلك ناس من أهل الدار، فقالوا: يا رسول اللَّه إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بيّنة ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكلمته، فقال: «عمدت إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير ثبت وبينه» قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أُكلم رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال: الله المستعان، فلم يلبث أن نزل القرآن: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

---

[١] انظر: دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب سلفية لا وهابية:٢٨.

[٢] انظر: أركان الإيمان، علي بن نايف:١٨٠.

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} بني أُبيرق (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ) أي مما قلت لقتادة: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}. (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ) إلى قوله {غَفورًا رَّحِيمًا}، أي: لو استغفروا الله لغفر لهم: (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ) إلى قوله {وَإِثْمًا مُبِينًا} قولهم للبيد: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ} إلى قوله {فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}، فلما نزل القرآن أتى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالسلاح فرده إلى رفاعة. فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد عشا أو عسا - الشك من أبي عيسى - في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً، فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي، هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بُشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية فأنزل الله: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)}. فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، فأخذت رحله فوضعته على رأسها، ثم خرجت به فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان؟ ما كنت تأتيني بخير"[١].

وقد ذكر ابن عباس[٢]، ومجاهد[٣]، وعكرمة[٤]، وقتادة[٥]، والضحاك[٦]، والسدي[٧]، وابن زيد[٨]، وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في سارق بني أُبيرق على اختلاف سياقاتهم وهي وهي متقاربة.

وقد أورد جمهور المفسرين هذا الحديث في سبب نزولها، وأورده بعضهم بسياق مقارب للمذكور، لكن الجميع اتفقوا على أن نزولها كان في بني أبيرق، كالطبري[٩]، والبغوي[١٠]، وابن العربي[١١]، وابن عطية[١٢]، والقرطبي[١٣]، وأبو حيان[١٤]، وابن كثير[١]، والسيوطي[٢]، والشوكاني[٣]، وابن عاشور[٤]، وغيرهم.

---

[١] سنن الترمذي(٣٠٣٦):ص٥/٢٤٤-٢٤٦، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (١٩٥٨):ص٤/ ١٥، والطبراني في "المعجم الكبير"(١٥):ص١٩/ ١٦ – ١٨، والطبري(١٠٤١١):ص٩/١٧٧-١٨١، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ رقم ٥٩٣٣ و٥٩٣٦ و٥٩٤٨ و٥٩٥١ و٥٩٥٥)، والحاكم في "المستدرك" (٤/ ٣٨٥ - ٣٨٨)، وابن المنذر وأبو الشيخ في "تفسيريهما"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (١/ ٥٦٥)، والمزي في "تهذيب الكمال" (٢١/ ٤٨٣ - ٤٨٤).
وسنده ضعيف؛ فيه عمر بن قتادة هذا لم يرو عنه سوى ولده عاصم، ولم يوثقه سوى ابن حبان في "الثقات" (٥/ ١٤٦)؛ ولذا قال الذهبي في "الميزان" (٣/ ٢١٨): "لا يُعرف إلا من رواية ولده عنه"، وقال الحافظ في "التقريب" (٢/ ٦٢): "مقبول"؛ حيث يتابع، وإلا؛ فلين. ولم يتابع عليه.
وصرح ابن إسحاق بالتحديث في رواية الحاكم.
قال الترمذي: "هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني".
بل رواه -أيضاً- مسنداً يونس بن بكير عند الحاكم.
وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه! " وسكت عنه الذهبي.
وهذا منهم عجيب؛ فمسلم لم يخرج لابن إسحاق في "الأصول"، وكذا عمر بن قتادة.
وحسنه الإمام أبو عبد الرحمن الألباني -رحمه الله- في "صحيح الترمذي".

[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٤١٣):ص٩/١٨٣-١٨٤.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٠٩):ص٩/١٧٦-١٧٧.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٤١٦):ص٩/١٨٦-١٨٨.
(٥)انظر: تفسير الطبري(١٠٤١٢):ص٩/١٨٢-١٨٣
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٤١٧):ص٩/١٨٨.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٤١٥):ص٩/١٨٥-١٨٦.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٤١٤):ص٩/١٨٣-١٨٥.
[٩]انظر: تفسير الطبري:٩/١٧٥-١٨٨.
[١٠] انظر: تفسير البغوي:١/٦٩٨-٦٩٩.
[١١] انظر: أحكام القرآن:١/٦٢٦.
[١٢] انظر: المحرر الوجيز:٢/١٠٨-١٠٩.
[١٣] انظر: تفسير القرطبي:٥/٣٧٥-٣٧٦.
[١٤] انظر: البحر المحيط:٤/٥٥.

قوله تعالى:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} [النساء : ١٠٥]، أي:" إنا أنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن مشتملا على الحق"[٥].
يحتمل قوله تعالى:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} [النساء : ١٠٥]، ثلاثة أوجه[٦]:
أحدها : أن الكتاب حق .
والثاني : أن فيه ذكر الحق .
والثالث : أنك به أحق .
وذكر الماتريدي في قوله:{ بِالْحَقِّ} [النساء : ١٠٥]، وجوها[٧]:
أحدها: بحق الله عليكم، أنزل إليك الكتاب.
والثاني: بحق بعض على بعض أنزل إليك الكتاب؛ لتحكم بين الناس.
والثالث: أي: بالمحنة يمتحنهم بها؛ إذ في عقل كل أحد ذلك، وإهمال كل ذي لب لا يؤمر ولا ينهى - خروج عن الحكمة.
والرابع: بالعواقب؛ لتكون لهم العاقبة.
ثم قال:"إذ الحق صفة لكل ما يحمد عليه فاعله، والباطل لما يذم"[٨].
قوله تعالى:{لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [النساء : ١٠٥]، أي:" لتحكم بين الناس بما عرّفك الله وأوحى به إليك"[٩].
قال عطية:" النبي ﷺ أراه الله كتابه"[١٠].
قال الزمخشري:" بما عرفك وأوحى به إليك"[١١].
قال ابن عباس:"{ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}، يقول: بما أنزل الله إليك من الكتاب"[١٢].
قال الواحدي:" وهذا يدل أن رأيه - ﷺ - كله وحيًا"[١٣].
قال التستري:" يعني: بما علمك الله تعالى من الحكمة في القرآن وشرائع الإسلام"[١٤].
قال ابن العربي:" أي: بما أعلمك، وذلك بوحي أو بنظر"[١٥].
وعن مطر في قوله: "{لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}، قال: بالبينات والشهود"[١٦].
قال ربيعة:" إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن وترك فيه موضعا للسنة، وسن الرسول ﷺ السنة وترك فيها موضعا للرأي"[١٧].
وفي رواية عن ابن عباس:" إياكم والرأي، قال الله تعالى لنبيه: احكم بينهم بما أراك الله، ولم يقل: بما رأيت"[١٨].
قال السيوطي: "أخرج ابن المنذر عن عمرو بن دينار، أن رجلاً قال لعمر: {بما أراك الله}، قال: مه، إنما هذِه للنبي - ﷺ – خاصة"[١].

---

[١] انظر: تفسير ابن كثير:٢/٤٠٥-٤٠٧.
[٢] انظر: الدر المنثور:٢/٦٧٠-٦٧١.
[٣] انظر: فتح القدير:١/٥٩٠-٥٩٢.
[٤] انظر: التحرير والتنوير:٥/١٩١-١٩٢.
[٥] التفسير الميسر:٩٥.
[٦] انظر: النكت والعيون:١/٥٢٨.
[٧] انظر: تفسير الماتريدي:٣/٣٥٢-٣٥٣.
[٨] تفسير الماتريدي:٣/٣٥٣.
[٩] صفوة التفاسير:٢٧٧.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٣١):ص٤/١٠٥٩.
[١١] الكشاف:١/٥٦٢.
[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٣٠):ص٤/١٠٥٩.
[١٣] التفسير البسيط:٧/٧٠.
[١٤] تفسير التستري:٥٥.
[١٥] أحكام القرآن:١/٦٢٦.
[١٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٣٢):ص٤/١٠٥٩.
[١٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٢٨):ص٤/١٠٥٩.
[١٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٢٩):ص٤/١٠٥٩.

ونقل الواحدي عن الحسن: «رأي الأنبياء عليهم السلام وحي»، ثم تلا هذه الآية"[٢].
وعن ابن وهب قال: "قال لي مالك: الحكم الذي يحكم به بين الناس على وجهين، فالذي يحكم بالقرآن والسنة الماضية فذلك الحكم الواجب والصواب، الحكم الذي يجتهد فيه العالم نفسه فيما لم يأت فيه شيء فلعله أن يوفق، قال: وثالث متكلف لما لا يعلم فما أشبه ذلك أن لا يوفق"[٣].
قوله تعالى:{وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء : ١٠٥]، أي:" فلا تكن للذين يخونون أنفسهم -بكتمان الحق- مدافعًا عنهم بما أيدوه لك من القول المخالف للحقيقة"[٤].
قال الزجاج:" أي: لا تكن مخاصماً ولا دَافِعاً عن خَائِن"[٥].
قال قتادة بن النعمان:" أي: بني أبيرق"[٦].
قال الزمخشري:" ولا تكن لأجل الخائنين مخاصما للبرآء، يعنى: لا تخاصم اليهود لأجل بنى ظفر"[٧].
قال الراغب:" معناه: لا تخاصم الناس لأجل الخائنين، ومعناه كمعنى قوله: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [النساء : ١٠٧]"[٨].
قال المراغي:" أي ولا تكن لمن خان خصما: أي مخاصما ومدافعا تدافع عنه من طالبه بحقه الذي خان فيه، وخلاصة ذلك- إن عليك ألا تتهاون فى تحرى الحق اغترارا بلحن الخائنين وقوة جدلهم فى الخصومة، لئلا تكون خصيما لهم وتقع فى ورطة الدفاع عنهم، ويؤيد هذا حديث أم سلمة « إنكم تختصمون إليّ وإنما انا بشر ولعل بعضكم الحن بحجته، أو قد قال: لحجته من بعض. فإنما اقضى بينكم على نحو ما اسمع. فمن قضيت له من حق اخيه شيئا فلا ياخذه، فإنما اقطع له قطعة من النار ياتى بها إسطاما فى عنقه يوم القيامة »[٩]"[١٠].
قال الماتريدي:" قال أكثر أهل التفسير: إنه هم أن يقوي سارقا - يقال له: طعمة - ويصدقه في قوله؛ فنزل قوله: {ولا تكن للخائنين خصيما}؛ فلو لم يقولوا ذلك كان أوفق وأحسن، فإن كان ما قالوا، فذلك لم يظهر منه الخيانة عنده؛ إذ ذكر في القصة أنه وجد السرقة في دار غيره"[١١].
قال الواحدي:" وخصيمك الذي يُخاصمك، وجمعه خصماء، وأصله من الخصم وهو ناحية الشيء وطرفه، والخصم طرف الراوية، وطرف الفراش، وقيل للخصمين خصمان؛ لأخذ كل واحد منهما في ناحية من الحجج والدعوى وخصوم السحابة جوانبها ، قال الأخطل[١٢]:
إذا طعنتْ فيها الجنوبُ تحاملتْ باعجازِ جرّارٍ تداعى خُصومُها
أي: تجاوب جوانبها بالرعد، وطعن الجنوب فيها سوقها إياه. والجرّار الثقيل ذو الماء، تحاملت باعجازه: دفعت أواخره"[١٣].
قال القرطبي:" في هذه الآية تشريف للنبي ﷺ وتكريم وتعظيم وتفويض إليه، وتقويم أيضا على الجادة في الحكم، وتأنيب على ما رفع إليه من أمر بني أبيرق"[١٤].
الفوائد:

---

[١] الدر المنثرو:٣٨٦/٢.
[٢] التفسير البسيط:٧١/٧.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٢٨):ص١٠٥٩/٤.
[٤] التفسير الميسر:٩٥.
[٥] معاني القرآن:١٠١/٢.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٣٣):ص١٠٥٩/٤-١٠٦٠ وغيره كما في سبب النزول.
[٧] الكشاف:٥٦٢/١.
[٨] المفردات في غريب القرآن:٧٥٥.
[٩] تفسير المراغي:١٤٨/٥.
[١٠] أخرجه احمد(٣٢٠/٦، وأبو داود(٣٥٨٤)، و(٣٥٨٥).
[١١] تفسير الماتريدي:٣٥٣/٣.
[١٢]ديوان الأخطل ص ٣١٩، و"تهذيب اللغة" ١/ ١٠٤٢، و"اللسان" ٢/ ١١٧٧ (خصم)، والجنوب: ريح الجنوب.
[١٣] التفسير البسيط:٧١/٧.
[١٤]تفسير القرطبي:٣٧٥/٥.

١-التحذير من العمل بحديث النفس، قال الشاطبي:" فأما العمل بحديث النفس والعارض في القلب فلا، فإن الله حظر ذلك على نبيه فقال: {إنا أنزلنا إليك الكتاب، بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله}، فأمره بالحكم بما أراه الله لا بما رآه، وحدثته به نفسه، فغيره من البشر أولى أن يكون ذلك محظورا عليه، وأما إن كان جاهلا فعليه مسألة العلماء دون ما حدثته نفسه"[١].

ونقل عن عمر رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال: أيها الناس، قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يمينا وشمالا، وصفق بإحدى يديه على الأخرى ثم قال: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل: لا نجد حدين في كتاب الله، فقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا»[٢]، إلى آخر الحديث

٢-في الآية الرد على من يشترط في القضاء علم الكتابة، مع أنه لا دليل عليه، بل إن الدليل قائم على خلافه، فإن خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والسلام كان له منصب القضاء بلا ريب، لقوله تعالى: {أَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} ولم يتصف بالكتابة، لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [العنكبوت : ٤٨]، مع أنه لم يلحقه قصور من ذلك[٣].

٣-وفيه دليل أن أقواله-ﷺ- كلها ليس وحي، ، "لأن أقواله - ﷺ - لو كانت كلها وحيا فلم قال الله تعالى :: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} [التوبة : ٤٣]، وقال تعالى {ولا تكن للخائنين خصيما}.."[٤].

٤- أن السنة لا تخالف القرآن لأنهما من مصدر واحد، قال تعالى :{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء: ١٠٥]، وقال أيضا: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى - إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣ - ٤]، فكل ما اجتهد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من أمر الشريعة فهو حق لأن الله لا يقره بباطل أبدا، وكل ما ثبت عن الرسول ﷺ بخبر العدل الضابط عن مثله إلى رسول الله يجب اعتقاده والعمل به سواء جاءنا متواترا أو آحادا[٥].

القرآن

{وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦)} [النساء : ١٠٦]

التفسير:

واطلب من الله تعالى المغفرة في جميع أحوالك، إن الله تعالى كان غفورًا لمن يرجو فضله ونوال مغفرته، رحيمًا به.

قوله تعالى:{وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ} [النساء : ١٠٦]، أي:" واطلب من الله تعالى المغفرة في جميع أحوالك"[٦].

قال قتادة بن النعمان:" فلم يلبث أن نزل القرآن، {واستغفر الله}، أي: مما قلت لقتادة"[٧].

قال الزجاج:" أمره بالاستغفار مما هم به"[٨].

---

[١] الالعتصام للشاطب:٧٤/٣.

[٢]رواه الإمام البخاري في كتاب الحدود من صحيحه، باب الاعتراف بالزنا، والباب الذي يليه عن عمر رضي الله عنه، مع اختلاف يسير في اللفظ (١٢/ ١٣٧، ١٤٤ فتح)، والإمام مسلم في كتاب الحدود من صحيحه، باب حد الزنا وذكره بلفظ البخاري الثاني (١١/ ١٩١ ـ ١٩٢)، والإمام أبو داود في كتاب الحدود من سننه، باب في الرجم، وذكره قريبا من لفظ الصحيحين (٤/ ١٤٣) والإمام ابن ماجه في كتاب الحدود من سننه، باب الرجم وذكره بلفظ الصحيحين (٢/ ٨٥٣)، والإمام الترمذي في كتاب الحدود من سننه، باب ما جاء في تحقيق الرجم وذكره بلفظين أحدهما أخصر من الآخر (٤/ ٢٩ ـ ٣٠)، والإمام الدارمي في كتاب الحدود من سننه، باب في حد المحصنين بالزنا (٢/ ٢٣٤)، ورواه الإمام مالك في كتاب الحدود من الموطأ، باب ما جاء في الرجم (٢/ ٨٢٤)، والإمام أحمد في مواضع من المسند (١/ ٢٣، ٢٩، ٣٦)..

[٣] انظر: السيوف المشرقة ومختصر الصواعق المحرقة، خواجة نصر الله الهندي المكي:٦٥٢.

[٤] مختصر التحفة الاثني عشرية:٢٤٩/١.

[٥] انظر: القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة، عبدالرحمن بن عبدالخالق:١٣٦-١٣٧[الكتاب مرقم آليا من الشاملة].

[٦] التفسير الميسر:٩٦.

[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٣٤):ص١٠٦٠/٤.

[٨] معاني القرآن:١٠١/٢.

قال مقاتل:" فاستغفر النبي- ﷺ- عند ذلك"[1].
قال الطبري:" وقد قيل إن النبي ﷺ لم يكن خاصم عن الخائن ، ولكنه هَّم بذلك ، فأمره الله بالاستغفار مما هَمَّ به من ذلك"[2].
قال البغوي:أي:" مما هممت به من معاقبة اليهودي"[3].
قال الكلبي:" واستغفر الله يا محمد من همك باليهودي أن تضربه"[4].
ونقل الثعلبي عن ابن عباس:"واستغفر الله مما هممت به من قطع يد زيد"[5].
وقال الطبري: أي:" واستغفر الله " ، يا محمد ، وسَلْه أن يصفح لك عن عقوبة ذنبك في مخاصمتك عن الخائن من خان مالاً لغيره"[6].
قال ابن عطية:" ذهب الطبري إلى أن المعنى: «استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين»[7]، للخائنين»[7]، وهذا ليس بذنب، لأن النبي ﷺ إنما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءتهم، والمعنى: استغفر للمذنبين من أمتك والمتخاصمين في الباطل، لا أن تكون ذا جدال عنهم، فهذا حدك، ومحلك من الناس أن تسمع من المتداعيين وتقضي بنحو ما تسمع، وتستغفر للمذنب"[8].
قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ١٠٦]، أي:" ، إن الله تعالى كان غفورًا لمن يرجو فضله ونوال مغفرته، رحيمًا به"[9].
قال الطبري:أي:" إن الله لم يزل يصفح عن ذنوب عباده المؤمنين ، بتركه عقوبتهم عليها إذا استغفروه منها، {رحيما} بهم"[10].
قال الثعلبي:" فإن قيل: قد أمر بالاستغفار، قلنا: هو لا يوجب وجود الذنب ولا يجب أن يستغفر كما أمر في سورة الفتح بالاستغفار من غير ذنب مقدم.
واعلم أن الاستغفار في جميع الأنبياء يعد وجوه منها ثلاثة أوجه: يكون لذنبه مقدم مثل النبوة، ويكون لذنب أمته وقرابته ويكون لترك المباح قبل ورود الحضر، ومعناه بالسمع والطاعة لما أمرت به ونهيت عنه وحملت التوفيق عليه"[11].
الفوائد:
١-فضيلة الاستغفار.
٢-ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغي لمن استفتي أن يقدم بين يدي الفتوى الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتى يتبين له الحق، واستنبطه من قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً، وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً} ، [النساء:١٠٥-١٠٦][12].

القرآن

{وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧)} [النساء : ١٠٧]
التفسير:

---
[1] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٥/١.
[2] تفسير الطبري:١٧٦/٩.
[3] تفسير البغوي:٦٩٩/١.
[4] تفسير الثعلبي:٣٨١/٣.
[5] تفسير الثعلبي:٣٨١/٣.
[6] تفسير الطبري:١٧٦/٩.
[7] انظر: تفسير الطبري:١٧٦/٩.[بتصرف]
[8] المحرر الوجيز:١٠٩/٢.
[9] التفسير الميسر:٩٦.
[10] تفسير الطبري:١٧٦/٩.
[11] تفسير الثعلبي:٣٨٢/٣.
[12] انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد:٣٨/٢، الهامش..

ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بمعصية الله. إن الله -سبحانه- لا يحب مَن عَظُمَتْ خيانته، وكثر ذنبه.

قوله تعالى:{وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} [النساء : ١٠٧]، أي:" ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بمعصية الله"[١].

قال قتادة بن النعمان:" بني أبيرق"[٢].

قال الثعلبي:" يعني: يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة ويرمي بها اليهودي"[٣].

قال الزجاج:" يعني: أبا طعمة ومن عاونه من قومه، وهم يعلمون أنه سارق، ويروى أن أبا طعمة هذا هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام، وأنه نقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله"[٤].

قال الجصاص:" جائز أن يكون صادف ميلا من النبي ﷺ على اليهودي بوجود الدرع المسروقة في داره وجائز أن يكون هم بذلك فأعلمه الله براءة ساحة اليهودي ونهاه عن مجادلته عن المسلمين الذين كانوا يجادلون عن السارق وقد كانت هذه الطائفة شاهدة للخائن بالبراءة سائلة للنبي ﷺ أن يقوم بعذره في أصحابه وأن ينكر ذلك على من ادعى عليه فجائز أن يكون النبي ﷺ أظهر معاونته لما ظهر من الطائفة من الشهادة ببراءته وأنه ليس ممن يتهم بمثله فأعلمه الله باطن أمورهم"[٥].

قال الماتريدي:" لما رجع في العاقبة ضرر الخيانة إلى أنفسهم، صاروا كأنهم اختانوا أنفسهم كقوله: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ} [البقرة : ٩]"[٦].

قال الزمخشري:أي:" يخونونها بالمعصية. كقوله: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة: ١٨٧]، جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلما لها: لأن الضرر راجع إليهم"[٧].

قال الواحدي:" والاختيان كالخيانة، يقال: خانه واختانه. وذكر ذلك عند قوله: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة: ١٨٧]، ومعنى {يختانون أنفسهم}: يخونوها بالمعصية، والعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه.

ويجوز أن يكون المعنى: أن وبال خيانتهم راجع إليهم بالفضيحة في الدنيا والعقوبة في الآخرة، فكأنهم خانوا أنفسهم وإن خانوا غيرهم في الظاهر بالسرقة كما يقال لمن ظلم غيره: إنه قد ظلم نفسه، وقد صرحت الآية بالنهي عن المجادلة عن الظالمين في القليل والكثير"[٨].

وإن "قلت: لم قيل: «للخائنين» و{يختانون أنفسهم}، وكان السارق طعمة وحده؟ قلت: لوجهين:

أحدهما: أن بنى ظفر شهدوا له بالبراءة ونصروه، فكانوا شركاء له في الإثم.

والثاني: أنه جمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانته، فلا تخاصم لخائن قط ولا تجادل عنه"[٩].

عنه"[٩].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [النساء : ١٠٧]، أي:" إن الله -سبحانه- لا يحب مَن عَظُمَتْ خيانته، وكثر ذنبه"[١٠].

قال السمعاني:" الخوان: الخائن والأثيم: ذو الإثم"[١].

---

[١] التفسير الميسر:٩٦.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٣٦):ص١٠٦٠/٤، وغيره.

[٣] تفسير الثعلبي:٣٨٢/٣.

[٤] معاني القرآن:١٠١/٢.

[٥] أحكام القرآن:٢٦٥/٣.

[٦] تفسير الماتريدي:٣٥٤/٣.

[٧] الكشاف:٦٦٢/١.

[٨] التفسير البسيط:٧٥/٧.

[٩] الكشاف:٦٦٢/١.

[١٠] التفسير الميسر:٩٦.

قال مقاتل:{ خَوَّانًا}، في دينه، { أَثِيمًا}، بربه"[٢].

قال الواحدي:" أَيْ: طعمة لأنَّه خان في الدِّرع وأَثِم في رميه اليهوديَّ"[٣].

قال الثعلبي:" يعني: خائنا في الدرع، أثيما في رميه اليهودي، قد قيل فيه: إن الخطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره، كقوله: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ} [يونس : ٩٤]، والنبي لا يشك مما أنزل الله"[٤].

عن سفيان بن عيينة:" {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ }، قال: لا يقرب"[٥].

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم قيل {خوانا أثيما}، على المبالغة؟

قلت: كان الله عالما من طعمة بالإفراط في الخيانة وركوب المآثم، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك في حاله. وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات.

وعن عمر رضى الله عنه أنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكى وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه. فقال: كذبت، إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة»[٦]"[٧].

الفوائد:

١- نهى الله نبيه وعباده عن المجادلة عمن فعل ما دون الشرك من الذنوب بقوله: {وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} الآية. فكيف بمن جادل عن المشركين، وصد عن دين رب العالمين؟[٨].

٢-في هذه الآية دليل على النهي عن المجادلة عن من أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير فإنه لا يجادل عنه، بدفع ما صدر عنه من الخيانة أو تبرير ما ارتكبه من جريمة لغرض إسقاط ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية[٩].

٣-وفي قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} دليل على انتفاء حب الله لمن كان بهذا الوصف، وإذا انتفى الحب ثبت ضده وهو البغض فمن اللائق بالمسلم أن يحب ما أحب الله، ويبغض ما أبغضه الله، ولا يكون مخالفا لله في حب ما يبغض وبغض ما يحب، فإن هذا السلوك لا يجوز أن يصدر من مسلم ملتزم بالإسلام التزاما صادقا[١٠].

٤-والآية فيها الرد على القائلين بأن: "أقوال الرسول كلها وحي"[١١]، قال الدهلوي:" وأما قولهم إن أقوال الرسول كلها وحي فمردود، لأن أقواله - ﷺ - لو كانت كلها وحيا فلم قال الله تعالى {عفا الله عنك لم أذنت لهم} وقال تعالى {ولا تكن للخائنين خصيما} وقال تعالى {ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم} وقال تعالى في المعاتبة عن أخذ الفدية من أسارى بدر[١٢] {لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم}"[١].

---

[١] تفسير السمعاني:٤٧٦/١.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٥/١.

[٣] الوجيز:٢٨٧.

[٤] تفسير الثعلبي:٣٨٢/٣.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٣٧):ص١٠٦١/٤، وغيره.

[٦] لم اجده، وقد ذكره الزمخشري في الكشاف:٥٦٣/١، والنسفي في تفسيره:٣٩٣/١، والخازن في تفسيره:٤٢٥/١، وأبو حيان في البحر:٤٧/٤، والنيسابوري في تفسيره:٤٩٢/٢، والطنطاوي في التفسير الوسيط:٣٠٠/٣، وغيرهم.

[٧] الكشاف:٥٦٢/١-٥٦٣.

[٨] انظر: الرسائل الشخصية،ج٦، الشيخ محمد بن عبدالوهاب:١٩٣.

[٩] انظر: الموالاة والمعاداة في الشريعة الاسلامية، محماس بن عبدالله:٨٥/١.

[١٠] انظر:تفسير السعدي:١٥٤/٢، والموالاة والمعاداة في الشريعة الاسلامية، محماس بن عبدالله:٨٥/١.

[١١] انظر: ختصر التحفة الاثني عشرية، الدهلوي:٢٤٩/١.

[١٢]أخرج مسلم في قصة أسارى بدر عن عمر بن الخطاب قال: «رسول الله - ﷺ - لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله - ﷺ -: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكني من فلان - نسيبا لعمر - فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله - ﷺ - ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله - ﷺ - وأبو بكر قاعدين يبكيان قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله - ﷺ -: أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء لقد

القرآن

{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨)} [النساء : ١٠٨]

التفسير:

يستترون من الناس خوفًا من اطلاعهم على أعمالهم السيئة، ولا يستترون من الله تعالى ولا يستحيون منه، وهو عزَّ شأنه معهم بعلمه، مطلع عليهم حين يدبِّرون -ليلا- ما لا يرضى من القول، وكان الله -تعالى- محيطًا بجميع أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه منها شيء.

قوله تعالى:{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ} [النساء : ١٠٨]، "أي: يستترون من الناس خوفاً وحياءً"[٢].

قال ابن عباس:" ثم قال للذين أتوا رسول الله ﷺ ليلا مستخفين بالكذب: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ }"[٣].

قال الثعلبي:" أي: يستترون ويستحيون من الناس"[٤].

قال الطبري:أي:" يستخفي هؤلاء الذين يختانون أنفسهم ، ما أتَوْا من الخيانة ، وركبوا من العار والمعصية، من الذين لا يقدرون لهم على شيء ، إلا ذكرهم بقبيح ما أتَوْا من فعلهم ، وشنيع ما ركبوا من جُرْمهم إذا اطلعوا عليه ، حياءً منهم وحذرًا من قبيح الأحدوثة"[٥].

قوله تعالى:{وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ} [النساء : ١٠٨]، أي:" ولا يستترون من الله تعالى ولا يستحيون منه"[٦].

قال الثعلبي:" أي: [ولا] يستترون ولا يستحيون من الله"[٧].

قال الطبري:"وقد قيل : عنى بقوله :{يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله}، الرهطَ الذين مشوا إلى رسول الله ﷺ في مسألة المدافعة عن ابن أبيرق والجدال عنه"[٨].

قال ابن كثير:" هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم ، ويجاهرون الله بها لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم"[٩].

قوله تعالى:{وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ} [النساء : ١٠٨]، أي:" وهو عزَّ شأنه معهم بعلمه، مطلع عليهم حين يدبِّرون -ليلا- ما لا يرضى من القول"[١٠].

قال ابن كثير:" تهديد لهم ووعيد"[١١].

قال الطبري: " يعني : والله شاهدهم حين يسوُّون ليلا ما لا يرضى من القول ، فيغيِّرونه عن وجهه ، ويكذبون فيه"[١٢].

قال الثعلبي:" {وهو معهم} يعني علمه"[١٣].

عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة شجرة قريبة من نبي الله - ﷺ - وأنزل الله عز وجل {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض} إلى قوله: {فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا} فأحل الله الغنيمة لهم». صحيح مسلم: ٣/ ١٣٨٥، رقم ١٧٦٢..

[١]مختصر التحفة الاثني عشرية:٢٤٩/١.

[٢] صفوة التفاسير:٢٧٨.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٤٠):ص١٠٦١/٤.

[٤] تفسير الثعلبي:٣٨٢/٣.

[٥] تفسير الطبري:١٩١/٩.

[٦] التفسير الميسر:٩٦.

[٧] تفسير الثعلبي:٣٨٢/٣.

[٨] تفسير الطبري:١٩٢/٩.

[٩] تفسير ابن كثير:٤٠٧/٢.

[١٠] التفسير الميسر:٩٦.

[١١] تفسير ابن كثير:٤٠٧/٢.

[١٢] تفسير الطبري:١٩١/٩.

[١٣] تفسير الثعلبي:٣٨٢/٣.

قال أبو رزين:" إذ يؤلفون مالا يرضى من القول"[١]. وروي عن السدي مثل ذلك[٢].

قال الزجاج:" كل ما فُكِّرَ فِيه أوخِيض فيه بليل فقد بُيِّتَ، يعني: به هذا السارق، والذي بيَّتَ من القوم أن قال: أرمِي إليهودِي بأنه سارق الدرع، وأحلِفُ أني لم أسرقها، فتقْبل يميني لأني على ديني، ولا تقبل يمين إليهودي. فهذا ما بُيِّتَ من القول"[٣].

وقد حكى عن بعض الطائيين أن " التبييت " في لغتهم : التبديل ، وأنشد للأسود بن عامر بن جُوَين الطائي في معاتبة رجل[٤]:

وَبَيَّتَّ قَوْلِيَ عَبْدَ الْمَلِيكِ قاتَلَكَ الله عَبْدًا كَنُودًا!!

بمعنى : بدَّلت قولي[٥].

قال الطبري:" : وهذا القول شبيه المعنى بالذي قلناه[أي: كل كلام أو أمرٍ أصلح ليلا][٦]، ليلا][٦]، وذلك أن «التأليف»: هو التسوية والتغيير عما هو به ، وتحويلُه عن معناه إلى غيره"[٧].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء : ١٠٨]، أي:" وكان الله -تعالى- محيطًا بجميع أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه منها شيء"[٨].

قال مقاتل بن حيان:" يقول: أحاط علمه بأعمالهم. ومنهم من يقول: أنزلت في المنافقين"[٩].

قال احمد بن داود:" قد أحاط الله بكل شيء علما، ولم يقل مع كل شيء"[١٠].

قال الطبري:أي:" وكان الله بما يعمل هؤلاء المستخفون من الناس ، فيما أتَوْا من جرمهم ، حياءً منهم ، من تبييتهم ما لا يرضى من القول ، وغيره من أفعالهم {محيطًا}، محصيًا لا يخفى عليه شيء منه ، حافظًا لذلك عليهم ، حتى يجازيهم عليه جزاءهم"[١١].

عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: "من صلى صلاة عند الناس لا يصلي مثلها إذا خلا، فهي استهانة، استهان بها وبه، ثم تلا هذه الآية: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا}"[١٢].

الفوائد:

١- لا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل فريقًا منهم فريقًا عنهم ليحموهم، ويدافعوا عنهم[١٣].

٢-قال الثعلبي:" وتعلقت الجهمية والمعتزلة بهذه الآية، استدلوا منها على إن الله بكل مكان قالوا لما قال وهو معهم ثبت إنه بكل مكان لأنه قد اثبت كونه معهم وقال لهم حق قوله وهو معهم إنه يعلم ما يقولون ولا يخفى عليه فعلهم لأنه العالم بما يظهره الخلق وبما يستره، وليس في وله وهو معهم ما يوجب انه بكل مكان لأنه قال: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ} [الملك : ١٦]، ولم يرد قوله انه في السماء يعني غير الذات لأن القول: أن زيدا في موضع كذا

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٤١):ص١٠٦١/٤.

[٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩٤١):ص١٠٦١/٤.

[٣] معاني القرآن:١٠١/٢-١٠٢.

[٤]البيت للأسود بن عامر الطائي كما في "تفسير الطبري" ٥/ ٢٧١ وهو غير منسوب في "غريب القرآن" لابن قتيبة ١/ ١٢٨، "الكشف والبيان" ٤/ ٩٠ ب، "زاد المسير" ٢/ ١٤٣، القرطبي ٥/ ٢٨٩..

[٥] انظر: تفسير الطبري:١٩١/٩-١٩٢.

[٦] تفسير الطبري:١٩١/٩.

[٧] تفسير الطبري:١٩٢/٩.

[٨] التفسير الميسر:٩٦.

[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٤٢):ص١٠٦١/٤.

[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٤٣):ص١٠٦٢/٤.

[١١] تفسير الطبري:١٩٢/٩-١٩٣.

[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٣٨):ص١٠٦١/٤.

[١٣] انظر: انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي ٧/ ٣٣٨، والمنهاج في شعب الإيمان، د. عبدالقادر بن محمد:٣٥٢/٣.

من غير أن يعتد بذكر فعل أو شيء من الأشياء لا يكون إلا بالذات، وقال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر : ١٠]، وقال: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ} [السجدة : ٥]، فأخبر أنه يرفع الأشياء من السماء ولا يجوز أن يكون معهم بذاته ثم يدبر الأمر من السماء وإليه يصعد الكلم الطيب"[١].

٣-من صفات المنافقين:" تبييت الشر للمسلمين، وتدبير المكائد لهم. ودليل هذه الصفة قول الله عز وجل: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء: ١٠٨] ؛ فمخافة الخلق عند هؤلاء المنافقين أعظم من مخافة الله عز وجل، لذلك تجدهم يحرصون بالوسائل المباحة والمحرمة على تجنب الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم، خصوصا في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول"[٢].

القرآن

{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)} [النساء : ١٠٩]

التفسير:

ها أنتم -أيها المؤمنون- قد حاججتم عن هؤلاء الخائنين لأنفسهم في هذه الحياة الدنيا، فمن يحاجج الله تعالى عنهم يوم البعث والحساب؟ ومن ذا الذي يكون على هؤلاء الخائنين وكيلا يوم القيامة؟

قوله تعالى:{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [النساء : ١٠٩]، أي:" ها أنتم -أيها المؤمنون- قد حاججتم عن هؤلاء الخائنين لأنفسهم في هذه الحياة الدنيا"[٣].

قال ابن عباس:" يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائن"[٤].

قال الزجاج:" يعني: به من احتج عن هذا السارق، وأصل «المجادلة»، و«الجدال» في اللغة: شدة المخاصمة، والجدْل: شدة القَتْل، ورَجُل مجدول، أي: كأنَّه قد قُتِلَ، والأجدَل الصقر، يقال له أجدَل لأنه من أشد الطيور قوةً "[٥].

قال الطبري:أي:" ها أنتم الذين جادلتم ، يا معشر من جادل عن بني أبيرق {في الحياة الدنيا}"[٦].

قال الزمخشري:" المعنى: هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وقومه في الدنيا"[٧].

وفي قوله تعالى:{هَؤُلَاءِ} [النساء : ١٠٩]، وجهان:

أحدهما: أن {هَؤُلَاءِ}: ههنا بمعنى «الذين». وهذا قول الزجاج[٨]، والمعنى: ها أنتم الذين جادلتم، لأن «هؤلاء» و«هذا» يكونان في الإشارة للمخاطبين إلى أنفسهم بمنزلة «الذين»، وقد يكون لغير المخاطبين بمنزلة «الذين»، نحو قول الشاعر [٩]:

عَدَسْ ما لِعَبّادٍ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ أَمِنْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ

أي والذي تحملينه طليق.

---

[١] تفسير الثعلبي:٣٨٢/٣.

[٢] المفيد في مهمات التوحيد:١٩٣.

[٣] التفسير الميسر:٩٦.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٤٤):ص١٠٦٢/٤.

[٥] معاني القرآن:١٠٢/٢.

[٦] تفسير الطبري:١٩٣/٩.

[٧] الكشاف:٥٦٣/١.

[٨] انظر: معاني القرآن١٠٢/٢.

[٩]الشعر ليزيد بن مفرغ الحميري، وتمامه:" عَدَسْ ما لِعَبّادٍ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ ... أَمِنْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ"، قاله في عباد بن زياد، وكان يزيد قد أكثر من هجوه، حتى حبسه وضيق عليه، حتى خوطب في أمره معاوية، فأمر بإطلاق سراحه. فلما خرج من السجن قدمت له بغلة فركبها فنفرت فقال هذا الشعر، في "ديوانه" ص١٧٠، "لسان العرب" ٥/ ٢٨٣٧ "عدس"، وعدس: اسم صوت لزجر البغل..

والثاني: أن {هؤلاء}: إشارة إلى نفس المخاطبين على جهة البيان والتأكيد، كما تقول: فعلت أنت، وفعل هو. وهذا قول الأخفش[١].

وفي قراءة أبي بن كعب :«عنه في الحياة الدنيا»، أى: عن طعمة[٢].

قوله تعالى:{فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [النساء : ١٠٩]،أي:" فمن يحاجج الله تعالى عنهم يوم البعث والحساب؟"[٣].

قال البغوي:" أي: من الذي يذب عنهم، ويتولى أمرهم يوم القيامة"[٤].

قال الزمخشري:أي:" فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه"[٥].

قال الزجاج:" أي: في اليوم الذي يؤخذ فيه بالحقائق، وأمر الدُّنيا يَقوم بالشهادات في الحقوق، وجائز أن تكون الشهادة غير حقيقة، فكأنَّه - واللَّه أعلم - قيل لهم إن يقم الجدال في الدنيا والتغييب عن أمر هذا السارق، فيوم القيامة لا ينفع فيه جدال ولا شهادة"[٦].

قال ابن كثير:" أي : هَبْ أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر - وهم مُتَعَبدون بذلك - فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله ، عز وجل ، الذي يعلم السر وأخفى ؟"[٧].

قال الطبري:أي:" إنكم أيها المدافعون عن هؤلاء الخائنين أنفسهم ، وإن دافعتم عنهم في عاجل الدنيا ، فإنهم سيصيرون في آجل الآخرة إلى من لا يدافع عنهم عنده أحد فيما يحلُّ بهم من أليم العذاب ونَكال العقاب"[٨].

قوله تعالى:{أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء : ١٠٩]، أي:" ومن ذا الذي يكون على هؤلاء الخائنين وكيلا يدافع عنهم يوم القيامة؟"[٩].

قال ابن كثير:أي:" ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم ؟ أي : لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلا"[١٠].

قال الطبري: " أي : ومن يتوكل لهم في خصومة ربهم عنهم يوم القيامة"[١١].

قال الزمخشري:{وكيلا}:أي:" حافظا ومحاميا من بأس الله وانتقامه"[١٢].

قال الفخر:" والوكيل: هو الذي وكل إليه الأمر في الحفظ والحماية، والمعنى: من الذي يكون محافظا ومحاميا لهم من عذاب الله؟"[١٣].

و«الوكالة»: هي "القيام بأمر من توكل له"[١٤].

الفوائد:

١-أن خطاب الآية يدل على وقوع الجدل الكاذب الخؤون من هؤلاء المنافقين المتجمعين الذين كانوا ألحن بحجتهم من خصومهم البرآء، والله يعلم أنه جدل زائف باطل نبه رسوله - صلى الله عليه وسلم - على بطلانه وزيفه فلم ينخدع به رسول الله - ﷺ - في ترتيب شيء عليه من القضاء أو الحكم.

---

[١] انظر: معاني القرآن:٤٥٤/١.
[٢] انظر: تفسير البغوي:٦٩٩/١، والكشاف:٥٦٣/١
[٣] التفسير الميسر:٩٦.
[٤] تفسير البغوي:٦٩٩/١.
[٥] الكشاف:٥٦٣/١.
[٦] معاني القرآن:١٠٢/٢.
[٧] تفسير ابن كثير:٤٠٧/٢-٤٠٨.
[٨] تفسير الطبري:١٩٣/٩.
[٩] التفسير الميسر:٩٦، وصفوة التفاسير:٢٧٨/١
[١٠] تفسير ابن كثير:٤٠٨/٢.
[١١] تفسير الطبري:١٩٣/٩.
[١٢] الكشاف:٥٦٣/١.
[١٣] مفاتيح الغيب:٢١٤/١١.
[١٤] تفسير الطبري:١٩٣/٩.

٢- لما كان الجدل في لدنيا يمكن أن يقع به التمويه والخداع، وكان الجدل في الآخرة مكشوف السوأة لا يخدع به أحد نبه الله تعالى على أن جدلهم في الدنيا وإن كان خادعاً لم ينفعهم بشيء لأن الله تعالى أعلم رسوله - ﷺ - ونبهه على ما فيه من خيانة وخداع، ولكن جدل الآخرة لا يمكن أن يقع بسببه خداع ولا خيانة لأن الحاكم إذ ذاك هو الله وحده علام الغيوب فقال لهم منكراً مقرعاً {فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} يوم تنكشف الحقائق فلا يغطيها خداع أو لحن بحجة.

القرآن

{وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠)} [النساء : ١١٠]

التفسير:

ومن يُقْدِمْ على عمل سيِّئ قبيح، أو يظلم نفسه بارتكاب ما يخالف حكم الله وشرعه، ثم يرجع إلى الله نادمًا على ما عمل، راجيًا مغفرته وستر ذنبه، يجد الله تعالى غفورًا له، رحيمًا به.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال الضحاك: "نزلت الآية في شأن وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه، أشرك بالله وقتل، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني لنادم فهل لي من توبة؟ فنزل: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ}، الآية"[١].

والثاني: قال الكلبي: "نزلت في شأن طعمة: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا}: بسرقة الدرع، { أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ}: برميه غيره وجحوده"[٢].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا} [النساء : ١١٠]، أي:" ومن يُقْدِمْ على عمل سيِّئ قبيح"[٣].

قال ابن عباس:" يعني: الذين أتو رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب"[٤].

قال الثعلبي:" يعني: يسرق الدرع"[٥].

قال البغوي:" يعني: السرقة، وقيل: يعني: شركا"[٦].

قال الزمخشري:أي:" قبيحا متعديا يسوء به غيره، كما فعل طعمة بقتادة واليهودي"[٧].

قال القاسمي:" أي: قبيحا متعديا. يسوء به غيره، كما في القصة"[٨].

قوله تعالى:{أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ} [النساء : ١١٠]، أي:" أو يظلم نفسه بارتكاب ما يخالف حكم الله وشرعه"[٩].

قال الثعلبي:" يعني: بما دون الشرك"[١٠].

قال البغوي:" برميه البريء، وقيل: يعني: إثما دون الشرك"[١١].

قال الزمخشري:أي:" بما يختص به كالحلف الكاذب"[١٢].

قال الراغب:" عامل السوء وظالم النفس وإن كانا يعودان إلى معنى واحد، فذكرهما اعتبارا بحالتين، وقيل: عمل السوء إشارة إلى فعل الصغائر، وظلم النفس إلى الكبائر"[١٣].

---

[١] تفسير السمرقندي:٣٣٧/١، وتفسير القرطبي:٣٨٠/٥.
[٢] تفسير السمرقندي:٣٣٧/١.
[٣] التفسير الميسر:٩٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٤٥):ص١٠٦٢/٤.
[٥] تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.
[٦] تفسير البغوي:٢٨٥/٢.
[٧] الكشاف:٥٦٣/١.
[٨] محاسن التاويل:٣٢٥/٣.
[٩] التفسير الميسر:٩٦.
[١٠] تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.
[١١] تفسير البغوي:٢٨٥/٢.
[١٢] الكشاف:٥٦٣/١.
[١٣] تفسير الراغب الاصفهاني:١٤٣٠/٣-١٤٣١.

قوله تعالى:{ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ} [النساء : ١١٠]، أي:" ثم يرجع إلى الله نادمًا على ما عمل، راجيًا مغفرته وستر ذنبه"[١].
قال الزجاج:" أي: يسأله المغفرة مع إقلاع، لأنه إذا كان مقيماً على الإصرار فليس بتائب"[٢].
قال النحاس:" أي استغفار غير عائد لانه إذا عزم على العودة فليس بتائب"[٣].
قال الثعلبي:" أي: يتوب إلى الله"[٤].
قوله تعالى:{يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ١١٠]، أي:" يجد الله تعالى غفورًا له، رحيمًا به"[٥].
قال قتادة بن النعمان:" أي: لو استغفروا الله لغفر لهم"[٦].
قال السمعاني:" عرض التوبة على طعمة وقومه في هذه الآية، وأمرهم بالاستغفار"[٧].
قال الزمخشري:" وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة لتلزمه الحجة، مع العلم بما يكون منه. أو لقومه لما فرط منهم من نصرته والذب عنه"[٨].
قال المراغي:" وفى ذلك حث وترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار، كما أن فيها بيانا للمخرج من الذنب بعد وقوعه، وفيها تحذير من أعداء الحق والعدل الذين يحاولون هدمهما، وهما أسس الشرائع.
قال الطبري:" عنى بهذه الآية كل من عمل سوءًا أو ظلم نفسه ، وإن كانت نزلت في أمر الخائنين والمجادلين عنهم الذين ذكر الله أمرَهم في الآيات قبلها"[٩].
والمراد بوجدان الله {غفورا رحيما}: هو أن التائب المستغفر يجد أثر المغفرة فى نفسه بكراهة الذنب وذهاب داعيته ويجد أثر الرحمة بالرغبة فى الأعمال الصالحة التي تطهر النفس وتزيل الدرن منها"[١٠].
قال ابن عباس:" : أخبر الله عبادَه بحلمه وعفوه وكرمه ، وسعةِ رحمته ومغفرته ، فمن أذنب ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا ، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال"[١١].
قال عبد الله : كانت بنو إسرائيل إذا أصابَ أحدهم ذنبًا أصبح قد كُتِب كفارة ذلك الذنب على بابه. وإذا أصاب البولُ شيئًا منه ، قَرَضه بالمقراض[١٢]. فقال رجل : لقد آتى الله بني إسرائيل خيرًا! فقال عبد الله : ما آتاكم الله خيرٌ مما آتاهم ، جعل الله الماءَ لكم طهورًا وقال : {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} [سورة آل عمران : ١٣٥] ، وقال : {ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا}[١٣].

الفوائد:

١- أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي سوءا لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئًا غير حسن.
٢-فضيلة الاستغفار.

---

[١] التفسير الميسر:٩٦.
[٢] معاني القرآن:١٠٣/٢.
[٣] معاني القرآن:١٨٧/٢.
[٤] تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.
[٥] التفسير الميسر:٩٦.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٤٨):ص١٠٦٣/٤.
[٧] تفسير السمعاني:٤٧٦/١.
[٨] الكشاف:٥٦٣/١.
[٩] تفسير الطبري:١٩٤/٩.
[١٠] تفسير المراغي:١٥٠/٥.
[١١] أخرجه الطبري(١٠٤٢٤):ص١٩٥/٩-١٩٦.
[١٢]المقراض " : المقص.
[١٣] أخرجه الطبري(١٠٤٢٢):ص١٩٥/٩.

٣-أن المغفرة مقيدة بالتوبة، قال الرملي:" لا يغفر الله تعالى الكبيرة أو الصغيرة التي لم يتب منها بمجرد الاستغفار المذكور، والمغفرة المرتبة على الاستغفار في الكتاب والسنة مقيدة بالتوبة فقد قال {وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون} [النور: ٣١] وهذا أمر على العموم وقال تعالى {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم} [التحريم: ٨] الآية. ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشهوات"[١]. والأحاديث الواردة في فضل التوبة مشهورة.

٤- وهذه الآية أسند الله فيها الى العبد عمل السوء وظلم النفس والإستغفار، وأسند الى نفسه المغفرة والرحمة فأسند الى الله ما أسند الى نفسه، ولنسند الى العبد ما أسند الله إليه وليس علينا في ذلك جناح ولو تدبرنا القرآن كله لوجدناه على هذه الشاكلة: فلم يقولون يخلق العبد أفعال نفسه، ثم يختلفون؟ أما إنهم لو قالوا كما قال الله تعالى: {يفعل} أو {يعمل} أو {يكسب} أو {يقترف} ما اختلفوا، وإذا كانوا جميعا متفقين على أن أعمال العباد اختيارية قدرها الله أن تكون لهم فما بالهم يحاولون نسبتها الى الله تعالى[٢].

القرآن

{وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١)} [النساء : ١١١]

التفسير:

ومن يعمد إلى ارتكاب ذنب، فإنما يضر بذلك نفسه وحدها، وكان الله تعالى عليمًا بحقيقة أمر عباده، حكيمًا فيما يقضي به بين خلقه.

قوله تعالى:{وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا} [النساء : ١١١]، أي:" ومن يعمد إلى ارتكاب ذنب"[٣].

قال القرطبي:" أي ذنبا"[٤].

قال البغوي:" يعني: يمين طعمة بالباطل، أي: ما سرقته إنما سرقه اليهودي"[٥].

قال الطبري:أي:" ومن يأت ذنبًا على عَمْدٍ منه له ومعرفة به"[٦].

قال المراغي:" أي: ومن يعمل الإثم وير أنه قد كسبه وانتفع به"[٧].

قال السمرقندي:" يعني الشرك بالله تعالى"[٨].

قوله تعالى:{فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ} [النساء : ١١١]، أي:" فإنما يضر بذلك نفسه وحدها"[٩].

قال النحاس:" أي :عقابه يرجع عليه"[١٠].

قال البغوي:أي:" فإنما يضر به نفسه"[١١].

قال الواحدي:" أي: إنما ضر بما فعل نفسه، لأنه لا يؤخذ غير الآثم بإثمه"[١٢].

قال ابن عطية:" أي: إياها يردي وبها يحل المكروه"[١٣].

قال الزمخشري:" أى لا يتعداه ضرره إلى غيره فليبق على نفسه من كسب السوء"[١٤].

---

[١] فتاوى الرملي:٢٠٧/٤.

[٢] انظر: كتاب التوحيد المسمى: التخلي عن التقليد والتحلي بالاصل المفيد، العرباوي:٢٢٧.

[٣] التفسير الميسر:٩٦.

[٤] تفسير القرطبي:٣٨٠/٥.

[٥] تفسير البغوي:٢٨٥/٢.

[٦] تفسير الطبري:١٩٦/٩.

[٧] تفسير المراغي:١٥٠/٥.

[٨] تفسير السمرقندي:٣٣٧/١.

[٩] التفسير الميسر:٩٦.

[١٠] معاني القرآن:١٨٧/٢.

[١١] تفسير البغوي:٢٨٥/٢.

[١٢] التفسير الوسيط:١١٣/٢.

[١٣] المحرر الوجيز:١١١/٢.

[١٤] الكشاف:٥٦٣/١.

قال الطبري:أي:" فإنما يجترح وَبَال ذلك الذنب وضُرَّه وخِزْيه وعاره على نفسه ، دون غيره من سائر خلق الله"[1].
قال القرطبي:" أي عاقبته عائدة عليه. والكسب ما يجربه الإنسان إلى نفسه نفعا أو يدفع عنه به ضررا، ولهذا لا يسمى فعل الرب تعالى كسبا"[2].
قال القاسمي:" أي: فليتحرز عن تعريضها للعقاب"[3].
قال المراغي:أي: "فإنما كسبه وبال على نفسه وضرر لا نفع له فيه، كما يخطر على بال من يجهل عواقب الآثام فى الدنيا والآخرة، من فضيحة للآثم ومهانة له بين الناس وعند الحاكم العادل كما وقع لأصحاب هذه القصة الذين نزلت فى شأنهم هذه الآيات، ومن خزى فى الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم"[4].
قال الراغب:" الأصل في «الاكتساب» ما يجر به نفع، فاستعاره لما يجلب ضرا، تنبيها أن صاحبه يقدر فيما تحراه أنه يكسب خيرا وهو يكسب شرا، ونحوه معنى قوله: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} [الإسراء : ٧] "[5].
قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء : ١١١]، أي:" وكان الله تعالى عليمًا بحقيقة أمر عباده، حكيمًا فيما يقضي به بين خلقه "[6].
قال الواحدي:أي:{ عَلِيمًا}" بالسارق، { حَكِيمًا}: حكم بالقطع على طعمة في السرقة"[7].
السرقة"[7].
قال البغوي:أي:" {عليما} بسارق الدرع، {حكيما}، حكم بالقطع على السارق"[8].
قال المراغي:" أي: إنه تعالى بعلمه الواسع حدد للناس شرائع يضرهم تجاوزها، وبحكمته جعل لها عقابا يضر المتجاوز لها، فهو إذا يضر نفسه ولا يضر الله شيئا"[9].
قال الطبري:أي:" وكان الله عالمًا بما تفعلون ، أيها المجادلون عن الذين يختانون أنفسهم ، في جدالكم عنهم وغير ذلك من أفعالِكم وأفعال غيركم ، وهو يحصيها عليكم وعليهم ، حتى يجازي جميعكم بها، وهو حكيم بسياستكم وتدبيركم وتدبير جميع خلقه"[10].

الفوائد:

١-تضمنت الآية الكريمة أن نفع العمل وضرره عائد إلى عامله لا إلى غيره، فإن التبعة شخصية، وكقوله تعالى:{ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام:١٦٤].

٢- والآية تهديد ووعيد لهؤلاء المنافقين بأن الله لا يخفى عليه خداعهم، وأن رسوله - ﷺ - في عصمة وحماية منه تعالى لا يتركه لخداعهم وخيانتهم، وأنه تعالى حكيم يضع الأمور في مواضعها.

القرآن

{وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢)} [النساء : ١١٢]

التفسير:

ومن يعمل خطيئة بغير عمد، أو يرتكب ذنبًا متعمدًا ثم يقذف بما ارتكبه نفسًا بريئة لا جناية لها، فقد تحمَّل كذبًا وذنبًا بيّنا.

---

[1] تفسير الطبري:١٩٦/٩.
[2] تفسير القرطبي:٣٨٠/٥.
[3] محاسن التاويل:٣٢٦/٣.
[4] تفسير المراغي:١٥٠/٥-١٥١.
[5] تفسير الراغب الاصفهاني:١٤٣٢/٢.
[6] التفسير الميسر:٩٦.
[7] التفسير الوسيط:١١٤/٢.
[8] تفسير البغوي:٢٨٥/٢.
[9] تفسير المراغي:١٥٠/٥-١٥١.
[10] تفسير الطبري:١٩٦/٩.

في سبب نزول الآية ﷺ قولان:

أحدهما: قال ابن الجوزي:" جمهور العلماء على أنها نزلت متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق"[١].

والثاني: وروى الضحاك عن ابن عباس: "أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول إذ رمى عائشة -عليها السلام- بالإفك"[٢].

قلت: وهذا الخبر عن ابن عباس منكر جدا، لأن الضحاك لم يلق ابن عباس، ورواية الضحاك هو جويبر بن سعيد، وهو متروك. والصواب ما ذهب إليه الجمهور. والله أعلم.

قوله تعالى:{وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا} [النساء : ١١٢]، أي:" ومن يعمل خطيئة بغير عمد أو يرتكب ذنبًا متعمدًا"[٣].

قال ابن عباس:" يعني: السارق والذين جادلوا عن السارق"[٤].

قال الزجاج:" قيل {إثماً}، لأن الله قد سَمَّى بعضَ المعاصي خطايا، وسمى بَعْضَهَا آثاماً"[٥].

قال الطبري:" وإنما فرق بين «الخطيئة» و«الإثم»، لأن «الخطيئة»، قد تكون من قبل العَمْد وغير العمد ، و«الإثم» لا يكون إلا من العَمْد ، ففصل جل ثناؤه لذلك بينهما فقال: ومن يأت خطيئة على غير عمد منه لها، {أو إثمًا} على عمد منه"[٦].

قال الجصاص:" فإنه قد قيل في الفرق بين «الخطيئة» و«الإثم»، إن«الخطيئة» قد تكون من غير تعمد والإثم ما كان عن عمد فذكرهما جميعا ليبين حكمهما وأنه سواء كان تعمد أو غير تعمد"[٧].

قال ابو علي الفارسي:" فالخطيئة تقع على الصغير والكبير، فمن الصغير قوله: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [الشعراء: ٨٢] ومن الكبير: {وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١] فهذا كبيرٌ.

فإن قلت: فكيف تقدير قوله: {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً} [النساء: ١١٢] والخطيئة قد وقعت على الصغيرة والكبيرة، والإثم كذلك، فكأنه بمنزلة من يكسب صغيراً أو صغيراً، أو من يكسب كبيراً أو كبيراً؟.

قيل له: ليس المعنى كذلك، ولكنّ الإثم قد وقع في التنزيل على ما يقتطعه الإنسان من مال من لا يجوز له أن يقتطع من ماله. فإذا كان كذلك، جاز أن يكون التقدير: من يكسب ذنباً بينه وبين الله، أو ذنباً هو من مظالم العباد، فهما جنسان، فجاز دخول «أو» في الكلام، على أن المعنى: من يكسب أحد هذين الذنبين"[٨].

قال الراغب:" الخطأ: العدول عن الجهة، وذلك أضرب:

أحدها: أن تريد غير ما تحسن إرادته فتفعله، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان، يقال: خطئ يخطأ، خطأ، وخطأة، قال تعالى: {إن قتلهم كان خطأ كبيرا} [الإسراء: ٣١] ، وقال: {وإن كنا لخاطئين} [يوسف:٩١] .

والثاني: أن يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال: أخطأ إخطاء فهو مخطئ، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، وهذا المعني بقوله عليه السلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» [٩]، وبقوله: «من اجتهد فأخطأ فله أجر» [١]، وقوله عز وجل: ومن قتل

---

[١] زاد المسير:٤٦٨/١، وانظر: تفسير الثعلبي: ٣٨٣/٣.
[٢] زاد المسير:٤٦٨/١، وانظر: تفسير الثعلبي: ٣٨٣/٣.
[٣] التفسير الميسر:٩٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٥٠):ص١٠٦٣/٤.
[٥] معاني القرآن/١٠٢/٢.
[٦] تفسير الطبري:١٧٠/٩.
[٧] أحكام القرآن:٢٦٦/٣.
[٨] الحجة للقرا السبعة:٣٠٩/٢.
[٩]الحديث عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «رفع الله عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه أبو القاسم التميمي المعروف بأخي عاصم في فوائده، ورجاله ثقات غير أن فيه انقطاعا. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/

مؤمنا خطأ فتحرير رقبة [النساء: ٩٢] . والثالث: أن يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه، فهذا مخطئ في الإرادة ومصيب في الفعل، فهو مذموم بقصده وغير محمود على فعله، وهذا المعنى هو الذي أراده في قوله[٢]:

أردت مساءتي فاجتررت مسرتي   وقد يحسن الإنسان من حيث لا يدري

وجملة الأمر أن من أراد شيئا فاتفق منه غيره يقال: أخطأ، وإن وقع منه كما أراده يقال: أصاب، وقد يقال لمن فعل فعلا لا يحسن، أو أراد إرادة لا تجمل: إنه أخطأ، ولهذا يقال:أصاب الخطأ، وأخطأ الصواب، وأصاب الصواب، وأخطأ الخطأ، وهذه اللفظة مشتركة كما ترى، مترددة بين معان يجب لمن يتحرى الحقائق أن يتأملها"[٣].

قال الفراء:" يقال: كيف قال {به}، وقد ذكر الخطيئة والإثم؟ وذلك جائز أن يكنى عن الفعلين وأحدهما مؤنث بالتذكير والتوحيد، ولو كثر لجاز الكناية عنه بالتوحيد لأن الأفاعيل يقع عليها فعل واحد، فلذلك جاز، فإن شئت ضممت الخطيئة والإثم فجعلته كالواحد. وإن شئت جعلت الهاء للإثم خاصة كما قال: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا }[٤]، فجعله للتجارة"[٥].

قال أبو عبيدة:" وقع اللفظ على {الإثم}، فذكّره، هذا فى لغة من خبّر عن آخر الكلمتين"[٦].

قال الكلبي: "لما نزلت هذه الآيات التي تقدمت عرف قوم طعمة الظالم، فأقبلوا عليه وقالوا: بؤ بالذنب واتق الله، فقال: لا والذي يُحلف به ما سرقها إلا اليهودي، فأنزل الله: {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً} يقول يمينه الكاذبة، {أَوْ إِثْمًا} سرقته الدرع، ورميه بها اليهودي"[٧].

وقرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه: «ومن يكسب»، بكسر الكاف والسين المشددة وأصله يكتسب[٨].

قوله تعالى:{ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا} [النساء : ١١٢]، أي:" ثم يقذف بما ارتكبه نفسًا بريئة لا جناية لها"[٩].

قال ابن قتيبة:" أي: يقذف بما جناه بريئا منه"[١٠].

عن قتادة بن النعمان في قصة بني أبيرق:"فأنزل الله تعالى: {ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا}، قولهم: للبيد بن سهل"[١١].

واختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله :{بريئًا} على أربعة اقوال:

أحدها: أنه رجل من المسلمين يقال له : لبيد بن سهل. وهذا قول قتادة بن النعمان[١].

والثاني: أنه رجل من اليهود يقال له :زيد بن السمين "[٢]. وهذا قول ابن عباس[٣]، وقتادة[٤]، وعكرمة[٥]، وابن سرين [٦].

١٣٣، والدارقطني ٤/ ١٧١، وابن ماجة ١/ ٦٥٩، والحاكم ٢/ ١٩٨، وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي، وضعفه الإمام أحمد، فقال عبد الله بن أحمد في العلل: سألت أبي عنه فأنكره جدا. وانظر: كشف الخفاء ٢/ ١٣٥، والمقاصد الحسنة ص ٢٢٨، وتخريج أحاديث اللمع للغماري ص ١٤٩.

[١]الحديث عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر» . أخرجه البخاري ٩/ ١٩٣ في كتاب الاعتصام بالسنة، ومسلم ١٥/ ١٧١٦ كتاب الأقضية، وأبو داود، معالم السنن ٤/ ١٦٠، وانظر الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج للغماري ص ٢٦٩.

[٢]البيت في البصائر ٢/ ٥٥٢ دون نسبة، وفي تفصيل النشأتين ص ١٠٩.

[٣] المفردات في غريب القرآن:٢٨٧.

[٤][سورة الجمعة : ١١].

[٥] معاني القرآن:٢٨٧/١.

[٦] مجاز القرآن:١٣٩/١.

[٧]انظر: التفسير البسيط للواحدي:٨٢/٧، وزاد المسير: ٢/ ١٩٥، والبحر المحيط: ٣/ ٣٤٦، وتنوير المقباس بهامش المصحف: ٩٦.

[٨] انظر: الكشاف:٥٦٤/١.

[٩] التفسير الميسر:٩٦.

[١٠] غريب القرآن:١٣٥.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٥١):ص١٠٦٣/٤.

والثالث: أنه أبو مليل الأنصاري[٧].
والرابع: أنه يعني به عائشة-رضي الله عنها- وان الرامي هو عبدالله بن سلول حيث كذب عليها وكان من ذلك. وهذا قول ابن عباس في رواية الضحاك[٨].
قال الطبري:" أجمع أهل التأويل على أن الذي رمى البريءَ من الإثم الذي كان أتاه ، ابن أبيرق"[٩].
قوله تعالى:{فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [النساء : ١١٢]،أي:" فقد تحمَّل كذبًا وذنبًا بيّنا"[١٠].
قال ابن عباس:" {بُهْتَاناً}:عُقُوبَة بهتان عَظِيم، {وَإِثْماً مُّبِيناً}: وعقوبة ذَنْب بيّن"[١١].
قال النسفي:أي:احتمل"كذبا عظيما، وذنبا ظاهرا، وهذا لأنه يكسب الإثم آثم ويرمى البرئ باهت فهو جامع بين الأمرين والبهتان كذب ببهت من قيل عليه مالا علم له به"[١٢].
قال الطبري:أي:" فقد تحمل - هذا الذي رمَى بما أتى من المعصية وركب من الإثم الخطيئة ، مَنْ هو بريء مما رماه به من ذلك- {بهتانًا}، وهو الفرية والكذب ، {وإثمًا مبينًا}، يعني وِزْرًا {مبينًا}، يعني : أنه يبين عن أمر متحمِّله وجراءته على ربه ، وتقدّمه على خلافه فيما نهاه عنه لمن يعرف أمرَه"[١٣].
قال الزمخشري:" لأنه بكسب الإثم «آثم» وبرمي البريء «باهت» فهو جامع بين الأمرين"[١٤].
قال السمعاني:" فالبهتان: الكذب الذي يتحير منه الإنسان، وهو البهت، وأراد بالإثم المبين: اليمين الفاجرة"[١٥].
قال الجصاص:" إذ غير جائز له رمي غيره بما لا يعلمه منه"[١٦].
قال البيضاوي:وذلك" بسبب رمي البريء وتبرئة النفس الخاطئة، ولذلك سوى بينهما وإن كان مقترف أحدهما دون مقترف الآخر"[١٧].
قال ابن كثير:و" هذا التقريع وهذا التوبيخ عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف مثل صفتهم وارتكب مثل خطيئتهم ، فعليه مثل عقوبتهم"[١٨].
قال ابن عطية:" وقوله تعالى: {فقد احتمل} تشبيه، إذ الذنوب ثقل ووزر، فهي كالمحمولات، و{بهتانا}، معناه: كذبا على البريء"[١٩].
قال الشوكاني:" لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالثقل الذي يحمل، ومثله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ} [العنكبوت : ١٣]"[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٤١١):ص١٧٧-١٨١.
[٢] تفسير الطبري:١٩٨/٩.
[٣] انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس:٨٠.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٤١٢):ص١٨٢/٩-١٨٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٤١٦):ص١٨٦/٩-١٨٧.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٢٥)، (١٠٤٢٦):ص١٩٨/٩، وتفسير ابن ابي حاتم(٥٩٥٢):ص١٠٦٣/٤.
[٧] انظر: المحرر الوجيز:١١١/٢.
[٨] انظر: تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.
[٩] تفسير الطبري:١٧٩/٩.
[١٠] التفسير الميسر:٩٦.
[١١] تنوير المقباس:٨٠.
[١٢] تفسير النسفي:٣٩٥/١.
[١٣] تفسير الطبري:١٩٨/٩-١٩٩.
[١٤] الكشاف:٥٦٤/١.
[١٥] تفسير السمعاني:٤٧٧/١.
[١٦] أحكام القرآن:٢٦٦/٣.
[١٧] تفسير البيضاوي:٩٦/٢.
[١٨] تفسير ابن كثير:٤١٠/٢.
[١٩] المحرر الوجيز:١١١/٢.

قال عطية العوفي:" أن رجلا يقال له: طعمة بن أبيرق سرق درعا على عهد النبي ﷺ، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فألقاها في يت رجل، ثم قال لأصحاب له: انطلقوا فاعذروني عند النبي ﷺ، فإن الدرع قد وجد في بيت فلان فانطلقوا يعذرونه عند النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى:{وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}، قال: بهتان: قذفه الرجل"[2]، " { وَإِثْمًا مُبِينًا}، قال: إثمه: سرقته"[3].

قال الزجاج:" البهتان " الكذبُ الذي يُتحيرُ من عِظَمِه وبيانه، يقال قد بَهَتَ فلان فلاناً إذا كذب عليه، وقد بُهِت الرجل يُبْهَتُ إذَا تحيَّرقال اللَّه عزَّ وجلَّ : { فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}[4] "[5].

قال الواحدي:"البهتان: فهو من البَهْت، وهو استقبالك أخاك بأمر تصفه به، وهو منه بريء. والاسم: البهتان، قال[6]:

أإن رأيتَ هامتي كالطَّستِ ظَلِلْتَ ترمين بقولٍ بُهتِ"[7]

قال أبو السعود:" وقد اكتفي في بيان عظم البهتان بالتنكير التفخيمي كأنه قيل بهتانا لا يقادر قدره وإثما مبينا على أن وصف الإثم بما ذكر بمنزلة وصف البهتان به لأنهما عبارة عن أمر واحد هو رمى البرئ بجناية نفسه قد عبر عنه بهما تهويلا لأمره وتفظيعا لحاله فمدار العظم والفخامة كون المرمي به للرامي فإن رمى البرئ بجناية ما خطيئة كانت أو إثما بهتان وإثم في نفسه أما كونه بهتانا فظاهر وأما كونه إثما فلأن كون الذنب بالنسبة إلى من فعله خطيئة لا يلزم منه كونه بالنسبة إلى من نسبه الى البرئ منه أيضا كذلك بل لا يجوز ذلك قطعا كيف لا وهو كذب محرم في جميع الأديان فهو في نفسه بهتان وإثم لا محالة وبكون تلك الجناية للرامي يتضاعف ذلك شدة ويزداد قبحا لكن لا لانضمام جنايته المكسوبة الى رمى البرئ وإلا لكان الرمي بغير جناية مثله في العظم ولا لمجرد اشتماله على تبرئة نفسه الخاطئة وإلا لكان الرمي بغير جناية مع تبرئة نفسه كذلك في العظم بل لاشتماله على قصد تحميل جنايته على البرئ وإجراء عقوبتها عليه كما ينبئ عنه إيثار الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الإيذان بانعكاس تقديره على ما فيه من الإشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر نعم بما ذكر من انضمام كسبه وتبرئة نفسه الى رمى البرئ تزداد الجناية قبحا لكن تلك الزيادة وصف للمجموع لا للإثم"[8].

الفوائد:

١- إن صاحب البهتان مذموم في الدنيا أشد الذم، ومعاقب في الآخرة أشد العقاب، فقوله: {بُهْتَانًا} إشارة إلى الذم العظيم في الدنيا، وقوله: {وَإِثْمًا مُبِينًا} إشارة إلى العقاب الشديد في الآخرة.

٢- لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها .. كانت كالثقل الذي يحمل، فعبر عنه باحتمل، ومثله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ}.

وقد فشا هذا بين المسلمين في هذا الزمان، ولم يكن لهذا من سبب إلا ترك هداية الدين، وقلة الوازع النفسي والغفلة عن الأوامر والنواهي التي جاءت به الشريعة. والله المستعان.

القرآن

---

[1] فتح القدير:٥٩٢/١.
[2] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٥٣):ص١٠٦٣/٤.
[3] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٥٤):ص١٠٦٣/٤.
[4] [سورة البقرة : ٢٥٨].
[5] معاني القرآن/١٠٢/٢.
[6] لم اقف على قائله، الرجز بلا نسبة في لسان العرب، مادة"بهت":ص ٢/ ١٣؛ وتهذيب اللغة ٦/ ٢٤١؛ وكتاب العين ٤/ ٣٦، و التفسير البسيط للواحدي:٨٣/٧.
[7] التفسير البسيط:٨٣/٧.
[8] تفسير أبي السعود:٢٣٠/٢-٢٣١.

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)} [النساء : ١١٣]

التفسير:

ولولا أن الله تعالى قد مَنَّ عليك -أيها الرسول- ورحمك بنعمة النبوة، فعصمك بتوفيقه بما أوحى إليك، لعزمت جماعة من الذين يخونون أنفسهم أن يُزِلُّوكَ عن طريق الحق، وما يُزِلُّونَ بذلك إلا أنفسهم، وما يقدرون على إيذائك لعصمة الله لك، وأنزل الله عليك القرآن والسنة المبينة له، وهداك إلى علم ما لم تكن تعلمه مِن قبل، وكان ما خصَّك الله به من فضلٍ أمرًا عظيمًا.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أنها متعلقة بقصة طعمة وقومه، حيث لبسوا على النبي ﷺ أمر صاحبهم، هذا قول ابن عباس من طريق ابن السائب [١]. وهو قول اكثر أهل التفسير[٢].

والثاني: أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: جئناك نبايعك على أن لا نحشر ولا نعشر، وعلى أن تمتعنا بالعزى سنة، فلم يجبهم، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس في رواية الضحاك[٣].

قلت: وخبر وفد ثقيف ورد بسياق آخر مطول، وليس فيه نزول الآية-والله أعلم-[٤].

قوله تعالى:{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ} [النساء : ١١٣]، أي:" ولولا أن الله تعالى قد مَنَّ عليك -أيها الرسول- ورحمك بنعمة النبوة، فعصمك بتوفيقه بما أوحى إليك"[٥].

قال السمعاني:" هذا خطاب للرسول"[٦].

قال الزمخشري: " أى: عصمته وألطافه وما أوحى إليك من الاطلاع على سرهم"[٧].

قال الزجاج:" لولا فضل اللَّه عليك ورحمتُه بما أوحَى إليك، وأعلمك أمْرَ هذا السارق"[٨].

عن ابي صالح قال ابن عباس:أي:"{ولولا فضل الله عليك}: بالنبوة، {ورحمته}، نصرك بالوحي"[٩].

قوله تعالى:{لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ} [النساء : ١١٣]، أي:" لعزمت جماعة من الذين يخونون أنفسهم أن يُزِلُّوكَ عن طريق الحق"[١٠].

قال السمعاني:" يعنى: قوم طعمه، هموا أن يلبسوا عليك؛ لتدافع عنه"[١١].

قال الزمخشري:أي:" من بنى ظفر أن يضلوك عن القضاء بالحق وتوخى طريق العدل، مع علمهم بأن الجاني هو صاحبهم، فقد روى أن ناسا منهم كانوا يعلمون كنه القصة.

ويجوز أن يراد بالطائفة بنو ظفر، ويرجع الضمير في: {منهم} إلى «الناس»، وقيل: الآية في المنافقين "[١٢].

---

[١] انظر: زاد المسير:٤٦٩/١، وهذا واه، ابن السائب هو الكلبي كذبه غير واحد.

[٢] انظر: تفسير الماتريدي:٣٥٧/٣-٣٥٨، قال الماتريدي:" قال أكثر أهل التأويل: نزلت هذه الآية في شأن طعمة الذي سرق درع جار له بالذي سبق ذكره".

[٣] انظر: زاد المسير:٤٦٩/١. لا أصل له. عزاه المصنف للضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يلق ابن عباس، ورواية ورواية الضحاك هو جويبر بن سعيد، وهو متروك، وقد رويا عن ابن عباس تفسيرا مصنوعا.

[٤]انظر «طبقات» ابن سعد ١/ ٢٣٧- ٢٣٨.

[٥] التفسير الميسر:٩٦.

[٦] تفسير السمعاني:٤٧٧/١.

[٧] الكشاف:٥٦٤/١.

[٨] معاني القرآن:١٠٤/٢.

[٩] تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.

[١٠] التفسير الميسر:٩٦.

[١١] تفسير السمعاني:٤٧٧/١.

[١٢] الكشاف:٥٦٤/١.

قال يحيى بن سلام:" يعني: أن يستذلوك عن الحق. وقال في ص لداود: {فاحكم بَيْنَ الناس بالحق وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله}، يعني: فيستزلك الهوى عن طاعة الله في الحكم، من غير كفر"[1].

عن ابي صالح، قال ابن عباس:" يعني: أضمرت {طائفة}، يعني: جماعة {منهم}، يعني: طعمة، {أن يضلوك}، أي: يخطؤك "[2].

قال ابن أبي زمنين: { أَنْ يُضِلُّوكَ}:"قيل: أن يخطئوك في حكمك"[3].

قال الزجاج:" هذا خطاب للنبي - ﷺ -، والطائِفة هُم طُعمَةُ هذا السارق، لأن بعضهم قد كان وقف على أنه سارق، وسأل النبي - ﷺ - أن يَعذِرَه"[4].

وقال ابو هلال العسكري: قوله:{ أَنْ يُضِلُّوكَ}: يعني: " أن يصدوك عن الإيمان ويردونك إلى الكفر"[5].

قال الماتريدي:" ويحتمل قوله: {أن يضلوك}، أي: يجهلوك في حكم السرقة"[6].

قال الجصاص:قوله:{ أَنْ يُضِلُّوكَ}، يعني:" بمسئلتهم معونة هذا الخائن، وقد قيل: إن هذه الطائفة التي سألت النبي ﷺ ذلك وأعانوا الخائن كانوا مسلمين ولم يكونوا أيضا على يقين من أمر الخائن وسرقته ولكنه لم يكن لهم الحكم جائزا على اليهودي بالسرقة لأجل وجود الدرع في داره فإن قيل كيف يكون الحكم على ظاهر الحال ضلالا إذا كان في الباطن خلافه وإنما على الحاكم الحكم بالظاهر دون الباطن قيل له لا يكون الحكم بظاهر الحال ضلال وإنما الضلال إبراء الخائن من غير حقيقة علم فإنما اجتهدوا أن يضلوه عن هذا المعنى"[7].

وفي قوله تعالى:{لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ} [النساء : ١١٣]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أن المعنى: فَبِفَضْلِ الله ورحمته صرفَ اللَّه عنك أن تعمل ما هَمَّت به الطائفة. وهذا قول الزجاج[8].

والثاني: أن معنى :{أنْ يُضِلوكَ}: أن يُخَطِّئُوكَ في حُكْمِك. حكاه الزجاج عن بعضهم[9].

قوله تعالى:{وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ} [النساء : ١١٣]، أي:" وما يُزِلُّونَ بذلك إلا أنفسهم"[10].

قال السمعاني:" أي: يرجع وباله عليهم"[11].

قال مقاتل بن النعمان:" وما يضرونك، يعني: أسير بن عروة وأصحابه"[12].

قال الزجاج:" أي: لأنهم هم يعملون عمل الضالين، واللَّه يعصم نبيه - صلى الله عليه وسلم - من متابعتهم، والإِضلال راجع عليهم وواقع بهم"[13].

عن ابي صالح، قال ابن عباس:" يقول: وما يخطئون إلا أنفسهم، وكان ضره على من شهد بغير حق"[14].

قوله تعالى:{وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ} [النساء : ١١٣]، أي:" وما يقدرون على إيذائك لعصمة الله لك"[1].

---

[1] التصاريف لتفسير القرآن مما شابهت أسمائه وتصرفت معانيه:٣٤٥.
[2] تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.
[3] تفسير ابن ابي زمنين:٤٠٥/١.
[4] معاني القرآن:١٠٣/٢-١٠٤.
[5] الوجوه والنظائر:٣٠١.
[6] تفسير الماتريدي:٣٥٨/٣.
[7] أحكام القرآن:٢٦٦/٣.
[8] انظر: معاني القرآن:١٠٤/٢.
[9]انظر: معاني القرآن:١٠٤/٢.
[10] التفسير الميسر:٩٦.
[11] تفسير السمعاني:٤٧٧/١.
[12] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٥٥):ص١٠٦٤/٤.
[13] معاني القرآن:١٠٤/٢.
[14] تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.

قال السمعاني:" يعني: ضرره عائد عليهم، ولا يضرك؛ لأنك معصوم"[٢].
قال الزمخشري:" لأنك إنما عملت بظاهر الحال، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك"[٣].
قال الراغب:" والإضلال ضربان:
أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وذلك على وجهين:
- إما بأن يضل عنك الشيء كقولك: أضللت البعير، أي: ضل عني.
- وإما أن تحكم بضلاله، والضلال في هذين سبب الإضلال.
والضرب الثاني: أن يكون الإضلال سببا للضلال، وهو أن يزين للإنسان الباطل ليضل كقوله: { لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ}[النساء: ١١٣] ، أي: يتحرون أفعالا يقصدون بها أن تضل، فلا يحصل من فعلهم ذلك إلا ما فيه ضلال أنفسهم، وقال عن الشيطان: {ولأضلنهم ولأمنينهم} [النساء/ ١١٩] ، وقال في الشيطان: { وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً}[يس: ٦٢] ، { وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدا}[النساء: ٦٠] ، { وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ}[ص:٢٦]"[٤].
قوله تعالى:{وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [النساء : ١١٣]، أي:" وأنزل الله عليك القرآن والسنة المبينة له"[٥].
عن ابي صالح، قال ابن عباس:" يعني: القرآن والحكمة يعني القضاء بالوحي"[٦].
قال الزجاج:" أي بيّن في كتابِه ما فيه الحكمة التي لا يقع لك مَعها ضَلَال"[٧].
قال البيضاوي: "{الْكِتابَ}: القرآن، {وَالْحِكْمَةَ}: ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام"[٨].
واختلفوا في معنى{الْحِكْمَةَ} على أقوال:
أحدها: أنها بيان ما في الكتاب، وإلهام الصواب، وإلقاء صحة الجواب في الروع، قاله أبو سليمان الدمشقي[٩].
والثاني: القضاء بالوحي، قاله ابن عباس[١٠]، واختاره القرطبي[١١].
والثالث:أنها الحلال والحرام. وهذا قول مقاتل[١٢].
والرابع: يعني القضاء والمواعظ. وهذا قول الكلبي[١٣].
والخامس: أنها السنّة. قاله قتادة[١٤]، والحسن[١٥]، ومقاتل بن حيان[١٦]، وأبو مالك[١٧]، والشافعي[١٨]، ويحيى بن كثير[١٩]، وغيرهم.

---

[١] التفسير الميسر:٩٦.
[٢] تفسير السمعاني:٤٧٧/١.
[٣] الكشاف:٥٦٤/١.
[٤] المفردات في غريب القرآن:٥١١.
[٥] التفسير الميسر:٩٦.
[٦] تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.
[٧] معاني القرآن:١٠٤/٢.
[٨] تفسير البيضاوي: ١٠٦/١.
[٩] انظر: زاد المسير:٤٧٠/١.
[١٠] انظر: زاد المسير:٤٧٠/١.
[١١] انظر: تفسير القرطبي:٣٨٢/٥.
[١٢] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٦/١.
[١٣] انظر: تفسير السمرقندي:٣٣٨/١.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٨):ص٨٧/٣.
[١٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩٣):ص١٢٤٠/٤.
[١٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩٣):ص١٢٤٠/٤.
[١٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩٣):ص١٢٤٠/٤.
[١٨] انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٤/١.
[١٩] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩٣):ص١٢٤٠/٤.

والراجح-والله أعلم- أنها" ما كان في الكتاب مجملا ذكره ، من حلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، وأحكامه ، ووعده ووعيده "[١].

قال السمعاني:" قيل: أراد بالكتاب: القرآن، وبالحكمة: السنة"[٢].

قوله تعالى:{وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} [النساء : ١١٣]، أي:" وهداك إلى علم ما لم تكن تعلمه مِن قبل"[٣].

قال السمعاني:" يعنى: من أحكام القرآن، وقيل: من علم الغيب، وقيل: علمك قدرك، ولم تكن تعلمه"[٤].

قال الزمخشري:يعني:" من خفيات الأمور وضمائر القلوب، أو من أمور الدين والشرائع"[٥].

عن ابي صالح، قال ابن عباس:" قبل الوحي"[٦].

قال قتادة:" علمه الله بيان الدنيا والآخرة، بين حلاله وحرامه، ليحتج بذلك على خلقه"[٧].

قال الضحاك:" علمه الخير والشر"[٨].

قال ابن عباس:" أنه الشرع"[٩].

قال مقاتل:" من أمر الكتاب وأمر الدين"[١٠].

قال أبو سليمان:"أخبار الأولين والآخرين"[١١].

قوله تعالى:{وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء : ١١٣]، أي:" وكان ما خصَّك الله به من فضلٍ أمرًا عظيمًا"[١٢].

قال القرطبي:" يعني: من الشرائع والأحكام"[١٣].

قال الماتريدي:" فيما علمك من الأحكام، وعصمك بالنبوة والرسالة، وصرف عنك ضرر الأعداء"[١٤].

وفي قوله تعالى:{وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء : ١١٣]، أربعة وجوه:

أحدها: أنه المنة بالإيمان[١٥].

والثاني: المنة بالنبوة.عن ابن عباس في رواية ابي صالح[١٦].

والثالث: يعنى: النبوة والكتاب. قاله مقاتل[١٧].

والرابع: أنه عام في جميع الفضل الذي خصه الله به، قاله أبو سليمان[١٨].

الفوائد:

---

(١) تفسير الطبري: ٢٠٢/٩

(٢) تفسير السمعاني:٤٧٧/١.

(٣) التفسير الميسر:٩٦.

(٤) تفسير السمعاني:٤٧٧/١.

(٥) الكشاف:٥٦٤/١.

(٦) تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٥٧):ص١٠٦٤/٤.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٥٨):ص١٠٦٤/٤.

(٩) زاد المسير:٤٧٠/١.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٦/١.

(١١) زاد المسير:٤٧٠/١.

(١٢) التفسير الميسر:٩٦.

(١٣) تفسير القرطبي:٣٨٢/٥.

(١٤) تفسير الماتريدي:٣٥٩/٣ .

(١٥) انظر: زاد المسير:٤٧٠/١.

(١٦) تفسير الثعلبي:٣٨٣/٣.

(١٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٦/١.

(١٨) انظر: زاد المسير:٤٧٠/١.

١- لا يكون الحكم بظاهر الحال ضلال وإنما الضلال إبراء الخائن من غير حقيقة علم فإنما اجتهدوا أن يضلوه.
٢-أن الضلال نوعان :
- ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق.
- وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب، فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال.
٣-إثبات عصمة الرسول-ﷺ- لقوله: {وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ}.
٤- لا فضل أعظم من النبوة ونزول الوحي، قوله:{ وكان فضل الله عليك عظيما}.

القرآن

{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)} [النساء : ١١٤]

التفسير:
لا نفع في كثير من كلام الناس سرّاً فيما بينهم، إلا إذا كان حديثًا داعيًا إلى بذل المعروف من الصدقة، أو الكلمة الطيبة، أو التوفيق بين الناس، ومن يفعل تلك الأمور طلبًا لرضا الله تعالى راجيًا ثوابه، فسوف نؤتيه ثوابًا جزيلا واسعًا.

قوله تعالى:{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ} [النساء : ١١٤]، أي:" لا نفع في كثير من كلام الناس سرّاً فيما بينهم"[١].

قال الطبري:أي:" لا خير في كثير من نجوى الناس جميعًا"[٢].

قال الواحدي:" أيْ: مسارَّتهم"[٣].

قال ابن عباس: "هم قوم طعمة"[٤].

وقال مقاتل: " يعني: قوم طعمة قيس بن زيد، وكنانة بن أبي الحقيق، وأبو رافع، وكلهم يهود حين تناجوا في أمر طعمة"[٥].

وقال مجاهد: "هو عام في نجوى جميع الناس"[٦].

قال السدي:" ثم ذكر مناجاتهم فيما يريدون أن يكذبوا عن طعمة، فقال: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة}"[٧].

وروي عن مقاتل بن حيان أنه قال: "تناجوا في شأن طعمة بن أبيرق"[٨].

قال الجصاص:" قال أهل اللغة «النجوى» هو الإسرار، فأبان تعالى أنه لا خير في كثير مما يستارون به"[٩].

قال الزجاج:" المعنى: لا خير في كثير من نجواهم، أي مما يدبرونه بينهم من الكلام، و«النجوي» في الكلام:" ما تنفرِدُ به الجماعة أو الاثنان سِرا كان أو ظاهراً، ومعنى نَجوْتُ الشيءَ في اللغة: خَلَّصتُه وألقيتُه، يقال نجوت الجِلْدَ إذا ألقيتُه عن البعير وغيره، قال الشاعر[١٠]:

فقلت انْجُوَا عنها نَجا الجِلْدِ إنه   سَيُرْضِيكما منها سَنامٌ وغارِبُهْ

[١] التفسير الميسر:٩٧.
[٢] تفسير الطبري:٢٠٢/٩.
[٣] الوجيز:٢٨٩.
[٤] زاد المسير:٤٧٠/١.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٦/١، وزاد المسير:٤٧٠/١.
[٦] زاد المسير:٤٧٠/١.
[٧] اخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٥٩):ص١٠٦٥/٤.
[٨] اخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٥٩):ص١٠٦٥/٤.
[٩] أحكام القرآن:٢٦٦/٣.
[١٠](٢) البيت لأبي الغمر الكلابي، وهو في شرح مقصورة ابن دريد لابن خالويه ص ٤٣٣، والمجمل ٣/ ٨٥٧، وخزانة [استدراك] الأدب ٤/ ٣٥٨، والمقصور والممدود للفراء ص ٢٣، وغريب الحديث للخطابي ٢/ ٣٧٤، ولم يعرفه المحقق وقيل: هو لعبد الرحمن بن حسان يخاطب ضيفين طرقاه.

وقد نجوت فلاناً إذا استنكَهْتُه، قال الشاعر[1]:

نَجَوْتُ مُجالِداً فوَجَدْتُ منه كريح الكلب ماتَ حَديثَ عَهْدِ

ونجوت الوَبَرَ واستنجيته إذا خلصتَه، قال الشاعر[2]:

فَتَبازَتْ فَتَبازَخْتُ لهَا جِلْسةَ الأعسرِ يَسْتَنْجِي الوَتَرْ

وأصله كله من النجوة، وهُوَ ما ارتفع من الأرض، قال الشاعر[3]:

فَمَنْ بِنَجْوَتِه كمَنْ بِعَقْوته والمُستَكِنُّ كمَنْ يَمْشِي بقِرواحِ

ويقال: ما أنجى فلان شيئاً وما نجا شيئاً منذ أيام، أيْ لَم يَدْخُل الغائِط"[4].

قوله تعالى:{إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} [النساء : ١١٤]، أي:" إلا إذا كان حديثًا داعيًا إلى بذل المعروف من الصدقة، أو الكلمة الطيبة، أو التوفيق بين الناس"[5].

قال عبدالرحمن بان زيد بن أسلم:" من جاء يناجيك في هذا فاقبل مناجاته، ومن جاء يناجيك في غير هذا فاقطع أنت ذلك عنه لا تناجيه"[6].

قال الطبري:" أي:" إلا فيمن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، فإن أولئك فيهم الخير، و«المعروف»، هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، {أو إصلاح بين الناس}، وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين ، بما أباح الله الإصلاح بينهما ، ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة ، على ما أذن الله وأمر به"[7].

وفي معنى المعروف في هذه البية قولان:

أحدهما: انه القرض. وهذا قول ابن عباس[8]، ومقاتل بن حيان[9]، وسعيد بن عبدالعزيز[10]، ومقاتل بن سليمان[11].

والثاني: أنه عام في جميع أفعال البر. وهذا قول القاضي أبي يعلى، وأبي سليمان الدمشقي[12].

قال القرطبي: والأصح أن" المعروف لفظ يعم أعمال البر كلها"[13].

قال الجصاص:" وكل أعمال البر معروف لاعتراف العقول بها لأن العقول تعترف بالحق من جهة إقرارها به والتزامها له وتنكر الباطل من جهة زجرها عنه وتبريها منه ومن جهة أخرى سمى أعمال البر معروفا وهو أن أهل الفضل والدين يعرفون الخير لملابستهم إياه وعلمهم به ولا يعرفون الشر بمثل معرفتهم بالخير لأنهم لا يلابسونه ولا يعلمون به فسمى أعمال البر معروفا والشر منكرا"[14].

---

[1] البيت للحكم بن عبدل، وهو في المجمل ٣/ ٨٥٨، وشرح المقصورة لابن خالويه ص ٤٣٣، واللسان (نجا) .

[2] لم أتعرف على قائله، والبيت في معاني القرآن للزجاج:١٠٥/٢، وتفسير الثعلبي:٣٨٤/٣.

[3] وهو في «اللسان» لعبيد بن الأبرص وفي «ديوانه» ٥٣، والعقوة:
الساحة وما حول الدار والمحلة، والقرواح: البارز الذي ليس يستره من السماء شيء. وقيل: الناقة الطويلة.
وكذلك النخلة الطويلة يقال لها: قرواح.

[4] معاني القرآن:١٠٥/٢-١٠٦.

[5] التفسير الميسر:٩٧.

[6] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٦٠):ص١٠٦٥/٤.

[7] تفسير الطبري:٢٠١/٩-٢٠٢.

[8] زاد المسير:٤٧٠/١.

[9] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩٦١):ص١٠٦٥/٤.

[10] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩٦١):ص١٠٦٥/٤.

[11] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٦/١.

[12] انظر: زاد المسير:٤٧١/١.

[13] تفسير القرطبي:٣٨٣/٥.

[14] أحكام القرآن:٢٦٦/٣.

قال عبد الله بن حبيب:" كنت عند محمد بن كعب فقال له محمد: أين كنت؟ قال: كان بين قومي شيء فأصلحت بينهم. قال: أصبحت لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله، ثم قرأ {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس}"[1].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة، وما وقى الرجل به عرضه كتب له بها صدقة"، قلت: ما يعني وقى الرجل عرضه؟ قال: "ما أعطى الشاعر وذا اللسان للمتقى، وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامنا إلا ما كان من نفقة في بنيان أو في معصية الله عز وجل"[2].

قال أبو عبيدة:" فالنجوى فعل والأمر بالصدقة ليس من نجواهم التي لا خير فيها. إلا أن يكونوا يأمرون بصدقة أو معروف، والنّجوى: فعل، و«من»: اسم، قال النابغة[3]:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي ... على وعل فى ذى القفارة عاقل

والمخافة: فعل، والوعل اسم"[4].

وقوله:" {إلا من أمر بصدقة}، فيجوز أن يكون بمعنى: إلا في نجوى من أمر بصدقة، ويجوز أن يكون استثناء ليس من الأول، فيكون بمعنى: لكن من أمر بصدقة، ففي نجواهم خير."[5].

قال ابن العربي:" يحتمل أن يكون النجوى مصدرا، كالبلوى والعدوى، ويحتمل أن يكون اسما للمنتجين كما قال: {وإذ هم نجوى} [الإسراء: ٤٧]. فإن كان بمعنى المنتجين فقوله: {إلا من أمر بصدقة} [النساء: ١١٤] استثناء شخص من شخص، وإن كان مصدرا جاز الاستثناء على حذف تقديره: إلا نجوى من أمر بصدقة"[6].

قال الراغب:" يقال: لكل ما يستحسنه العقل ويعترف به «معروف»، ولكل ما يستقبحه وينكره «منكر»، ووجه ذلك أن الله ركز في العقول معرفة الخير والشر وإليها أشار بقوله: {صِبْغَةَ اللَّهِ } [البقرة : ١٣٨]، و {فِطْرَتَ اللَّهِ} [الروم : ٣٠]، وعلى ذلك البر: ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، واطمئنانها إليه لمعرفتها به"[7].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} [النساء : ١١٤]، أي:" ومن يفعل تلك الأمور طلبًا لرضا الله تعالى راجيًا ثوابه"[8].

قال مقاتل بن حيان:" {ومن يفعل}، ذلك تصدق أو أقرض أو أصلح بين الناس ابتغاء مرضات الله، {فسوف نؤتيه أجرا عظيما}"[9].

قوله تعالى:{فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء : ١١٤]، أي:" فسوف نؤتيه ثوابًا جزيلا واسعًا"[10].

قال مقاتل:" يعني: جزاء عظيما"[11].

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٦٢):ص١٠٦٥/٤.

[2] أخرجه الدارقطني: ٣ / ٢٨، وعبد بن حميد في المنتخب برقم (١٠٨٣) ص (٣٢٧) ، وصححه الحاكم: ٢ / ٥٠ فتعقبه فتعقبه الذهبي بقوله: "عبد الحميد بن الحسن الهلالي ضعفه الجمهور"، وابن عدي في الكامل: ٣ / ١٢٥٤، والمصنف في شرح السنة: ٦ / ١٤٦، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم (٨٩٨) : ٢ / ٣٠١، وقال: "لكن الجملتان الأوليان من الحديث صحيحتان لأن لهما شواهد كثيرة في الصحيحة وغيرها".

[3] البيت من الطويل، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص ١٤٤، وأمالي المرتضى ١/ ٢٠٢، ومعجم ما استعجم ص ١٠٢٦، وأمالي ابن الشجري ١/ ١٩١، ومجمع البيان ١/ ٢٦٢، ٢٥٥، ومجاز القرآن ١/ ٦٥، وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ص ٣٢، والبيت بلا نسبة في أمالي المرتضى ١/ ٢١٦، والإنصاف ١/ ٣٧٢، ولسان العرب (خوف) ، ومجالس ثعلب ص ٦١٨، والمقتضب ٣/ ٢٣١، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٩٩، والأضداد ص ٣٢٨.

[4] مجاز القرآن:١٣٩/١.

[5] زاد المسير:٤٧٠/١.

[6] أحكام القرآن:٦٢٧/١.

[7] تفسير الراغب الاصفهاني:١٤٨/٤.

[8] التفسير الميسر:٩٧.

[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٦٣):ص١٠٦٥/٤.

[10] التفسير الميسر:٩٧.

[11] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٦/١.

قال البيضاوي:" بني الكلام على الأمر ورتب الجزاء على الفعل ليدل على أنه لما دخل الآمر في زمرة الخيرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمدة والغرض هو الفعل واعتبار الأمر من حيث إنه وصلة إليه، وقيد الفعل بأن يقول لطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى، لأن الأعمال بالنيات وأن كل من فعل خيرا رياء وسمعة لم يستحق به من الله أجرا. ووصف الأجر بالعظم تنبيها على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا"[١].

وقرأ حمزة وأبو عمرو :«يؤتيه»، بالياء[٢].

الفوائد:

١- حرمة تناجي اثنين دون الثالث لثبوت ذلك في السنة.

٢- الاجتماعات السرية لا خير فيها إلا اجماعاً كان لجمع صدقة، أو لأمر بمعروف أو إصلاح بين متنازعين من المسلمين مختلفين.

القرآن

{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)} [النساء : ١١٥]

التفسير:

ومن يخالف الرسول ﷺ من بعد ما ظهر له الحق، ويسلك طريقًا غير طريق المؤمنين، وما هم عليه من الحق، نتركه وما توجَّه إليه، فلا نوفقه للخير، وندخله نار جهنم يقاسي حرَّها، وبئس هذا المرجع والمآل.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال السدي:" فلما فضح الله طعمة في المدينة، فنقب بيت الحجاج، فأراد أن يسرقه فسمع الحجاج خشخشة في بيته وقعقعة جلود كانت عنده، فنظر فإذا هو طعمة، فقال: ضيفي وابن عمي وأردت سرقتي، فأخرجه فمات بحرة بني سليم كافرا، فأنزل الله تعالى فيه: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}"[٣]. وذكروا عن الكلبي نحو ذلك[٤].

والثاني: وعن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: "نزلت هذه الآية في نفر من قريش، قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ودخلوا في الإسلام، فأعطاهم رسول الله ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين ورجعوا إلى عبادة الأوثان، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ}"[٥].

وذكر السمرقندي عن الضحاك: "قدم نفر من قريش المدينة وأسلموا، ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين، فنزلت هذه الآية"[٦].

والراجح-والله أعلم- أنها نزلت "في الخائنين الذين ذكرهم الله في قوله : {ولا تكن للخائنين خصيمًا}، لما أبى التوبة من أبى منهم ، وهو طعمة بن الأبيرق ، ولحق بالمشركين من عبدة الأوثان بمكة مرتدًّا ، مفارقًا لرسول الله ﷺ ودينه"[٧].

وقال القرطبي:" والآية وإن نزلت في سارق الدرع أو غيره، فهي عامة في كل من خالف طريق المسلمين"[٨].

قوله تعالى:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى} [النساء : ١١٥]، أي:" ومن يخالف الرسول ﷺ من بعد ما ظهر له الحق"[٩].

---

[١] تفسير البيضاوي:٩٦/٣.
[٢] انظر: تفسير البيضاوي:٩٦/٣.
[٣] اخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٦٧):ص١٠٦٦/٤.
[٤] انظر: تفسير السمرقندي:٣٣٨/١.
[٥] تفسير الثعلبي:٣٨٦/٣.
[٦] تفسير السمرقندي:٣٣٨/١.
[٧] تفسير الطبري:٤٠٥/٩.
[٨] تفسير القرطبي:٣٨٥/٥.
[٩] التفسير الميسر:٩٧.

قال السمرقندي:" يعني: يخالفه في التوحيد، من بعد ما تبين لهم التوحيد"[١].

قال الطبري:أي:" ومن يباين الرسولَ محمدًا ﷺ ، معاديًا له ، فيفارقه على العداوة له، من بعد ما تبين له أنه رسول الله ، وأن ما جاء به من عند الله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم"[٢].

قال ابن كثير:" أي : ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فصار في شق والشرع في شق ، وذلك عن عَمْد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له"[٣].

قال الزجاج:" لأن طعمة هذا كان قد تبين لصه ما أوْحَى اللَّهُ إلى نبيه في أمرِه، وأظهر مِنْ سَرِقَتِه في الآية ما فيه بَلَاغ، فعَادى النبي - ﷺ - وصار إلى مكة، وأقام مع المشركين"[٤].

قال مقاتل:" {يشاقق}، يعني: يخالف"[٥].

قال ابن زمنين: {يشاقق}، "أي: يخالف"[٦].

قال الراغب:" الشق: القطع طولا ومنه استعير :الاشتقاق، وشق العصا، وشق عليه الأمر، كقولهم: مشقة الأمر وشق كرددت عصاه، ومشاقة الرسول أن يصير في شق غير شقة كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة :٥، ٢٠]، أي: يصيرون في حد غير حده، وذلك أشبه بالاعتقاد والديانة"[٧].

قوله تعالى:{وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء : ١١٥]، أي:" ويسلك طريقًا غير طريق المؤمنين"[٨].

قال مقاتل:" يعني: غير دين المؤمنين"[٩].

قال الطبري:" يقول : ويتبع طريقًا غير طريق أهل التصديق ، ويسلك منهاجًا غير منهاجهم ، وذلك هو الكفر بالله ، لأن الكفر بالله ورسوله غير سبيل المؤمنين وغير منهاجهم"[١٠].

قال السمرقندي:" أي: يتبع دينا غير دين المؤمنين، ويقال: يتبع طريقا أو مذهبا غير طريق المؤمنين"[١١].

قال ابن كثير:" هذا ملازم للصفة الأولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع ، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية ، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقًا ، فإنه قد ضُمِنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ ، تشريفًا لهم وتعظيما لنبيهم -ﷺ-. وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة ، قد ذكرنا منها طرفًا صالحًا في كتاب "أحاديث الأصول" ، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها ، والذي عول عليه الشافعي ، رحمه الله ، في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تَحْرُم مخالفته هذه الآية الكريمة ، بعد التروي والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها ، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك واستبعد الدلالة منها على ذلك"[١٢].

قوله تعالى:{نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى} [النساء : ١١٥]، أي:" نتركه وما توجَّه إليه، فلا نوفقه للخير"[١٣].

---

[١] تفسير السمرقندي:٣٣٨/١.
[٢] تفسير الطبري:٢٠٤/٩.
[٣] تفسير ابن كثير:٤١٢/٢.
[٤] معاني القرآن:١٠٦/٢.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٧/١.
[٦] تفسير ابن أبي زمنين:٤٠٦/١.
[٧] تفسير الراغب الأصفهاني:١٥١/٤.
[٨] التفسير الميسر:٩٧.
[٩] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٧/١.
[١٠] تفسير الطبري:٢٠٤/٩-٢٠٥.
[١١] تفسير السمرقندي:٣٢٨/١.
[١٢] تفسير ابن كثير:٤١٢/٢-٤١٣.
[١٣] التفسير الميسر:٩٧.

قال الزجاج:" نَدَعة ومَا اختار لنفسه في الدنيا لأن الله جلَّ وعزَّ وعد بالعذاب في الآخرة"[1].

قال مجاهد :"من آلهة الباطل"[2]. وذكر مقاتل نحوه[3].

وقال الكلبي:" يعني: نوله في الآخرة ما تولى في الدنيا"[4].

قال ابن كثير:" أي : إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك ، بأن نحسنها في صدره ونزينها له - استدراجًا له - كما قال تعالى : { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ } [القلم : ٤٤]. وقال تعالى : { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } [الصف : ٥]. وقوله { وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [الأنعام : ١١٠]"[5].

قرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو:«نوله»، بجزم الهاء، وقرأ الباقون بالكسر، وهما لغتان[6].

قوله تعالى:{وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ} [النساء : ١١٥]، أي:" وندخله نار جهنم يقاسي حرَّها"[7].

قال الطبري:" يعني : نحرقه بها"[8].

قال الواحدي:" نلزمه جهنم، وأصله: «الصِلا»، وهو لزوم النار للاستدفاء"[9].

وقال الفراء: "«الصِّلاء»: اسم للوقود، وهو الصلا، إذا كسرت مددت، وإذا فتحت قصرت، قال ابن حلزة[10]:

فتنورت نارها من بعيدٍ بخَزازَى هيهات منك الصَّلاء"[11]

قال الراغب: وأصل «الصلا»: الملازمة، ومنه الصلاة للدعاء ومن أجله قول النبي - ﷺ -: «ايصلوا يا ذا الجلال والإكرام»[12]، أي: الزموا مراعاة ذلك.

و«الصلا»: ملازمة قرب النار للاصطلاء بها، فجعل عبارة عن ملازمتها للعذاب، والصلوان العرقان المكتنفان لجانبي الوركين، يجوز أنه اعتبر فيهما الاصطلاء كتسمية اليد والرجل المصطلى"[13].

قرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو:«نصله»، بجزم الهاء، وقرأ الباقون بالكسر، وهما لغتان[14].

قوله تعالى:{وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء : ١١٥]، أي:" وبئس هذا المرجع والمآل"[15].

قال الثعلبي:" يعني: بئس المنزل حلوا به يوم القيامة"[16].

قال الواحدي:" وكذلك ساءت جهنم موضعًا يصار إليه"[17].

---

[1] معاني القرآن:١٠٧/٢.

[2] أخرجه الطبري(١٠٤٢٧)، و(١٠٤٢٨):ص٢٠٥/٩.

[3] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٧/١.

[4] تفسير السمرقندي:٣٣٨/١.

[5] تفسير ابن كثير:٤١٣/٢.

[6] انظر: تفسير السمرقندي:٣٣٩/١.

[7] التفسير الميسر:٩٧.

[8] تفسير الطبري:٤٠٥/٩.

[9] التفسير البسيط:٩٢/٧-٩٣.

[10] البيت من معلقة الحارث بن حلزة اليشكري كما في "شرح القصائد المشهورات" للنحاس: ٢/ ٥٥، "شرح المعلقات" للزوزني ص ١٥٦. قال النحاس: تنورتُ النار إذا نظرتها بالليل .. وخزازى اسم موضع. والشاهد منه: الصلاء كسرت الصاد فجاءت الكلمة ممدودة..

[11] انظر: "المقصور والممدود" للفراء ص ٣٦، ٣٧، ٦٢، "اللسان" ٤/ ٢٤٩١ (صلا)، والتفسير البسيط للواحدي:٣٥١/٦.

[12] لم اقف عليه، وقد روي عن انس بن مالك قال رسول الله -ﷺ-:" ألظوا بـيا ذا الجلال والإكرام". أخرجه أحمد(١٧٧٣٩):ص١٧٧/٤، والنسائي في الكبرى(٧٦٦٩)، و(١١٤٩٩)، والترمذي (٣٥٢٤).

[13] تفسير الراغب الأصفهاني:١٥١/٤.

[14] انظر: تفسير السمرقندي:٣٣٩/١.

[15] التفسير الميسر:٩٧.

[16] تفسير الثعلبي:٣٨٦/٣.

[17] التفسير البسيط:٩٣/٧.

قال ابن كثير:" وجعل النار مصيره في الآخرة ، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة ، كما قال تعالى : { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [الصافات : ٢٢ ، ٢٣]. وقال:{ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا } [الكهف : ٥٣] "[١].

قال مالك:" كان عمر بن عبد العزيز يقول: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر فيما خالفها، من اقتدى بها مهتد ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله ما تولى وصلاه جهنم وساءت مصيرا"[٢].

قال الواحدي: "قال بعض المفسرين ان هذا [يعني: قوله تعالى:{نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى}]، منسوخ بآية السيف، لأنه لا يقرُّ الآن عابد لوثن على ما هو عليه، ولا يولى ما تولَّى"[٣].

قلت: ولم أجد هذا القول في كتب التفسير ولا "الناسخ والمنسوخ".

الفوائد:

١- حرمة الخروج عن أهل السنة والجماعة، واتباع الفرق الضالة التي لا تمثل الإسلام إلا في دوائر ضيقة كالروافض ونحوهم.

٢- ذمهم على ترك اتباع سبيل المؤمنين كما ذمهم على ترك الإيمان ودل بذلك على صحة حجة الإجماع لأنه لولا أن ذلك لازم لما ذمهم على تركه ولما قرنه إلى مشاقة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤].

٣- في الآية دليل إن الإجماع حجة، لأن من خالف الإجماع فقد خالف سبيل المؤمنين[٥].

قال الواحدي:" قال العلماء: هذه الآية من أقوى الحجج على صحة الإجماع، واحتج به الشافعي رحمه الله، وكان قد سئل عن دليل من كتاب الله على صحة الإجماع، فتلا هذه الآية[٦].

ووجه الاحتجاج هو أن الله تعالى أوعد على اتباع غير سبيل المؤمنين، كما أوعد على مشاقة الرسول عليه السلام، فسوى بين مخالفة سبيل المؤمنين وبين مشاقة الرسول بعد تبين الهدى ، والآية وإن نزلت في خائن الدرع فهي عامة لكل من لزمه هذا الوصف"[٧].

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)} [النساء : ١١٦]

التفسير:

إن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده. ومن يجعل لله تعالى الواحد الأحد شريكًا من خلقه، فقد بَعُدَ عن الحق بعدًا كبيرًا.

في سبب نزول الآية ثلاثة اقوال:

أحدها: أنها نزلت في حق طعمة بن أبيرق لما هرب من مكة، ومات على الشرك، وهذا قول الجمهور[٨]، منهم سعيد بن جبير[٩].

---

[١] تفسير ابن كثير:٤١٣/٢.
[٢]أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٦٩):ص١٠٦٧/٤.
[٣] التفسير البسيط للواحدي:٩٢/٧.
[٤] احكام القرآن للجصاص:٢٢٨/٣.
[٥] انظر: تفسير السمرقندي:٣٣٨/١.
[٦]ورد في "الرسالة" ص ٤٧١ - ٤٧٦، سؤال للشافعي عن حجية الإجماع، وأجاب الشافعي رحمه الله عن ذلك محتجًا بالسنة والنظر، لكن لم يرد ذكر لهذِه الآية. وقد ذكر احتجاج الشافعي بهذِه الآية على الإجماع: الآمدي في الأحكام ١/ ٢٠٠، وأبو حيان في "البحر المحيط" ٣/ ٣٥٠، وابن كثير في "تفسيره" ٢/ ٤١٣.
[٧] التفسير البسيط:٩١/٧، وانظر: انظر: "بحر العلوم" ١/ ٣٨٧، و"الكشف والبيان" ٣٨٦/٣، و"الأحكام" للآمدي ١/ ٢٠٠، والقرطبي ٥/ ٣٨٦، وابن كثير ٢/ ٤١٢-٤١٣.
[٨] انظر: زاد المسير:٤٧٢/١.
[٩] انظر: زاد المسير:٤٧٢/١.

والثاني: وعن الضحاك عن ابن عباس:"إن شيخا من الاعراب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا نبي الله أني شيخ منهمك في الذنوب والخطايا إلا إني لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته، وآمنت به ولم اتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصي جرأة على الله ولا مكابرة له ولا توهمت طرفة عين، إني أعجز الله هربا وإني لنادم تائب مستغفر فما حالي عند الله؟ فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ}"[1].

والثالث: قال الثعلبي:"ويقال: إنه نزل في حرة بني سليم وكان يعبد صنما لهم إلى إن مات، فأنزل الله فيه : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}ا"[2].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} [النساء : ١١٦]، أي: "إن الله لايغفر ذنب الشرك"[3].

قال الزمخشري:" تكرير للتأكيد، وقيل: كرر لقصة طعمة: وروى: أنه مات مشركا"[4].
مشركا"[4].

قال ابن عباس:" فحرم الله المغفرة على من مات وهو كافر، وأرجاها أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة"[5].

قال جابر بن عبد الله: "قال رسول الله ﷺ: ما من عبد يموت لا يشرك بالله شيئا إلا حلت له المغفرة إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه قال: إن الله استثنى، فقال: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}"[6]. قال جابر بن عبد الله: "قال رسول الله ﷺ: ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئا إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبها، وإن شاء الله غفر لها، {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} الآية"[7].

وعن عمران بن حصين، أن رسول الله ﷺ قال: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، الإشراك بالله، {ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما}"[8].

وقد روى الترمذي عن علي رضي الله عنه أنه قال : "ما في القرآن آية أحب إليَّ من هذه الآية : { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}"[9].

قال السمعاني:" فإن قال قائل: قد قال الله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به} وقال في موضع آخر: {إن الله يغفر الذنوب جميعا} فكيف وجه الجمع؟

قيل أراد به: يغفر الذنوب جميعا سوى الشرك"[10].

قال أبو هلال العسكري:" أصل الشرك: إضافة الشيء إلى مثله، ومنه قيل: شراكا النعل، لأن كل واحد منها يشبه الآخر، وشراك الطريق مشبه بشراك النعل، وأشرك بالله عبد معه غيره؛ لأنه أضافه إليه وشبهه به"[11].

قال المراغي:" تقدم هذا النص بعينه فى غرض آخر من هذه السورة، وأعاد هنا مرة أخرى، لأنه إنما ترجى الهداية والموعظة بإبراز المعاني التي يراد إيداعها فى نفوس السامعين فى كل سياق يقصد فيه توجيها إليها وإعدادها لقبولها، ولن يتم ذلك إلا بتكرار المقاصد الأساسية من تلك المعاني حتى تتمكن فى النفوس بذلك التكرار، ومن ثم نرى رجال الدين والسياسة الذين

---

[1] تفسير الثعلبي:٣٨٦/٣، وانظر: زاد المسير:٤٧٢/١.
[2] تفسير الثعلبي:٣٨٦/٣.
[3] صفوة التفاسير:٢٨١.
[4] الكشاف:٥٦٥/١.
[5] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٢٣):ص٩٧٠/٣.
[6] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٢٠):ص٩٧٠/٣.
[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٤٢٥):ص٩٧١/٣.
[8] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٤٢٩):ص٩٧١/٣.
[9] سنن الترمذي برقم (٣٠٣٧)، ثم قال :"حسن غريب".
[10] تفسير السمعاني:٤٣٤/١.
[11] الوجوه والنظائر:٢٦٥-٢٦٦.[بتصرف]..

عرفوا سنن الاجتماع وفهموا طبائع البشر وأخلاقهم يكررون فى خطبهم ومقالاتهم، أغراضهم ومقاصدهم التي ينشرونها فى الصحف والكتب، فإن الذهن إذا تكرر عليه مدح الشيء أو ذمه أثر فيه.

المعنى- أكد الله لعباده أنه لا يغفر البتة لأحد أشرك به سواه، وأنه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين مادون الشرك من الذنوب فلا يعذبهم عليه.

ذاك أن الشرك هو منتهى فساد الأرواح وضلال العقول، فكل خير يلابسه لا يقوى على إضعاف مفاسده وآثامه والعروج بها إلى جوار ربها، إذ أنها تكون موزعة بين شركاء يحولون بينها وبين الخلوص إليه عز وجل، والله لا يقبل إلا ما كان خالصا له.

وبعض الناس ممن يسمون أنفسهم بالموحدين يفعلون كما يفعل سائر المشركين، فيدعون حين يشتد الكرب ويعظم الخطب غير الله وحده أو مع الله ولا يسمون عملهم دعاء، بل يسمونه توسلا واستشفاعا، ويسمون من يدعونهم أولياء وشفعاء، ولو لم يكن منهم إلا هذا الدعاء لقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، لكفى ذلك عبادة وشركا بالله.

وقد قال النبي ﷺ «الدعاء هو العبادة»[1]، أي: إن العبادة جد العبادة إنما تكون فى الدعاء الذي يفيض على اللسان من قرارة النفس حين وقوع الخطب، واشتداد الكرب، وهذا ما تسمعه من أصحاب الحاجات، عند حدوث الملمات، وفى هياكل العبادات، ولدى قبور الأموات، فكل ذلك يمثل الخشوع والخضوع، ويذرف من العين الدموع «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله» .

وما عدا هذا الدعاء من العبادات، جله يفعل بالتعليم، ويكون فى الغالب خاليا من الشعور الذي به يكون القول أو الفعل عبادة، إذ هو خال من معنى العبادة وروحها وهو الشعور بالسلطة الغيبية التي هى وراء الأسباب العادية، ولا سيما الأدعية التي تكون فى الصلوات أو فى غير الصلوات، إذ نرى الحافظ لها يحرك بها لسانه وقلبه مشغول بشواغل أخرى، فمثل هذا لا يمثل العبادة الحقة التي تملأ القلب نورا، والنفس استسلاما وخضوعا، والروح طهارة وزكاء"[2].

قوله تعالى:{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء : ١١٦]، أي:" ويتجاوز ويعفو عمّا دون الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده"[3].

قال مقاتل:أي:" لمن مات موحدا فمشيئته- تبارك وتعالى- لأهل التوحيد"[4].

قوله تعالى:{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء : ١١٦]، أي:" ومن يجعل لله تعالى الواحد الأحد شريكًا من خلقه، فقد بَعُدَ عن الحق بعدًا كبيرًا"[5].

قال البغوي:" أي: ذهب عن الطريق وحرم الخير كله"[6].

قال ابن كثير:" أي : فقد سلك غير الطريق الحق ، وضل عن الهدى وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة ، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة"[7].

قال المراغي:أي:"ومن يشرك بالله شيئا فيدعوه معه ويذكر اسمه مع اسمه، أو يدعوه وحده ملاحظا أنه يقر به إليه زلفى- فقد ضل عن القصد، وبعد عن سبيل الرشد ضلالا بعيدا فى

---

(١) أخرجه أحمد(١٨٥٤٢):ص٤/٢٦٧، و(١٨٥٧٦):ص٤/٢٧١/ و(١٨٥٨١)، و(١٨٦٢٣)، و(١٨٦٢٧)، و(١٨٦٢٨):ص٤/٢٧٦-٢٧٧، والبخاري في الادب المفرد(٧١٤)، وابن ماجة(٣٨٢)، والترمذي(٢٩٦٩)، و(٣٢٤٧)، و(٣٣٧٢)، والنسائي في الكبرى(١١٤٠٠) .

(٢) تفسير المراغي:١٥٨/٥.

(٣) التفسير الميسر:٩٧.[بتصرف]

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٧/١.

(٥) التفسير الميسر:٩٧.

(٦) تفسير البغوي:٢٨٧/٢

(٧) تفسير ابن كثير:٤١٤/٢.

سبيل الغواية، لأنه ضلال يفسد العقل، ويكدر صفاء الروح ويجعله يخضع لعبد مثله، ويخضع أمام مخلوق يحاكيه ويكون عبدا للخرافات والأوهام"[١].

قال البيضاوي:" فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة، وإنما ذكر في الآية الأولى،{فَقَدِ افْتَرَى} [النساء : ٤٨]، لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب، ومنشأ شركهم كان نوع افتراء وهو دعوى التبني على الله سبحانه وتعالى"[٢].

قال ابو حيان:" إلا أن آخر ما تقدم: {فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء : ٤٨]، وآخر هذه: {فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء : ١١٦]، ختمت كل آية بما يناسبها. فتلك كانت في أهل الكتاب، وهم مطلعون من كتبهم على ما لا يشكون في صحته من أمر الرسول ﷺ، ووجوب اتباع شريعته، ونسخها لجميع الشرائع، ومع ذلك قد أشركوا بالله مع أن عندهم ما يدل على توحيد الله تعالى والإيمان بما نزل، فصار ذلك افتراء واختلاقا مبالغا في العظم والجرأة على الله.

وهذه الآية هي في ناس مشركين ليسوا بأهل كتب ولا علوم، ومع ذلك فقد جاءهم بالهدى من الله، وبان لهم طريق الرشد فأشركوا بالله، فضلوا بذلك ضلالا يستبعد وقوعه، أو يبعد عن الصواب"[٣].

الفوائد:

١- إن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة كما أنه افتراء وإثم عظيم[٤].

قال المراغي:" أكد الله لعباده أنه لا يغفر البتة لأحد أشرك به سواه، وأنه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين مادون الشرك من الذنوب فلا يعذبهم عليه، ذاك أن الشرك هو منتهى فساد الأرواح وضلال العقول، فكل خير يلابسه لا يقوى على إضعاف مفاسده وآثامه والعروج بها إلى جوار ربها، إذ أنها تكون موزعة بين شركاء يحولون بينها وبين الخلوص إليه عز وجل، والله لا يقبل إلا ما كان خالصا له"[٥].

٢-أن الشرك ضلال لكونه يفسد العقل، ويكدر صفاء الروح ويجعله يخضع لعبد مثله، ويخضع أمام مخلوق يحاكيه ويكون عبدا للخرافات والأوهام[٦].

٣-في هذه الآية دليل على فساد قول الخوارج حين زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر وذلك قوله عز وجل قال: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ففرق بين الشرك وسائر الذنوب وحتم على نفسه بأن لا يغفر الشرك، لو كان الكبيرة كفرا لكان قوله إن الله لا يغفر أن يشرك به مستوعبا فلما فرق بين الشرك وسائر الذنوب بان فساد قولهم[٧].

قال القرطبي:" رد على الخوارج، حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر"[٨].

قال ابن فورك: "وأجمع أصحابنا على أنه لا تخليد إلا للكافر، وأن الفاسق من أهل القبلة إذا مات غير تائب فإنه إن عذب بالنار فلا محالة أنه يخرج منها بشفاعة الرسول، أو بابتداء رحمة من الله تعالى"[٩].

القرآن

{إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)} [النساء : ١١٧]

التفسير:

---

[١] تفسير المراغي:١٥٨/٥.
[٢] تفسير البيضاوي:٩٧/٢.
[٣] البحر المحيط:٦٨/٤.
[٤] انظر: تفسير أبي السعود:٢٣٣/٢.
[٥] تفسير المراغي:١٥٨/٥.
[٦] انظر: تفسير المراغي:١٥٨/٥.
[٧] انظر: تفسير الثعلبي:٣٨٦/٣.
[٨] تفسير القرطبي:٣٨٦/٥.
[٩] تفسير القرطبي:٣٨٦/٥.

ما يعبد المشركون من دون الله تعالى إلا أوثانًا لا تنفع ولا تضر، وما يعبدون إلا شيطانًا متمردًا على الله، بلغ في الفساد والإفساد حدّاً كبيرًا.

سبب نزول الآيتين:[١١٧، و١١٨]:

قال الحسن:"لم يكن حي من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه، يسمونه أنثى بني فلان؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا}"[١].

قوله تعالى:{إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا} [النساء : ١١٧]، " أي: ما يدعو هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلا أوثاناً سموها بأسماء الإناث"[٢].

قال مقاتل:" يعني: أوثانا، يعنى: أمواتا: اللات والعزى، وهي الأوثان لا تحرك ولا تضر ولا تنفع فهي ميتة"[٣].

قال ابن قتيبة:" يعني: اللات والعزى ومناة"[٤].

قال أبو عبيدة:" إلا الموات، حجرا أو مدرا أو ما أشبه ذلك"[٥].

قال التستري:" يعني: أصواتا، وهو الحجارة والحديد"[٦].

قال أبي بن كعب:" مع كل صنم جنية"[٧]. وروي عن الحسن نحو ذلك[٨].

وفي قوله تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا} [النساء : ١١٧]، خمسة وجوه:

أحدها : أن الإناث اللات والعزى ومَناة ، وهو قول السدي[٩]، وابن زيد[١٠]، وأبي مالك[١١].

والثاني : أنها الأوثان ، وهذا قول مجاهد[١٢]،وأبي سلمة بن عبد الرحمن[١٣]، وعروة بن الزبير[١٤]، وأبي مالك الغفاري[١٥]، والسدي[١٦]، ومقاتل بن حيان[١٧].

وقد روي عن عروة عن ابيه أنه "كان في مصحف عائشة:«إِن تَدْعُونَ مِن دُونِهِ إلاَّ إِنَاثاً»"[١٨].

والثالث : الملائكة ، لأنهم كانوا يزعمون أنهم بنات الله ، وهذا قول الضحاك[١٩].

والرابع : الموات الذي لا روح فيه ، لأن إناث كل شيء أرذله ، وهو قول ابن عباس[٢٠]، والحسن في رواية أخرى[٢١]، وقتادة[٢٢]، وابي عبيدة[٢٣].

---

[١]أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٤/ ١٣٧٣ رقم ٦٨٨)، والطبري في "جامع البيان"(١٠٤٣٨)، و(١٠٤٣٩):ص٢٠٩/٩، من طريق محمد بن سيف عن الحسن به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٦٨٧)، وزاد نسبته لابن المنذر.

[٢] صفوة التفاسير:٢٨١.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٨/١.

[٤] غريب القرآن:١٣٥.

[٥] مجاز القرآن:١٤٠/١.

[٦] تفسير التستري:٥٥.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٧٠):ص١٠٦٧/٤.

[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩٧٠):ص١٠٦٧/٤.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٣٢):ص٢٠٧/٩.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٣٣):ص٢٠٧/٩.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٣٠)، و(١٠٤٣١):ص٢٠٧/٩.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٤٠)، (١٠٤٤١):ص٢٠٩/٩-٢١٠.

[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩٧٣):ص١٠٦٧/٤.

[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩٧٣):ص١٠٦٧/٤.

[١٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩٧٣):ص١٠٦٧/٤.

[١٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩٧٣):ص١٠٦٧/٤.

[١٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٩٧٣):ص١٠٦٧/٤.

[١٨] أخرجه الطبري(١٠٤٤٢):ص٢١٠/٩.

[١٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٣٧):ص٢٠٨/٩-٢٠٩.

[٢٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٣٤):ص٢٠٨/٩.

[٢١] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٣٦):ص٢٠٨/٩.

[٢٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٣٥):ص٢٠٨/٩.

[٢٣] انظر: مجاز القرن:١٤٠/١.

والخامس: معناه: إن أهل الأوثان كانوا يسمون أوثانهم «إناثًا»، فأنزل الله ذلك كذلك وهذا قول الحسن في رواية أبي رجاء[1].

والراجح-والله أعلم- أنه"عنى بذلك: الآلهة التي كان مشركو العرب يعبدونها من دون الله ويسمونها الإناث من الأسماء ، كاللات والعُزَّى ونائلة ومناة ، وما أشبه ذلك، الأظهر من معاني " الإناث " في كلام العرب ، ما عُرِّف بالتأنيث دون غيره. فإذ كان ذلك كذلك ، فالواجب توجيه تأويله إلى الأشهر من معانيه"[2].

والقراءة المشهورة: {إناثاً}. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو مجلز، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «إلا وَثَناً» ، بفتح الواو، والثاء من غير ألف. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين: «أُنُثاً» ، برفع الهمزة والنون من غير ألف. وقرأ أبو العالية، ومعاذ القارئ، وأبو نُهيك: (أناثاً) ، برفع الهمزة وبألف بعد الثاء. وقرأ أبو هريرة، والحسن، والجوني: «إلا أنثى» ، على وزن «فعلى» . وقرأ أيوب السختياني: «إلا وُثنا» ، برفع الواو والثاء من غير ألف. وقرأ مورّق العجلي: (أُثُناً) ، برفع الهمزة والثاء من غير ألف[3].

قال الزجاج:" فمن قال: «أناث»، فهو جمع أنثى وإناث، ومن قال: «أُنُث»، فهو جمع: إنَاث، لأن «إناثاً» على وزن مِثال، وإنَاث وأُنث مِثْل مِثَال ومُثُل. ومن قال: «أُثُنا»، فإنه جمع وثَن.

والأصل: وُثُن، إلا أنَّ الواو إذا انْضَمَّتَ يجوز إبدالها همزة، كقوله تعالى: {وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ} [المرسلات : ١١]، الأصل: وُقِّتَتْ، ومثال وُثُن في الجمع مثل سُقُف.

وجائز - أن يكون: اثْن، مثل: أسد وأسد، وجائز أن يكون:اثُن، أصلها: اثْن، فاتبعت الضمةُ الضَمَّة"[4].

قوله تعالى:{وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} [النساء : ١١٧]، " أي: وما يعبدون إلا شيطاناً متمرداً على الله، بلغ الغاية في العتو والفجور"[5].

قال مقاتل بن حيان:" يعني: إبليس"[6].

قال سفيان:" ليس من صنم إلا فيه شيطان"[7].

قال مقاتل:" يعني: وما يعبدون من دونه إلا {شيطانا}، يعني: إبليس، زين لهم إبليس طاعته في عبادة الأوثان، {مريدا}، يعني: عاتيا"[8].

قال أبو عبية:" أي: متمردا"[9].

قال ابن قتيبة:" أي: ماردا. مثل قدير وقادر والمارد: العاتي"[10].

قال قتادة:" تمرَّد على معاصي الله"[11].

قال الزجاج:" يعني: به إبليس لأنهم إذا أطاعوه فيما سَوَّلَ لهم فقد عَبدُوه، وَيدعُونَ في معنى يعبدُونَ، لأنهم إذَا دَعوْا اللَّهَ مخلصين فقد عبدوه، وكذلك قوله: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر : ٦٠]، أي: اعبدُونِي، والدليل على ذلك قوله عزَّ وجلَّ: { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} [غافر : ٦٠].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٣٨)، (١٠٤٣٩):ص٢٠٩/٩.

[2] تفسير الطبري:٢١٠/٩-٢١١.

[3] انظر: معاني القرآن للفراء ١ / ٢٨٨، وتفسير الطبري:٢١٠/٩، وزاد المسير:٤٧٢/١.

[4] معاني القرآن:١٠٨/٢.

[5] صفوة التفاسير:٢٨١.

[6] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٧٥):ص١٠٦٨/٤.

[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٧٦):ص١٠٦٨/٤. وذكر ابن الجوزي عن ابن عباس نحوه، انظر: زاد المسير:٤٧٣/١.

[8] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٩/١.

[9] مجاز القرآن:١٤٠/١.

[10] غريب القرآن:١٣٥.

[11] أخرجه الطبري(١٠٤٤٣):ص٢١٢/٩.

ومعنى {مَرِيدًا}، أي: خارج عن الطاعة مُتَمَلِصٌ مِنْهَا، ويُقَال: شجرة مَرْدَاءُ، إذا تناثر ورقُها، ومن ذلك يسمى من لم تنبت له لحية أمردُ أي أملس موضعِ اللحية، وقد مرَدَ الرجل يمردُ مُروداً إذا عتا وخرج عن الطاعة"[1].

الفوائد:

١-ذم الكفار بانهم تركوا عبادة من يحميهم ويكلؤهم إلى من لَا يستطيع حماية نفسه، والدعاء هنا العبادة، والالتجاء لإنقاذه من الهلاك أو المرض أو الكوارث بشكل عام، فهم قد تركوا عبادة القوي القادر القاهر الذي هو فوق كل شيء، إلى عبادة العاجز الذي لَا يستطيع حماية نفسه ورفع الضر عنه!

٢-إن عبادة الشيطان تكون في اتباع تشريعه ونظامه، وترك تشريع الله ونظامه، وقد سمى الله الذين يطاعون في معاصي الله، "شركاء"، إذ قال: {وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم} [الأنعام: آية ١٣٧]، فسماهم "شركاء"، لما زينوا لهم الحرام واتبعوهم فيه. وقد صح عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه سأل النبي - ﷺ - عن آية التوبة - وكان عدي هذا نصرانيا - قال له: يا نبي الله: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أربابا؟ يعني أنهم لم يسجدوا ولم يركعوا لهم ولم يصوموا لهم. قال له - ﷺ -: «ألم يحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله، فاتبعوهم؟» قال: بلى. قال: «بذلك اتخذوهم أربابا»[2][3].

القرآن

{لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨)} [النساء : ١١٨]

التفسير:

طرده الله تعالى من رحمته. وقال الشيطان: لأتخذن مِن عبادك جزءًا معلومًا في إغوائهم قولا وعملا.

قوله تعالى:{لَعَنَهُ اللَّهُ} [النساء : ١١٨]، أي:" طرده الله تعالى من رحمته"[4].

قال الطبري:أي:" أخزاه وأقصاه وأبعده"[5].

قال السمرقندي:" يعني: طرده الله من رحمته وهو إبليس، حيث لم يسجد لآدم"[6]. وفي قوله تعالى:{لَعَنَهُ اللَّهُ} [النساء : ١١٨]، وجهان من التفسير[7]:

أحدهما: أنه ابتداء دعاء عليه باللعن، وهو قول من قال:هو الأوثان.

والثاني: أنه إخبار عن لعن متقدم، وهو قول من قال: هو إبليس.

قوله تعالى:{وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا} [النساء : ١١٨]، اي:" وقال الشيطان: لأتخذن مِن عبادك جزءًا معلومًا في إغوائهم قولا وعملا"[8].

قال مقاتل بن حيان:" هذا قول إبليس"[9]. وفي رواية أخرى:"هذا إبليس، {مفروضا}، يقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة"[1].

---

[1] معاني القرآن:١٠٨/٢.

[2]أخرجه الترمذي، في التفسير، باب: ومن سورة التوبة .. حديث رقم (٣٠٩٥)، (٥/ ٢٧٨)، وعقبه بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث» اهـ.
كما أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٠٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢)، والبيهقي في السنن (١٠/ ١١٦)، وابن جرير (١٤/ ٢٠٩ - ٢١١)، وقال عنه شيخ الإسلام (وهو حديث حسن طويل) (الإيمان ص ٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ٥٦)، وغاية المرام ص ١٩، والحديث له شواهد بتقوى بها، والله أعلم.

[3] انظر: العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير:٣٧٤/١.

[4] التفسير الميسر:٩٧.

[5] تفسير الطبري:٢١٢/٩.

[6] بحر العلوم:٣٤٠/١.

[7] انظر: زاد المسير:٤٧٣/١. وانظر: تفسير الآية السابقة.

[8] التفسير الميسر:٩٧.

[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٧٨):ص١٠٦٨/٤.

قال الحسن: "من كل ألف، تسعمائة وتسعين إلى النار"[2].

عن أبي مالك قوله:"{ نصيبًا}، قال: حظا"[3].

عن الضحاك : " {نصيبًا مفروضًا}، قال : معلومًا"[4]. وفي رواية اخرى:" يتخذونها من دونك، ويكونون من حزبي"[5].

قال السمرقندي:" أي: حظا معلوما"[6].

قال السمعاني:" أي: مقدارا معلوما"[7].

قال الزمخشري:أي:" مقطوعا واجبا فرضته لنفسي من قولهم: فرض له في العطاء، وفرض الجند رزقه"[8].

قال السمين الحلبي:" أي مقطوعًا، وقيل موفيًا، وقيل معلومًا"[9].

قال ابن عطية:" المعنى: لأستخلصنهم لغوايتي، ولأخصنهم بإضلالي وهم الكفرة والعصاة"[10].

قال الزجاج:" قيل في «مفروض»: إن معناه مؤقت، وجاءَ في بعض التفسير: من كل ألف واحد للهِ وسائرهم لإبليس"[11].

قال البغوي:" فما أطيع فيه إبليس فهو مفروضه"[12].

وأصل «الفرض»: الحز والقطع، ومنه فرض القوس: وهو الشق الذي يجعل فيه الوتر. ومنه فرض السواك: وهو الموضع الذي يجعل فيه الخيط، ومنه فرضة البحر: وهو المشرع الذي توقف إليه السفينة، والفرض: نوع من التمر يكون بعمان، قال الشاعر[13]:

إِذَا أَكَلْتُ سَمَكًا وَفَرْضَا ذَهَبْتُ طُولًا وَذَهَبْتُ عَرْضَا

فالفَرضُ ههنا «التمر»، وإنما سُمي التمر فَرضاً لأنه يؤخذ في فِرَاضِ الصدقة[14].

قال الطبري:" فإن قال قائل:وكيف يتّخذ الشيطانُ من عباد الله نصيبًا مفروضًا؟

قيل:يتخذ منهم ذلك النصيب ، بإغوائه إياهم عن قصد السبيل ، ودعائه إياهم إلى طاعته ، وتزيينه لهم الضلالَ والكفر حتى يزيلهم عن منهج الطريق ، فمن أجاب دعاءَه واتَّبع ما زينه له ، فهو من نصيبه المعلوم ، وحظّه المقسوم.

وإنما أخبر جل ثناؤه في هذه الآية بما أخبر به عن الشيطان من قيله : {وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا}، ليعلم الذين شاقُّوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، أنهم من نصيبِ الشيطان الذي لعنه الله ، المفروضِ ، وأنهم ممن صدق عليهم ظنّه"[15].

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٨١):ص١٠٦٩/٤.

[2] الكشاف:٥٦٦/١.

[3] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٨٠):ص١٠٦٨/٤.

[4] أخرجه الطبري(١٠٤٤٤):ص٢١٢/٩.

[5] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٧٩):ص١٠٦٨/٤.

[6] بحر العلوم:٣٤٠/١.

[7] تفسير السمعاني:٤٨٠/١.

[8] الكشاف:٥٦٦/١.

[9] عمدة الحفاظ:٢١٧/٣.

[10] المحرر الوجيز:١١٤/٢.

[11] معاني القرآن:١٠٨/٢.

[12] تفسير البغوي:/١.

[13] لم اقف على قائله، وانظر البيت في: جمهرة اللغة، مادة"فرض":ص٧٥٠/٢، وتهذيب اللغة، مادة"فرض":ص١٢/١٢، والصحاح، مادة:"فرض":ص١٠٩٧/٣، ومقاييس اللغة، مادة:"فرض":ص ٤٨٩/٤، ولسان العرب، مادة:"قرض":ص٢٠٦/٧، مادة:"فرض"، وتاج العروس، مادة:"قرض":ص ٤٧٧/١٨.

[14]انظر: جمهرة اللغة، مادة"فرض":ص٧٥٠/٢، وتهذيب اللغة، مادة"فرض":ص١٢/١٢، والصحاح، مادة:"فرض":ص١٠٩٧/٣، ومقاييس اللغة، مادة:"فرض":ص ٤٨٩/٤، ولسان العرب، مادة:"قرض":ص٢٠٦/٧، مادة:"فرض"، وتاج العروس، مادة:"قرض":ص ٤٧٧/١٨، ومعاني القرآن للزجاج:١٠٩/٢، والكشف والبيان:٣٨٨/٣، وتفسير السمعاني:٤٨٠/١.

[15] تفسير الطبري:٢١٢/٩-٢١٣.

قال الثعلبي:" وإن قيل خبرونا عن قول إبليس لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا «١» كيف علم ذلك؟

يقال: قد قيل في هذا أجوبة، منها: إن قالوا إن الله تبارك وتعالى كان خاطبه بقوله:{ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}[هود:١١٩]، فعلم إبليس انه ينال من ذرية آدم ما يتمناه.

ومنها: ان قالوا إنه لما وسوس لآدم نال منه ما نال، طمع في ولده ولم ينل من آدم جميع ما يتمناه من الغواية فكذلك طمع في بعض ولده وأيس من جميعهم.

ومنها ان قالوا ان إبليس قد عاين الجنة والنار وعلم ان الله خلقهما لأن يسكنهما من الناس والشيطان، فعلى هذا التأويل قال: {لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً}"[١].

الفوائد:

١-أن قول اللعين: {لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً}،الذي صدر عنه عند اللعن، يدل على فرط عداوته لبني آدم.

٢-أن النصيب المفروض لابليس خاص بأهل الضلال، أي: كل من أطاعه فيما زين له من المعاصي.

القرآن

{وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩)} [النساء : ١١٩]

التفسير:

ولأصرفَنَّ مَن تبعني منهم عن الحق، ولأعِدَنَّهم بالأماني الكاذبة، ولأدعونَّهم إلى تقطيع آذان الأنعام وتشقيقها لما أزينه لهم من الباطل، ولأدعونَّهم إلى تغيير خلق الله في الفطرة، وهيئة ما عليه الخلق. ومن يستجب للشيطان ويتخذه ناصرًا له من دون الله القوي العزيز، فقد هلك هلاكًا بيِّنًا.

سبب النزول:

أخرج الطبري عن أبي عمار ، عن ابن عباس: "أنه كره الإخصاء وقال:فيه نزلت:{ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ}"[٢]. وروي عن انس[٣]، وعكرمة[٤]، نحو ذلك.

قوله تعالى:{وَلَأُضِلَّنَّهُمْ} [النساء : ١١٩]، أي:" ولأصرفَنَّ مَن تبعني منهم عن الحق"[٥].

قال ابن عباس: "يريد من سبيل الهدى"[٦].

وقال الكلبي: لأضلنهم عن الحق "[٧].

قال ابن أبي زمنين:أي:" لأغوينهم"[٨].

قال السمرقندي:" يعني: عن الهدى والحق"[٩].

قال الماوردي:" يعني: الإيمان"[١٠].

قال النسفي:أي:"بالدعاء إلى الضلالة والتزيين والوسوسة ولو كان إنفاذ الضلالة إليه لأضل الكل"[١١].

---

[١] .

[٢] تفسير الطبري(١٠٤٤٨):ص٢١٥/٩. [هذا حديث صحيح على شرط مسلم].

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٤٩):ص٢١٥/٩.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٦٢):ص٢١٧/٩-٢١٨.

[٥] التفسير الميسر:٩٧.

[٦]انظر: التفسير البسيط للواحدي: ١٠١/٧، وزاد المسير: ٢/ ٢٠٤، وتنوير المقباس بهامش المصحف : ٩٧.

[٧] انظر: التفسير البسيط للواحدي:١٠١/٧.

[٨] تفسير ابن ابي زمنين:٤٠٧/١.

[٩] بحر العلوم:٣٤٠/١.

[١٠] النكت والعيون:٥٣٠/١.

[١١] تفسير النسفي:٣٩٧/١.

قال السمعاني:" فإن قال قائل: كيف نسب إليه الإضلال، وليس إليه الضلالة؟ قلنا: معناه: التزيين والدعوة إلى الضلالة، وقد قال: بعثت داعيا، وليس إلى من الهداية شئ، وبعث الشيطان مزينا، وليس إليه من الضلالة شئ "[1].

وفي قراءة أبيّ :«وأضلهم»[2].

قوله تعالى:{وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ} [النساء : ١١٩]، أي:" ولأعِدَنَّهم بالأماني الكاذبة"[3].

قال الماوردي:" يعني: بطول الأمل في الدنيا ليؤثروها على الآخرة"[4].

قال الزجاج:" أي:أجمع لهم مع الإضْلَال أن أوهِمهم أنهم ينالون من الآخرة حظاً، كَمَا قال: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَيطَانُ أعمَالَهمْ}[5]"[6].

قال ابن أبي زمنين:" أي: بأنهم لا عذاب عليهم"[7].

قال السمرقندي:" يعني: لأخبرنهم بالباطل أنه لا جنة ولا نار ولا بعث"[8].

قال الثعلبي:أي:" ولأمنينهم أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث. وقال بعضهم: ولأمنينهم أي ألقي في قلوبهم الهيمنة"[9].

قال النسفي:أي:" ولألقين في قلوبهم الأماني الباطلة من طول الأعمار وبلوغ الآمال"[10].

قال السعدي:" أي: مع الإضلال، لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة وحسبوا أنها موجبة للجنة"[11].

وفي قراءة أبيّ :«وأمنيهم»[12].

قوله تعالى:{وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ} [النساء : ١١٩]، أي:" أي ولآمرنهم بتقطيع آذان الأنعام"[13].

قال الماوردي:" أي: لَيُقَطِّعُنَّهَا نُسكاً لأوثانهم كالبحيرة والسائبة"[14].

قال النسفي:" البتك القطع والتبتيك للتكثير والتكرير أي لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام وكانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خسمة أبطن وجاء الخامس ذكراً وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها"[15].

قال الزجاج:" كانه - واللَّه أعلم - ولآمُرنَهم بِتَبْتِيكِ آذان الأنعام فليبتكُنَ، أي يشقِقُن، يقال بتكْتُ الشيءَ أبْتِكه بَتْكاً إذا قطعته، وبِتْكَة وبِتَكُ، مثل قطعة وقطع، وهذا في البَحِيرةِ، كانت الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن فكان الخامس ذكَراً شقوا أذن الناقة وأمتنعوا من الانتفاع بها ولم تطرد عن ماءٍ ولا مرْعًى، وإذا لقيها المعْي لم يركبها. فهذا تأويل: {فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ}. سَوَّلَ لهم إبليس أن في تركها لا ينتفع بها قربة إلى الله"[16].

---

[1] تفسير السمعاني:٤٨٠/١.
[2] انظر: معاني القرآن للفراء: ٢٨٩/١.
[3] التفسير الميسر:٩٧.
[4] النكت والعيون:٥٣٠/١.
[5][النمل : ٢٤، العنكبوت:٣٨].
[6] معاني القرآن:١٠٩/٢.
[7] تفسير ابن ابي زمنين:٤٠٧/١.
[8] بحر العلوم:٣٤٠/١.
[9] تفسير الثعلبي:٣٨٨/٣.
[10] تفسير النسفي:٣٩٧/١.
[11] تفسير السعدي:٢٠٣.
[12] انظر: معاني القرآن للفراء: ٢٨٩/١.
[13] صفوة التفاسير:٢٨١.
[14] النكت والعيون:٥٣٠/١.
[15] تفسير النسفي:٣٩٧/١.
[16] معاني القرآن:١٠٩/٢-١١٠.

قوله تعالى:{وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ} [النساء : ١١٩]، أي:" ولأدعونَّهم إلى تغيير خلق الله في الفطرة"[١].

قال الزجاج:" قيل إن معناه أن الله خلق الأنعام ليركبوها ويأكلوها فحرموها على أَنفسَهِم، وخلق الشمس والقمر والأرض والحجارة سخْرة للناس ينْتَفعون بها فعبدهَا المشرِكون، فغيروا خلق اللَّه، أي دِينَ اللَّه، لأن الله فطر الخلق على الإسلام، خلقهم من بطن آدَمَ كالذر، وأشهدَهُمْ أنه ربهم فآمنوا، فمن كفر فقد غير فِطْرَة الله التي فَطَرَ الناسَ عليها، فأمَّا قوله: {لاَ تَبديلَ لِخَلق الله}[٢]، فإنَّ معناهُ ما خلقه الله هو الصحيح، لا يقْدِر أحد أن يُبَدل معنى صحة الدين"[٣].

وفي قوله تعالى:{وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ} [النساء : ١١٩]، وجوه:

أحدها : يعني دين الله، وهذا قول ابن عباس-في إحدى الروايات-[٤]، والحسن[٥]، وقتادة[٦]، والضحاك[٧]، والسدي[٨]، ومجاهد[٩]، وعكرمة-في إحدى الروايات-[١٠]، وإبراهيم[١١]، وابن أبي بزة[١٢]، وابن زيد[١٣]، واختيار الطبري[١٤]، والزجاج[١٥]، والواحدي[١٦].

والثاني : أنه أراد به خصاء البهائم، وهذا قول ابن عباس أيضا[١٧]، وأنس[١٨]، وعكرمة[١٩]، وشهر بن جوشب[٢٠].

والثالث : أنه الوشم ، وهو قول ابن مسعود[٢١]، والحسن[٢٢].

قال ابن مسعود : "لعن الله الوَاشِرَات والمُسْتَوْشِمَات والمُتَنَمِّصات والمُتَفَلِّجات للحسن المغّيرات خلق الله"[٢٣].

والراجح-والله أعلم- أن معناه:"دين الله، وذلك لدلالة الآية الأخرى على أن ذلك معناه ، وهي قوله :{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}، [سورة الروم : ٣٠]، وإذا كان ذلك معناه ، دخل في ذلك فعل كل ما نهى الله عنه : من خِصَاءِ ما لا يجوز خصاؤه ، ووشم ما نهى عن وشمه وَوشْرِه ، وغير ذلك من المعاصي ودخل فيه ترك كلِّ ما أمر الله به. لأن الشيطان لا شك أنه يدعو إلى جميع معاصي الله وينهى عن جميع طاعته. فذلك معنى أمره نصيبَه المفروضَ من عباد الله ، بتغيير ما خلق الله من دينه"[٢٤].

---

[١] التفسير الميسر:٩٧.
[٢] [سورة الروم:٣٠].
[٣] معاني القرآن:١١٠/٢.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٦٣):ص٢١٧/٩.
[٥] انظر: النكت والعيون:٥٣٠/١.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٧٥):ص٢١٩/٩.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٧٩)، و(١٠٤٨٢):ص٢٢٠/٩.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٧٨):ص٢٢٠/٩.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٦٩)-(١٠٤٧٣)ص٢١٨/٩-٢١٩.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٧٠):ص٢١٩/٩.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٦٤)-(١٠٤٦٦):ص٢١٧/٩-٢١٨.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٧٧):ص٢١٩/٩.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٨٠):ص٢٢٠/٩.
[١٤] انظر: تفسير الطبري:٢٢٢/٩.
[١٥] انظر: معاني القرآن:١١٠/٢.
[١٦] انظر: التفسير البسيط:١٠٣/٧.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٤٨):ص٢١٥/٩، و(١٠٤٦٠)، و(١٠٤٦١):ص٢١٧/٩.
[١٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٤٩):ص٢١٥/٩.
[١٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٥٤)-(١٠٥٧):ص٢١٦/٩-٢١٧، و(١٠٤٦٢):ص٢١٧/٩-٢١٨.
[٢٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٥٣):ص٢١٦/٩.
[٢١] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٨٧)-(١٠٤٨٩):ص٢٢١/٩-٢٢٢.
[٢٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٨٣)-(١٠٤٨٦):ص٢٢٠/٩-٢٢١.
[٢٣] أخرجه الطبري(١٠٤٨٨):ص٢٢١/٩.
[٢٤] تفسير الطبري:٢٢٢/٩.

قوله تعالى:{وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [النساء : ١١٩]، أي:" أي ومن يتول الشيطان ويطعْه ويترك أمر الله"[١].

قال السمعاني:" أي: يواليه باتباعه"[٢].

قال السمرقندي:" أي: يعبد الشيطان ويطيعه، {من دون الله}، يعني: ترك أمر الله تعالى وطاعته"[٣].

قال البيضاوي:" بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته"[٤].

قال الواحدي:" يريد من يُطعه فيما يدعو إليه من الضلال، فكل من أطاعه فهو ولي له وإن لم يقصد أن يتولاه، كما يكون مطيعًا له وإن لم يقصد أن يطيعه، بموافقته لإرادته، وإجابته إلى ما دعاه إليه، فهو يعمل عملًا يُعينه عليه الشيطان، وكان الشيطان له وليًا ناصرًا معينًا"[٥].

قوله تعالى:{فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا} [النساء : ١١٩]، أي:" فقد هلك هلاكًا بيِّنًا"[٦].

قال السمرقندي:" أي: ضل ضلالا مبينا بينا عن الحق"[٧].

قال البيضاوي:" إذا ضيع رأس ماله وبدل مكانه من الجنة بمكان من النار"[٨].

الفوائد:

١- إن الشيطان ليس له من الإضلال إلا التزيين والوسوسة، إذ لو كانت الضلالة إلى إبليس لأضل جميع الخلق.

٢-ومن مكايد الشيطان تسويف التوبة وتأخيرها، يؤخذ من قوله:{ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ }.

٣-حرمة الوشم والوسم والخصاء إلا ما أذن فيه الشارع.

القرآن

{يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)} [النساء : ١٢٠]

التفسير:

يعد الشيطان أتباعه بالوعود الكاذبة، ويغريهم بالأماني الباطلة الخادعة، وما يَعِدهم إلا خديعة لا صحة لها، ولا دليل عليها.

قوله تعالى:{يَعِدُهُمْ} [النساء : ١٢٠]، أي:" يعد الشيطان أتباعه بالوعود الكاذبة"[٩].

قال الشوكاني:" يعدهم المواعيد الباطلة ويمنيهم الأماني العاطلة"[١٠].

قال الطبري:أي:" يعد الشيطان المَرِيد أولياءه الذين هم نصيبُه المفروض:أن يكون لهم نصيرًا ممن أرادهم بسوء ، وظهيرًا لهم عليه ، يمنعهم منه ويدافع عنهم"[١١].

قال القرطبي:" المعنى: يعدهم أباطيله وترهاته من المال والجاه والرياسة، وأن لا بعث ولا عقاب، ويوهمهم الفقر حتى لا ينفقوا في الخير"[١٢].

قال الواحدي:" قال أهل المعاني: معنى وعد الشيطان ما يصل مفهومه إلى قلب الإنسان، من نحو ما يجده من أنه سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعتلي على أعدائك، فإنما الدنيا دول، فستدور لك كما دارت لغيرك، وكل هذا غرور وتمنية وتطويل للأمل، وسيهجم

---

[١] صفوة التفاسير:٢٨١.
[٢] تفسير السمعاني:٤٨١/١.
[٣] بحر العلوم:٣٤٠/١.
[٤] تفسير البيضاوي:٩٨/٢.
[٥] التفسير البسيط:١٠٤/٧-١٠٥.
[٦] التفسير الميسر:٩٧.
[٧] بحر العلوم:٣٤٠/١.
[٨] تفسير البيضاوي:٩٨/٢.
[٩] التفسير الميسر:٩٧.
[١٠] فتح القدسر:٥٩٦/١.
[١١] تفسير الطبري:٢٢٤/٩.
[١٢] تفسير القرطبي:٣٩٥/٥.

عن قريب علي الأجل، وقد أبطل أيام عمره في رجاء ما لم يدرك منه شيئًا، فالعاقل من لم يعرج على هذا، وجدَّ في الطاعة ما أمكنه، وعلم أنه سينقطع عن الدنيا قريبًا، وعدّ نفسه من الموتى"[(١)].

قال السمعاني:" وعده قد يكون بالتخويف كما قال الله تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ} [البقرة : ٢٦٨]، وقيل: أنه يتمثل في صورة الآدمي، فيعد، ويمنى، وكان قد ظهر يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وظهر في اليوم الذي اجتمعت فيه قريش، وتشاوروا في إخراج النبي، في صورة شيخ من نجد"[(٢)].

قوله تعالى:{وَيُمَنِّيهِمْ} [النساء : ١٢٠]،أي:" ويغريهم بالأماني الباطلة الخادعة "[(٣)].

قال الطبري:أي:" ويمنيهم الظفر على من حاول مكروههم والفَلَج عليهم"[(٤)].

قال السمعاني:" من ذلك تمنى الإنسان قضاء الشهوات، واعلم أن الإنسان لا يؤاخذ بغلبة الشهوة، واشتهاء الشهوات؛ لأن ذلك شئ جبل عليه، ويؤاخذ بالتمني، وذلك أن يتمنى خمرا ليشربه، أو امرأة؛ ليزني بها، فذلك من المعصية، ويؤاخذ به"[(٥)].

قال الواحدي:" وذكر في عدة من كتب التفسير {يَعِدُهُمْ} ألا يلقون خيرًا، {وَيُمَنِّيهِمْ} الفقر، فلا ينفقون في خير.

وهذا صحيح في المعنى، من حيث إن الشيطان قد يخوف الإنسان بالفقر، فيمسك عن الإنفاق في الطاعة، ولكنه باطل من حيث اللغة؛ لأن الوعد إنما يستعمل في الخير، وما يكون في الشر قيل فيه: يوعد، هذا هو الصحيح، وإن كان يستعمل الوعد في الشر نادرًا.

والتمنية معناه: تسويل المنية، وهي ما يتمناه الإنسان، ولا يتمنى الفقر، إنما يتمنى الغنى وكثرة المال في غالب العادة"[(٦)].

قوله تعالى:{وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [النساء : ١٢٠]، أي:" أي وما يعدهم إلا خديعة وباطلاً وضلالاً "[(٧)].

قال القرطبي: أي: خديعة"[(٨)].

قال البغوي:" أي: باطلا"[(٩)].

قال الواحدي:" أي: إلا ما يغرهم بإيهام النفع فيما فيه الضر"[(١٠)].

قال الشوكاني:" أي: وما يعدهم الشيطان بما يوقعه في خواطرهم من الوساوس الفارغة إلا غرورا يغرهم به، ويظهر لهم فيه النفع وهو ضرر محض"[(١١)].

قال الطبري:أي:" وما يعد الشيطان أولياءَه الذين اتخذوه وليًّا من دون الله إلا باطلا، وإنما جعل عِدَته إياهم جل ثناؤه ما وعدهم {غرورًا}، لأنهم كانوا يحسبون أنهم في اتخاذهم إياه وليًّا على حقيقةٍ من عِدَاته الكذب وأمانيه الباطلة ، حتى إذا حصحص الحق ، وصاروا إلى الحاجة إليه ، قال لهم عدوّ الله : {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ}، [سورة إبراهيم : ٢٢]. وكما قال للمشركين ببدر ، وقد زيَّن لهم أعمالهم :{لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ}،

---

(١) التفسير البسيط:١٠٥/٧.
(٢) تفسير السمعاني:١٤٨١.
(٣) التفسير الميسر:٩٧.
(٤) تفسير الطبري:٢٢٤/٩.
(٥) تفسير السمعاني:١٤٨١.
(٦) التفسير البسيط:١٠٥/٧-١٠٦.
(٧) التفسير الميسر:٩٧، وصفوة التفاسير:٢٨٢
(٨) تفسير القرطبي:٣٩٥/٥.
(٩) تفسير البغوي:٢٨٩/٢.
(١٠) التفسير البسيط:١٠٥/٧.
(١١) فتح القدير:٥٩٦/١.

وحصحص الحقّ ، وعاين جِدّ الأمر ونزول عذاب الله بحزبه: {نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، [سورة الأنفال : ٤٨] ، فصارت عِدَاته ، عدُوَّ الله إياهم عند حاجتهم إليه غرورًا، {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ} [سورة النور : ٣٩]"[١].

قال عكرمة:" إنما سمي الشيطان، لأنه تشيطن"[٢].

قال السمعاني:" الغرور: إيهام الوصول إلى النفع من موضع الضر"[٣].

قال ابن عرفة:" الغرور ما رأيت له ظاهرا تحبه وفية باطن مكروه أو مجهول، والشيطان غرور، لأنه يحمل على محاب النفس، ووراء ذلك ما يسوء"[٤].

الفوائد:

١- سلاح الشيطان العدة الكاذبة والأمنية الباطلة، والزينة الخادعة.

٢-قال الخازن:" إنما يدع الشيطان إلى قضاء الشهوة وطلب الرياسة ونحو ذلك، ولا يدعو إلى معرفة الله تعالى، ولا إلى عبادته وتلك الأشياء التي يدعو إليها خيالية لا حقيقة لها ولا تحصل إلا بعد متاعب ومشاق عظيمة، وإذا حصلت كانت سريعة الذهاب والانقضاء وينغصها الموت والهرم وغير ذلك، وإذا كانت هذه الأشياء بهذه الصفة كانت الرغبة فيها غرورا"[٥].

٣- إن الإنسان بحاجة إلى عون الله -ﷻ- للتخلص من وساوس الشيطان ومكايده.

القرآن

{أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)} [النساء : ١٢١]

التفسير:

أولئك مآلهم جهنم، ولا يجدون عنها معدلا ولا ملجأً.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [النساء : ١٢١]، أي:" أولئك مآلهم جهنم"[٦].

قال الثعلبي: اي:" مصيرهم جهنم"[٧].

قال الطبري:أي:" هؤلاء الذين اتخذوا الشيطان وليًّا من دون الله، مصيرهم الذين يصيرون إليه جهنم"[٨].

قال السمرقندي:" يعني: الذين يطيعون الشيطان مصيرهم إلى جهنم"[٩].

قوله تعالى:{وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} [النساء : ١٢١]، اي:" ولا يجدون عنها معدلا ولا ملجأً"[١٠].

قال الثعلبي: أي:" مانعا"[١١].

قال البغوي:" أي: مفرا ومعدلا عنها"[١٢].

قال السعدي:" أي: مخلصا ولا ملجأ بل هم خالدون فيها أبد الآباد"[١٣].

قال الطبري:"يقول:لا يجدون عن جهنم- إذا صيّرهم الله إليها يوم القيامة - مَعْدِلا يعدِلون إليه"[١٤].

---

[١] تفسير الطبري:٩/٩/٢٢٤-٢٢٥.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٨٨):ص٤/١٠٧٠.
[٣] تفسير السمعاني:١/٤٨١.
[٤] تفسير القرطبي:٥/٣٩٥-٣٩٦.
[٥] تفسير الخازن:٣/١٣٦.
[٦] التفسير الميسر:٩٧.
[٧] تفسير الثعلبي:٣/٣٨٩.
[٨] تفسير الطبري:٩/٢٢٥.
[٩] بحر العلوم:١/٣٤٠.
[١٠] التفسير الميسر:٩٧.
[١١] تفسير الثعلبي:٣/٣٨٩.
[١٢] تفسير البغوي:٢/٢٨٩.
[١٣] تفسير السعدي:٣/٢٠٣.
[١٤] تفسير الطبري:٩/٢٢٦.

قال الزجاج:" أي: لا يجدون عنها مَعْدِلًا ولا مَلْجأ"[1].
قال السمرقندي:" أي: مفرا ومهربا"[2].
و «المحيص»: مفعول من حاص إذا راغ ونفر، يقال منه:حاص فلان عن هذا الأمر يَحِيص حَيْصًا وحُيُوصًا، إذا عدل عنه،[3]، ومنه خبر ابن عمر أنه قال : "بعث رسول الله صلى ﷺ سرِيّة كنت فيهم ، فلقينا المشركين فحِصْنا حَيْصة"[4]، ومنه قول جعفر بن علبة الحارثي[5]:
الحارثي[5]:
ولم أدر إن حصنا من الموت حيصة   كم العمر باق والمدى متطاول
و قوله تعالى:{وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} [النساء : ١٢١]، يحتمل وجهين[6]:
أحدهما: لا بد لهم من ورودها.
والثاني: التخليد الذي أوعد به الكفار، فلا يخرجون عنها، ولا يجدون منها ملجأ
الفوائد:
١-إن الذين يعطون ولايتهم للشيطان، ويخسرون فطرتهم السليمة، ونفوسهم المستقيمة، وعقولهم المدركة، تحت سلطان الأماني الكاذبة والأوهام الخادعة.
٢-لَا يكون لهم مأوى يوم القيامة غير جهنم. ولا يجدون ملجأ دونها يلجأون إليه، فلا مفر منها ولا مهرب، وذلك جزاء إضرارهم لفطرتهم وانحرافهم عن الجادة، ويرميهم بغرور الشيطان، وإن ذلك يتبعه الأذى لبني الإنسان، وتركهم عبادة الديان، والإعراض عن الحق، إذا جاءهم به رسل الله تعالى، وأنهم لَا معدل لهم عنها ولا مهرب.

القرآن

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)} [النساء : ١٢٢]

التفسير:
والذين صَدَقوا في إيمانهم بالله تعالى، وأتبعوا الإيمان بالأعمال الصالحة سيدخلهم الله -بفضله- جنات تجري من نحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبدًا، وعدا من الله تعالى الذي لا يخلف وعده. ولا أحد أصدق من الله تعالى في قوله ووعده.
قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [النساء : ١٢٢]، أي: والذين صَدَقوا في إيمانهم بالله تعالى، وأتبعوا الإيمان بالأعمال الصالحة"[7].
قال النسفي:أي:" ولم يتبعوا الشيطان في الأمر بالكفر"[8].
قال القاسمي:" أي: والذين صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات"[9].
الخيرات"[9].
قال ابن عباس:"يقول : أدوا فرائضي"[10].
وعنه أيضا: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر"[11].

---

[1] معاني القرآن:١١١/٢.
[2] بحر العلوم:٣٤٠/١.
[3] انظر: تفسير الطبري:٢٢٦/٩، والمحرر الوجيز:١١٥/٢.
[4] تفسير الطبري:٢٢٦/٩.
[5] ديوان الحماسة:١/ ٨، وانظر: البحر المحيط:٣/ ٣٦٤ ، و الدر المصون:٢/ ٤٢٨.
وإن حصنا أي: إن عدلنا وانحرفنا عن الموت، يقول: لم ندر إن حدنا عن القتال الذي فيه الموت، وعدلنا عنه، كم يكون بقاؤنا؟! فلم نحيد ونرتكب العار؟! ولعلنا إن تركنا القتال لم نعش إلا قليلا.
[6] انظر: التفسير البسيط للواحدي:١٠٦/٧.
[7] التفسير الميسر:٢٨٢/١.
[8] تفسير النسفي:٣٩٧/١.
[9] محاسن التاويل:٣٤٧/٣.
[10] أخرجه الطبري(٧١٥٦):ص٤٦٥/٦.
[11] أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٩٧):ص٦٦٤/٢.

قال السمرقندي:" أي: صدقوا بالله تعالى والرسول والقرآن، وأدوا الفرائض، وانتهوا عن المحارم"[١].

قال الطبري:أي:" والذين صدّقوا الله ورسوله ، وأقرُّوا له بالوحدانية ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالنبوة، وأدَّوا فرائض الله التي فرضها عليهم"[٢].

قوله تعالى:{سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [النساء : ١٢٢]، أي:" سيدخلهم الله -بفضله- جنات تجري من نحت أشجارها الأنهار"[٣].

قال الطبري:" يقول : سوف ندخلهم يوم القيامة إذا صاروا إلى الله ، جزاءً بما عملوا في الدنيا من الصالحات بساتين {تجري من تحتها الأنهار}[٤].

قال القاسمي:" أي: من تحت غرفها ومساكنها الأنهار أنهار الخمر والماء واللبن والعسل"[٥].

قال السعدي:" وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة"[٦].

قال ابن عثيمين:" وظاهر كلمة {أنهار} أن الماء عذب، وجمع {الأنهار} باعتبار تفرقها في الجنة، وانتشارها في نواحيها؛ إذاً يعتبر هذا البستان كاملاً من كل النواحي: نخيل، وأعناب، ومياه، وثمرات؛ وهو أيضاً جنة كثيرة الأشجار، والأغصان، والزروع، وغير ذلك "[٧].

قال أبو مالك:" يعني: المساكن تجري أسفلها أنهارها"[٨].

قال مقاتل:" يعني: البساتين تجري من تحتها الأنهار"[٩].

قال البغوي:" أي: من تحت الغرف والمساكن"[١٠].

قال الزجاج:" المعنى: تجري من تحتها مياه الأنهار، لأن الجاري على الحقيقة الماء"[١١].

قال مسروق:" أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وثمرتها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، العنقود اثنا عشر ذراعا"[١٢].

قال عبد الله: "الجنة سجسج لا حر فيها ولا برد"[١٣]. وعنه أيضا:" أنهار الجنة تفجر من جبل مسك"[١٤].

وقرأت فرقة: «سندخلهم» بالنون، وقرأت فرقة: «سيدخلهم» بالياء[١٥].

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [النساء : ١٢٢]، أي:" ماكثين فيها أبدًا"[١٦].

قال القاسمي:" أي: مقيمين في الجنة. لا يموتون ولا يخرجون منها أبدا"[١٧].

قال سعيد بن جبير، ومقاتل:"يعني: لا يموتون"[١٨].

وعن ابن عباس:" {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، قال: لا انقطاع"[١٩].

---

[١] بحر العلوم:٣٤٠/١.

[٢] تفسير الطبري:٢٢٧/٩.

[٣] التفسير الميسر:٢٨٢/١.

[٤] تفسير الطبري:٢٢٦/٩-٢٢٧.

[٥] محاسن التاويل:٣٤٧/٣.

[٦] تفسير السعدي: ١١٥/١.

[٧] تفسير ابن عثيمين: ٣٣١/٣.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠٣):ص٩٨٤/٣.

[٩] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨١/١.

[١٠] تفسير البغوي:٢٩٠/٢.

[١١] معاني القرآن:٦٦/٢.

[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠٤):ص٩٨٤/٣.

[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠١):ص٩٨٣/٣.

[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٠٢):ص٩٨٣/٣.

[١٥] انظر: المحرر الوجيز:١١٥/٢.

[١٦] التفسير الميسر:٢٨٢/١.

[١٧] محاسن التاويل:٣٤٧/٣.

[١٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٠٥):ص٩٨٤/٣، وتفسير مقاتل بن سليمان:٣٨١/١.

[١٩] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٠٦):ص٩٨٤/٣.

قال ابن كثير:أي:" وهم خالدون فيها أبدا ، لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولا"[١].

قال سعيد بن جبير:" طول الرجل من أهل الجنة سبعون ميلا، وطول المرأة ثلاثون ميلا، مقعدتها جريب أرض، وإن شهوته لتجري في جسدها مقدار سبعين عاما، يجد اللذة ولو انقلب الرجل من أهل النار كسلسلة لزالت الجبال "[٢].

قوله تعالى:{وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا} [النساء : ١٢٢]، أي:" وعدا من الله تعالى الذي لا يخلف وعده"[٣].

قال النسفي:" مصدران الأول مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره"[٤].

قال مقاتل:" يعني: صدقا أنه منجز لهم ما وعدهم"[٥].

قال السمرقندي:"أي: صدقا وكائنا، أنجز لهم ما وعد لهم من الجنة "[٦].

قال البيضاوي:" أي: وعده وعدا، وحق ذلك حقا"[٧].

قال القاسمي:أي:" صدقا واقعا لا محالة"[٨].

قال الطبري:" يعني : عِدَةٌ من الله لهم ذلك في الدنيا، {حقًّا}، يعني : يقينًا صادقًا، لا كعدة الشيطان الكاذبة التي هي غرور مَنْ وُعِدها من أوليائه ، ولكنها عدة ممن لا يكذب ولا يكون منه الكذب، ولا يخلف وعده"[٩].

قوله تعالى:{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء : ١٢٢]، أي:" ولا أحد أصدق من الله تعالى في قوله ووعده"[١٠].

قال السمرقندي:" أي: قولا ووعدا"[١١].

قال القرطبي: المعنى:" لا أحد أصدق من الله"[١٢].

قال مقاتل:" فليس أحد أصدق قولا منه- عز وجل- فى أمر الجنة والنار والبعث وغيره"[١٣].

قال البيضاوي:" جملة مؤكدة بليغة، والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، والمبالغة في توكيده ترغيبا للعباد في تحصيله"[١٤].

قال النسفي:" وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق منه، وهو تأكيد ثالث، وفائدة هذه التوكيدات مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه"[١٥].

وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: "إن أصدق الحديث كلام الله. وخير الهدى هدى محمد ﷺ. وشر الأمور محدثاتها. وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. وكل ضلالة في النار"[١٦].

قال القاسمي:"والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه، بوعد الله الصادق لأوليائه. والمبالغة في توكيده ترغيبا للعباد في تحصيله"[١٧].

---

[١] تفسير ابن كثير:٣٣٨/٢.
[٢] أخرجه ابن المنذر(١٩١٥):ص٧٦٠/٢.
[٣] التفسير الميسر:٢٨٢/١.
[٤] تفسير النسفي:٣٩٧/١.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٨/١.
[٦] تفسير السمرقندي:٢٤١/١.
[٧] تفسير البيضاوي:٩٨/٢.
[٨] محاسن التاويل:٣٤٧/٣.
[٩] تفسير الطبري:٢٢٧/٩.
[١٠] التفسير الميسر:٢٨٢/١.
[١١] تفسير السمرقندي:٢٤١/١.
[١٢] تفسير القرطبي:٣٩٦/٥.
[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٨/١.
[١٤] تفسير البيضاوي:٩٩/٢.
[١٥] تفسير النسفي:٣٩٧/١.
[١٦]صحيح مسلم(٤٣)
[١٧] محاسن التاويل:٣٤٧/٣.

الفوائد:

- الإيمان الصادق والعمل الصحيح الصالح هما مفتاح الجنة وسبب دخولها، لأنه بالإيمان والعمل الصالح تزكو النفس البشرية وتطهر، وإذا زكت وطهرت تأهلت لدخول الجنة؛ إذ هي دار الأبرار ودار المتقين.

٢- صدق وعد الله تعالى، وصدق قوله عز وجل.

٣- وجوب صدق الوعد من العبد لأن خلف الوعد من النفاق لحديث: «وإذا وعد أخلف»[١].

٤- وجوب صدق القول والحديث لأن الكذب من النفاق لحديث وإذا حدث كذب.

القرآن

{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)} [النساء : ١٢٣]

التفسير:

لا يُنال هذا الفضل العظيم بالأماني التي تتمنونها أيها المسلمون، ولا بأماني أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وإنما يُنال بالإيمان الصادق بالله تعالى، وإحسان العمل الذي يرضيه. ومن يعمل عملا سيئًا يجز به، ولا يجد له سوى الله تعالى وليّاً يتولى أمره وشأنه، ولا نصيرًا ينصره، ويدفع عنه سوء العذاب.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: قال ابن عباس:" تحاكم أهل الأديان، فقال أهل التوراة : كتابنا خير الكتب، أنزل قبل كتابكم ، ونبينا خير الأنبياء! وقال أهل الإنجيل مثل ذلك ، وقال أهل الإسلام : لا دين إلا الإسلام ، كتابنا نسخ كل كتاب ، ونبينا خاتم النبيين ، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ، ونعمل بكتابنا! فقضى الله بينهم فقال:{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}، وخيّر بين أهل الأديان؛ فقال: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[٢]"[٣].وإلى هذا المعنى ذهب مسروق[٤]، وأبو صالح[٥]، وقتادة[٦]، وقتادة[٦]، والضحاك[٧]، والسدي[٨].

والثاني: وقال مجاهد:" قالت قريش: لن نبعث ولن نعذب، فأنزل الله:{ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}"[٩]. وإلى هذا المعنى ذهب ابن زيد[١٠].

والثالث: أن اليهود والنصارى قالوا: لا يدخل الجنة غيرنا، وقالت قريش: لا نبعث، فنزلت هذه الآية، هذا قول عكرمة.

والراجح-والله أعلم- "أنه عُني بقوله :{ليس بأمانيكم}، مشركي قريش، لأن المسلمين لم يجر لأمانيهم ذكر فيما مضى من الآي قبل قوله : {ليس بأمانيكم}، وإنما جرى ذكر أمانيِّ نصيب الشيطان المفروضِ ، وذلك في قوله : {ولأمنيَّنهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام}، وقوله: {يعدهم ويمنيهم}، فإلحاق معنى قوله جل ثناؤه: {ليس بأمانيكم} بما قد جرى ذكره قبل ، أحقُّ وأولى من ادِّعاء تأويلٍ فيه ، لا دلالة عليه من ظاهر التنزيل ، ولا أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا إجماع من أهل التأويل"[١١].

---

[١]صحيح البخاري: كتاب الإيمان، حديث رقم ٣٣ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، حديث رقم ١٢٤.

[٢][سورة النساء : ١٢٥].

[٣] أخرجه الطبري(١٠٤٩٦):ص٩/٢٣٠، وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٩٠)-(١٠٤٩٢):ص٩/٢٢٨.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٩٧)، و(١٠٤٩٨):ص٩/٢٣٠-٢٣١.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٩٣):ص٩/٢٢٩.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٩٥):ص٩/٢٣٠، و(١٠٤٩٩):ص٩/٢٣١-٢٣٢.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٤٩٤):ص٩/٢٢٩-٢٣٠.

[٩] أخرجه الطبري(١٠٥٠١):ص٩/٢٣٢، وانظر: تفسير الطبري(١٠٥٠٠)، (١٠٥٠٢)، (١٠٥٠٣)، (١٠٥٠٥):ص٩/٢٣٢-٢٣٣.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٠٤):ص٩/٢٣٣.

[١١] تفسير الطبري:٩/٢٣٤.

قوله تعالى:{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ} [النساء : ١٢٣]، أي:" أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح"[١].

قال الزمخشري:" أى: ليس ينال ما وعد الله من الثواب {بأمانيكم}، ولا بـ{أماني أهل الكتاب}"[٢].

قال القاسمي:" أي: ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون أن تنفعكم الأصنام ولا أماني أهل الكتاب ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه [المائدة: ١٨] لن تمسنا النار إلا أياما معدودة [البقرة: ٨٠]"[٣].

قال ابن كثير:" أي : ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني ، بل العبرة بطاعة الله ، واتباع ما شرعه على ألسنة رسله الكرام. والمعنى في هذه البية: أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، وليس كُلّ من ادعى شيئًا حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال : "إنه هو المُحق" سمع قوله بمجرد ذلك ، حتى يكون له من الله برهان"[٤].

وفي المشار إليهم بقوله: {بِأَمَانِيِّكُمْ}[النساء : ١٢٣]، قولان:

أحدهما: أنهم المسلمون على قول الأكثرين[٥].

والثاني: المشركون على قول مجاهد[٦]، واختيار الطبري[٧].

قال الزمخشري:" الخطاب للمسلمين، لأنه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به، وكذلك ذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم في الإيمان بوعد الله"[٨].

قال ابن الجوزي:"فأما أماني المسلمين، فما نقل من قولهم: كتابنا ناسخ للكتب، ونبينا خاتم الأنبياء، وأماني المشركين قولهم: لا نبعث، وأماني أهل الكتاب قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وإن النار لا تمسنا إلا أياما معدودة، وأن كتابنا خير الكتاب، ونبينا خير الأنبياء، فأخبر الله عز وجل أن دخول الجنة والجزاء، بالأعمال لا بالأماني"[٩].

قال ابن عطية:" «الأماني» : جمع أمنوية، وزنها «أفعولة»، وهي: ما يتمناه المرء ويطيع نفسه فيه"[١٠].

وقراءة الجمهور: {بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ} مشددة الياء فيهما، وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والحكم والأعرج، «ليس بأمانيكم» ساكنة الياء، وكذلك في الثانية[١١].

قوله تعالى:{مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء : ١٢٣]، أي:" ومن يعمل عملا سيئًا ينال عقابه"[١٢].

وفي المراد «بالسوء» قولان :

أحدهما: أنه المعاصي. وهذا معنى قول أبي بن كعب[١٣]، وعائشة[١٤]، ومجاهد[١٥].

---

[١] صفوة التفاسير:٢٨٢.

[٢] الكشاف:٥٦٧/١.

[٣] محاسن التاويل:٣٤٧/٣-٣٤٨.

[٤] تفسير ابن كثير:٤١٧/٢.

[٥] انظر: زاد المسير:٤٧٦/١. وانظر: الأقوال في سبب نزول الآية.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٠١)، (١٠٥٠٠)، (١٠٥٠٢)، (١٠٥٠٣)، (١٠٥٠٥):ص٢٣٢/٩-٢٣٣.

[٧] تفسير الطبري:٢٣٤/٩.

[٨] الكشاف:٥٦٧/١.

[٩] زاد المسير:٤٧٦/١.

[١٠] المحرر الوجيز:١١٥/٢.

[١١] انظر: المحرر الوجيز:١١٥/٢.

[١٢] انظر: التفسير الميسر:٩٨، وصفوة التفاسير:٢٨٢.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٠٧)، و(١٠٥٠٨):ص٢٣٦/٩.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٠٩):ص٢٣٦/٩-٢٣٧.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٥١٠):ص٢٣٧/٩.

والثاني: أنه الشرك، قاله ابن عباس[1]، ويحيى بن أبي كثير[2]، وسعيد بن جبير[3].

وفي هذا الجزاء قولان:

أحدهما: أنه عام في كل من عمل سوءا فإنه يجازى به، وهو معنى قول أبي بن كعب[4]، وعائشة[5]، ومجاهد[6]، واختاره الطبري[7]، وابن كثير[8].

قال القرطبي:"قال الجمهور: لفظ الآية عام، والكافر والمؤمن مجازى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار، لان كفره أو بقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا"[9].

عن عائشة ، عن أبي بكر قال : "لما نزلت :{من يعمل سوءًا يجز به}، قال أبو بكر : يا رسول الله ، كل ما نَعْمل نؤاخذ به ؟ فقال : يا أبا بكر، أليس يُصيبك كذا وكذا ؟ فهو كفارته"[10].

والثاني: أنه خاص في الكفار يجازون بكل ما فعلوا، فأما المؤمن فلا يجازى بكل ما جنى، قاله الحسن البصري[11]، والضحاك[12].

روي عن أبي بكر بن أبي زهير ، عن أبي بكر الصديق أنه قال : "يا نبي الله ، كيف الصلاح بعد هذه الآية ؟ فقال النبي ﷺ : أيّة آية ؟ قال يقول الله :{ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءًا يجز به}، فما عملناه جزينا به ؟ فقال النبي ﷺ : غفر الله لك يا أبا بكر! ألست تمرض ؟ ألست تحزن ؟ ألست تُصيبك اللأواء ؟ قال : فهو ما تجزون به!"[13].

وفي رواية أخرى عن أبي بكر-رضي الله عنه-، قال: "يا رسول الله ، ما أشد هذه الآية : {من يعمل سوءًا يجز به} ؟ قال : يا أبا بكر ، إنّ المصيبة في الدنيا جزاء"[14].

وعطاء بن أبي رباح قال : "لما نزلت، قال أبو بكر : جاءت قاصمة الظهر! فقال رسول الله ﷺ : إنما هي المصيبات في الدنيا"[15].

وعن عائشة-رضي الله عنها- قالت :"قلت يا رسول الله ، إني لأعلم أشدَّ آية في القرآن! فقال : ما هي يا عائشة ؟ قلت : هي هذه الآية يا رسول الله :{من يعمل سوءًا يجز به}، فقال : هو ما يصيب العبدَ المؤمن ، حتى النكبة يُنْكبها"[16].

والراجح-والله أعلم- أن كل من عمل سوءًا صغيرًا أو كبيرًا من مؤمن أو كافر ، جوزي به، [وذلك] لعموم الآية [في] كلَّ عامل سوء، من غير أن يُخَصَّ أو يستثني منهم أحد. فهي على عمومها ، إذ لم يكن في الآية دلالة على خصوصها ، ولا قامت حجة بذلك من خبر عن الرسول -ﷺ-"[17].

قوله تعالى:{وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء : ١٢٣]، أي:" ولا يجد له سوى الله تعالى وليّاً يتولى أمره وشأنه، ولا نصيرًا ينصره، ويدفع عنه سوء العذاب"[18].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٠٥١٨):ص٢٣٩/٩.
[2] انظر: زاد المسير:٤٧٧/١.
[3] انظر: تفسير الطبري(١٠٥١٩):ص٢٣٩/٩.
[4] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٠٧)، و(١٠٥٠٨):ص٢٣٦/٩.
[5] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٠٩):ص٢٣٦/٩-٢٣٧.
[6] انظر: تفسير الطبري(١٠٥١٠):ص٢٣٧/٩.
[7] انظر: تفسير الطبري:٢٣٩/٩.
[8] انظر: تفسير ابن كثير:٤٢١/٢.
[9] تفسير القرطبي:٣٩٦/٥.
[10] أخرجه الطبري(١٠٥١):ص٢٤٠/٩-٢٤١.
[11] انظر: تفسير الطبري(١٠٥١١)-(١٠٥١٤):ص٢٣٧/٩-٢٣٨.
[12] انظر: تفسير الطبري(١٠٥١٧):ص٢٣٨/٩-٢٣٩.
[13] أخرجه الطبري(١٠٥٢٣):ص٢٤١/٩-٢٤٢.
[14] أخرجه الطبري(١٠٥٢٩).
[15] أخرجه الطبري(١٠٥٣٤):ص٢٤٧/٩.
[16] أخرجه الطبري(١٠٥٣٢):ص٢٤٦/٩.
[17] تفسير الطبري:٢٣٩/٩:ص٢٤٣/٩.
[18] التفسير الميسر:٩٨.

قال الطبري:أي:" ولا يجد الذي يعمل سوءًا من معاصي الله وخلاف ما أمره به، من بعد الله ، وسواه {وليًّا} يلي أمره، ويحمي عنه ما ينزل به من عقوبة الله، ولا ناصرًا ينصره مما يحلّ به من عقوبة الله وأليم نَكاله"[1].

قال ابن عباس:" إلا أن يتوب قبل موته فيتوب الله عليه"[2].

قال النسفي:" وهذا وعيد للكفار لأنه قال بعده:{ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}[النساء:١٢٤]"[3].

الفوائد:

١-ما عند الله لا ينال بالتمني ولكن بالإيمان والعمل الصالح أو التقوى والصبر والإحسان.

٢- الجزاء أثر طبيعي للعمل وهو معنى {مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}..

القرآن

{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)} [النساء : ١٢٤]

التفسير:

ومن يعمل من الأعمال الصالحة من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن بالله تعالى وبما أنزل من الحق، فأولئك يدخلهم الله الجنة دار النعيم المقيم، ولا يُنْقَصون من ثواب أعمالهم شيئًا، ولو كان مقدار النقرة في ظهر النواة.

سبب النزول:

قال مسروق:" لما نزلت:{ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ }[4]، قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء! فنزلت هذه الآية :{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ}"[5].
مُؤْمِنٌ}"[5].

وقال أبو صالح:" أبي صالح قال: جلس ناس من أهل الإيمان وأهل التوراة وأهل الإنجيل، فقال هؤلاء: نحن أفضل، وقال هؤلاء: نحن أفضل، فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}[6]، ثم خص الله أهل الإيمان، فأنزل: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ}"[7].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [النساء : ١٢٤]، " أي :ومن يعمل الأعمال الصالحة سواءً كان ذكراً أو أنثى وهو مؤمن بالله تعالى وبما أنزل من الحق"[8].

قال السمرقندي:" يعني: يؤدي الفرائض وينتهي عن المحارم من رجل أو امرأة، وهو مصدق بالثواب والعقاب"[9].

قال المراغي:" أي: ومن يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس فى أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية، سواء كان العامل ذكرا أو أنثى وهو مطمئن القلب بالإيمان"[10].

---

[1] تفسر الطبري:٢٤٧/٩.

[2] أخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٩٨):ص١٠٧٢/٤.

[3] تفسير النسفي:٣٩٧/١-٣٩٨.

[4] [سورة النساء:١٢٣].

[5] أخرجه الطبري(١٠٤٩١):ص٢٢٨/٩، وابن أبي حاتم(٦٠٠٠):ص١٠٧٢/٤-١٠٧٣. بزيادة:" قال: ففلجوا عليهم".

[6] [سورة النساء:١٢٣].

[7] أخرجه الطبري(١٠٤٩٧):ص٢٣٠/٩-٢٣١، و ابن أبي حاتم(٦٠٠١):ص١٠٧٣/٤.

[8] صفوة التفاسير: ٢٨٢، والتفسير الميسر:٩٨.

[9] تفسير السمرقندي:٣٤١/١.

[10] تفسير المراغي:١٦٦/٥.

قال ابو السعود:" أي بعض الصالحات، أو شيئا منها، فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفا به، وقوله: {وهو مؤمن}، حال شرط اقتران العمل بها في استدعاء الثواب المذكور تنبيها على أنه لا اعتداد به دونه"[١].

قال مقاتل:" {وهو مؤمن}، بتوحيد الله- عز وجل-"[٢].

قال السدي:" أبى أن يقبل الإيمان إلا بالعمل الصالح ، وأبَى أن يقبل الإسلام إلا بالإحسان"[٣].

ولسبب دخول{ مِنَ} التبعيض، في قوله: {مِنَ الصَّالِحَاتِ} [النساء : ١٢٤]، قولان[٤]:
أحدهما : أن يكون الله قد علم أن عبادَه المؤمنين لن يُطيقوا أن يعملوا جميع الأعمال الصالحات ، فأوجب وَعده لمن عمل ما أطاق منها ، ولم يحرمه من فضله بسبب ما عجزتْ عن عمله منها قوّته.

والثاني: أن يكون تعالى ذكره أوجب وعدَه لمن اجتنب الكبائر وأدَّى الفرائض ، وإن قصر في بعض الواجب له عليه ، تفضلا منه على عباده المؤمنين ، إذ كان الفضل به أولى ، والصفح عن أهل الإيمان به أحرَى.

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما الفرق بين «من» الأولى والثانية؟

قلت: الأولى للتبعيض، أراد: ومن يعمل بعض الصالحات لأن كلا لا يتمكن من عمل كل الصالحات لاختلاف الأحوال، وإنما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه. وكم من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة، وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال.

والثانية لتبيين الإبهام في: {من يعمل}"[٥].

عن ابن عباس، "أن ابن عمر لقيه حزينا سأله عن هذه الآية: {ومن يعمل من الصالحات}، قال: الفرائض"[٦].

قوله تعالى:{فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ} [النساء : ١٢٤]، أي:" فأولئك يدخلهم الله الجنة دار النعيم المقيم"[٧].

قال المراغي:أي:" فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم"[٨].

عن علقمة عن عبدالله:" الجنة سجسج: لا حر فيها ولا برد"[٩].

قرأ أبو عمرو وابن كثير:«فأولئك يدخلون الجنة»، بضم الياء ونصب الخاء، على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون بنصب الياء وضم الخاء، أي يدخلون الجنة بأعمالهم[١٠].

قوله تعالى:{وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [النساء : ١٢٤]، أي:" ولا يُنْقَصون من ثواب أعمالهم شيئًا، ولو كان مقدار النقرة في ظهر النواة "[١١].

قال مجاهد:" النقير ، الذي يكون في ظهر النواة"[١٢].

قال عطية:" النقير ، الذي في وسط النواة"[١٣].

---

(١) تفسير ابي السعود:٢٣٦/٢.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٩/١.
(٣) أخرجه الطبري(١٠٥٣٥):ص٢٤٨/٩.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٢٤٩/٩.
(٥) الكشاف:٥٦٨/١.
(٦) اخرجه ابن ابي حاتم(٥٩٩٩):ص١٠٧٣/٤.
(٧) التفسير الميسر:٩٨.
(٨) تفسير المراغي:١٦٦/٥.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٠٣):ص١٠٧٣/٤.
(١٠) انظر: بحر العلوم:٣٤١/١،والبحر المحيط:٧٦/٤.
(١١) التفسير الميسر:٩٨.
(١٢) أخرجه الطبري(١٠٥٣٦):ص٢٤٩/٩.
(١٣) أخرجه الطبري(١٠٥٣٧):ص٢٤٩/٩.

قال مقاتل:" يعني: ولا ينقصون من أعمالهم الحسنة {نقيرا}، حتى يجازوا بها، يعني: النقير الذي في ظهر النواة التي تنبت منه النخلة"[1].

قال الزجاج:" النقير، النقطه في ظهر النواة، وهي مَنْبتِ النخلة، والمعنى: ولا يظلمون مقدار ذلك"[2].

قال الطبري:أي:" ولا يظلم الله هؤلاء الذين يعملون الصالحات من ثوابِ عملهم ، مقدارَ النُّقرة التي تكون في ظهر النَّواة في القلة ، فكيف بما هو أعظم من ذلك وأكثر ؟ وإنما يخبر بذلك جل ثناؤه عبادَه أنه لا يبخَسهم من جزاء أعمالهم قليلا ولا كثيرًا ، ولكن يُوفِّيهم ذلك كما وعدهم"[3].

قال القاسمي:" أي: لا ينقص من حسناتهم قدر «نقير»: وهو النقرة التي على ظهر النواة. وهذا على سبيل المبالغة في نفي الظلم، ووعد بتوفية جزاء أعمالهم من غير نقصان"[4].

قال ابو حيان:الضمير في قوله: {وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}" ظاهره: أنه يعود إلى أقرب مذكور وهم المؤمنون، ويكون حكم الكفار كذلك. إذ ذكر أحد الفريقين يدل على الآخر، أن كلاهما يجزى بعمله، ولأن ظلم المسيء أنه يزاد في عقابه. ومعلوم أنه تعالى لا يزيد في عقاب المجرم، فكان ذكره مستغنى عنه. والمحسن له ثواب، وتوابع للثواب من فضل الله هي في حكم الثواب، فجاز أن ينقص من الفضل. فنفي الظلم دلالة على أنه لا يقع نقص في الفضل. ويحتمل أن يعود الضمير في: ولا يظلمون إلى الفريقين، عامل السوء، وعامل الصالحات"[5].

قال القاسمي:"الراجع في {ولا يظلمون}، لعمال السوء وعمال الصالحات جميعا"[6].

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف خص الصالحون بأنهم لا يظلمون وغيرهم مثلهم في ذلك ؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون الراجع في: {ولا يظلمون} لعمال السوء وعمال الصالحات جميعا.

والثاني: أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالا على ذكره عند الآخر، لأن كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم، ولأن ظلم المسيء أن يزاد في عقابه، وأرحم الراحمين معلوم أنه لا يزيد في عقاب المجرم، فكان ذكره مستغنى عنه وأما المحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هي في حكم الثواب، فجاز أن ينقص من الفضل لأنه ليس بواجب، فكان نفى الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان في الفضل"[7].

قال ابو السعود:" فإن النقير علم في القلة والحقارة وإذا لم ينقص ثواب المطيع فلأن لا يزاد عقاب العاصي أولى وأحرى كيف لا والمجازي أرحم الراحمين وهو السر في الاقتصار على ذكره عقيب الثواب"[8].

الفوائد:

١- أن الجزاء أثر طبيعي للعمل وهو معنى قوله {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ} .

٢-قال المراغي:" وفى هذه الآية من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأماني التي يأوى إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين الذين يظنون أن الله يحابى من يسمى نفسه مسلما ويفضله

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٩/١.
[2] معاني القرآن:١١٢/٢.
[3] تفسير الطبري:٢٤٨/٩.
[4] محاسن التاويل:٣٤٨/٣.
[5] البحر المحيط:٧٦/٤.
[6] محاسن التاويل:٣٤٨/٣.
[7] الكشاف:٥٦٨/١.
[8] تفسير ابي السعود:٢٣٦/٢.

على اليهودي والنصراني لأجل هذا اللقب، فالذين يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم وجرموا الاهتداء بهديه، هم فى ضلال مبين"[1].

القرآن

{وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)} [النساء : ١٢٥]

التفسير:

لا أحد أحسن دينًا ممن انقاد بقلبه وسائر جوارحه لله تعالى وحده، وهو محسن، واتبع دين إبراهيم وشرعه، مائلا عن العقائد الفاسدة والشرائع الباطلة. وقد اصطفى الله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- واتخذه صفيّاً من بين سائر خلقه.

قوله تعالى:{وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} [النساء : ١٢٥]، أي:" لا أحد أحسن دينًا ممن انقاد بقلبه وسائر جوارحه لله تعالى وحده، وهو محسن"[2].

قال مقاتل:" يعني: أخلص دينه لله، {وهو محسن} في عمله"[3].

قال التستري:" أي: ممن أخلص دينه لله، وهو الإسلام وشرائعه، وقال، أي في لقمان: {ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن} [لقمان: ٢٢]، يعني: يخلص دينه لله"[4].

قال ابن كيسان: "يعني: من توجه بعبادته إلى الله خاضعًا له"[5].

قال ابن عباس: يريدُ وهو يوحِّدُ الله لا يُشْرِكُ بِهِ شيئًا"[6].

قال السدي:" ثم فضل الله المؤمن عليهم، يعني: على أهل الكتاب، فقال: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا}"[7].

قال الزمخشري:" {أسلم وجهه لله}: أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا تعرف لها ربا ولا معبودا سواه، {وهو محسن}: وهو عامل للحسنات تارك للسيئات "[8].

عن أبي العالية قوله: "{ممن أسلم وجهه لله وهو محسن}، يقول: من أخلص لله"[9]. وروي عن الربيع بن أنس مثل ذلك[10].

عن سعيد بن جبير:{ممن أسلم وجهه لله}، قال: من أخلص {وجهه}، قال:دينه"[11].

قال الواحدي:" {وَهُوَ مُحْسِنٌ}، أي: موحِّد، وإنما شرط في إسلام الوجه لله أن يكون محسنًا، لأن اليهود والنصارى يقرُّون بالانقياد لأمر الله وهم غير محسنين، فلا يستحقون الأجر. قال العلماء: وإنّما صارَ الإسلامُ أحسنَ الأديانِ، لأنَّ طاعةَ الله أحسن الأعمالِ التي تكونُ من العباد، لما فيها من عبادة من لا يضيع عنده مثاقيل الذرِّ، ومَنْ لا يضيق ملكه عن شيء، فلهذا كان لا أحد أحسن دينًا ممَنْ أسلَمَ وجهَهُ لله بطاعته والانقيادِ لأمره"[12].

وفي «الوجه» في الآية قولان[13]:

أحدهما: أنه الدين.

والثاني: أنه العمل.

وفي تفسير «الإحسان» في الآية قولان:

---

[1] تفسير المراغي:١٦٦/٥.
[2] التفسير الميسر:٩٨.
[3] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٠/١.
[4] تفسير التستري:٣٢.
[5] التفسير البسيط للواحدي:١١٢/٧.
[6] التفسير البسيط للواحدي:١١٢/٧.
[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٠٥):ص١٠٧٣/٤.
[8] الكشاف:٥٦٨/١-٥٦٩.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٠٦):ص١٠٧٣/٤.
[10] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٠٠٦):ص١٠٧٣/٤.
[11] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٠٧):ص١٠٧٤/٤.
[12] التفسير البسيط للواحدي:١١٣/٧.
[13] انظر: زاد المسير:٤٧٨/١.

أحدهما: أنه التوحيد، قاله ابن عباس[١].
والثاني: القيام لله بما فرض الله، قاله أبو سليمان الدمشقي[٢].
قوله تعالى:{وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [النساء : ١٢٥]، أي:" واتبع دين إبراهيم وشرعه، مائلا عن العقائد الفاسدة والشرائع الباطلة"[٣].
قال الطبري:" يعني بذلك: واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن ، وأمر به بنيه من بعده وأوصاهم به ، مستقيمًا على منهاجه وسبيله"[٤].
قال الضحاك:" فضّل الله الإسلام على كل دين فقال : {ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن}، إلى قوله :{واتخذ الله إبراهيم خليلا}، وليس يقبل فيه عملٌ غير الإسلام ، وهي الحنيفيّة"[٥].
وذكر أهل العلم في اتباع ملة إبراهيم قولان[٦]:
أحدهما: اتباعه على التوحيد والطاعة.
والثاني: اتباع شريعته، اختاره القاضي أبو يعلى[٧].
وقوله تعالى:{حَنِيفًا}[النساء:١٢٥]، لأهل اللغة فيه قولان[٨]:
الأول: أن الحنيف هو المستقيم.
قال الطبري: "(الحنيف)، فإنه المستقيم من كل شيء"[٩].
ومنه قيل للأعرج: أحنف، تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ: سليم، والمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف[١٠].
الثاني: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها، وتحنف إذا مال.
وفي تفسير قوله تعالى:{ حَنِيفًا} [النساء : ١٢٥]، أقوال:
أحدها: أن الحنيفية حج البيت، والحنيف هو الحاج. وهذا قول ابن عباس[١١]، والحسن[١٢]، ومجاهد[١٣]،وكثير بن زياد[١٤]، وعبدالله بن قاسم[١٥]، والضحاك[١٦]، وعطية[١٧]،والسدي[١٨].
والثاني: أنه اتباع الحق. قاله مجاهد ايضا[١٩]، والربيع بن انس[٢٠].
والثالث: الحنيف: المستقيم. وهذا قول محمد بن كعب[٢١]، وعسى ابن جارية[٢٢].

---

[١] انظر: التفسير البسيط للواحدي:١١٢/٧، وزاد المسير: ٤٧٨/١، وتنوير المقباس" بهامش المصحف ص ٩٨.
[٢] انظر: زاد المسير:٤٧٨/١.
[٣] التفسير الميسر:٩٨.
[٤] تفسير الطبري:٢٥٠/٩.
[٥] أخرجه الطبري(١٠٥٣٨):ص٢٥١/٩.
[٦] انظر: زاد المسير:٤٧٨/١.
[٧] انظر: زاد المسير:٤٧٨/١.
[٨]انظر: مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
[٩] تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٧):ص١٠٦/٣، وابن أبي حاتم(١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢، و(٦٠٠٨):ص١٠٧٤/٤.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩١):ص١٠٤/٣، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٠٠٨):ص١٠٧٤/٤،و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢..
[١٣] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٤):ص١٠٦/٣.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٥):ص١٠٦/٣.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٨):ص١٠٦/٣.
[١٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢، و(٦٠٠٨):ص١٠٧٤/٤.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٢)، و(٢٠٩٣):ص١٠٤/٣-١٠٥، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٠٠٨):ص١٠٧٤/٤.
[١٨]انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢.
[١٩] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٩):ص١٠٦/٣، وابن أبي حاتم(١٢٩٢):ص٢٤١/١، و(٦٠٠٩):ص١٠٧٤/٤.
[٢٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٩٢):ص٢٤١/١ ، و(٦٠٠٩):ص١٠٧٤/٤.
[٢١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٩٣):ص٢٤٢/١ ، و(٦٠١٠):ص١٠٧٤/٤.
[٢٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٩٣):ص٢٤٢/١، و(٦٠١٠):ص١٠٧٤/٤.

والرابع: معناه: مخلصا. قاله السدي[١]،ومقاتل بن سليمان[٢]، وخصيف[٣].
والخامس: أن الحنيف: الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم. وهذا قول ابي قلابة[٤].
والراجح-والله اعلم- أنه يعني : الإستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته، قال الزمخشري:{الحنيف}:" هو الذي تحنف، أى: مال عن الأديان كلها إلى دين الإسلام"[٥].
قوله تعالى:{وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء : ١٢٥]، أي:" وقد اصطفى الله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- واتخذه صفيّاً من بين سائر خلقه"[٦].
قال ابن مسعود:" إن الله اتخذ صاحبكم خليل"[٧].
قال مقاتل:" يعني: محبا"[٨].
قال الطبري:أي:" واتخذ الله إبراهيم وليًّا"[٩].
قال الواحدي:أي:"صفيّاً بالرِّسالة والنُّبوَّة مُحبَّاً له خالص الحب"[١٠].
قال انس:" جعل الله الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد صلى الله عليهم أجمعين"[١١].
وفي معنى «الخليل» أقوال:
أحدها: انه الصفي. وهذا قول ابن عباس[١٢].
والثاني:أنه المحب الذي ليس في محبته خلل. قاله الزجاج[١٣].
والثالث: أن الخليل: الفقير، فجائز أن يكون إبراهيم سمي خليل الله بأنه أحبه محبة كاملة، وجائز أن يكون لأنه لم يجعل فقره وفاقته إلا إليه. ذكره الزجاج[١٤].
والرابع: أن الخليل: «فعيل» من الخلة، والخلة: المودة. قاله ابن الأنباري[١٥].
قال الزجاج:" الخليل المحب الذي ليس في محبته خَلَل فجائز أن يكون إبراهيم سمى خليلَ الله بأنَّه الذِي أحبه الله واصطفاه محبةً تامَّةً كامِلةً.
وقيل أيضاً الخليل الفقير، فجائز أن يكون فقير اللَّه، أي الذي لم يَجْعَلْ فقره وفاقته إلا إلى الله مخلصاً في ذلك، قال الله عزَّ وجلَّ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ}، ومثل أن إبراهيم الخليل الفقير إلى اللَّه قول زهير يمدح هرم بن سنان[١٦]:
وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرَمُ
والخلة الصداقة، والخلة الحاجة، فأمَّا معنى الحاجةِ، فإنه الاختلال الذي يلحق الإنسان فيما يحتاج إليه، وأمَّا الخلة الصداقة فمعناها إنَّه يسُد كل محب خَلَلَ صاحبه في المودة وفي الحاجة إليه، والخلل كل فرجة تقع في شيء، والخِلَال الذي يتخلل به، وإنما سمي خلالاً لأنه، يتبع به الخلل بين الأسْنانِ، وقول الشاعر[١٧]:
ونظرن من خَلَلِ الستور بأعينٍ مرضَى مخالِطها السِّقام صحاح

[١] انظر: تفسير الطبري(٢١٠٠):ص١٠٧/٣، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٠١١):ص١٠٧٤/٤.
[٢] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤١/١.
[٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٥):ص٢٤٢/١.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٩٤):ص٢٤٢/١، و(٦٠١٢):ص١٠٧٤/٤.
[٥] الكشاف:٥٦٩/١.
[٦] التفسير الميسر:٩٨.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠١٣):ص١٠٧٥/٤.
[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٠/١.
[٩] تفسير الطبري:٢٥١/٩.
[١٠] الوجيز:٢٩٢.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠١٤):ص١٠٧٥/٤.
[١٢] انظر: زاد المسير:٤٧٨/١.
[١٣] انظر: معاني القرآن:١١٣/٢-١١٣.
[١٤] انظر: معاني القرآن:١١٣/٢-١١٣.
[١٥] انظر: زاد المسير:٤٧٨/١.
[١٦] ديوانه: (٩١)، وروايته: « ... يوم مسألةٍ» وروايته في اللسان (خلل): «يوم مسغبة.
[١٧] لم اقف عليه، وهو دون نسبة في معاني القرآن للزجاج:١١٤/٢.

فإن معناه نظرن من الفرجُ التي تقع في الستور، والخلوةُ والخلل يرجعان إلى معنى، والخِل الطريق في الرملِ معناه أنه انفرجتْ فِيه فرجة فصارت طريقاً. والخَل الذي يؤكل إنما سمي خلًّا لأنه اختلَّ منه طعم الحلاوة"[1].

وفي سبب اتخاذ الله له خليلا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه اتخذه خليلا لإطعامه الطعام.

روى عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «يا جبريل، لم اتخذ الله إبراهيم خليلا؟ قال: لإطعامه الطعام»[2].

وأخرج ابن ابي حاتم عن عبيد بن عمير قال: "كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يوما يلتمس إنسانا يضيفه، فلم يجد أحدا فرجع إلى داره فوجد فيها رجلا قائما، قال: يا عبد الله، ما أدخلك داري بغير إذني؟ قال: دخلتها بإذن ربها. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ملك الموت أرسلني ربي إلى عبد من عباده أبشره بأن الله اتخذه خليلا. قال: من هو؟ فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه، ثم لا أبرح له جارا حتى يفرق بيننا الموت. قال: ذاك العبد أنت. قال: أنا؟ قال: نعم. قال: فبما اتخذني ربي خليلا. قال: إنك تعطي الناس ولا تسألهم"[3].

والثاني: أنه اتخذه خليلا لكسره الأصنام، وجداله قومه، قاله مقاتل[4].

والثالث: أن الناس أصابتهم سنة فأقبلوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكانت له ميرة من صديق له بمصر في كل سنة، فبعث غلمانه بالإبل إلى صديقه، فلم يعطهم شيئا، فقالوا: لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بميرة، فملؤوا الغرائر رملا، ثم أتوا إبراهيم عليه السلام، فأعلموه، فاهتم إبراهيم لأجل الخلق. فنام وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان، ففتحت الغرائر، فاذا دقيق حواري، فأمرت الخبازين فخبزوا، وأطعموا الناس، فاستيقظ إبراهيم، فقال: من أين هذا الطعام؟ فقالت: من عند خليلك المصري، فقال: بل من عند خليلي الله عز وجل، فيومئذ اتخذه الله خليلا. روي ذلك عن ابن عباس[5].

قلت: وأما الخبر الذي روي عن ابن عباس، فإنه لا أصل له في المرفوع، إذ جاء برواية أبي صالح عن ابن عباس كما عند ابن الجوزي[6]، وهو في اسباب النزول للواحدي[7] وتفسير البغوي[8] برواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا إسناد ساقط، الكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، والكلبي وأبو صالح أقرا أنهما كانا يكذبان على ابن عباس[9].

وقد ذكر هذا الخبر الطبري بدون إسناد [10]، ونقله عنه ابن كثير في تفسيره، وقال: "وفي صحة هذا ووقوعه نظر، وغايته أن يكون خبرا إسرائيليا لا يصدق ولا يكذب"[11].

والراجح-والله اعلم- أنه "سُمّي خليل الله لشدة محبة ربه ، عز وجل ، له ، لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها"[12].

---

(1) معاني القرآن:١١٣/٢-١١٣.

(2) اخرجه البيهقي ٩٦١٦ من حديث عبد الله بن عمرو، وفيه ابن لهيعة والراوي عنه ليس من العبادلة، والواحدي في اسباب النزول:١٨٢-١٨٣، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير:٤٧٨/١، والقرطبي في تفسيره:٤٠١/٥، والسيوطي في الدر المنثر:٧٠٦/٢، والحديث ضعيف والمتن منكر، فإن الأمر أعم من ذلك.

(3) تفسير ابن ابي حاتم(٦٠١٦):ص١٠٧٥/٤.

(4) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٠/١.

(5) انظر: أسباب النزول للواحدي:١٨٣-١٨٤، وزاد المسير:٤٧٩/١.

(6) انظر: زاد المسير:٤٧٩/١.

(7) انظر: اسباب النزول:١٨٣-١٨٤.

(8) انظر: تفسير البغوي:٢٩٢/٢.

(9)راجع ترجمتهما في «الميزان» .

(10) انظر: تفسير الطبري:٢٥١/٩-٢٥٢.

(11) تفسير ابن كثير: ٤٢٣/٢.

(12) تفسير ابن كثير: ٤٢٣/٢.

قال السعدي:" وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلا لأنه وفى بما أمر به وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماما للناس، واتخذه خليلا ونوه بذكره في العالمين"[1].

ولهذا ثبت في الصحيحين ، من حديث أبي سعيد الخدري : "أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال : «أما بعد ، أيها الناس ، فلو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلا ولكن صاحبكم خليل الله»"[2].

وجاء من طريق جُنْدُب بن عبد الله البَجَلي ، وعبد الله بن عَمرو بن العاص ، وعبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ : "إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا"[3].

وعن عكرمة ، عن ابن عباس قال : "جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم ، وإذا بعضهم يقول : عجبًا إن الله اتخذ من خلقه خليلا فإبراهيم خليله! وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما! وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته! وقال آخر : آدم اصطفاه الله! فخرج عليهم فسلم وقال : «قد سمعت كلامكم وتعجبكم أن إبراهيم خليل الله ، وهو كذلك ، وموسى كليمه ، وعيسى روحه وكلمته ، وآدم اصطفاه الله ، وهو كذلك ألا وإني حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع ، وأول مشَفع ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حِلَق الجنة ، فيفتح الله فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر»"[4].

قال الواحدي:" وملة إبراهيم داخلة في ملتنا، وفي ملتنا زيادة على ملة إبراهيم، فمن ملة إبراهيم الكلمات العشر في قوله: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} [البقرة: ١٢٤]"[5]،" "وأكثر المفسرين قالوا في تفسير الكلمات: إنها عشر خصال عن السنة، خمس في الرأس وخمس في الجسد، فالتي في الرأس: الفرق، والمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك. والتي في الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء، ونتف الرفغين" ا. هـ والفرق لشعر الرأس، والرفغين: الأبطين"[6].

الفوائد:

١-فضل الإسلام على سائر الأديان.

٢-شرف إبراهيم عليه السلام باتخاذه ربه خليلاً، وقد شرف بالخلة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي الصحيحين أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطبهم أخر خطبة، فقال "أما بعد، أيها الناس، فلو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلا ولكن صاحبكم خليل الله"[7].

٣-في هذه الآية، إثبات صفة الخُلّة لله -تعالى- وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء[8].

القرآن

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)} [النساء : ١٢٦]

التفسير:

ولله جميع ما في هذا الكون من المخلوقات، فهي ملك له تعالى وحده. وكان الله تعالى بكل شيء محيطًا، لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه.

---

(١) تفسير السعدي:٢٠٦.

(٢)صحيح البخاري برقم (٣٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٨٢) ولفظه : "صاحبكم خليل الله" هي من حديث عبد الله بن مسعود ، رواه مسلم برقم (٢٣٨٣).

(٣)أما حديث جندب بن عبد الله فرواه مسلم في صحيحه برقم (٥٣٢) ، وأما حديث عبد الله بن عمرو فرواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٦١٦) ، وأما حديث عبد الله بن مسعود ، فرواه مسلم في صحيحه برقم (٢٣٨٣).

(٤)رواه الترمذي في السنن برقم (٣٦١٦) وقال : "هذا حديث غريب"، و ابن مَرْدُويه كما في تفسير ابن كثير:٤٢٣/٢، وقال ابن كثير:" وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها".

(٥) التفسير البسيط:١١٣/٧.

(٦) التفسير الوسيط:٢٠٨/١، وأنظر: "معاني القرآن" للفراء ١/ ٧٦، و"أحكام القرآن" لابن العربي ١/ ٣٦.

(٧)صحيح البخاري برقم (٣٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٨٢) ولفظه: "صاحبكم خليل الله" هي من حديث عبد الله بن مسعود، رواه مسلم برقم (٢٣٨٣) .

(٨) انظر: التفسير الميسر:٩٨.

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [النساء : ١٢٦]، أي:" ولله جميع ما في هذا الكون من المخلوقات، فهي ملك له تعالى وحده"[١].

قال الواحدي:" إخبار عن سعة قدرته، وكثرة مملوكاته ليرغب إليه بالطاعة"[٢].

قال الزجاج:" أي: إن إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً هو عبد الله، وهو له وكل ما في السَّمَاوَات والأرض"[٣].

قال القرطبي:" أي: ملكا واختراعا. والمعنى إنه اتخذ إبراهيم خليلا بحسن طاعته لا لحاجته إلى مخالته ولا للتكثير به والاعتضاد، وكيف وله ما في السموات وما في الأرض؟ وإنما أكرمه لامتثاله لأمره"[٤].

قال البيضاوي:اي:" خلقا وملكا يختار منهما من يشاء وما يشاء. وقيل هو متصل بذكر العمال مقرر لوجوب طاعته على أهل السموات والأرض، وكمال قدرته على مجازاتهم على الأعمال"[٥].

قال ابن كثير:" أي : الجميع ملكه وعبيده وخلقه ، وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا راد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، ولا يسأل عما يفعل ، لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته"[٦].

قال النسفي:" دليل على أن اتخاذه خليلا لا يحتاج الخليل إليه لا لإحتياجه تعالى، لأنه منزه عن ذلك"[٧].

قال الطبري:أي:{واتخذ الله إبراهيم خليلا}، لطاعته ربَّه ، وإخلاصه العبادة له ، والمسارعةِ إلى رضاه ومحبته ، لا من حاجةٍ به إليه وإلى خُلَّته. وكيف يحتاج إليه وإلى خلَّته ، وله ما في السموات وما في الأرض من قليل وكثير مِلْكًا ، والمالك الذي إليه حاجة مُلْكه ، دون حاجته إليه ؟ يقول:فكذلك حاجة إبراهيم إليه ، لا حاجته إليه فيتخذه من أجل حاجته إليه خليلا ولكنه اتخذه خليلا لمسارعته إلى رضاه ومحبته. يقول : فكذلك فسارعوا إلى رضايَ ومحبتي لأتخذكم لي أولياء"[٨].

قال ابن عباس:" قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم"[٩].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا} [النساء : ١٢٦]، أي:" وكان الله تعالى بكل شيء محيطًا، لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه"[١٠].

قال مقاتل:" يعنى: أحاط علمه"[١١].

قال الواحدي:" علم إحاطة، وهو العلم بالشيء من كل وجه حتى لا يشذ عنه شيء"[١٢].

قال القرطبي:" أي: أحاط علمه بكل الأشياء"[١٣].

قال البيضاوي:" إحاطة علم وقدرة فكان عالما بأعمالهم فيجازيهم على خيرها وشرها"[١٤].

---

[١] التفسير الميسر:٩٨.
[٢] التفسير الوسيط:١٢٢/٢
[٣] معاني القرآن:١١٤/٢.
[٤] تفسير القطربي:٤٠٢/٥.
[٥] تفسير البيضاوي:١٠٠/٢.
[٦] تفسير ابن كثير:٤٢٤/٢.
[٧] تفسير النسفي:٤٠٠/١.
[٨] تفسير الطبري:٢٥٢/٩.
[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٣٢):ص٧٥٨/٣.
[١٠] التفسير الميسر:٩٨.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١١/١.
[١٢] التفسير الميسر:٩٨.
[١٣] تفسير القطربي:٤٠٢/٥.
[١٤] تفسير البيضاوي:١٠٠/٢.

قال ابن كثير:" أي : علمه نافذ في جميع ذلك ، لا تخفى عليه خافية من عباده ، ولا يعْزُب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى"[١].

قال الطبري:أي:" ولم يزل الله محصيًا لكل ما هو فاعله عبادُه من خير وشرّ ، عالمًا بذلك ، لا يخفى عليه شيء منه ، ولا يعزب عنه منه مثقال ذرَّة"[٢].

قال الماتريدي:" أي: أحاط بكل شيء علمه، وهو يخرج على الوعيد، أي: عن علم منه خلقهم لا عن جهل بصنيعهم كملوك الأرض"[٣].

الفوائد:

١-بيان عموم ملك الله سبحانه وتعالى، لقوله: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، لأن{ما} من صيغ العموم.

٢-غنى الله تعالى عن سائر مخلوقاته، وافتقار سائر مخلوقاته إليه عز وجل.

٣-أفاد تقديم الخبر في قوله: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، انفراد الله تعالى بملك السماوات والأرض.

٤-إثبات تعدد السماوات، بأنها سبع سماوات، وأما الأرض فقد ذكر بصيغة الافراد والمراد الجنس فيشمل جميع الأرضين، وقد بينت السنة انها سبع.

القرآن

{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)} [النساء : ١٢٧]

التفسير:

يطلب الناس منك -أيها النبي- أن تبين لهم ما أشكل عليهم فَهْمُه من قضايا النساء وأحكامهن، قل الله تعالى يبيِّن لكم أمورهن، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تعطونهن ما فرض الله تعالى لهن من المهر والميراث وغير ذلك من الحقوق، وتحبون نكاحهن أو ترغبون عن نكاحهن، ويبيِّن الله لكم أمر الضعفاء من الصغار، ووجوب القيام لليتامى -وهم الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ- بالعدل وترك الجور عليهم في حقوقهم. وما تفعلوا من خير فإن الله تعالى كان به عليمًا، لا يخفى عليه شيء منه ولا من غيره.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: أخرج البخاري[٤]، ومسلم[٥]، وأبو داود[٦]، والنَّسَائِي[٧]، والدارقطني[٨]، عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة - رضي الله عنها -: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ}. قالت: «هي اليتيمة في حجر وليها، فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها فنهوا عن نكاحهن، إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق، وأُمروا بنكاح من سواهن من النساء.

قالت عائشة: ثم استفتى الناس رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعدُ، فأنزل اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ -: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}، قالت: فبيّن الله في هذه أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها، ولم يلحقوها بسنتها بإكمال الصداق، فإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء، قال: فكما يتركونها حين

---

[١] تفسير ابن كثير:٤٢٤/٢.
[٢] تفسير الطبري:٢٥٢/٩.
[٣] تفسير الماتريدي:٢٧٣/٣.
[٤] صحيح البخاري(٢٧٦٣):ص٩/٤، و(٦٩٦٥):ص٢٤/٩.
[٥] صحيح مسلم: كتاب التفسير (٣٠١٨):ص٢٣١٣/٤.
[٦] سنن أبي داود(٢٠٦٨):ص٢٢٤/٢.
[٧] السنن الكبرى(٥٤٨٨):ص٢٢١/٥، و(١١٠٢٤):ص٥٨/١٠.
[٨] سنن الدارقطني(٧٧):ص٢٦٥/٣.

يرغبون عنها، فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها، إلا أن يقسطوا لها الأوفى من الصداق ويعطوها حقها».
والثاني: وعن عائشة، في قوله: {وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ، وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}[النساء: ١٢٧]، قالت: «أنزلت في اليتيمة، تكون عند الرجل فتشركه في ماله، فيرغب عنها أن يتزوجها، ويكره أن يزوجها غيره، فيشركه في ماله، فيعضلها[١] فلا يتزوجها ولا يزوجها غيره»[٢]. وروي عن ابن عباس[٣]، وإبراهيم[٤]، وقتادة[٥]، والسدي[٦] نحو ذلك.
والثالث: أنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، فلما فرض الله المواريث في هذه السورة، شق ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس[٧]، وسعيد بن جبير[٨]، ومجاهد[٩]، وابن زيد[١٠]، والكلبي[١١].
والرابع: روي عن عبد الملك بن محمد بن حزم، قال: "أن عمرة بنت حزم كانت تحت سعد بن الربيع؛ فقتل عنها بأُحد، وكان له منها ابنة، فأتت النبي - ﷺ - تطلب ميراث ابنتها؛ ففيها نزلت: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ}"[١٢].
والخامس: وقال مقاتل بن سليمان:" نزلت في سويد وعرفطة ابني الحارث وعيينة بن حصن الفزاري ذلك أنه لما فرض الله- عز وجل- لأم كحة وبناتها الميراث انطلق سويد وعرفطة وعيينة بن حصن الفزاري إلى النبي- ﷺ، فقالوا للنبي- ﷺ-: إن المرأة لا تركب فرسا ولا تجاهد وليس عند الولدان الصغار منفعة في شيء- فأنزل الله- عز وجل- فيهم «ويستفتونك» يعني يسألونك عن النساء يعني سويدا وصاحبيه"[١٣]. وكذلك ذهب السمرقندي[١٤]، والسمعاني[١٥]، وغيرهم، من السادة المفسرين. بأنها نزلت في أم كجة التي ذكرت في أول السورة، إذ كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان[١٦].
والسادس: أخرج ابن أبي حاتم عن سالم عن سعيد، قال: "كان رجل له امرأة قد كبرت وعنست من الحيض وكان له منها أولاد فأراد أن يطلقها وأن يتزوج، فقالت: لا تطلقني، ودعني أقوم على ولدي واقسم كل عشر إن شئت أو أكثر من ذلك إن شئت، فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إلي، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال: «قد سمع الله ما تقول فإن شاء، أجابك»، قال: وأنزل الله تعالى: {يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن}، فأفتاهم عما لم يسألوا عنه"[١٧].
قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال التي ذكرنا عمن ذكرناها عنه بالصواب ، وأشبهها بظاهر التنزيل ، قول من قال: معنى قوله : {وما يتلى عليكم في الكتاب}، وما يتلى عليكم من آيات الفرائضِ في أول هذه السورة وآخرها، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب ، لأن الصَّداق ليس

---

[١] "فيعضلها": أي: يمنعها الزواج.
[٢] صحيح مسلم(٣٠١٨):ص٢٣١٥/٤، والسنن الكبرى(١١٠٥٩):ص٧٣/١٠، وتفسير الطبري(١٠٥٦١)، و(١٠٥٦٢):ص٢٦٣/٩.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤٩):ص٢٥٦/٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤٤):ص٢٥٥/٩، وانظر: (١٠٥٤٥):ص٢٥٥/٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٥٠)، و(١٠٥٥١):ص٢٥٦/٩.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤٦):ص٢٥٥/٩-٢٥٦.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٣٩):ص٢٥٣/٩-٢٥٤.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤١):ص٢٥٤/٩.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤٧):ص٢٥٦/٩.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٥٧):ص٢٦٢/٩.
[١١] انظر: تفسير عبدالرزاق(٦٤٦):ص٤٨٠/١.
[١٢] ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٧٠٩) ونسبه للقاضي إسماعيل في "أحكامه"[ضعيف].
[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١١/١.
[١٤] انظر: بحر العلوم:٣٤٣/١.
[١٥] انظر: تفسير السمعاني:٤٨٥/١.
[١٦] انظر القصة في: تفسير الطبري(٨٧٢٥):ص٣١/٨-٣٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٤٨٩٤):ص٨٨١/٣.
[١٧] تفسير ابن ابي حاتم(٦٠١٩):ص١٠٧٦/٤.

مما كُتب للنساء إلا بالنكاح ، فما لم تنكح فلا صداق لها قِبَل أحد. وإذا لم يكن ذلك لها قِبَل أحدٍ ، لم يكن مما كتب لها. وإذا لم يكن مما كتب لها ، لم يكن لقول قائل :عنى بقوله :{وما يتلى عليكم في الكتاب}، الإقساطَ في صدقات يتامى النساء وَجْهٌ"(١).

وابن العربي لما ساق حديث عائشة قال: "وفي ذلك من الحشو روايات لا فائدة في ذكرها هاهنا، يرجع معناها إلى قول عائشة - رضي الله عنها"(٢).

والإشكال الذي يَرِدُ هنا أن يُقال: ما هي الإضافة التي جاءت بها آية النساء الثانية؟ أو قل ما الفرق بين الآيتين؟

أجاب: ابن كثير - رحمه الله - قائلا: "والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء فقد وسع الله - عَزَّ وَجَلَّ - وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر فنهاه الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها"(٣).

وقال السعدي: "قوله: {وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ} هذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل بخسها حقها، وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها، أو بعضه، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفًا من استخراجه من يده إن زوّجها، أو يأخذ من مهرها الذي تتزوج به، بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغبًا عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها بل يعطيها دون ما تستحق"(٤).

والظاهر -والله أعلم- أن ما ذكره ابن كثير والسعدي - رحمهما الله - هو الحق، وبيان ذلك أن يقال إن الله تحدث عن نكاح اليتامى من النساء في آيتين من نفس سورة النساء هما قوله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا} [النساء : ٣]، وقوله: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ .. }، وبعيدٌ عن بلاغة القرآن وفصاحته أن يكون حديثُ الآيتين عن معنى واحد يتكرر فيهما، فإن هذا نقص في كلام البشر فكيف بكلام الله جلَّ وعلا؟

فإن قيل: الثاني مؤكد للأول، فما الجواب؟

فالجواب أن يقال: إن كلام الله إذا دار بين التوكيد والتأسيس تعين حمله على التأسيس لأنه يحمل معنى زائدًا على مجرد التوكيد.

وعلى هذا يكون حديث الآية الأولى عن الرجل تكون عنده اليتيمة ذات مال وجمال يريد أن يتزوجها بدون أن يقسط في صداقها، ولفظ الآية الأولى يدل على ذلك كما تقدم في أول سورة النساء.

وحديث الآية الثانية في الرجل تكون عنده اليتيمة تشاركه في ماله وليست ذات جمال، فيرغب عن نكاحها، ويكره أن يزوجها غيره لئلا يشاركه في مالها، فيعضلها لأجل ذلك، ولفظ الآية الثانية يدل على ذلك فإن الله قال: {فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ}، أي: من حقوقهن وأموالهن اللاتي يملكنها ولهذا قال في آخر الآية: {وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ} {وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}، أي: ترغبون عن نكاحهن.

ولفظ مسلم عن عائشة - «رغِبها» - يدل على هذا الفهم.

وأما قول الطبري: "إن ذلك في المواريث"(٥)، فسياق الآيات لا يسعفه.

---

(١) تفسير الطبري:٢٦٠/٩-٢٦١.
(٢) أحكام القرآن:٤٠٥/١.
(٣) تفسير ابن كثير:٤٢٥/٢.
(٤) تفسير السعدي:٢٠٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٢٦٠/٩-٢٦١.

والراجح-والله اعلم- أن سبب نزول الآية الكريمة ما كان يجري في عهده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إذ كان بعض الناس يعضل اليتيمة عن النكاح لئلا يُشرك في مالها ويرغب هو عن نكاحها لقلة جمالها، فاستفتى بعض الصحابة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في ذلك فأنزل الله الآية، وذلك لصحة السند وصراحة اللفظ وموافقة السياق.

قوله تعالى:{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ} [النساء : ١٢٧]، أي:" يطلب الناس منك -أيها النبي- أن تبين لهم ما أشكل عليهم فَهْمُه من قضايا النساء وأحكامهن"[١].

قال السمعاني:" أي: يطلبون فتواك في النساء"[٢].

قال ابن الجوزي:"{ويستفتونك}، أي: يطلبون منك الفتوى، وهي تبيين المشكل من الأحكام. وقيل: الاستفتاء: الاستخبار. قال المفسرون: والذي استفتوه فيه، ميراث النساء، وذلك أنهم قالوا: كيف ترث المرأة والصبي الصغير؟"[٣].

قال الواحدي:" الاستفتاء طلب الفتوى، يقال: أفتى الرجل في المسألة، واستفتيته فأفتاني، إفتاء، وفتيا وفتوى اسمان من: أفتى، يوضعان موضع الإفتاء، ويقال: أفتيت فلانًا في رؤياها، إذا عبرتها له، وأفتيته في مسألته، إذا أجبته عنها، ومعنى الإفتاء والفتيا: تبيين المشكل من الأحكام، وأصله من الفتي، وهو الشاب الحدث الذي شب وقوي، فكأنه يقويّ ببيانه ما أشكل، فيشب ويصير فتيا قويا"[٤].

قوله تعالى:{قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [النساء : ١٢٧]، " أي: قل لهم يا محمد: يبين الله لكم ما سألتم في شأنهنَّ ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن"[٥].

قال الزجاج:" المعنى قل الله يفتيكم فيهنَّ، وهذه الأشْياءُ التي في الكتاب يُفْتيكُم فيهن"[٦].

قوله تعالى:{فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} [النساء : ١٢٧]، "أي: ويفتيكم أيضاً في اليتيمات اللواتي ترغبون في نكاحهن لجمالهن أو لمالهنَّ ولا تدفعون لهن مهورهنَّ"[٧].

ويحتمل قوله تعالى:{ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ} [النساء : ١٢٧]، وجهان:

أحدهما:يعني المواريث، وهذا قول ابن عباس[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، وشعبة[١٠]، وقتادة[١١]، مجاهد[١٢]، وإبراهيم[١٣]، وابن زيد[١٤].

والثاني : أنها في صدقات النساء التي يتملكها أولياؤهن. ذكره الماوردي[١٥] ونسبه ابن الجوزي لعائشة-رضي الله عنها-[١٦].

ويحتمل قوله تعالى:{ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} [النساء : ١٢٧]، وجهان:

---

[١] التفسير الميسر:٩٨.

[٢] تفسير السمعاني:٤٨٥/١.

[٣] زاد المسير:٤٨٠/١.

[٤] التفسير البسيط:١١٨/٧، وانظر: "الصحاح" ٦/ ٢٤٥٢، و"مقاييس اللغة" ٤/ ٤٧٤ (فتى).

[٥] صفوة التفاسير:٢٨٣/١.

[٦] معاني القرىن:١١٥/٢.

[٧] صفوة التفاسير:٢٨٣/١.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٣٩):ص٢٥٣/٩-٢٥٤، و(١٠٥٤٩):٢٥٦/٩.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤١):ص٢٥٤/٩، و(١٠٥٤٣):ص٢٥٤/٩-٢٥٥، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٠١٨):ص٦٠١٨/٤.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤٢):ص٢٥٤/٩.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٥٠)، (١٠٥٥١):ص٢٥٧/٩.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤٧)، و(١٠٥٤٨):٢٥٦/٩.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٥٨):ص٢٦٢/٩.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٥٧):ص٢٦٢/٩.

[١٥] انظر: النكت والعيون:٥٣٢/١.

[١٦] انظر: زاد المسير:٤٧٩/١.

أحدهما : ترغبون عن نكاحهن لقبحهن. وهذا قول الحسن[١]، وعائشة[٢]، إبراهيم[٣]، وقتادة[٤]، وقتادة[٤]، والسدي[٥]، واختيار الطبري[٦]، والزجاج[٧].

والثاني : تمسكونهن رغبة في أموالهن وجمالهن، وهو قول عائشة-في قولها الآخر-[٨]، وابن عباس[٩]، وسعيد بن جبير[١٠]، وعبيدة[١١].

والراجح- والله أعلم- أن المعنى: ترغبون عن أن تنكحوهن، لأن حبسهم أموالهن عنهن مع عضّلهم إياهن ، إنما كان ليرثوا أموالهن ، دون زوج إن تزوجن. ولو كان الذين حبسوا عنهن أموالهن ، إنما حبسوها عنهن رغبة في نكاحهن ، لم يكن للحبس عنهن وجهٌ معروف ، لأنهم كانوا أولياءهن ، ولم يكن يمنعهم من نكاحهن مانع ، فيكون به حاجة إلى حبس مالها عنها ، ليتّخذ حبسها عنها سببًا إلى إنكاحها نفسها منه"[١٢].

عن إبراهيم :"أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا جاءه ولى اليتيمة نظر، فإن كانت جميلة غنية قال: زوجها غيرك والتمس لها من هو خير منك. وإن كانت دميمة ولا مال لها قال:تزوجها فأنت أحق بها"[١٣].

وقرأ أبو عبد الله المدني: «في ييامى النساء» بياءين[١٤].

قوله تعالى:{وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ}[النساء : ١٢٧]، "أي: ويفتيكم في المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم"[١٥].

قال الزجاج:" يعني: اليتامى"[١٦].

قال الزمخشري:" كانوا في الجاهلية إنما يورثون الرجال القوام بالأمور دون الأطفال والنساء"[١٧].

قوله تعالى:{وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ} [النساء : ١٢٧]، "أي: وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر"[١٨].

قال الزجاج:" المعنى: وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط"[١٩].

قال النسفي:أي:" ويأمركم أن تقوموا وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم بالعدل في ميراثهم ومالهم"[٢٠].

قوله تعالى:{وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا} [النساء : ١٢٧]، أي:" وما تفعلوه من عدلٍ وبرًّ في أمر النساء واليتامى فإن الله يجازيكم عليه"[٢١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٥٩):ص٢٦٢/٩.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٦١):ص٢٦٣/٩.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤٥):ص٢٥٥/٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٥٠)، و(١٠٥٥١):ص٢٥٧/٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤٦):ص٢٥٥/٩-٢٥٦، و(١٠٥٥٢):٢٥٧/٩.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٢٦٤/٩.
[٧] انظر: معاني القرآن:١١٥/٢.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٥٤):٢٥٨/٩.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٦٥):ص٢٦٤/٩.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٤٣):ص٢٥٤/٩-٢٥٥.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٦٣):ص٢٦٣/٩.
[١٢] تفسير الطبري:٢٦٤/٩.
[١٣] أخرجه الطبري(١٠٥٧٢):٢٦٦/٩.
[١٤] انظر: المحرر الوجيز:١١٨/٢.
[١٥] صفوة التفاسير:٢٨٣/١.
[١٦] معاني القرآن:١١٥/٢.
[١٧] الكشاف:٥٧٠/١.
[١٨] صفوة التفاسير:٢٨٣/١.
[١٩] معاني القرىن:١١٥/٢.
[٢٠] تفسير النسفي:٤٠٠/١.
[٢١] صفوة التفاسير:٢٨٣/١.

قال السمرقنديأي:" يجازيكم"[١].

قال البيضاوي:" وعد لمن آثر الخير في ذلك"[٢].

قال الطبري:أي:" ومهما يكن منكم، أيها المؤمنون، من عدل في أموال اليتامى، التي أمركم الله أن تقوموا فيهم بالقسط، والانتهاء إلى أمر الله في ذلك وفي غيره وإلى طاعته، {فإن الله} لم يزل عالمًا بما هو كائن منكم، وهو محصٍ ذلك كله عليكم، حافظ له، حتى يجازيكم به جزاءكم يوم القيامة"[٣].

الفوائد:

١- تقرير مبدأ إرث النساء والأطفال، والمحافظة على مال اليتامى وحرمة أكلها.

٢-في هذه الآية دليل على أن ما سوى الأب والجد إذا زوج اليتيمة جاز، وفيه أنه إذا زوج من نفسه جاز إذا كانت غير ذي رحم محرم[٤].

القرآن

{وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)} [النساء : ١٢٨]

التفسير:

وإن علمت امرأة من زوجها ترفعًا عنها، وتعاليًا عليها أو انصرافًا عنها فلا إثم عليهما أن يتصالحا على ما تطيب به نفوسهما من القسمة أو النفقة، والصلح أولى وأفضل. وجبلت النفوس على الشح والبخل. وإن تحسنوا معاملة زوجاتكم وتخافوا الله فيهن، فإن الله كان بما تعملون من ذلك وغيره عالمًا لا يخفى عليه شيء، وسيجازيكم على ذلك.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: أخرج البخاري[٥]، ومسلم[٦]، والنَّسَائِي[٧]، والطبري[٨]، وابن أبي حاتم[٩]، "عن عائشة عائشة -رضي الله عنها- في قوله -تعالى-: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا}: أُنزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، فيريد أن يطلقها ويتزوج غيرها؛ فتقول: لا تطلقني وأمسكني، وأنت في حلٍّ من النفقة والقسمة لي؛ فأنزل الله -جل وعز-: {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا}".[إسناده صحيح].

ولفظ ابن ماجه: عن عائشة أنها قالت: "نزلت هذه الآية: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} في رجل كانت تحته امرأة قد طالت صحبتها. وولدت منه أولادًا. فأراد أن يستبدل بها فراضته على أن تقيم عنده ولا يقسم لها"[١٠].[إسناده صحيح].

والثاني: أخرج أبو داود[١١]، وغيره[١٢]، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "يا ابن أُختي كان رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان

---

[١] بحر العلوم:٣٤٣/١.

[٢] تفسير البيضاوي:١٠٠/٢.

[٣] تفسير الطبري:٢٦٧/٩.

[٤] انظر: بحر العلوم:٣٤٣/١.

[٥] انظر: فتح الباري(٤٦٠١):ص٢٦٥/٨.

[٦] انظر: صحيح مسلم(٣٠٢١)"١٤":ص٢٣١٦/٤.

[٧] انظر: السنن الكبرى(١١٠٦٠):٧٤/١٠ واللفظ له، وهو أتم مما هو عند البخاري ومسلم.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٥٨٤)-(١٠٥٨٦):ص١٧٠/٩-٢٧٢.

[٩] تفسير ابن ابي حاتم(٦٠٤٥):ص١٠٨١/٤.

[١٠] سنن ابن ماجة(١٩٧٤):ص١٤٥/٣-١٤٦.

[١١] سنن ابي داود(٢١٣٥):٤٧٠/٣-٤٧١.

[١٢] وأخرجه أحمد في المسند(٢٤٧٦٥)، والحاكم في المستدرك: ١٨٦/٢، والطبراني في المعجم الكبير(٨١):ص: ٣١/٢٤ ، وابن مردويه كما في تفسير ابن كثير: ٤٢٦/٢، والبيهقي(٣٠٠):ص٧٤/٧-٧٥، وأبو بكر الجصاص في "أحكام القرآن" ٣/ ٣٦٨، من طريق ابن أبي الزناد، وإسناده حسن، لأن ابن أبي الزناد ثقة في هشام (تهذيب التهذيب: ١٧١/٦). وصححه الحاكم وسكت عنه الذهبي.

قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفَرِقت أن يفارقها رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: يا رسول اللَّه، يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - منها. قالت: نقول في ذلك أنزل اللَّه تعالى وفي أشباهها أراه قال: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا}". [إسناده حسن].

وفي السياق نفسه أخرج أبو داود[١]، والترمذي[٢]، والطبري[٣]، وابن أبي حاتم[٤]، عن ابن عبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال:"خشيت سودة أن يطلقها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فقالت: لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة، ففعل فنزلت: {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ}. فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز".[إسناده صحيح].

والثالث: أخرج عبدالرزاق[٥]،والبيهقي[٦]، والحاكم[٧]، الطبري[٨]، وابن ابي حاتم[٩]، وغيرهم[١٠]، عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار : "أنّ رافع بن خديج كان تحته امرأة قد خلا من سنها ، فتزوج عليها شابة ، فآثر الشابة عليها. فأبت امرأته الأولى أن تقيم على ذلك ، فطلقها تطليقة. حتى إذا بقي من أجلها يسير قال : إن شئت راجعتك وصبرتِ على الأثرة ، وإن شئت تركتك حتى يخلو أجلك! قالت : بل راجعني وأصبر على الأثرة! فراجعها ، ثم آثر عليها ، فلم تصبر على الأثرة ، فطلَّقها أخرى وآثر عليها الشابة. قال : فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله أنزل فيه :{وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا}".[إسناده صحيح].

والرابع: أخرج ابن ابي حاتم عن جرير بن حازم قال: "سمعت قيسا في قول الله: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا}، قال: نزلت في أبي السنابل بن بعكك[١١] أخي بني عبد الدار"[١٢]. وروي عن مجاهد[١٣]، نحو ذلك.

وله شاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما، حسنه الحافظ ابن حجر (الإصابة: ٣٣٨/٤)، وأصل القصة في صحيحي :البخاري، فتح الباري(٥٢١٢):ص ٣١٢/٩، ومسلم(١٤٦٣):ص١٠٨٥/٢.

[١] انظر: مسند ابي داود(٢٨٠٥):ص٤٠٣/٤.

[٢] سنن الترمذي(٣٠٤٠):ص٢٤٩/٥. وقال:" هذا حديث حسن صحيح غريب". واللفظ له.
صححه الألباني، انظر: صحيح وضعيف سنن الترمذي(٣٠٤٠):ص٤٠/٧، والإرواء(٢٠٢٠).

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٠٨):٢٧٧/٩. ورواية الطبري:" لا تُطَلِّقني وأمسكني ، واجعل يومي لعائشة. ففعل ، فنزلت هذه الآية : {وَإِنِ امرأةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أو إعراضًا}، الآية ، فما اصطلحا عليه من شَيءٍ فهو جائز " .

[٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٠٤٣):ص١٠٨٠/٤.

[٥] انظر: تفسير عبدالرزاق: (١٧٥):ص١/١.[إسناده صحيح]

[٦] السنن الكبرى(١٢٦١٤):ص:٤٥٢/٦، و(٢٩٦):ص٧٦/٧. [سياقه مرسل].

[٧] انظر: المستدرك:٣٠٨/٢-٣٠٩. وقال:" هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه". ووافقه الذهبي.

[٨] تفسير الطبري(١٠٦٠٠):ص٢٧٥/٩. [إسناده صحيح]

[٩] تفسير ابن ابي حاتم(٦٠٤١):ص١٠٨٠/٤. [سياقه مرسل].

[١٠]وأخرجه سعيد بن منصور في "سننه": (٧٠١) :ص٤/ ١٣٩٨، وابن أبي شيبة في "المصنف" :٤/ ٢٠٢، والشافعي في "الأم" :٥/ ١٧١، و"المسند":(٨٦):ص٢/ ٢٨، والواحدي في "أسباب النزول":١٨٥-١٨٦، و"الوسيط" :٢/ ١٢٤. جميعهم عن الزهري طريق سعيد بن المسيب:"أن رافع..".
ورجاله رجال الصحيح؛ لكن سياقه سياق المرسل.
وتقدم تخريجه موصولاً وهو صحيح، ولا معارضة بين الوصل والإرسال؛ فالزهري قد يكون نشط مرة؛ فرفعه، وأخرى لم يرفعه، والله أعلم.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٧١١) وزاد نسبته لمالك، وعبد بن حميد، وابن المنذر.
وهو في "الموطأ" (٢/ ٥٤٨، ٥٤٩ - رواية يحيى) عن الزهري عن رافع وهو منقطع.

[١١]-"أبو السنابل بن بعكك بن الحارث بن عميلة بن السباق بن عبد الدار القرشي"، هو صحابي من مسلمة الفتح، أخرج له له الترمذي، والنسائي وابن ماجه.
و"بعكك" (بفتح فسكون ففتح) على وزن"جعفر".

[١٢] تفسير ابن أبي حاتم(٦٠٣٨):ص١٠٧٩/٤.

[١٣] انظر: تفسير مجاهد:٢٩٤، وتفسير الطبري(١٠٦٠١):ص٢٧٦/٩.

والظاهر-والله أعلم- أنه لا تنافي بين هذه الأقوال، فإن حديث عائشة الأول مبهم وحديثها الثاني مفسر للإبهام، وأما حديث رافع، فإنما قال إنها شاملة لما فعل، والآية تشمل الجميع، وإنْ كان الأقرب أن سبب نزول الآية: ما ثبت عن عائشة - رضي الله عنها - من قولها الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها ويريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حلِّ، فنزلت الآية، وذلك لصحة سنده وموافقته للفظ الآية وتصريحه بالنزول [١].

قوله تعالى:{وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا} [النساء : ١٢٨]، أي:" وإن علمت امرأة من زوجها ترفعًا عنها، وتعاليًا عليها أو انصرافًا عنها"[٢].

قال الماوردي:" والنشوز: الترفع عنها لبغضها، والإعراض : أن ينصرف عن الميل إليها لمؤاخذة أو أثرة"[٣].

قال السمعاني:" النشوز: هو الارتفاع، والمراد به، ارتفاع الزوج، والتكبر بنفسه على الزوجة، ومنه النشز"[٤].

قال الزجاج:" النشوز من بعْلِ المرأة، أن يسيء عشرتها وأن يمنعها نفسه ونَفَقَتَه"[٥].

قال الكلبي:"يعني: ترك مجامعتها ومضاجعتها أو إعراضا عن مساكنتها، وعن مجالستها وعن محادثتها"[٦].

قال ابن عباس:" {نشوزا} يعني: البغض"[٧].

وقال عطاء:" النشوز: أن تحب فراقه، وإن لم يهوى في ذلك"[٨].

قال الزمخشري:" {خافت من بعلها}، توقعت منه ذلك، لما لاح لها من مخايله وأماراته. والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، وأن يؤذيها بسب أو ضرب، والإعراض: أن يعرض عنها بأن يقل محادثتها ومؤانستها، وذلك لبعض الأسباب من طعن في سن، أو دمامة، أو شيء في خلق أو خلق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى"[٩].

عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار:" أن السنة في الآية التي ذكر الله فيها نشوز المرء وإعراضه عن امرأته إن المرء إذا نشز عن امرأته أو أعرض عنها فإن من الحق عليه أن يعرض عليها أن يطلقها، أو تستقر عنده على ما رأت من أثرة في القسم من نفسه وماله"[١٠].

وإن قال قائل إنما قِيلَ: "{وإن امرأة خافت}، ولم يُقَلْ: وإنْ نَشَزَ رجُلٌ على المرأة، لأن الخائف للشيء ليس بمتيقنٍ له؟

فالجواب في هذا: إنْ خَافَتْ الإقامةَ منهُ على النشُوزِ والإعراضِ، وليس أن تخاف الإقامة إلا وقد بدا منه شيء"[١١]

قوله تعالى:{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا} [النساء : ١٢٨]، "أي: فلا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما"[١٢].

قال الزجاج:" واللَّه عز وجلَّ قال في النساءِ: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[١٣]، وقال: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}[١]، وقال: {وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا}[٢] ، فَشدد الله

---

[١] انظر: الصحيح المسند من اسباب النزول:٨٠، والمحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة:٤٥٢/١

[٢] التفسير الميسر:٩٩.

[٣] النكت والعيون:٥٣٣/١.

[٤] تفسير السمعاني:٤٨٦/١.

[٥] معاني القرآن:١١٥/٢.

[٦] تفسير الثعلبي:٣٩٤/٣.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٣٩):ص١٠٨٠/٤.

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٤٠):ص١٠٨٠/٤.

[٩] الكشاف:٥٧١/١.

[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٤١):ص١٠٨٠/٤.

[١١] معاني القرآن للزجاج:١١٦/٢.

[١٢] صفوة التفاسير:٢٨٣.

[١٣] [سورة النساء:١٩].

الله في العدل في أمر النساء فلَوْ لَمْ يعْلَم عزَّ وجلَّ أن رضَا المرأةِ مِنْ زوجِهَا بالإقامة على منعها - في كثير من الأوقاتِ - نفَسَه ومَنعِها بعض ما يَحْتَاج إليه لما جاز الإمساك إلا على غاية العدل والمعروف، فجعل الله عزَّ وجلَّ الصلحَ جائزاً بين الرجلِ وامرأتِهِ إذا رضِيت منه بإيثار غيرها عليه"[٣].

عن خالد بن عرعرة قال: "جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فسأله عن قول الله تبارك وتعالى: وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما قال علي: يكون الرجل عند المرأة فتنبوا عيناه عنها من دمامتها أو كبرها أو سوء خلقها أو قرها، فتكبره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئا (حل) له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج"[٤].

قال الزمخشري:" ومعنى الصلح: أن يتصالحا على أن تطيب له نفسا عن القسمة أو عن بعضها، كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله ﷺ وعرفت مكان عائشة من قلبه، فوهبت لها يومها [٥]،وكما روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد، فقالت: لا تطلقني ودعني أقوم على ولدى وتقسم لي في كل شهرين، فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إلى، فأقرها، أو تهب له بعض المهر، أو كله، أو النفقة فإن لم تفعل فليس له إلا أن يمسكها بإحسان أو يسرحها"[٦].

وقرئ: «أن يصالحا بينهما صلحا»، بمعنى: يتصالحا، ويصطلحا، يعني: بين الزوجين[٧].

قوله تعالى:{وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [النساء : ١٢٨]، أي:" والصلح أولى وأفضل"[٨].

قال الزجاج:" والصلح خير من الفرقة"[٩].

قال السمعاني:" وقيل: أراد به: الصلح خير من النشوز، والإعراض"[١٠].

قال الزمخشري:" والصلح خير من الفرقة أو من النشوز والإعراض وسوء العشرة. أو هو خير من الخصومة في كل شيء. أو الصلح خير من الخيور، كما أن الخصومة شر من الشرور وهذه الجملة اعتراض"[١١].

قال ابن عباس:" {والصلح خير}، وهو التخيير"[١٢].

قال ابن كثير:" والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج ، وقبول الزوج ذلك ، خير من المفارقة بالكلية ، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زَمْعة على أن تركت يومها لعائشة ، رضي الله عنها ، ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه ، وفعله ذلك لتتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه ، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام. ولما كان الوفاق أحب إلى الله -عز وجل- من الفراق قال : { وَالصُّلْحُ خَيْرٌ } بل الطلاق بغيض إليه ، سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[١٣]"[١].

---

[١] [سورة البقرة:٢٢٩].
[٢] [سورة البقرة:٢٣١].
[٣] معاني القرآن:٢/١١٥-١١٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٤٢):ص٤/١٠٨٠.
[٥]أخرجه الحاكم وغيره من حديث عائشة وهو في الصحيحين من رواية عروة عن عائشة قالت «ما رأيت امرأة أحب أن أكون مسلاجها من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حدة- الحديث». انظر: سبب نزول الآية.
[٦] الكشاف:١/٥٧١.
[٧] انظر: تفسير السمعاني:١/٤٨٦، والكشاف:١/٥٧١.
[٨] التفسير الميسر:٩٩.
[٩] معاني القرآن:٢/١١٦.
[١٠] تفسير السمعاني:١/٤٨٦.
[١١] الكشاف:١/٥٧١.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٤٦):ص٤/١٠٨٠.
[١٣]سنن أبي داود برقم (٢١٧٨)، وسنن ابن ماجة برقم (٢٠١٨) من حديث ابن عمر. وقال أبو حاتم : "إنما هو محارب عن النبي ﷺ مرسل" العلل (٤٣١/١) والطريق المرسلة رواها أبو داود في السنن برقم

قوله تعالى:{وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ} [النساء : ١٢٨]، أي:" أي جبلت الأنفس على الشح"[٢].

عن الضحاك قوله: "{وأحضرت الأنفس الشح}، قال: ألزمت"[٣].

قال الزجاج:" وهو أن المرأة تشح على مكانها من زوجها، والرجل يشح على المرأة بنفسه إن كان غيرها أحب إليه منها"[٤].

قال الطبري:اي:" وأحضرت أنفس النساء أهواءَهن ، من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن ، والشح بذلك على ضَرائرهن"[٥].

قال السمعاني:" والشح: البخل، وقيل: هو أقبح البخل، وحقيقته: الحرص على منع الخير، وأراد به: شح الزوجين على حقيهما"[٦].

قال الزمخشري:" معنى إحضار الأنفس الشح: أن الشح جعل حاضرا لها لا يغيب عنها أبدا ولا تنفك عنه، يعنى أنها مطبوعة عليه والغرض أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها"[٧].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ} [النساء : ١٢٨]، وجهان:

أحدهما : أنفس النساء أحضرت الشح عن حقوقهن من أزواجهن وأموالهن ، وهذا قول ابن عباس[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، وعطاء[١٠]، والسدي[١١].

والثاني : أحضرت نفس كل واحد من الرجل والمرأة الشح بحقه قبل صاحبه، وهو قول الحسن[١٢]، وابن سيرين[١٣]، وابن زيد[١٤].

والصواب-والله أعلم- أن المعنى:" أحضرت أنفس النساء الشحَّ بأنصبائهن من أزواجهن في الأيام والنفقة، لأن مصالحة الرجل امرأته بإعطائه إياها من ماله جُعْلا على أن تصفح له عن القسم لها ، غير جائزة. وذلك أنه غير معتاض عوضًا من جُعْله الذي بذله لها. والجُعل لا يصح إلا على عِوض : إما عين ، وإما منفعة. والرجل متى جعل للمرأة جُعْلا على أن تصفح له عن يومها وليلتها ، فلم يملك عليها عينًا ولا منفعة. وإذْ كان ذلك كذلك ، كان ذلك من معاني أكل المال بالباطل، وإذْ كان ذلك كذلك ، فمعلوم أنه لا وجه لقول من قال: عنى بذلك الرجل والمرأة"[١٥].

و "الشح": "الإفراط في الحرص على الشيء، وهو في هذا الموضع : إفراط حرصِ المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها"[١٦].

قال ابن عباس:" والشح ، هواه في الشيء يحرِص عليه"[١٧].

وقرأ العدو: {الشح} بكسر الشين، وهي لغة[١].

(٢١٧٧) وقد توسع الشيخ ناصر الألباني في الكلام على هذا الحديث في كتابه إرواء الغليل (٢٠٤٠) بما يكفي فليراجع.

[١] تفسير ابن كثير:٤٢٩/٢-٤٣٠.

[٢] صفوة التفاسير:٢٨٣.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٤٧):ص١٠٨٠/٤.

[٤] معاني القرآن:١١٦/٢.

[٥] تفسير الطبري:٢٨٢/٩.

[٦] تفسير السمعاني:٤٨٦/١.

[٧] الكشاف:٥٧١/١.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٠٩):ص٢٧٩/٩.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٦١٠):ص٢٧٩/٩-٢٨٠، و(١٠٦١٥)-(١٠٦٢٢):ص٢٨٠/٩-٢٨١.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٦١١)-(١٠٦١٤):ص٢٨٠/٩.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٢٣):ص٢٨١/٩.

[١٢] انظر: النكت والعيون:٥٣٣/١. ولم اقف عليه.

[١٣] انظر: التفسير البسيط للواحدي:١٣٢/٧. ولم اقف عليه.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٦١٠٦٢٤):ص٢٨١/٩-٢٨٢.

[١٥] تفسير الطبري:٢٨٢/٩.

[١٦] تفسير الطبري:٢٨٢/٩.

[١٧] أخرجه الطبري(١٠٦٢٥):ص٢٨٢/٩.

قوله تعالى:{وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا} [النساء : ١٢٨]، اي:" وإن تحسنوا معاملة زوجاتكم وتخافوا الله فيهن"[٢].

قال الزجاج:" أي: إن تحسنوا إليهن، وتحملوا عشرتهن"[٣].

قال السمرقندي:"يقول: تحسنوا إليهن وتتقوا الميل والجور"[٤].

قال ابن كثير:"أي: وإن تتجشموا مشقة الصبر على من تكرهون منهن ، وتقسموا لهن أسوة أمثالهن"[٥].

قال الطبري:اي:" وإن تحسنوا ، أيها الرجال ، في أفعالكم إلى نسائكم، إذا كرهتم منهن دَمامة أو خُلُقًا أو بعضَ ما تكرهون منهن بالصبر عليهن ، وإيفائهن حقوقهن وعشرتهن بالمعروف، وتتقوا الله فيهن بترك الجَوْر منكم عليهن فيما يجب لمن كرهتموه منهن عليكم ، من القسمة له ، والنفقة ، والعشرة بالمعروف"[٦].

قال الزمخشري:أي:" وإن تحسنوا بالإقامة على نسائكم وإن كرهتموهن وأحببتم غيرهن، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة وتتقوا النشوز والإعراض وما يؤدى إلى الأذى والخصومة"[٧].

قال الماتريدي:اي:" في أن تعطوهن أكثر من حقهن، وتتقوا في ألا تبخسوا من حقهن شيئا"[٨].

عن سعيد بن جبير: في قول الله تعالى: "{وتتقوا}، يعني: المؤمنين يحذرهم"[٩].

قال أبو حيان:" ندب تعالى إلى الإحسان في العشرة على النساء وإن كرهن مراعاة لحق الصحبة، وأمر بالتقوى في حالهن، لأن الزوج قد تحمله الكراهة للزوجة على أذيتها وخصومتها لا سيما وقد ظهرت منه أمارات الكراهة من النشوز والإعراض، وقد وصى النبي صلى الله عليه وسلم بهن «فإنهن عوان عند الأزواج»[١٠]"[١١].

قوله تعالى:{فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرً} [النساء : ١٢٨]، أي:" فإن الله كان بما تعملون من ذلك وغيره عالمًا لا يخفى عليه شيء، وسيجازيكم على ذلك"[١٢].

قال الماتريدي: معناه:" على الترغيب والوعيد"[١٣].

قال الزجاج:"أي: يخْبُرُ ذلك فيجازيكم عليه"[١٤].

قال السمرقندي:أي:" في الإحسان والجور"[١٥].

قال ابن كثير:أي:" فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء"[١٦].

---

[١] انظر: البحر المحيط:٨٨/٤.

[٢] التفسير الميسر:٩٩.

[٣] معاني القرآن:١١٦/٢.

[٤] بحر العلوم:٣٤٤/١.

[٥] تفسير ابن كثير:٤٣٠/٢.

[٦] تفسير الطبري:٢٨٣/٩.

[٧] الكشاف:٥٧١/١.

[٨] تفسير الماتريدي:٣٧٨/٣.

[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٥٥):ص١٠٨٢/٤.

[١٠] أخرج أحمد(١٥٥٩٢):ص٤٢٦/٣، و(١٦١٦١):ص٤٩٨/٣، وأبو داود(٣٣٣٤)، وابن ماجة(١٨٥١)،و(٢٦٦٩)، و(٣٠٥٥)، والترمذي(١١٦٣)، و(٣٠٨٧)، و(٢١٥٩)، والنسائي في الكبرى(٤٠٨٥)، و(١١١٤٩)، و(٩١٢٤)، من حديث عمرو بن الأحوص:" ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنما هن عوان عندكم..."الحديث. [في روايات مطولة ومختصرة].

وأخرج عبد حميد(٨٥٨) من حديث ابن عمر:"... أيها الناس إن النساء عندكم عوان أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن حق ولهن عليكم حق...". الحديث.

[١١] البحر المحيط:٨٨/٤.

[١٢] التفسير الميسر:٩٩.

[١٣] تفسير الماتريدي:٣٧٩/٣.

[١٤] معاني القرآن:١١٦/٢.

[١٥] بحر العلوم:٣٤٤/١.

[١٦] تفسير ابن كثير:٤٣٠/٢.

قال الزمخشري:أي:" {فإن الله كان بما تعملون} من الإحسان والتقوى {خبيرا}، وهو يثيبكم عليه"[1].

قال الطبري:أي:" فإن الله كان بما تعلمون في أمور نسائكم ، أيها الرجال ، من الإحسان إليهن والعشرة بالمعروف ، والجور عليهن فيما يلزمكم لهنّ ويجب، عالمًا خابرًا ، لا يخفي عليه منه شيء ، بل هو به عالم ، وله محصٍ عليكم ، حتى يوفِّيكم جزاءَ ذلك : المحسنَ منكم بإحسانه ، والمسيءَ بإساءته"[2].

وحكي أن "عمران بن حطان الخارجي كان من أدم بنى آدم، وامرأته من أجملهم، فأجالت في وجهه نظرها يوما ثم تابعت الحمد لله، فقال: مالك؟ قالت: حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة، قال: كيف؟ قالت: لأنك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت، وقد وعد الله الجنة عباده الشاكرين والصابرين"[3].

الفوائد:

١- استحباب الصلح بين الزوجين عند تعذر البقاء مع بعضهما إلا به.

٢- يؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحل حراما أو حرم حلالا فإنه لا يكون صلحا وإنما يكون جورا.

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان -مع ذلك- قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلبا له ورغبة فيه[4].

٣- أنه متى وفق الإنسان لهذه الخلق الحسن، وهو إزالة الشح من نفسه، سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر[5].

٤-أن الواجب علي الزوجة أن تتثبت فيما تراه من أمارات الإعراض من زوجها، فربما كان الذي شغله عن مسامرتها والرغبة عن مباعلتها، مسائل من مشاكل الحياة الدنيوية أو الدينية، وهى أسباب خارجية لا دخل له فيها، ولا تعلق لها بكراهتها والجفوة عنها، وحينئذ عليها أن تعذره، وتصبر على ما لا تحب من ذلك، أما إذا استبان لها أن ذلك لكراهته إياها ورغبته عنها[6].

٥- من أسماءه سبحانه«الخبير»: أي: العالم بما كان وما يكون.

قال الخطابي:" هو العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته"[7].

جاء في حديث عائشة رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ قال لها في قصة تتبعها له إلى البقيع: "ما لك يا عائش حشيا رابية؟" . قالت: قلت: لا شيء. قال: "لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير"[8].

---

[1] الكشاف:٥٧١/١.

[2] تفسير الطبري:٢٨٤/٩.

[3] انظر: الكشاف:٥٧٢/١، ومفاتيح الغيب:٢٣٧/١١، وتفسير النسفي:٤٠١/١، والبحر المحيط:٨٨/٤، وتفسير النيسابوري:٥١٠/٢، وروح البيان:٢٩٦/٢-٢٩٧، محاسن التاويل:٣٦٣/٣.

[4] انظر: تفسير السعدي:٢٠٦.

[5] انظر: تفسير السعدي:٢٠٦.

[6] انظر: تفسير المراغي:١٧١/٥.

[7] شأن الدعاء:٦٣.

[8] رواه مسلم (٩٧٤).

قال أبو هلال العسكري:" الفرق بين العلم والخبر: أن الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها؛ ففيه معنى زائد على العلم"[1].

القرآن

{وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)} [النساء : ١٢٩]

التفسير:

ولن تقدروا -أيها الرجال- على تحقيق العدل التام بين النساء في المحبة وميل القلب، مهما بذلتم في ذلك من الجهد، فلا تعرضوا عن المرغوب عنها كل الإعراض، فتتركوها كالمرأة التي ليست بذات زوج ولا هي مطلقة فتأثموا. وإن تصلحوا أعمالكم فتعدلوا في قَسْمكم بين زوجاتكم، وتراقبوا الله تعالى وتخشوه فيهن، فإن الله تعالى كان غفورًا لعباده، رحيمًا بهم.

سبب النزول:

قال أبو مليكة:" نزلت هذه الآية في عائشة:{وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ}"[2] .

قوله تعالى:{وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ} [النساء : ١٢٩]، أي:" ولن تقدروا -أيها الرجال- على تحقيق العدل التام بين النساء في المحبة وميل القلب، مهما بذلتم في ذلك من الجهد"[3].

قال الماوردي:" يعني: بقلوبكم ومحبتكم"[4].

قال السمرقندي:" يقول: لن تقدروا أن تسووا بين النساء في الحب بين الشابة والكبيرة ولو جهدتم، ولكن اعدلوا في القسمة والنفقة"[5].

قال الزمخشري:أي:" ومحال أن تستطيعوا العدل بين النساء والتسوية حتى لا يقع ميل البتة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، فرفع لذلك عنكم تمام العدل وغايته، وما كلفتم منه إلا ما تستطيعون بشرط أن تبذلوا فيه وسعكم وطاقتكم لأن تكليف ما لا يستطاع داخل في حد الظلم {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت : ٤٦]، وقيل: معناه أن تعدلوا في المحبة، وقيل: إن العدل بينهن أمر صعب بالغ من الصعوبة حدا يوهم أنه غير مستطاع، لأنه يجب أن يسوى بينهن في القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والممالحة والمفاكهة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد الحصر يأتى من ورائه، فهو كالخارج من حد الاستطاعة. هذا إذا كن محبوبات كلهن فكيف إذا مال القلب مع بعضهن!"[6].

قال ابو هلال العسكري:" أي: لا تطيقون ذلك في الحد، هذا في الرجل له زوجتان وثلاث وأربع، قال: وليس يستطيع أن يسوي بينهن في الشهوة، فتشتهي هذه كما تشتهي تلك؛ لأن الشهوة ليست من فعله فعذره فيما لا يستطيع واسع، وليس كما يذهب إليه المجبرة في أنه تعالى كلفه العدل بينهن، وهو لا يستطيعه، ألا ترى أن قوله: {فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ}، دلالة على أنه في بعض الميل معذور، وهو الذي لا يستطيع خلافه، والمعنى النهي عن إيثار إحداهن للشهوة فيها والانصراف عن الأخرى حتى تصير كالمعلقة لا المتزوجة ولا المطلقة"[7].

قال الراغب:" قوله: {وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ}، فإشارة إلى ما عليه جبلّة النّاس من الميل، فالإنسان لا يقدر على أن يسوّي بينهنّ في المحبّة"[8].

وفي قوله تعالى:{ وَلَوْ حَرَصْتُمْ} [النساء : ١٢٩]، ثلاثة أوجه:

---

[1] الفروق:١٥٢.
[2] أخرجه الطبري(١٠٦٣٨):٢٨٧/٩، وابن ابي حاتم(٦٠٥٦):ص١٠٨٣/٤.
[3] التفسير الميسر:٩٩.
[4] النكت والعيون:٥٣٣/١.
[5] بحر العلوم:٣٤٤/١.
[6] الكشاف:٥٧٢/١.
[7] الوجوه والنظائر:٦٧.
[8] المفردات في غريب القرآن:٥٥٢.

أحدها : ولو حرصتم أن تعدلوا في المحبة، وهو قول الحسن في احد قوليه[1]، ومجاهد[2]، وعبيدة السلماني في أحد قوليه[3].
والثاني : ولو حرصتم في الجماع ، وهو قول ابن عباس[4]، والضحاك[5]، وسفيان[6]، وابن زيد[7].
والثاني: ولو حرصتم أن تعدلوا في الحب والجماع. وهذا قول عبيدة السلماني[8]، وابن عباس في إحدى الروايات[9]، والحسن في إحدى الروايات[10].
قوله تعالى:{فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ} [النساء : ١٢٩]،أي:" فلا تعرضوا عن المرغوب عنها كل الإعراض "[11].
عن محمد قال: "سألت عبيدة عن قوله: { تميلوا كل الميل}، قال: بنفسه"[12].
عن مجاهد: "{فلا تميلوا كل الميل}، تعمد الإساءة"[13].
قال السدي:" يقول: يميل عليها ولا ينفق عليها ولا يقيم لها يوما"[14].
قال الضحاك:" يقول: فلا تمل إلى التي تحب كل الميل، ولكن اعدل في قسمة الليالي والنهار، والنفقة"[15].
قال مقاتل بن حيان:" يقول: لا تمل إلى الشابة كل الميل"[16].
قال الزمخشري:" فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمتها من غير رضى منها، يعنى: أن اجتناب كل الميل مما هو في حد اليسر والسعة فلا تفرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كله. وفيه ضرب من التوبيخ "[17].
عن عائشة قالت: "كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»"[18]. قال الزمخشري:" يعنى: المحبة، لأن عائشة رضى الله عنها كانت أحب إليه"[19].
وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال :«من كانت له امرأتان، يميل لإحداهما على الأخرى، جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط»[1].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٣١):ص٩/٢٨٥.
[2] انظر: النكت والعيون:١/٥٣٣.
[3] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٣٣):ص٩/٢٨٥-٢٨٦.
[4] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٣٤):ص٩/٢٨٦.
[5] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٤٠):ص٩/٢٨٧.
[6] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٤١):ص٩/٢٨٧.
[7] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٤٢):ص٩/٢٨٧.
[8] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٢٧)-(١٠٦٣٠)، و(١٠٦٣٢):ص٩/٢٨٥.
[9] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٣٦):ص٩/٢٨٦.
[10] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٠٥٧):ص٤/١٠٨٣. ذكره دون ذكر السند.
[11] التفسير الميسر:٩٩.
[12] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٥٩):ص٤/١٠٨٣.
[13] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٦٠):ص٤/١٠٨٣.
[14] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٦١):ص٤/١٠٨٣.
[15] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٦٢):ص٤/١٠٨٣.
[16] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٦٣):ص٤/١٠٨٤.
[17] الكشاف:١/٥٧٢.
[18]أخرجه أبو داود في النكاح، باب في القسم بين النساء: ٣ / ٦٣ - ٦٤ عن عائشة، والترمذي في النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر: ٤ / ٢٩٤، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض: ٧ / ٦٣ - ٦٤ وابن ماجه في النكاح، باب القسم بين النساء برقم (١٩٧١) : ١ / ٦٣٣ ٢ وصححه ابن حبان برقم (١٣٠٥) ص (٣١٧) من موارد الظمآن، وصححه الحاكم على شرط مسلم: ٢ / ١٨٧ ووافقه الذهبي، والدارمي في النكاح، باب القسمة بين النساء: ٢ / ١٤٤. وانظر: شرح السنة: ٩ / ١٥١ وذكر الترمذي والنسائي إنه روى مرسلا وذكر الترمذي أن المرسل أصح.
قال ابن كثير في تفسيره:٣٩٦/٦:" ورواه أهل السنن الأربعة من حديث حماد بن سلمة، وزاد أبو داود بعد قوله «فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات".
[19] الكشاف:١/٥٧٣.

وعن ناشرة بن سمي اليزني، قال: "سمعت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقول، في يوم الجابية، وهو يخطب الناس: إن الله، عز وجل، جعلني خازنا لهذا المال وقاسما له، ثم قال: بل الله يقسمه، وأنا بادئ بأهل النبي ﷺ، ثم أشرفهم، ففرض لأزواج النبي ﷺ عشرة آلاف، إلا جويرية وصفية وميمونة، فقالت عائشة: إن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا، فعدل بينهن عمر"[٢].

وذكر أنه "كان لمعاذ امرأتان، فإذا كان عند إحداهما لم يتوضأ في بيت الأخرى، فماتتا في الطاعون فدفنهما في قبر واحد"[٣].

قوله تعالى:{فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ} [النساء : ١٢٩]، أي:" فتتركوها كالمرأة التي ليست بذات زوج ولا هي مطلقة فتأثموا"[٤].

قال ابن عباس: تذروها لا هي أيّم ، ولا هي ذات زوج"[٥].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أيضا:" لا مطلقة ولا ذات بعل"[٦]. وروي عن سعيد بن جبير[٧]، والحسن[٨]، والربيع بن أنس[٩]، ومجاهد[١٠]، ابن ابي نجيح[١١]، والسدي[١٢]، نحو ذلك.

وقال قتادة:" كالمسجونة المشحونة"[١٣].

وقال ابن زيد:" {المعلقة}، التي ليست بمُخَلاة ونفسها فتبتغي لها ، وليست متهيئة كهيئة المرأة من زوجها ، لا هي عند زوجها ، ولا مفارقة ، فتبتغي لنفسها. فتلك {المعلقة}[١٤].

قال الزمخشري:" {فتذروها كالمعلقة}، وهي التي ليست بذات بعل ولا مطلقة قال[١٥]:

هل هى إلا حظة أو تطليق أو صلف أو بين ذاك تعليق

وفي قراءة أبى: «فتذروها كالمسجونة»"[١٦].

وقرأ عبد الله بن مسعود: «فتذروها كأنها معلقة»[١٧].

---

[١] أخرجه ابن أبي شيبة(١٧٥٤٨):ص٣٨٨/٤، وأحمد في المسند(٧٩٢١):ص٢٩٥/٢، و(٨٥٤٩):ص٣٤٧/٢، و(١٠٠٩٢):ص٤٤٧١/٢، والدارمي(٢٢٠٦)، وأبو داود(٢١٣٣)، وابن ماجة(١٩٦٩)، والترمذي(١١٤١)، والنسائي(٦٣/٧، وفي الكبرى(٨٨٣٩)، وابن حبان(٤٢٠٧)، و، والطبري في تفسيره(١٠٦٥٨):٢٩٠/٩.

[٢] أخرجه احمد (١٦٠٠٠):ص٤٧٥/٣، والنسائي في الكبرى(٨٢٢٥).

[٣] أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة معاذ من رواية الليث عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل- فذكره- وزاد: فأسهم بينهما أيهما تقدم وهذا مرسل.

[٤] التفسير الميسر:٩٩.

[٥] أخرجه الطبري(١٠٦٥٩):ص٢٩٠/٩.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٦٣):ص١٠٨٤/٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٦٠):ص٢٩٠/٩-٢٩١.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٦١):ص٢٩١/٩.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٦٥)(١٠٦٦٦):ص٢٩١/٩.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٦٧):ص٢٩١/٩.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٦٨):ص٢٩٢/٩.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٧٠):ص٢٩٢/٩.

[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم٦٠٦٥):ص١٠٨٤/٤.

[١٤] أخرجه الطبري(١٠٦٧١):ص٢٩١/٩.

[١٥] هذا الرجز منسوب لامرأة يقال لها ابنة الحمارس (بضم الحاء وتخفيف الميم) البكرية. انظر البيت في: المعاني الكبير في ابيات المعاني لابن قتيبة:٥١٦/١، وغريب الحديث لابن قتيبة:٢٠٨/١، وتاج اللغة(هلل):ص١٨٥٣/٥، و"خطأ":٢٣١٥/٦، و"ها":ص٢٥٥٨/٦، واللسان"فصل الها":ص٧٠٩/١١، و"ها":ص٤٧٩/١٥، وتاج العروس"ح و ق":ص٢١٠/٢٥، و"ها":ص٥٣٩/٤٠.

والحظة (بكسر الحاء) والحظوة (بضم الحاء وكسرها) المكانة والقبول عند الزوج.

والاستفهام إنكارى، أى ليست حالة الزوجة مع زوجها إلا حظة صغيرة بحظوة الزوج بها، أو تطليق لها مع الزوج، أو صلف- أى عدم حظوة من الزوج بها- وصلفت صلفا من باب تعب. ونساء صالفات وصلائف، لم يحظهن الزوج، أو تعليق بين ذلك المذكور من الأحوال. وتسبيغ مشطور الرجز بزيادة ساكن في آخره- كما هنا- قليل. انظر: تفسير الكشاف:٥٧٢/١، والبحر المحيط:٨٠/٤، والتحرير والتنوير:٢١٨/٥.

[١٦] الكشاف:٥٧٢/١.

[١٧] انظر: المحرر الوجيز:١٢١/٢.

قوله تعالى:{وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا} [النساء : ١٢٩]، أي:" وإن تصلحوا أعمالكم فتعدلوا في قَسْمكم بين زوجاتكم، وتراقبوا الله تعالى وتخشوه فيهن"[١].

قال سعيد بن جبير:" تصلحوا بين الناس"[٢].

قال الزمخشري:" {وإن تصلحوا}، ما مضى من ميلكم وتتداركوه بالتوبة، {وتتقوا}، فيما يستقبل"[٣].

قال ابن عطية:" أي وإن تلتزموا ما يلزمكم من العدل فيما تملكون"[٤].

قوله تعالى:{فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ١٢٩]، أي:" فإن الله تعالى كان غفورًا لعباده، رحيمًا بهم"[٥].

قال الزمخشري:"غفر الله لكم"[٦].

قال الواحدي:" لما ملت إلى التي تحبُّها بقلبك"[٧].

قال الطبري:"يقول : فإن الله يستر عليكم ما سلف منكم من ميلكم وجوركم عليهن قبل ذلك ، بتركه عقوبتكم عليه ، ويغطِّي ذلك عليكم بعفوه عنكم ما مضى منكم في ذلك قبل، وكان رحيمًا بكم ، إذ تاب عليكم ، فقبل توبَتكم من الذي سلف منكم من جوركم في ذلك عليهن ، وفي ترخيصه لكم الصلح بينكم وبينهن ، بصفحهن عن حقوقهن لكم من القَسْم على أن لا يطلَّقن"[٨].

قال ابن عطية:" فعلى [قول الطبري]، فهي مغفرة مخصصة لقوم بأعيانهم، واقعوا المحظور في مدة النبي ﷺ"[٩].

الفوائد:

١-تعذر العدل بين الزوجين في الحب والوطء استلزم عدم المؤاخذة به واكتفى الشارع بالعدل في الفراش، والطعام والشراب والكسوة والمعاشرة بالمعروف.

٢- الترغيب في الإصلاح والتقوى وفعل الخيرات.

٣-إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما: «الغفور» و«الرحيم»:

و«الغفور»: "من أبنية المبالغة؛ فالله عز وجل غفور؛ لأنه يفعل ذلك لعباده مرة بعد مرة إلى ما لا يحصى، فجاءت هذه الصفة على أبنية المبالغة لذلك، وهو متعلق بالمفعول؛ لأنه لا يقع الستر إلا بمستور يستر ويغطى، وليست من أوصاف المبالغة في الذات، إنما هي من أوصاف المبالغة في الفعل"[١٠].

واسم «الرحيم» يتضمن صفة الرحمة التي تعم عباده المؤمنين فحسب بأن هداهم إلى الإيمان في الدنيا، وهو يثيبهم في الآخرة الثواب الدائم الذي لا ينقطع، إذ يقول سبحانه: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب آية ٤٣].

وأن اقتران اسم«الغفور» باسم«الرحيم» يفيد أنه سبحانه يغفر للمستغفرين والتائبين لأنه واسع الرحمة. بمعنى أنه يغفر لمن تاب إليه وأناب رحمة منه لهذا العبد، لأنه لو لم يرحمه ويتداركه بمغفرته لهلك وخسر. ولهذا يشير قوله تعالى: {قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣]، وقوله: {وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [هود : ٤٧][١١].

---

[١] التفسير الميسر:٩٩.

[٢] اخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٦٦):ص١٠٨٤/٤.

[٣] الكشاف:٥٧٣/١.

[٤] المحرر الوجيز:١٢١/٢.

[٥] التفسير الميسر:٩٩.

[٦] الكشاف:٥٧٣/١.

[٧] الوجيز:٢٩٣.

[٨] تفسير الطبري:٢٩٣/٩.

[٩] المحرر الوجيز:١٢١/٢.

[١٠] اشتقاق أسما الله، الزجاجي:٩٣.

[١١] انظر: مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع٤٥:ص٩٤، وع٤٦:ص٧٢-٧٣.

القرآن

{وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)} [النساء : ١٣٠]

التفسير:

وإن وقعت الفرقة بين الرجل وامرأته، فإن الله تعالى يغني كلا منهما من فضله وسعته؛ فإنه سبحانه وتعالى واسع الفضل والمنة، حكيم فيما يقضي به بين عباده.

قوله تعالى:{وَإِنْ يَتَفَرَّقَا} [النساء : ١٣٠]، أي:" وإن وقعت الفرقة بين الرجل وامرأته"[١].

عن مجاهد قوله: "{وإن يتفرقا}، قال: الطلاق، يغن الله كلا من سعته"[٢].

قال السمعاني:" يعني: الزوجين إذا تفرقا"[٣].

قال البغوي:" يعني: الزوج والمرأة بالطلاق"[٤].

قال ابن عطية:" أي: إن شح كل واحد منهما فلم يتصالحا لكنهما تفرقا بطلاق"[٥].

وقرئ: «وإن يتفارقا»، بمعنى: وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه[٦].

قال الماتريدي:" أي: الزوجان إن تفرقا؛ لما لم يقدر الزوج على التسوية بينهن"[٧].

قوله تعالى:{يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ} [النساء : ١٣٠]، أي:" فإن الله تعالى يغني كلا منهما من فضله وسعته"[٨].

قال السمعاني:" يعني: فالزوج يجد الزوجة، والزوجة تجد الزوج"[٩].

قال البغوي: يعني: "من رزقه، يعني: المرأة بزوج آخر والزوج بامرأة أخرى"[١٠].

قال الزمخشري:أي:" يرزقه زوجا خيرا من زوجه وعيشا أهنأ من عيشه، والسعة: الغنى والمقدرة"[١١].

قال الماتريدي:" المرأة تتزوج آخر، والرجل بامرأة أخرى، ويحتمل أن كل واحد منهما -وإن كان غنيا بالآخر في حال النكاح- فالله قادر على أن يغني كل واحد منهما بعد الافتراق، كما كان يرزق قبل الفراق "[١٢].

قال الجصاص:" تسلية لكل واحد منهما عن الآخر وأن كل واحد منهما سيغنيه الله عن الآخر إذا قصدا الفرقة، تخوفا من ترك حقوق الله التي أوجبها؛ وأخبر أن رزق العباد كلهم على الله وأن ما يجريه منه على أيدي عباده فهو المسبب له والمستحق للحمد عليه"[١٣].

قال ابن عطية:" فإن الله تعالى يغني كل واحد منهما عن صاحبه بفضله ولطائف صنعه، في المال والعشرة، والسعة وجود المرادات والتمكن منها، وذهب بعض الفقهاء المالكيين إلى أن التفرق في هذه الآية هو بالقول، إذ الطلاق قول"[١٤].

واحتج بهذه على قول النبي ﷺ «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»[١٥]، إذ مذهب مالك في الحديث أنه التفرق بالقول لا بالبدن[١].

---

[١] التفسير الميسر:٩٩.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠٦٨):ص١٠٨٤/٤.
[٣] تفسير السمعاني:٤٨٧/١.
[٤] تفسير البغوي:٢٩٦/٢.
[٥] المحرر الوجيز:١٢١/٢.
[٦] انظر: الكشاف:٥٧٣/١.
[٧] تفسير الماتريدي:٣٨١/٣.
[٨] التفسير الميسر:٩٩.
[٩] تفسير السمعاني:٤٨٧/١.
[١٠] تفسير البغوي:٢٩٦/٢.
[١١] الكشاف:٥٧٣/١.
[١٢] تفسير الماتريدي:٣٨١/٣.
[١٣] أحكام القرآن:٣٥٦/٢.
[١٤] المحرر الوجيز:١٢١/٢.
[١٥]صحيح البخاري برقم (٢١٠٩) وصحيح مسلم برقم (١٥٣١) .

قال القاضي ابن عطية:" ولا حجة في هذه الآية، لأن إخبارها إنما هو من افتراقهما بالأبدان، وتراخي المدة بزوال العصمة، و «الإغناء» إنما يقع في ثاني حال، ولو كانت الفرقة في الآية الطلاق لما كان للمرأة فيها نصيب يوجب ظهور ضميرها في الفعل، وهذه نبذة من المعارضة في المسألة"[٢].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا} [النساء : ١٣٠]، أي:" فإنه سبحانه وتعالى واسع الفضل والمنة، حكيم فيما يقضي به بين عباده"[٣].

قال البغوي:" واسع الفضل والرحمة، {حكيما} فيما أمر به ونهى عنه"[٤].

قال السمرقندي:" {واسعا}، يعني: واسع الفضل، {حكيما}: حكم بفرقتهما وتسويتهما"[٥].

قال الماتريدي:" قيل: {واسعا}: جودا، وقيل: {واسعا}: يوسع على كل منهما رزقه، {حكيما} حكم على الزوج: إمساكا بمعروف أو تسريحا بإحسان، وقيل: {حكيما}؛ حيث حكم فرقتهما، وأصل الحكيم: أن يضع كل شيء موضعه"[٦].

وقال الزمخشري:"«الواسع»: الغنى المقتدر"[٧].

قال ابن عطية:" «الواسع» معناه: الذي عنده خزائن كل شيء"[٨].

قال الراغب:" الواسع: عام في الغنى، والقدرة، والعلم، وعقبه بالحكم، منبها أن السعة ما لم يكن معها الحكمة، والعلم، كان إلى الفساد أقرب منها إلى الصلاح"[٩].

قال مكي:" «الواسع»: الكثير العطايا، وقيل: الواسع: المحيط بكل شيء، ومنه قوله تعالى: {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} [طه: ٩٦] أي: أحاط به، وقال أبو عمرو في {واسع}، {كريم}، قال: الواسع: الغني، والكريم: الجواد"[١٠].

الفوائد:

١-.في الآية دليل قطع طمع الارتزاق من غير الله، وإن جاز أن يجعل غيره سببا في ذلك؛ لأنه قال - عز وجل -: {وإن يتفرقا يغن الله}؛ ليعلم كل أن غناه لم يكن بالآخر؛ حيث وعد لهما الغناء، وكذلك في قوله - تعالى -: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [النور : ٣٢]، دليل قطع طمع الارتزاق بعضهم من بعض في النكاح؛ لما وعد لهم الغناء إذا كانوا فقراء[١١].

٢-وفيه دليل وقوع الفرقة بين الزوجين بالمرأة، بالمكنى من الكلام؛ لمشاركتهما فيه، وإن كان الزوج هو المنفرد بالفراق؛ لما أضاف الفعل إليهما بقوله: {وإن يتفرقا يغن الله} وكذلك قوله - تعالى -: { فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [الطلاق : ٢]، و { وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} [الأحزاب : ٤٩][١٢].

٣-وفي الآية دليل لزوم النفقة في العدة؛ لأنه ذكر الافتراق، والفراق إنما يكون بانقضاء العدة، ثم أخبر - عز وجل - عن غناء كل واحد منهما بالآخر قبل الفراق؛ دل أن للمرأة غناء بالزوج ما دامت بالعدة[١٣].

٤- الفرقة بين الزوجين إن كانت على مبدأ الإصلاح والتقوى أعقبت خيراً عاجلاً آجلاً.

---

[١] المحرر الوجيز:١٢١/٢.
[٢] المحرر الوجيز:١٢١/٢.
[٣] التفسير الميسر:٩٩.
[٤] تفسير البغوي:٢٩٦/٢.
[٥] تفسير السمرقندي:٣٤٥/١.
[٦] تفسير الماتريدي:٣٨١/٣.
[٧] الكشاف:٥٧٣/١.
[٨] المحرر الوجيز:١٢١/٢.
[٩] تفسير الراغب الاصفهاني:١٨٦/٤.
[١٠] الهداية في بلوغ النهاية:١٤٩١/٢.
[١١] انظر: تفسير الماتريدي:٣٨١/٣.
[١٢] انظر: تفسير الماتريدي:٣٨١/٣.
[١٣] انظر: تفسير الماتريدي:٣٨١/٣.

القرآن

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١)} [النساء : ١٣١]

التفسير:

ولله ملك ما في السموات وما في الأرض وما بينهما. ولقد عهدنا إلى الذين أُعطوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى، وعهدنا إليكم كذلك -يا أمة محمد- بتقوى الله تعالى، والقيام بأمره واجتناب نهيه، وبيَّنَّا لكم أنكم إن تجحدوا وحدانية الله تعالى وشرعه فإنه سبحانه غني عنكم؛ لأن له جميع ما في السموات والأرض. وكان الله غنيّاً عن خلقه، حميدًا في صفاته وأفعاله.

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [النساء : ١٣١]، أي:" ولله ملك ما في السموات وما في الأرض وما بينهما"[١].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ، وأنه الحاكم فيهما"[٢].

قال البيضاوي:" تنبيه على كمال سعته وقدرته"[٣].

قوله تعالى:{وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} [النساء : ١٣١]،أي:" ولقد عهدنا إلى الذين أُعطوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى، وعهدنا إليكم كذلك -يا أمة محمد- بتقوى الله تعالى، والقيام بأمره واجتناب نهيه"[٤].

قال ابن كثير:" أي: وصيناكم بما وصيناهم به ، من تقوى الله ، عز وجل ، بعبادته وحده لا شريك له"[٥].

قال الماتريدي:" قيل: أي: أمرناهم أن يوحدوا الله ويتقوا الشرك. قيل: {وصينا}: أمرنا. وقيل: فرضنا"[٦].

قال الثعلبي:" { أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ }، يعني: أهل التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة على الإسلام، {وَإِيَّاكُمْ} يا أهل القرآن في كتابكم، {أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ}، أي: وحّدوا الله وأطيعوه ولا تشركوا به شيئا"[٧].

قال القرطبي:" أي: الأمر بالتقوى كان عاما لجميع الأمم"[٨].

وفي هذا المعنى قال سفيان الثوري:" إنك إن اتقيت الله كفاك الله ما همك، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا"[٩].

قوله تعالى:{وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [النساء : ١٣١]، أي:" وبيَّنَّا لكم أنكم إن تجحدوا وحدانية الله تعالى وشرعه فإنه سبحانه غني عنكم؛ لأن له جميع ما في السموات والأرض"[١٠].

قال البيضاوي:" أي: وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا فإن الله مالك الملك كله، لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم، وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجته"[١١].

قال الثعلبي: "{وَإِنْ تَكْفُرُوا}، بما أوصاكم الله به، فإن لله ملائكة هم أطوع له منكم"[١٢].

---

[١] صفوة التفاسير:٢٨٤/١.
[٢] تفسير ابن كثير:٤٣١/١.
[٣] تفسير البيضاوي:١٠١/٢.
[٤] صفوة التفاسير:٢٨٤/١.
[٥] تفسير ابن كثير:٤٣١/١.
[٦] تفسير الماتريدي:٣٨٢/٣.
[٧] الكشف والبيان:٣٩٨/٣.
[٨] تفسير القرطبي:٤٠٨/٥.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٦٨):ص١٠٨٤/٤-١٠٨٥.
[١٠] صفوة التفاسير:٢٨٤/١.
[١١] تفسير البيضاوي:١٠٢/٢.
[١٢] الكشف والبيان:٣٩٨/٣.

قال الماتريدي:" ذكر هذا على أثر قوله: {ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله}؛ ليعلموا أنه لم يأمرهم بذلك لحاجة له في عبادتهم، ولم يأمر لمنفعة نفسه؛ إذ من له ملك ما في السماوات وما في الأرض لا يحتاج إلى آخر ينتفع به؛ ولكن ليعلموا أنه - تعالى - إنما أمرهم بذلك لحاجتهم في ذلك، ولمنفعة أنفسهم"[1].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا} [النساء : ١٣١]، أي:" وكان الله غنيّاً عن خلقه، حميدًا في صفاته وأفعاله"[2].

قال الثعلبي:أي:" غير محتاج إلى شيء ممّا في أيديهم، والغنيّ القادر على ما يريد"[3].

قال البيضاوي:أي:"{غنيا} عن الخلق وعبادتهم. {حميدا} في ذاته حمد أو لم يحمد"[4].

قال ابن كثير:" أي : غني عن عباده ، { حَمِيدٌ } أي : محمود في جميع ما يقدره ويشرعه"[5].

قال الماتريدي:أي:"{غنيا} عن عبادتكم له وطاعتكم إياه، و{حميدا} في سلطانه، ويكون غنيا عن خلقه في الأزل، حميدا في فعله، وذلك الحميد في الفعل يخرج على إتقان الفعل وإحكامه، أو على إحسانه إلى خلقه، وإنعامه عليهم"[6].

وقال البراء بن عازب: "{وكان الله غنيا}، يعني: قال: عن صدقاتكم"[7].

وقال مقاتل بن حيان: "{وكان الله غنيا}: في سلطانه عما عندكم"[8].

وقال علي:"{وكان الله غنيا حميدا}، أي: قال: متحمدا إلى خلقه"[9].

قال ابن عطية: الآية" تنبيه على موضع الرجاء لهذين المفترقين، ثم جاء بعد ذلك قوله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض تنبيها على استغنائه عن العباد، ومقدمة للخبر بكونه غنيا حميدا"[10].

قال القرطبي:" وقال بعض العارفين: هذه الآية هي رحى آي القرآن، لأن جميعه يدور عليها"[11].

قال الطبري:" وإنما وبخ جل ثناؤه بهذه الآيات ، الخائنين الذين خانوا الدِّرع التي وصفنا شأنها ، الذين ذكرهم الله في قوله :{وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا}[سورة النساء : ١٠٥] وحذر أصحاب محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم ، وأن يفعلوا فعل المرتدِّ منهم في ارتداده ولحاقه بالمشركين وعرَّفهم أن من فعل فعله منهم ، فلن يضر إلا نفسه ، ولن يوبق بردَّته غير نفسه ، لأنه المحتاج - مع جميع ما في السموات وما في الأرض - إلى الله ، والله الغني عنهم"[12].

قال مكي:" كرر تعالى ذكره، ذكر كون ما في السموات وما في الأرض أنه له، في ثلاثة مواضع متوالية، وفي كل آية معنى من أجله وقع التكرير:

١ - أما الأول فإن الله جل ذكره نبه الخلق على ملكه بعقب قوله: {وَكَانَ الله وَاسِعاً}، فأخبر أن من سعته أن له ما في السموات والأرض، وفي هذا تقوية لقول أبي عمرو: أن الواسع: الغني، ثم رجع تعالى بعد إعلامه إيانا، وتنبيهه على ملكه إلى إعلامه إيانا أنه قد وصى من كان قبلنا بتقواه كما وصانا بالتقوى في الأزواج وغيرها، والذين من قبلنا من أهل الكتاب وصاهم بذلك في التوراة والإنجيل، وصانا نحن في القرآن بالتقوى أيضاً، فقال: {أَنِ اتقوا الله}.

---

[1] تفسير الماتريدي:٣٨٢/٣.
[2] صفوة التفاسير:٢٨٤/١.
[3] الكشف والبيان:٣٩٨/٣.
[4] تفسير البيضاوي:١٠٢/٢.
[5] تفسير ابن كثير:٤٣١/١.
[6] تفسير الماتريدي:٣٨٢/٣.
[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٦٩):ص١٠٨٥/٤.
[8] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٧٠):ص١٠٨٥/٤.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٧١):ص١٠٨٥/٤.
[10] المحرر الوجيز:١٢٢/٢.
[11] تفسير القرطبي:٤٠٨/٥.
[12] تفسير الطبري:٢٩٨/٩.

٢ - ثم قال: {وَإِن تَكْفُرُواْ} كما كفر أهل الكتاب {فَإِنَّ للهِ مَا فِي السماوات [وَمَا فِي الأرض]} إنه لا يضره كفرهم إذ له كل شيء، كما لم يضره ما فعل أهل الكتاب في مخالفتهم أمره، {وَكَانَ الله غَنِيّاً} أي غني عن خلقه، فأخبرنا في هذه الآية بغناه عنا، وحاجتنا إليه.
٣ - [ثم] أعلمنا في الآية الثالثة بحفظه لنا، وعلمه بنا فقال {وَللهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وكفى بالله وَكِيلاً} أي كفى به حفيظاً[١].

فهذا فائدة التكرير أنه تعالى نبهنا على ملكه، وسعته بعد قوله {وَكَانَ الله وَاسِعاً}. فأعلمنا أنه من سعة ملكه أن له ما في السموات وما في الأرض.

وأعلمنا في الثانية بحاجتنا إليه، وغناه عنا.

وفي الثالثة أعلمنا بحفظه لنا وعلمه بتدبيرنا"[٢].

الفوائد:

١- أن الله تعالى أخبر عن عموم ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدرا وشرعا، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب[٣].

٢-الوصية بالتقوى، وذلك بترك الشرك والمعاصي بعد الإيمان وعمل الصالحات.

٣-إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما: «الغني»،«الحميد»:

فـ«الغني»، صفة ذاتية ثابتة لله تعالى، وهو من أسمائه تعالى، "فله سبحانه الغنى التام المطلق من كل وجه؛ بحيث لا تشوبه شائبة فقر وحاجة أصلا، وذلك لأن غناه وصف لازم له، لا ينفك عنه؛ لأنه مقتضى ذاته، وما بالذات لا يمكن أن يزول؛ فيمتنع أن يكون إلا غنيا كما يمتنع أن يكون إلا جوادا محسنا برا رحيما كريما"[٤].

جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "بينا أيوب عليه السلام يغتسل عريانا ... فناداه ربه عز وجل: يا أيوب! ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك ... "[٥].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ... "[٦].

و«الحميد»: اسم من اسمائه سبحانه، قالابن الاثير:" الحميد: المحمود، الذي استحق الحمد بفعله، وهو فعيل بمعنى مفعول"[٧].

جاء في حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه في التشهد:" ... قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد"[٨].

قال السعدي:" ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولا شريكا في ملكه ولا ظهيرا، ولا معاونا له على شيء من تدابير ملكه.

ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي في جميع أحوالهم وشئونهم إليه وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة وأغناهم وأقناهم، ومن عليهم بلطفه وهداهم.

---

[١] سوف ياتي تفسيره.
[٢] الهداية إلى بلوغ النهاية:١٤٩١/٢-١٤٩٢.
[٣] انظر: تفسير السعدي:٢٠٧.
[٤] شرح نونية ابن القيم:٧٤/١.
[٥] رواه البخاري(٢٧٩).
[٦]رواه مسلم (٢٩٨٥).
[٧] جامع الاصول:١٨٠/٤.
[٨]رواه: البخاري (٣٣٧٠) ، ومسلم (٤٠٦).

وأما «الحميد» فهو من أسماء الله تعالى الجليلة الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين {الغني الحميد} !! فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على تنفيذه وتدبيره، وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزه عن كل نقص"[١].

القرآن

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢)} [النساء : ١٣٢]

التفسير:

ولله ملك ما في هذا الكون من الكائنات، وكفى به سبحانه قائمًا بشؤون خلقه حافظًا لها.

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [النساء : ١٣٢]، أي:" ولله ملك ما في هذا الكون من الكائنات"[٢].

قال الطبري:اي:" ولله ملك جميع ما حوته السموات والأرض"[٣].

قال عثمان بن سعيد:" قال جبريل:يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم"[٤].

قوله تعالى:{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [النساء : ١٣٢]، أي:" وكفى به سبحانه قائمًا بشؤون خلقه حافظًا لها"[٥].

قال الطبري:اي:" وهو القيّم بجمعيه، والحافظ لذلك كله ، لا يعزب عنه علم شيء منه ، ولا يؤوده حفظه وتدبيره"[٦].

قال ابن كثير:" أي:هو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب الشهيد على كل شيء"[٧].

عن قتادة : " {وكفى بالله وكيلا}، قال : حفيظًا"[٨].

وعن الضحاك عن ابن عباس: "يعني: دافعا مجيرا"[٩].

وعن عكرمة عن ابن عباس: "يعني: شهيدا [أن فيها عبيدا][١٠]"[١١].

الفوائد

١- غنى الله تعالى عن سائر خلقه.

٢-فالله هو المالك وحده لا شريك له للسماوات والأرض وما فيهما، فلا منازع له، وذلك أمر يستدعي الوقوف والتدبر والتسليم لأمر من لا منازع له.

القرآن

---

[١] تفسير السعدي:٢٠٧.
[٢] التفسير الميسر:٢٨٤/١.
[٣] تفسير الطبري:٢٩٧/٩.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٧٢):ص١٠٨٥/٤.
[٥] التفسير الميسر:٢٨٤/١.
[٦] تفسير الطبري:٢٩٧/٩.
[٧] تفسير ابن كثير:٤٣١/١.
[٨] اخرجه الطبري(١٠٦٧٥):ص٢٩٧/٩.
[٩] الكشف والبيان:٣٩٩/٣.
[١٠] هذه الزيادة عند البغوي في معالم التفسير:٢٩٧/٢.
[١١] الكشف والبيان:٣٩٩/٣.

{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣)} [النساء : ١٣٣]

التفسير:

إن يشأ الله يُهلكُّم أيها الناس، ويأت بقوم آخرين غيركم. وكان الله على ذلك قديرًا.

قوله تعالى:{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ} [النساء : ١٣٣]، أي:" إن يشأ الله يُهلكُّم أيها الناس"[١].

قال الثعلبي:" فيميتكم، يعني: الكفار"[٢].

قال القرطبي:" يعني بالموت، {أيها الناس}: يريد المشركين والمنافقين"[٣].

قال الطبري:" أي : يذهبكم بإهلاككم وإفنائكم، توعَّدهم بالهلاك والاستئصال ، إن هم فعلوا فعل ابن أبيرق"[٤].

وضعّفه ابن عطية، فقال:" وقال الطبري: هذا الوعيد والتوبيخ هو للقوم الذين شفعوا في طعمة بن أبيرق وخاصموا عنه في أمر خيانته في الدرع والدقيق، وهذا تأويل بعيد واللفظ إنما يظهر حسن رصفه بعمومه وانسحابه على العالم جملة أو العالم الحاضر، [فإن]قوله تعالى:{أيها الناس}، مخاطبة للحاضرين من العرب، وتوقيف للسامعين لتحضر أذهانهم"[٥].

قوله تعالى:{وَيَأْتِ بِآخَرِينَ} [النساء : ١٣٣]، أي:" ويأت بقوم آخرين غيركم"[٦].

قال الزمخشري:أي:" ويأت بأناس آخرين يوالونه"[٧].

قال الثعلبي:" يعنى: بغيركم خيرا منكم وأطوع"[٨].

قال القرطبي:" يعني: [ويأت]بغيركم، وقيل: الآية عامة، أي وإن تكفروا يذهبكم ويأت بخلق أطوع لله منكم. وهذا كما قال في آية أخرى: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[٩]"[١٠].

قال الطبري:" يقول: ويأت بناس آخرين غيركم لمؤازرة نبيه محمد ﷺ ونصرته، وقد روي عن النبي ﷺ أنها لما نزلت، ضرب بيده على ظهر سَلْمان فقال:«هم قوم هذا»[١١]، يعني: عجم الفرس"[١٢].

قال الراغب:" قوله: {يذهبكم} على هذا، ليس يشير إلى الأعيان فقط، بل إلى الأنواع الذين هم العرب والعجم"[١٣].

قال ابن عطية:" قوله: {بآخرين}، يريد من نوعكم، وتحتمل ألفاظ الآية أن تكون وعيدا لجميع بني آدم، ويكون الآخرون من غير نوعهم، كما قد روي: أنه كان في الأرض ملائكة يعبدون الله قبل بني آدم"[١٤].

عن قتادة في قوله:"{إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا}: قادرٌ واللهِ ربُّنا على ذلك: أن يهلك من يشاء من خلقه، ويأتي بآخرين من بعدهم"[١٥].

---

[١] التفسير الميسر:٩٩.
[٢] الكشف والبيان:٣٩٩/٣.
[٣] تفسير القرطبي:٤٠٩/٥.
[٤] تفسير الطبري:٢٩٨/٩
[٥] المحرر الوجيز:١٢٢/٢.
[٦] التفسير الميسر:٩٩.
[٧] الكشاف:٥٤٧/١.
[٨] الكشف والبيان:٣٩٩/٣.
[٩][سورة حمد : ٣٨].
[١٠] تفسير القرطبي:٤٠٩/٥.
[١١] تفسير الطبري(١٠٦٧٦):ص٢٩٩/٩.
[١٢] تفسير الطبري:٢٩٨/٩
[١٣] تفسير الراغب الأصفهاني:١٨٨/٤.
[١٤] المحرر الوجيز:١٢٢/٢.
[١٥] أخرجه الطبري(١٠٦٧٧):ص٢٩٩/٩.

قال القرطبي:" في الآية تخويف وتنبيه لجميع من كانت له ولاية وإمارة ورئاسة فلا يعدل في رعيته، أو كان عالما فلا يعمل بعلمه ولا ينصح الناس، أن يذهبه ويأتي بغيره"[1].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [النساء : ١٣٣]، أي:" وكان لله على ذلك ذا قدرة"[2].

قال الثعلبي:" أي: مستطيعا على ذلك"[3].

قال الطبري:أي:" وكان الله على إهلاككم وإفنائكم واستبدال آخرين غيركم بكم، {قديرًا}، يعني : ذا قدرة على ذلك"[4].

قل القرطبي:" والقدرة صفة أزلية، لا تتناهى مقدوراته، كما لا تتناهى معلوماته، والماضي والمستقبل في صفاته بمعنى واحد، وإنما خص الماضي بالذكر لئلا يتوهم أنه يحدث في ذاته وصفاته. والقدرة هي التي يكون بها الفعل ولا يجوز وجود العجز معها"[5].

الفوائد:

١- قدرة الله تعالى على إذهاب الناس كلهم والإتيان بغيرهم.

٢- أن إبقاء الناس على ما هم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه سبحانه عن طاعتهم، ولأن مشيئته لم تتعلق بهذا الإفناء لحكم ومصالح أرادها سبحانه، لا لعجز عن ذلك، تعالى الله علوا كبيرا[6].

٣- ومن **الفوائد:** التنبيه للناس إلى التأمل فى سنن الله التي جرت فى حياة الأمم وموتها، وإن هذه السنن إذا تعلقت بها المشيئة وقعت لا محالة[7].

٤-إثبات اسم من اسمائه سبحانه، وهو «القدير»، قال الخطابي:" ووصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء أراده، لا يعترضه عجز ولا فتور، وقد يكون القادر بمعنى المقدر للشيء، يقال: قدرت الشيء وقدرته؛ بمعنى واحد"[8].

القرآن

{مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)} [النساء : ١٣٤]

التفسير:

من يرغب منكم -أيها الناس- في ثواب الدنيا ويعرض عن الآخرة، فعند الله وحده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلب من الله وحده خيري الدنيا والآخرة، فهو الذي يملكهما. وكان الله سميعًا لأقوال عباده، بصيرًا بأعمالهم ونياتهم، وسيجازيهم على ذلك.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: قيل: إن هذه الآية نزلت من أجل المنافقين كانوا لا يصدقون بالقيامة، وإنما يطلبون عاجل الدنيا، ذكره أبو سليمان[9].

والثاني: وقال الزجاج:" كان مشركو العرب لا يؤمنون بالبعث، وكانوا مُقِرينْ بأن اللَّهَ خالقهم، فكان تقربُهم إلى الله عزَّ وجلَّ إنما هو ليُعْطِيهُمْ من خير الدنيا، ويَصرِفَ عنهم شَرها، فأعلم الله عزَّ وجلَّ أن خير الدنيا والآخرة عنده"[10].

---

[1] تفسير القرطبي:٤٠٩/٥.
[2] انظر: تفسير الطبري:٢٩٨/٩
[3] الكشف والبيان:٣٩٩/٣.
[4] تفسير الطبري:٢٩٨/٩
[5] تفسير القرطبي:٤٠٩/٥.
[6] انظر: تفسير المراغي:١٧٦/٥.
[7] انظر: تفسير المراغي:١٧٦/٥.
[8] شأن الدعاء:٨٥.
[9] انظر: زاد المسير:٤٨٣/١.
[10] معاني القرآن:١١٧/٢.

قوله تعالى:{مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا} [النساء : ١٣٤]، أي:" من يرغب منكم -أيها الناس- في ثواب الدنيا ويعرض عن الآخرة"[١].

قال مقاتل:" بعمله"[٢].

قال السمرقندي:" يعني: من كان يطلب الدنيا بعمله الذي يعمل ولا يريد به وجه الله"[٣].

الله"[٣].

قال الثعلبي:" يقول: من كان يريد بعمله الذي فرضه الله بقدرته عرضا من الدنيا ولا يريد به الله"[٤].

قال الماتريدي:" قال بعض أهل التأويل: من كان يريد بعمله الذي يعمله عرض الدنيا، ولا يريد به الله"[٥].

قال الزمخشري:" كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة"[٦].

وقال الطبري:أي:"من كان من العاملين في الدنيا من المنافقين يريد بعمله ثوابَ الدنيا وجزاءَها من عمله "[٧].

قال السمعاني:" أراد به: الكفار؛ فإنهم يعملون ابتغاء ثواب الدنيا، وطلبا لنعيمها، ولا يطلبون ثواب الآخرة، ولا يؤمنون بها"[٨].

قوله تعالى:{فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [النساء : ١٣٤]، أي:" فعند الله وحده ثواب الدنيا والآخرة"[٩].

قال مقاتل:" فليعمل لآخرته، {فعند الله ثواب الدنيا}، يعني: الرزق في الدنيا، وثواب الآخرة، يعني: الجنة"[١٠].

قال الزمخشري:أي:" فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، فما له يطلب أحدهما دون الآخر والذي يطلبه أخسهما، لأن من جاهد لله خالصا لم تخطئه الغنيمة، وله من ثواب الآخرة ما الغنيمة إلى جنبه كلا شيء. والمعنى: فعند الله ثواب الدنيا والآخرة له إن أراده حتى يتعلق الجزاء بالشرط"[١١].

قال محمد بن إسحاق:" أي: من كان منكم يريد الدنيا ليست له رغبة في الآخرة، نؤته ما قسم له فيها من رزق، ولا حظ له في الآخرة"[١٢].

قال الثعلبي:أي:" أثابه الله عليه ما أحب الله من عرض الدنيا أو دفع عنه فيها ما أحب الله، وليس له في الآخرة من ثواب لأنه عمل لغير الله، ومن أراد بعمله الذي افترضه الله عز وجل عليه في الدنيا ثواب الآخرة أثابه الله عليه من عرض الدنيا ما أحب الله ودفع عنه ما أحب الله وجزاه في الآخرة الجنة بعمله"[١٣].

قال الماتريدي:أي:" آتاه الله ما أحب من عرض الدنيا، أو دفع عنه ما أحب في الدنيا؛ فليس له في الآخرة من ثواب؛ لأنه عمل لغير الله، وهو كقوله - عز وجل -: {فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} [البقرة : ٢٠٠]، ومن أراد بعمله الذي

---

[١] التفسير الميسر:٩٩.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٣/١.
[٣] بحر العلوم:٣٤٦/١.
[٤] الكشف والبيان:٣٩٩/٣.
[٥] تفسير الماتريدي:٣٨٣/٣.
[٦] الكشاف:٥٧٤/١.
[٧] تفسير الطبري:٣٠٠/٩.
[٨] تفسير السمعاني:٤٨٨/١.
[٩] التفسير الميسر:٩٩.
[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٣/١.
[١١] الكشاف:٥٧٤/١.
[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠٧٤):ص١٠٨٦/٤.
[١٣] الكشف والبيان:٣٩٩/٣.

يعمله في الدنيا، ثواب الآخرة - آتاه الله - تعالى - من عرض الدنيا ما أحب، ودفع عنه، وجزاه في الآخرة الجنة؛ بعمله في الدنيا"[1].

قال ابن كثير:" أي: يا من ليس همُّه إلا الدنيا ، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك ، كما قال تعالى : { فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢] ، وقال تعالى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نزدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } [الشورى : ٢٠] ، وقال تعالى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا. كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا} [الإسراء : ١٨ - ٢١]"[2].

قال الواحدي:" أيْ: خير الدُّنيا والآخرة عنده فليطلب ذلك منه وهذا تعريضٌ بالكفَّار الذين كانوا لا يؤمنون بالبعث وكانوا يقولون: ربنا آتنا في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق"[3].

قال الماوردي:" ثواب الدنيا النعمة ، وثواب الآخرة الجنة"[4].

قال الطبري:أي:" فإن الله مجازيه به جزاءَه في الدنيا من الدنيا، وجزاءه في الآخرة من الآخرة من العقاب والنكال، وإنما عنى بذلك جل ثناؤه: الذين تَتَيَّعُوا في أمر بني أبيرق، والذين وصفهم في قوله: {وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ} [سورة النساء: ١٠٧، ١٠٨] ، ومن كان من نظرائهم في أفعالهم ونفاقهم"[5].

وهذا التفسير للآية عند الطبري فيه نظر، لأن" قوله { فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } ظاهر في حضور الخير في الدنيا والآخرة، أي : بيده هذا وهذا ، فلا يقْتَصِرَنَّ قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، الذي قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ، ممن يستحق هذا ، وممن يستحق هذا"[6].

ويحتمل قوله تعالى:{مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [النساء : ١٣٤]، وجوها من التفسير[7]:

أحدها: أنهم كانوا يتخذون من دون الله آلهة يعبدونها؛ طلبا للرياسة والعز والشرف؛ كقوله - عز وجل -: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} [مريم : ٨١]، فأخبر أن العز والشرف ليس في ذلك؛ ولكن عند الله عز الدنيا والآخرة.

والثاني: أنهم كانوا يعبدون الأوثان والأصنام، ويقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر : ٣]- ويقولون: { هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس : ١٨] ؛ فأخبر أن ليس في عبادتكم هذه الأوثان دون الله - لكم زلفى، ولا ثواب، ولكن اعبد الله؛ فعنده الدنيا والآخرة.

والثالث: يحتمل: أن يكونوا عبدوا هذه الأصنام؛ لمنافع يتأملون بذلك في الدنيا والسعة في الدنيا؛ كقوله - تعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ

---

[1] تفسير الماتريدي:٣٨٣/٣.
[2] تفسير ابن كثير:٤٣٢/٢.
[3] الوجيز:٢٩٤.
[4] النكت والعيون:٥٣٤/١.
[5] تفسير الطبري:٣٠٠/٩.
[6] تفسير ابن كثير:٤٣٢/٢.
[7] انظر تفسير الماتريدي:٣٨٣/٣-٣٨٤.

وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت : ١٧]، الآية؛ فعلى ذلك قوله - عز وجل -: {من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة} لا عند من تطلبون.
والرابع: ويحتمل أن تكون الآية في أهل المراءاة والنفاق، الذين يراءون بأعمالهم الصالحة في الدنيا؛ يريدون ثواب الدنيا لا غير. وهذا اختيار الطبري[١].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء : ١٣٤]، أي:" وكان الله سميعًا لأقوال عباده، بصيرًا بأعمالهم ونياتهم، وسيجازيهم على ذلك"[٢].

قال مقاتل:" بأعمالكم"[٣].

قال الماتريدي:" {سميعا}، لمقالتكم، {بصيرا}، بما تريدون وتعملون، وهو وعيد"[٤].

قال المراغي:" أي: وكان الله سميعا لأقوال عباده حين مخاطباتهم ومناجاتهم، بصيرا بجميع أمورهم فى سائر حالاتهم، فعليهم أن يراقبوه فى الأقوال والأفعال، وبذا تزكو نفوسهم وتقف عند حدود الفضيلة التي بها تستقيم أمورهم فى دنياهم ويستعدون لحياة أبدية فى آخرتهم يكون فيها نعيمهم وثوابهم"[٥].

قال محمد بن إسحاق:" {سميعا}، أي: سميع ما تقولون"[٦].

عن عقبة بن عامر: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: {سميعا بصيرا}، يقول: «بكل شيء بصير»"[٧].

الفوائد:

١- من **الفوائد:** وجوب الإخلاص في العمل لله تعالى وحرمة طلب الآخرة بطلب الدنيا.
٢- ومنها: أن الدين يهدى أهله إلى السعادتين، وإلى أن ثواب الدنيا والآخرة من فضله تعالى ورحمته.
٣- إثبات البصر لله تعالى المحيط بجميع المبصرات، وإثبات السمع له المحيط بجميع المسموعات، وهاتان الصفتان من صفات ذاته تعالى وهما متضمن اسميه «السميع البصير».

جاء في الحديث:"يا أيها الناس! أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، ولكن تدعون سميعا بصيرا، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته"[٨].

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- في قصة المجادلة، :"الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات"[٩].

فأهل السنة والجماعة يقولون: إن الله سميع بسمع يليق بجلاله وعظمته، كما أنه بصير ببصر، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} .

قال أبو الحسن الأشعري: "وأجمعوا على أنه عز وجل يسمع ويرى"[١٠].

قال الحافظ ابن القيم :"وهو سميع بصير له السمع والبصر، يسمع ويبصر وليس كمثله شيء في سمعه وبصره"[١١].

القرآن

---

[١] انظر: تفسير الطبري:٣٠٠/٩.
[٢] التفسير الميسر:٩٩.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٣/١.
[٤] تفسير الماتريدي:٣٨٤/٣.
[٥] .تفسير المراغي:١٧٧/٥
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠٧٥):ص١٠٨٦/٤.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠٧٦):ص١٠٨٦/٤.
[٨] رواه البخاري (٦٣٨٤).
[٩] رواه: البخاري تعليقا (٣٧٢/١٣) ، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، وابن أبي عاصم في "السنة":٦٢٥ .
[١٠] رسالة إلى أهل الثغر: ٢٢٥.
[١١] الصواعق المرسلة:٣ /١٠٢٠.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)} [النساء : ١٣٥]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، كونوا قائمين بالعدل، مؤدين للشهادة لوجه الله تعالى، ولو كانت على أنفسكم، أو على آبائكم وأمهاتكم، أو على أقاربكم، مهما كان شأن المشهود عليه غنيًّا أو فقيرًا؛ فإن الله تعالى أولى بهما منكم، وأعلم بما فيه صلاحهما، فلا يحملنَّكم الهوى والتعصب على ترك العدل، وإن تحرفوا الشهادة بألسنتكم فتأتوا بها على غير حقيقتها، أو تعرضوا عنها بترك أدائها أو بكتمانها، فإن الله تعالى كان عليمًا بدقائق أعمالكم، وسيجازيكم بها.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال السدي:" نزلت في النبيّ ﷺ ، واختصم إليه رجلان : غنيٌّ وفقير ، وكان ضِلَعه مع الفقير ، يرى أن الفقير لا يظلم الغنيَّ ، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير، فقال:{إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا}، الآية"[1].[ضعيف جدا].

والثاني: عن ابن جريج عن مولى لابن عباس؛ قال: "لما قدم النبي - ﷺ - المدينة؛ كانت «البقرة» أول سورة نزلت، ثم أردفها سورة «النساء»، قال: فكان الرجل يكون عنده الشهادة قبل ابنه أو عمه أو ذوي رحمه، فيلوي بها لسانه أو يكتمها؛ مما يرى من عسرته حتى يوسر فيقضي؛ فنزلت: {كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ}؛ يعني: إن يكن غنياً أو فقيراً"[2].[ضعيف جدا].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [النساء : ١٣٥]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[3].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[4].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[2][5].

قوله تعالى:{كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ} [النساء : ١٣٥]،أي:" كونوا قائمين بالعدل"[6].

قال سعيد بن جبير:" يعني: قوامين بالعدل"[7]. وروي عن السدي نحو ذلك[8].

قال مقاتل بن حيان:" قوامين بالشهادة"[9].

قال الزجاج:" القسط والإِقساطُ: العدل، يقال: أقسط الرجل يُقسِط إقساطاً إذا عدل وأتى بالقسطِ، ويقال: قسط الرجل قُسُوطاً إذا جَارَ، قال الله جلَّ وعزَّ: {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[10]، أي: اعدلوا إن الله يُحب العَادِلينَ، وقال جلَّ وعزَّ: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ

---

[1] أخرجه الطبري(١٠٦٧٨):ص٣٠٣/٩، وابن أبي حاتم(٦٠٨٨):ص١٠٨٨/٤، و(٦٠٧٨):ص١٠٨٦/٤ مختصرا، من طريق أسباط، [وهذا سند واه؛ لإعضاله، وضعف أسباط]

[2]أخرجه ابن المنذر في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور":٢/ ٧١٤-٧١٥، [وهذا سنده ضعيف جداً؛ فيه علل: ابن جريج مدلس، وقد عنعنه، وجهالة المولى، والإرسال].

[3] التفسير الميسر:١٠٠.

[4] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١.

[2] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١.

[5] انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.

[6] التفسير الميسر:١٠٠.

[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٧٩):ص١٠٨٦/٤.

[8] انظر: ابن ابي حاتم(٦٠٧٩):ص١٠٨٦/٤.

[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٨٠):ص١٠٨٦/٤.

[10] [سورة الحجرات:٩].

حَطَبًا}[١]، أي: الجائرون، يقال قسط البعيرُ قسْطاً إذَا يَبِسَتْ يدُه، ويدٌ قَسْطاءُ أي يابسة، فكأن أقسط أقام الشيءَ على حقيقةِ التعديل، وكأنَّ قَسَطَ بمعنى جارَ معناه يَبَّسَ الشيءَ، وأفْسَدَ جِهتَهُ المستقيمةَ"[٢].

قوله تعالى:{شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [النساء : ١٣٥]، أي:" مؤدين للشهادة لوجه الله تعالى، ولو كانت على أنفسكم، أو على آبائكم وأمهاتكم، أو على أقاربكم"[٣].

قال ابن عباس:" أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق، ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم"[٤].

عن سعيد بن جبير قوله: "{بالقسط شهداء لله}، يعني: بالعدل"[٥]. وروي عن مقاتل بن حيان نحو ذلك[٦].

وعن سعيد بن جبير أيضا: قوله:"{ ولو على أنفسكم}، يقول: لو كان تأحد عليك حق فأقررت به على نفسك"[٧]، "قوله: {أو الوالدين والأقربين}، يعني: أو على الوالدين والأقربين فاشهد به عليهم"[٨].

وعن مقاتل بن حيان قوله: "{ولو على أنفسكم}، يقول: على نفسك"[٩].

وعن مقاتل بن حيان أيضا:" قوله: {أو الوالدين والأقربين}، يقول: على نفسك أو على الوالدين والأقربين قريبا كان أو بعيدا، غنيا كان أو فقيرا"[١٠].

قال الزجاج:" المعنى: قوموا بالعدل وأشهدوا للهِ بالحق، وإن كان الحق على نفس الشاهد أو على والديه وأقْرِ بِيه"[١١].

قال الطبري:" معناه: قوموا بالقسط لله عند شهادتكم، ولو كانت شهادتكم على أنفسكم، أو على والدين لكم أو أقربيكم، فقوموا فيها بالقسط والعدل، وأقيموها على صحّتها بأن تقولوا فيها الحق"[١٢].

قال الماوردي:" وشهادة الإنسان على نفسه هي إقراراه بما عليه من الحق لخصمه"[١٣].

عن قتادة قوله: "{يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله}، وهذا في الشهادة، فأقم الشهادة يا ابن آدم ولو على نفسك أو والديك أو على ذوي قرابتك أو على أشراف قومك، فإنما الشهادة لله وليست للناس، وإن الله رضي بالعدل لنفسه، والإقساط والعدل ميزان الله في الأرض به يرد الله من الشديد على الضعيف ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق، وبالعدل يصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويرد المعتدي ويوبخه، تبارك وتعالى وبالعدل صلح الناس يا ابن آدم"[١٤].

قوله تعالى:{إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا} [النساء : ١٣٥]، أي:" مهما كان شأن المشهود عليه غنيًّا أو فقيرًا؛ فإن الله تعالى أولى بهما منكم، وأعلم بما فيه صلاحهما"[١٥].

---

[١] [سورة الجن:١٥].
[٢] معاني القرآن:١١٨/٢.
[٣] التفسير الميسر:١٠٠.
[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠٧٧):ص١٠٨٦/٤.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٨٢):ص١٠٨٧/٤.
[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٠٨٢):ص١٠٨٧/٤.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٨٣):ص١٠٨٧/٤.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٨٥):ص١٠٨٧/٤.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٨٤):ص١٠٨٧/٤.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٨٦):ص١٠٨٧/٤.
[١١] معاني القرآن:١١٨/٢.
[١٢] تفسير الطبري:٣٠٢/٩.
[١٣] النكت والعيون:٥٣٥/١، وانظر: تفسير الطبري:٣٠٢/٩.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٨١):ص١٠٨٧/٤.
[١٥] التفسير الميسر:١٠٠.

قال سعيد بن جبير:" يعني: أن الله أولى بالغني والفقير من غيره"[١].
وقال الحسن: "معناه: فالله أعلم بهما"[٢].
قال الفراء:أي:" ولا تنظروا في غنى الغني ولا فقر الفقير فإن الله أولى بذلك"[٣].
قال ابن عباس:" أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق، ولا يحابون غنيا لغناه ولا يرحمون مسكينا لمسكنته"[٤].
قال الزجاج:" أي إن يكن المشهود له فقيراً فالَّه أولى به، وكذلك إن يكن المشهود عليه غنياً فالَّه أولى به... ولا تميلوا في الشهادة رحمةً للفقير، ولا تَحِيفوا لاحتَفَالِ غِنَى عَنِيٍّ عِندَكم"[٥].
قال الطبري:أي:" ولا تميلوا فيها لغنيٍّ لغناه على فقير، ولا لفقير لفقره على غنيّ، فتجوروا. فإن الله الذي سوَّى بين حكم الغنيّ والفقير فيما ألزمكم، أيها الناس، من إقامة الشهادة لكل واحد منهما بالعدل{أولى بهما}، وأحق منكم، لأنه مالكهما وأولى بهما دونكم، فهو أعلم بما فيه مصلحة كلّ واحد منهما في ذلك وفي غيره من الأمور كلها منكم، فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما"[٦].
قوله تعالى:{فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا} [النساء : ١٣٥]،أي:" فلا يحملنَّكم الهوى والتعصب على ترك العدل"[٧].
عن ابن عباس قوله: {فلا تتبعوا الهوى}، فتذروا الحق فتجوروا"[٨].
عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: "{تتبعوا الهوى}، يعني: في الشهادات"[٩]، " قوله: {أن تعدلوا}، يعني: عن الحق"[١٠].
عن مقاتل بن حيان قوله: "{فلا تتبعوا الهوى}، في الشهادة إذا دعيتم لها أن تقولوا بها وتعدلوا"[١١].
قال الزجاج:" أي: لا تتبعوا الهوى فتعدلوا"[١٢].
قال الفراء:أي:" فرارا من إقامة الشهادة. وقد يقال: لا تتبعوا الهوى لتعدلوا كما تقول: لا تتبعن هواك لترضي ربك، أي: إني أنهاك عن هذا كيما ترضي ربك"[١٣].
قال الطبري:" يقول: فلا تتبعوا أهواءَ أنفسكم في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها -لغني على فقير، أو لفقير على غني- إلا أحد الفريقين، فتقولوا غير الحق، ولكن قوموا فيه بالقسط، وأدُّوا الشهادة على ما أمركم الله بأدائها، بالعدل لمن شهدتم له وعليه"[١٤].
قال السمعاني:" قيل: معناه: فلا تتبعوا الهوى بأن تعدلوا، أي: لتكونوا عادلين، كما يقال: لا تعص فترضى ربك، وقيل: معناه: لا تتبعوا الهوى لتميلوا من الحق إلى الباطل"[١٥].
قوله تعالى:{وَإِنْ تَلْوُوا} [النساء : ١٣٥]،أي:" وإن تحرفوا الشهادة بألسنتكم فتأتوا بها على غير حقيقتها"[١].

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠٨٩):ص١٠٨٨/٤.
[٢] تفسير السمعاني:٤٨٩/١ ولم اقف عليه.
[٣] معاني القرآن:٢٩١/١.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٨٨):ص١٠٨٨/٤.
[٥] معاني القرآن:١١٨/٢.
[٦] تفسير الطبري:٣٠٢/٩.
[٧] التفسير الميسر:١٠٠.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٩٠):ص١٠٨٨/٤.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٩٣):ص١٠٨٨/٤.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٩٥):ص١٠٨٩/٤.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٠٩٤):ص١٠٨٨/٤.
[١٢] معاني القرآن:١١٨/٢.
[١٣] معاني القرآن:٢٩١/١.
[١٤] تفسير الطبري:٣٠٢/٩.
[١٥] تفسير السمعاني:٤٨٩/١.

و«الليّ»: المطل، يقال: لواه بدينه يلويه ليا وليانا مطله[2]، قال الشاعر[3]:

قد كُنْتُ دَايَنْت به حَسَّانَا   مَخَافَةَ الإفْلاسِ واللّيَانَا

وقال ذو الرمة[4]:

تُطيلينَ ليَّاني وأنتِ مليَّةٌ   وأُحسنُ يا ذاتَ الوشاحِ التَّقاضيا

وفي الحديث : "لَيُّ الْواجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُبَتَه"[5].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَإِنْ تَلْوُوا} [النساء : ١٣٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: أنه خطاب للشهود، معناه: أن تلوي بلسانك بغير الحق، وهي اللجاجة فلا يقيم الشهادة على وجهها. وهذا قول ابن عباس-في أحد قوليه- [6]، وروي عن قتادة[7]، ومقاتل[8]، وعطاء الخرساني[9]، وعطية[10]، وسعيد بن جير[11]، والضحاك[12]، والسدي[13]، ومقاتل بن الحيان[14]، نحو هذا المعنى.

والثاني: أنه خطاب للحكام، معناه: ليّ القاضي وإعراضه لأحد الرجلين على الآخر. وهذا قول ابن عباس-في قوله الآخر[15].

والثالث: انه تحريف الشهادة. وهذا قول مجاهد[16]، والسدي[17].

والصواب –والله اعلم- "أنه لَيُّ الشاهد شهادته لمن يشهد له وعليه ، وذلك تحريفه إياها بلسانه، وتركه إقامتها ، ليبطل بذلك شهادته لمن شهد له ، وعمن شهد عليه، لأن الله جل ثناؤه قال {كونوا قوامين بالقسط شهداء الله}، فأمرهم بالقيام بالعدل شهداء "[18].

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم والكسائى :«تلووآ» بواوين، الأولى مضمومة والثانية ساكنة، وقرأ حمزة وابن عامر:«وإن تلوا»، بواو واحدة واللام مضمومة[19].

قوله تعالى:{أَوْ تُعْرِضُوا} [النساء : ١٣٥]،أي:" أو تعرضوا عنها بترك أدائها أو بكتمانها"[20].

عن ابن عباس قوله: "{أو تعرضوا}، يعني: الشهادة"[21]. وروي عن سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان نحو ذلك[1].

---

[1] التفسير الميسر:١٠٠.

[2] انظر: تفسير القرطبي:١٢١/٤.

[3]الرجز لرؤية بن العجاج، انظر: "ديوانه" ص ١٨٧، "الكتاب" ١/ ١٩١، "الحجة" لأبي علي ٦/ ١٦٠، وداينت: من المداينة وهي البيع بالدين، بها أي بالإبل، وحسان: اسم رجل، والليان: مصدر لويته بالدين لياً ولياناً إذا مطلته، يقول: داين بالإبل حسان لأنه رجل مليء لا يماطل مخافة أن يداين غير حسان ممن ليس بمليء فيماطل لإفلاسه، انظر: "الكتاب" ١/ ١٩١.

[4]ديوانه ١٣٠٦، وجمهرة اللغة، مادة:"ل ي ي":ص:١٦٩/١.، و"لوه":٩٨٩/٢،

[5]أخرجه النسائى من طريقيه فى البيوع (باب مطل الغنى) : المجتبى: ٢٧٨/٧؛ وابن ماجه فى الصدقات (باب الحبس فى الدين والملازمة) : سنن ابن ماجه: ٨١١/٢؛ وأخرجه أبو داود فى الأقضية (باب فى الحبس فى الدين وغيره) : سنن أبى داود: ٣١٣/٣.

[6] انظر: تفسير ابن ابي حاتم (٦٠٩٧)، و(٦٠٩٦):ص١٠٨٩/٤.

[7] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٩٥):ص٣٠٩/٩.

[8] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٨٩):ص٣٠٨/٩.

[9] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٠٩٧):ص١٠٨٩/٤.

[10] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٩٣):ص٣٠٩/٩، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٠٩٧):ص١٠٨٩/٤.

[11] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٠٩٧):ص١٠٨٩/٤.

[12] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٩٤):ص٣٠٩/٩، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٠٩٧):ص١٠٨٩/٤.

[13] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٩٠):ص٣٠٨/٩، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٠٩٧):ص١٠٨٩/٤.

[14] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٠٩٧):ص١٠٨٩/٤.

[15] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٨٣):ص٣٠٧/٩، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٠٩٨):ص١٠٨٩/٤.

[16]تفسير الطبري(١٠٦٨٧)، و(١٠٦٨٨):ص٣٠٨/٩.

[17] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٩٠):ص٣٠٨/٩، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٠٩٩):ص١٠٨٩/٤.

[18] تفسير الطبري:٣٠٩/٩-٣١٠.

[19] انظر: السبعة:٢٣٩، ومعاني القرآن للفرا:٢٩١/١.

[20] التفسير الميسر:١٠٠.

[21] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٠٠):ص١٠٨٩/٤.

وعن ابن عباس ايضا:" الإعراض: الترك"[٢].
قال الضحاك:"{أو تعرضوا}، قال : تكتموا الشهادة"[٣].
وعن مجاهد قوله: "{أو تعرضوا}، قال: تتركوا"[٤]. وروي عن عطية مثل ذلك [٥].
وروي عن السدي أنه قال: "فتعرض عنها فتكتمها وتقول: ليس عندي شهادة"[٦].
وقال ابن زيد:" أو يُعرض عنها فيكتمها ، فيأبى أن يَشهد عليه ، يقول : أكتم عنه لأنه مسكين أرحَمُه! فيقول : لا أقيم الشهادة عليه. ويقول : هذا غنيٌّ أبقّيه وأرجو ما قِبَله ، فلا أشهد عليه!"[٧].
قال الطبري: وأما إعراضه عن الشهادة، فإنه تركه أداءَها والقيام بها ، فلا يشهد بها"[٨].
قوله تعالى:{فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء : ١٣٥]، أي:" فإن الله تعالى كان عليمًا بدقائق أعمالكم، وسيجازيكم بها"[٩].
قال سعيد بن جبير:" يعني: من كتمان الشهادة وإقامتها خبيرا"[١٠].
قال الطبري:" وهذه الآية عندي تأديبٌ من الله جل ثناؤه عبادَه المؤمنين أن يفعلوا ما فعله الذين عذَروا بني أبيرق في سرقتهم ما سرقوا، وخيانتهم ما خانوا ممن ذكرنا قبل عند رسول الله ﷺ، وشهادتهم لهم عنده بالصلاح"[١١].
الفوائد:
١- وجوب العدل في القضاء والشهادة.
٢- حرمة شهادة الزور وحرمة التخلي عن الشهادة لمن تعينت عليه، كما ثبت في الصحيحين عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: "«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاثا، قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئا فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور [ألا وقول الزور وشهادة الزور]» . فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت"[١٢].
٣-ومن أسماءه سبحانه«الخبير»: أي: العالم بما كان وما يكون.
قال الخطابي:" هو العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته"[١٣].
جاء في حديث عائشة رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ قال لها في قصة تتبعها له إلى البقيع: "ما لك يا عائش حشيا رابية؟" . قالت: قلت: لا شيء. قال: "لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير"[١٤].
قال أبو هلال العسكري:" الفرق بين العلم والخبر: أن الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها؛ ففيه معنى زائد على العلم"[١٥].

القرآن

---
[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦١٠٠):ص١٠٨٩/٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٠١):ص١٠٩٠/٤.
[٣] أخرجه الطبري(١٠٦٩٤):ص٣٠٩/٩.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٠٢):ص١٠٩٠/٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٩٣):ص٣٠٩/٩، و تفسير ابن ابي حاتم(٦١٠٢):ص١٠٩٠/٤.
[٦] اخرجه الطبري(١٠٦٩٠):ص٣٠٨/٩، وانظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٠٩٠/٤.[ذكره دون السند].
[٧] أخرجه الطبري(١٠٦٩١):ص٣٠٨/٩.
[٨] تفسير الطبري:٣١٠/٩.
[٩] التفسير الميسر:١٠٠.
[١٠] أخجه ابنأبي حاتم(٦١٠٣):ص١٠٩٠/٤.
[١١] تفسير الطبري:٣٠٢/٩-٣٠٣.
(١٢)صحيح البخاري برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧) .
[١٣] شأن الدعاء:٦٣.
[١٤]رواه مسلم (٩٧٤).
[١٥] الفروق:١٥٢.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)} [النساء : ١٣٦]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه داوموا على ما أنتم عليه من التصديق الجازم بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ، ومن طاعتهما، وبالقرآن الذي نزله عليه، وبجميع الكتب التي أنزلها الله على الرسل. ومن يكفر بالله تعالى، وملائكته المكرمين، وكتبه التي أنزلها لهداية خلقه، ورسله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته، واليوم الآخر الذي يقوم الناس فيه بعد موتهم للعرض والحساب، فقد خرج من الدين، وبَعُدَ بعدًا كبيرًا عن طريق الحق.

سبب النزول:

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: "أن عبد الله بن سلام، وأسداً وأسيداً ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وسلاماً ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه، ويامين بن يامين، أتوا رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا رسول الله! إنا نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزيز، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل. فقال رسول الله - ﷺ -: «بل آمنوا بالله ورسوله محمد، وكتابه القرآن، وبكل كتاب كان قبله»، فقالوا: لا نفعل؛ فنزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ}. قال: فآمنوا كلهم "[1].[موضوع].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [النساء : ١٣٦]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[2].

قال الزمخشري:"خطاب للمسلمين"[3].

قال سعيد بن جبير:"قوله: {آمنوا بالله}، يعني: بتوحيد الله"[4].

قال ابن عثيمين:"إن تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"[5].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[2].

قال خيثمة: "ما تقرأون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين"[6].

قوله تعالى:{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النساء : ١٣٦]، أي:" داوموا على ما أنتم عليه من التصديق الجازم بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ، ومن طاعتهما"[7].

قال الماتريدي:{ وَرَسُولِهِ}" يعني: محمدا - ﷺ -"[8].

---

[1] ذكره السمرقندي في تفسيره بحر العلوم:٣٤٧/١، وأخرجه الثعلبي في "تفسيره":٤٠١/٣، من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وذكره البغوي في تفسيره:٢٩٩/٢، والسيوطي في الدر المنثور: ٢ / ٧١٦، وذكره الواحدي في أسباب النزول:١٨٦، معلقاً عن الكلبي ولم يسنده إلى ابن عباس، وذكره الزمخشري في الكشاف:٥٧٦/١، ولم يسنده إلى أحد.

وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» (١/ ٣٦٥) : ذكره الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس وذكره الواحدي في «الأسباب» عن الكلبي بدون إسناد اهـ.

قلنا: وهذا إسناد ساقط، الكلبي متروك كذاب.

[2] التفسير الميسر:١٠٠.

[3] الكشاف:٥٧٥/١.

[4] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٠٤):ص١٠٩٠/٤.

[5] انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.

[2] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١، و(٥٠٢٧):ص٩٠٢/٣

[6] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٢٦):ص٩٠٢/٣.

[7] التفسير الميسر:١٠٠.

[8] تفسير الماتريدي:٣٨٧/٣.

قال الطبري:" يقول: صدّقوا بالله وبمحمد رسوله، أنه لله رسولٌ، مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم"[1].

قال الزمخشري:" معنى: {آمنوا}، اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه"[2].

قوله تعالى:{وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ} [النساء : ١٣٦]، أي:" وبالقرآن الذي نزله علي رسوله"[3].

قال الثعلبي:" يعني: القرآن"[4].

قال الماتريدي: "أي: آمنوا بالكتاب الذي نزل على رسوله، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم -"[5].

قال الطبري:أي:"وصدّقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذي نزله الله عليه، وذلك القرآن"[6].

قوله تعالى:{وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ} [النساء : ١٣٦]، أي:"وبجميع الكتب التي أنزلها الله على الرسل"[7].

قال الزمخشري:" المراد به جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب، والدليل عليه قوله: { **وَكُتُبِهِ**}"[8].

قال الثعلبي:" يعني: الكتب المتقدمة التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المتقدمة"[9].

قال الطبري:أي:" وآمنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكتاب الذي نزله على محمد ﷺ، وهو التوراة والإنجيل"[10].

قال الماتريدي:" أي: آمنوا -أيضا- بالكتب السماوية التي أنزلها الله، تعالى، ثم الإيمان بالله حقيقة - إيمان بجميع الرسل والكتب؛ لأن كل نبي كان يدعو إلى الإيمان بجميع ذلك، وكذلك في كل كتاب من الكتب السماوية دعاء إلى الإيمان بجملتهم؛ ألا ترى أن الكفر بواحد منهم - كفر بالله وبجميع الرسل والكتب وما ذكر، وبالله العصمة"[11].

وقرئ: «وكتابه»، على إرادة الجنس[12].

وإن قلت: لم قيل {نزل على رسوله} و {أنزل من قبل} ؟

الجواب: "لأن القرآن نزل مفرقا منجما في عشرين سنة، بخلاف الكتب قبله، ومعنى قوله ومن يكفر بالله الآية: ومن يكفر بشيء من ذلك فقد ضل لأن الكفر ببعضه كفر بكله. ألا ترى كيف قدم الأمر بالإيمان به جميعا"[13].

فإن قال قائل: "وما وجه دعاء هؤلاء إلى الإيمان بالله ورسوله وكتبه، وقد سماهم:«مؤمنين»؟

قيل: إنه جل ثناؤه لم يسمِّهم"مؤمنين"، وإنما وصفهم بأنهم{آمنوا}، وذلك وصف لهم بخصوصٍ من التصديق. وذلك أنهم كانوا صنفين: أهل توراة مصدّقين بها وبمن جاء بها، وهم مكذبون بالإنجيل والقرآن وعيسى ومحمد صلوات الله عليهما، وصنف أهل إنجيل، وهم مصدّقون

---

[1] تفسير الطبري:٣١٢/٩.
[2] الكشاف:٥٧٥/١.
[3] التفسير الميسر:١٠٠.
[4] الكشف والبيان:٤٠١/٣.
[5] تفسير الماتريدي:٣٨٧/٣.
[6] تفسير الطبري:٣١٢/٩.
[7] التفسير الميسر:١٠٠.
[8] الكشاف:٥٧٥/١.
[9] الكشف والبيان:٤٠١/٣.
[10] تفسير الطبري:٣١٢/٩.
[11] تفسير الماتريدي:٣٨٧/٣.
[12] انظر: الكشاف:٥٧٥/١.
[13] الكشاف:٥٧٦/١.

به وبالتوراة وسائر الكتب، مكذّبون بمحمد ﷺ والفرقان، فقال جل ثناؤه لهم:{يا أيها الذين آمنوا}، يعني: بما هم به مؤمنون من الكتب والرسل"[1].

وفي قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ} [النساء : ١٣٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن المعنى: يا أيها الذين آمنوا أقيموا على الايمان باللَّهِ، كما قال عزَّ وجلَّ :{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[الفتح:٢٩]، أي: وَعَدَ مَنْ أقام على الإيمان من أصحاب النبي - ﷺ - الذين ذكروا في هذه القصة مغفرة وأجراً عظيماً. وهذا قول ابي العالية[2]، ونسبه الثعلبي إلى جيع المفسرين[3].

والثاني:أنه يُعْنَى بهذا المنافقون الذين أظهروا التصديق وأسروا التكذيب، فقيل: يا أيها الذين أظْهَرُوا الإيمان آمِنُوا باللَّه ورسوله أي أبطنوا مثل ما أظهرتم. أفاده الزجاج[4].

والثالث: معناه: يا أيها الذين آمنوا بمحمد - ﷺ - قبل أن يبعث، آمنوا به إذا بعث؛ لأنهم كانوا يؤمنون به قبل أن يبعث، فلما بعث تركوا الإيمان به؛ كقوله - تعالى -: {وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} [البقرة : ٨٩]. أفاده الماتريدي[5].

والرابع: قال الضحاك: "هي في اليهود والنصارى، ومعنى الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بموسى والتوراة وعيسى والإنجيل آمَنُوا بمحمد والقرآن"[6].

والخامس: وقيل: "إنه ورد في اليهود خاصة، والمعنى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا في وجه النهار آمَنُوا في آخر النهار، وذلك قوله تعالى: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ}[آل عمران:٧٢]، الآية"[7].

والسادس:أن المراد منه الكفار، يعني: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا باللات والعزى والطاغوت آمِنُوا بِاللَّهِ، ومعناه: إن كان لا بد للإيمان يعني فالإيمان بالله تعالى ورسله والكتب أحق وأولى من الإيمان بما لا يضر ولا ينفع ولا ينفق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت. ذكره الثعلبي عن طائفة[8].

قال الزجاج:" والتأويل الأول أشبه"[9].

قرأ نافع وعاصم عن حمزة والكسائي:{والكتاب الذي نزل}، بنصب النون والزاي، {والكتاب الذي أنزل}، بنصب الألف. وقرأ الباقون {نزل}، بضم النون وكسر الزاي، {ونزل}، و{أنزل}، بضم الألف على معنى فعل ما لم يسم فاعله[10].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء : ١٣٦]، أي:" ومن يكفر بالله تعالى، وملائكته المكرمين، وكتبه التي أنزلها لهداية خلقه، ورسله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته، واليوم الآخر الذي يقوم الناس فيه بعد موتهم للعرض والحساب"[11].

قال السمرقندي:" أي من يجحد بوحدانية الله تعالى وملائكته أنهم عبيده، وبرسله أنهم أنبياؤه وعبيده، وبالبعث بعد الموت"[1].

---

[1] تفسير الطبري:٣١٢/٩-٣١٣.

[2] انظر: تفسير الثعلبي:٤٠١/٣، وذكره الزجاج دون نسبته لاحد، انظر: معاني القرآن للزجاج :١١٩/٢.

[3] انظر: الكشف والبيان:٤٠١/٣، يقول:" وقال أبو العالية وجمع من المفسرين: هذه الآية خطاب للمؤمنين وتأويله: يا أَيُّهَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا أي أقيموا واثبتوا على الإيمان، وكقوله لنبيه صلّى الله عليه وسلّم {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ}[محمد:١٩]، أي: اثبت على ما أنت عليه وكقوله وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ، ومعناه: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا على الإيمان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم الذين هم في هذه القصة مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً، ويقال في الكلام للقائم: قم، وللقاعد: أقعد، والمراد منه الاستدامة".

[4] انظر: معاني القرآن للزجاج :١١٩/٢.

[5] تفسير الماتريدي:٣٨٧/٣.

[6] تفسير الثعلبي:٤٠١/٣.

[7] تفسير الثعلبي:٤٠١/٣.

[8] انظر: الكشف والبيان:٤٠٢/٣.

[9] معاني القرآن:١١٩/٢.

[10] انظر: بحر العلوم، السمرقندي:٣٤٧/١.

[11] التفسير الميسر:١٠٠.

قال سعيد بن جبير:" {واليوم الآخر}، يعني: بالغيب الذي فيه جزاء الأعمال"[٢].
ويحتمل قوله تعالى:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء : ١٣٦]، وجهين[٣]:
أحدهما: معناه: ومن يكفر بجميع ما ذكر، وهو على التأكيد.
والثاني: ويحتمل: ومن يكفر بالله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر؛ فقد كان ما ذكر؛ لأن الكفر بواحد من ذلك كفر بالكل، حتى لو أنكر آية من آيات الله - تعالى - كفر بالله، وبالكتب وبالرسل كلها.
قوله تعالى:{فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء : ١٣٦]، أي:" فقد خرج من الدين، وبَعُدَ بعدًا كبيرًا عن طريق الحق"[٤].
قال الثعلبي:" يعني: خطأ خطأ بعيدا"[٥].
قال السمرقندي:أي:" فقد ضل عن الهدى ضلالا بعيدا عن الحق"[٦].
قال مقاتل بن حيان:" {فقد ضل}، يقول: فقد أخطأ"[٧].
قال البغوي:" فلما نزلت هذه الآية قالوا: فإنا نؤمن بالله ورسوله والقرآن وبكل رسول وكتاب كان قبل القرآن، والملائكة واليوم الآخر لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون"[٨].
الفوائد:
١-وجوب الاستمرار على الإيمان وتقويته حتى الموت عليه.
٢- بيان أركان الإيمان وهي الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر، جاء ذكره في قوله تعالى من سورة القمر: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر : ٤٩] .

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)} [النساء : ١٣٧]

التفسير:
إن الذين دخلوا في الإيمان، ثم رجعوا عنه إلى الكفر، ثم عادوا إلى الإيمان، ثم رجعوا إلى الكفر مرة أخرى، ثم أصرُّوا على كفرهم واستمروا عليه، لم يكن الله ليغفر لهم، ولا ليدلهم على طريق من طرق الهداية، التي ينجون بها من سوء العاقبة.
قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا} [النساء : ١٣٧]، أي:" إن الذين دخلوا في الإيمان، ثم رجعوا عنه إلى الكفر، ثم عادوا إلى الإيمان، ثم رجعوا إلى الكفر مرة أخرى، ثم أصرُّوا على كفرهم واستمروا عليه "[٩].
قال الزمخشري:" نفى للغفران والهداية، وهي اللطف على سبيل المبالغة التي يعطيها اللام، والمراد بنفيهما نفى ما يقتضيهما وهو الإيمان الخالص الثابت. والمعنى: إن الذين تكرر منهم الارتداد وعهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه"[١٠].
وفي تفسير قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا} [النساء : ١٣٧]، أقوال:

---
[١] تفسير السمرقندي:٣٤٧/١.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٠٨):ص١٠٩٠/٤.
[٣] انظر: تفسير الماتريدي:٣٨٧/٣.
[٤] التفسير الميسر:١٠٠.
[٥] الكشف والبيان:٤٠١/٣.
[٦] تفسير السمرقندي:٣٤٧/١.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٠٩):ص١٠٩١/٤.
[٨] تفسير البغوي:٢٩٩/٢.
[٩] التفسير الميسر:١٠٠.
[١٠] الكشاف:٥٧٧/١.

أحدها : أنهم آمنواْ بموسى ثم كفرواْ بعبادة العجل ، ثم آمنوا بموسى بعد عوده ثم كفرواْ بعيسى ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد صلى الله عليهم وسلم ، وهذا قول قتادة[1].
والثاني : أنهم المنافقون آمنوا ثم ارتدواْ ، ثم آمنوا ثم ارتدواْ ، ثم ماتواْ على كفرهم ، وهذا قول مجاهد[2]، وابن زيد[3].
والثالث : أنهم قوم من أهل الكتاب قصدواْ تشكيك المؤمنين فكانواْ يظهرون الإيمان ثم الكفر ثم ازدادواْ كفراً بثبوتهم عليه ، وهذا قول الحسن [4].
والرابع:أنهم أهل الكتابين ، التوراة والإنجيل ، أتوا ذنوبا في كفرهم فتابوا ، فلم تقبل منهم التوبة فيها ، مع إقامتهم على كفرهم. وهذا قول أبي العالية[5].

والراجح-والله أعلم- أنه عنى بذلك أهل الكتاب الذين أقروا بحكم التوراة ، ثم كذبوا بخلافهم إياه ، ثم أقرّ من أقرَّ منهم بعيسى والإنجيل ، ثم كذب به بخلافه إياه ، ثم كذب بمحمد ﷺ والفرقان فازداد بتكذيبه به كفرا على كفره، لأن الآية قبلها في قصص أهل الكتابين أعني قوله :{يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله}، ولا دلالة تدلُّ على أن قوله : {إن الذين آمنوا ثم كفروا}، منقطع معناه من معنى ما قبله ، فإلحاقه بما قبله أولى ، حتى تأتي دلالة دالَّة على انقطاعه منه"[6].

واختلف لمكان هذه الآية في استتابة المرتد على قولين :
أحدهما : أن المرتد يستتاب ثلاث مرات بدلالة الآية ، فإن ارتد بعد الثلاث قتل من غير استتابة ، وهذا قول علي[7]، وابن عمر[8].
والثاني : يستتاب كلما ارتد، وهذا قول إبراهيم[9]، وهو قول الشافعي[10]، والجمهور [11].

قوله تعالى:{لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ} [النساء : ١٣٧]،أي:" أي لم يكن الله ليسامحهم على ذلك"[12].

قال الحسن: "يعني: من مات منهم على كفره"[13].

قال الطبري:أي:" لم يكن الله ليسترَ عليهم كفرهم وذنوبهم ، بعفوه عن العقوبة لهم عليه ، ولكنه يفضحهم على رؤوس الأشهاد"[14].

قال الزمخشري:أي:" يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف، من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله، لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردة، وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأدونه، حيث يبدو لهم فيه كرة بعد أخرى وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، لأن ذلك مقبول حيث هو بذل للطاقة واستفراغ للوسع، ولكنه استبعاد له واستغراب، وأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع، لا يكاد يرجى منه الثبات. والغالب أنه يموت على شر حال وأسمج صورة"[15].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٩٧)، و(١٠٦٩٨):ص٣١٥/٩..
[2] انظر: تفسير الطبري(١٠٦٩٩)-(١٠٧٠١):ص٣١٥/٩-٣١٦.
[3]انظر: تفسير الطبري(١٠٧٠٢):ص٣١٦/٩.
[4] انظر: النكت والعيون:٥٣٧/١.
[5]انظر: تفسير الطبري(١٠٧٠٣):ص٣١٦/٩.
[6] تفسير الطبري:٣١٦/٩-٣١٧.
[7] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٠٤)، و(١٠٧٠٥):ص٣١٧/٩، و تفسير ابن أبي حاتم(٦١١٠):ص١٠٩١/٤.
[8] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٠٦):ص٣١٧/٩.
[9] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٠٧):ص٣١٨/٩.
[10] انظر: النكت والعيون:٥٣٧/١.
[11] انظر: النكت والعيون:٥٣٧/١.
[12] صفوة التفاسير:٢٨٦.
[13] تفسير ابن ابي زمنين:٤١٤/١.
[14] تفسير الطبري:٣١٧/٩.
[15] الكشاف:٥٧٧/١.

قال أبو السعود:" لما أنه يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان فإن قلوبهم قد ضربت بالكفر وتمرنت على الردة وكان الإيمان عندهم أهون شئ وأدونه لانهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم"[1].

قال الزجاج:" فإن قال قائل: اللَّه جلَّ وعزَّ لا يغفر كُفْر مرةٍ واحدةٍ فلم قيل ههنا فيمن آمن ثُمَّ كفر ثُمَّ آمن ثُمَّ كفر: (لم يكن اللَّه ليغفر لهم) وما الفائدة في هذا؟

فالجواب في هذا - واللَّه أعلم - أن اللَّه عزَّ وجلَّ يغفر للكافر إذا آمن بعد كفره، فإن كفر بعد إيمانه لم يغفر اللَّه له الكفر الأول، لأن اللَّه -جلَّ وعزَّ- يقبل التوبة، فإذا كفر بعد إيمان قبله كفْر فهو مطالب بجميع كفره، ولا يجوز أن يكون إذا آمن بعد ذلك لا يغفر له، لأن اللَّه جل ثناؤُه يغفر لكل مؤمن بعد كفره، والدليل على ذلك قوله جلَّ وعزَّ: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[2]، وهذا في القرآن كثير، وهو شبيه بالإِجماع أيضاً"[3].

قوله تعالى:{وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} [النساء : ١٣٧]، أي:" ولا ليدلهم على طريق من طرق الهداية، التي ينجون بها من سوء العاقبة"[4].

قال مقاتل:" ولا ليهديهم طريق هدى، وقد كفروا بكتب الله"[5].

قال مقاتل:" إلى الهدى، منهم عمرو بن زيد وأوس بن قيس، وقيس بن زيد"[6].

قال الزجاج:" أي: لا يجعلهم بكفرهم مهتدين بل يضلهم، لأنه جلَّ وعزَّ يضل الفاسقين"[7].

قال الطبري:" يقول : ولم يكن ليسدِّدهم لإصابة طريق الحق فيوفقهم لها ، ولكنه يخذلهم عنها ، عقوبة لهم على عظيم جُرمهم ، وجرأتهم على ربهم"[8].

قال ابن ابي زمنين:" أي: سبيل هدى؛ يعني: الأحياء، وأراد بهذا عامتهم، وقد تسلم الخاصة منهم"[9].

قال البغوي:" أي: طريقا إلى الحق"[10].

قال المراغي:" أي: إن هؤلاء قد استبان من ذبذبتهم واضطراب أحوالهم من إيمان إلى كفر، ثم من كفر إلى إيمان وهكذا دواليك- أنهم قد فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان وفقه مزاياه وفضائله ومثلهم لا يرجى لهم- بحسب سنن الله فى خليقته- أن يهتدوا إلى الخير ولا أن يسترشدوا إلى نافع ولا أن يسلكوا سبيل الله، فجدير بهم أن يمنع الله عنهم رحمته ورضوانه، ومغفرته وإحسانه، لأن أرواحهم قد دنست، وقلوبهم قد عميت، فلم تكن محلا للمغفرة ولا للرجاء فى ثواب، ولا شك أن المغفرة وهى محو أثر الذنب من النفس إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح الذي يزيل ما علق فى النفس من تلك الآثام كما قال تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود : ١١٤]"[11].

الفوائد:

١-أن الكفر من أعظم مانع يمنع من حصول المغفرة، و لما تكرر منه الكفر بعد الإيمان فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر واستمر على كفره وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة[12].

---

(١) تفسير ابي السعود: ٢٤٣/٢.
(٢)[سورة الشورى : ٢٥].
(٣) معاني القرآن:١٢٠/٢.
(٤) التفسير الميسر:١٠٠.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٦١١٩):ص١٠٩٢/٤.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٥/١.
(٧) معاني القرآن:١٢٠/٢.
(٨) تفسير الطبري:٣١٧/٩.
(٩) تفسير ابن ابي زمنين:٤١٤/١.
(١٠) تفسير البغوي:٣٠٠/٢.
(١١) تفسير المراغي:١٨٢/٥.
(١٢) انظر: تفسير السعدي:٢٠٩.

٢-أن مثل هذا التذبذب والاضطراب في الأحوال من الإيمان إلى الكفر، ثم من الكفر إلى الإيمان وهكذا دواليك، أدى إلى فقدان الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان وفقه مزاياه وفضائله، ومثلهم لا يرجى لهم- بحسب سنن الله فى خليقته- أن يهتدوا إلى الخير ولا أن يسترشدوا إلى نافع ولا أن يسلكوا سبيل الله، فجدير بهم أن يمنع الله عنهم رحمته ورضوانه، ومغفرته وإحسانه، لأن أرواحهم قد دنست، وقلوبهم قد عميت، فلم تكن محلا للمغفرة ولا للرجاء فى ثواب[١].

٣-دلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كفرا بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة[٢].

قال السعدي:"وإذا كان هذا الحكم في الكفر فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة"[٣].

القرآن

{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨)} [النساء : ١٣٨]

التفسير:

بشّر -أيها الرسول- المنافقين -وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر- بأن لهم عذابًا موجعًا.

سبب النزول:

قال مقاتل:" ولما نزلت المغفرة للنبي- ﷺ- وللمؤمنين فى سورة الفتح قال عبد الله بن أبي ونفر معه، فما لنا؟ فأنزل الله- عز وجل- :{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ}، يعني: عبد الله بن أبي، ومالك بن دخشم، وجد بن قيس"[٤].

قوله تعالى:{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ} [النساء : ١٣٨]، أي:" أخبر-أيها الرسول- المنافقين -وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر"[٥].

قال ابن كثير:" يعنى أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم"[٦].

قال الزمخشري:" وضع {بشر} مكان: أخبر، تهكما بهم"[٧].

قال الزجاج:" قال: {بشّر}، أي: اجعل في مكان بشارتهم {لَهُمْ العَذَابُ}، العرب تقول: تَحيتكَ الضرْبُ، وعتابك السيف، أي لك - بدلاً من التحية. . هذا، قال الشاعر[٨]:

وَخَيْلٍ قدْ دَلَفْتُ لَها بِخَيْلٍ   تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ"[٩].

قوله: دَلَفْتُ، أي: قَصَدْتُ ، فجعل التحية ضربا[١٠].

---

[١] انظر: تفسير المراغي:١٨٢/٥.

[٢] انظر: تفسير السعدي:٢٠٩.

[٣]تفسير السعدي:٢٠٩.

[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٥/١.

[٥] انظر: تفسير الطبري:٣١٨/٩، والتفسير الميسر:١٠٠.

[٦] تفسير ابن كثير:٤٣٤/٢.

[٧] الكشاف:٥٧٧/١.

[٨] البيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي، كما في: شعره ١٤٩، وقد ورد منسوبًا له في: نوادر أبي زيد: ١٥٠، و"العمدة" لابن رشيق ٢/ ١٠٥٦، و"الممتع في صنعة الشعر" ١٥٩، وأوردته المصادر التالية غير منسوب: "كتاب سيبويه" ٢/ ٢٣٢، و"المقتضب" ٢/ ٢٠، ٤/ ٤١٣، و"الخصائص" ١/ ٣٦٨، و"مفردات ألفاظ القرآن" ١٢٦، ٨٣٥، و"المحرر الوجيز" ٣/ ٣٧٥، و"شرح المفصل" ٢/ ٨٠، و"التصريح" ١/ ٣٥٣، و"خزانة الأدب" ٩/ ٢٥٧، ٢٦٣؛ حيث ذكر نسبته للشاعر ولم يجزم بذلك.

أراد الشاعرُ بـ (الخيل) الأولى: خيل الأعداء، وبالثانية: خيلَه. والخيل -هنا-، يعني بها: الفُرسان. و (دَلَفْتُ): دَنَوْتُ وزَحَفْتُ؛ يقال: (دَلَفَ الشيخ): إذا مَشى مَشْيًا لَيِّنًا. انظر: "خزانة الأدب" ٩/ ٢٦٤.

[٩] معاني القرآن:١٢٠/٢.

[١٠] انظر: معاني القرآن للأخفش:١٣٤/١.

قال الماتريدي:" البشارة المطلقة المرسلة لا تكون إلا بالخير خاصة، وأما إذا كانت مقيدة مفسرة فإنها تجوز في الشر؛ كقوله - تعالى -: {بشر المنافقين بأن لهم} كذا، وكذلك قوله - تعالى -: { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران : ٢١، التوبة:٣٤، الانشقاق:٢٤] ، وفي القرآن كثير، ما ذكرها في الشر إلا مفسرة مقيدة"[١].

قوله تعالى:{بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء : ١٣٨]، أي:" بأن لهم عذابًا موجعًا"[٢].

قال الطبري:" وذلك عذاب جهنم"[٣].

قال مقاتل:" يعني: وجيعا"[٤].

قال الزجاج:" معنى «أليم»: موجع"[٥].

قال ابو العالية:"الأليم الموجع في القرآن كله"[٦]. قال ابن ابي حاتم:" وكذلك فسره ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك بن مزاحم، وقتادة، وأبو مالك، وأبو عمران الجوفي، ومقاتل بن حيان"[٧].

وكذلك فسره ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك بن مزاحم، وقتادة، وأبو مالك، وأبو عمران الجوفي، ومقاتل بن حيان.

قال الطبري:" يعني : بأن لهم يوم القيامة من الله على نفاقهم {عذابًا أليمًا}، وهو المُوجع ، وذلك عذاب جهنم"[٨].

الفوائد:

١-أن الآية تبشر الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، بأقبح بشارة وأسوئها، وهو العذاب الأليم.

٢- أن سبب بشارة المنافقين بالعذاب الموجع، هو محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم، وتركهم لموالاة المؤمنين.

٣-ومن **الفوائد:** أن النفاق يكون على قسمين[٩]:

أحدهما: النفاق العملي(نفاق الاصغر)، وهو من كبائر الذنوب، فمن صوره كما هو مذكور في حديث الرسول-ﷺ-: «علامة المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»[١٠].

والثاني: النفاق الاعتقادي(نفاق الاكبر): وهو أن يبطن الشخص الكفر في قلبه ويظهر الإسلام.

القرآن

{الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)} [النساء : ١٣٩]

التفسير:

الذين يوالون الكافرين، ويتخذونهم أعوانًا لهم، ويتركون ولاية المؤمنين، ولا يرغبون في مودتهم. أيطلبون بذلك النصرة والمنعة عند الكافرين؟ إنهم لا يملكون ذلك، فالنصرة والعزة والقوة جميعها لله تعالى وحده.

---

[١] تفسير الماتريدي:٣/٣٩٠.
[٢] التفسير الميسر:١٠٠.
[٣] تفسير الطبري:٩/٣١٨.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤١٥.
[٥] معاني القرآن:٢/١٢٠.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٢٠):ص٤/١٠٩٢.
[٧] تفسير ابن ابي حاتم٤/١٠٩٢.
[٨] تفسير الطبري:٩/٣١٨.
[٩] انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١١/ ١٤٠ - ١٤٥.
[١٠] صحيح البخاري: كتاب الإيمان، حديث رقم ٣٣ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، حديث رقم ١٢٤.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء : ١٣٩]، أي:" الذين يوالون الكافرين، ويتخذونهم أعوانًا لهم، ويتركون ولاية المؤمنين، ولا يرغبون في مودتهم"[١].

قال مقاتل:" وذلك أن المنافقين قالوا لا يتم أمر محمد، فتابعوا اليهود وتولوهم"[٢].

قال الزمخشري:"هم الذين كانوا يمايلون الكفرة ويوالونهم ويقول بعضهم لبعض: لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود"[٣].

قال ابن كثير:" وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة ، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ، ويقولون لهم إذا خلوا بهم : إنما نحن معكم ، إنما نحن مستهزئون. أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة"[٤].

قال ابن عباس:" نهى الله تعالى المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم ويخالفونهم في الدين"[٥].

عن السدي قوله: "{أولياء من دون المؤمنين}، أما أولياء، فنواليهم في دينهم ونظهرهم على عورة المؤمنين"[٦].

قال ابن عطية:" نصّ تعالى في صفة المنافقين على أشدها ضررا على المؤمنين، وهي موالاتهم الكفار واطراحهم المؤمنين، ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة أو جهالة أو مسامحة"[٧].

قوله تعالى:{أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ} [النساء : ١٣٩]، أي:" أيطلبون بذلك النصرة والمنعة عند الكافرين؟"[٨].

قال مقاتل:" يعني المنعة، وذلك أن اليهود أعانوا مشركي العرب على قتال النبي- صلى الله عليه وسلم- ليتعززوا بذلك فقال- سبحانه- {أيبتغون عندهم العزة}، يقول: أيبتغي المنافقون عند اليهود المنعة"[٩].

قال الزجاج:" أي: أيبْتَغِي المنافقون عند الكافرين العزة"[١٠].

قوله تعالى:{فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء : ١٣٩]، أي:" فالنصرة والعزة والقوة جميعها لله تعالى وحده"[١١].

قال الزمخشري:" يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم"[١٢].

قال مقاتل:" يقول: جميع من يتعزز فإنما هو بإذن الله"[١٣].

قال الطبري:" يقول : فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاءَ العزة عندهم ، هم الأذلاء الأقِلاء ، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين ، فيلتمسوا العزَّة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة ، الذي يُعِزّ من يشاء ويذل من يشاء ، فيعزُّهم ويمنعهم ؟"[١٤].

قال ابن كثير:" أخبر تعالى بأن العزة كلها لله وحده لا شريك له ، ولمن جعلها له. كما قال في الآية الأخرى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا } [فاطر : ١٠] ، وقال تعالى : {

---

[١] التفسير الميسر:١٠٠.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٥/١.
[٣] الكشاف:٥٧٧/١.
[٤] تفسير ابن كثير:٤٣٥/٢.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٢١):ص١٠٩٢/٤.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٢٢):ص١٠٩٢/٤.
[٧] المحرر الوجيز:١٢٥/٢.
[٨] التفسير الميسر:١٠٠.
[٩] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٥/١.
[١٠] معاني القرآن:١٢٠/٢.
[١١] التفسير الميسر:١٠٠.
[١٢] الكشاف:٥٧٧/١.
[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٥/١.
[١٤] تفسير الطبري:٣١٩/٩.

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ } [المنافقون : ٨]، والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله ، والالتجاء إلى عبوديته ، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد"[١].

قال ابن عطية:" وقف تعالى على جهة التوبيخ على مقصدهم في ذلك، أهو طلب العزة والاستكثار بهم أي ليس الأمر كذلك بل العزة كلها لله يؤتيها من يشاء، وقد وعد بها المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين"[٢].

عن أبي ريحانه أن النبي ﷺ قال : "من انتسب إلى تسعة آباء كفار ، يريد بهم عزًّا وفخرًا ، فهو عاشرهم في النار"[٣].

وأصل «العزة» :الشدة. ومنه قيل للأرض الصلبة الشديدة :عَزَاز، وقيل : قد استُعِزَّ على المريض: إذا اشتدَّ مرضه وكاد يُشفي. ويقال : تعزز اللحمُ، إذا اشتد. ومنه قيل : عزّ عليّ أن يكون كذا وكذا، بمعنى : اشتد عليَّ[٤]، فتأويل «العزة»: الغَلَبَةُ والشدة التي لا يتعلق بها إذلال، قالت الخنساءَ:

كأن لم يكونوا حمىً يُتَقَى   إذ الناسُ إذ ذاك من عزٍّ بزَّا[٥]

أي: من قوى وغلب سلب.

ويقال: قد استعِز على المريض إذا اشتد وجَعَه، وكذلك قول الناس: يَعِزُّ علي أن تَفْعل، أي يشتد، فأما قولهم قد عَزَّ الشيء إذا لم يوجد فتأويله قد اشتد وجوده أي صعب أن يُوجَدَ، والمآب، واحدٌ[٦].

الفوائد:

١- حرمة اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

٢- الباعث للناس على اتخاذ الكافرين أولياء هو الرغبة في العزة ورفع المذلة وهذا باطل، فالعزة لله ولا تطلب إلا منه تعالى بالإيمان واتباع منهجه.

القرآن

{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)} [النساء : ١٤٠]

التفسير:

وقد نزل عليكم -أيها المؤمنون- في كتاب ربكم أنه إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها فلا تجلسوا مع الكافرين والمستهزئين، إلا إذا أخذوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بآيات الله. إنكم إذا جالستموهم، وهم على ما هم عليه، فأنتم مثلهم؛ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها. إن الله تعالى جامع المنافقين والكافرين في نار جهنم جميعًا، يلْقَون فيها سوء العذاب.

سبب النزول:

قال مقاتل:"كان المنافقون يستهزءون بالقرآن، فأنزل الله- عز وجل- بالمدينة:{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ}، يعني: فى سورة «الأنعام» بمكة[٧]، {أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}"[٨].

---

[١] تفسير ابن كثير:٤٣٥/٢.

[٢] المحرر الوجيز:١٢٥/٢.

[٣] أخرجه احمد في المسند (١٣٣/٤) قال الهيثمي في المجمع (٨٥/٨) : "رجال أحمد ثقات".

[٤] انظر: تفسير الطبري:٣١٩/٩، ومعاني القرآن للزجاج:١٢١/٢.

[٥]ديوان الخنساء، ص٥٩، في «اللسان» البز: السلب، ومنه قولهم في المثل: من عز بز، معناه: من غلب سلب.

[٦] انظر: معاني القرآن للزجاج:١٢١/٢.

[٧]يشير للآية: ٦٨ من سورة الأنعام، وهي: {وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٥/١.

قوله تعالى:{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [النساء : ١٤٠]، أي:" وقد نزل عليكم -أيها المؤمنون- في كتاب ربكم"[١].

عن مقاتل بن حيان، قوله: "{وقد نزل عليكم في الكتاب}، قال: في سورة الأنعام بمكة"[٢].

وكلهم قرأ:{وقد نزل عليكم} مضمومة النون، غير عاصم فإنه قرأ: {وقد نزل عليكم} مفتوحة النون مشددة الزاى[٣].

قوله تعالى:{أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ} [النساء : ١٤٠]، أي:" أنه إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها"[٤].

قوله تعالى:{فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [النساء : ١٤٠]، أي:"فلا تجلسوا مع الكافرين والمستهزئين، إلا إذا أخذوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بآيات الله"[٥].

قال الجصاص:" فيه نهي عن مجالسة من يظهر الكفر والاستهزاء بآيات الله"[٦].

أنبأ العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي عن أبي وائل، قال: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الكذب ليضحك بها القوم، فيسخط الله عليه، فذكرت ذلك لإبراهيم، النخعي فقال: صدق، أليس الله تعالى يقول: {إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره}"[٧].

ويحتمل{حتى}، في قوله تعالى:{فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [النساء : ١٤٠]، معنيين[٨]:

أحدهما: أنها تصير غاية لحظر القعود معهم حتى إذا تركوا إظهار الكفر والاستهزاء بآيات الله زال الحظر عن مجالستهم.

والثاني: أنهم كانوا إذا رأوا هؤلاء أظهروا الكفر والاستهزاء بآيات الله، فقال: لا تقعدوا معهم لئلا يظهروا ذلك ويزدادوا كفرا واستهزاء بمجالستكم لهم.

قال الجصاص:"والأول أظهر"[٩].

قوله تعالى:{إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [النساء : ١٤٠]، أي:" إنكم إذا جالستموهم، وهم على ما هم عليه، فأنتم مثلهم"[١٠].

قال مقاتل بن حيان:" إن قعدتم ورضيتم بخوضهم واستهزائهم بالقرآن، فـ{إنكم إذا مثلهم}"[١١].

قال الزجاج:" أي إنكم إذا جالستموهم على الخوض في كتاب اللَّه بالهزؤ فأنتم مِثْلُهُمْ"[١٢].

قال ابن كثير:"أي:إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها ، وأقررتموهم على ذلك ، فقد شاركتموهم

---

[١] التفسير الميسر:١٠٠.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٢٣):ص١٠٩٢/٤.
[٣] انظر: السبعة:٢٣٩.
[٤] التفسير الميسر:١٠٠.
[٥] التفسير الميسر:١٠٠.
[٦] أحكام القرآن:٣٦٢/٢.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٢٦):ص١٠٩٣/٩.
[٨] انظر: أحكام القرآن للجصاص:٣٦٢/٢.
[٩] أحكام القرآن:٣٦٢/٢.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٠.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٢٨):ص١٠٩٣/٤.
[١٢] معاني القرآن:١٢١/٢.

في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى:{ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ}، أي: في المأثم ، كما جاء في الحديث : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدَار عليها الخَمْر"[١].

قال السمرقندي:" يعني: لو جلستم معهم كنتم معهم في الوزر، وفي هذه الآية دليل أن من جلس في مجلس المعصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها، فإن لم يقدر بأن ينكر عليهم ينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية"[٢].

قال القرطبي:" فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية...وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي، فتجنب أهل البدع والأهواء أولى"[٣].

ويحتمل قوله تعالى:{إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [النساء : ١٤٠]، وجهين[٤]:

أحدهما: في العصيان وإن لم تبلغ معصيتهم منزلة الكفر.

والثاني: أنكم مثلهم في الرضا بحالهم في ظاهر أمركم، والرضا بالكفر والاستهزاء بآيات الله تعالى كفر، ولكن من قعد معهم ساخطا لتلك الحال منهم لم يكفر، وإن كان غير موسع عليه في القعود معهم.

قال البغوي:" أي: إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزئون ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم، وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة"[٥].

وقال الحسن: "لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره، لقوله تعالى: {وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين}"[٦].

والأكثرون على القول الأول. وآية الأنعام مكية وهذه مدنية، والمتأخر أولى [٧].

عن هشام ابن عروة، "أن عمر بن عبد العزيز أخذ قوما يشربون فضربهم وفيهم رجل صالح فقيل إنه صائم، فتلا: {فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا}"[٨].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء : ١٤٠]، أي:" إن الله تعالى جامع المنافقين والكافرين في نار جهنم جميعًا"[٩].

قال مقاتل بن حيان:" إن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والمشركين من أهل مكة، الذين خاضوا واستهزءوا بالقرآن في جهنم جميعا"[١٠].

قال السمرقندي:" يعني: إذا ماتوا على كفرهم ونفاقهم، فبدأ بالمنافقين لأنهم شر من الكفار، وجعل مأواهم جميعا النار"[١١].

قال ابن كثير:" أي : كما أشركوهم في الكفر ، كذلك شارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبدا ، وجمع بينهم في دار العقوبة والنكال ، والقيود والأغلال. وشراب الحميم والغِسْلين لا الزّلال"[١٢].

---

[١] تفسير ابن كثير:٤٣٥/٢.
[٢] بحر العلوم:٣٤٩/١.
[٣] .تفسير القرطبي:٤١٨/٥
[٤] انظر: أحكام القرآن للجصاص:٣٦٢/٢.
[٥] تفسير البغوي:٣٠١/٢.
[٦] تفسير البغوي:٣٠١/٢.
[٧] انظر: تفسير البغوي:٣٠١/٢.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٢٧):ص١٠٩٣/٤.
[٩] التفسير الميسر:١٠٠.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٢٩):ص١٠٩٤/٤.
[١١] بحر العلوم:٣٤٩/١.
[١٢] تفسير ابن كثير:٤٣٦/٢.

قال الصابوني:" لأن المرء مع من أحب، وهذا الوعيد منه تعالى للتحذير من مخالطتهم ومجالستهم"[١].

عن مقاتل بن حيان قوله:"{ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ}، فنسخت هذه الآية التي في «الأنعام»[٢]، فكان هذا الذي أنزل بالمدينة، وخوفهم فقال: إن قعدتم ورضيتم بخوضهم واستهزائهم بالقرآن فـ{إنكم إذا مثلهم}"[٣].

وفي رواية الكلبي: "قوله تعالى: { فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}، نسخ بقوله عز وجل: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام : ٦٩] "[٤].

وقال عامة المفسرين: "إنها محكمة وليست بمنسوخة"[٥].

وروى جويبر عن الضحاك أنه قال: "دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة"[٦].

الفوائد:

١-حرمة مجالسة أهل الباطل إذا كانوا يخوضون في آيات الله نقداً واستهزاء وسخرية.

٢- الرضا بالكفر كفر، والرضا بالإثم إثم.

٣-ومن من فوائد الآية: وجوب إنكار المنكر على فاعله، وأن من إنكاره إظهار الكراهة إذا لم يمكنه إزالته وترك مجالسة فاعله والقيام عنه حتى ينتهي ويصير إلى حال غيرها[٧].

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء العاشر من التفسير ويليه الجزء الحادي عشر بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (١٤١) من سورة «النساء».

---

[١] صفوة التفاسير:٢٨٧.

[٢] وهي:{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام : ٦٨].

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٢٥):ص١٠٩٣/٤.

[٤] بحر العلوم:٣٤٩/١، وانظر: تفسير القرطبي:٤١٨/٥.

[٥] بحر العلوم:٣٤٩/١، وانظر: تفسير القرطبي:٤١٨/٥.

[٦] بحر العلوم:٣٤٩/١، ونسبه البغي الى ابن عباس من كريق الضحاك، انظرك تفسير البغوي:٣٠١/٢.

[٧] انظر: أحكام القرآن للجصاص:٣٦٢/٣-٣٦٣.